



لِدَرْكِهِ شَوَّقَ ضَيْفَهُ

# عَمَّزَ الرُّولَهُ وَلَهُمَا رَاتِهُ

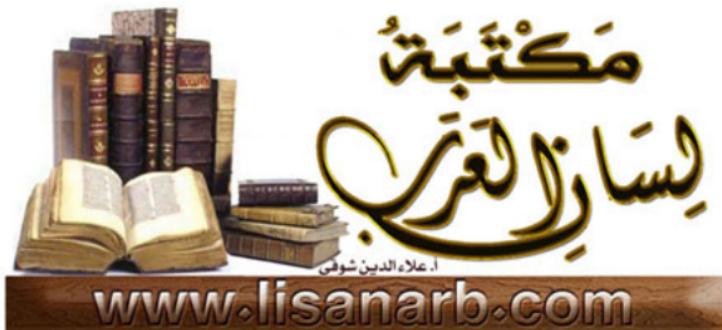
ليبيا - تونس - مقلية



تَارِيخُ  
الْأَدَبِ  
الْعَرَبِ

٩

مَكْتبَةُ لِسانِ الْعَرَبِ



عصر  
الدول والامارات  
ليبيا - تونس - صقلية



تاریخ  
الاَدْبُ الْعَرَبِيُّ  
٩

عصر  
الدوَلُ وَالامَارات  
لِيَبْرِيَا - تُونِسُ - صَقْلِيَّة

تألِيف  
الدكتور شوقى ضيف



دار المعارف



## مكتبة لسان العرب



### منشورات ذوي القربي

■ تاريخ الادب العربي (ج ٩)	■ اسم الكتاب :
■ شوقي الضيف	■ المؤلف :
■ ذوي القربي	■ الناشر :
■ الأولى	■ الطبعة :
■ ١٤٢٨	■ تاريخ الطبع :
■ نسخة ١٠٠٠	■ الكمية :
■ ستاره	■ المطبعة :
■ ٩٧٨ - ٩٦٤ - ٥١٨ - ١٩٢ - ٣	■ شبابك ج ٩ :

مركز التوزيع : قم - ياساز قدس - الطابق الأول - رقم ٥٩ - تليفون: ٩٨٢٥١٧٧٤٤٦٦٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مُهَدَّمة

١

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي قبل العصر الحديث خاص بليبيا وتونس وصقلية، وقد بدأته بليبيا، فتتحدث عن جغرافيتها ومناطقها: طرابلس وفزان وبرقة، وعن زروعها وصناعاتها وتجارتها وموانئها، كما تتحدث عن تاريخها القديم وفتح العرب لها، وسطوع شمس الإسلام بديارها، وعن ولاتها أيام الأمويين والعباسيين وتبعة ولاية طرابلس وقسمها الغربي للدولة الأغليبية، وتبعة برقة وقسمها الشرقي لوالى مصر، وتبعتها معاً للدولة العبيدية الفاطمية في المهدية والقاهرة، وتسترجع الدولة الصنهاجية في القبروان وطرابلس، ويؤسس بها لنحو نصف قرن بنو خزرون إمارة لهم، وتختكس ليبيا المجرة الأغاربية الكبرى في منتصف القرن الخامس المجري، وتتبع برقة مصر في أيام الأيوبيين والممالئك، بينما تتبع طرابلس الدولة الحفصية في تونس، وتتأسس بها دولة بنى عمار في القرن الثامن المجري (٧٢٤ - ٨٠٣ هـ) وتسترجعها الدولة الحفصية، ويستولى عليها فرديناند ملك إسبانيا سنة ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م ويسلّمها بعده شارل الخامس إلى فرسان مالطة سنة ٩٣٦ هـ / ١٥٢٠ م وبطردهم منها الأسطول العثماني سنة ٩٥٨ هـ / ١٥٥١ م، وتصبح ولاية عثمانية وبنوها دايات مختلفون حتى إذا ولها أحد الفرمانى سنة ١١٢٣ هـ / ١٧٩٥ م جعلها وراثية في أبنائه. وفي سنة ١٢٥١ هـ / ١٨٣٥ م استردتها الدولة العثمانية من الأسرة وحوّلتها من إيلالة إلى ولاية، وبذلك تبدأ ليبيا عصرها الحديث.

وقد سكن ليبيا - من قديم - سلالات من البربر، ويقسمها السابيون إلى برانس، وهو المضر أهل المدن، وبترورهم الرحل أهل الهضاب والصحاري، ونزلها قديماً الفينيقيون والإغريق والروماني وبعض اليهود والزنوج، ثم نزلاها العرب ومن تألفت منهم جيوشهم من أهل إيران والراق والشام ومصر، وهاجر إليها أندلسيون كثيرون بين القرنين السابع والحادي عشر للهجرة، ونزلتها حاميات تركية في العهد الشماني، وألقى إليها القرادنة بعض أسرابهم المسيحيين، وأسلم منهم كثيرون. وكل هذه العناصر انصرفت في البوتقة الليبية وظل العنصر

اللبي البربرى - مع ما حدث له من بعض التطور - هو المنصر الفالب على كل المناصر الواقفة على دياره. ومن قديم كانت التجارة رائجة رواجاً كبيراً في برقة وطرابلس، مما جعل الإغريق يحتلون الأولى ويزوّسون بها مدنًا تجارية متعددة، كما جعل الفينيقيين والرومان يحتلون - بدورهم - طرابلس. وكان الساحل الشمالي يمر بعسايد الأسماك فيه، وكان ما وراءه من المدن والسهول والوديان يكتظ بأشجار الزيتون والنخيل والفواكه والزروع والمحبوب، وكانت الواحات بالنخيل وأنواع التمور والفواكه، وأسفلات المضاب والصحاري يمْرُّ على الأغنام والأنعام. وتلقى بصناعات يدوية كثيرة وخاصة صناعة النسيج والزجاج وعصر الزيت ودبّع الجلود وقطع الرخام: طيبات كثيرة من الرزق. وكان البربر وتنين وزيل بديارهم اليهود وكانت لهم بطرابلس حارة خاصة بهم، واستجواب بعض أهل المدن في عهد الرومان وبهزيمة للمسيحية، وكان بينهم أرنوذاكس يتبعون كنيسة القبط في الإسكندرية وكانت ليك يتبعون كنيسة روما البابوية. وما إن نزل الإسلام لليبيا حتى أسرعت جاهيرها إلى اعتناقها، وأثرت دانيا مذهب مالك السقى واعتنق المذهب الإباضي جبل نفوسة وبعض أهل طرابلس. ومعلوم أن الدولة العثمانية كانت تعمل على إشاعة مذهب الإمام أبي حنيفة في الولايات التابعة لها، غير أن مذهب مالك ظلل في ليبيا - مثل جميع بلاد المغرب - هو المذهب العام للجماهير الليبية. وقد نزع كثير من أهل ليبيا إلى الزهد، وشاعت بينهم في المحب المتأخرة الطرق الصوفية السنّية.

وأخذت المركبة العلمية تنشط في ليبيا منذ الفتح، إذ لم يكن الفاتحون غزاة يبتغون المatum، إنما كانوا مجاهدين في سبيل الله يبتغون نشر دينه في أرجاء الأرض، ولذلك كانوا بمجرد الفراغ من الفتح يتعمّلون معلمين يهدون أهل الشعوب المفتوحة للإسلام وتعاليمه مع تحفيظهم لبعض آياتٍ وسورٍ من الذكر الحكيم، وسرعان ما كانوا ينشئون لهم الكاتيب - كما حدث في طرابلس - يعلّموهم فيها مبادئ القراءة والكتابة وحفظهم القرآن ويرشّوهم إلى تعليم الإسلام. وأخذت حلقات العلماء تكثر في المساجد بالمدن والقرى، وبالتدريج أخذوا يعنون بتقديمه الناس في الدين وتعريفهم بالمرتبة وقواعدها السديدة في النطق والتعبير. ولم يلبث أن رحل إلى الشرق بعض الليبيين في طلب العلم، واشتهر في كل مدينة لبيبة بعض العلماء، وظهر في كل علم أئمة كبار، وفتحت العلوم اللغوية والإسلامية. ودار الزمن دورات، وازدهرت تلك العلوم في عهد الدولة الخصصية وساعد على ازدهارها نشوء المدارس والزوايا، وأخذت المركبة العلمية في المعهد الشمامي، أو بعبارة أدق أصابها شيء من الركود.

وإذا أخذنا نراجع العلوم والعلماء على مر الزمن لاحظنا أن ليبيا لم تعرف بنشاط في علوم الأوائل ولكنها عرفت ذلك في العلوم اللغوية والدينية، إذ لمع فيها - طوال القرون الإسلامية - علماء مختلفون مثل الأجدابي اللغوي في القرن الخامس الهجري ومؤمن بن فرج

المقري؟ في نفس القرن الخامس والمقرئ على بن عبد الحميد الموسجي في القرن العاشر وفي التفسير المزروبي في نفس القرن العاشر. ونبغ في المفاظ المحدثين أسرة أحد بن صالح العجل في القرن الثالث وأبن ذكره وأحد بن نصر الداودي في القرن الرابع وأبن عبيد في القرن السادس، ولع في الفقه السقى موسى بن عبد الرحمن القطان في القرن الثالث وأبن المنبر في القرن الخامس وعمران بن موسى في القرن السابع والزليطني في القرن التاسع، ومن نبغ في الفقه الإباضي عمروس التفوسى في القرن الثالث، وأحد بن بكر التفوسى مؤسس جماعة العزاية في القرن الخامس وعلى بن يخلف التيمجاري في القرن السادس والمبطة والشماخى في القرن الثامن. وظهر بليبيا بعض المؤرخين.

وقد تعرّبت ليبيا سريعاً للكثرة من نزل بها من القبائل الصرفية ومن الجند الناشرين للإسلام، وأكملت تعرّبها هجرة الأعراب الكبيرة من بن سليم وهي حلال في منتصف القرن الخامس المجري، إذ امتنجت عشرات القبيلتين أو بعبارة أدق من استقرّ منها في ليبيا بأهلها من البربر، وأصبحوا شعباً عربياً كبيراً في تقاليده وعاداته ولباسه ومطاعمه وأفراحه وأحزانه وأخلاقه وشيمه وفروسيته ومرؤته ونجده، وكان طبيعياً أن تنتصر العربية لغة الدين والثقافة أنتاء ذلك على اللغة البربرية انتصاراً ملماساً، ويشهد الرحالة الكبير العبدى لأهل برقة بالفصاحة، ويفكّر أنهم كانوا - حق زمانه - في آخر القرن السابع المجري - لا يزالون يتكلّمون بالفصى بأنفع وأدق مما ينطق بها ويتكلّمها أهل المجاز، ولا تزال لغة برقة - إلى اليوم بشهادة بعض المعاصرين - قريبة قرباً شديداً من أنها الفصى، ولم تحدث في ليبيا نهضة أدبية واسعة قبل عصرها الحديث، ومرجع ذلك - في رأينا - إلى أنه لم ينشأ بها دولة ترعى الأدب والأدباء، ولا نشأ بها ديوان إنشاء يحدث فيها حركة ثقافية أدبية، ولا كان فيها رعاة للشعر يعيشون العطاء للشعراء، ويعلم فيها بآخرة من القرن الثالث المجري شاعر طرابلسى يسمى خليل بن إسحق ويلتحق بمحاشية العبيدين في عاصمتهم مدينة المهدية، ويعلم بها في القرن السابع المجري فتح بن نوح الإباضي وأبن أبي الدنيا وأبن معمر، كما يلمع في المهد الشناقي البُلُول طرابلسى، وله ديوان في المدح النبوى، وألمع شاعر بعده أحد بن عبد الدائم، وتذكر كتب التراجم - من حين إلى آخر - لبعض الكتاب الليبيين رسالة أو مقامة مكتفية بمثل هذه الإشارات دون أن ت تعرضها على القارئ، وكان فتح بن نوح الإباضي ناثراً مجيداً، كما كان شاعراً مجيداً.

وتركتُ ليبيا إلى القطر التونسي قلب إفريقيا النابض، فتححدثت عن جغرافيتها وتاريخها المترافق في القدم وفتح العرب لها واعتقاد أهل الدين الحنيف وعن ولاته الأولين وفي مقدمتهم عقبة بن نافع مؤسس مدينة القيروان وحسان بن النعمان مؤسس مدينة تونس وموسى بن نصیر فاتح الأندلس. ومن أهم ولاتها في القرن الثاني. عبدالرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع المستولى على جزيرة قوشة في البحر المتوسط. ومن ولاتها بعده يزيد بن حاتم الماهي وقد أحدث بها حركة أدبية نشيطة. ولم يلتفت أن تولاه إبراهيم بن الأغلب وجعلها الخليفة هرون الرشيد ورائحة في أبهانه، وافتتحت تلك الدولة صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م ونشرت بها أضواء الإسلام والعروبة كما نشرتها في مالطة بعد فتحها سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م. وخلفها الدولة البيضاء سنة ٢٩٦هـ/٩٧١م وخلفه في الإقليم التونسي الدولة الصنهاجية وظلت تستشعر ولاءها للدولة الفاطمية في القاهرة إلى أن أعلن حاكمها الصنهاجي المعز بن باديس استقلاله عن مصر سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م وقيل بل في سنة ٣٩ أو أربعين، مما جعل الخليفة الفاطمي المستنصر يسلط عليه أعراب بني هلال وسلمي، وكانتوا قد نزلوا شرقى الصعيد وعاثوا فيه فساداً فنزحوا إلى ليبيا وإفريقيا التونسية كجراد منتشر، ونازلوا المعز واضطرب إلى الانحياز إلى مدينة المهدية، واستقل بعض الولاية بعدهم وأقاليمهم. وبذلك شاع في إفريقيا التونسية نظام أمراء الطوائف مثل بني جامع الملاليين في قابس وبني خراسان في تونس. وفي سنة ٥٤٢هـ/١١٤٨م نزل الساحل التونسي ومدينة المهدية روجار الثاني التورمانى وطرد عبد المؤمن الموحدى بعد انتقى عشرة سنة، وعادت في أرجانها فراؤوش وابن قرانتكين وأبنا غانية، وأنقذت البلاد منهم الموحدين والدولة الحفصية، وعاشت لمهد الحفصيين في رخاء وأمن، وحاصرت تونس لويں التاسع وقبر تحت أسوارها، ونهضت البلاد نهضة علمية وأدبية طوال ثلاثة قرون، وأغار عليها شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩٤٢هـ/١٥٣٥م وخلصها منه بعد نحو أربعين عاماً الأسطول العثماني سنة ٩٨١هـ/١٥٧٣م وتبعت الدولة العثمانية، وتولى عليها البايات، ومن خيرهم مراد باي وأسرته، والباي حسين بن علي وأسرته.

ويذكر المجتمع التونسي - بجانب سلالات البربر - بعناصر جنسية كبيرة: فينية وقرطاجية وزنجية ويهودية ورومانية وألمانية من الوندال وبيزنطية وعربية ومن امتزج بهم العرب من إيران والشام ومصر وأيضاً عناصر أندلسية وتركية ومسحية من جلهم القراءنة، وامتزجت هذه العناصر وكانت الشعب التونسي دظل للنصر البربرى فيه الفيلة مع ما حدث

له من صور تطور مختلفة إذ ظل يفرض هويته وشخصيته على كل ما وفده عليه من عناصر. وهذا الإقليم التونسي دانياً لسكانه رخاء واسعاً قدماً وحدياناً من الزروع وأشجار الزيتون والنبيل من الفواكه والصناعات مثل صناعة الزجاج والبلور والمخزف وعصير الزيت والمنسوجات والسجاجيد والوراقه وكل ما يلزم المشات المرمانية من فسيفساء وفنن في الزخرفة وضرائب التجارات من منتجاتها ومنتجاتها ما يرد عليها من إفريقيا السوداء ومن أوروبا إذ كانت سوقاً عالمياً ضخماً. وأهلها ذلك لرفه واسع في الحياة وفي الطعام والملبس ولاحتفالات عظيمة بالأعياد ولاهتمام بالموسيقى والعزف على آلات الطرب والفناء في المضر وعند أهل الوب. وحظيت المرأة في المجتمع التونسي بمكانة كريمه جعلتها تستشعر كرامتها وشخصيتها إلى أقصى حد، كما جعلتها تستشعر حاليتها لوطنها حين تدّهم به الخطوب، مع برهنتها على حصانتها وكياستها السياسية. وكان البربر - قدماً - وتنين وزل بينهم يهود في القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الأول بعده، وحاولوا نشر ديانتهم فيهم ولم يتم لهم إلا القليل. واستولى على ديارهم الرومان وحاولوا - كما حاولت كنيسة الإسكندرية - نشر المسيحية بينهم، وبُنيت بعض كنائس وأسقفيات، واعتنقتها بعض البربر في المدن الشمالية، وظلت عناصر مسيحية - فيها بعد - تنزل البلاد وخاصة من الصقالبة ومن كان يجلبهم القراءنة من البحر المتوسط. والإسلام هو الدين الوحيد الذي عم إفريقيا التونسية بعد الفتح العربي بحيث أصبح دين الأمة التونسية - بل الأمة البربرية جميعاً - لبساطته وغزيره الشعوب من الظلم والاستعباد ومحوه الفوارق الطبقية والاجتماعية بين أفراد الشعوب. وكانت إفريقيا التونسية دانياً سنية، واختارت ذهب مالك الفقهي وعاش بجانبه المذهب الحنفي حتى نهاية القرن الثالث، وعم مذهب مالك بعد ذلك حق إذا كان المهد المعناني عاد المذهب الحنفي معه إلى الظهور، ولم تتبع في إفريقيا التونسية دعوة الإباضية ولا دعوة العبيدين الشيعية. وكفر فيها الزهد والزهاد، كما كثرت الرباطات لحراسة البلاد على السواحل وظل النساك لا يبرحونها، وكثرت بأخره الطرق الصوفية.

ومنذ القرن الأول المجري ينشر الفاتحون في القطر التونسي تعاليم الإسلام وشرعيته السمحاء في معاملة الأمم المفتوحة، بحيث يصبح من أسلم منهم على قدم المساواة مع العرب الفاتح، ويقبل البربر على اعتناق الإسلام، وينشأ جيل من مواليد إفريقيا التونسية من البربر والعرب ينقض انتقاداً على حلقات العلماء في المساجد وأيأخذ كل ما لديهم، ويطلب نفر منه المزيد، فيرحل إلى المشرق للقاء الإمامين الكبيرين أبي حنيفة ومالك، ويحمل مذهبهما إلى العاصمة: القبروان وإلى تونس. وتتنوع في القبروان حركة أدبية ولغوية، وساعد في ازدهار الحركة العلمية بإفريقيا التونسية - على مر المصور - جامع أو جامعة عقبة في القبروان وجامع أو جامعة الزيستونة في تونس وما أنشأه - أيام الحفصيين - من مدارس ومكتبات. ولم يبق علم

إلا عنيت به إفريقيـة التونسـية، ونبـأ بـعلوم الأـوائل فـقد أـسـس لما إـبراهـيم بنـ أحدـ الأـغلـبيـنـ فيـ عـاصـمـتهـ رـقـادـةـ بـجـوارـ القـيرـوانـ مـدـرـسـةـ كـبـرىـ باـسـمـ بـيـتـ الـحـكـمـةـ نـيـعـ فـيـهاـ أـطـيـاءـ عـظـامـ كـانـ هـمـ وـلـتـلـامـيـنـهـ تـأـثـيرـ عـظـيمـ فـيـ الـفـرـقـ، وـيـنـيـغـ فـيـ الـمـهـدـ الصـنـهـاجـيـ فـلـكـيـ كـبـىـرـ كـانـ لـهـ أـثـرـ فـيـ عـلـمـ الـفـلـكـ الـفـرـقـ، وـتـوـسـىـ تـلـكـ الدـلـوـلـ مـدـرـسـةـ فـيـ الـكـيـمـيـاـ، وـتـلـقـىـ فـيـ عـهـدـ الـدـوـلـةـ الـخـفـصـيـ بـكـيـمـيـاـنـ كـبـىـرـ هوـ الـتـيـفـاشـيـ كـمـاـ نـلـقـىـ بـأـطـيـاءـ وـرـيـاضـيـنـ مـخـلـفـيـنـ وـأـيـضاـ بـعـضـ الـجـفـرـافـيـنـ، وـيـتـكـانـرـ الـلـفـيـوـنـ وـالـنـحـوـيـوـنـ فـيـ الـمـهـدـ الصـنـهـاجـيـ وـيـلـمـ مـنـ بـنـيـنـ عـالـمـانـ لـغـوـيـاـنـ كـبـيرـاـنـ هـاـ الـقـرـازـ وـلـهـ مـعـجمـ وـمـؤـلـفـاتـ لـغـوـيـةـ كـثـيـرـ وـعـبـدـ الدـائـمـ بـنـ مـرـزـوقـ حـاـمـلـ شـعـرـ أـبـيـ الـسـلاـمـ الـعـرـىـ إـلـىـ الـقـيرـوانـ وـالـأـنـدـلـسـ كـمـاـ يـلـمـ الـمـصـرـىـ بـمـخـتـارـاـتـهـ الـشـعـرـيـةـ وـالـشـرـيـةـ فـيـ كـتـابـهـ زـهـرـ الـآـدـابـ، وـيـضـعـ أـبـنـ عـصـفـورـ فـيـ الـمـهـدـ الـخـفـصـيـ أـسـاسـاـ قـوـيـةـ لـمـدـرـسـةـ نـحـوـيـةـ تـونـسـيـةـ وـيـقـودـ أـبـنـ رـشـيقـ بـكـاتـهـ: «ـالـعـدـةـ فـيـ صـنـاعـةـ الـشـعـرـ وـنـقـدـهـ»ـ حـرـكـةـ نـقـدـيـةـ وـبـلـاغـيـةـ وـاسـعـةـ لـافـ إـفـرـيقـيـاـنـ الـتـونـسـيـةـ وـحـدـهـاـ بـلـ فـيـ جـيـعـ الـمـغـرـبـ. وـكـانـ عـلـمـ الـقـرـاءـةـ لـلـذـكـرـ الـحـكـمـ نـشـيـطاـ إـلـىـ أـقـصـىـ حدـ، وـنـقـلـ أـبـنـ خـيـرـ وـنـ قـرـامـةـ وـرـشـ الـمـصـرـىـ عـنـ نـافـعـ قـارـيـ الـمـدـيـنـةـ، وـهـىـ الـقـرـاءـةـ الـمـنـتـشـرـةـ فـيـ جـيـعـ بـلـدـاـنـ الـمـغـرـبـ إـلـىـ الـيـوـمـ، وـلـمـ يـلـبـثـ أـنـ ظـهـرـ فـيـ الـقـرـامـاتـ إـمـامـ كـبـىـرـ هوـ مـكـىـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ، وـمـنـ أـعـلـامـ الـقـرـاءـ فـيـ الـمـهـدـ الـخـفـصـيـ الـلـبـيدـيـ وـأـبـنـ بـدـالـ وـفـيـ الـمـهـدـ الـشـمـانـيـ بـاطـاقـ، وـمـنـ أـوـاـئـلـ الـمـفـسـرـيـنـ لـلـذـكـرـ الـحـكـمـ عـكـرـمـةـ مـوـلـ أـبـنـ عـبـاسـ وـعـصـىـ بـنـ سـلـامـ، وـمـنـ كـبـارـ الـمـفـسـرـيـنـ فـيـ الـمـهـدـ الصـنـهـاجـيـ عـلـىـ بـنـ فـضـالـ وـفـيـ الـمـهـدـ الـخـفـصـيـ أـبـنـ بـرـيزـةـ وـفـيـ الـمـهـدـ الـشـمـانـيـ مـحـمـدـ زـيـتونـةـ. وـيـتـكـانـرـ الـمـدـنـوـنـ مـنـذـ الـقـرـنـ الثـانـيـ الـمـجـرـىـ، وـمـنـ أـهـمـهـمـ الـبـهـلـولـ بـنـ رـاشـدـ، وـمـنـ كـبـارـ الـمـدـنـيـنـ الـقـابـسـيـ فـيـ الـقـرـنـ الـرـابـعـ وـالـمـازـرـىـ فـيـ الـقـرـنـ السـادـسـ وـمـحـمـدـ بـنـ عـمـرـ الـأـبـيـ فـيـ الـقـرـنـ النـاسـعـ وـمـحـمـدـ بـنـ بـرـنـازـ فـيـ الـمـهـدـ الـعـتـانـيـ. وـيـتـعـاـيشـ فـيـ الـفـقـهـ الـمـذـهـبـانـ الـخـنـفـيـ وـالـمـالـكـيـ فـيـ الـقـرـنـيـنـ الـثـانـيـ وـالـثـالـثـ، وـمـنـ فـقـهـاءـ الـمـذـهـبـ الـخـنـفـيـ عـبـدـ أـفـهـ وـمـنـ فـقـهـاءـ الـمـذـهـبـ الـمـالـكـيـ عـلـىـ بـنـ زـيـادـ حـاـمـلـ كـتـابـ الـمـوـطـأـ عـنـ مـالـكـ وـسـحـنـونـ الـمـشـهـورـ صـاحـبـ الـمـدـوـنـةـ الـتـىـ حـلـلـهـاـ عـنـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ الـقـاسـمـ فـيـ الـقـسـطـاطـ تـلـيـدـ مـالـكـ. وـمـنـ جـلـةـ الـمـذـهـبـ الـكـيـاـرـ فـيـ الـقـرـنـ الـرـابـعـ أـبـنـ أـبـيـ زـيدـ. وـكـتـبـ لـهـ أـنـ يـسـودـ وـيـعـمـ جـيـعـ بـلـدـاـنـ الـمـغـرـبـ مـنـذـ حـلـ المـعـزـ بـنـ بـادـيـسـ الـصـنـهـاجـيـ الـفـقـهـاءـ وـالـنـاسـ عـلـيـهـ. وـمـنـ أـهـمـ فـقـهـاءـهـ الـمـازـرـىـ الـمـذـكـورـ بـيـنـ الـمـدـنـيـنـ وـأـبـنـ بـرـيزـةـ الـمـذـكـورـ بـيـنـ الـمـفـسـرـيـنـ وـتـلـمـيـدـهـ مـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ السـلـامـ أـسـتـاذـ أـبـنـ خـلـدـوـنـ وـأـبـنـ عـرـفـةـ. وـيـجـعـلـ الـعـمـانـيـوـنـ الـفـتـوـيـ بـيـدـ الـفـقـهـاءـ الـأـحـنـافـ وـلـمـ الـكـلـمـةـ الـمـلـيـاـ فـيـ الـقـضـاءـ وـاـشـتـهـرـ بـيـنـهـمـ غـيـرـ فـقـيـهـ كـمـاـ اـشـتـهـرـ غـيـرـ قـلـيلـ مـنـ فـقـهـاءـ الـمـالـكـيـ مـتـلـلـ مـحـمـدـ الـجـيـجـ وـلـهـ حـاشـيـتـانـ عـلـىـ مـخـتـصـرـ خـلـيلـ فـيـ الـفـقـهـ الـمـالـكـيـ.

وـكـلـ ماـ كـانـ يـدـورـ فـيـ الـشـرـقـ مـنـ جـدـلـ فـيـ الـمـذاـهـبـ الـكـلـامـيـةـ كـانـ يـدـورـ مـثـلـهـ فـيـ الـقـيرـوانـ، وـقـدـ تـبـادـلـواـ طـوـبـلاـ فـيـ مـذاـهـبـ الـخـواـرـجـ وـمـبـادـئـ الـإـرـجـاهـ وـمـاـ تـجـادـلـ فـيـ الـمـعـزلـةـ مـعـ غـيـرـهـمـ فـيـ مـسـائـلـ

القدر وهل القرآن قديم أو حادث مخلوق، والتشبيه على الذات العلية. واشتهد الجدال بين الفرق في جامع عقبة واشتتدت ضوضاؤهم مما اضطر سخنون حين ولـى القضاء إلى تفريـق حلقاتهم فيه وإبطالها، ومن كبار المتكلمين سعيد بن محمد المشهور بـابن المداد وله منازلات ضارية مع دعاة المبـيـدين الشـيـعـة وـدانـيـاـهـوـفـالـالـفـالـبـالـمـنـتـصـرـ. وـشـاعـمـنـقـدـيمـالـمـذـهـبـالـكـلـامـالـأـشـعـرـيـ، وـكـانـتـلـهـالـفـلـلـةـفـيـالـمـصـورـالـتـالـيـةـ.

وازدهرت الكتابات التاريخية مبكرة في القـيرـوانـ عنـ مـفـازـىـ إـفـرـيقـيـاـ وأـخـبـارـهاـ وـحـرـوـبـهاـ وـعـنـ الـدـوـلـةـ الـأـغـلـيـةـ، وـعـنـ بـعـضـ الـمـؤـرـخـينـ بـتـارـيخـ الـدـوـلـةـ الـمـبـيـدـيـةـ وـسـيـرـةـ مـؤـسـسـهـاـ عـبـيدـاـهـ الـمـهـدـيـ، وـنـكـارـتـ الـكـاتـبـةـ عـنـ عـلـمـاءـ إـفـرـيقـيـةـ الـتـوـنـسـيـةـ كـمـ يـلـقـاـنـاـ عـنـدـ أـبـيـ الـسـرـبـ وـالـخـشـنـ، وـلـلـرـقـيقـ الـقـيـرـوـانـ كـتـابـ فـيـ تـارـيخـ إـفـرـيقـيـةـ وـالـمـغـرـبـ، وـلـاـبـنـ رـشـيقـ كـتـابـ نـفـيسـ فـيـ تـرـاجـمـ الـشـرـاءـ بـاسـمـ أـغـوـذـ الزـمـانـ، وـلـلـمـالـكـيـ رـيـاضـ النـفـوسـ فـيـ عـلـمـاءـ إـفـرـيقـيـةـ وـزـاهـدـهـاـ، وـلـلـدـبـاغـ كـتـابـ مـعـالـمـ الـإـيمـانـ فـيـ مـعـرـفـةـ أـهـلـ الـقـيـرـوانـ وـعـلـيـهـ تـعـلـيـقـاتـ لـاـبـنـ نـاجـيـ، وـلـلـجـانـيـ رـحـلـةـ مـشـهـورـةـ تـكـظـنـ بـالـلـهـاءـ وـالـأـدـيـاءـ فـيـ الـبـلـادـ الـتـوـنـسـيـةـ، وـلـيـحـيـيـ بـنـ خـلـدـوـنـ كـتـابـ فـيـ تـارـيخـ بـنـ عـبـدـ الـوـادـ بـتـلـمـسـانـ، وـتـوـرـجـ الـكـاتـبـاتـ الـتـارـيخـيـةـ بـتـارـيخـ بـنـ خـلـدـوـنـ وـمـقـدـمـتـهـ النـفـيـسـةـ وـمـاـ فـيـهـ مـنـ أـخـبـارـ الـبـرـرـ. وـيـكـبـ اـبـنـ الـمـنـتـاقـ عـنـ تـارـيخـ الـدـوـلـةـ الـمـغـرـبـيـةـ وـابـنـ أـبـيـ دـيـنـارـ عـنـ تـارـيخـ إـفـرـيقـيـةـ وـتـوـنـسـ فـيـ كـتـابـهـ الـمـؤـنـسـ وـمـحـمـدـ السـرـاجـ عـنـ الـأـخـبـارـ الـتـوـنـسـيـةـ فـيـ كـتـابـهـ الـمـحـلـ الـتـوـنـسـيـةـ، وـيـتـرـجـمـ حـسـينـ خـوـجـةـ - فـيـ كـتـابـهـ: ذـيـلـ بـشـارـ أـهـلـ الـإـيمـانـ بـفـتوـحـاتـ آـلـ عـثـمـانـ - لـفـقـهـاءـ الـبـلـدـانـ الـكـبـيرـةـ فـيـ حـقـبةـ مـنـ حـقـبـ الـمـهـدـ الـعـنـانـ.

وقد عايشت اللغة البربرية لفتيـنـ مـتـحـضـرـتـينـ: الـفـيـنـيـقـيـةـ وـالـلـاتـيـنـيـةـ قـرـونـاـ طـوـيـلةـ وـلـمـ تـحـولـ إـلـىـ لـغـةـ مـتـحـضـرـةـ هـاـ أـبـعـدـيـتهاـ الـخـاصـةـ وـكـبـهاـ التـارـيخـيـةـ، وـظـلـ مـنـ يـتـحـضـرـ مـنـهـ أـيـامـ الـفـيـنـيـقـيـنـ يـكـتـبـ بـلـفـتـهـمـ، وـبـالـمـثـلـ فـيـ أـيـامـ الـرـوـمـانـ. وـكـانـ كـثـيـرـوـنـ مـنـ الـبـرـبرـ قـبـلـ الـفـتـحـ الـعـرـبـ يـحـسـنـ الـلـاتـيـنـيـةـ نـطـقاـ وـكـاتـبـةـ، وـظـلـتـ بـعـدـ الـفـتـحـ بـقـايـاـ مـنـ ذـلـكـ. وـلـكـنـ سـرـعـانـ مـاـ أـخـذـتـ الـبـرـبرـيـةـ لـغـةـ الـشـعـبـ بـعـدـ الـفـتـحـ وـالـلـاتـيـنـيـةـ لـغـةـ بـعـضـ الـخـاصـةـ تـزـيـلـانـ الـأـسـنـةـ وـتـحـلـ فـيـهـاـ مـحـلـهـاـ الـعـرـبـيـةـ، وـتـظـلـ الـبـرـبرـيـةـ حـيـةـ فـيـ جـزـيـرـةـ جـرـبـةـ وـفـيـ الـبـوـادـيـ وـالـجـبـالـ، حـقـ إـذـاـ كـانـتـ الـهـجـرـةـ الـأـعـرـاـيـةـ الـكـبـرـىـ فـيـ مـنـتـصـفـ الـقـرـنـ الـخـامـسـ الـمـجـرـىـ اـمـتـزـجـ الـبـرـبـرـ وـالـأـعـرـابـ وـكـوـنـوـاـ شـعـبـاـ عـرـبـيـاـ مـكـمـلـ الـعـرـوبـةـ فـيـ الـلـغـةـ وـالـدـيـنـ وـالـمـلـبسـ وـالـمـلـعـمـ وـالـأـخـلـاقـ وـالـعـادـاتـ وـالـأـحـزـانـ وـالـأـفـرـاحـ، وـكـانـ هـزـلـاءـ الـأـعـرـابـ مـنـ بـنـ هـلـلـ وـسـلـيـمـ يـنـطـقـونـ عـرـبـيـةـ فـصـيـحةـ، وـظـلـلـوـنـ يـنـطـقـونـ بـهـاـ حـقـ الـقـرـنـ الـسـابـقـ الـمـجـرـىـ، وـكـانـتـ تـشـيـعـ بـجـانـبـهـاـ عـامـيـةـ فـيـ الـأـسـنـةـ أـهـلـ الـدـنـ، وـأـخـذـ لـسـانـ هـزـلـاءـ الـأـعـرـابـ يـتـأـثـرـ بـهـاـ مـعـ طـولـ الـسـنـينـ، وـيـقـولـ اـبـنـ خـلـدـوـنـ إـنـهـمـ هـجـرـوـاـ الـأـعـرـابـ لـمـصـرـهـ فـيـ الـقـرـنـ الـثـانـيـ الـمـجـرـىـ وـمـعـ ذـلـكـ ظـلـتـ الـفـصـحـيـةـ لـغـةـ الـعـلـومـ وـلـغـةـ الـأـدـبـ الـرـفـيـعـ، وـبـهـ فـيـهـ الـمـاهـجـرـونـ الـأـنـدـلـسـيـوـنـ فـيـ الـقـرـنـيـنـ السـابـقـ وـالـحـادـىـ عـشـرـ رـوـحاـ وـأـنـعـاشـاـ.

ويكثر الشعراء في القطر التونسي منذ منتصف القرن الثاني الهجري بفضل ما أحدثه فيها واليها يزيد بن حاتم المهلبي من حركة أدبية واسعة بما صحبه إليها - ووفد عليه - من الشعراء، وكان إبراهيم بن الأغلب شاعراً، وبالمثل كبير من أهل بيته، فراح في القبروان سوق الشعر وازداد رواجها في عهد الخلفاء العبيدين وكانتوا جميعاً شعراء وأجزلوا مادحיהם في العطاء، وينهض الشعر نهضة عظيمة في عهد المز بن باديس الصنهاجي، وكان ينشر الطابا على مادحيه نثراً ويقال إنهم يلغوا مائة عدداً، وألف ابن رشيق كتابه *أغذوذ الزمان* لعهده وترجم فيه مائة من أغذاذ الشعراء ونابتهم وجميعهم من معاصره. وكان ابنه تيم جواداً مُدحّاً وكان شاعراً وقصده الشعراء من جميع الأفاق: كما قصدوا ابنه يحيى وحفيده علياً وابنه الحسن، ولابن حديس الصقل وأمية بن أبي الصلت الأندلسى في ثلاثة مدافع طنانة سوى من كان يحفّ بهم من شعراء القبروان. ويتنافس حكام المدن بمدح أمراء الطوائف في جمع الشعراء حوصل على نحو ما يصور ذلك المداد الأصبهانى في كتابه *الخريدة*، ومن ذكرهم من شعراء أبي الحملات مدافع أمير مدينة قابس سلام بن فرحان القابسى وهو من الشعراء المجيدين وذكر من شعراء جبارية بن كامل أمير مدينة سوسه التراب السوسي وهو من الشعراء المبدعين، ومن الشعراء الأندلusiون الذين هاجروا إلى الأندلس وأبوالفضل بن النحوى وعبد الله الشقراطسى. ويزدهر الشعر في العهد الحفصى. ويقدّ على مدينة تونس كثير من شعراء الأندلس ويستقرّون فيها ويبيّنون فيها حركة شعرية خصبة مثل ابن الأبار وابن عميرة وحازم القرطاجي وابن القصیر. وأخذ الشعراء يتکاثرون في تونس مثل عنان بن جابر وابن عُریبة ومحمد بن أبي الحسين وابن الشباط وابن السّساط وابن حُسْنَة والشهاب بن المخلوف. ويزاهم منذ القرن الثامن الشعر الشعبي الشّر الفصيح. ويضعف الشعر في أواخر العهد الحفصى وأوائل العهد العثماني، وتبعث فيه هجرة الأندلسين إلى الإقليم التونسي في القرن الحادى عشر المجري غير قليل من النشاط ويسترد حيويته ونصرته في عهد الأسرة الحسينية على لسان أمثال على الغراب ومحمد الورغى و محمد ماضور وتكثر فيه المعارضات الشعرية. ويتکاثر أعلام الشعراء في جميع أغراض الشعر وفنونه منذ الحقب التاريخية الأولى. ومن أعلام المدح على بن محمد الإيادى والكاتب الرقيق وابن رشيق والتّراب السوسي وابن عُریبة وعبد الله التجانى وعلى الغراب والورغى، ومن أعلام الفخر والمجاه تيم بن المز الصنهاجي و محمد الرشيد الحسينى، ويتکاثر شعراء الغزل من أمثال على المحررى وأحمد الليليانى و محمد ماضور ومن شعراء الغربة والشكوى والعتاب ابن عيدون و محمد بن أبي الحسين، ويكثر شعراء الطبيعة من مثل عبد الواحد بن فتوح وابن أبي حديدة وأبي على بن إبراهيم، وبالمثل شعراء الرثاء للأفراد والمدن والدول مثل ابن شرف القبروانى و محمد بن عبد السلام، ومن شعراء الوعظ أحد الصواف وشعراء التصوف عرز بن خلف وأبوالفضل بن النحوى ومن شعراء المدح النبوى

الشُّفَّاطِي وابن السُّمَاطِي المهدوي. ومع كل غرض من هذه الأغراض ما يوضع نشاط الشعاء فيه من الترجمة لتأريخهم وعرض روانع أشعارهم.

ونهض النثر مبكرا في القبروان وتونس على لسان الولاة والقواد وتأسست الدواوين منذ القرن الأول الهجري، ونهض أبو اليسر الشيباني بالكتابة الديوانية لعهد الأغالبة نهضة عظيمة وكُوُن فيها مدرسة، وأصبح لها فيها تقاليد متقدمة، صورها القلقشندي في صبح الأعشى، واحتفظ برسالة ديوانية في العهد الحفصي بلغة بلاغة رائعة. وكترت الرسائل الشخصية منذ القرن الثالث الهجري بين استعطاف وعتاب ومديح وهجاء واستمناح وزعاء، وهي مسجوعة، ودخلتها في المحبوب المتأخرة غير قليل من التكلف. وتنقى بعض مقامات، وهي لا تقوم على أدب متسلول وحيله الكثيرة في جذب السامعين وإثارة عطفهم، وإنما تقوم على موضوعات أدبية يراد بها إظهار التفنن في الكتابة الأدبية. وترجمت ثلاثة من أهم الكتاب، هم أبو اليسر الشيباني رئيس ديوان إنشاء في عهد الأغالبة، وإبراهيم المصري صاحب زهر الآداب، وابن خلدون درة تونس الفريدة

## ٣

وانتقلت إلى جزيرة صقلية، فتحديث عن جغرافيتها و تاريخها القديم وفتح إفريقيا التونسية لها في عهد زيادة أله الأغلبي سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ونشر الدين الحنيف فيها ولقتها العربية وغزو الدولة الأغالبة فيها قلورية جنوب إيطاليا واستمرار استيلانها عليها إلى نهاية أيام الدولة الأغالبة وفتحها لجزيرة مالطة سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م ونشرها للدين الحنيف فيها واللهفة الغربية، ولا تزال إلى اليوم تتكلم لكنة عربية تونسية ودخلت عليها تحريفات كثيرة بحكم طول الزمن وما وقع على لغة مالطة من تأثيرات. وولى للدولة العبيدية على صقلية ولاة حكموها حكما جائز، إلى أن ولبها الحسن بن أبي الحسين الكلبي سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م وظلت وراثية في أبنائه، وحكموها في القرن الرابع حكما سليما، واختلط حكمهم، وساء سوءاً شديداً في القرن الخامس، فثارت صقلية عليهم، واستحال إلى أمراء طوائف وبلدان، وتحارب ابن الثمنة أمير بلزم مع أمير قصريانة، وهزم فاستفات بالتورمان حكام قلورية، فأغارهملهم روجار الأول، وسرعان ما تحولت الاستعامة به إلى الاستيلاء على مدينة بلزم سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢ م وما توافق سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م حتى يكون قد استولى على جميع مدن صقلية. ويدور العام فيستول على جزيرة مالطة سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م. ورأى روجار أن شعب صقلية العربي أكثر حضارة ومدنية من شعبه مع تفوقة عليه في شئون الزراعة والصناعة اليدوية، فأخذ يصانه للإفاده منه وأخذ ما عنده مع التكبيل الفاشم به، وخفف ابنه روجار الثاني وحفيده غليوم الأول

من هذا التكبيل البشع، غير أنه من الخطأ ما يقال من أنها عامل المسلمين في حقلية معاملة عادلة سمعة فإن ذلك إن صدق على تعاملها مع حاشيتها المسلمة في بلرم فإنه لا يصدق على معاملتها العامة للMuslimين في البلدان الأخرى على نحو ما يصور ذلك ابن جبير في رحلته حين زار صقلية أيام غليوم الأول. واستحالات المعاملة السيئة إلى عسف لا يطاق حين استولى على الجزيرة أباطرة الألمان منذ سنة ١١٩٤هـ/٥٩١ م واستغاث أولها بالمستنصر المفتشي، فاتفق سنة ٦٤٩هـ/١٢٤٩ م مع فرديريك الثاني على إجلائهم إلى إفريقية التونسية، فجلوا عنها جبيعاً، وأجل فرديريك من كان بالطئة من المسلمين أو بعبارة أدق أجبرهم على الجلاء عنها إلى مدينة أمالفي (Amalfi) جنوب إيطاليا.

وقد عامل المسلمين - طوال حكمهم لصقلية - أهلها المسيحيين معاملة سمعة كريمة أقصى ما تكون السماحة والكرم، فحافظوا لهم على كنائسهم وقوانينهم الدينية والمدنية. وكان بصفة نلات ولايات كبيرة، ولكل ولاية مساعدون للوالى يسمون قواداً، كما كان لها قضاة عدول وبمجموعة من الدواوين، من أهمها ديوان المحاسبة، وكانت صقلية تزخر بطبيات كثيرة من الرزق، فكان أهلها يعيشون في رخاء واسع بفضل زروعها وصناعاتها الكثيرة، وانتقلت إليها صناعة الورق من القيروان ونقلتها عنها أوروبا، مما أتاح لغوتيرج اختراع الطباعة. وتنتفى في صقلية بنفر من الزهاد أمثال القاضيين ميمون وابن أبي محز وبعض من لهم ميل صوفية مثل أبي القاسم عبدالرحمن بن محمد البكري.

وقد فتح النور من صقلية العربية الإسلامية حرباً وفتحتهم حضارياً، إذ رأوا - هم ولوكهم - سمو العرب المسلمين الحضاري، فحاولوا - بكل ما وسعهم - الإفادة من حضارتهم، وتكلّل روجار الأول بالMuslimين تكليلاً شديداً، وا Pax روجار الثاني أن يدفع ابنه روجار الثان إلى تعلم العربية والإِكَاب على ثقافتها وعلومها، وأخذ الرومان يفدون من نظم المسلمين وتراثهم الإدارية في الجزيرة، وانخدعوا لأنفسهم دواوين على شاكلة الدواوين العربية، واندفعت غليوم الأول مثل أبيه إلى إتقان العربية ومعرفة علومها ودفع النور من معه إلى اقتباس العلوم والفنون وعناصر الحضارة الإسلامية فتحضرها بعد أن كانوا متدينين، وانقسموا في تلك الحضارة، ومع ذلك ظلوا يقسون على المسلمين ومحاولون بكل ما استطاعوا فنتهم في دينهم الحنيف وازيدواظلم والمسف في عهد أباطرة الألمان، مما اضطر من بقي بصفة من المسلمين إلى الجلاء عنها نهائياً.

ونقل العرب إلى صقلية الإسلامية ما كان بالقيروان من حركة علمية، فإذا الشباب فيها يكتب على ما لدى علمائها من علوم دينية ولغوية، ويرحل منهم نفر إلى القيروان والشرق للتزوّد من علمائها، ويرحل إليهم كثير من علماء القيروان لتزويدهم بالعلوم والأداب ونشر

خاصة إلى رحلة ابن رشيق القيرواني بكتابه المحدث في صناعة الشعر ونقده إلى صقلية، مما كان له أثر بعيد في نهضتها الأدبية لمهد الكلبيين وبعدهم، وهاجر إليها كثير من شباب الأندلس وعلمائه للتعلم والتعليم، وبالمثل من علماء الشرق وأدبائه وكتب المشرق ودواوينه. ويقول ابن حوقل إنه كان في مدينة بلرم وحلها أكثر من مائة مسجد وثلاثمائة معلم، مما يدل على أنه كان بها نشاط على واسع، ومثلها بقية المدن . وكان نحو نصف سكانها المسيحيين فتنين : فئة تتكلم الإغريقية، وفئة تتكلم اللاتينية، وربما كان في الفتنتين من يتقن اللغتين جيداً، وكان فيها من يتقن العربية، كما كان بين العرب من يتقن اللاتينية أو الإغريقية، وأهل ذلك للاشتغال بترجمة بعض علوم الأوائل. ويدل على ذلك - من بعض الوجوه - أن الأمير إبراهيم الأغلبي مؤسس بيت المحكمة في عاصمه رقاده بجوار القيروان طلب إلى بعض الرهبان الصقلبيين المتكلمين بالعربية ترجمة بعض المصنفات اللاتينية في العلوم الرياضية، كما يدل عليه طبيب صقل يسمى أبي عبد الله كان يتقن الإغريقية ومعرفة أسماء العقاقير والأدوية رحل إلى الأندلس في زمن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠-٣٠٠ هـ) فضمه إلى من يشتغلون بالترجمة عن الإغريقية إلى العربية كتاب ديوسقوريدوس في الأدوية أو الصيدلة والنباتات، وما يدل على شهرة صقلية حينذاك بالفلسفة وعلوم الأوائل أن نجد بعض متلقيسة الأندلس يهاجرون إليها. وكان بها علماء رياضيون متعددون ومهندسوں كبار بشهادة عماراتها السامقة ومن تردد أسماؤهم منهم في الكتب. ورحل إليها غير لغوی من الأندلس ومن أشهر أبنائها ابن البر وقد أسس بها مدرسة لغوية خصبة، ومن أهم تلاميذه ابن مكي صاحب كتاب تتفيف اللسان في أغلاق الطهاء وغيرهم، وهاجرت إلى صقلية دواوين كبيرة على يده ويد غيره كما هاجرت إليها كتب لغوية وبالغاة ونقدية كبيرة، ونلتقي بغير مقدى للذكر الحكيم مثل محمد بن خراسان الصقلاني وبغير مفسر مثل ابن ظفر وغير حافظ حدث مثل عتiq السنطاري. ويتكاثر بها الفقهاء من قضاة وغير قضاة، ومن أهم فقهائها البراذعى ومحمد بن يونس التميمي وعبد الحق بن محمد القرشى.

وإذا تحولنا مع الثقافة إلى العهد التورماني وجدنا علوم الأوائل تظل ناشطة في صقلية ويعنى روجار الأول بترجمة الثقافة العربية ويتكلف بترجمة عيونها إلى اللاتينية القيروانية في الطب والفلك وغيرها قسطنطيني الإفريقي، و Ashtonert صقلية في هذا المعهد بفلكلين ورياضيين ومهندسين كبار من تلاميذه الأستاذة في المعهد الإسلامي، وألف الإدريسي المغربي المقرب لروجار الثاني كتابين جغرافيين للعلم كبير وصغير وبها خرائط جغرافية مهمة، ووضع له خريطة كبيرة للعالم على كرة ضخمة من الفضة، وكان حرباً بالإدريسي أن يقدم هذه الأعمال الجغرافية الباهرة إلى حاكم عربي لا إلى حاكم نورماني. وتظل العلوم اللغوية ناشطة في المعهد التورماني وتسجل كتب الترجم أسماء غير عالم منهم سوى من بارحوا صقلية فراراً من الظلم

النورمان مثل ابن القطاع الصقل وعثمان بن علي الصقل نزيل مصر وقد رحبت هي وأدبارها وعلماها بهم أيا ترحيب. وهاجر منها في المهد النورمان إمام كبير من آئمة القراءات هو ابن الفحام إلى الإسكندرية ومفسر صقل مهم هو ابن ظفر وفقه كبير بل إمام من آئمة الفقهاء والحفاظ هو المازري.

ويزدهر الشعر بصلة منذ عهد الأسرة الكلبية في القرن الرابع المجري، ولو أن كتاب الدرة الخطيرة لابن القطاع الذي ترجم فيه لمائة وسبعين شاعراً في عهد الكلبيين وصلنا لرأينا بوضوح مدى ازدهار الشعر في أيامهم، وكأنه كان ينافس بهم شعراء الأنفوذ لابن رشيق الذي ترجم فيه لمائة شاعر. وقد وصلتنا منه اختيارات مبشرة لأبي إسحق بن أغلب تشتمل على ثلاثة وأربعين شاعراً واختيارات أخرى لابن منجب الصيرفي المصري تشتمل على تسعه عشر شاعراً وهي منشورة، وأهم من هاتين المجموعتين ما ضمه العداد الأصبهاني في كتابه الخريدة من اختيارات له من الدرة بلغت سبعة وأربعين شاعراً، وأضاف إلى مجموعته شاعراً من كتاب أمية ابن أبي الصلت من شعراء المهد الكلبي ثم ضم إليها اثني عشر شاعراً في العهد النورمانى اختارهم من كتاب لابن بشرون المهدوى يسمى المختار من النظم والنثر لأفضل أهل العصر، وعرضت في إيجال نشاط الشعراء في عهد الأسرة الكلبية وأهم أمرائهم الذين التف حولهم شعراء صقلية والقبروان والجزائر. ثم تحدثت عن موضوعات الشعر الصقل بادنا بالمدح وما نثره شعراء صقلية على الأمراء الكلبيين وعلى المعز بن باديس أمير القبروان وأمراء الطوائف من مدائح بد菊花 وما كان من تعجيز خلفاء هؤلاء الشعراء للملك النورمان مكرهين إذ كانوا أسرى في أيديهم فأشاردوا بقصور روجار الثاني: القبة والمنصورية والفسوارية، وكل ذلك - في رأىي - على أمل أن يفكوا عنهم أغلال الأسر وقيوده، وترجمت لشاعر مهم من شعراء المديح في عهد الكلبيين هو ابن الحباط. وعرضت طائفة من غزليات بد菊花 لشعراء صقلية في عهد الكلبيين والمهد النورمانى، وترجمت لشاعر بارع في نظم الغزل هو أبوالحسن البلنوبى. وتتحدث عن شعر الفخر في عهد الكلبيين مع الترجمة لأبي الحسن الطبعى، وألمت بشعر الوصف وتصوير الشعراء الصقليين للطبيعة الفاتنة وللمغندين والراقصين وترجمت لأبي عبدالقاهر بن الطوبى مع عرض تصاویره البد菊花، وعرضت روانع الشعراء في الرناء مع الترجمة لمحمد بن عيسى ومرانىه وما أودع فيها من لطى نار متقدة، وألمت بما لشعراء صقلية من زهد في متاع الحياة ومناجاة لربهم مع الأمل في عفوه ومحفرته، يوم يؤخذ العاصون بالتوaciis ويسأل كل شخص عما قدمته يداه، مع الترجمة لابن مكى ودعوتة إلى العمل الصالح قبل الموت والخلزة عن الناس، بل حتى عن الزواج وتكوين الأسرة وما يصاحبه من عواصف. وأخر الموضوعات التي عرضتها التفعيع والمعنى واللوحة التي لا تستطى جذوتها أبداً في نفوس المهاجرين من صقلية الذين لم يهاجروا منها طوعاً، وإنما هاجروا قسراً وفراراً من جحيم ظلم

لا يطاق. وقد ترجمت لابن حذيس الذى عاش مفترياً عن وطنه، يتجمع عليه ويتوجمع له وين وحن حنيناً ظالمنا داناً إلى رؤبة عشه وسكنه وكل يوم يأتيه ما يزيده يأساً من لقائه وحرماناً من رؤيته، وحاولت أن أرسم حياته منذ خرج من فردوسه في الرابعة والعشرين من عمره سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م إلى نهاية حياته غريباً في بجاءة، وهو في أثناء ذلك يحاول أن يرسل إلى قومه في صقلية شعلاً من شعره تمحّسهم وتدفعهم دفماً إلى جهاد العدو البااغي. وتسقط في أيدي التورمان سرقوسة مسقط رأسه وقصرياته بعد نضال مستميت امتد سنوات. ويودعها بقصيدة جنائزية تسيل حزناً وألماً ويأساً مريراً، وظل يبكي صقلية طويلاً ويبكي معها راعيه المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية حين نفاه يوسف بن تاشفين إلى أغصان في مراكش، وتعاوذه مراوا ذكرياته في صقلية وينرف الندم عليها حاراً، ويلمع له شيء من الأمل حين ينتصر الحسن بن على بن تميم أمير المهدية على التورمان سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م فيصوب إليهم قذيفة ملتهبة من مدحمة له. وديوانه ضخم وليس فيه هجاء فقد كان أكرم على نفسه من أن يؤذى أحداً إلى وفاته سنة ٥٢٢هـ/١١٣٣م ويكتظ الديوان بكثير من المعان والأخيلة المتكررة. وهو يعد في النزوة الرفيعة من شعراء العرب قاطبة.

وتحدثت عن النثر في صقلية وكتابه البارعين، واحتفظ ابن بشرون المهني فيها عقد من ترجمات لبعض شعراء صقلية برسائل لهم بدبيعة، وترجم ابن بسام في الذخيرة لكاتب بارع من كتابها قبل العصر التورمانى، هو ابن الصاغ، وأفردت له ترجمة، وبالمثل لابن ظفر، وعرضت له كتابين بارعين هما: أبناء نجاء الأبناء، وسلوان المطاع في عدون الأنبياء. وألحقت بالحديث عن صقلية كلمة ابن رحلة ابن فلاقس الإسكندرى إليها وأشعاره فيها ومداهنه لأعيانها ولغليوم الثاني وبعض قواه من التورمان، وربما اضطر إلى ذلك اضطراراً، وله في راعيه هناك أبي القاسم بن المحجر كتاب سمى: «الزهر الباس» ضمته مداهنه فيه. واقه أسأل أن يلهمني السداد والإخلاص في القول والفكر والعمل وهو حسنى ونعم الوكيل.

شوقي ضيف

القاهرة في ١٥ من أبريل سنة ١٩٩٢ م



القسم الأول

لِيَبْرَّا



# الفصل الأول

## الجغرافية والتاريخ

١

### الجغرافية<sup>(١)</sup>

ليبيا أول أقاليم المغرب المتد عل البحر المتوسط غرباً من مصر إلى المعيط الأطلسي، وتنقسم من قديم إلى ثلاث مناطق: منطقة مجاورة لمصر هي برقة، ومنطقة مجاورة لتونس هي طرابلس، ومنطقة جنوب طرابلس وصحرانها المسماة خلف جبالها هي فزان أو منخفض فزان. وعلى طول البحر المتوسط سهل ساحل يتراوح بين نحو ميل وعشرة أميال أو يزيد قليلاً. ووراء طرابلس سلسلة جبال تسمى نفوسه غرباً ويغرن في الوسط وغريان شرقاً إلى أن تنقطع عند ترهونة في أواسط منطقة طرابلس. وتعود الجبال إلى الظهور في ساحل برقة من قرب بنغازى إلى درنة شرقاً وتسمى الجبل الأخضر. وتترامي وراء جبال طرابلس هضبة صحراءية متسمة بها جبال السوداء، ومنذ واحة غدامس في الغرب تصبح منقطتها ملائمة للجزائر حتى أقصى الجنوب، وتنتقل عنده بجمهورية النيجر. والمفهوم تند إلى ماوراء الساحل والجبال في برقة وهي هناك رملية وترتکز على قواعد صخرية، وفي كثير من جهاتها تصبح أمواجاً متلاطمة من الرمال، وتقى إلى شرق مصر، وتترامي جنوباً حتى تتصل بالسودان في الجنوب الشرقي، وتلاصق تشداد في أقصى الجنوب. ومنطقة فزان في أقصى الجنوب إلى الغرب منخفض شديد الاتساع، وأعنه ذلك من قديم لتكثّر فيه الواحات والوديان. وتتميز ليبيا بكثرة الواحات، وتلقّانا بكثرة في ساحل طرابلس من زواوة في الغرب إلى مصراته في الشرق، وتنتقل بها في

أحمد رزقانه (نشر معهد الدراسات المالية بجامعة الدول العربية) وأطلس تاريخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس (نشر الزهراء للإعلام العربي - القاهرة).

(١) انظر في جغرافية ليبيا ومدى كتاب المغرب في بلاد إفريقيا والمغرب لأبي عبد البكري، ومعجم البلدان لياقوت وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان وكتاب المغرب الكبير لمحمد علي دبور وكتاب محاضرات في جغرافية ليبيا للدكتور إبراهيم

ساحل برقة عند بنغازى ودرنة، وتكثر في الداخل، وتلقانا على حدود مصر واحدة جفوبوب وغيرها واحة أوجلة وواحة جالو وإلى الجنوب واحة كفرة، والواحات كثيرة أيضاً في الصحراء المترامية بمنطقة طرابلس مثل واحة غدامس غرباً وبونجيم شرقاً ومزدة إلى الشمال وغات في أقصى الجنوب، وشمالها شرقى فزان واحة القطرون.

ولذا جاوزنا ساحل ليبيا والجبال ورآه وجدنا المادة الغذائية للأشجار والنباتات قليلة فيها عدا الواحات التي تخلع فيها الصحاري الليبية ثيابها الرملية الصفراء وترتدي حللاً خضراء من حين إلى حين. ومن المؤكد أن في الشمال وفي مناطق قربية منه مساحات كثيرة قابلة للزراعة، غير أن المياه بصفة عامة قليلة، مما يسبب قلة الزروع، وأكثر جهات ليبيا أمطاراً ساحل منطقة طرابلس والجبال ورآهها وساحل برقة من بنغازى إلى درنة وماوراهما من الجبل الأخضر. وتقل الأمطار في خليج سرت وفي المناطق الصحراوية. ويعكّن تلاق قلة الزراعات في ليبيا بتوفير مياه كثيرة لها عن طريق ثلاث وسائل: أولاًها حفر آبار ارتوازية، والمعروف أنه يمكن أن تتعقب في الأرض إلى أكثر من مائة متراً بين الآبار العادمة قلماً تتعقب إلى أكثر من ثلاثة أمتار أو أربعة، وثانيتها تركيب مراوح هوائية على الآبار تديرها الرياح السريعة التي تهب هناك، وثالثة تلك الوسائل إصلاح السدود والصهاريج والقنوات المطحورة التي كانت مبنية زمن الرومان أو محفورة للحفاظ على السيلول المتحدرة من الجبال وعلى أمطار الشتا المتهرمة حول المدن في الشمال وفي الداخل. ومن المؤكد أن الزراعة كانت مزدهرة بليبيا أيام الرومان، إذ كانوا يمدونها مخزناً لغلالهم وحاجتهم من زيت الزيتون. ومن أهم أشجارها - بجانب أشجار الزيتون - أشجار التنجيل، وخاصة في الواحات ويقال إن في واحة غات خمسين نوعاً من البلح الليبي، ومن أشجارها اللوز، وتكثر في الشمال كل أنواع الفضروات والفواكه والكرفون، وتكثر في طرابلس الشمار الحمضية مثل البرتقال والليمون والبيوسفي. وعلى الجبال والمضاب والأجزاء الصحراوية مراع متسعة ترعى بها الإبل والبقر وقطعان الأغنام والخراف، والمعادن بليبيا كثيرة، فبجانب البترول المكتشف حديثاً الكبير ويشغل مساحة واسعة في خليج سرت، ولذلك يسمى خليج الكبريت. ويوجد المرمر في غرب طرابلس وبنغازى ويوجد في الأخيرة الشب والفوسفات، وتشتهر فزان بالنطرون. والملحوظ أن بليبيا معدن كثيرة مثل القصدير والرصاص والزنك والمحديد. والمناخ في ساحل ليبيا مناخ البحر المتوسط المعتدل فيها عدا خليج سرت، فمتناه سفوحها ومصاطبها المختلفة، أما ما وراء الجبال من المضاب والصحاري الداخلية فتشتت فيه الحرارة كلما توغلنا جنوباً حتى تصبح بعض الأنحاء في الصيف أشبه بحمامات عالية الحرارة، فضلاً عما يهب فيها من هب متقد محمل بثلالات ساخنة من التراب والرمل اللافع.

## التاريخ القديم<sup>(١)</sup>

تاريخ Libya المفرق في القديم يختلف باختلاف منطقتها الغربية والشرقية: منطقة طرابلس ومنطقة برقة، والمعروف أن الفينيقيين ارتدوا ساحل طرابلس في القرن الثاني عشر قبل الميلاد بقصد التبادل التجاري مع أهلها الليبيين، وكانوا شعباً ملاحيّاً عريضاً يخترف التجارة، مما جعلهم يجوبون سواحل إفريقيا الشمالية وإسبانيا في القرن المذكور وبعده، وفي أول الأمر كانوا يقعنون بآقامت مؤقتة في أثناء تبادل العروض (السلع) التجارية مع شعوب الأقاليم والمناطق التي نزلوا فيها، ومع الزمن آثروا أن يقيموا لهم مدنًا - أشبه بمستعمرات - ليتخدوا مراكز ثابتة لما يحملون وينقلون من عروض تجارية. وفي تاريخ غير معروف بالضبط هل هو القرن الثامن قبل الميلاد أو قبله أو بعده أقاموا على ساحل طرابلس ثلاث مدن متقاربة، هي طرابلس، وكانتا يسمونها وايات *Vaiat* وحرّتها الرومان فسمّوها *Oea* وأقاموا غربها مدينة صبراته *Sabrata* في موضع المعجلات الحالية وسماها العرب صبرة ومعناها بالفينيقية سوق القمح، وهو اسم يرمي إلى ما استنول إليه المنطقة في عهد الرومان إذ سيجدونها مخزن قمح لهم، وأقام الفينيقيون شرقى *Oea* أو طرابلس مدينة لبدة *Leptis* في موضع مدينة الشمس الحالية.

وهذه المدن الثلاث سماها اليونان *Tripolis* أي المدن الثلاث وأطلق العرب هذا الاسم على *Oea* فأصبح اسمها طرابلس، وسمّيت بها المنطقة جميعها فيها يقابل برقة في المنطقة الشرقية من ليبيا.

سوأقامة الفينيقيين هذه المدن الثلاث الكبيرة تشير بوضوح إلى نقلهم الليبيين نقلة كبرى من

للأستاذ حسن حسن عبد الوهاب وتاريخ الفتح العربي للطاهر الزاوي وأعلام البهان له، والمهل العنبر في تاريخ طرابلس الفرب لأحمد النائب الأنصارى وتاريخ طرابلس الفرب لمحمود ناجي وفتح الفرب للغرب للدكتور حسين مؤنس وتاريخ الغرب الكبير لمحمد عل دبوز وتاريخ لهاها للدكتور إحسان عباس ولبيا بين الماضي والحاضر للدكتور حسن محمود.

(١) انظر في تاريخ Libya عامة فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم والبيان المقرب لابن عذاري وتاريخ إفريقيا والمغرب للرقيق القبرواني (قطعة منه - طبع تونس) وتاريخ ابن خلدون وتاريخ ابن الأثير والمؤنس في تاريخ إفريقيا وتونس لابن أبي دينار ورحلة التجاعي والأزهار الرياضية في آئمة مملوك الإيمانية لسلمان الباروني وكتاب ورقات عن الحضارة العربية بأفريقيا التونسية

حياة التجوال والرعي إلى حياة الاستقرار والزراعة، وبُعْظَّنَ أنهم أدخلوا إلى منطقة طرابلس زراعة الفواكه مثل المخوخ والتين والبرقوق والكرم، والنباتات التي تتنفس الحياة والزعفران والشيح، وبعض الأشجار مثل أشجار اللوز وربما أشجار الزيتون أيضاً. وبذلك بُهْوا في مدن طرابلس نساطاً زراعياً بجانب نشاطهم التجاري. وخلفهم في المنطقة بالقرن الخامس قبل الميلاد أبناء عمومتهم القرطاجيون، واتسعوا بالضربيين من النشاط التجاري والزراعي في طرابلس. وفي عهدهم أخذت تنظم الصلة بين مدن الساحل الطرابلسي الثلاث وبين الواحات الداخلية وغدامس وفزان، بل أخذت القوافل التجارية تتقلقل في قلب إفريقيا وتنتقل من تلك الأتحاء الرقيق والماوج وريش النعام، وبُعْظَنَ أن الواحات المذكورة آنفاً كانت تستشعر الولام للقرطاجيين.

وتتوالى الحقب حتى إذا اصطدم القرطاجيون بالروماني وتمت الفبلة للأخيرين استولوا على طرابلس ومدتها من أيدي القرطاجيين سنة ١٤٦ قبل الميلاد، وفي عهدهم ازداد ازدهار المدين الطرابلسيّة الثلاث ووجهوا حملة إلى غدامس وفزان استولت عليهما، واتسعوا بالنشاط التجاري إلى قلب إفريقيا، وأرسلوا لذلك ثلاثة حلات استكشافية، أولها لكشف مناطق طرابلس الجنوبية، والثانية لكشف أو اكتشاف السودان والثالثة لاكتشاف السودان الغربي. ويبعد أن أسرّاً رومانية كثيرة استوطنت منطقة طرابلس يدل على ذلك مالا يزال إلى اليوم من كثرة الأطلال لمعابد ومحضون وأبراج ومقابر ومقابر ونصب عليها كتابات لاتينية متأكدة، ولا تلتقي بها في المدن الكبرى الثلاث: أربا وصبراته ولبيدة فحسب. بل نجدها أيضاً في أماكن مختلفة على الساحل مثل ترهونة وفي مواضع مختلفة منها إلى طرابلس وأيضاً في الداخل مثل يفرن في المنطقة الجبلية الوسطى إذ على برج بها كتابات لاتينية، ومثل بونجيم إذ في الشمال مهني روماني كبير به كتابة لاتينية نقشت عليه سنة ٢٠١ للميلاد باسم الإمبراطور الروماني سيفيروس سيفيروس Septimus Severus وكان قد ولد ونشأ في مدينة لبدة إحدى المدن الطرابلسيّة الثلاث المذكورة آنفاً، ثم رحل إلى روما ليكمل تعليمه وتطورت به الظروف إلى أن أصبح إمبراطوراً للدولة الرومانية، وقد أعني أهل بلدته الطرابلسيّة: ليدة من الضرائب الحكومية، وتقديرًا منهم لصنيعه كانوا يهدون روما سنويًا كمية وافرة من الزيت، ويقال إنها حين وزّعت على سكان روما بعد وفاته سنة ٢١١ للميلاد كفتهم خمس سنوات. وحين اعتنقت روما المسيحية وعملت على نشرها في الولايات التابعة لها نشرتها أو حاولت نشرها في طرابلس لما كان بها من جالية رومانية كبيرة، وتدل على ذلك بعض الكتابات المطمورة في الأماكن الأثرية الرومانية. وعُنِيت روما عنابة واسعة بازدهار الزراعة في طرابلس إذ كانت تعدّها - كما أشرنا - مخزنها الضخم للفلال ولزيت الزيتون وغير ذلك من الطبيات، وهو ما جعلها تكثر فيها

من القنوات لحمل مياه الأمطار من الجبال كما تكثر من الخزانات والصهاريج والسدود على الوديان لخزن مياه الأمطار وتوزيعها على الزروع. وازدهار الزراعة - حيثند - جعل القرى والبلدان تكتفي في الأنهاء الشمالية من منطقة طرابلس، كما جعل السكان يزدادون بها زيادة كبيرة.

وإذا كان الفينيقيون والقرطاجيون نزلوا طرابلس قدّياً قرروا متعاقبة فإن اليونان هم الذين نزلوا برقة قدّياً على نحو ما يهدتنا هيرودوت في تاريخه، إذ يذكر أن السكان اليونان ازدادوا زيادة كبيرة في إحدى جزر بحر إيجه، فأرسلوا في سنة ٦٥٠ قبل الميلاد بعثة منهم إلى الشاطئ الإفريقي في اتجاه برقة لعلها تجد لهم أراضي صالحة للتروح إليها، ونزلت البعثة في جزيرة بلاتيا بخليج بيه شرقى درنة، وبعد سنوات قليلة نزحوا منها إلى الشاطئ الإفريقي، وأسسوا به مدينة سيرين Cyrene (شحات الحالية) غربى درنة، ثم أسسوا أربع مدن أخرى غرباً منها، هي على الترتيب Appollonise (سوسة الحالية) وBarca (طوكره الحالية) والمرج مع أن المنطقة سمّا باسمها: برقة) Arsimoenoë وBerenice (بنغازى الحالية) وأطلق اليونان على هذه المدن اسم بنيابوليس Pentapolis أي المدن الخمس. وغلب على المنطقة جميعها اسم برقة كما ذكرنا وبالمثل غالب على منطقة ليبيا الغربية اسم طرابلس.

وظلت سيرين تعد مدينة برقة الأولى في عهد اليونان، ولذلك سموا أراضي الساحل حتى بنغازى باسم سيرينياكا. وعلى نحو عنابة الفينيقيين والقرطاجيين والرومان بالتجارة في طرابلس على يها اليونان في سيرينياكا أو برقة مما جعلها تنشط في عهدهم بين مدنها الخمس وبين الواحات الداخلية من جهة، وبينها وبين السودان من جهة ثانية، فكانت التوافل التجارية تسير منحدرة وصادعة بين بنغازى وسيرين في أقصى الشمال وواحات كفرة وأوجلة وفزان، وينتقل بعضها إلى السودان وخاصة إلى دارفور ووادي حاملاً من هناك الرقيق وسنّ الفيل وريش النعام والكركم. وكانت برقة على علاقة حسنة مع مصر، وتوطدت هذه العلاقة بعد موت الإسكندر المقدوني وقيام دولة البطالسة بصرى إذ أصبحت جزءاً من دولتهم مما شُنت تجاراتها مع مصر إما عن طريق شاطئ البحر المتوسط والإسكندرية، وإما عن طريق الصحراء وواحة سيبة. وتدخل برقة في حوزة الرومان سنة ٩٦ قبل الميلاد، وبذلك تصبح ليبيا جميعها شرقاً وغرباً في نطاق دولتهم الرومانية، ولذلك تلتقي فيها الآثار اليونانية بالآثار الرومانية، وتكثر الأولى في سيرين (شحات الحالية) حيث ترى بها أطلال لآلة اليونان ومقارهم ولدرجات مسارحهم، وتلك المدرجات سمة دانياً للليونان في كل بلد أقاموا به، وحاکاهم في ذلك الرومان. وقد ذكر بنتامور الشاعر اليوناني في القصيدة التاسعة من قصائد مدينة سيرين. وأخذت

مكانتها تحيط منذ قضى الإمبراطور الروماني تراجان على توره اليهود بها، وما تصل إلى القرن الثالث الميلادي حتى تصبح أنقاضاً وأثراً بعد عين. وتابعت روما في برقة صنيعها في طرابلس من حيث العناية بالزراعة إذ كانت تدعها جميعاً مخزنين لما يلزمها من الغلال، فحفرت لذلك كثرة من القنوات تُرِى - إلى اليوم - وراء ساحل برقة وقد طمرتها الرمال، كما ترى هناك آثار السدود والمخازن والصهاريج التي أقامها الرومان واليونان بطالسة وغير بطالسة في كل مكان شمالاً، وتحجّب كثرتها عن البصر اليوم الأتربة والرمال التي انهالت عليها عبرَ القرون.

وهذا النشاط الزراعي وما اتصل به من النشاط التجاري أهل برقة قديماً لرخاء جعل المدن - بجانب منها الخمس المارة - تكثر فيها مثل درنة وطبرق، واشتهرت الأخيرة بأن جينيلاً أحد ملوك إسبرطة المشهورين كان يتتخذها دار إقامة له.

وما يوان العقد الرابع من القرن الخامس الميلادي حتى تقزو جموع الواندال الجermanية الشمال الإفريقي وتستقر على ليبيا - كأمواج من جراد - تعمشو تفسد في البلاد لنحو مائة عام، بل تتمُّر وتختفي كل ما شاده الفينيقيون والقرطاجيون والرومانيون في طرابلس وكل ما شاده اليونان والرومانيون في برقة إلى أن تحرّر لهم القائد البيزنطي بليزيز *Béliezire* وكشف غمّتهم عن صدر ليبيا سنة ٥٣٤ للميلاد وأصبحت - من حينئذ - تابعة لبيزنطة. ولا نصل إلى أواخر القرن السادس الميلادي وأوائل السابع حتى نجد إمبراطور بيزنطة يُتبع لليبيا لحاكم الإسكندرية، إذ تذكر المصادر العربية أنه حين فتح عمرو بن العاص لليبيا كانت برقة تتبع هذا الحاكم، بينما كانت طرابلس تتبع حاكم قرطاجنة بافريقيا التونسية المعروف عند العرب باسم جرجير تحريراً لاسمي الحقيقي جرجيوريوس، ويبدو أنه حين رأى عمرو بن العاص يستول على مصر سارع بالاستيلاء على طرابلس ليحوز لنفسه شيئاً من الفنيمة، إذ رأى الدولة البيزنطية توشك على الانهيار.

### ٣

## من الفتح العربي إلى منتصف القرن الخامس المجري

لما أتَى عمرو بن العاص السياسي البعير فتح مصر واستقامت له رأى أن يؤمّن حدودها الغربية ضد الدولة البيزنطية حاكمة الشمال الإفريقي حينذاك، فأعادَ جيشاً في أواخر سنة ٢١ للهجرة ففتح به برقة، إذ استجابت له سريعاً، وأرسل ابن خالته عقبة بن نافع إلى الداخل،

فتح الديار في الصحراء حق وصل إلى زوجة حاضرة فزان، واستسلمت سنة ٢٢ للهجرة. وبعد أن رتب عمرو بن العاص شئون الحكم في برقة أتجه إلى طرابلس ففتحها سنة ٢٣ للهجرة، واستعمل بعض قواده في فتح ما بقى من بلادها وبلدان برقة. وتم ذلك كله في عهد الخليفة العظيم عمر بن الخطاب واستقسم عمرو بن العاص في سنة ٢٣ فتح نفوسه وبذلك عممت ديار ليبية جميعاً أضواء الإسلام. وظل عمرو طوال هذه السنة والستة التالية أو أكثرها ينظم شئونها، وترك لأهلها أن يجمعوا بأنفسهم الجزية والضرائب المفروضة ويؤدوها في الموعد المضروب. وكانت هذه سياسة رشيدة، ولم تفرض ضرائب فادحة كما كان الشأن أيام الدولة البيزنطية، وأحسن البرير في ليبية بتعاليم الإسلام في العدل والمساواة المثل بين من يسلمون منهم وبين العرب، فأقبلوا على الدين الحنيف وأخذ يعتقدون بهم. ويعود عمرو إلى مصر خلفاً وراءه ابن خالته عقبة بن نافع. ويتولى الخلافة بعد عمر عثمان بن عفان، فيولى على مصر عبد الله بن أبي سرح سنة ٢٥ للهجرة وتقلد ليبية لأيامه هادئة حق فتنة عثمان سنة ٢٥ للهجرة، فتضطرب الأمور فيها وفيها وراءها من إفريقية التونسية، ويتوالى عمرو بن العاص مصر ثانية لمهد معاوية. ويعين معاوية برقة وطرابلس وإفريقية وبجعلها ولاية مستقلة ويولى عليها معاوية بن حذبيح السكوف سنة ٤٥ للهجرة، ويولى بيوره رويفع بن ثابت الأنباري على طرابلس، ويترك معه كتبية، ويدور عاماً وقبل بل عامان ويفتح رويفع جزيرة جربة شرقى مدينة قابس. حق إذا كانت سنة ٥٠ للهجرة ولـ معاوية على المغرب جميعه عقبة بن نافع، فرأى بثاقب بصيرته أن يتبع للجيش العربي قاعدة تكون مسكنراً له، فيها ينزل الجيش ويسكنها ويخرج منها لتابعة الفتوح في المغرب، واختار موقعاً في داخل إفريقية التونسية غربي ميناء سوسة على بعد نحو ثلاثين ميلاً من البصر المتوسط، وشيد فيه مدینة وسمّاها القبروان أي المسكن، وجعل حولها سوراً من القرميد، وشيد فيها جامعاً كبيراً، وسرعان ما استحالـت القبروان مدينة ضخمة واستحالـ جامعها جامعة كبيرة، ويعيد عقبة إلى إفريقية المدورة والاستقرار ويقضى على الحكم البيزنطي في الشمال الإفريقي جميعه. وبمجرد إقامته مدینة سنة ٥٥ للهجرة عزل، وتولى المغرب أبو المهاجر، وقد نازل قبيلة أوربة من البرانس وزعيمها كُسيلة في تلمسان ودارت عليها الدوازير، وأسر كسيلة ودخل في الإسلام. وتولى الخلافة يزيد بعد أبيه معاوية، فأعاد إلى المغرب عقبة بن نافع سنة ٦٢ للهجرة، فسار بجيش ضخم اخترق به الجزائر والمغرب الأقصى حتى بلغ المحيط الأطلسي، وكان قد دُبِّخَ كُسيلة زعيم أوربة لما كان من حربه لل المسلمين فأسرها في نفسه، وصم على الانتقام، وفي عودة عقبة بالجيش تأخر عنه في كتبية صغيرة بجبال الأوراس جنوب مدينة بسكرة في الجزائر وكان كسيلة قد جمع من أنصاره جمماً كبيراً، فانتهز الفرصة وهجم على عقبة وصحبه واستشهد البطل العظيم، وأقيم له مسجد ضمْ رفاته، وسميت المنطقة باسمه: سيدى عقبة.

وبنول المغرب حسان بن النعمان (٧١ - ٨٥ هـ) فيبيت الدين الحنيف هناك ويدخل فيه البربر أزواجاً، إذ سُوِّي - حسب تعاليم الإسلام - بين البربر والعرب في كل شيء: في الأعطاب وفي الخراج وفي الجيش فلا فرق بين جند عربي وجند بربرى لا في العاملة ولا في القوى، وغذائهم الفتوح، ولو أن الولاة في القرن الثاني اتبعوا هذه السياسة مع البربر ما انقضوا عليهم ولا شروا السلاح ضدهم كما سترى عما قليل. وأسس حسان مدينة تونس وبني بها دار صناعة متخذًا منها نواة لإنشاء أسطول مغربي عربي لحماية السواحل المغاربية من القراءضة والمغاربة الأوربيين، واستقدم من مصر ألف أسرة قبطية للمساعدة في إنشائه، ونظم إدارة الحكم والدواوين تنظيمًا دقيقاً. وأتم هذا التنظيم بعدة موسى بن نصير والي المغرب الجديد (٩٦ - ٨٥ هـ) إذ جعل المغرب خمس ولايات: ولاية ترقة، وولاية إفريقيا التونسية ومهمها طرابلس، وولاية المغرب الأوسط، وولاية المغرب الأقصى، وولاية السوس أو سجلamasة. وكان يرسل لبرقة وطرابلس عملاً أو لولاة كانوا يُعدون مستقلين في الشؤون الداخلية للمناطق، مع إرسالهم نصباً من الضرائب وبعض الجنود إلى القبروان. وعمل موسى - بكل ما في وسعه - على نشر الدين الحنيف بين البربر بإنشاء في أنحاء المغرب لكتابات كثيرة تحفظ فيها الناشئة القرآن الكريم مع إحسانها لخلافته ومع تعليمها بعض مبادئ الدين الحنيف. وتَمَّ هذا الرسوخ للإسلام في المغرب وأرجاه ليبيا لهـد عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) الخليفة التقى إذ أرسل إلى المغرب عشرة من كبار الفقهاء للعمل على نشر الدين الحنيف هناك، واختار أحدهم وأليـاً على المغرب جميعـه هو إسماعيل بن أبي المهاجر المخزوـمي واستجـاب إليـهم آلاف من البرـبر حتى لمـكن القـول بأنـنا لا نصلـ إلى مـطلع القرـن الثـانـي المـهـجـرـى حتى يـصبحـ المـغربـ جـميعـه دارـاً إـسلامـيـة يـؤـدـيـ فـيهـ الجـمـهـورـ الأـكـبـرـ فـروـضـ الدـينـ الحـنـيفـ.

ولا تعود ليبيا وما وراءها من المغرب تحظى بـوالـ من أمـثالـ ابنـ أبيـ المـهـاجـرـ وـموـسىـ بنـ نـصـيرـ وـحسـانـ بنـ النـعـمـانـ وـعـقـبةـ بنـ نـافـعـ مـنـ ذـوقـهـ عمرـ بنـ عبدـ العـزـيزـ، فـقدـ أـخـذـ يـتـولـ المـغـربـ ولاـةـ سـامـواـ البرـبرـ كـثـيرـاـ مـنـ الـمـسـفـ وـالـظـلـمـ، حـتـىـ إـذـاـ توـلـ عـبـيـدـ اللهـ بنـ الـجـعـابـ المـغـربـ زـادـ الطـنـ بـلـةـ، بـشـدـهـ فـيـ جـيـاـةـ الـأـمـوـالـ مـنـ البرـبرـ وـرـفـضـهـ رـفـضاـ بـاـتـاـ التـسـوـيـةـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ المـرـبـ. وـانتـهـيـ الـفـرـصـةـ دـعـةـ الـخـوارـجـ مـنـ صـفـرـيـةـ وـإـبـاضـيـةـ وـدـعـواـ بـقـوةـ إـلـىـ مـيـادـنـهـمـ فـيـ التـسـوـيـةـ الـمـطـلـقـةـ بـيـنـ الـمـرـبـ وـالـمـوـالـيـ مـنـ بـرـبرـ وـغـيرـ بـرـبرـ فـيـ جـمـيعـ الـحـقـوقـ وـالـشـوـنـ الـمـالـيـةـ، وـحـقـ فـيـ الـخـلـافـةـ نـفـسـهـاـ فـلاـ تـقـصـرـ عـلـىـ قـرـيشـ وـأـبـانـهـاـ بـلـ يـتـولـاـهـ أـكـفـاـ الـسـلـمـيـنـ وـلـوـ كـانـ عـبـدـاـ حـبـشـيـاـ. وـاستـجـابـ المـغـربـ الـأـقـصـيـ سـرـيـعـاـ لـمـبـادـيـهـ الصـفـرـيـةـ وـنـشـبـتـ فـيـ ثـورـةـ سـنـةـ ١٢٢ـ لـلـهـجـرـةـ، وـتـهـزـ جـيـوشـ الـدـوـلـةـ جـيـشـاـ مـنـ وـرـاءـ جـيـشـاـ إـلـىـ أـنـ يـكـتـبـ هـاـ النـصـرـ بـعـدـ سـنـوـاتـ. أـمـاـ مـذـهـبـ الـإـبـاضـيـةـ فـقـدـ اـنـتـشـرـ اـنـتـشـارـاـ وـاسـعـاـ فـيـ طـرـابـلـسـ وـجـبـلـ نـفـوـسـةـ وـغـرـبـيـ لـيـبـيـاـ، وـكـانـ قـدـ أـصـبـحـ زـامـ الـمـكـمـ فـيـ

المغرب بيد عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع منذ سنة ١٢٦ للهجرة، فأخذ يرثيهم ويكثر من العيون عليهم، وعرف أن رئيسهم في طرابلس عبد الله بن مسعود التنجيسي، فأرسل إليه أخاه إلياس في قوة عسكرية كبيرة فقتله. ولم تنته بذلك الحركة الإباضية في طرابلس فقد بايع الإباضيون في طرابلس بعده بالإمامه الحارث بن تلید الحضرمي سنة ١٣٠ للهجرة وأخذوا وزيرا له عبد الجبار بن قيس المرادي، والملظون أنها كانا من جيش أبي حزنة الخارجي الذي أرسله الإمام طالب الحق البين لفتح الحجاز ومدينته المقدسين، ولم يكتب له النصر أخيراً على الجيش الأموي، وتسلل من جيشه الحارث وعبد الجبار إلى طرابلس، وأخذوا يدعوان للمنصب بها، ونجحت دعوتها وبوضع الحارث إماما، وأرسل إليه عبد الرحمن بن حبيب جيشا، ويقال بل ذهب إليه بنفسه على رأس جيش، غير أن جيشه هزم شر هزيمة، وأصبح إقليم طرابلس من سرت في ليبيا إلى قابس في إفريقيا التونسية يعترض بإمامته معتقداً لذهب الإباضية. وفي سنة ١٣٢ للهجرة يفتتح الحارث بن تلید وزيرا عبد الجبار في ظروف غامضة، ويدخل عبد الرحمن بن حبيب طرابلس ويفتك بكثيرين من زعماء الإباضية.

وتعيش طرابلس وإقليمها نحو ثمان سنوات في هدوء، حتى إذا كانت سنة ١٤٠ للهجرة ثار الإباضية بقيادة أبي الخطاب عبد الأعلى المغارى واستولى على طرابلس وأعلن بها إمامته، وكان حازماً مقداماً جسوراً غيوراً على الدين، وكانت قبيلة ورفجومة الصفرية استولت على القبران منذ سنة ١٣٨ للهجرة واستباحتها واستحلت المحارم وارتكتب كثيرة من المآثم والفظائع بها وجروحها تنزف بالدماء وأهلها يكترون من العويل ولا يخفى، وعلم أبو الخطاب بعيث ورجومة واستحالة أبنائها في القبران إلى ذات هاجنة مسورة، فثارت ثائرته وانعقدت حيثية لأهلها وأعدت في سنة ١٤١ للهجرة جيشاً ضخماً نازل به ورجومة التفرازوية في معركة طاحنة قتل فيها قائدتها عبد الملك بن أبي الجعد وهزمت هزيمة ساحقة، ودخل أبو الخطاب القبران وظهرها من رجس هذه القبيلة الباغية، وأقام عليها عبد الرحمن بن رستم واليا عليها من قبله، وعاد إلى طرابلس عاصمتها. وكل ذلك علم به الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور فاختار أحد قواده العظام محمد بن الأشعث وولاه على المغرب، وأرسل معه جيشاً بالغ الصخامة في نحو سبعين ألف مقاتل يقودهم صفة كبيرة من القواد ونشئت بينه وبين أبي الخطاب معركة حامية الوطيس سنة ١٤٤ للهجرة قتل فيها أبو الخطاب وأكثر أنصاره بعثت لم تقم للإباضية في طرابلس وجبل نفوسه بعدها قائمة. وفر عبد الرحمن بن رستم من القبران إلى تبرة في المغرب الأوسط، وبها أقام للإباضية دولة ظلت نحو قرن ونصف. ويتولى المغرب يزيد بن حاتم المهيبي سنة ١٥٣ للهجرة ويعود النظام والاستقرار والهدوء إلى طرابلس حق نهاية ولايته سنة ١٧٠ وقد ضم برقة إلى مصر. وتولى المغرب بعد يزيد أخيه روح بن حاتم

ثم هرثمة بن أعين حق سنة ١٨١ وكان عهدها عهد أمن وطمأنينة في طرابلس. وكان الخليفة العباس هرون الرشيد سُنَّ من كثرة الاختطارات والتورات في البلاد المغربية، فسأل عن مقدام جرى؟ سِيُوس يستطيع ضبطها ضبطاً محكماً فأشار عليه قائد هرثمة بن أعين بإبراهيم بن الأغلب التميمي لما يعرف من كياسته ورجاحة عقله، فمنعه حكمها هو وأولاده وأحفاده طوال إقرارهم النظام فيها والأمن، وبذلك تأسست في إفريقيا التونسية دولة الأغالبة منذ سنة ١٨٤ للهجرة حتى سنة ٢٩٦ وتبعتهم طرابلس وظلوا يرسلون إليها عملاً وظلت ثوراتها لا تهدأ بسبب من كان فيها وفي جيل نفوسه من الإباضية، وكان إباضية تيهرت لا يزالون يدون إلى إباضيتها عوناً مستمراً. ولعل ما كان يوليها الأغالبة من الأهمية هو الذي جعلهم دانياً يولونها ولادة بارزين من الأسرة، وكثيراً ما كانت تنتقض عليهم، على نحو ما حدث سنة ١٩٦ في عهد واليها عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب، واستطاع القضاء على التورة، ومن أهم ولاتها من أبناء الأسرة أبو العباس عبد الله بن محمد الأغلبي، ونقله الأمير أبو الغرانين، ثم أعاده إلى طرابلس، ومنهم أحد بن سوادة الأغلبي وكان شاعراً بارعاً ومحبًّا بن زيادة اهـ الثاني وكان أديباً وشاعراً وخطيباً ومؤلفاً بارعاً، ونفس عليه ذلك ابن عمه إبراهيم بن أحد الأغلبي ٢٦١ - ٢٨٩ هـ) وغار من سمعته الطيبة عند خليفة بغداد الرشيد. فتسلل إليه خفية في طرابلس وقضى عليه. وفي عهد هذا الأمير الأغلبي شهدت برقة سنة ٢٦٥ ثورة عباس ابن والي مصر أحد بن طولون على أبيه، وانخذلها قاعدة له وجهز منها حلة كبيرة زحف بها على طرابلس، غير أن جيش عاملها الأغلبي محمد بن قرهب هزم ورده على أعقابه. ولم يلبث أبوه أن قضى على ثورته سنة ٢٦٨ وولى على برقة عملاً يصلح فيها ما أفسده ابنه. وثار جيل نفوسه في سنة ٢٨٣ ثورة عنيدة قضى عليها إبراهيم بن أحد الأغلبي قضاء مبرماً.

وحين قضت الدولة العبيدية الفاطمية على دولة الأغالبة سنة ٢٩٦ حاولت أن تبسط سيادتها على طرابلس وتم لها ذلك، وأرسل مؤسساها عبد الله المهيـ جيـساً إلى برقة، فاستولى عليها من يد واليها العباسـ، وكانت برقة سُنَّة وطرابلس إباضية، وكانت ترفضان العقيدة العبيدية الإسماعيلية، ولم تلبـ طرابلسـ في سنتـ ٢٩٩ - ٣٠٠ للهـجرةـ أن حلـ لواءـ الثورةـ في وجهـ ماـقـنـونـ والـهاـ منـ قـبـيلـ عـبـيـدـ اللهـ وـفـتـكـواـ بـرـجـالـهـ منـ قـبـيلـ كـاتـمةـ الـقـىـ كـانتـ توـزـيدـ الدـعـوةـ الفـاطـمـيـةـ وـأـنـاحـتـ لـلـمـهـدـيـ استـيلـاهـ عـلـىـ صـوـلـيـانـ الـحـكـمـ منـ أـيـدـيـ الـأـغـالـبـةـ. وـصـمـ الـمـهـدـيـ عـلـىـ الـأـنـتـقـامـ مـنـ طـرـابـلـسـ وـأـهـلـهـ، فـغـرـدـ هـاـ حـلـةـ كـبـيرـةـ بـحـرـيـةـ وـبـرـيـةـ وـلـمـ يـلـبـثـ أـسـطـولـهـ أـنـ قـضـىـ عـلـىـ الـأـسـطـولـ الـطـرـابـلـسـ، وـضـرـبـ المـصـارـ بـرـاـ حـولـ طـرـابـلـسـ حـتـىـ سـاـمـتـ أـحـوالـ أـهـلـهـ سـوـءـاـ شـدـيـداـ، فـطـلـبـواـ الـأـمـانـ، فـأـنـمـ الـقـائـدـ أـبـوـ القـاسـمـ بـنـ الـمـهـدـيـ، وـكـانـ فـيـ الجـيـشـ مـعـهـ أـحـدـ أـبـانـ طـرـابـلـسـ مـنـ كـانـواـ قـدـ سـارـعـواـ بـالـلـتـافـ حولـ الـمـهـدـيـ، وـكـانـ أـبـانـ عـاـقاـ فـعـذـبـ أـهـلـ بـلـدـهـ وـنـكـلـ

بهم وأغремهم ثلاثة ألف دينار، واستكانت طرابلس. وفي سنة ٣٠٤ ثارت برقة فنكل بها العبيدون تتكللا شديداً. وفي سنة ٣١٠ ثار الإباضيون في جبل نفوسه نورة عنيفة، وقضت عليهما جيوش العبيدين . وتظل ليبيا غرباً وشرقاً خاضعة لهم إلا سورات صغرى كثيرة أبى حاتم ونورة أبى يحيى الإباضيين وقضى على الشورتين يزيد بن حاتم الملهى (١٥٤-١٧٠ هـ). وحرى بنا أن نذكر أن من أهم قضائهم الذين كانوا يرسلون بهم إلى طرابلس لنشر دعوتهم القاضي النعمان صاحب المؤلفات المشهورة في الدعوة إلى العقيدة الإساعيلية الفاطمية، وتبعد المز الفاطمي في ارتحاله إلى عاصمه الجديدة: القاهرة سنة ٣٦١ للهجرة. وكان المز قد ترك على بلاد إفريقية التونسية والمغاربة الأوسط والأقصى بلکین بن زعرى زعيم قبيلة صنهاجة، وبجعل جبل نفوسه تابعاً له، وفصل عن ولايته طرابلس وببرقة ملحقاً لها بمركز الخلافة في القاهرة، وبجعل لكل منها والياً تابعاً له، ولم يدم ذلك لطرابلس طويلاً، فإن بلکين ألحَّ على الخليفة الفاطمي العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) أن يلحقها بولايته هي ومنطقتها، وأجابه إلى أمته سنة ٣٦٧ وولى عليها بلکين حتى سنة ٣٧٣ هـ ولادة من قبله، وخلفه ابنه المنصور ثم حفيده باديس سنة ٣٨٦ للهجرة وأخذ يرسل إليها بدوره ولاة مختلفين، كان آخرهم عيسى بن بكار سنة ٣٩٠ فخانه بتسليمها إلى يانس الصقل حاكم برقة، وأرسل إليه باديس أحد قواده على رأس جيش حاصر طرابلس. وفي هذه الأثناء تسلل إلى طرابلس مفامر من قبيلة زناتة يسمى فلقل بن سعيد واستولى عليها وأسس بها دولة بني خزرتون، وأخذت تكثر بها الاختراضات والمنازعات بين أفراد الأسرة ومن الطريف أنه تأسس في طرابلس حينئذ مجلس شورى يساعد الحاكم الخزروني في تصريف الأمور، وأول من رأسه على بن محمد بن المنور، وقد قضى هذا المجلس على آثار المذهب الشيعي في طرابلس ونبت المذهب المالكي السنى بها، وظلت أسرة بني خزرتون تحكم طرابلس حتى منتصف القرن الخامس المجرى. وإذا ولينا وجوهنا نحو برقة في تلك الفترة وجدنا أنها أموياً أندلسياً يسمى أبا ركرة يدعوه لنفسه فيها بالخلافة، ويتبعه بنو قرة البرقيون أصحاب الجبل الأخضر، ومحاربون معه الفاطميين ثم يتخلون عنه ويقتل. وتظل الزعامة في برقة لبني قرة طوال النصف الأول من القرن الخامس المجرى.

## من الهجرة الأعرابية إلى منتصف القرن العاشر المجري

هاجرت إلى ليبيا وإفريقية التونسية والمغرب الأوسط جموع أعرابية كبيرة من قبائل بني سليم وبني هلال كان القرامطة في البحرين قد ضموها من نجد إلى جيش ضخم نازلوا به الفاطميين في الشام ومصر، وما كادت تدخل في الديار المصرية حتى انضمت إلى الجيش الفاطمي، مما كان سبباً في اندحار الجيش القرمطي وارتداده إلى البحرين، وقد نقلها العزيز باه الفاطمي إلى الضفة الشرقية على النيل بالصعيد الأعلى، وظللت هناك مصدر قلقاً واضطرابات لأهل الريف الصعيدي، مما جعلها تتحول إلى مشكلة كبيرة للحكم الفاطمي بمصر. ودار الزمن دورات وإذا الحاكم الصنهاجي الرابع المعز بن باديس (٤٠٦ - ٤٥٤ هـ) في إفريقية التونسية والمغرب الأوسط يؤثر المذهب السنى مشائعاً لشعبه المترى ويقطع الدعوة الفاطمية الإساعيلية منظرياً تحت لواء الخليفة العباسى سنة ٤٣٨ للهجرة، وأمتلاً الخليفة الفاطمى المستنصر سخطاً ومحاجة عليه، ولكن ماذا يفعل وهو لا يملك من الجند والجيوش ما يستطيع به القضاء على المعز بن باديس، وانتهز الفرصة وزيره الحسن بن علي البازورى، فأشار عليه بإقطاع مشائخ بني سليم وبني هلال أعمال المعز بن باديس في المغارب الأنذن والأوسط وهجرتهم إليها مع قبيلتها، وقال له إنهم إن ظفروا بالمعز وقبيلته: صنهاجة تتحقق أمنيته وصاروا أولياء للدولة وعملاً لها في تلك الأنجام القاصية مع زوال عيدهم وفسادهم عن أهل الصعيد بمصر، وإنهم لم يظفروا بالمعز نكنا قد تخلصنا منهم، ودبرنا له ما يقضى عليه. ووقدت المشورة من نفس المستنصر موقعاً حسناً، واستدعى مشائخ القبيلتين وقال لهم: «قد أعطيتكم المغرب وكل المعز بن باديس الصنهاجي العبد الآبق فلا تفترقون» وأغْرِى الشيخ بجاوز كبيرة، وأمر لكل بدوى من القبيلتين ببعير ودينار. وانطلقت جموع بني سليم وبني هلال بفروعها (الأنبيح وزغبة ورياح وجشم وعدى وربيعة والزواودة) سنة ٤٤٣ للهجرة إلى برقة وانساقوا فيها بخيлем ورجلهم ينهبون ويسلبون واستقرت فيها مجتمع من بني سليم، وتقدمت بقية هذه القبيلة مع بني رياح الهمالين، ولما استقرت جموع القبيلتين في طرابلس انعقدت له الرياسة فيها وفي انتقالهم إلى إفريقية التونسية، ولا يعرف عدد من دخل المغرب من القبيلتين، ويرى بعض المؤرخين أنهم لم يكونوا يقلون عن خمسةألف ويقول ابن خلدون إنهم كانوا يسرون في جموعهم كجراد منتشر لا يرون على شيء إلا أتوا عليه، فهم يطلقون

قطعنهم من الإبل والفنم على الزروع وهم يخربون المنشآت والقصور ويقتلون الأبواب ويفدمونها وقوداً للنار. وحقاً قد يكون ابن خلدون مسرفاً فيها وصف به القبيلتين المذكورتين من النهب والسلب وتغريب العمران ولكن من الحق أيضاً أن أعراب هاتين القبيلتين لم يكونوا مثل عرب الأجيال العربية الأولى الذين فتحوا بلدان الدولتين الساسانية والبيزنطية وأقاموا دولة الإسلام الكبير المجيدة، إذ لم يكونوا جيوشاً نظامية، وكانوا بدوا لاصلة لهم بالحضارة، ولم يكن لهم في هجرتهم إلى المغرب لا هدف ديني ولا هدف قومي، كما كان الشأن في فتوح العرب الإسلامية الكبرى وقد نازلهم المعز بن هاديس في مكان يسمى حيدران بالقرب من قابس ودارت عليه المواجهات ودخلوا القيروان سنة ٤٤٦ ونهبواها وخربوها، واضطر أن يتسبّب منها إلى المهدية عاصمة الفاطميين بالقرب منها وبها توفى سنة ٤٥٤ للهجرة. وظل هؤلاء الأعراب سادة القسم الأكبر من إفريقية التونسية وسادة طرابلس إلى عهد الموحدين في القرن السادس المجري.

وقد تحولت برقة منذ هجرة بن سليم إليها في أواسط القرن الخامس الهجري من حيata المستقرة في المدن الشمالية والواحات الداخلية إلى مشيخات بدوية لبني سليم واستحالـت في جميع أجزائها إلى مراع واسعة. وظل ذلك فترة طويلة نحو مائة عام، بل تزيد وكانت في أثناء ذلك تدين بالولاء لمصر، وانشغل حكامها عنها بالحروب الصليبية وتزعزع هذا الولاء في أواخر زمن الدولة الفاطمية لهذا السبب. ونزى صلاح الدين الأيوبي حين قضى على تلك الدولة يفكـر في برقـة وفرض ولاء مصر عليها وعلى إفريقية التونسية، ويكـلف بهذه المهمـة ابن أخيه المظفر تقـي الدين، فـاستولـى فـرقـة أـو كـاتـبـ من جـيشـه عـلـيـ أـجزـاءـ من بـرقـةـ وـعـهـدـ إـلـىـ اـثـيـنـ من قـوـادـ - رـبـاـ بـشـورـةـ صـلاحـ الدـيـنـ - بـإـقـامـ هـذـهـ المـهـمـةـ، هـاـ إـبـرـاهـيمـ بـنـ قـرـاتـكـينـ وـقـرـاقـوشـ، أـمـاـ بـنـ قـرـاتـكـينـ فـتـوـغـلـ فـيـ أـوـاـلـ الـعـقـدـ الثـانـيـ مـنـ الـقـرـنـ السـادـسـ فـلـيـبـاـ، وـمضـىـ حـتـىـ يـلـغـ قـفـصـةـ فـيـ إـفـرـيقـيـةـ التـونـسـيـةـ، وـاتـذـهـاـ مـقـرـاـ لهـ، وـاستـقـرـ بـهـ إـلـىـ أـنـ فـنـتـ بـهـ دـوـلـةـ الـموـحـدـينـ المـفـرـيـةـ سـنـةـ ٥٨٣ـ وـدـخـلـتـ قـفـصـةـ فـيـ حـوـزـتـهـ، وـأـمـاـ قـرـاقـوشـ فـقـدـ مـضـىـ إـلـىـ أـوـجـلـةـ فـاقـتـحـمـهاـ، وـتـقـنـ إـلـىـ فـرـزانـ فـاسـتـولـ عـلـيـ عـاصـتـهاـ زـوـيلـةـ مـنـ بـقـيـةـ الـخـطـابـ وـاتـجـهـ إـلـىـ الشـمـالـ وـاسـتـولـ عـلـيـ طـرـابـلسـ سـنـةـ ٥٧٩ـ فـتـرـةـ فـاسـتـولـ عـلـيـ قـابـسـ، وـمـنـهـ اـسـتـرـدـهـ الـموـحـدـينـ بـعـدـ اـسـتـرـدـاـهـ لـقـفـصـةـ مـنـ اـبـنـ قـرـاتـكـينـ سـنـةـ ٥٨٣ـ مـاـ اـضـطـرـهـ إـلـىـ إـعـلـانـ طـاعـتـهـ لـهـ، غـيرـ أـنـهـ عـادـ إـلـىـ الـبـيـثـ وـالـإـسـادـ وـاضـعـاـ يـدـهـ فـيـ يـدـ اـبـيـ غـانـيـةـ عـلـيـ وـيـكـسـيـ حـيـنـ عـاـنـاـ فـيـ إـفـرـيقـيـةـ التـونـسـيـةـ ضـدـ الـمـوـحـدـينـ، وـبـعـدـ مـفـارـمـاتـ شـقـ معـ مـنـ اـنـضـمـ إـلـيـهـ مـنـ بـنـ سـلـيمـ قـتـلـ سـنـةـ ٦٠٩ـ لـلـهـجـرـةـ، وـظـلتـ بـرـقـةـ بـعـدـ موـالـيـةـ لـمـصـ طـوـالـ الـعـصـرـ الـأـيـوـبـيـ، وـاـطـرـدـ وـلـاـوـهـاـ فـيـ زـمـنـ الـمـالـيـكـ، وـنـزـىـ الـظـاهـرـ بـهـرـسـ سـلـطـانـهـ (٦٥٨ـ ٦٧٦ـ هـ) بـطـلـ مـوـقـعـةـ عـيـنـ جـالـوتـ ضـدـ التـارـ الذـيـ دـفـعـ سـيـوـلـمـ عـنـ الشـامـ إـلـىـ غـيـرـ

رجمة يولي برقه اهتمامه منذ سنة ٦٦٢ للهجرة ويولى عليها شيئاً حصيناً من بنى سليم هو عطاء اقه بن عزاز، ويكل إليه جباية الزكاة من الإبل والأغنام وعشر الزروع والتمار. وحين غزا لويس التاسع تونس سنة ٦٦٨ بعد إخفاقه المشهور في غزو مصر وأسره في دار ابن لقمان بالمنصورة أمر ببررس ابن عزاز بإرسال تجدة سريعة إلى تلك المدينة، وأخفقت غزوة لويس التاسع لها، ومات مقهوراً تحت أسوارها. وكانت بعض البلدان في برقه تتورأ أحياناً على ابن عزاز، فكانت مصر تسارع إلى تأييده على نحو ما حدث في طليطلة شمال بنفاري وعدتها سريعاً إلى الطاعة. وظل بنو عزاز يتولون برقه ويصرّفون شئونها ويشرّفون على قبائلها إن لم يكن فيها جيماً فقى أكثر بلدانها وبواديها. وفي النصف الأول من القرن التاسع المجري نازعهم فيها عُريف بن عمر رابنه، وظل برقه موالية لمصر إلى أن استولى العثمانيون على القطر المصري من أيدي المالiks سنة ٩٢٣ للهجرة، وطبعوا أن يمدوا سلطانهم إلى برقه التي ظلت تدين بالولاء طويلاً لمصر، وظللت تستشر هدا الولاء إلى أن ضمّها والى طرابلس العثماني محمد الساقلي (١٠٤٣ - ١٠٥٩ هـ). إلى ولادته.

<sup>١</sup> وتاريخ طرابلس ينفصل عن تاريخ برقه منذ انضمامها إلى إفريقية التونسية سنة ٩٣٦٧هـ/١٧٧٩م في عهد حكامها من بنى زيري الصنهاجيين، وقد استقل بها بنو خزرون منذ أواخر القرن الرابع الهجري إلى نحو سبعين عاماً، وتكتسحها الهجرة الأغربية الكبيرة لبني هلال وبقايا بنى سليم، وتعانى من ذلك طويلاً، وفي هذه الأثناء زالت السيادة العربية عن صقلية وسقطت في حجر النورمان سنة ٤٨٤هـ/١٠٩٢م نهائياً، وحينئذ أخذت تتراءى في الأفق نذر خطر جسيم على الساحل الإفريقي، فقد استولى النورمان على مالطة سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٣م وأعلن روجار الثاني ملك صقلية المحرر الصليبي على الساحل الإفريقي سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م وجهز أسطولاً يحاصر طرابلس وتنقب سورها، غير أن أهلها ومن ورائهم من الأعراب ردوا الأسطول على أعقابه وغنموا أسلحته، ولم يلبث شيخ من شيوخ العرب هو أبو يحيى بن مطروح التميمي أن استخلص طرابلس لنفسه، ونازعه في سيادتها وسلطانها بعض أهليها، ونشبت بينها الحرب، وكان النورمان يعلمون ما صار إليه الشمال الإفريقي من ضعف الدولة الزيرية الصنهاجية وانزواء تميم بن المعز وأبنائه في المهدية وأنزعانها وما تبعهم من شريط ساحل ضيق، به جزيرة جربة وصفاقس وقادس، ولم يلبث الأسطول النورماني أن استولى على المهدية وجزيرة جربة وصفاقس سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م وعاد إلى طرابلس يريد الاستيلاء عليها، وبدلاً من أن تفند الفتنان المتنازعان في طرابلس أسلحتها ويوجهها إلى صدور أعدائها الصليبيين ظلاً يتحاربان ويقتتلان، وبذلك هيأ الفرصة لأعدائها النورمان، فسلقو الأسور، ودخلوا طرابلس وأمعنوا في النهب والسلب والقتل وفرضوا على أهلها جزية يؤدونها لملك صقلية، وتركوا

حكمها في يد أبي بمحى بن مطروح، فتحكمها حكماً شورياً، إذ أُلْفَ لها مجلساً مكوناً من عشرة شيوخ كانوا يعقدون اجتماعاتهم في مسجد خارج المدينة للتشاور والتداول في تدبير أمورها. وظل النورمان الصقليون يحكمون طرابلس أكثر من عشر سنوات، ولاح لابن مطروح وأهلهما نورٌ كاسحة في المغرب الأقصى، هو نور دولة الموحدين التي أخذت تستولي على بلدان المغرب، فعظم الأمل في نفوس الطرابلسيين أن تقد إليهم يد العون في التخلص من حلة الصليب، وما توافق سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م حتى يشتد بهم القبض لأدائهم جزية لنصارى صقلية، وفي إحدى الليالي يجتمعون على الحامية الصقلية، فيحرقون بيوتها بالنار حرقاً، ويذبحونها عن آخرها ذبحاً، حتى لا يفكرون في النزول طرابلس ثانية. وينزل خليفة الموحدين عبد المؤمن بن علي المهدية سنة ٥٥٥ بعد طرد النورمان من ساحل إفريقيا التونسية نهاياني، ويفد عليه ابن مطروح على رأس وفد من رجالات طرابلس، ويختفي بهم، ويولى ابن مطروح حاكماً على طرابلس من قبله، وما زال يتولاها حتى أدركه الشيخوخة، فرأى في سنة ٥٨٦ للهجرة أن يؤود فريضة الحج فاستأذن أبا زيد بن أبي حفص والى تونس للموحدين، وأنذ له واستقل سفينته، واضطربت في طريقها إلى الإسكندرية أن تتوقف قبل الوصول إليها ورست في موضع لا يزال ينسبه المصريون إليه هو: «مرسى مطروح» المدينة المعروفة الآن على الشاطئ المصري. وتتبه عبد المؤمن خليفة الموحدين للانتفاع بأعراب بنى سليم وبني هلال في جهاده لأعداء الدين الخناف في الأندلس، فكُلف القاضي ابن عمران بنظم قصيدة يستحبث فيها بن سليم للجهاد في نصرة الإسلام كما نصره آباؤهم قدِّيماً، وصنع صنيعه ابنه يوسف حين اعتزم غزو نصارى الأندلس سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م إذ طلب إلى صديقه ابن طفيل الفيلسوف الأندلسي المشهور أن يستقر الأعراب بقصيدة حاسية، فنظم قصيدة تتاجع حاسة ملتبة استهلها بقوله:

### أقيموا صدورَ الخيل نحو المغارِبِ لغزوِ الأعدَادِ واقتَاهِ الرغائبِ

وتأخر وفدهم على يوسف خليفة الموحدين، فأرسل إليهم ابن طفيل قصيدة ثانية، فلى يوسف كثيرون منهم انتظروا في جيشه المتوجه لغزو النصارى في الأندلس، وأكبر الظن أن ابنه يعقوب خليفة الموحدين بهذه جندة منهم كثيرون في جيشه المظفر الذي جاز به إلى الأندلس، وأوقع بالقشتاليين ومن كانوا معهم من نصارى الشمال وقعة الأرك المشهورة سنة ٥٩١ التي مُرِّقَ فيها أعداء الدين الخناف كل مُرْقَ.

ومر في حديثنا عن برقة أن المظفر تلقى الدين ابن أخي صلاح الدين الأيوبي كان قد أرسل إلى ليبيا وإفريقيا التونسية قائد़ين من قواده للاستيلاء عليهما، هما إبراهيم بن فرانكين وفراقوش وأن الأول استطاع الاستيلاء على قصبة بافريقيا التونسية إلى أن استولت عليها

دولة الموحدين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م وأن الثانى استطاع الاستيلاء على أوجلة وفزان، كما استولى على طرابلس فترة محدودة سنة ٥٧٩ بعون بنى رياح وبنى دباب الملايين، واتجه غرباً واستقر في قابس بإفريقية التونسية، واستولى عليها منه الموحدون سنة ٥٨٣ وفي هذه الأثناء كان على بن غانية صاحب ميورقة حفيد يوسف بن تاشفين يضطعن على دولة الموحدين إزالة ملك أسرة ابن تاشفين أصحاب دولة المرابطين من المغرب والأندلس، فرأى أن يقدم على أعراب طرابلس ويكون منهم جيشاً لحرب الموحدين واسترداد ملك المرابطين، ووجد قراقوش يحاول دفع هؤلاء الأعراب للانتقام على الموحدين، فوضع يده في يد قراقوش مدة امتطاولة مثرين للقلائل والاضطرابات في المنطقة، وحين استولى الموحدون من قراقوش على قابس أعلن طاعته لهم مداراة ومكرا، ودار العام فتوك الموحدون بعلى بن غانية سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م وكان يرافقه أنهو بمحى، فخلقه في الشعب على الموحدين، واشتباك مع جنودهم في معارك مختلفة، واشتراك مع قراقوش في الاستيلاء على طرابلس سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م واحتشار بمحى بن غانية واليا عليها تاشفين بن غازى، ووالته قابس وصفاقس، وفسد ما بينه وبين قراقوش، فحاصره في ودان جنوب مدينة سرت حتى نفذ زاده واضطرب إلى الاستسلام وقتلها وصلبه سنة ٦٠٩ واسترد الموحدون طرابلس سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م وأداروا مع بمحى بن غانية بالقرب من تونس سنة ٦٢١ معركة حامية الوطيس هزم فيها هزيمة ساحقة، وفر إلى الجنوب هارباً، وظل ينتقم بين الأعراب إلى أن توقف سنة ٦٣١ للهجرة، وظلت طرابلس - منذ استولى عليها الموحدون - تتبع حاكم تونس - وتطورت الظروف سريعاً وأسس بتونس أبو زكريا المفضى الدولة المفضية سنة ٦٢٥، وأخذ في العمل على تأسيسها وعاشت قروناً متالية حتى القرن العاشر المجرى. وعاشت طرابلس في إطار سيادتها وأخذت تسترد نشاطها الزراعي والتجاري، واشتهر من قضاتها الطرابلسيين في أوائل هذا العصر أبو موسى عمران بن معمر المواري، وظل يقوم على القضاء العادل البصير بها حتى سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م وطارت شهرة أحکامه وفتاویه إلى تونس وسلطانها المستنصر المفضي فاستدعاه وأسند إليه القضاء في عاصمة: تونس. وولى إفريقية التونسية بعد المستنصر ابنه الواقع بمحى سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م وخلع سنة ٦٧٨ للهجرة وتولى حماه إبراهيم. وظهر - حينئذ - داعٍ من بجاية يسمى ابن أبي عمارة أحد بن مرزوق طمع إلى الملك فترك مهنة المحاكمات التي كان يمتهناً في بلدته، وزُجَّ إلى سجل العداوة، وأدعى في الأعراب هناك أنه المهدى المنتظر، وبايعه بعضهم، غير أنه شعر أن دعوته لن تنجع هناك، فتركهم، وزُلِّ بين أعراب طرابلس، وأدعى أنه ابن الخليفة الواقع المخلوع وأن اسمه الفضل وبايده كثيرون من بن سليم على نصرته، ودانت له طرابلس وبعض البلدان في غرب ليبيا وشرق تونس وتقدم فاستولى على تونس سنة ٦٨١ وولى على طرابلس مرغم بن صابر من بن سليم، وأسره الصقليون في بعض غاراتهم سنة ٦٨٢ للهجرة، وباعوه لملك أراجون البرشلوني.

ولم يلثت الخليفة المفضي عمر بن أبي زكريا أن استرد ملك آبائه المفضيين سنة ٦٨٣ وأرسل إليه وال طرابلس محمد بن عيسى الهمتاني رسالة مذعنة فيها لطاعته. وفي سنة ٦٨٨ أرسل ملك أراجون سنة ٦٨٨ مع أسيره مرغم بن صابر حلة إلى طرابلس بريد الاستيلاء عليها وباءت بالفشل النريع. ونزل بطرابلس سنة ٧٠٨ أمير حفصى في أثناء توجهه إلى أداء فريضة الحج هو أبو يحيى زكريا بن محمد البحياني وفي عودته سنة ٧٠٩ أقام بها فترة جعلت أهلها يجلونه وبقدروننه. وكان الحكم في إفريقية التونسية قد ساء سوءاً شديداً، إذ تولاه خليقتان اختلت الدولة في عهدهما اختلالاً سيئاً. فتحدت كثيرون من أهل طرابلس إلى الأمير المذكور محرضين له على تولي مقايد الخليفة بتونس حق يصلح شتون الحكم بها وتعهدوا له بتأييده ونصرته، ونجحت الخطة، واحتل البحياني تونس سنة ١٣١١هـ/٧١١ وأخذت له فيها البيعة، وظل بل شتونها ويصرف أمرها تصريفاً حسناً لمدة ست سنوات، ونهض في آخرها لمقاومته أمير قسنطينة بالجزائر وكأنما دخله اليأس من الانتصار عليه، فلجأ إلى طرابلس آملًا أن يعود منها بجمع تصرّه، وترك الحكم في تونس لابنه محمد الملقب بأبي ضربة، وأخذ يكُون في طرابلس جيشاً فتح به كثيراً من البلدان الليبية، غير أن أمير قسنطينة تغلب على ابنه أبي ضربة، وشعر أن وضعه في طرابلس لم يعد آمناً، فرحل من طرابلس بحراً إلى الإسكندرية وحلّ بها حيثما على السلطان قلاوون إلى أن توفّى، أما طرابلس فقد ترك الحكم فيها إلى صهره محمد بن عمران، وظل بل شتونها إلى أن ثار عليه أهلها سنة ١٣٢٤هـ/٧٢٤ وظّل الأميران الأولان من هذه الأسرة يسوسان طرابلس وإقليمها سياسة حسنة، ويقول ابن خلدون إن تجارة من جنوة كانوا يتربدون على طرابلس ولاحظوا ضعف تحصيناتها لعدم أميرها الثالث من بين عمار ثابت بن محمد بن ثابت وأغراهم ذلك بجاجتها، وتجمّع أسطورهم في مينائها، وانتشروا في أسواقها يتظاهرون بأن غرضهم التجارة ومبادلة السلع وفي الليل أو في إحدى الليالي سنة ١٣٥٥هـ/٧٥٦ تسلقوا أسوار طرابلس واستولوا عليها في غفلة من أهلها، وفرّ ثابت أو حاول الفرار في أثناء حصارهم لقصره بها، ورأه بعض الأعراب من يعادى قبيلته فقتله. وظل الجنوبيون بطرابلس نحو عام، ودفعت الحياة لأهلها وللدين الحنيف أبا العباس أحدبن مكي حاكم قابس في إفريقية التونسية إلى أن يقاوض قائد البحرية الجنوبية لإخلانها والتزويج عنها فطلب لقاء ذلك حسين ألف دينار ذهباً، فجمع ما عنده وأكمل ما بقي من أهل قابس والخاتمة وببلاد البريد، دفعوها له متحمسين، وأدّها ابن مكي، وبارج الجنوبيون طرابلس بعد أن تركوا لهم فيها قنصلية ومستودعاً لبيع سلعهم. وتولى شتونها ابن مكي حتى وفاته سنة ١٣٦٤هـ/٧٦٦ وخلفه عليها ابنه عبد الرحمن. وكان أحد أبناء أسرة بني عمار: أبو بكر بن محمد بن ثابت فرّ عنها - حين نزّها الجنوبيون -

إلى الإسكندرية، فعاد إليها سنة ١٢٧٢هـ / ١٧٧٢ م في أسطول، فحاصرها، وأعانه أهلها في استيلاته عليها، حتى يخلصوا من عبد الرحمن لسوم سيرته. ولما استولى عليها أبو بكر استسلم له عبد الرحمن، فأرسله مكرّماً إلى بلدة قمه قابس، وظل أبو بكر يدير شئون طرابلس عشرين سنة. وخلفه عليها أخيه عمران حتى سنة ١٣٩٧هـ / ١٩٠٠ م وأخذ أبناء الأسرة يحملون السلاح بعضهم ضد بعض، وحاول أحدهم وهو على بن عمار الاستعانة بذلك صقلية المسيحى مما جعل السلطان المفضى أبا فارس عبد العزيز يذهب إلى طرابلس بنفسه سنة ١٤٠٣هـ / ١٧٨٠ م ويعزل عنها آخر ولاتها من بني عمار: يحيى بن أبي بكر ويعيدها إلى حظيرة الدولة المفضية ويولى عليها أحد قواده، وبذلك انتهت دولة بني عمار في طرابلس. وظل الولاة المفضيون يلون شونتها في القرن التاسع المجرى، وكانتا يوجهون إليها أحياناً بعض حلات، وأآخرها حملة أبي عمرو عنمان المفضى سنة ٨٦٣ وبلغ فيها تاجروراء شرقى طرابلس. وحين أخذت الدولة المفضية في الضفت أخذت طرابلس تحكم حكماً ذاتياً ب مجلس شورى برأسه أحد الشيوخ النابين، وكان آخرهم الشيخ عبد الله الذى رأس مجلسها وحكمها منذ سنة ١٤٩٢هـ / ١٩١٦ م إلى أن هاجماً الأسطول الإسباني سنة ١٤٩٨هـ / ١٥١٠ م.

وكان يتولى إسبانيا فرديناند الكاثوليكى الذى استولى على غرناطة من يد أبي عبد الله الصغير وأخرج العرب من الأندلس وقد سُول له شيطانه أن يستأنف الحرب الصليبية بتعقبهم في الساحل الإفريقي الذى نزلوا فيه، ولم يكن للدولة الزيانية في الجزائر ولا للدولة المفضية في تونس وطرابلس أسطول يحمى الساحل الإفريقي، واستطاع أسطول فرديناند الاستيلاء على المرسى الكبير في الجزائر سنة ٩١٠هـ / ١٥٠٥ م وعلى وهران سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨ م. وفي سنة ٩١٦هـ / ١٥١٠ م هاجم الأسطول الإسباني طرابلس، واحتلها بعد مقاومة عنيفة من أبنائها استشهد فيها منهم كثيرون، وخرج منها أكثر سكانها إلى تاجروراء واتخذوها مركزاً لمقاومة العدو الصليبي، وبذلك توقف كل ما كان بطرابلس من نشاط وتمطلت حركتها التجارية بينها وبين الإسكندرية والشرق وأيضاً بينها وبين صقلية والبندقية وجنة في الغرب وساعت أحوال أهلها الاقتصادية، وفي سنة ٩٣٦هـ / ١٥٣٠ م سلم المدينة شارل الخامس ملك إسبانيا إلى فرسان مالطة المعروفين باسم القديس يوحنا، وظلت الأحوال في طرابلس تزداد سوءاً على سوء، وظل كثير من سكانها يغادرونها إلى مدينة تاجروراء مركز المقاومة.

## في العهد العثماني

كانت الدولة العثمانية بالقرن العاشر المجري في أوج قوتها، فانتخب أهل تاجوراء وفندما ذهب إلى إسطنبول مستعيناً بتلك الدولة طالباً منها حمايتها لطرابلس وإقليمها وطرد فرسان مالطة من ديارها، ولقيهم السلطان المتمان: سليمان لقاء كريماً، وأمر فوراً الأغا مراداً برفقتهم للتعرف على أحوال المنطقة وزلل تاجوراء سنة ٩٥٧هـ/١٥٥٠م وأنشاً بها جامعاً ومدرسة، وأرسل إلى السلطان بالأحوال في المنطقة، فأمر سنان باشا قائد الأسطول العثماني أن ينسق كافة العمليات البحرية مع مراد أغا لإخراج فرسان مالطة من طرابلس، فأمر سنان باشا درغوت الذي كان مرابطًا - حيث تردد - ببعض قطع من الأسطول أمام الجزائر بهاجته لأولئك الفرسان بطرابلس وطردهم منها، وصعد توأ لأمره وهاجم طرابلس، واستسلم له فرسان مالطة سريعاً سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م، وأصبحت طرابلس ومنطقتها تابعة للدولة العثمانية، وكان مراد أغا أول من شغل منصب الوالي التركي بها، فعمل توأ على ترميم القلعة وتعمير المدينة، وحول الكنيسة التي بناها فرسان مالطة بالقلعة إلى مسجد، وأخذت الحياة العامة في طرابلس تنشط ونشطت معها التجارة، وسرعان ما أصبحت طرابلس قاعدة مهمة من قواعد البحرية العثمانية في البحر المتوسط، وأدركته الشيخوخة سريعاً، فرأى ترك طرابلس سنة ٩٦٤هـ/١٥٥٦م إلى تاجوراء، لتنصيبي بقية حياته، وخلفه على البلاد من قبل الدولة العثمانية درغوت، وكان فندما بحرياً عظيماً، فأخذ طرابلس قاعدة كبيرة لعملياته البحرية المجرية ضد قرمانة وأساطيل الأوربيين من إسبانيا وغير إسبانيا، وكرت بها الفنائين والأسرى الأوروبيين، وبذلك أعاد إلى الأذهان سيرة خير الدين (بربروس) في الساحل الجزائري واتخاذ الجزائر وغيرها من مدن هذا الساحل قاعدة لأعماله البحرية العظيمة التي ظلت تردد لها فرائص الأوروبيين، وبالمثل أنزل بهم الفزع والرعب درغوت بسفنه البحرية وجنوده من الترك والطرابلسيين المغاربة، وعنى عنابة واسعة بتحصين المدينة فأنشأ بها أبراجاً مختلفة وقصرًا له وداراً للبارود وأذن للأسرى المسيحيين بإنشاء مقبرة خاصة بهم مما يدل على كثرةهم في أيامه بسبب حلقات أسطوله البحرية وجهاد جنوده البحري في سبيل الإسلام وحماية ديار أبنائه المغاربة، وأنشاً بطرابلس جامعاً عظيماً ضم رفاته حين توفي سنة ٩٧٠هـ/١٥٦٢م ووليهما بعده علوج على ساعد الأئمين في القيادة البحرية لفترة محددة، وخلفه عليها جعفر باشا وولاة آخرؤن منهم مصطفى باشا وفي عهده استولى ثانٍ من أهل البلاد هو يحيى الجبالي سنة ٩٩٢هـ/١٥٨٤م على كل ما سوى

طرابلس من المدن والأوطان وجئي خراجها، وزحف إلى المدينة وحاصرها، واستدعت الدولة العثمانية الوالي سنة ١٩٧هـ/١٥٨٨م لتهذنة الثازرين، وأرسلت أسطولاً لفك الحصار عن طرابلس وتعقب الثازر، وسرعان ما فُكَ الحصار وهُزِمَ الجباري وتوغل في الصحراء مع الأعراب، وقتل، وانتهت ثورته.

وكانت الدولة العثمانية ترسل مع ولاتها في الولايات المختلفة التابعة لها حاميات عسكرية من جنودها الإنكشارية، وكثيرهم كانت من أطفال البلاد الأوروبية النصرانية التي كانت تحاربها أو الولايات التي كانت تدين لها بالولاء، أو من أبناء الشعب الذين رغبوا في الانضمام إلى هؤلاء الجنود، وكانت تربّيهم تربية عسكرية إسلامية، وتولّف منهم عدداً ضخماً في جيوشها وترسلُ منهم مع ولاتها حرساً أو حامية كبيرة، وكانت الحامية تنقسم إلى فرق، وكل فرقة رئيس منها يلقب بالدai بمعنى ملازم. وما نصل إلى القرن الحادى عشر الهجرى حتى تبرز نزعة قوية في صنوف حاميات الإنكشارية بالولايات العثمانية المختلفة للاستقلال بها وأن يتولاها دايياتهم، وفي سنة ١٤٢٠هـ/١٦١١م تلقى بصرى أول داي يحكم طرابلس ويدبر شؤونها، وعُقِّي بالمرقب البحري أو الجهاد البحري الطرابلسي مما جعل الأسرى المسيحيين يكترون بطرابلس في أيامه. وحكم طرابلس بعده الدai مصطفى الشريف سنة ١٤٣٤هـ/١٦٢٤م وفي عهده نشطت البحري، وعُقِّي بتحسين بعض المحسون، وتولى طرابلس بعده الدai رمضان، وكان ضعيف الشخصية، وتخلّ عن الحكم سريعاً إلى صهره محمد الساقلى (١٤٣٩هـ-١٤٤٣هـ) وهو ثالث ولاة طرابلس العثمانيين العظام بعد مراد أغى ودرغوت، وكانت له مثل درغوت شهرة بين أبطال البحر العثمانية، وكان الأسطول الطرابلسي في عهده يتكون من ٢٤ قطعة، وكانت برقة قد دخلت في طاعة العثمانيين إلى ولايته في طرابلس ونشطت التجارة وحركة العمران في عهده نشطاً عظيماً. وتوفى سنة ١٤٥٩هـ/١٦٤٩م للهجرة وخلفه عثمان الساقلى وهو مثل محمد الساقلى من أهم ولاة ليبيا، وقد طال حكمه لها إلى نحو ثلاثة وعشرين سنة، وازدهرت التجارة في عهده ازدهاراً عظيماً، كما ازدهر النشاط البحري، وزار طرابلس لأول عهده العياشى في رحلته المشهورة إلى الحج، وفيها يشيد بطرابلس ومبانيها وأهلها وكرمهم الفياض وواليها عثمان الساقلى ويقول إن له نكابة في العدو، وله مراكب قل نظيرها معدة للجهاد، ويذكر أنه رأى ستة من هذه المراكب أو السفن وهي تخرج بجهاد أعداء الدين، وكانت تحمل نحو ألفى مقاتل خرجت - كما يقول - مجتمعة إرهاها للعدو حين يراها. وكانت تحمل كثيراً من الفنادم والأسرى مما جعل عثمان الساقلى يبني لهم سجنًا كبيراً كان به نحو تسعمائة غرفة أو زنزاناً بجانب سجن الدai صفر ومحمد الساقلى، وجعل بعض القاعات في قصر درغوت

مستشفى خاصاً بالأسرى، وخصص لرعايتهم طائفة من الأطباء، وألحق بالمستشفى صيدلية لتحضير ما يلزمهم من الأدوية. وأنشأ لنفسه قصرًا بدبيعاً، كما أنشأ مدرسة قرب باب البحر لا تزال قائمة إلى اليوم، وبين في سنة ١٠٦٥ هـ / ١٦٥٤ م فندقاً كبيراً كان به مائة غرفة كما كان به بئر في ساحته، وعُنى بأسواق البلد، وكان عهده عهد أمن واستقرار وعمران مزدهر إلى أن توفي سنة ١٠٨٢ هـ / ١٦٧١ م. وتعاقب دايياته بعد ضعاف الشخصية على حكم ليبيا وكثرت تهديدات الأسطوanel الأوروبية وإنجليزية وفرنسية، وكانتوا يشعرون التهديد بضعف طرابلس حتى تضطر إلى مفاوضتهم وإرجاع أسراه إليهم، وكانت طرابلس تردهم إليهم طلباً من دايياتها للمهادنة ورغبة في السلام. ومن خير ولاتها في أوائل القرن الثاني عشر المجري محمد الإمام الذي أقام علاقات حسنة مع بعض الدول الأوروبية وخاصة فرنسا، وبين له مسجداً يسمى  
 الترك وجند بناء هذا السوق وسوق المغيرة. وسمع الوالى بهذه خليل الأرناؤوطى (١٠٩٠ - ١٠٩٦ هـ) لإسبانيا بإقامة قنصلية لها في طرابلس، وكان ظلوماً غشوماً واتخذ بطانة له من النصارى ضعف دين وسوء سياسة.

وتتردى طرابلس ولبيا في هاوية من الصراعات والانقسامات، وينفذها منها إجماع رأى الإنكشارية على تولي أحد القرمانلى طرابلس ولبيا سنة ١١٢٣ هـ / ١٧١١ م وكان شخصية قوية، فأخذ يعمل على استقلاله بلبيا وطرابلس وجعلها وراثية في ابنائه، وتلقب بأمير المؤمنين، وأخذ يعني بشنون الدفاع عن طرابلس وتجديده أسوارها وأبراجها وتزويد المخون بمدافع من عبارات كبيرة، وبقي مسجداً كبيراً وألحق به مدرسة، كما بين بعض تصور له، منها قصر للأزيونيا الذي نفذ فيه مدبرته للإنكشارية، إذ دعاهم إليه، وقد أكمن لهم في سقوفه ودهاليزه من أغناهم حق يستطيع أن يحكم البلاد حكماً نظيفاً من شفهيهم، وكأنه حاكماً محمد على - فيما بعد - حين اغتال الماليك بالقلعة. وكان حكمه حكماً عادلاً رشيداً، وامتد إلى نحو خمسة وثلاثين عاماً، مما أعطاه الفرصة ليهضم بأعمال كبيرة، من ذلك إجراؤه الماء لطرابلس على حنایا ليسني به أهلها وينتفعوا به، ومنها بناء سوق فسيح الفناء وبناء بيوت ومقاصير أنيقة في القلعة، ومنها بناء فسقية بقرب البحر لينهل منها أهل السفن من أسطوله وغيرهم، وفي سنة ١١٤١ هـ / ١٧٢٨ م اندفع إلى طرابلس أسطول فرنسى في مظاهرة بحرية ليرغم القرمانلى على رد بعض غنائم لأسطوله ورد الحرية إلى الأسرى الفرنسيين ودفع بعض التعويضات، فرفض مطالبه بعنف، وأخذ الأسطول الفرنسي يقذف طرابلس بالقنابل قذفاً شديداً لمدة ثلاثة أيام والقرمانلى مصر على موقفه ونفذت ذخائر الأسطول الفرنسي فانسحب إلى البحر ولم يعد ثانية إلى المياه الطرابلسية. وحد له الطرابلسون هذا الموقف الشجاع. وانتشرت الحرارة التجارية لمدنه انتعاشاً كبيراً إلى أن توفي سنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٥ م وخلفه ابنه محمد حق سنة

١١٦٧هـ / ١٧٥٣م وكان عهده عهد أمن ورخاء واستقرار كمهد أبيه وخلفه ابنه على الذى ظل بيده صولجان الحكم في طرابلس ولبيبا نحو أربعين عاماً إذ توفى سنة ١٢٠٨هـ / ١٧٩٣م وغيبت الفترة الأولى من عهده بالأمن والرخاء ونشاط الزراعة والتجارة، حتى إذا كانت سنة ١١٩٩هـ / ١٧٨٤م حدثت كارثة خطيرة عصفت بطرابلس وإقليمها: كارثة مجاعة كبرى ظلت عامين وانتشر معها وباء الطاعون، وإنما لذلك اقتصاد طرابلس في العهد الأخير لم يمل القرمانلي، وظلت لهذا الانهيار بهذه آثار غير قليلة، وفي عهده أقيمت دول البحر المتوسط الأوربية قنصليات لها في طرابلس مع مصادقتها على ما مُنحته من امتيازات أجنبية، مما يدل على حقه وهو جه وقصر نظره. وبعد وفاته حدثت انقسامات بين أبنائه على الحكم، وقتل ابنه يوسف أخاه الحسن، وشق عصا الطاعة عليه أخيه أحد، وانتهز الفرصة مغامر عثماني هو على برغل كان يقود بعض سفن صغيرة مسلحة في البحر المتوسط، فنزل طرابلس واستولى عليها سنة ١٢٠٨هـ / ١٧٩٣م دون مقاومة تذكر، وغضب لذلك باي تونس، إذ استغاثت به الأسرة القرمانلية، وردت إليها سنة ١٢١٠هـ / ١٧٩٥م وتولى مقايد الحكم بطرابلس ولبيبا يوسف القرمانلي، ومهمها كانت الطرق التي سلكتها مع إخوته للاستيلاء على الحكم فإنه كان حاكماً ممتازاً، ونعمت البلاد في عهده بالأمن والرخاء والانتعاش التجاري ونشاط العلاقات بين طرابلس ومدن الشواطئ والانفتاح على الغرب والتعرف على مدنتيه، مما أعدّها لاستقبال العصر الحديث.

وكانت الأقطار العربية قد أخذت تستعد - منذ فاتحة القرن التاسع عشر الميلادي - لاستقبال هذا العصر عقب نزول الحملة الفرنسية مصر واندحارها بفضل مقاومة الشعب المصري. وقد أبىظ هذا الحدث الخطير البلاد العربية جميعاً من سبات عميق كان قد استغرقها منذ احتلال العثمانيين لأراضيها في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، وأخذت كل منها تستشعر شخصيتها وتحاول ابتعاتها ابتعاتها جديداً بصورة تختلف سرعاً عنها باختلاف ظروفها الخاصة، وكانت مصر أسرعها إلى هذا الانبعاث، وهو ابتعاث كان يقوم فيها - وفي جميع الأقطار العربية - على ركين: ركن التمسك بالتراث الإسلامي العربي على نحو ما يمثله الأزهر. وتفحص هذا التمسك في الرابع الأخير من القرن التاسع عشر عن ظهور الشيخ محمد عبده ودعوته الإصلاحية الدينية الكبيرة، والركن الثاني ركن التعرف على ما سبقت إليه أوروبا في ميادين العلم والأدب والحضارة، مما جعل مصر تسق شقيقاتها العربيات في إرسال البعثات إلى الغرب وإنشاء المدارس العلمية المختلفة في الطب وغير الطب لمهد محمد على. وفق رأينا أن فجر العصر الحديث بلبيبا أخذ ينشر أضواءه بطرابلس فيها لمهد يوسف القرمانلي وإن لم تكن أضواءه مكسحة، ولكنها أضواء على كل حال، إذ أخذ يوسف يحاول

افتتاح طرابلس على الغرب، عن طريق عنايته بأسطوله وما كان يجني منه من اتفاقيات الحماية الكثيرة لسفن الدول الأوروبية في البحر المتوسط. وكانت الدولة تأخذ من ذلك إتاوات واسعة تفرضها على تلك الدول، وكان من بينها السويد، فطالبتها يوسف بعاثة ألف فرنك هدية وبدفع إتاوة سنوية قدرها ثمانية آلاف فرنك. وامتنع قنصلتها في طرابلس من أداء ما طلبها يوسف، فأمر بإغلاق قنصليته، واستولى أسطوله على بعض السفن السويدية في البحر المتوسط، ووسع سلطه السويد نابليون عند يوسف، فوافق على أن تخفض الهدية إلى ثمانين ألف فرنك، وتظل الإتاوة البحرية السنوية كما هي: ثمانية آلاف فرنك، وأعاد يوسف إلى السويد سفناً الأسرية. ورأى في سنة ١٢١٧هـ / ١٨٠٢م أن يفرض على السفن الأمريكية التي تبحر عباب البحر المتوسط إتاوة سنوية على شاكلة ما يفرض على السفن الأوروبية، وأبى ذلك السفن أن تدفع شيئاً، فصادرها، وحاصر الأسطول الأمريكي طرابلس عشرين يوماً، وهزمه الأسطول الطرابلسي، فانسحب إلى مالطة - ووسط الأمريكيون القنصل الإنجليزي ووالى الم Razier الشمالي، وقيل يوسف وساطتها، ورد إلى الأمريكيين سفينهم.

و واضح أن طرابلس احتلت لمهد يوسف القرماني مكانة كبيرة في العلاقات الدولية لم تخط بها في أي عهد سابق، لا بما كانت تفرضه من إتاوات سنوية على سفن الدول الأوروبية فحسب، بل أيضاً بكثرة الوفود الأوروبية التي كانت تقدم على طرابلس للتفاوض والتصالح أو للتهديد وال بعيد أو لدفع الإتاوات المفروضة. وكل ذلك كان بشارة العصر الحديث في ليبيا واستئمار طرابلس لشخصيتها العربية بقوة، غير أن المسيحيين الأوروبيين كانوا لهذه النهاية بالمرصاد، فتجمعوا في مؤتمر إكس لاشايبيل سنة ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م وقرروا توسيع الدول الأوروبية منع الإتاوات البحرية لمن الشمال الإفريقي: طرابلس وغيرها وما يتصل بذلك الإتاوات من جهاد رجال البحرية الإفريقية في البحر المتوسط، وسموه قرصنة. وأخذت طرابلس تشهد مظاهرات واستعراضات لأساطيل إنجلترا ودول البحر المتوسط، وأخذت تلك الأساطيل ترغم يوسف القرماني على تحرير الأسري المسيحيين والكف عن الفارات البحرية، فقدت طرابلس مورداً كبيراً من المال كانت تعتمد عليه في إدارة البلاد ونهضتها، وأخذ يوسف القرماني يشعر بالضيق، ويزداد ضيقه سنة بعد أخرى لترافق الديون على الدولة، مما دفعه في النهاية إلى أن يتنازل لابنه على القرماني عن الحكم سنة ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م. ولم تكن تستدير ثلاثة أعوام حتى استردت الدولة العثمانية طرابلس ولبيبا، إذ أرسلت إليها حاكماً جديداً استسلم له على القرماني، وبذلك انتهى عهد الأسرة القرمانية في طرابلس ولبيبا، وتعاقب عليها ولاة عثمانيون طوال القرن التاسع عشر، وأخذ كثيرون منهم يستجيمون لمقتضيات العصر الحديث من التطور بطرابلس ولبيبا وبأسلوب الحكم.

وطلت صور التعليم القديم في الكتابات والزوايا وحلقات المساجد قائمة، وعُقِّ الفضمانيون بإنشاء مدارس تركية في مدن طرابلس والخمس وبنغازي ودرنة، وكان يراد بها إلى تغريب موظفي الدولة، وألم الطالب فيها ببعض العلوم المصرية مما يصلهم بالحياة المصرية بعض الاتصال، وأخذت إيطاليا تنشئ مدارس لها في طرابلس والخمس تصل من يتعلمون بها باللغة والثقافة الإيطاليتين إعداداً خبيثاً لما كانت تنتويه من احتلال لليبيا. وكان القرن التاسع عشر في ليبيا يحمل كل ذلك وأهم منه الزوايا السنوسية التي بدأ إنشاءها محمد بن علي السنوسي المجزائى الأصل والمولد والأسرة وكان قد طوف بالبلاد المغربية وتقلل في الصحراء الجنوبية لتلك البلاد حق السودان، وشاهد زوايا المتصوفة المنتشرة في تلك الأنتها، وأدى فريضة الحج سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٥م وظل بعدها خمسة عشر عاماً عرف في أثنائها الدعوة الوهابية وما دعوه إليه من الرجوع إلى مصادر الإسلام الأولى من القرآن الكريم والحديث النبوى، فرأى أن يدعو نفس الدعوة، وأن يتخد لدعوته نظام الزوايا المعروف في البلاد المغربية، ولكن أى بلاد المغرب يختاره لزواياه، إن الطريقة الشاذلية تعم المغرب الأقصى وتونس وتشمل المغاربة طريقة أبي مدين، وتزاحم الطريقيتين في تلك البلدان طرق أخرى بينما ليبيا - وخاصة برقة فيها - لا تشيع بها طريقة صوفية معينة، وكان قد زار أنتهاها البدوية ورأى أهلها غارقين في دياجير الجهالة بعياده الإسلام وتعاليمه وهم لذلك في حاجة إلى داع ودعوة تهديهم إلى سبيل الرشاد، ونزل برقة، وأنقام لنفسه الزاوية البيضاء في الجبل الأخضر بها، ورأى الناس يستجيبون لدعوته، فعاد إلى مكة وكان قد ترك بها أهله، ثم رجع إلى برقة ونقل مركز دعوته من الزاوية البيضاء إلى واحدة جغبوب، وأخذت الدعوة السنوسية تنتشر في عهده وعهد ابنه محمد المهدي، حتى أصبح لها نحو مائة زاوية في بوادي برقة وحضرها في بنغازي ودرنة، وبذلك عممت البقظة الإسلامية العربية التي كانت أصواتها أخذت تنتقل إلى طرابلس وإقليمها في عهد يوسف القرماني إذ أشاعت الدعوة السنوسية في بوادي برقة وحضرها، ولعل في ذلك كله ما يوضح كيف كان القرن التاسع عشر مبدأ تاريخ ليبيا الحديث وكل ما يتصل به من أدب وغير أدب.

# الفصل الثاني

## المجتمع الليبي<sup>(١)</sup>

١

### عناصر السكان

سكان ليبيا - منذ الأزمان السحيقة - سلالات عريقة من البربر الذين استوطنوا قديماً الشمال الإفريقي من مصر إلى المحيط الأطلسي، وانختلف المؤرخون في بيان أصل منشئهم، فمن قائل إن جدودهم هاجروا إلى بلاد المغرب من فلسطين، ومن قائل إنهم عرب هاجروا من جنوب الجزيرة؛ من حيث، ويقال بل إن أصلهم من عرب الشمال، ويقول الطبرى إنهم أخلاقوا من كنانع والعمالق وغيرهم، ويقول ابن خلدون إنهم من ولد كنانع بن حام، وعلى هذا النحو يضطرب المؤرخون في أصلهم وهل هم من العرب الساميين أو هم حاميون أو هم من الفلسطينيين الذين أخرجوا قديماً من ديارهم، ومعرفة أن قبائل منهم حين اعتنقوا الدين الحنيف وتعربت انتسبت إلى حير أو إلى بعض القبائل العدنانية، وهو إحساس عميق بأنهم يرجعون إلى أصول عربية.

وليس هؤلاء السكان للشمال الإفريقي هم الذين سموا أنفسهم ببربرًا، إنما ساهم بذلك الرومانأخذًا من الكلمة الإغريقية: «بربروس» ومعناها: الأجنبي الذي يتكلم لغة غير

وكتاب السير للشاعر ولبيبا في كتاب المفرغانيا  
والرحلات لإحسان عباس ومحمد يوسف نجم  
وتاريخ طرابلس الغرب لمحمود ناجي (طبع  
بيروت) وتاريخ ليبيا لإحسان عباس والإيمانية في  
موكب التاريخ لمصر وفتحات التراثين والليل  
العنبر لأحد النائب الأنصارى وأعلام ليبيا للزارى  
والنشاط الثقافى لأحد منتظر عمر ولبيبا في كتاب  
التاريخ والسير لإحسان عباس ومحمد يوسف نجم.

(١) انظر في المجتمع الليبي وسكانه ومعيشته كتب التاريخ قديماً وحديثاً وخاصة تاريخ ابن خلدون  
ووصف إفريقيا للحسن الوزان (طبع جامعة محمد  
ابن سعود) وتاريخ المقرب الكبير لمدحور، ورائع  
كتب الرحلات مثل رحلة التجانق (طبع تونس)  
ورحلة العبدى (طبع الرباط) وصورة الأرض  
لابن حوقل والمالك والممالك للبكرى وترجم  
المالكى في رباص التفروس وعلم الإيمان لابن  
الدباغ وابن ناجي والبيان المقرب لابن عذارى

مفهومه، إذ كان لسان المغاربة بالقياس إلى الرومان أصواتاً مبهمة لا يفهمونها. وحين فتح العرب البلاد المغاربة وجدوا هذا الاسم «البربر» يطلق على سكانها، فاستخدموه، ومن الغريب أن فعل بربر في العربية يعني قريب من المعنى الإغريقي، إذ يراد به التمتمة في الكلام بحيث لا يفهم.

ويقسم النّاسُون هذه الأمة الضخمة من حيث أسلوب الحياة إلى حَضْرٍ وبدو رَحْلٍ، ويسمون الأولين البرانس وهم سكان المدن الشمالية مثل هوارة ونفزاوة في ليبيا وتونس وكتامة وصنهاجة في المزائر ومصمودة في المغرب الأقصى. ويسمون الثانين الرَّحْلَ باسْمِ الْبَرْرَ وهم سكان المضاب والصحاري مثل لُواثته في برقة ونفوسه في طرابلس. والملحوظ أنَّ أهلَّ Libya كانوا يعيشون أولاً على الترحال وراء الماء، حتى قدم عليهم الفينيقيون في طرابلس واليونان في برقة، فأنشأوا المدن وأخذ الليبيون يستقرون فيها وراءها من السهول والوديان. وزُلِّ القرطاجيون مع الفينيقيين في طرابلس، واكتسح الرومان طرابلس وبرقة جيئماً. وبذلك تكاثرت العناصر التي نزلت Libya قدماً من الفينيقيين والقرطاجيين واليونان والرومان وزُلِّتها - وظلت تنزلاً - سلالات من الزنوج منذ زمن الفينيقيين بعامل الاتجاه في الواقع ومن أجل الانتفاع بهم في المزارع والماء، وكانوا يکترون في فزان. وزُلِّت Libya في زمن القرطاجيين - منذ القرن الثالث قبل الميلاد - جماعات من اليهود، وبالمثل بعد تجربة تيتوس لمعبد بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد. وزُلِّتها في القرن الخامس الميلادي جماعات من الواندال الألمان. وزُلِّها لخدمة الكنائس المسيحية بها بعض رهبان القبط المصريين. ومعنى ذلك أنَّ سلالات Libya الأصلية من البربر وفتَّ عليها عناصر جنسية أجنبية كبيرة من قارات العالم الثلاث القديمة: من آسيا ممثلة في الفينيقيين والقرطاجيين واليهود، ومن أوروبا ممثلة في الإغريق والرومان والواندال، ومن إفريقيا ممثلة في الزنوج والقبط المصريين. وهذا كلُّه قبل الفتح العربي، وأخذ ينزلها منه وبعده مزيد من الأجناس الواعدة وخاصة من العرب وج gio شهم الباسلة ومن كان بها من الفرس والمران والشام ومصر. ولا تنسى هجرة العرب الكبرى إلى Libya وإفريقيا في القرن الخامس المجري وقد استوطن بنو سليم برقة. ومنذ القرن السادس المجري (الثاني عشر الميلادي) أخذ ينزلها Andalusiون كثيرون في أثناء سقوط مدتهم في حجر الإسبان، وتكاثر نزولهم في أوائل القرن السابع عشر الميلادي حين أخرج الإسبان من بقى بديارهم من المسلمين. وزُلِّت طرابلس بعض أسر إسبانية حين احتلها الإسبان سنة ١٥١٦ هـ / ١٩١٦ م وبالمثل نزلتها أسر مالطية كبيرة حين احتلها بعدهم فرسان مالطة. وفي العهد المشافي الذي ظلَّ حقباً متطاولة نزل طرابلس وليبيا كثير من الترك والأسر التركية بجانب من نزلوها من الإنكشارية وجند الترك سوى عناصر الأكراد والشركس.

وقد اندمج كثير من هذه المناسير قديماً في البربر وحدثنا أو بعد الفتح العربي فيهم وفي العرب فقد ظلوا دانوا المناسير الأساسية في ليبيا وأكثروا نبلاً واحتراماً وشعراً بالشخصية، حتى لنتستطيع أن نقول بصفة عامة، رغم كل المناسير التي نزلت في ليبيا، إنها تكون واحدة كبيرة من عرب وبربر، بل لقد اندمج بعضهم في بعض بحيث لا تستطيع أن تعيز الوجه العربي من الوجه البربرى، بل لقد أصبحت الوجوه جميعاً ليبية لا فرق بين بربرى وغير بربرى.

## ٢

## المعيشة

منْ بنا أنَّ الفينيقيين أقاموا في طرابلس لتكون مركزاً للتجارتهم وأقاموا معها صبراتة غربها ولبلدة شرقها، وبالمثل أقام الإغريق في شرق Libya سيرين، وأضافوا إليها أربعة مدن: مدينة مكان سوسة الحالية، وبرقة، ومدينة مكان طوكره الحالية، وبنغازى. وكل هذه المدن حول طرابلس وفي شرقى البلاد كانت مراكز تجارية في المصور الساحقة، وظلت التجارة النشاط الأساسى لأهلها، يتخذونها معاشًا لهم طوال العصور الماضية، وأخذت تقام معها على الساحل الليبي مدن أخرى مثل زواوة غرب طرابلس وإلى شرقها ليبد وزمليطن ومصراته وسرت، ومثل أجدابية وطلسية ودرنة وطبرق في إقليم برقة، وسكن كل هذه المدن كانوا يعنون بالتجارة المتوسط شرقاً وشمالاً. كانوا يعنون - إلى جانب ذلك ببعض الصناعات اليدوية وصيد البحر، ويصف ابن حوقل - في القرن الرابع المجرى - طرابلس قائلاً: «بها من الفواكه الطيبة اللذينة كاللوز والكمثرى اللذين لا شبه لهما بمكان، وبها الجهاز الكبير من الصوف والأكسيه الفاخرة الزرق والكلحل التفوسية السود والبيض الشيمية» ولا يليث أن يذكر النشاط التجارى بها قائلاً: «إلى مراكب ترسو ليلاً ونهاراً وتتردد بالتجارة على مر الأوقات وال ساعات صباحاً ومساءً، من بلد الروم وأرض المغرب، بضرورب الأعتمدة والمطاعم» ويقول البكري: «طرابلس أسواق حافلة جامحة». ويصف نشاط طرابلس التجارى حين اكتسحتها موجات المجرة الأغاربية في منتصف القرن الخامس المجرى، ويعود إليها نشاطها في التجارة مع استيلاء دولة الموحدين إليها وعودة الأمن والاستقرار إلى ربوعها، وظلت إلى اليوم أهم مدينة تجارية في ليبيا.

وكانت برقة منذ نزها اليونان وأسسوا بها المدن الخمس المذكورة آنفاً تلعب دوراً كبيراً في التجارة بليبيا، وحين نزها ابن حوقل كانت لازال مدينة برقة (المرج منذ أواسط القرن السابع

المجرى) قائمة وتحدث عن نشاطها التجارى قائلاً: «وجوه أموالها جمة، وبها من التجار وكثرة الغرباء في كل وقت مالا ينقطع، طلباً لما فيها من التجارة، وعابرين عليها مغربين وشرقين» وقال إنها تتفرق بالتجارة في القطران والجلود المجلوبة للدباغة بصر والتمور الواسلة إليها من واحة أوجله (والواحات الأخرى) ولها أسواق عدة لبيع الصوف والقلفل والسلل والشعير والزيت وضروب المناجر الصادرة من المشرق والواردة من المغرب. وذكر ابن حوقل للقلفل يجعلنا نذكر كيف أن مينامي برقة وطرابلس كانا من قديم - كما مر بنا - مصدراً للقوافل المصعدة من السودان وأواسط إفريقيا إليها والمنحدرة منها إلى تلك الأنحاء، وكانت تلك القوافل تأقِّمَ عملاً بسلح الرقيق وريش النعام والماع أو سن الفيل والجلود، وتعمد محملة بسلح ليبيا والبحر المتوسط، بحيث ظلت ليبيا قرونا متطلة الباب أو المنفذ الكبير بين البحر المتوسط ولبلدانه الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية، وكان ذلك عاملاً قوياً في ازدهار التجارة بطرابلس وبرقة والموازن الساحلية بالإضافة إلى ما كان بليبيا من سلع كبيرة من مثل القمح والشعير والزيت والملح والجلود والتمور والسلل والبسط والسجاجيد والأكلمة.

وهذا النشاط التجارى لسكان ليبيا كان يرافقه نشاط زراعي حول المدن الساحلية حيث تكثر الأمطار ومن ورائها في السهول وفي وديان الجبال وفي المنطقة شبه الصحراوية والواحات من مثل واحة فزان. وتكثر زراعة الحضر والكروم والفواكه من كل صنف، وينمو الزيتون بكثرة في جبال طرابلس والجبل الأخضر ببرقة، وكانت روما قدماً تعتمد في الزيت على ما تستورده من معاصر طرابلس. وتنمو بليبيا أشجار المنان والجدارى التي تستخدم جذورها في الصبغة، كما تنمو في المنطقة شبه الصحراوية الخلفاء البرية ذات الأوراق الخيطية الشكل، وكانتوا يستخدمونها في صنع القفاف والحبال، وهي صالحة كل الصلاحية لصنع الورق. وبين الفلاحون العبّ وبحنون القمح والشعير. وكانت روما تعتمد قدماً على ما يأتيها من حبوب طرابلس، وبالمثل الإغريق بالقياس إلى ما يأتيهم من برقة، وما يدل - بوضوح - على أنه كان بليبيا قدماً نشاط زراعي واسع ما لا يزال مائلاً في كثير من أنحائه من مجاري المياه وقنواتها وسدودها وخزاناتها التي أنشأها الرومان والإغريق، وتعجب عنا كثرته الآن الرمال بقطنهما التفيلي التي ظلت تنسجه طوال القرون الماضية، وإن ليبيا لحريها أن يعود لها هذا المجد الزراعي الغريق. ولم يذكر أهم شجر يتراءى بقامته الهيبة في كل مكان بأنفعه لليبيا في السهل الشمالي وفي المنطقة شبه الصحراوية وفي جميع الواحات، وأقصد التخليل ونمارة من الطلع، ويقال إن بطرابلس من أنواعه ما يزيد عن ثلاثة نوعاً وأن في واحة غات وواحات فزان ما يبلغ خمسين نوعاً.

والزراعة لا ت局限 في ليبيا إلا الشطر الأقل في الساحل والسهل الريفي وسفوح الجبال وبعض الوديان في المنطقة شبه الصحراوية والواحات. والشطورة الأخرى الكبيرة من ليبيا

يمثلها من قديم يدو **رُحْل** يعيشون على رعي الأنعام والأغنام، وهم يربونها للحومها وأليافها وجلودها وأوبارها وشعرها وصوفها. وبنو الباري الأندلسي المتوفى سنة ٤٨٧ بكررة السانمة في ليبيا وغواها الواسع في مراعيها، ويقول إن كثرة ذبائح أهل مصر من ليبيها. وكان رعايتها من قبائل البدو الليبية يقتسمون مناطق الرعي بحيث لا يحق لقبيلة أن ترعى ما شنتها في منطقة قبيلة أخرى دون استئذانها، وإلا شهرت عليها المقرب، بالضبط كما كان يحدث بين القبائل في نجد بالجزيرة العربية. وكان الجفاف يصيب أحياناً ليبيا، فلا تنزل بها الأمطار التي تعودها، فيعاني أهلها مجاعة شديدة، وربما كان ذلك هو سبب إيقاعهم - أحياناً - بحجاج المغرب والأندلس، بالضبط كما كان يصنع أهل نجد - بسبب ما يعانون من فقر وضنك - بحجاج العراق والشام ومصر، على أنه كان من شيوخ الليبيين في قفار طرابلس وبرقة من يعمون الحجاج، مما جعل العبدري يشهد لهم في رحلته إلى الحج سنة ٦٨٩ للهجرة بأنهم لا يتعرضون للحجاج بأذى إلا في الندرة.

وبجانب هذا النشاط الرعوي والزراعي والتجاري الذي كان مصدر معيشة أهل ليبيا طوال العقب والقرون الماضية كانوا ينشطون من قديم في الصناعات اليدوية من مثل صناعة الزجاج وأنتهت التي مهر فيها الفينيقيون، وصناعة عصر الزيت من الزيتون، وكانت صناعة رائجة في عصر الرومان، إذ كانوا يعتمدون - إلى حد كبير - على ما يستوردونه منه من طرابلس، وهياكل الملحمات الكبيرة غرب طرابلس وفي بنغازى لقيام صناعة دبغ الجلد، كما هيأت لطبع الملح وتصديره، واشتهر بأنه لا يحتوى من سلفات الكلسيوم إلا على نسبة واحد في المائة مما يجعله نوعاً جيداً من الملح إلى أقصى غaiات الجودة. ويشتهر الجبل الأخضر في برقة بما ينتجه من عسل التحلل وشمعه، ويوجد المرمر في بعض جهات طرابلس وبنغازى وخاصة في غات، ومنه نوع وردى اللون وأخر ناصع البياض، وقد قامت حول اقتطاعه في عهد الإغريق والرومان صناعة نشيطة، وبدون ريب أثارت لها كثرة هذا المرمر تحت ما شاءوا من التماضيل والمعابد والصهاريج، ولا يزال أطلال كثير منها قائمة بليبيا إلى اليوم. وهياكل المراعلى الكثيرة في إقليم طرابلس وبرقة وما وراءها من الصحاري لكثرة الأصوات والأوبار المجزورة من الأغنام والماعز والإبل، مما أثار لقيام صناعات واسعة من النسيج: نسيج الملابس الرجالية والنسائية والسبعينية والبسط التي ي لأنها أشد الملامة الصوف الليبي لخشونته الطبيعية، بينما تلائم أوبار الإبل أقصى الحياة، ولا تنسى ما كان يتعيش عليه بعض أهل ليبيا على امتداد الساحل الشمالي من صيد المحيتان والأسماك، وعُنيت جماعة في طرابلس وأخرى في بنغازى بجلب الإسفنج الكبير في مياهها. وفي كل ذلك ما يوضح كيف أن ليبيا كانت - حتى المحرر الحديث - كثيرة الخيرات والطبيات من الرزق.

## الدين

كان شأن أهل ليبيا في العصور السحيقة شأن كل الأقاليم المغربية وتبين يبعدون الكواكب والنجوم من مثل الشمس والقمر والكواكب السيارة جميعاً ويقدمون لها التراين ويقيعون لها المعابد. ويبدو أن اليهود لما نزلوا بديارهم منذ القرن الثالث قبل الميلاد أخذوا يحاولون نشر دينهم بين المغاربة، ويظن أن بعض جماعات منهم تهودت قديماً وظللت جماعات منهم تعيش في المدن المغربية، وجاءهم مدد جديد حين قُوِّض الإمبراطور تيتوس معبدهم في بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد، وتلقاهم بعد إسلام أهل المغرب -بفضل تسامح الإسلام العظيم- متشارلين في إقليم طرابلس: في طرابلس نفسها وفي مصراته وسيرين، وبذكر المؤرخون والرحلة حارة لهم بطرابلس، ويقال إنها كانت شديدة القذارة كما يذكرون أنه كان لهم معبد خاص.

وكانت المسيحية منتشرة - قبل الفتح العربي - بالدن الساحلية في ليبيا وغيرها من البلدان المغربية، وكانت شائعة فيها بين سلالات الفينيقين والإغريق والرومان، بينما ظل جهود البربر وتبا. وربما اعتنق المسيحية بعض جماعات منهم في المدن لما رأوا فيها من الدعوة إلى العدل والمساواة، ولكن لاشك أن هؤلاء كانوا أقلية، إذ كان الشعب البربر يعدها دين حكامه الرومان المستبددين الطاغيين، وهو ما جعلهم ينفرون منها نفوراً شديداً وخاصة في المضاد والصحراء والجبال، ومع ذلك فقد سقط إلى هذه الأันداء بعض القسس حينما اشتد أوار الخلافات الدينية واضطرب بعض القساوسة إلى الغرار نحو الجبال أو نحو الجنوب، وأكبرظن أنهم حاولوا الدعوة هناك إلى المسيحية، غير أنها لم تجد بين البربر هناك آذاناً صاغية. ويدون ريب كانت المسيحية منتشرة - كما ذكرنا - بين المدن الساحلية، وربما عملت روما على نشرها منذ أعلن الإمبراطور قسطنطين سنة ٣١٢ للميلاد أنها دين الدولة الرسمي، وأخذت تصل على نشرها في البلاد التابعة لها. ويبدو أن القبط المصريون كانوا أسبق من هذه الحركة الرومانية في نشر المسيحية بليبيا إذ تحدث المصادر العربية عن مناطق بليبيا كان أهلها أقباطاً، ولا بد أن عملاً على نشر عقديتهم الأرثوذكسية المسيحية فيها، وبذلك عرفت ليبيا - قبل الفتح العربي - الكنيسة الأرثوذكسية المصرية كما عرفت الكنيسة الكاثوليكية عن طريق روما وتشيعها لها في طرابلس وغيرها.

وقد أخذ أبناء الكنيستان يتعايشون مع العرب في العصور الإسلامية بالرغم من أن المسيحية

ترجمت في ليبيا وكاد يُقْضى عليها الدين الحنيف، إذ نجد أبا عبد البكرى المتوفى سنة ٤٨٧ للهجرة يذكر أنه شاهد القبط في طرابلس وبرقة لا يزالون يحتفظون بالقبطية في زمانه ويتحدثون بها في لغتهم اليومية مع أنها كانت قد اختفت في ألسنة القبط بصر وحل محلها العربية إلا ما كان في بعض الأديرة المتمعة في الصحراء الغربية، وكان مما عمل على استمرار الكنيسة الأرثوذكسية وبقائها وجود أسر وسلالات من اليونان في ليبيا، ومعرف أن كنيستهم مثل كنيسة القبط المصريين أرثوذكسيَّة. ويدل على ذلك من بعض الوجوه أن نجد الواليين الشمانيين، محمد الساقلى وعثمان الساقلى يرخصان لليونانيين في زمنها بإنشاء كنيسة أرثوذكسيَّة قرب باب البحر وجعلها تابعة لباترك الإسكندرية. وطلت الكنيسة الكاثوليكية - منذ أنشأها الرومان - حيَّة في طرابلس، وكانت تبعها الجالية الرومانية القديمة، وظل يذهبها من تأسيرهم سفن طرابلس الغربية في البحر المتوسط من أوروبا الشمالية والغربية وخاصة من إيطاليا وإسبانيا، وكانت يعتقدون المقيدة الكاثوليكية المسيحية، ولابد أن عُنَي الإسبان حين احتلوا طرابلس سنة ١١٦٩هـ / ١٥١٠ م وظلوا بها عشرين عاماً بهذه الكنيسة، وبالمثل عُنَي بها فرسان مالطة حين تبعوا الإسبان في احتلالها لنحو عشرين عاماً أخرى، وقد كثُر في عهدهم نزول المالطليين بطرابلس، واستقرت بها من حينئذ بعثة الإرسالية الفرنسيسكانية للعناية بأمر المسيحيين وخاصة من كثر أُسرُّهم في البحر المتوسط من مسيحيي الغرب لمهد الشمانيين.

ويفتح عمر وبن العاص برقة سنة ٢١٦هـ / ٦٤١ م ويدور العام وتفتح طرابلس، ولم يكن العرب المسلمين غزاة فاتحين ينهبون البلاد التي يفتحونها ويصوّرون أهلها بالقهر والبطش كما كان الرومان والسوانديّون يصيّرون، بل كانوا - قبل كل شيء - ناسرين للإسلام وتعاليمه السمحّة، دون محاولة لإكراه المفارقة عليه، ودون أي محاولة لإساءة معاملتهم، ومع إنقاذهما مما كان يفرضه عليهم البيزنطيون والرومان من الظلم والاستعباد، ومع ما يدعوه إلى الدين الحنيف من عبادة الله واحد رحيم وسمت رحمة كل شيء، وهو دين الفطرة الإنسانية التي نظر الله الناس عليها، ليس فيه شيء من تجسيد اليهودية ولا من تثليث المسيحية التي يعزز المفربي عن فهمها وتصورها. المسلمين جميعاً عرب ومغاربة سواسية في الحقوق والواجبات ولا سيد ولا مسود. وأخذ الحكماء: عقبة بن نافع ومن جاءوا وراءه يصدرون عن هذه السياسة، وخاصة حسان بن النمسان (٧١-٨٥هـ) الذي سُرّ بين العرب والبربر في الفتن والخراج وعد أرضهم مفتوحة صلحاً لا فهراً فلم يسلّها منهم. وشعروا منهم بهذه المساواة الكاملة بينهم وبين العرب في جميع الحقوق انتظمت كنيسة منهم في جيشه تبلغ أثني عشر ألفاً كما يقول ابن عذاري تجاهد في سبيل الله نصرة لدينه. ويسعى انتشار الإسلام في عهد الوالي بعد موسى بن نصير (٨٥-٩٧هـ) من برقة إلى المحيط الأطلسي، إذ عمل - بكل جهده - على أن يعلم العرب البربر القرآن

وتعاليم الإسلام، ولم يكتف بانتظام جماعات من البربر في جيشه، فقد رأى إشراكهم في الحكم، وولى منهم طارق بن زياد على طنجة وإقليمها، وعهد إليه بقيادة جيش لفتح إبیریا، وكان جيشه مؤلفاً من سبعة عشر ألفاً من العرب واثني عشر ألفاً من البربر، كما يقول ابن عذاري - ويرسل عمر بن عبد العزيز على رأس المائة بعثة مكونة من عشرة فقهاء على رأسها إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر للدعوة للإسلام ونشره بين البربر.

ومنذ هذا التاريخ أصبح الإسلام دين البربر في كل مكان: في الحواضر والبلوادي وسفوح الجبال والمصايب والصحاري، ونعمت به ليبيا وغير ليبيا من بلاد المغرب، وقوّض الديانتين اليهودية واليسوعية، إذ انتشر بسرعة عجيبة لا في المناطق الشمالية المحدودة التي كانا يوجدان فيها فحسب، بل أيضاً بين سكان الصحاري والجبال، بحيث انتصروا في المغرب وجميع أرجائه تحت لوائه، وهو ما لم تستطع المسيحية أن تتحققه في عهد الرومان والبيزنطيين، بل إن من تبعها من البربر كانوا فتنة أو فتات قليلة، وأكملوا كان في الإسلام سحر جذبهم إليه، وليس السحر إلا ما قدمته من ملامدة عقيده للنفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها، وأيضاً لأنه يسوّي بين رعاياه القدماء من العرب والمحدث من البربر ويرفعهم إلى أعلى المناصب.

غير أنه بمجرد أن توفى الخليفة عمر بن عبد العزيز وتولى بعده يزيد بن عبد الملك ثم أخوه هشام، إذا ما يولياني على البربر ولاة باغين طاغين ظلموهم ظلماً شديداً، كما أسلفنا في غير هذا الموضوع، وكان أشدتهم بغياناً وطريقاناً عبيداً، فـ«بن العباس» هو وولاته، وبلغ من سوء سياسته أن أخذ يفرق بين العرب والبربر في الخراج وغير الخراج، فـ«عم الاستثناء» في كل مكان من سياسته، وأدھى من ذلك أن واليه على طنجة لم يكتف بالعدوان على البربر في الخراج، فقد أعلن أنه يربد تخميس أراضيهم متNASAياً أو متNASAياً عما أعلنه حسان بن النعمان في ولايته من أن أرض البلاد المغربية فتحت صلحاً لا قهر، فهو ملك لأهلها منهم ولا يصح العدوان عليها بحال من الأحوال.

## ٤

### الإبااضية والشيعة

كان طبيعياً - كما ذكرنا - أن تدور البلاد المغربية وأذكي ثوراتها وأذكى بوقود جزل دعابة المذهبين من مذاهب الموارج هنا مذهب الإبااضية ومنذهب الصفرية، عرفوهم بها وبدعوة الموارج عامة التي تندعو إلى الأخذ بنظرية الإسلام في المساواة المطلقة في الحكم وغير الحكم بين المسلمين جميعاً عرباً وغير عرب، فليس في الإسلام أشراف هم العرب ومشروفوون هم غير العرب.

والخلافة لا تُقْصَرُ على قبيلة قريش وحدها، بل هي حق للمسلمين جميعاً، يتولاها أكفوهم سواءً أكان عرباً أم غير عربي، سواءً أكان قرشياً أم هنرياً أم عبداً حبشاً.

### (١) الإباضية

اعتنق عقيدة الإباضية في طرابلس وجبل نفوسه كثيرون، ومرّ بنا إشعاعهم لنورات في طرابلس منذ سنة ١٢٦ للهجرة إلى أن أخذتها سنة ١٤٤ الجيوش العباسية نهايًا إلا ما كان من حركات صغرى في طرابلس وجبل نفوسه قضى عليها يزيد بن حاتم الملهبي حين ولاد المتصور سنة ١٥٤ للهجرة كثرة أبي حاتم الإباضي وثورة أبي يحيى المواري، وكان الحكماء - وخاصة حكام الأغالبة - يستطعون داتها قمعها، ولكن دون أن يستطيعوا القضاء على الدعوة. فضاء ميرما، فقد ظلت حية هناك حياة مستمرة إلى اليوم.

وكان ينبغي أن يشيد الباحثون الغربيون بالإسلام وأنه استطاع في نحو ثمانين عاماً أن ينتشر في ديار المغرب: في مدنه وجباله وصغاره وبواديه وأن يمتلك من المقاربة أوقل من البربر قلوبهم وأفندتهم بحيث أصبحوا يخلصون له ومحلون السلاح مع أهله للدفاع عنه ونشره في أقصى بلادهم المغربية وفي الأندلس، كما مر بنا، واغتنوا لغته لغة قومية لم يروشت - أو أخذت ترسخ - بينهم في الجبال القاصية، بينما ظل الرومان قرونًا متاعبة يحكمون بلاد المغرب ومحارلون - بكل ما وسعهم - نشر لغتهم اللاتينية فيه ونشر عقيدتهم المسيحية، وخاصة منذ عهد قسطنطين وإعلانه أنها دين الدولة الرسمي، وظل البابا وقسسه ورهبانه يجاهدون في نشرها بين البربر دون جدوى إلا ما كان من نفر ضئيل في المدن الساحلية الشمالية، وبدلًا من أن يسجلوا ذلك ويعرفوا بذلك بمبادئه الروحية البسيطة التي لقيت استجابة لا غالاتها استجابة لا في البقاع المغربية وحدها بل في كل البقاع التي فتحها العرب الأولون: بقاع العراق وإيران والشام ومصر، إذ سرعان ما دخل أهلها جميعاً في الدين الحنيف بمجرد أن وقفوا على مبادئه وتعاليمه الدينية الروحية، أقول بدلًا من أن يسجل الباحثون الغربيون هذه الظاهرة الكبرى للإسلام بالقياس إلى المسيحية وما تحمل من عقيدة التسلية المقددة نرى نفراً منهم يطلب لهم أن يزعموا زعمًا باطلًا أن حركات الإباضية بليبيا في القرن الثاني الميلادي وبالمثل حركات الصفرية في المغرب الأقصى والأوسط كانت حركات استقلالية قومية<sup>(١)</sup>، وهو زعم مخطئ أشد الخطأ، إذ لم يحاول أحد من البربر في تلك الحركات الردة - أو الدعوة إلى المسيحية، كما لم يحاول أحد الردة، أو الدعوة إلى العودة إلى اللاتينية التي كانت منتشرة في المدن الساحلية

الشمالية وأخذت تنسحب أمام العربية دون عودة. ومن أكبر الأدلة على أن الدين الحنيف ولته احتلاً قلوب المغاربة وتقللها إلى السويدة منها أن نجد قبائل بربية كبيرة تصطعن لها أنساباً تصلها بالعرب الجنوبيين في اليمن أو بالعرب الشماليين سكان نجد، ومن يرجع إلى قواد نورات الإيابية في طرابلس ونفوسه الذين ذكرناهم في غير هذا الموضوع يرى أنهم كانوا عرباً، ولم يكونوا من البربر، إذ كانوا فعلاً بين تجبيس وحضرمي ومرادي ومعافري، وجميعهم من العرب، مما يدل دلاله قاطعة على أن نورات الإيابية في طرابلس وجبل نفوسه - وبالمثل نورات الصفرية في المغرب الأقصى والأوسط - لم تكن نورات بربية قومية، وإنما كانت نورات إسلامية ضد الحكم الفاشيين الذين انحرفاً عن مبادئ الإسلام في سياسة البربر وحكمهم، فأهدروا حقوقهم وفرضوا بينهم وبين العرب في الشتآن المالية وغيرها. هي إذن نورات كانت تستند من روح الإسلام ومقاصده وتعاليمه في نشر العدل والمساواة بين شعوبه عرباً وغير عرب، وأيضاً فإن هذه النورات لم تقم على مبادئ بربية إقليمية أو قومية، إنما قامت على مبادئ فرقتين من فرق المخوارج في عُمان وال العراق، وقد تقيناً فيها سواء الإيابية أو الصفرية أغراضها وأهدافها إسلامية في الحكم وتطبيقة وما ينبع فيهم من المساواة والمعدالة المطلقة بين المسلمين جميعاً عرباً وغير عرب.

وحرى بنا أن نتوقف قليلاً لنعرف مبادئ الإيابية التي شاعت في طرابلس وجبل نفوسه، وأول مبدأ لهم أن الخلافة - أو كما يسمونها الإمامة - ليست حقاً لقريش ولا ميرانا لأسرة قرشية، بل هي حق الله وللمسلمين جميعاً، وينبغي أن يتولاها خير المسلمين نقوى وزهداً وورعاً وتطبيقاً ل تعاليم الإسلام في الحكم القائمة على المدارلة والمساواة، وهم يفترون عن عامة المخوارج في أنهم لا يعدون مرتكب الكبيرة كافراً، بل يعدونه مسلماً عاصياً ولا يعدون دار المسلمين سواهم دار حرب وينبغي أن يحملوا السلاح دانياً ضدهم، وأيضاً فإنهم يتوارثون معهم وحملون الزواج منهم، وهم بذلك أكثر مذاهب المخوارج قرباً إلى الجماعة الإسلامية، حتى يمكن أن يُفصلوا عن المخوارج ويُلحقوا بتلك الجماعة. والمعروف أن مؤسس العقيدة الإيابية هو عبد الله بن إباض التميمي، وعنه حلها جابر بن زيد الأزدي العماني، وعن جابر حل لواءها أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي ولاء البصرى موطننا، وقد أرسل سلمة بن سعد أحد تلاميذه إلى جبل نفوسه ليدعو الناس للدخول في عقيدتهم الإيابية، واستجواب له كثيرون فاختار منهم خمسة للقاء ابن أبي كريمة بالبصرة، وعادوا ملوكين حاسة للعقيدة أو الدعوة، وأخذوا ينشرونها في جبل نفوسه وطرابلس وإقليمها، حتى إذا كثر أتباع الدعوة أخذوا يثورون على الدولة الأموية ثم على الدولة العباسية على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع.

إذا كان الإيابية نجحوا في أن يظل جبل نفوسة موطنًا لهم إلى اليوم وبعض أنحاء من طرابلس وإقليمها فإن الدعوة العبيدية الإسماعيلية، على الرغم من أنها أستطاعت لها دولة في إفريقيا التونسية وانضوى تحت لوائها المغرب جمهوره من برقة إلى المحيط الأطلسي فترة غير قليلة في القرن الرابع المجري، لم تستطع أن تبقى في طرابلس وإفريقيا التونسية إلى ما بعد القرن الرابع. والمعروف أن فرقة الشيعة الإمامية انقسمت منذ أواسط القرن الثاني المجري إلى اثنى عشرية يؤمّنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق سادس الأئمة الفاطميين إلى ابنه موسى الكاظم، ويدين بذلك الآن شيعة العراق وليران، وإلى إسماعيلية يؤمّنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل المتوفى في حياته، لأن الإمامة تنتقل في عقيدتهم إلى الابن الأكبر حتى لو مات في عهد أبيه، ونظم هذه الدعوة عبد الله بن ميمون القذاح واغتصد مركزاً لها قريبة سلسلة بقرب اللاذقية، وأخذت تنتقل الإمامة في تلك الدعوة سراً من أبي لابن، حتى إذا كان في آخر القرن الثالث المجري كان الإمام عبد الله المهدى، وتسلّل أحد دعااته الدهاء أبو عبد الله الصناعي إلى الجزائر، واستطاع أن يقنع بتلك الدعوة الشيعية قبيلة كُتامة، ولم يلبث أن قضى بها على الدولة التي كُوِّنتها الإيابية في تيهرت بالجزائر، والأخرى التي كُوِّنتها الصفرية في سجلماسة جنوب المغرب الأقصى، وقد من كاتمة حلة قضى بها على دولة الأغالبة في إفريقيا التونسية سنة ٢٩٦ وكان قد ظل يدعوا للرضا من آل البيت، حتى إذا قضى على الأغالبة كشف النقاب عن وجهه، فأعلن قيام الدولة الفاطمية الإسماعيلية، واستدعاها من سلسلة الإمام المستتر بها أو المختفي عبد الله. ووصل القิروان سنة ٢٩٧ وبويغ بالخلافة بيعة عامة، ويسمى مؤرخو إفريقيا التونسية الدولة باسم الدولة العبيدية نسبة إليه، وخاصة أن بعض المؤرخين تشکك في نسب هذه الدولة إلى السيدة فاطمة بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غير أن ابن خلدون أكد صحة نسبتها إليها وأنها فاطمية حقاً. وكان طبيعياً أن يحاول عبد الله - حين بويغ له بالخلافة - الاستيلاء على ليبيا ونشر الدعوة الإسماعيلية بها، لما فيها من طيبات الرزق، ولأنها طريقة إلى مصر الأمارة. وب مجرد استيلائه على القิروان تبعته طرابلس إذ كانت تتبعها في أيام الأغالبة، وولى عليها كُتاماً سنة ٢٩٨ فسلط جنده الكُتامي على أهلها من قبيلة هوارة، فغضبوه غضباً شديداً وفتوكوا بجنده، ولم يلبيت جيش كاتمي أن حاصرها، ولم يفك حصاره لها إلا بعد أن أغمر أهلها غرامة ضخمة: ثلاثة ألف دينار، وحاول عبد الله المهدى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برقة إلى دولته واستعتصمت عليه، فأرسل إليها جيشاً كاتماً على رأسه قائد يسمى حبابة الكاتمي، ففتح بكتيرين من أهلها واستتصفى أبوالهم، وغرم أهلها مائة ألف دينار، وعادت برقة سريعاً إلى الثورة سنة ٣٠٤ للهجرة، ورددتها أحد قادة عبد الله إلى الطاعة. وثار الإيابية في جبل

نفوسة سنة ٣١٠ وهزموا جيشين لم يبد اقه، وأخيراً انتصر جيش له على إباضية نفوسه، واستكانت ليبيا - منذ هذا التاريخ - لحكم الفاطميين طوال بقائهم في إفريقيا التونسية وفترة بعد مغادرة المعز العبيدي لها إلى القاهرة ولكنها كانت استكانة على مضض غير قليل، فقد ظلَّ منْ بها من الإباضية في جبل نفوسه وأنحاء طرابلس يعادون الدعوة العبيدية - أو الفاطمية - الإسماعيلية، كما ظل أهل السنة الذين تألف منهم جامعُ غفيرة في طرابلس وبرقة يستنكرون الدعوة الإسماعيلية الشيعية ويرفضونها رفضاً باتاً. ويعبرد أن انسحب حكمهم من إفريقيا التونسية في عهد المعز بن باديس (٤٥٤-٤٥٦ هـ). انسحب معه عقيدتهم الإسماعيلية لا في إفريقيا التونسية وحدها بل أيضاً في طرابلس وإقليمها وجبل نفوسه، وبقيت تلك العقيدة ظلال باهنة في برقة لأنها كانت تتبع الدولة الفاطمية في القاهرة، أما في طرابلس وإفريقيا التونسية وما ورائها من البلاد المغربية فإنه لم يبق لها أى ظلال لا باهنة ولا غير باهنة، ويرجع ذلك في رأينا إلى انحراف الشديد في انحراف مبادئها عن الدين الحنيف وتعاليمه، حق لتنسلخ جلة عنه، إذ تخيط أنتها بهالة من التقديس لا يقرها الإسلام حتى لتزعم عصيّتهم راقعة لهم فوق المستوى الإنساني، بل إنها لتزعم أن الإمام العبيدي الإسماعيلي هو التجسد الرباني للذات العليّة على الأرض، وهو لذلك المشرع وصاحب الأمر العالم بالغيب وما سُجّل في ألواحه، وكل صفات اقه - جل جلاله - إنما هي صفاتِه، إلى غير ذلك من مبالغات بل من ترهات، سُولت بعض دعاة الخليفة العبيدي الحاكم بأمر اقه أن يدعوا إلى عبادته، وقد عرضت مبادئ هذه الدعوة الصالحة بالتفصيل في الجزء الخاص بصر من هذه السلسلة الخاصة بتاريخ الأدب العربي، موضحاً كيف أن مصر انصفت عنها، بل رفضتها رفضاً، وهو ما حدث في طرابلس والبلاد المغربية، وكأنما دخلتها جميعاً - حين كانوا يحكمونها - من باب شديد الضيق، ثم خرجت بهم - حين رحلوا عنها - من باب آخر ولم تترك وراءها أثراً. وعبثاً حاول أبو عبد اقه الصناعي أن يقنع بها فقهاء القبور وردوها عليه ردوداً مفخمة، وأحسن عبيد اقه المهدى - بوضوح - نفور الناس من عقيدتهم الإسماعيلية نفوراً شديداً، فطلب إلى دعاتها أن يخفقوا من النشاط للدعوة لها، وبين «المهدية» على رأس باز في الساحل على البحر المتوسط شرقى سوسة، وأحاطتها بأسوار عالية قوية مع أبراج ضخمة وأبواب مصفحة بالحديد - كما يقول الحسن الوزان في وصف إفريقيا - سنة ٢٠٥ ونقل إليها أسرته وأمواله وجنده حق يأمن على نفسه. وطلت طرابلس وإقليمها بل أيضاً برقة وإقليمها كما طلت إفريقيا التونسية مزروتين عن الدعوة الشيعية، وطلت الجماهير فيها جميعاً مرتبطة بذاته أهل السنة إلى أن خرجت طرابلس وإقليمها كما خرجت إفريقيا التونسية من الدعوة السيدية الإسماعيلية في عهد المعز بن باديس على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضوع.

## الزهد والتصوف

ازدهر الدين الحنيف في جميع أنحاء ليبيا منذ القرن الأول المجري، وأخذت مساجده تُبني في كل مكان: في الحضر والبلدو، ويرمز إلى ذلك المسجد الجامع الذي بناه فاتح ليبيا العظيم عمرو بن العاص في طرابلس أيام باب قبيلة هوارة، وتتفاوت ولاية طرابلس ولبيبا بهذه في بناء المساجد وخاصة ولاية الدولة الأغلبية، وخلفتها الدولة العبيدية، فعن المهدى ببناء جامعها المنسع الأعظم، وبني ابنه القائم جاما حسن البناء في مدينة أجدابية. وكان الشعب يشارك في بناء الجامع والمساجد فاكتنفت بها ليبيا، وكانت جميعاً بيوتاً كبيرة للعبادة والنسك، وكانت حلقات الفقهاء والعلماء فيها أشبه بمدارس للتعليم والدراسة، واشتهر كثيرون في جميع أنحاء ليبيا بأنهم كانوا زهاداً في المتعة الدنيا وأنهم كانوا عباداً سُاكاً ينتظرون ما عند الله من ثواب الآخرة، ويسوق المالكي في رياض النقوس وابن الدباغ في معالم الإيمان والتوجان في رحلته المشهورة وأحد النائب في نفحات النسرين والمتهل العذب والطاهر الزاوي في أعلام ليبيا أسماء عشرات من زهاد ليبيا وساكها على مر القرون.

ومن ذكره من زهاد ليبيا وساكها عبد الله الشعاعب المتوفى بعد الأغالبة سنة ٢٤٣ للهجرة ولد بطرابلس ونشأ بها، وكان نجارة لا يأكل إلا من كسب يده، وقُمّ بناء مسجد كان البناء فيه توقف، وسكنه وعاش يبعد لربه فيه، وُنسب إليه إذ سمي بمسجد الشعاعب ويقول متوجه إنه كان من كبار الصوفية والنساك الورعين، ومن هؤلاء النساك عبد الجبار السُّرقي المتوفى سنة ٢٨١ كان يختتم القرآن مرة كل ليلة وختمه في مسجده أكثر من ألف ختمة، ومنهم عبد الله بن إسماعيل البرقى المتوفى سنة ٣١٧ وكان يختتم القرآن يومياً، ومنهم سعيد بن خلفون المتوفى سنة ٣٦٢ وكان من أكبر الصوفية واقفاً على المارف اللدنية والقدسية وكان يسكن بمسجد متسبب إليه في طرابلس، وكان للناس اعتقاد فيه حق لقبه بلقب المستجاب وأكثروا من الحديث عن كراماته، وكان يعاصره بطرابلس ابن زكرون على بن أحمد بن زكريا ابن الخطيب المتوفى سنة ٣٧٠ وكان يستخدم مسجد المجاز في بلدته مسكنًا وموئلاً له، وكان عابداً ناسكاً ورعاً، وكان يعاصرها أبو نزار خطاب البرقى المتوفى سنة ٣٧٣ وكان يعاشر الصوفية ويزرع متنزعهم، وكان مثل صاحبيه يسكن جامعاً إلى الشرق خارج المدينة. ومن كبار الزهاد بطرابلس في القرن الخامس المجري أبو الحسن السيقاطي المتوفى سنة ٤٢٠ للهجرة وكان يتبعه مسجد سيقاطة على ساحل طرابلس. وأبو مسلم مؤمن بن فراج الهواري المتوفى

سنة ٤٤٢ للهجرة وله مسجد كان يتعبد فيه ويدرس طلابه منسوب إليه.

ويتكاثر زهاد ليبا ونساكها ومتصوفتها في القرون التالية، وهم أكثر من أن نحصيهم ونعدّهم عدًا، وقد أخذ نفر منهم - منذ القرن السابع - ينتهي إلى الطرق الصوفية السنّية، وطبعوا أن لا يتسبوا إلى الطرق الصوفية الفلسفية عند أبي مدين وأبن عربي وأبن سبعين وأضرابهم إذ لم يكن أهل ليبا يأخذون أنفسهم بشيء من الفلسفة أو الفلسف يفسح هذه الطرق بينهم، ونظن ظننا أن بعض زهادها ونساكها تبع الطريقة الشاذلية الصوفية<sup>(١)</sup> السنّية التي أخذت تشيع في تونس ومصر منذ أواسط القرن السابع المجري حين أسمها بتوس أبو الحسن الشاذلي، ثم غادرها إلى القاهرة، وكان من أهم تابعه فيها ابن عطاء الله السكندرى الذي اشتهر بحكم له بدعة. ويلقانا من كبار أتباع الطريقة الشاذلية في القرن التاسع الشيخ زروق المولود بمدينة مصراته شرقى طرابلس سنة ٨٤٦ للهجرة، وقد رحل إلى القاهرة ودرس بالأزهر وأخذ عن علمائه، وبيدو أنه اعتنق الطريقة الشاذلية حينذاك، وكان فقيها مالكيًا ضليعاً ولهم مؤلفات مهمة في الفقه المالكي، وأكثر مؤلفاته في التصوف وبخاصة في الطريقة الشاذلية ولهم فيها خطوطه بدار الكتب المصرية بعنوان أصول الطريقة الشاذلية، وخطوطة ثانية شرح فيها حزب الشاذل المسئى بحزب البغر، ويقال إن له ستة عشر شرحاً لحكم ابن عطاء الله السكندرى، وطبع أحد هذه الشروح بالقاهرة مراراً، وطبع له في القاهرة كتاب بعنوان قواعد التصوف. وتوفي زروق بصراته مسقط رأسه سنة ٩٩٩ للهجرة.

ويلقانا بعده من أتباع الطريقة الشاذلية المزروبي محمد بن علي المتوفى سنة ٩٦٣، وكان أبوه من تلامذة الشيخ زروق، وعنه أخذ الطريقة الشاذلية، وتوفي فرعاً عنه أمه وكانت سيدة صالحة، فلقتته كثيراً من المدانع النبوية والتراطيل الدينية، وكان لها ابن عمّة شاذلية، فدرس عليه المزروبي مسائل الطريقة الشاذلية وحكم ابن عطاء الله السكندرى، وانتمج روحاً في تلك الطريقة طوال حياته، وله شرح لحكم ابن عطاء الله، وفي دار الكتب المصرية له تفسير خطوط كبير. ومن أكبر أتباع الطريقة الشاذلية في القرن العاشر المجري عبد السلام الأسرم المولود بمدينة زليطن شرقى طرابلس ولifetime سنة ٨٨٠ للهجرة، وكان صوفياً مجذوباً في حب ربِّه، وكانت تعتريه حالات وجد وهياك شديدة واستخدم في حلقاته وبجالسه الدف والبندير والفناء والرقص، مما جعل كثيرين من معاصريه النساك ينتقدونه نقداً شديداً، واضطرب ذلك إلى المفروج عن بهذه مراراً إلى جهات مختلفة في ليبيا وفي إفريقيـة التـونسـية، واستقر أخيراً في زاويـة يـستـقـطـ رـأـسـه زليـطنـ إلىـ أنـ توفـيـ سـنةـ ٩٨١ـ للـهـجـرـةـ،ـ وـكانـ يـقـرـأـ لـاتـبـاعـهـ فـيـ الزـاوـيـةـ كـثـيـرـاـ مـخـلـقـةـ فـيـ التـوـحـيدـ

---

(١) انظر في هذه الطريقة ومؤسسها أبي الحسن الشاذلي وتابعيه ابن عطاء الله السكندرى كتابنا في

والفقه المالكي، كما كان يقرأ لم حكم ابن عطاء اقه السكندرى، وله مؤلفات مختلفة في التصوف، وكان له مربيدون كثيرون لزمهو في حياته من بيته مثل ابنه عمران ومن غير بيته مثل إبراهيم بن علي العوسجى المتوفى سنة ٩٩٨ ومثل كريم الدين البرموم المصرانى المتوفى بأخرة من القرن العاشر الهجرى وله كتاب في أستاذة. ويتکافئ الزهاد والصوفية في ليبيا طوال المصر الشماوى، وتتكافئ زواياهم وتعتم في البلاد الطريقة الشاذلية، وتزاحها بعض الطرق الصوفية السننية، ولكن تظل لها الفلاحة.

## الفصل الثالث

### الثقافة

١

المركة<sup>(١)</sup> العلمية

(أ) فاندون وناشرون للإسلام

منذ فتح عمرو بن العاص لليبيا ولولاتها يُعْتَنَى بنشر الدين النبِيِّ وتعاليمه وثقافته فيها، فقد كان ذلك بداية المثل والقصد الأسni من الفتوح الإسلامية لا في ليبيا وحدها، بل أيضاً في كل ما فتحه المسلمون في عهد أبي بكر وعمر وعثمان، ولذلك نرى ولادة المغرب في ليبيا وغير ليبيا يُعْتَنَى بهم من جنودهم - وخاصة من أقاموا واستوطنوا هناك - إلى تحفظ البربر القرآن الكريم وتعليمهم مبادئ العِرْبِيةِ كي يستطيعوا تلاوته تلاوة سلية، وحثُّهم على ذلك - بقوة - عقبة بن نافع مؤسس مدينة القيروان في أواسط القرن الأول المجري، وبالمثل مؤسس مدينة تونس: حسان بن النعمان (٧١ - ٨٥ هـ) واتسع خلقه: موسى بن نصیر - في هذه الغاية من تعليم البربر القرآن وتعاليم الإسلام، ويقال إنه كلف بذلك سبعين رجلاً من جنوده بهم في قبائل البربر، ويقال: بل إنه جعل ذلك فريضة على جميع جنود العرب الفاتحين.

والذكاري لابن خلدون وحكاية مدينة خلمقة محمد والبهان المقرب لابن عذاري وترجم معلم الإياع التلمس و تاريخ المغرب الكبير لدبور ونفحات الترسين والنهل الندب لأحمد النائب وكافي أعلام ليبيا ومعجم البلدان للزاوى وأعلام من طرابلس للمرقاق والإيابية في موكب التاريخ لمصر وكتاب الشاطئ الثقافي في ليبيا لأحمد عختار عمر وتاريخ ليبيا لإحسان عباس وتاريخ طرابلس الفرب لمحمود ناجي.

(١) راجع في ثقافة ليبيا رياض النفوس للصالكي والبهان المقرب لابن عذاري وترجم معلم الإياع لابن الدباغ وابن ناجي والسير للشاخت وطبقات النحوين واللغويين للزبيدي وإناء الرواة للقططي والديبايج المنصب لابن فرجون وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي وتاريخ ابن خلدون والأنساب للسعاني وكافي الأزمدة والأئمة وكفاية التحفظ و نهاية المنطق لابن الأجدابي ورحلة التجان ورحلة العياشي والرحلة المغربية للصبرى

ولابد من ملاحظة أن البرير الذين اعتنوا الدين الحنيف أخذوا يشتغلون مع الجيش العربي في الفتوح وحرب الكفار، وكان زملاؤهم من العرب في حل السلاح يلقنونهم آى الذكر الحكيم ومبادئه الإسلام وتعاليمه، ويذكر المالكي في كتابه «رياض النفس» أن جيش زهير بن قيس والى المغرب بعد عقبة بن نافع كان مكوناً - في بعض حربه لكسيلة الشائر المغربي - من ألفين من البرير وأربعة آلاف من العرب، كما يذكر ابن عذاري في كتابه «البيان المغرب» أنه كان في جيش حسان بن النعمان (٧١ - ٨٥هـ) اثنا عشر ألفاً من البرير، ويذكر أيضاً أن جيش طارق بن زياد البريري والى طنجة لموسى بن نصير كان مكوناً - في فتحه لإيبيريا - من سبعة عشر ألفاً من العرب واثنتي عشر ألفاً من البرير، ويعقب ابن عذاري على ذلك بأن موسى بن نصير «أمر العرب أن يتعلموا البرير القرآن وأن يفهموه في الدين». ومعنى ذلك أن الجندي العربي الذي كان يعيش الجندي البريري في حرب الكفار ونشر الإسلام كان يعلمه القرآن وتعاليم الإسلام الدينية. وبصورة ذلك من بعض الوجوه ما رواه الشماخى في كتابه السير عن عمر بن يحيى أول معلم من البرير للقرآن الكريم في جبل نفوسه بطرابلس قبيل اشتراكه في ثورة أبي الخطاب المعاورى سنة ١٤٠ للهجرة وتوليه له على مدينة سرت، فقد روى عنه أنه تعلم القرآن بطريق (مقدام) كان يتلقى فيها السابلة والمارة من الشرق (يريد الجندي العربي الداخل إلى إفريقية التونسية) فيكتب عنهم لوحًا من القرآن وينصرف إلى منزله، فإذا حفظ ما فيه رجع إلى المحجة (الطريق) فيكتب من المارة والرفاق كذلك حتى حفظ القرآن وتعلم العلم. ويقول الشماخى إنه «كان يصنع ذلك لحرصه على طلب العلم والقرآن في أول الإسلام وقلة المعلمين في البلدان». وظن أنه إنما كان يصنع هذا الصنيع حق يتلقى بدقة أداء ألفاظ الذكر الحكيم على وجوهها الصحيحة، لأن أداءها لا يمكن فيه ما كتب في مصاحفه أو في الصحف، بل لابد في القرآن الكريم من أخذها شفاهًا، حتى يحكم الشخص ثلاثة آياته بنطقها وأدائها الدقيق، وهو ما دفع ابن يحيى إلى أخذها شفاهًا من أفواه السابلة والمارة من الجندي العربي الداخل إلى إفريقية التونسية والبلاد العربية. وفي هذا المبر ما يوضح مدى ما أدائه الجندي العربي القاتل للمغرب-حق المارة منهم بالطرق-في تحفيظ القرآن وحسن أدائه للمغاربة شباباً وغير شباب، ويقول ابن يحيى إنه تعلم - من مارة الجندي أيضاً - العلم يريد تعاليم الإسلام والفقه بالدين الحنيف. فأينما كان الجندي العربي مجاهداً في سبيل الله مع البرير ومقابلاً بين ظهرانيهم وما رأوا بطرقائهم كان يعني بشدة أزرهم في حفظ القرآن الكريم والمعرفة الدقيقة بمبادئه وتنافذه البصيرة بتعاليمه.

## (ب) الكتاتيب

إنما من الولاة في ليبيا وغير ليبيا من أن الدين الإسلامي العظيم جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم حق يعلم بدقة فروض دينه وتعاليمه أخْلُوا بِنَاءً كاتيب لحفظ فيها ناشطة البربر القرآن وتعرف مبادئ الشريعة الإسلامية، وكان المعلومون فيها يبدعون بتعليم القراءة والكتابة وبعض مبادئ العربية، لإحکام النطق السديد بالفاظ الذكر الحكيم. وكانت تلك الكتاتيب تلحق بالمساجد أو تخصّص لها غرفة بداخلها ثم أخذت تشيع في المدارس والدربوب بالمدن وفي الواحات والأحياء بالواديان، وظلت تحمل في ليبيا وغير ليبيا محل التعليم الابتدائي في عصرنا، وكانت الناشطة تزود فيها ببعض الأحاديث النبوية وببعض سيرة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، وكانت تزود فيها بمبادئ الحساب، وأهم من ذلك تعلم فروض الإسلام وخاصة الصلاة وكيفية أدائها وما ينفي لها من الوضوء والطهارة كما تتعلم بعض إرشادات تهدي إلى الخلق المستقيم والسلوك القويم.

## (ج) المساجد

وهذا التعلم المبكر للقرآن وتعاليم الإسلام الذي أنشئت من أجله الكتاتيب في كل أنحاء ليبيا كانت الناشطة تنتقل منه إلى حلقات العلماء الذين كانوا يرابطون في المساجد ملقين على طلابهم مختلف الدروس والمحاضرات في فنون العلوم المختلفة من لغوية ودينية. وكانت ليبيا تكتظ بهذه المساجد في مدنها وقراءها وواحاتها، ولم يكن يخلو مسجد من عالم كبير يحاضر الطلاب أو يعظ الناس، ويرُبُّن في حديتها عن الزهد والتتصوف ذكر بعض مساجد اشتهرت في طرابلس وساحلها، ويدرك التجاني في رحلته أن بخارجها مساجد كثيرة، أما مساجدها في أحياها المختلفة ودورها فلا تخصي كثرة، ويقول إن بساحلها مساجد كثيرة. ولا تلتقي بالمسجد في ليبيا بالمدن فحسب، بل تلتقي بها أيضاً في القرى على شاكلة مسجد على بن عبد الحميد الوعسجي المقرئ الذي بناه في قريته «المرشا» من قرى مدينة الزاوية، وكانت مدن جبل نفوسه وقراءه تكتظ أيضاً بالمساجد. وكان العلماء ينتسبون في تلك المساجد لإقامة دروسهم في قراءات القرآن الكريم وفي تفسيره وفي الحديث النبوى وفي الفقه والشريعة وفي العربية وقواعدها السديدة، وقد أصبحت طرابلس وبرقة منذ عهد يزيد بن حاتم الملهبي (١٤٤ - ١٧٠ هـ) مركزين من مراكز العلم، وبعث فيها الأغالبة (١٨٤ - ٢٩٦ هـ) حركة علمية خصبة، إذ عنوا بعلمائها وأسبغوا عليهم من الرواتب ما يسد حاجتهم، وكان المجتمع الليبي بجمع طوائفه يجلّ هؤلاء العلماء ويعرف لهم قدرهم وأنهم منارة الدين وحملة أضوائه.

## (د) الرحلة في طلب العلم والوافدون

على نحو ما كان الشباب المغربي في إفريقية التونسية يرحل إلى مصر والشام والمحاجز وال العراق للتزود من العلوم الإسلامية واللغوية كذلك كان الشباب الليبي يرحل في طلب العلم وأخذته عن أعلامه، وسنذكر - عما قريب - بعض من حلووا عن الإمام مالك كتابه الموطأ وأذاعوه في وطنيهم. ولابد أن بعض المعلمين للغربية في ليبيا مدد رحلته في الشرق إلى العراق للاختلاف إلى علماء العربية بها وحمل كتبهم إلى البلدان الليبية.

وكان موقع ليبيا في طريق الأندلسين والمغاربة إلى المعج وزيارة الأماكن المقدسة ذهاباً وإياباً يتبع بلدانها مثل طرابلس وبرقة أن يزورها بعض العلماء ويطيب له الإقامة فيها شهراً أو أشهرًا، ويختلف به طلابها بمحاولون أن يأخذوا عنه ما عنده من العلم أو ما اشتهر به، على شاكلة محمد بن عيسى البیان الذي مر بطرابلس وبرقة في عامي ٢٣٢ و ٢٣٨ فالف الف به طلابها يكتبون عنه، ومثل الفقيه أبي الحسين محمد بن إبراهيم الأندلسي الذي نزل طرابلس في عودته من أداء فريضة المعج، فقرأ عليه طلبتها بعض مؤلفاته. وكثير نزول مثل هذين العالمين بها في عهد الدولة الحفصية، ويقال إن ابن منظور العالم اللغوي المشهور المتوفى سنة ٧١١ بعمر تولى القضاء بها. ويروى عن بعض هؤلاء العلماء الوافدين - وخاصة على طرابلس - أنهم توافقوا بها للأخذ عن علمائها ونسعى بذلك منذ القرن الثالث المجري، مما يدل بوضوح على ازدهار الحركة العلمية بطرابلس وأن أسماء بعض علمائها أخذت في الذيع ما جعل بعض العلماء الوافدين يشفقون على لقائه والأخذ عنه، على نحو ما نجد عند ابن الفرضي في كتابه «تاريخ علماء الأندلس» إذ ذكر نفراً نزولاً بطرابلس في رحلاتهم إلى الشرق للتزود من علمائها وحمل ما عندهم من العلم، ومن ذكرهم محمد بن قاسم بن سيار المحدث الأندلسي المشهور، إذ قال عنه إنه سمع بطرابلس عن علمائها في رحلته سنة ٢٩٤ للهجرة ومن ذكرهم أيضاً محمد بن عبد الملك بن ضيفون قائلاً عنه: إنه سمع بطرابلس في رحلته سنة ٣٣٨ من يحيى بن دحان، كما سمع منه مواطنه هاشم بن يحيى بن حجاج البطليوسى في رحلته إلى الشرق، وسنذكر - فيما بعد - أن التجانى صاحب الرحلة المشهورة التي نرجع إليها حين زار طرابلس واستمع إلى محدث فيها هو ابن عبيد انهاراً شديداً والتى منه أن يقرأ عليه صحيحة مسلم والبخاري.

## (هـ) المدارس

عرف العالم الإسلامي فكرة المدارس منذ أواخر القرن الرابع المجري وتوسيع فيها نظام

الملك وزير ألب أرسلان في النصف الثاني من القرن الخامس المجري إذ بني طائفة من المدارس في العراق وإيران سميت كل منها باسم المدرسة النظامية، وكانت أشبه بجامعات يحضرها الأساتذة في فروع العلوم المختلفة، وعلم فيها مساكن ورواتب معلومة وللطلاب نفقات تكفيهم، ولكل مدرسة مكتبة نفيسة. وأخذت تحكماً المدارس في البلدان العربية منذ القرن السادس المجري، ويشيد التجانى وغيره من الرحالة الذين زاروا طرابلس بمدرسة بدعة قام على بنائها بين سنتي ٥٥٨ و ٥٥٥ الفقيه الطراطيسى عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا. وغضض إلى القرن السابع وكانت طرابلس تتبع الدولة الخصصية التي عنيت ببناء المدارس في تونس وأرجاء دولتها، ويبدو أنه بنيت في عهدها بطرابلس مدارس متعددة بشهادة التجانى في رحلته إذ يذكر أن بطرابلس مدارس متعددة أو كما يقول مدارس كثيرة. ويدرك الشماخى في كتابه السير وعلى يحيى معمر في كتابه الإياسية في موكب التاريخ مدارس متعددة للإياسية بمنوها في جبل نفوسه. ومع أن العثمانيين في زمن حكمهم لطرابلس ولبيبا لم يكونوا يملكون الحركة العلمية العناية الواجبة نجد بعض ولاتهم يعنون ببناء بعض المدارس، يتقدمهم في ذلك مراد أغا إذ بني مدرسة بمدينة تاجوراء، ولابد أن هؤلاء الولاة بناوا مدارس متعددة في البلاد، وُيذكر أن عثمان الساقلى بني مدرسة بطرابلس قرب باب البحر، كما يذكر أن أحد القرمانى بني مسجداً كبيراً وألحق به مدرسة. ولابد أن مدارس تركية متعددة أنشئت في بلدان طرابلس وأيضاً في بلدان برقة حين افتكت عن تبعيتها للقاهرة، وكانت تتبعها منذ العصر الفاطمى إلى أن ضمها إلى ولاية طرابلس محمد الساقلى. وبدون ريب ساعدت المدارس في النشاط العلمي بتلك الديار، ولو أنه كان في العصر العثماني نشاطاً محدوداً.

#### (و) الزوايا

عرفت المغرب الزوايا وأخذت تستكثر منها منذ القرن السابع المجري، وكانت الزاوية تتكون من قاعة ومحراب للصلوة وغرفة لتحفيظ القرآن أو تلاوته وبعض غرف للضيوف والطلبة وبعض الزوار من ينزلون بها مع ما تحتاج إليه من المرافق. وكان بعضها يتسع في مبانيه حتى تصعب الزاوية كأنها مسجد يوج بطلاه وزواره، وكان يكثر أن يكون لشيخها ضريح يدفن فيه، ومن فوقه قبة كبيرة. وتغول كثير من الزوايا إلى ما يشبه دور علم مع ما تتيحه من العبادة والنسل، ويتعدد التجانى الذي نزل بطرابلس في أوائل القرن الثامن المجري عن زاوية أولاد سهل وعناتها بتحفيظ القرآن وما بها من كتب كانت موقوفة على الطلاب وما كان لهم بها من غرف للسكنى. ومن أشهر زوايا ليبيا زاوية عبد السلام الأسرى بمدينة زليطن، وكانت تعمق - مع تحفيظ القرآن الكريم - بالعلوم الدينية، وكان بها حجر كثيرة لسكنى الشيوخ والطلاب، وقد أسسها صاحبها سنة ٩٠٠هـ وظل الطلاب يؤمونها بهذه من أنحاء ليبيا وغيرها، وكانت

مكتبيتها تشمل على خمسة مجلدات من الكتب النفيسة. ولم تكن تخلو بلدة في ليبيا من زاوية تعنى بالعبادة وبيت العلم والمعرفة.

### (ز) خود في المركبة العلمية

أصحاب المركبة العلمية بليبيا غير قليل من المحمود في فترتين أما أولاهما فعین هاجر إلى ليبيا والمغرب أعراب بنى سليم وبني هلال منذ سنة ٤٤٣ وكانتوا بدوا جفافاً، فأنزلاها بليبيا دعاً كثيراً، وخاصة في حضرها ومدنها، شل العمران فيها والحياة العلمية إلى نحو قرن من الزمان، ولم تليث طرابلس أن مُنْعِنَت باحتلال نورمان صقلية لها ثلاثة عشرة سنة طوالاً، وثار أهلها عليهم ومزقُوهم ذات ليلة شر مُزق، ودانوا للدولة الموحدين المغربية، ولم يكُنْ يعْنِي نحو ربع قرن حتى أصبحت ليبيا في طرابلس وبرقة مسرحاً لأطامع قراقوش وأبن غانية على نحو ما مرّنا في غير هذا الموضع، وظلوا يعيثون في ليبيا فساداً عشرات السنين. وكل ذلك أثر في المركبة العلمية بليبيا واعتراضها كثير من المحمود، غير أنه خلال كل هذا الرماد التقيل الذي انهال عليها لنحو قرن ونصف من الزمان ظل بها ويمضي جر علمي يلمع من حين إلى حين، مما هيأ لاستمرار المركبة العلمية ببلادها وظهور نفر من العلماء بها حملوا مصابيح العلوم المختلفة شرعية ولغوية . وتصبح برقة - أو تظل - موالية لمصر في عهد الأيوبيين والممالئ وتتصبّح طرابلس موالية للدولة الحفصية، وترعى حركتها العلمية بما أنشأت فيها من مدارس وتنعيم لها غير قليل من ازدهارها القديم.

وتعد المركبة العلمية إلى المحمود بطرابلس حين ظلت نحو أربعين عاماً فريسة للإسبان ثم لفرسان مالطة في القرن العاشر المجري، وتخلّفتها الدولة العثمانية، ولم يكن العثمانيون أصحاب حضارة ولا أصحاب علم وثقافة، ولذلك انتكست البلاد الإسلامية جميعها التي ضمّوها إلى دولتهم سواء في الشرق مثل العراق والشام ومصر أو في المغرب مثل ليبيا وتونس والجزائر وترجمت فيها المركبة العلمية وأصحابها غير قليل من العطاء والمحمود، إذ لم يكن الولاة العثمانيون يشجعون العلماء في طرابلس - وبالمثل في برقة حين دانت لهم - تشجيعاً مادياً بفرض رواتب لهم ثابتة بحيث تحدث بينهم غير قليل من التنافس والنشاط العلمي المتصبّ، كما تحدث في مجالسهم غير قليل من الجدل في العلوم وسائلها الشرعية ولغوية، ويلاحظ ذلك الرحالة المغاربة في رحلاتهم إلى المسيح ومرورهم بطرابلس على نحو ما ذكر عند ابن عبد السلام الناصري في رحلته المجازية الكبرى حين مر بطرابلس سنة ١٢١١هـ ١٧٩٦م إذ يقول: «إن أئمة طرابلس مع لطائفهم وديانتهم وحسن أخلاقهم لا يقيمون بها مجالس العلم والتدرّيس، غافلين عن المنافسة في هذا الأمر النفيس، وكأنها عليهم تعلّرت أو عادت عندهم قد

تقررت، سوى فرد من الناس، بدا في جُنح ليلها كالنيراس». وعالم طرابلسى واحد فقط هو الذى لفت الناصرى، والبلد لم تكن قفراً من العلماء، ولكنها كانت قفراً من يشجعونهم ويشرون فىهم الرغبة في المنافسة العلمية، وبالتالي في البحث والجدل والمناظرة.

## ٢

## علوم الأوائل - علوم اللغة والنحو والعروض

### (أ) علوم الأوائل

لم يكن للبيبا نشاط واضح في علوم الأوائل قبل العصر الحديث، إنما يذكر عرضاً أن هذا العالم اللغوى أو الفقيه المالكى بجانب علمه الواسع بادته كان عالماً بالحساب والهندسة والكميات مثل عبد الله بن عبد الله البرقى الراحل إلى الأندلس زمن الخليفة المستنصر (٣٥٠-٣٦٦ هـ). ويقال إنه كان عالماً باللغة والنحو وإماماً فيها وعالماً بالحساب والهندسة، ويقال عن الجلالى الفقيه الإيابى في القرن الرابع إنه كان مع براعته في علمي الأصول والمنطق كان بارعاً في الحساب، ومثله معاصره ابن التمر الفقيه المالكى، وكان عبدالرحمن بن محمد الناجورى الطرابلسى الفقيه المالكى في القرن العاشر المجرى علامه زمانه في علم المبقيات، وهي إشارات متباudeدة زمنياً ولا تحمل للبيبا نشاطاً بيّناً في علوم الأوائل.

### (ب) علوم اللغة والنحو والعروض

طبعى أن تتعنى ليبيا وبلدانها بالعربى، وكان الليبيون على مثال عمر بن يمكّن فى تلقفه للقرآن الكريم وأياته من أقواء الجندي العرب يتلقفون كلهم العربى منهم وما يجرى على ألسنتهم من بعض الأشعار، ونشأت الكتايب، وأخذوا يتلقفون مع آيات الذكر الحكيم بعض الأمثال العربية وبعض الأحاديث النبوية، وربما لم لم الشيخ بشئ من خطب الرسول والخلفاء الراشدين، حتى إذا كان القرن الثانى أخذت ناشئة من العلماء من أهل ليبيا تحسن قراءة الذكر الحكيم وتروى بعض الأحاديث وتتشدد بعض الأشعار، ورحل عدد منهم غير قليل لأداء فريضة الحج ولقائه العلماء في مصر والمحجاز والعراق، وسمع بعضهم بوضع علماء البصرة لقواعد العربى، فرحلوا إليهم وتلذذوا عليهم، وعادوا إلى الكتايب في ليبيا يعلمون الناشئة ما سمعوه من تلك القواعد، وعلموها أيضاً للشباب في المساجد وأخذوا يشاركون في هذا التعليم وافقذون من المشرق: من البصرة أحياناً ومن الكوفة أحياناً أخرى، وما تثبت ليبيا أن يصبح لها لغويون ونحواء من أهلها، يتقنون أربعة عاشوا في عصر الدولة الأغلبية (١٨٤ - ٢٩٦ هـ)

ترجم لهم جميعاً الزبيدي في طبقاته، وأولهم محمد بن صدقة المرادي الطرابلسي، وغلب عليه التقرير في اللغة، إذ كان لا يكتفى بالمؤلف من اللغة في محاضراته وإملاءاته، بل يطلب دائماً الشواذ والنواذر والغرائب اللغوية حتى يهدر تلاميذه وسامعيه. والثاني خلف بن مختار الطرابلسي المتوفى سنة ٢٩٠ وكان صاحب نحو لغة ويقرض الشعر ومحجج المعان، والثالث محمد بن سالم الطرابلسي المعروف بالعقلق وكان صاحب نحو لغة ومثل سالفه مع علم بالبدل وإيمان بالاعتزال وبمبادئه، والرابع عبد الله بن محمود من أهل سرت، نشأ فيها وأخذ عن علمائها، ورحل إلى القبرصان للتزود من حلقات علمائها وبها دوّت شهرته في اللغة والغريب وشرح الدواوين الشعرية وأيام العرب، وله كتب أملأها في اللغة والعربيّة والغريب والعروض، يقول الزبيدي: «والإليه كانت الرحلة من جميع إفريقيّة التونسيّة والمغاربيّة، وعلى قرأ الناس المشروحات توفى سنة ٣٠٨ للهجرة». وتنتفق عند القسطنطيني في إنباه الرواية بأبي بكر محمد بن مؤمن الكنتي البرقني، وقد عُلّم مصر وتوفى فيها سنة ٣٥١ وقد قارب الثمانين وكان نحوياً كبيراً، كما ثلثني بعل بن مضر البريقني أو البنفازى نزيل مصر، كان نحوياً لغويّاً كبيراً وكتب بخطه كثيراً من الكتب اللغوية وكان الناس يتنافسون في تحصيل ما يكتبه، ويقول القسطنطيني إنه رأى نسخة بخطه من معجم الجمهرة لابن دريد، وقد بعثت بأربعة وعشرين ديناراً مصرية، وإذا كان قد حل إلى القاهرة نسخة من الجمهرة بخطه، فإننا سنرى ابن القطاع بهذه بأكثر من قرن يحمل إلى القاهرة نسخة من صلاح الجوهري، وكان عليها اعتماد المصريين في رواية معجم الجوهري، كما كان اعتمادهم على نسخة معجم الجمهرة بخط على بن مضر البنفازى، ولعل في حله لها إلى القاهرة ما يدل على ما يلقى أهل ليبيا من العلم باللغة ومعاجتها الكبيرة في القرن الرابع الهجري، إذ توفى سنة ٣٨٤ للهجرة.

وإذا مضينا إلى القرن الخامس الهجري التقينا في طرابلس بعالم فذ من علماء اللغة العربية يحق لطرابلس - بل لليبيا عاملاً - أن تفاخر به، ومحسن أن توقف عنده قليلاً لتتذبذب منه رمزاً قوياً على مدى ما حذقته لليبيا وطرابلس حتى زمنه من علوم العربية والتعمق فيها، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل الأجدابي الطرابلسي اللوالي، فهو ليبي من قبيلة لواتة البربرية التي سكنت الساحل الليبي منذ العصور السحيقة، وأصل أسرته من أجدابية في إقليم برقة، ولذلك نسب إليها، وقد ولد ونشأ وأمضى حياته في طرابلس إلى أن توفي بها، ولذلك عُرف بالطرابلسي، واختلف من ترجوا له أو ذكروه في القرن الذي عاش فيه، فقيل عاش في القرن السابع الهجري، وقيل: بل في القرن السادس، وقال التجانفي في رحلته إنه عاش في القرن الخامس الهجري، ويزيده - بل يقطع به - خبر له مع قاضي بلدته ابن هاشم الذي ولد قياماً بين سنتي ٤٤٤ و٤٧٧ فقد ذكر الرواة أنه حضر مجلس قضائه، فرأى يحكم بحكم مختلط

فرده، فقال له ابن هانش: «اسكت يا أحول فما استدعيت، ولا استفتئت» وانصرف من مجلسه غاضباً، فألف رسالة في المول تدل على سعة علمه، وهي سعة شهد له بها كثيرون مثل القسطلي في ترجمته له بإثناء الرواية، إذ يقول عنه: «من أهل اللغة، ومن تصدر في بلده واشتهر بالعلم.. وكانت له يد جيدة في اللغة وتحقيقها وإفادتها». ويقال إنه سُئل من أين لك كل هذا العلم ولم ترحل؟ فأجاب: اكتسبته من باي هوارة وزناته في بلدق، بريد من العلماء الذين كانوا يقطنون على طرابلس من الشرق والغرب، مما يدل على الأثر الواسع للواديين على طرابلس في نقاقة شبابها وعراوفهم العلمية على نحو ما أشرنا إلى ذلك فيما أسلفنا من حديث. ويقول التجاني فيه برحلته: «كان الفقيه أبو إسحق هذا من أعلم زمانه بجمع العلوم كلاماً وفقها ونحواً ولغة وعروضاً ونظم ونثراً». وينوه بمؤلفاته، ويدرك منها كتابه في العروض، ويقول: «ناهيك به حسناً وترتيباً وتهذيباً، وهو نسختان: كبرى وصغرى» كما يذكر له كتاباً مختصراً في علم الأنساب، اختصر فيه أنساب قريش للزبير بن بكار، ويقول: «قد رأيت أبا إسحق قد أدخل من حفظه في هذا المختصر زواياً تشتمل على فوائد تُنْهَى عَلَيْهَا». ومن مؤلفاته الطريقة كتاب في الرد على ابن مكي في كتابه: «تنقيف اللسان» وما جمه فيه من الأخطاء اللغوية التي تدور في أنفواه الناس والعلماء، وقد راجعه في كثير من هذه الأخطاء محاولاً تصحيح بعض ما ظنه خطأً وتسويفه. وينوه التجاني بكتاب له في شرح ما آخره ياه مشددة من الأسماء وبيان اعتلالها، ويقول التجاني: «استوفى فيه جميع أحكام هذه اليماء على اختلاف أحواها.. ولما استوفى ذلك استيقاه جيلاً تعرّض لشرح المقاطع (الفواصل اليائنة) الواقعة في سورة مريم لاشتمالها على كثير من تلك الأحكام، فجاءه هذا التاليف في غاية الإفادة». ويبدو أنه كان فقيها كبيراً، وتشهد له بذلك مراجعته لابن هانش السالفة في حكم قضائي له، ويقول التجاني: له تأليف جليلة وأسئلة مفيدة في الفقه، ولكن لاشك في أن نشاطه اللغوي كان أكبر وأخصب من نشاطه الفقهي. وقد نُشر من مؤلفاته كتابان لغويان نقبيان هما: كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ، والأزمنة والأئماء.

أما كتاب كفاية المتحفظ فهو على مثال كتاب فقه اللغة للتعالي، ويتوزع مثله إلى عدة أبواب، فباب في صفات الرجال المحمودة ويتلوه بصفات الرجال المذمومة، وباب في صفات النساء المحمودة، ويتلوه بالمنعم من صفاتهن، وباب في خلق الإنسان، وباب في الجنين، وباب في السلاح، وباب في السباع والوحش، وباب في الطير، وباب في النبات إلى غير ذلك من أبواب كثيرة، ويقول في مقدمته: «هذا كتاب مختص في اللغة وما يحتاج إليه من غريب الكلام، وأودعنه كثيراً من الأسماء والصفات، وجنبناه حوشى الألفاظ واللغات، وأغربناه من الشواهد، ليسهل حفظه ويقرب تناوله، يجعلناه مفانياً لمن اقتصد في هذا الفن، ومعيناً لمن أراد الاتساع فيه». وقد

نال هذا الكتاب شهرة واسعة في العالم العربي من قديم شرقاً وغرباً وعُكف عليه غير عالم يشرحه أو ينظمه شرعاً ليسهل على الطالب حفظ ما فيه، وعُدَّ بروكلمان في ترجمته مخطوطاته ومخطوطات شروحه ونظمها، وطبع الكتاب في عصرنا بالقاهرة وبغداد وحلب، ونسوق مثلاً من صفحاته الأولى يوضح مدى أهميته والفائدة - أو الفوائد - اللغوية منه، يقول في باب الصفات المحمودة في الرجال:

«المجاد: الرجل السخي، والجراحي: الكرييم، والجخضم: الكثير العطية، والجخضم: الكثير الإنفاق، والأرجيحي: الذي يرتاح للعطاء، والحسيب: الكرييم الآباء، والماجد: الشريف، والصنديد: الرئيس العظيم وكذلك الهمام، والسميد: السيد وكذلك الجماعاج والأرب: العاقل، والحلالحل: الوقور، والمنجذد الذي قد جرب الأمور، والمعذر: الذي يكون رأس القوم ولسانهم، واللودعى: الذكي القلب، والمصفع: البليغ اللسان، والسرى: المرتفع القدر وجحده سراة يفتح السين».

وتشهد هذه الألفاظ بأنه كان صاحب حسٌّ أدق وذوق مرتفع وذاكرة لاقطة، مما جعله يعرف كيف يختار في كل باب من أبواب الكتاب من معاجم اللغة وما حفظه من التعر والتز ألقاطاً مصطفأة نقية من شوائب الغرابة والإغراب كما قال في مقدمة الكتاب ومع تفسيرها يعيث تكون معانيها واضحة غاموضاً الواضح للشباب والأدباء حين يستخدمونها ويتلقفون بها، وهو ما دفع الناس - كما يقول القسطنطي - في مصر والمغرب إلى الاشتغال بالكتاب والعناية بحفظ ما فيه من الكلمات المتغير المستذهب.

وأما كتاب الأزمنة والأتواء فقد حققه ونشره الدكتور عزة حسن بدمشق سنة ١٩٦٤ للميلاد، ويقول ابن الأجدابي الطرابلسى في مقدمته : «هذا كتاب مختصر أودعنه أبواباً حسنة في علم الأزمنة وأسasاتها، والنصول وأوقاتها، ومناظر النجوم وهياتها، بأوضاع ما أمكننا من التبيين، وبأسهل ما حضرنا من التقرير». والكتاب - كما يدل عنوانه - في علم الفلك وما يتصل به من الكواكب وأوضاع الشمس والقمر على مدار العام والأمطار والرياح وتغير الفصول. والعرب منذ الجاهلية يعنون بهذا العلم لشدة حاجتهم لمعرفة موقع النجوم في ظلمات لياليهم الصحراوية الطويلة، حتى لكانها المصايب التي تهدىهم في سراحهم ليلاً فلا يضلون السبيل، وقد أكثروا من التأليف في هذا العلم منذ القرن الثاني المجرى، ونقلوا عن الأمم القديمة: اليونانية والفارسية والهندية ما كتبوه فيه ومزجوه بمعرفات العرب في صور مختلفة. وكتاب ابن الأجدابي يكتظ بمعلومات طريفة، وقد استهلle بحساب الأزمنة والستين والشهور الشمسية عند الروم وغيرهم والقمرية عند العرب ثم يذكر الكواكب المشهورة ومواضعها في القبة الزرقاء والكواكب السيارة في السماء، ويتحدث عن بيان أزمنة السنة وبروج الشمس ومتانتها والرياح

وأسانها، وختم الكتاب بتفصيل الحديث في الشهور الشمسية وأسمائها عند الأعاجم، وينذكر مع كل موضوع الأشعار والأمثال المسجوعة المرتبطة به، مع ما يعم في الكتاب من مجال الصياغة وحسن العبارة، وبذلك استحال علم الفلك عند ابن الأجدابي الطرابلسي إلى علم أدق، مما يدل بوضوح على قدرته وبراعته الأدبية.

وفي كتب الطبقات بعد ابن الأجدابي الطرابلسي أسماء بعض اللغوين والنحاة الليبيين على مدار العقب إلى العصر الحديث، غير أن أحداً من الليبيين لم يبلغ مبلغه في التعمق اللغوي مع حسن العرض وجمال البيان، ومن ذكره كتاب الترافق بعده معاصره خلوف بن عبد الله البرقي النحوى نزيل صقلية وأبو الحسن على البرقى المتوفى سنة ٥٢٢ للهجرة، وكان نحوياً كما كان شاعراً، وقر قرون ولا يلمع في ليبيا اسم لغوى أو نحوى، ويلقانا في القرن التاسع يوسف بن على الجعراوى في القصبات عاصمة سلاطنة سنة ٨٢٠ وله شرح على متن الأجرامية، وبين له زاوية بيذنته كان يتبعده فيها لربه ويدرس النحو وغيره لطلابه، ومن تلقاهما في القرن العاشر المجرى محمد بن محمد بن عبد الرحمن الخطاط الطرابلسي المتوفى سنة ٩٥٤ للهجرة، وله حاشية على كتاب قطر الندى لابن هشام وأخرى على كتابه التوضيح أو أرض المساك، وله كتاب لغوى في الموضع الذى غلط فيها الجوهري صاحب معجم الصحاح والغير وزايدى صاحب القاموس المعيط.

## ٣

### علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

تُمثل قراءة ليبيا للذكر الحكيم - مثل بقية قراء المغرب - قراءة ورش المصرى التي تلقفها عن نافع مقرئ المدينة المشهور وأحد القراء السبعة، ولا يزال القراء - إلى اليوم - يتدوون بها في ليبيا والملايين المغاربة دوى النُّهل، ومن القراء المبكرين بلبيبا في جبل نفوسه عمر بن يمكن الذى مر بنا ذكره في الحركة العلمية، ومن كبار القراء في القرون التالية بعده مؤمن بن فرج الموارى الطرابلسي المتوفى سنة ٤٤٢ للهجرة، وكان يقرئ القرآن في مسجد عُرف باسمه بعده كما يقول التجاوى في رحلته، واشتهر عبد السلام بن عبد الغالب المسرقان المتوفى سنة ٦٤٦ للهجرة بأنه كان يعنى بالقراءات السبع جميعاً، ومثله على بن عبد الحميد العوسجى المتوفى سنة ٩٢٥ وكان يحفظ الذكر الحكيم بالقراءات السبع، وكان يحافظ للقلمان فى مسجد بناء فى حياته واشتهر بأنه مؤدب الصبيان، وكانت المساجد والزوايا والكتابات جميعاً توج بقراءة القرآن الكريم على مر العقب.

وعلى نحو ما كانت ليبا تعنى بقراءات الذكر الحكيم كانت تعنى بتفسيره، وكان علماؤها يتلقون ما كتبه الطبرى وغيره من علماء المشرق ويعرضونه على الطلاب والناس، ومن كبار مفسريه بطرابلس مؤمن بن فرج الموارى المذكور آنفاً بين القراء، ومنهم أيضاً محمد بن محمد المطاب المتوفى سنة ٩٥٤ وله في التفسير حاشية على تفسير البيضاوى، ويقال إنه حاول أن يكتب تفسيراً للقرآن وأنه مضى فيه حتى سورة الأعراف، ولم يكتب له أن يتمه، ومن مؤلفاته القرآنية كتاب في تعبير القراءات أو في علم تعبيره. وكان يعاصره مفسر طرابلسي هو محمد بن علي المخزوبى المتوفى سنة ٩٦٣ وله تفسير مختفظ به رفوف دار الكتب المصرية في نعاف مجلدات، سماه: «رياض الأزهار وكتنز الأسرار» وكان صوفياً كبيراً وربما تزع فيه متزع المتصوفة في تفسير الذكر الحكيم.

ولم تكن نقل عنابة ليبا بالحديث النبوى عن عنايتها بالتفسير للقرآن الكريم وقراءاته، ومن محدثيها سعيد بن عباس من أهل مدينة سرت، توفي سنة ٢٠٠ للهجرة، وتشتهر بروايته وتدرسه بعض البيوت أو الأسر مثل أسرة أحد بن عبد الله بن صالح بن مسلم العجل فى طرابلس المتوفى سنة ٢٦١ للهجرة، وكان يشتبه بأحد بن حنبيل فى كثرة ما يروى من الأحاديث، وكان ابناه عبد الله وصالح محدثين، وظلت أسرته فى طرابلس مشتهرة بروايتها للحديث النبوى وتدرسه للطلاب. وكان يعاصره فى برقة محدثان جليلان هما إبراهيم البرقى وعبد الكريم البرقى، ونلتقي فى القرن الرابع الهجرى بيعيى بن دحان، وكان محدثاً كبيراً، تسامح به أهل الحديث النبوى فى البلاد المغاربية والأندلسية، ومرّ بما أن أندلسين محدثين سمعا منه الحديث. ومن ناهى المحدثين فى هذا القرن ابن زكرون على بن أحمد بن زكريا المازى ذكره فى الفصل الماضى بين الزهاد، وهو تلميذ صالح بن أحد العجل، وكان يلقى دروسه فى الحديث النبوى بمسجد المجاز فى طرابلس، وإليه كانت الرحلة من بلدان إفريقية التونسية والبلدان المغاربية، ومن رحل إليه للسماع عنه أبو الحسن القابسى محدث تونس المشهور، وله فى الحديث والفقه والرقائق الوعظية تأليف كثيرة. ومن كبار المحدثين بعده أحد بن نصر الداودى المتوفى سنة ٤٠٢هـ/١٠١٢م كان من أئمة المالكية، أتعجبته طرابلس، وألّف فيها كتابه: «النائم» فى شرح الموطأ لمالك، وانتقل منها إلى تلمسان، وفيها ألف كتاباً متعددًا، منها: «النصبيحة فى شرح كتاب البخارى» ويقال إنه أول من شرّحه فى العالم الإسلامي، وألّف كتاب الوعاوى فى الفقه وكتاب الأموال وهو فتاوى وأحكام فى غنائم وأراضي البلدان المفتتحة. ومن أهم المحدثين بعده إبراهيم بن عبد السلام المسراق المتوفى سنة ٧٠٤ اشتهر بعناته باللغة بغير الحديث، وألّف منه معاصره الإمام الحافظ الكبير أبو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم المشهور باسم ابن عبد المولود بطرابلس سنة ٦٣٩ وينوه به وبعلمه التجانفى رحلته التي تحدث فيها عن زيارته

طرابلس سنة ٧٠٧ للهجرة بصحبة الأمير المفضي ذكريا بن اللحياني، وفيه يقول: «القائم برسم العلم في هذه البلدة (طرابلس) في وقتنا هذا شيخنا الإمام الحافظ أبوفارس عبد العزيز بن عبد العظيم حضرت درسه بمسجد مجاور لداره، فرأيت رجلا متضللا من العلم، ذاكرا بالذهب (المالكي) ذكر لا يجراه فيه أحد، ولا تكاد مسألة من مسائله تشذ عنه، حسن العبارة، مشاركا في علوم جهة وله اهتمام بحفظ كلام (الأئمة) القرويين (بالمغرب الأقصى) في المذهب (المالكي) من تعليل أو تفسير أو توجيه أو تغريب، واعتماده في الأصول الدينية والفقهية على كلام أبي المعال (الجويني إمام الحرمين) وكلام الشيخ أبي حامد الغزالى.. ولما حضرت درسه وتحققت مكانته المكينة في العلم أحببت القراءة عليه مدة إقامتنا هناك (بطرابلس) وطلب مخدومنا (الأمير أبي ذكريا اللحياني) أن يكون ذلك بمعضره منه، فلم يكن بد من استدعاء الشيخ لوضع سكتانا، فقدنا مجلسه لذلك بالقصبة (قصر اليلدة) وفي مجلس الأمير منها، وطلب الحضور بذلك المجلس جماعة من أعيان الطلبة بالبلد، فأذن لهم، ورأينا أن يكون المقروه حديث خير الأيام». ويدرك التجان أن ابتداء هذه المجالس كان في شهر شعبان من سنة ٧٠٧ وأنه بدأ بقراءة صحيح مسلم، والشيخ يعلق ويفسر ويجيب على الأسئلة، حتى إذا أتم التجان قراءة صحيح مسلم على الشيخ أخذ يقرأ عليه صحيح البخاري، والشيخ يفسر ويعلّق تعليلات علمية ويرد على الأسئلة ردوًّا دقيقة غاية الدقة، وأجاز ابن عبد التجان بما رواه عن شيوخه من هذين الصديحين في صفر سنة ٧٠٨ للهجرة.

وبدون ريب يمثل ابن عبد النبوة التي انتهى إليها علماء الحديث وحافظه في طرابلس وأئمهم لم يكونوا يقلون علما وحفظا ودراسة للحديث النبوى وتعتمدا في دراسته عن أئددهم في البلدان الغربية: في تونس وغير تونس بل إن هذا أحد الأفذاذ التأذين بتونس يقطع مع أمير رحلتها ويظلان بطرابلس أشهرًا ليحظيا بأخذ صحيح مسلم والبخاري عن هذا الحافظ الكبير التبت المحجة، وقد سألة التجان عن شيوخه فأعطيه ثبتا بأهله، ونفر منهم كانوا طرابلسيين ونفر آخر كانوا من الواقفين على طرابلس إما لتولى منصب القضاء وإما مارّين بها في الطريق لأداء فريضة الحج أو عائدين إلى ديارهم الغربية، ويدرك له الكتب التي أخذها عنهم، وفي مقدمتها كتاب الإرشاد لأبي المعال إمام الحرمين الجويني وكتاب البرهان له أيضا وكتاب المستصنف للغزالى. وفي ذلك ما يؤكد ما قلناه في غير هذا الموضع من أن الواقفين على طرابلس والمجتازين بها كان لهم تأثير واسع في حركتها العلمية. وتظل رواية الحديث النبوى ودراساته متصلتين في طرابلس وكل أنحاء ليبيا طوال القرون التالية.

ويعُد الفقه أهم علم إسلامي استوعب نشاط العلماء الليبيين، وطبعي أن لا ينشأ في ليبيا فقهاء يحسنون العلم بالذاهب الفقهية المشهورة: مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك ومذهب

الشافعى ومنذهب ابن حنبل إلا بعد نشوء هذه المذاهب، وقد نشأت الثلاثة الأولى في القرن الثاني المجرى، ونشأ الرابع في القرن الثالث المجرى على نوع ما هو معروف، وظل بعيداً عن أهل ليبا لا يعرّفه - ولا يعتقده - أحد منهم، وكان منذهب أبي حنيفة في العراق بعيداً عنهم، غير أن إمامه لمهد الرشيد: أبي يوسف حله على أن يخص القضاة في الدولة الإسلامية جميعها بأهله، فكان يشرط في القاضي بأبي بلد إسلامي أن يكون فقيها حنفياً، وكان إبراهيم بن الأغلب والى الرشيد مؤسس الدولة الأغلبية في إفريقية التونسية وطرابلس يصدع هو والحكام من أسرته لمشيّة الرشيد وأبي يوسف في أن يكون القضاة بدولتهم أحناقاً ما أمكن ذلك، مما يجعلنا نظن أنه تولى القضاة في زمنهم بطرابلس بعض القضاة الأحناف، مما جعل المنذهب الحنفي يعرف فيها بعض المعرفة، وبانتهاء زمن الدولة الأغلبية تنتهي صلة طرابلس بالمنذهب، حق إذا والت ليبا الدولة العثمانية عادت هذه الصلة، إذ كان العثمانيون يفرضون على البلدان الموالية لهم أن يكون قضاها أحناقاً، وكان المنذهب الشافعى قد انتشر بمصر وكفر فقهاؤه، ولا نسمع أن ليباً اعتقده، إذ كان قد جذب إليه منذهب مالك أستاذ الشافعى وإمام المدينة والمحجاز، ولم يك يبقى في علماء ليباً بقية لمنذهب سواه، وخاصة أن نفراً منهم كانوا قد حضروا دروس مالك وحملوا عنه كتاب منذهب: الموطأ وأخذوا يشيعون المنذهب في ليبا على نحو ما نعرف عن معاوية بن محمد المضرمي الطرابلسي تلميذ مالك، وكان قد حل المنذهب عنه جلة من الفقهاء المصريين، فكان الليبيون يأخذون عنهم مثل إبراهيم بن أبي الفياض فقيه برقة المتوفى سنة ٢٤٥ تلميذ عبد الله بن وهب بالفسطاط حامل منذهب مالك عنه إلى مصر، أو بعبارة أخرى أحد حملة عنه المصريين المهمين، وكان سخنون إمام المنذهب في المغرب وحامله عن عبد الرحمن بن القاسم في مصر قد نزل قبل قيوده إلى القيروان في أجدادية بليبا سنة ١٩١ وأذاعه فيها وانتقل إلى طرابلس وظل بها ثلاث سنوات يدرس لأهلاها المنذهب ويشيعه، ويلقاناً فقهاء ومالكيّة كثيرون في بلدان ليبا المختلفة مثل ابن أبي زرعة البرقي المتوفى سنة ٢٤٩ وهو مؤلفات مختلفة في المنذهب ورجاله الموطأ وزيدات على مختصر الفقيه المالكي المصري ابن عبد الحكم ذكر فيها اختلافات فقهاء الأنصار، وتلقى في مدينة سرت بعد الجبار بن خالد السرق المتوفى سنة ٢٨١ للهجرة، وهو من تلامذة سخنون، ومن تلقى به في طرابلس موسى بن عبد الرحمن بن حبيب القطان المتوفى سنة ٣٠٦ وهو تلميذ محمد بن سخنون خليفة أبيه في حلقة القيروان، وتولى القضاة ببلدته فترة، ويقول ابن فرحون في الدبياج إنه كان يحسن الكلام في الفقه على منذهب الإمام المالكى، ويذكر له كتاباً ضخماً في أحكام القرآن في اثنى عشر جزءاً، وتلقى في برقة بالفقىء المالكى عبد الله بن إسماعيل البرقى المتوفى سنة ٣١٧ ومرّ بنا ذكره مع عبد الجبار البرقى بين الزهاد، ويلقاناً في سرت الفقيه المالكى محمد بن حسن الزويلي السرق المتوفى سنة ٣٨٣ وتلقى بإمام كبير من أئمة الفقه المالكى بطرابلس، هو على بن محمد بن المنور المتوفى سنة

٤٣٢، وهو أول من انتصر للذهب أهل السنة في بلده ضد المذهب الفاطمي الشيعي، وأمر بمنع شارتهم في الأذان: «حُنَى عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ» ودعا الناس إلى صلاة الضحى جهاراً ولم يكنونوا يصلونها في زمن الفاطميين إلا مستخفين، وأعاد صلاة القيام في رمضان وكان الفاطميون قد حموا رسماً لها تماماً في أيامهم، وعُنِّي في كتاباته ومحاضراته بمناصرة أهل السنة، ومن مؤلفاته التي عُنِّي بها طرابلسية طويلاً كتابه: «الكاف في الفرائض». ومن آئمه الفقه المالكي بطرابلس عمران بن موسى بن معمر المتوفى سنة ٦٦٠ وهو أستاذ ابن عبيد الحافظ الكبير الذي نوه به التجاني طويلاً كما مرّ هنا، وكان يدرس لطلابه من أمهات الذهب المالكي كتاب التفريع لابن الجلاب وتهذيب المدونة للبرادعي. كما كان يدرس لهم كتاب المستصنف للغزال والمحصل لابن العربي الأندلسى، وظل قاضياً على طرابلس أكثر من ثلاثة عقود وانتشر بدقته في أحکامه وأقضيته، فاستدعاه المستنصر المفضلي لتولى القضاء في تونس سنة ٦٥٨ للهجرة، وتولاه لمدة عامين بها حتى توفي. وعرف شيوخ طرابلس حينئذ نظام المعدين المعروف بمصر وغيرها في زمانهم، وكان المعيد عنده عبد الوهاب بن محمد المنزولي، وخلفه في حلقته ودروسه حين بارح طرابلس إلى تونس بدعة المستنصر المفضلي، ومن تلاميذه فقهاء المالكية عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا المتوفى سنة ٦٨٤ وهو مثل ابن معمر من أساتذة الحافظ المحدث ابن عبيد، وكان يدرس لطلابه بطرابلس كتاب الإرشاد والبرهان لأبي المعال الجوني وكتاب المستصنف للغزال، وساعدود للترجمة له بين الشعراء، إذ كان شاعراً كبيراً. ومن فقهاء المالكية النابغين أحد بن عبد الرحمن الزليطني الفقيه الأصولي المتوفى بأخرة من القرن التاسع، وهو أستاذ زروق أو بعبارة أدق أحد أساتذته، وله مؤلفات كثيرة، منها شرحان على مختصر خليل في الفقه المالكي أحدهما ضخم في ستة مجلدات، ومنها شرحان على أصول السبكي، ومنها شرح مختصر فتاوى العزيز، وتولى القضاء بطرابلس فترة تم أسنادت إليه بتونس مشيخة المدارس. ومرّ بنا زروق في حديثنا عن الصوفية، وكان فقيها مالكياً كبيراً، ومن كتبه الفقهية شرح رسالة ابن أبي زيد في الفقه، وشرح مواضع من مختصر خليل، وشرح الإرشاد في الفقه. ويظل الفقه المالكي مزدهراً في طرابلس - مثلها في ذلك مثل بقية البلاد المغاربية. ومن فقهائها النابغين في العصر الشعماوي محمد بن شعبان الطرابلسي المتوفى سنة ١٠٢٠ وقد أسندا إليه القضاء في طرابلس والفتوى والتدريس، وانتشر بمناظرته لعلماء إسطنبول. ومر العياشي بطرابلس سنة ١٠٥٩هـ/١٦٥٠م وذكر من فقهائها في رحلته أثناء وصفه للمدينة محمد بن أحمد بن عيسى البربوعي ومحمد بن مساهل مفتياً وقد ظلت ولاليته للفتوى بها نحو أربعين سنة حُدّت فيها سيرته، ونوه بالفقية محمد المكي وقال إن بيته بيت علم وذكر له خزانة كتب ليس لأحد من أهل بلدته خزانة ماثلتها، وذكر من مؤلفاته: «شكر المنة في نصر السنة» وهو في الرد على عقبة الإباشية.

والحق أن فقهاء المذهب المالكي في ليبيا يفوتون الحصر، مثلها في ذلك مثل الأقاليم المغربية المختلفة، وكانت الجماهير فيها جيماً تعتقد مذاهب أهل السنة وخاصة مذهب مالك فهو المذهب الذي ذاع وشاع في جميع البقاع المغاربية، إلا ما كان من جبل نفوسه في ليبيا وجزيرة جربة في تونس وبلاط ميزاب في جنوب الجزائر، فإنها جيماً اعتنقت العقيدة الإباضية إلى اليوم، وتلتقي بفقهاء لها عديدين في جبل نفوسه، ومن أوائلهم إسماعيل بن ضرار الفدامي أحد الذين رحلوا إلى البصرة للتلذذه على أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة داعية العقيدة الإباضية وظل ملازماً له خمس سنوات وعاد إلى موطنها فولاً أبو الخطاب عبد الأعلى المعاوري في ثورته بجبل نفوسه وطرابلس سنة ١٤٠ القضاة في دولته وكل إليه بجهاته شئون التعليم، وأخذ الفقهاء الإباضيون بعده يتکاثرون في جبل نفوسه ومن أهمهم في القرن الثالث المجري عمروس بن فتح النفوس المتوفى سنة ٢٨٣ للهجرة وهو كتب في العقيدة الإباضية: في الأصول والفروع، من أهمها كتاب منسوب إليه يسمى «العمروسي» ولما نزل داعية الإباضية بشر بن غانم الخراساني جبل نفوسه استودعه مدونة في الفقه الإباضي رواها عن تلامذة داعية الإباضية الكبير بالبصرة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، فتفرّغ هو وأخت له ليل نهار لنسخها، وكانت تقع في اثني عشر جزءاً، حتى أتما نسخها، وتصادف أن الأيام حفظتها بينما احترقت النسخة الأصلية. وعليها اعتماد الإباضية في الفقه، وهي تقوم عندهم مقام مدونة سخنون في مذهب الإمام مالك. ومن فقهاء الإباضية في القرن الرابع المجري سليمان بن ماطوس الشروسي، وتعد فتاوئه مرجعاً منها عند الإباضية، وموسى بن يونس الجلالي، وقد برع في الأصول والمنطق والرياضيات وأسس مدرسة كبيرة كان بها أقسام داخلية للطلاب والفراء، وتلتقي في القرن الخامس بالفقهاء أحد بن بكر النفوسي مؤسس جماعة الزبابة، وكانت لها هيئة عليا وفروع في كل بلد وقرية تضم خيراً أهلها عملاً وصلاحاً، ومهمتها خدمة المصلحة العامة، ولهذا الفقيه الإباضي مؤلفات كثيرة، منها أصول الأرضين في ستة أجزاء والجامع في الفروع في جزمين والقسمة وتبيين أفعال العباد في ثلاثة أجزاء، وتلتقي في القرن السادس يوسف بن إبراهيم السدراني المتوفى سنة ٥٧٠ وله كتاب العدل في أصول الفقه وكتاب الترتيب في علم الحديث، ومن كبار فقهاء الإباضية في القرن على بن يخلف التميمي النفوسي، ناشر الإسلام في مملكة مال فقد رحل إليها سنة ٥٧٥ وأقام ملكها ووزراء وأهلها بالدين الحنيف فاعتنقوه، وظل في ديارهم يعلمهم فرائض الإسلام ويحفظهم القرآن الكريم ويفهمهم في الدين، وهي بد عظيمة لإباضية نفوسه بجانب الأيداد الأخرى المظيمة لصوفية المغرب ودواوينها في نشر الإسلام بإفريقية السوداء غرباً ووسطاً وشرقاً. ومن كبار فقهاء الإباضية في القرن الثامن المجري أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجبيطال نسبة إلى جيطال مدينة كبيرة في جبل نفوسه، توفي سنة ٧٥٠ للهجرة، وهو كثير التأليف، له كتاب في الفرائض وكتاب في المعاجل والمناسك

وكتاب قواعد الإسلام وكتاب قناطر الخبرات في ثلاثة أجزاء، وتنقى بأبي ساكن عامر الشماخي المتوفى سنة ٧٩٢ عزّم على أن يؤلف مدونة كبرى في الفقه وأخرج منها أربعة أجزاء أولها في الصلاة، والثاني في الزكاة والصوم والحج والتذور والأعيان والحقوق، والثالث في البيوع والقسمة والرهن، والرابع في الوصايا والهبات. وتنقى في القرن العاشر بيدر الدين أحد الشماخين المتوفى سنة ٩٢٨ ومن أهم كتبه مقدمة فيأصول الفقه. وللإباضية مجموعة فقهية تسمى بديوان العزابة بجموعها تسمى الديوان ألفها سبعة من فقهائهم في نفوسه، وبجموعة ثانية تسمى بها ديوان العزابة ألفها عشرة من فقهاء نفوسه الكبار.

وقد مر المذهب الفقهي الإسماعيلي الفاطمي على ليبيا مروراً سريعاً فقد كان الناس منتصرين عنه إلا نفراً قليلاً بل أقل من القليل رأوا التعلق بدنيا الفاطميين، وربما أحتجتهم إلى ذلك الضرورة، ولا نسمع في طرابلس عن فقيه إسماعيلي إلا ما يروى عن خليل بن إسحق ولم يكن فقيها بالمعنى الدقيق هذه الكلمة ولا كانت له مؤلفات فقهية، إنما حضر حلقات بعض الفقهاء حق إذا دُوى طبل المهدى وابنه القائم أسرع في الانضواء تحت لوانيها، ومثله محمد بن سيار الفقيه البرقي المتوفى سنة ٣١٠ ومتلها محمد بن الحسن الطرابلسي الذي استدعاه يعقوب بن كلس وزير المز الفاطمي إلى القاهرة وفوض إليه قضاء دمياط وبليبيس والفرما، وعلى شاكلتهم أبو جعفر أحد بن خالد البرقي المتوفى سنة ٣٧٦ وما لكان بن سعيد القرافي ولـي القضاة بصرى في عهد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله، وأمر بضرب عنقه سنة ٤٠٥ للهجرة.

وإذا كانت ليبيا نشطة في علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات فإن نشاطها كان محدوداً في علم الكلام، إذ لا يجدون ما يقال عن اشتغالهم به وأن يذكر أن شخصاً كان نعمياً أو لغويًا أو فقيها كبيراً كان يعتنق الاعتزاز مثل محمد بن سالم الطرابلسي، ولا نعرف إلى أي حد كان يتمثل مبادئه، ويدرك أن معاصره أبا خزر النفوس الإباضي ناظر أحد المعتزلة في القرن الرابع وانتصر عليه، ويقال إن الفقيه المالكي الكبير أحد بن نصر الداودي ألف رسالة في الرد على القرية (المعتزلة) بعنوان الإيضاح ولو أنها وصلتنا لا نستطيع أن نأخذ صورة عن مباحث علم الكلام في ليبيا وبالخصوص في طرابلس بلدته. ويقال إن الفقيه المالكي الكبير الدوکالي كان يدرس لطلابه من أمثال عبد السلام الأسرى في القرن العاشر الهجري مقدمة الأشعرى في التوحيد، ويبدو أن ليبيا أصبحت مثلها مثل البلاد الشرقية والمغاربية منذ القرن الخامس الهجرى وما بعده توثر المذهب الأشعري الكلامي على الاعتزاز وغيره من المذاهب الكلامية.

## التاريخ

طبيعي أن يشفف بعض العلماء في ليبيا بالكتابة في التاريخ الإسلامي، كما شفف به كثيرون في البلدان العربية، ومن أوائل مؤرخهم عبد الرحيم بن عبد الله بن أبي زرعة البرقي المتوفى سنة ٢٥٦ للهجرة روى السيرة النبوية ومقاربها عن ابن هشام مؤرخها بالفسطاط، ويبدو أن أخيه أحد رواها عنه عن ابن هشام، ويقال إن لأحد كتابها في التاريخ دون إشارة إلى موضعه، ويدرك ابن ناجي في معلم الإيمان مؤرخين في أجداديه، هما أبو العباس عبد الله بن عبد الرحمن الأجدابي المتوفى سنة ٣٨٤ وأبو عبد الله المحسين بن عبد الرحمن الأجدابي المتوفى سنة ٤٣٢ وتلقى في طرابلس بمؤرخين لها، هما الحسن بن فراج المتوفى سنة ٥٢١ وعلى بن عبد الله بن مختلف الطرابلسي المتوفى سنة ٥٣٣. ومن المؤرخين المهمين في القرن العاشر المجري كريم الدين البرموني المصراقي المتوفى سنة ٩١٩ للهجرة، وأبوه مصرى نزل مصراته مع الشيخ زروق في عودته من مصر، وقد بدأ كريم الدين تعلمه في زاوية الشيخ زروق ثم تركها إلى زاوية الشيخ المحجوب، وشقق بالتاريخ له في كتاب روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار، وفيه عُرف بطانقة كبيرة من الأنتقام الصالحين وبأنساب الأشراف في طرابلس وأنساب بعض القبائل العربية له بجانب هذا الكتاب كتاب عن عبد السلام الأسرى الصوفي معاصره المار ذكره بين المتصوفة.

ويشتهر بين علماء نفوسة الإيباريين مؤرخان، أولهما أحمد بن سعيد الدرجيفي الفقيه الإيباري في القرن السابع له كتاب طبقات المشايخ ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية، وفيه عرض تراجم مفصلة لأنمة المذهب الإيباري رتبها في طبقات كل طبقة تضم خمسين عاماً حتى نهاية القرن السادس المجري، والثانى أبو العباس بدر الدين أحد بن عثمان بن عامر الشاشي المذكور بين الفقهاء الإيباريين له في تاريخ الأنمة الإيبارية كتاب «السير»، وفيه يُعرف بالمنصب الإيباري منذ نشأته ويتترجم لرجاله حتى أوائل القرن العاشر المجري.

## الفصل الرابع

### الشعر والنثر

١

عرب<sup>(١)</sup> Libya

أخذت ليبيا والبلدان المغاربة تدخل في الإسلام منذ فتحها العرب، ومنذ انتصاراتها لم تقم فيها أي حركة ثورية ضد العرب، كما حدث أيام كسيلة والكافنة في إفريقيا التونسية والجزائر، وحقّ هما لم يعودا إلى شق عصا الطاعة منذ عهد حسان بن النعمان (٧١ - ٨٥هـ). ومع ذلك فإن الإسلام عمّها بحيث لا نصل إلى أواخر القرن الأول المجري حتى يكون قد تغفل إلى جميع البقاع في المغرب، بين المضر شمالاً والبدو جنوباً وفي السهول وعلى سفوح الجبال وفي المصايب وفي الصحاري، وهو ما ملأ نفوس المؤرخين الغربيين حيرة، فإن الفينيقين أقاموا بين البربر قروناً، ولم يستطعوه نشر دينهم ولغتهم فيهم بهذه الصورة الجماعية، وبالمثل الرومان، وطلت المسيحية التي حاولوا نشرها بين البربر غريبة ولا تُعرف إلا في بعض البلدان الشمالية وبتأثير جاليات رومانية فيها. وأخذت تتسعب وتتوهّم أمام المد الإسلامي من القرن الأول المجري. ولا ريب في أن مرجع ذلك إلى أن دين الإسلام دين الفطرة الإنسانية، وخلو من نظرية التسلیط المقدمة عند المسيحيين، وأيضاً فإنه يجر البربر وغيرهم من فكرة الاستبعاد للروماني وغير الرومان من يستولون على الديار ويتملكون كل ما فيها من المغيرات وطبيات الرزق، ثم هو لا يظلم أهل البلاد المفتوحة أى ظلم مالي أو غير مالي، وهو يسوى بين أتباعه من العرب وبين مسلمي البلدان المفتوحة في جميع الحقوق: في الفنان وفى الضرائب وفى مختلف الشؤون.

ظلت ليبيا طوال القرن الأول المجري مركزاً منها للجيوش العربية، وكان كل جندى فيها

(١) انظر في العرب Libya الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون وكتاب وصف إفريقيا للوزان ورحلة الدكتور إحسان عباس وكتاب الشاطئ العقاد في العبدري وكتاب ورقات عن المضمارية الغربية Libya للدكتور أحد مختار عمر.

يحاول تحفيظ بعض البربر الليبيين القرآن وتعليمهم مبادئ الدين الحنيف والمربيه، والفرانس الكحوبة عليهم وينبغي أن يؤذوها على خير وجه، ولم تثبت الكاتيب أن أُسْتَ في المدن وغير المدن، مما أسرع بأهل ليبيا إلى دخول الدين الحنيف أَفْوَاجًا بعد أَفْوَاج، وما أسرع بهم إلى التعرّب الاختلاط بالعرب والمصاهرة بينهم وبين أُسرهم. وأيضاً ما أسرع بهم إلى التعرّب هجرات مبكرة للقبائل والعشائر العربية نزلت ديارهم، إذ يذكر العقوبي المتوفى في أوائل القرن الثالث المجري أنه سكن جبل برقة الشرقي عشائر يمنية من الأَزد ولهم وجذام والصيف وغيرهم وسكن جبل برقة الغربي عشائر من غسان والأَزد وتحبيب، وزلت الرمادة عشائر من بني مدلح وبَلْ وجهينة، وزلت دُدان في المضبة جنوب طرابلس عشائر سهمية وحضرمية، وكل ذلك عمل على المزج بين العرب والليبيين، ولا نكاد نصل إلى منتصف القرن الخامس المجري حتى يحدث طوفان المجرة الأَغرافية الكبيرة لبني سليم وبني هلال من صعيد مصر إلى ليبيا والديار المغربية على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع، وزلت أمواج بني سليم - وخاصة بني قرة منهم - في برقة، وتقلّفلت أسراب منها في ليبيا إلى إقليم طرابلس في الغرب، ومعها عشائر من بني هلال. وأعد هذا الطوفان الأَغرافي الكبير ليبيا ليتكامل تعرّبها، إذ انتصر البربر بها في الأَعراب، وأصبحوا معاً شعباً عربياً كبيراً في تقاليده وعاداته وتناول حياته اليومية وفي أزيائه وملابساته وطعامه وفي أحزانه وأتراحه وفي أفراحه وأعراسه، وتعرّبوا أيضاً في الأخلاق والشيم الكريهة من المروءة والنجدة والفروسيّة، ولم تعرّب برقة وحدها هذا التعرّب الواسع في جميع مناحي الحياة، بل تعرّبت أيضاً طرابلس وسكنان إقليمهما من أفراد قبيلة هوارة البربرية، ويشهد بذلك ابن خلدون قائلاً عنهم في الجزء السادس من تاريخه: «إنهم صاروا في عدد الناجمة من عرب بني سليم في اللغة والرُّزْقِ وسُكُونِ المقام وركوبِ الخيل والإبل ومارسةِ المروءة وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلامم، قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها فصاحة العرب فلا يكاد يفرق بينهم» ويشهد ابن خلدون نفس الشهادة لبني يفرن في جبل نفوسه قائلاً: «إنهم تبُدوا مع بني سليم، ونسوا رطانة الأَغاجم وتتكلّموا بلغات العرب، وتعلّموا بشعاراتهم في جميع أحواههم». واتسع هذا الشعور بالعروبة بين البربر، فإذا هم ينسبون أنفسهم إلى القبائل العربية شمالاً وجنوباً، وكانت هوارة تسب نفسها إلى اليمن كما يقول العقوبي. وبذلك لا يبالغ إذا قلنا إن بربر ليبيا تحولوا شعيراً عربياً تاماً منذ نزول بدارهم بني سليم وبعض عشائر من بني هلال، فقد أصبحوا عرباً ديناً إذ اعتنقا الدين الحنيف، وعربياً أسلوب حياة وعادات وتقالييد، وعربياً زياً وملبسياً وطعمياً، وعربياً لغة، كلاماً لاحظ ابن خلدون.

ويبدو أن انتصار العرب على اللغة الوطنية المغربية في ليبيا وغيرها من بلدان المغرب كان حاسماً منذ انتقام البربر للدين الحنيف، وكانوا يسمون لفتهم - كما يقول المحسن الوزان - أول أمازيغ أي اللغة النبيلة، وسمّاها العرب اللغة البربرية، وكانت لهجات شتى. وفي المسر

المحدث اكتشفت نقوش في إقليمي تونس والجزائر وفي الصحراء الكبرى تدل على أن البربر عرموا الكتابة، غير أنه لم يؤثر عنهم أى كتاب ديني ولا أمني ولا عمل زراعي مثلاً، ومنع ذلك أن البربرية لم يكن لها تراث تستطيع أن تلقى به المرتبة، بحيث يمكن أن يحدث صراع بينها وبين العربية، ومن أجل ذلك لم تقاوم العربية أى مقاومة، بل سرعان ما قهرتها واحتلت السنة أهلها وأصبحت لغة الحياة في ليبيا وغيرها من البلدان المغاربية. ولكن هل حدث فيها ما حدث مثلاً في مصر من حدوث تغيرات في الكلمات العربية أهل لظهور اللغات العالمية. وكلام ابن خلدون عن هواة سكان إقليم طرابلس وبين يفرن سكان جبل نفوسه يدل على أنه لم تشع في ألسنتهم عامية مستحدثة، إذ قال إنهم استبدلوا من رطانة البربر فصاحة العرب، مما يؤكد أن الفصحى شاعت في ليبيا وطلت في ألسنة أهلها طريراً.

وإذا كان ابن خلدون شهد لأهل طرابلس من هواة ولبي يفرن في نفوسه بأنهم لم يكونوا يقلون فصاحة عن بني سليم فإن العبرى الرحالة المغربي يشهد لبرقة - حين مر بأحيانها في رحلته سنة ٦٨٨ - بفصاحة أهلها فصاحة تامة، إذ يقول:

«كلام عرب برقة من أفعى كلام عربي سمعناه، وعرب المجاز أيضاً فصحاء، ولكن عرب برقة لم يكثر ورود الناس عليهم، فلم يختلط كلامهم بغيره، وهم الآن على عربتهم، لم يفسد من كلامهم إلا القليل، ولا يخلون من الإعراب إلا بما لا قدر له بالإضافة إلى ما يعبرون. وقد سالت بدوياً لقيته يسكن إليه في «الحصوى» على ماء يقال له أبو شمال: هل نورد على أبو شمال، وذكرته بالواو في موضع المخض على عادة أهل المغرب، فقال لي: نعم تطئون أيها شمال، وأثبتت التون في الفعل ونصب المفعول. وليس في المغرب عربي ولا حضرى يفعل ذلك. ومررتنا بأطفال منهم يلبون، فقال لنا واحد منهم: يا حاجاج معكم شيءٌ تبعونه، وأثبتت التون وسكن الماء للوقف. ورأيت أعرابياً منهم قد أخذت عليه امرأة تأسله (شيئاً) من طعام يأكله. فقال لها: واقه ما تذوقينه، فأنقى بصير المخاطبة على وجهه، وأثبتت التون وسكن الماء. وسمعت شخصاً ينشد في الركب مكتري راحلة، ويقول: من يكرى زاملة، فسمعه بدوى، فقال له: أعتقد الزاملة؟ فقال: نعم: فلا تقل من يكرى زاملة، وحرُّك الياء بالفتح على لغة أهل المغرب يعني الرشاد المستقى به، فسمعه أعرابي، فقال له: ومن أين جاءت رائحة الحبلى إلى الماء، فأشار المغربي إلى الرشاد، فقال له الأعرابي، قل الحبلى ولا تقل الحبلى. وأما نادر ألفاظ اللغة وما جرت عادة أهل المغرب بتفسيره فهو - حتى الآن - يتحاورون به على سجيّتهم، فمن ذلك أن شخصاً منهم وقف على بوضع نزول من محله الرُّكْب، وكانت الترعة (قناة الماء) منه بعيدة، فقال لي: يا سيدى تدعنى أظهر يعني أخرى، وسألت

شخصاً منهم عن الطريق، فقال لي: إذا ظهرتم من الغابة فخذوا حَسْبَ (ناحية) كذا وكذا يعنى إذا خرجمت منها، وهذا اللفظ قد أكثر فيه أهل الفريب في تفسير قول عروة بن الزبير رضي الله عنه: لقد حدثني عائشة - رضي الله عنها - زوج النبي ﷺ بأن رسول الله ﷺ كان يصل العصر والشمس في حجرتها قبل أن تنظر.. وأتوا عليه بشواهد وأمثال. وسمعت صبياً منهم ينادي في الركب: يا حجاجُ مَنْ يَشْتَرِي الصَّفِيفَ؟ فلم يفهم عنه أكثر الناس، فقلت له: اللحم معدك، فقال: نعم وأبرز لحم ظبي مقدد (مجفف)، وهذا اللفظ (أى الصَّفِيفَ)، ذكره الإمام مالك في الموطأ وقال يلتر الحديث: الصَّفِيفُ القديد. وسألت شخصاً عن ما هـ هو معيـن (سائل) فقال لي : هو مـاء عـدد (جار) وهذا اللـفـظ فـسـره أبو عـبيدـ في غـربـيهـ، وما يتكلـمـونـ بهـ منـ الغـربـ أكثرـ منـ أـنـ يـعـصـيـ».

وإنما نقلت هذا النص بطوله من رحلة العبدري - مقارنا بصورته في كتاب ورقات للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب - لأهميته، وأنه يثبت أن أهل برقـة كانوا لا يـزاـلونـ يـتكلـمـونـ بالـفصـحـىـ حتىـ أـواـخـرـ الـقـرـنـ السـابـعـ وكانتـ فـصـحـاهـمـ تـتفـوقـ عـلـىـ فـصـحـىـ أـهـلـ الـحـجـاجـ،ـ مـعـلاـ العـبـدـريـ ذـلـكـ بـأـنـهـ لـاـ يـخـتـلـطـونـ بـغـيـرـهـ اـخـتـلـاطـ أـهـلـ الـحـجـاجـ بـالـحـجـاجـ مـنـ كـلـ فـجـ وـطـرـيقـ،ـ ويـقـولـ إـنـهـ لـاـ يـزاـلـونـ يـتـمـسـكـونـ بـإـعـارـابـ معـ سـقـوـطـهـ حـيـنـتـذـ مـنـ الـأـلـسـنـةـ فـيـ بـلـدـانـ الـعـالـمـ الـإـسـلـامـيـ فـيـ الـمـقـرـبـ -ـ كـمـ يـقـولـ الـعـبـدـريـ -ـ وـفـيـ غـيـرـ الـمـقـرـبـ إـلـاـ فـيـ زـيـدـ بـالـيـمـنـ كـمـ أـوـضـعـنـاـ ذـلـكـ فـيـ حـدـيـثـاـ بـالـجـزـءـ الـخـامـسـ مـنـ هـذـهـ السـلـسـلـةـ.ـ وـيـضـرـبـ مـثـالـاـ لـيـدـويـ أـبـتـ فـيـ نـونـ الـرـفـعـ فـيـ الـمـضـارـعـ وـنـصـبـ الـمـفـوـلـ وـهـوـ «ـأـبـاـ»ـ فـيـ قـوـلـهـ لـلـعـبـدـريـ:ـ «ـتـلـطـونـ أـبـاـ الشـمـالـ»ـ وـيـعـلـقـ الـعـبـدـريـ عـلـىـ ذـلـكـ قـائـلـاـ:ـ «ـلـيـسـ فـيـ الـمـقـرـبـ عـرـبـ وـلـاـ حـضـرـىـ يـفـعـلـ ذـلـكـ»ـ وـمـثـلـ الـمـقـرـبـ مـصـرـ فـيـ لـفـتـهـ الـعـامـيـةـ.ـ وـذـكـرـ مـثـالـاـ تـانـيـاـ أـبـتـ الـأـعـرـابـ فـيـ يـاهـ الـمـخـاطـبـةـ مـعـ نـونـ الـرـفـعـ فـيـ قـوـلـهـ «ـتـذـوقـيـتـهـ»ـ وـالـأـتـنـانـ يـعـذـفـانـ فـيـ الـعـامـيـةـ الـمـصـرـيـةـ وـالـمـغـرـبـيـةـ وـيـوـرـدـ مـثـالـاـ عـلـىـ دـقـةـ الـحـسـنـ الـلـفـوـىـ وـأـنـ بـدـوـيـاـ سـمعـ شـخـصـاـ يـقـولـ مـنـ يـكـرـىـ زـاـمـلـةـ أـىـ بـعـيرـاـ رـاحـلـاـ،ـ وـيـكـرـىـ مـعـنـاـهـ يـؤـجـرـ،ـ فـسـمـعـ بـدـوـيـاـ يـقـولـ أـعـنـدـكـ الـرـاـمـلـةـ؟ـ فـقـالـ لـهـ نـعـمـ،ـ فـنـبـهـ إـلـىـ أـنـ يـسـتـخـدـمـ فـنـلـ يـكـرـىـ وـهـوـ يـرـيدـ يـسـتـأـجـرـ،ـ فـقـالـ لـهـ لـاـ تـقـلـ:ـ مـنـ يـكـرـىـ وـقـلـ مـنـ يـسـتـكـرـىـ أـىـ يـسـتـأـجـرـ.ـ وـذـكـرـ الـعـبـدـريـ أـنـ سـمـعـ بـدـوـيـاـ يـقـولـ أـظـهـرـ بـعـنـ أـخـرـجـ،ـ وـيـعـلـقـ عـلـىـ ذـلـكـ بـأـنـ لـفـظـ ظـهـرـ بـهـذـاـ الـمـعـنـىـ وـرـدـ فـيـ حـدـيـثـ نـبـوـيـ وـعـدـ غـرـبـيـاـ،ـ وـلـذـلـكـ أـكـثـرـ أـصـحـابـ الـفـرـيبـ فـيـ الـمـدـيـثـ الـنـبـوـيـ مـنـ الإـتـيـانـ لـهـ بـالـشـوـاهـدـ وـالـأـمـالـ،ـ ثـمـ يـذـكـرـ أـنـ صـبـياـ نـادـىـ فـيـ الرـكـبـ مـنـ يـشـتـرـىـ الصـفـيفـ؟ـ فـلـمـ يـفـهـمـ مـنـ مـعـنـىـ الصـفـيفـ وـهـوـ اللـحـمـ المـقـدـدـ،ـ وـفـهـمـهـ هـوـ لـأـنـهـ قـرـأـهـ فـيـ كـتـابـ الـمـوـطـأـ لـإـلـامـ مـالـكـ وـتـفـسـيـرـهـ لـهـ بـأـنـهـ الـقـدـيـدـ،ـ وـمـنـ ذـلـكـ أـنـ يـسـأـلـ شـخـصـاـ عـنـ مـاهـ هـلـ هـوـ مـعـيـنـ أـىـ جـارـ،ـ وـقـدـ عـرـفـ مـعـنـاـهـ لـأـنـهـ قـرـأـهـ عـنـ أـبـيـ عـيـدـ الـقـاسـمـ بـنـ سـلـامـ فـيـ كـتـابـهـ «ـغـرـبـ الـمـدـيـثـ»ـ،ـ وـيـقـولـ الأـسـتـاذـ حـسـنـ عـبـدـ الـوـهـابـ فـيـ الـجـزـءـ الـأـوـلـ مـنـ كـاتـبـ الـوـرـقـاتـ بـعـدـ أـنـ نـقـلـ هـذـاـ الـفـصـلـ الـطـرـيفـ مـنـ رـحـلـةـ الـعـبـدـريـ:ـ «ـإـنـ

بما نقلناه من رحلة العبدري وما سذكر من أقوال أهل برقة فيها بعد يتضح لك أن لهجة هؤلاء الأعراب لم تتغير وأنها إلى الآن قريبة جداً من أنها الفصحي» - ويستدل على ذلك ببعض الأشعار الشعبية لأهل برقة بعد الاحتلال الإيطالي لوطنيهم، ملاحظاً أن اللهجة الليبية الحديثة عربية خالصة وإن اعتبرها ما اعتبرى سائز اللهجات العربية من إهال الإعراب. وأضاف الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب إلى هذه الملاحظات في الجزء الأول من كتابه الورقات ملاحظة مهمة في الجزء الثالث منه، إذ قال إن استخدام نون النسوة مع الأفعال في مثل: «يأكلن - يشربن - يغزلن» منتشر في كلام الأعراب بنواحي طرابلس وبرقة، وهي مبنوته في أقوالهم الشعرية. ويبدو أن أهل ليبيا ظلوا يحافظون بقوة على الفصحي - بعد المиграة الأوروبية إلى ديارهم - قرولاً متطاولة ربما امتدت حتى بعد شهادة العبدري في أواخر القرن السابع المجري.

## ٢

### نشاط<sup>(١)</sup> الشعر والشعراء

لعل أول ما أنشد من الشعر في ليبيا كان على لسان الشعراء الواقفين عليها مع الجند الفاتح لها وللبلاد المفربية، ورمز لهم بالشاعر المذلي الشهور أبي ذؤيب، فقد خرج مع عبدالله بن الزبير في جند عبدالله بن سعد بن أبي سرح إلى فتح إفريقية سنة ست وعشرين وأعجب بشجاعة ابن الزبير حين فتك في موقعة ضارية بوالي البيزنطيين: جريجوريوس وتسميه العرب جرجير، ومن قوله في الإشادة ببطولته:

وصاحب صدق كسيد الضرا    وينهض في الفزو نهضاً نبيعاً

والسيد: الذئب، والضراء: شجر يتوارى فيه وهو أفتوك الذئاب في الجزيرة العربية. وكثير من أمثال أبي ذؤيب الشاعر النابه استقروا في برقة وطرابلس ينشدون أشعارهم وينشرون الإسلام وأخذوا البربر عنهم القرآن الكريم والمربيه. غير أنه لم يكن يهمهم - فيما يبدو - أن تتحمل عنهم أشعارهم أو أن تذكر أخبارهم، فهم من عامة العرب المسلمين، وهم آخر من يفكرون في هذا الشرف. ومن نزل ليبيا من الشعراء النابهين دُعمْل الشاعر العباسى، نزلاً في العقد الثالث

وخلوف والودانى والمربردة (قسم شعراً مصر) في ابن البرقى.

(١) انظر الأغافى في أبي ذؤيب ودعيل والمللة  
الشعراء في عبد الله بن محمد الأغلبي وابن سوادة  
وخليل بن إسحق وإناء الرواة في المكتوف

من القرن الثالث، نزلها على إثر خلاف بينه وبين والي مصر، وكان قد ولد أسوان فتركها واتجه إلى ليبيا والبلاد المغربية، ويبدو أنه حاول الرحلة عن طريق واحدة سبوا، واتجه منها إلى واحات Libya، وربما كان يقصد القيروان ل مدح أمراء الأغالبة، غير أن الموت أدركه في زوجة عاصمة فزان، فلم تحيط به ليبيا ولا حظى به الأغالبة.

وكان طرابلس قد أصبحت تابعة للأغالبة في إفريقيا التونسية، بينما تعمت برقة مصر، ويتوالى طرابلس بعض شعراء الأغالبة مثل عبد الله بن محمد الأغلبي وبهلا لابن عمه أبي الفرانيق سنة ٢٥٩ وكان - مع اهتمامه بالشعر - يعنى بالفقه والمحدثين النبوى، وعزله عنها أبو الفرانيق وولاه صقلية ثم أعاده إليها، ولم يلبث أن ولد القيروان، ولم يذكر متوجه له سوى قطعة أرسل بها إلى صديقه موسى بن مرزوق لما بلغه نباء عزله عن طرابلس قوله يقول:

قد أق في الكتاب ما قد علمنا من تناو ورحالة وفراتي  
فعليك السلام إن فراقى قد دنا والفارق من المذاق

وكان على شاكلته في نظم الشاعر ابن عم له هو محمد بن زيادة الله والي طرابلس لإبراهيم بن أحد الأغلبي (٢٦٢ - ٢٨٩ هـ) وكان عالماً وشاعراً خطيباً، وله كتاب راحة القلب والزهر، وأنشر منه ومن سالفه أحد بن سفيان بن سوادة الأغلبي الذي ولد طرابلس وأعماها سنوات كثيرة، وأنشد له ابن الأبار قصيدة حماسية يقول في إحداها:

قرّبوا الأبلق إنى أعرف الغيل العتاقا  
وعليها أصرع الاب طال طعنًا واعتباقا  
وأرزوى من نجيع الـ همام أسيفا رقاقا

وليس بين أيدينا ما يؤكد أن هؤلاء الولاة الأغالبة شعراء أخذوا في طرابلس حركة أدبية أغدقوا فيها الأموال على الشعراء كما كان يصنع قبليهم بيزيد بن حاتم المهلبي حين ولد القيروان سنة ١٥٤ فإنه أحدث فيها حركة أدبية واسعة نثر فيها على الأدباء أموالاً طائلة، ومع ذلك نظن ظناً أن تولى هؤلاء الولاة الأغالبة الشعراء لطرابلس كان له بها أثر غير قليل، إذ نجد الشعر يسائل على السنة بعض الليبيين من اللغويين والفقهاء وغيرهم، من ذلك أن إسحق بن خنيس هجا العالم اللغوى عبد الله بن عمود المكوف بقصيدة طويلة قال فيها:

ألا لعنت سرت وما جاء من سرت فقد حل من أكتافها جبل المقت

فقال فيه المكوف:  
إن المتنبي يهجون لأرفئه إحساناً خُبِّئْ فلانيْ غيرْ هاجبِكَا

لَمْ تِبْ مُشَابَةً تُحْصِي إِذَا جَمِعْتَ مِنَ الْمَثَالِبِ إِلَّا كُلُّهَا فِيْكَ

ويقول متربو المكفوف السُّرُقِ إن له أشعاراً فصيحة وأراجيز غريبة، وقد سقطت جميعاً من يد الزمن ولم يصلنا منها شيء. وكان يعاصره خليل بن إسحق شاعر المهدى الفاطمي وابنه القائم وسنفرد له ترجمة عما قليل. ونلتقي بخلوف بن عبد الله البرقى التحوى المقرئ نزيل صفليه، وكان يعيش في أواسط المائة الخامسة وله ترجمة في إثناء الرواية للفقطى، ومن قوله:

كَتَبْتُ إِلَيْكَ مُشَاتِقاً كَبِيرَ الْوَجْدِ تَوْأِقاً  
سَنُولَا دَاعِبَا لَلَّدَّ هَـ آصَالَا إِاْشَرَقاً  
بَـأَنْ تَبْقَى عَلَى الْأَيْـا مَ لِـلأَقْرَانِ سَبَاقَا

والقطعة رقيقة وهي تدل على حس دقيق وذوق مرهف وقدرة على صياغة الكلام صياغة رشيقه، قوله:

يَا أَيُّهَا الْمَفْرُورُ دَفْـرَكَ كُمْ تَقِيمُ عَلَى الْغَرَارَةِ  
إِذْ جَمِعْتُ شَـتِيلِكَ لِـلشَّـتا بِـتِ وَرِبِيعِ مَالِكِ لِـلخَسَارَةِ

والبيتان في الدعوة للزهد والانصراف عن حطام الدنيا والاغترار بما في يده منها، فليس في شمله إلا الشتات والفران وليس في يده إلا الضياع والخسارة. وكان يعاصره أبو الحسن علي بن أبي إسحق الودافى صديق ابن رشيق وصاحب الديوان بصقلية ومن شعره:

مَنْ يَشْتَرِي مِنِ النَّهَارِ بِـلِيلَةِ لَا فَرْقَ بَيْنَ نَجْوَمَهَا وَصَحَابِهِ  
دَارَتْ عَلَى فَلَكِ الزَّمَانِ وَنَحْنُ قَدْ دُرْنَا عَلَى فَلَكِ مِنَ الْآدَابِ  
وَدَنَا الصَّبَاحُ - وَلَا أَنَّـ - وَكَانَ شَـيْـبُ أَطْلَـلَ عَلَى سَوَادِ شَـهَـابِ

والألفاظ منتفقة والصور بدعة فلا فرق بين النجوم المتألقة ووجوه صحابه المشرقة وقد دارت الليلة على فلك الزمان ودار مع صحابه على فلك الآداب، وهي مشاكلاً بدعة. وقرب الصباح ويقول: لا أنت في خفة وغموضة، وتصوره بأضوانه التي تختلف في آخر تلك الليلة كأنه شيب مشتعل يطل على سواد شباب. ونلتقي بشاعر برقى أيام بالقاهرة طوبلاً مما جعل العاد يترجم له بين شعراء مصر في المزيدة هو أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن البرقى المتوفى سنة ٥٢٢ ومن شعره الطريف الذى أنشده العداد:

رَمَانِي الدَّهْرُ مِنْهُ بِـكُلِّ سَهْـمٍ وَـفَرْـقُ بَيْـنَ أَحْبَـابِي وَـبَيْـنِي  
فَـفِي قَلْـبِي حَرَارَـةً كُـلُّ قَلْـبٍ وَـفِي عَيْـنِي سَـدَامَعَ كُـلُّ عَيْـنٍ

والبيتان في غاية الرقة ما يدل على شاعرية خصبة مرهفة، وهي شاعرية أتاحت له أصدقاء مصريين تبادلوا معه مثل هذين البيتين الرقيقين. وكان يعاصره شاعر نفوسى إياضى هو أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم، وله مرثية بدعة يرثى بها شيخه أبي سليمان أبوبن إسماعيل، وفيها يتحدث عن تقواه وبره وذكائه:

من للصلة بجوف ليل مظلم  
والليل أسود حالك غيرَ بِيْبُ  
أو للصيام إذا تطاول يومه  
وامتد طرفةً وهاج هب  
أو للبسامة والأرامل بعده  
وتواترت في العالمين حروب  
أو للأمور إذا تفاصم حوها  
أهل النُّبُّ والرُّأْيُ - بعد - غريب

وكأنما يفتقد بور شيخه من يصل آناء الليالي المظلمة الحالكة ومن يصوم في الأيام الطويلة المليئة أو من يأخذ بيد اليتامي والأرامل في الحروب الضاربة ومن يجعل الأمور المشكلة حين يعزُّ الرأي الصائب المحكم. وحرى أن تتوقف قليلاً لنترجم لشاعر أنجنته طرابلس في حقبها الأولى.

### خليل بن إسحق

هو أبو العباس خليل بن إسحق بن ورد، ترجم له ابن الأبار في كتابه *الملة السيراء* ترجمة ضافية افتتحها بقوله: «مولده بطرابلس وهو من أبناء جندها ( أيام الأغالبة ) وكان في أول أمره يطلب العلم والأدب ويصحب الصوفية وببيت في المساجد » وما إن انتهى حكم الدولة الأغليبية سنة ٢٩٧ وتحولت مقاليد الحكم إلى عبيد الله المهدى الفاطمى، حتى رحل إليه وانضوى تحت لوائه، وانتقض أهل بلادته: طرابلس سنة ٢٩٩ على واليهم الفاطمى فأرسل إليهم المهدى أبهة أبا القاسم لمعاربهم وردهم إلى الطاعة، وفي ركانه خليل، فحاصرهم أبو القاسم حتى اضطروا إلى الاستسلام، وكشر لهم خليل عن أنبياه الغليظة التي كان يخفيها، وتولى تعذيبهم، لاتأخذنه فيهم - وهو أهله - شفقة ولا رحمة، وأغزمهم ثلاثة ألف دينار، وما توافق سنة ٣٠٢ حتى يرسل المهدى أبهة أبا القاسم الملقب بالقائم في جيش لمعاربة أهل مصر، فلتحق به خليل بن إسحق في الإسكندرية فولاه القيام على أموال الجيش، وعاد القائم بجيشه، وعاد معه خليل، فقدم على خيل إفريقية، وجُعل أمر جندها إليه مع النظر في البحر وشنون الأسطول الفاطمى: وفي سنة ٣٢٥ ولأهله القائم الفاطمى صقلية، فاستحال حاكماً لها باغياً طاغياً أشد ما يكون البغي والطغيان، وأهلك أهله جوعاً وقتلاً وجار فيها أشد ما يكون الجور والظلم، مما جعل كثيرين من أهلهما يفرّون إلى بلاد الروم، وعزله الخليفة القائم عنها، وكان يقول بعد وصوله إلى إفريقية

مفتخرًا: «المكث يقول إن قتلت من أهل صقلية وأهلكت ألف ألف، والمقلل يقول ستمائة ألف». وكان حرباً بالقائم أن ينزل به عقاباً صارماً، ولكن بدلاً من ذلك أخرجه إلى مدينة القيروان سنة ٣٢٢ في ألف فارس لقتال أبي يزيد الصغرى في القيروان، فحاصره أبو يزيد فيها واعتقله وسفك دمه وصلبه. وأنشد له ابن الأبار قصيدة ومقطوعتين في مدح المهدى الفاطمى وابنه القائم، وكأنما كان يقف شعره على مدحهما زلفى ونقرىاً إليةها، والقصيدة في مدح عبادته المهدى نظمها على شاكلة قصيدة مشهورة لمروان ابن أبي حفصة صاغها في مدح المهدى الخليفة العباسى، بدأها مثله بالتشبيب وبكاء الأطلال والديار قائلًا:

ِفَّ بِالْمُنَازِلِ وَاسْلَانِ أَطْلَالِهَا  
مَاذَا يَضِيرُكَ إِنْ أَرَدْتَ سُؤَالِهَا  
دَرَسْتَ وَغَيْرَتِ الْعَوَادْتُ حَالَهَا<sup>(١)</sup>  
عَنْ مُقْلَةٍ سَفَحْتَ عَلَيْكَ سِجَالَهَا<sup>(٢)</sup>  
وَخَشْنَ الْفَلَةَ ظِيَاهَا وَرِنَالَهَا<sup>(٣)</sup>  
فِيهَا وَدْنَى أَقْبَلْتَ إِقْسَالَهَا<sup>(٤)</sup>  
وَتَهَزْ دَقَّةَ خَسْرَهَا أَكْنَالَهَا<sup>(٥)</sup>  
جَمَدْ تَصَافَحَ كَفَهَ خَلَالَهَا<sup>(٦)</sup>  
عَسْلَا أَصَابَ مِنَ السَّمَاءِ زُلَالَهَا<sup>(٧)</sup>  
وَلَقَدْ عَصَيْتَ عَوَادِلَى فِي حُبَّهَا  
بِيَضَاءَ نَاعِمَةَ يَجُولُ وِشَاحُهَا  
وَلَهَا قَوَامُ كَالْقَضِيبِ وَفَوْقَهُ  
وَكَانَ فِي فِيهَا بُعْدَ رُقادَهَا  
وَلَقَدْ عَصَيْتَ عَوَادِلَى فِي الْهَوَى عَذَالَهَا

والأبيات تسيل عنوبة، إذ عرف خليل بن إسحق كيف يصطنع لها الألفاظ وكيف يلائم بين جرسها، مع خلاوة الصوت، ومع تشابك الكلمات في كل بيت، وكأن كل كلمة لبت قرينتها، واستجابت لصاحبها وجارتها، وحقاً الصور في الأبيات ألم بها الشعراً أو طلماً ألم بها الشعراً قبله، غير أنه أعاد عرضها عرضاً يستهويك بصياغته وما يبيث فيه من الجnasات والطبقات. وخرج إلى المدح منشداً:

صَلُّ إِلَهَهُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَزَادَهُ أَمْلَاهَا

(١) الدمنة: آثار بالدار.

(٢) السجال جمع سجل: الدلو الملعونة.

(٣) الغراند جمع خربطة: اللؤلؤة والمرأة.

الجميلة. الـدمى: جمع دمية: التمثال العجمي.

الرثى جمع رأى: فرج النعام.

(٤) حيرة: مسرّة.

(٥) أكفالها جمع كفل: عجز الإنسان.

(٦) جمد يزيد الشر وضفائره.

(٧) الزلال: الماء العذب الصافى.

للMuslimين كما حذرت ب تعالها  
وفروضها وحرامها وحلالها  
طلب الغواة الظالمون ضلالها  
إن الخلافة يابن بنت مُحَمَّدٍ  
حَطَّتْ إِلَيْكَ - عن النَّبِيِّ - بِرِحْالِهَا

وهو يزعم أن أقه - جَلْ جلاله - يصل على إمامه كما يصل على نبيه، بل يزعم أنه يزيد صلاة إلى صلاة، ويقول إنه أقام سُنَّةَ جَدِّه حذرت التعل بالتعل أو كما يقول مطابقاً لما أشد المطابقة، ويزعم له أنه أحيا الشريعة وقُومٌ كتبها وأزال عنها عوجها وانعراجها، كما قُوم فروضها وحلالها وحرامها، وكل تلك مبالغات شائنة، وكأنه يدبر الدين الخفيف وبصره، وقد هدى أقه به الناس كما هداهم برسوله، ولم يسوق ابن الأبار مدح القصيدة تاماً، ولعله صنع ذلك لما في بقية القصيدة من مبالغات شديدة الإفراط في تصوير قدسيّة المهدى، وحسناً صنع. وله في القائم وقد فصّله الطبيب أو بعبارة أخرى أخرج مقداراً من دم وريده للعلاج:

قُلْ لِلطَّبِيبِ الَّذِي أَوْصَى لِيَعْمِدَهُ رِفْقًا وَلَا زَاتْ بِالإِسْعَادِ تَرْتَقِعُ  
كِيفَ اسْتَطَعْتَ تَرَى بِأَقْهَ طَلْعَتْهُ وَمِنْ سَنَا نُورَهُ مَا يَشْرُقُ الْأَفَاقُ  
أَمْ كِيفَ تَخْرُجُ مِنْ كُفَّ تَقْبِلَهَا دَمًا وَمِنْهَا بَحَارُ الْجَوَدِ تَسْدَقُ  
إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْ كُفَّ مَسْتَشْتَ بِهَا خَيْرُ الْوَرَى كِيفَ لَمْ يَبْتَهِتْ بِهَا الْوَرِقُ<sup>(١)</sup>

وهو يدعو في البيت الأول للطبيب متلطفاً أن يظل الإسعاد برفقه ومجانس بين أول النطر الثاني ونهايته جناساً سانغاً، وما يليث في البيت الثاني أن يبالغ في مدح القائم مبالغة مفرطة، إذ يجعل ضوء النور في وجهه نور الأنوار الذي يعم الآفاق، وكأن نور وجهه من نور أقه ومشكاته في الكون. وحين أمر القائم أن يخرج في ألف فارس ليحارب أبا يزيد مخلد بن كيداد الصفرى كتب إليه مودعاً:

وَمَا وَدَعْتُ خَيْرَ النَّاسِ طُرَا  
وَكِيفَ تَطْبِقُ تَفْسِيْسَهُ عَنْ حَيَاْتِي  
أَفْارِقَهَا وَعَنْ قَمْرِي وَشَمْسِي  
وَلَكَنِي طَلَبْتُ رِضاَهُ جَهَدِي  
وَعَقْوَ أَقْهَ يَوْمَ حلُولَ رَسْسِي<sup>(٢)</sup>  
فَعَانِشَ مَمْلَكَا ما لَاحَ شَسْنَ دَلَّسِي

وهو يجعله في أول الأبيات خير الناس طرا، وكان قد جعله خير الورى في آخر الأبيات

(١) رسمى: قبرى.

(٢) الورق: الفضة

السالقة، وهذا صفتان للرسول ﷺ يتضمنها الشعراه في مدحه، وتصوره حياته، وكأنه هو الذي يديرها، إنه نور حياته، ويقول إنه يطلب رضاه على نحو ما يطلب المسلمون رضا ربهم. وكأنه به يظن أنه هو الذي سيمنحه غفرانه يوم حلوله في قبره. وهي مبالغات ستتضخم فيها بعد عند ابن هانئ الشاعر الأندلسي في مدحه للمزق الفاطمي وترهاته وبالمبالغة الملحدة فيه.

## ٣

### الشعراء في عصر<sup>(١)</sup> الدولة الحفصية

عنيت هذه الدولة بالحركة الأدبية، وحظيت - لمهدها - بغير قليل من النشاط والانتعاش، وكان للشعر والشعراء من ذلك نصيب موفور، إذ فتحت الدولة الحفصية الأبواب للشعراء في إفريقيا التونسية وطرابلس كي يقدوا عليها مادحين، وبنالوا جوائزها السنوية، وكان مؤسساها أبو ذكري يا يحيى بن عبد الواحد شاعرًا فسنًّا للحكام الحفصيين من بعده نظر الجوانز والمطابيا على الشعراء، مما جعلهم يتكاثرون. وستترجم ثلاثة منهم: إباضي وطرابلسيين. وقد تار عليه ثائر طرابلسي هو يعقوب بن أبي يعقوب سنة ٦٣٩ وقتل هو وأتباعه، وصلبت جثتهم بباب هوارة، ونصبت رؤوسهم في تونس، فهناً أبو ذكري يا الحفصي بالقضاء على تلك الثورة شاعر طرابلسي يسمى أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأصول بقصيدة طويلة صور فيها المصير المنشوم لهذا النائز وصلبه: ملقبا له بالفاطمي:

وَمَا سُوْغَنَهُ دُرُّهَا الْبِيْضُ وَالْمُرُّ  
نَمَاهُ بِهِ لِلْجَذْعِ مُنْصِبُكُ الْحَرُّ  
يَصْخَنُ لِأَمْرٍ مِنْهُ أَكْذِبُهُ الْأَمْرُ  
وَلِلرِّيحِ لَا لِلرُّوحِ فِي جَسْمِهِ كَرُّ<sup>(٢)</sup>  
وَأَعْظَمُ مَا يَرْجُوهُ لَوْ أَشْيَفَ - الْقَبْرُ  
إِلَى النَّارِ عَثْيَاهَا، إِذَا ضَمْكَ الْحَضْرُ

لَقَدْ عَجَلْتُ لِلْفَاطِمِيِّ فَطَامَةَ  
رَجَا رُفْعَةَ فَاعْتَاضَ فِيهَا بِمَنْصِبِ  
بِهِرِيِّ شُرْفَاتِ السُّورِ قَدْ قَمَنَ حَوْلَهِ  
ضُحَى فَلَعْرُ الشَّمْسِ لَمَجَ إِهَابِهِ  
وَكَمْ رَامَ تَشْيِيدَ الْقَصُورِ فَحَلَّهَا  
فَدُونَكَ يَا يَعْقُوبَ عَقْبَيِّ مَنَافِقِ

الملحق بكتاب الدعائم، والنشاط الثقافي في ليبيا.

(٢) لمع إهابه: حرق جلده.

(١) انظر في الشعراء التاليين رحلة التجانسي، ماعدا فتح بن نوح، وانظر فيه الجزء الثالث من كتاب الإباضية في موكب التاريخ لمصر، وديوانه

والآيات تحمل شهادة مرة بهذا التأثر، فقد عَجَلْ أبو زكريا بن نظامه، فلم يطب له شيء من أميته، إذ سرعان ما قبضت عليه وعلى أتباعه الرماح والسيوف، وكأنما أراد رفعه فناها ولكن على جذع نخلة، ولكانوا الشرفات من حوله تصيبه به: يالهول ماحاولات، وتلك جنته مصلوبة وحرث الشمس يحرق إيهابه وجبله، والربيع أو الرياح تُسْفِي عليه من كل جانب، وكم أَمَّلْ أن تتجمع ثورته ويسكن القصور المشيدة، وهذا هو أعظم ما يرجوه قبر يضم جسده وأشلاءه وتلك عاقبة ثورته في دنياه أما في آخره فعاقبتها نار حامية. وتنوقف قليلاً لترجمة للشعراء الثلاثة الذين أشرنا إليهم آنفاً، وهم فتح بن نوح وابن أبي الدنيا وابن معمر.

### (أ) فتح بن نوح الإياضى

هو أبو نصر فتح بن نوح النفوسي، من شعراء النصف الأول من القرن السابع المجري ولد ونشأ بجيجل نفوسه، ورعاه خير رعاية علمية وأدبية خاله أبو بحبيبي زكريا بن إبراهيم الباروني، وكان مع شعره وأدبه عالماً بالذهب الإياضى متعمقاً فيه، وكان يدرس للشباب صباحاً، وفي المساء بعد صلاة العشاء يلقى في الناس بالمسجد في نفوسه دروساً عامة، وأكثر أشعاره في الموعظة بحكم أنه كان واعظاً حقيقاً، إذ كان ما يزال يعظ الناس كل مساء، ومن قصيدة يصور فيها نفسه:

أنا المتيم لا باليوسفيات      ما تنهشت إليها قط هُماني<sup>(١)</sup>  
 بل تيمتني فنون العلم أطلبهها      ما النفس باقية في هيكل الذات  
 لست الفداء بحسب خاضع طمعاً      في وصل غانية أرجو مواداً  
 بل في منادمة الآخيار راغبةٌ      نفسى إلى أجلٍ يفضى بمحنتٍ

فهو لا يشقى بحب يوسفيات فاتنات، ولم يحدث أن هاته وطموحاته كفته أو زجرته عنها، لأنه لا يفكر فيها أى تفكير إذ شفله عنها العلم ومعرفته أن كل ما عليها فان وأنه لا يبقى للإنسان إلا عمله، وإنه لذلك لا يهوى غانية ولا يتذلل لها راجياً منها المودة والعطف، فلذته في دنياه إنما منادمة التقى الآخيار، حتى يوافيه أجله. وتكثر في مواضعه المحسات على نحو ما تكثر عند الأندلسين، وله محسن أدواره موزعة على جميع حروف الهجاء، وفي أول كل دور حرف القافية على هذا النطع:

حَمَّة حَذَار - وَاسْمَعْنَ يَا صَاحِر -      من يسْفِرْ تَغْرِي الأَبْرَقِ الْوَضَاحِ<sup>(٢)</sup>

الجمل الباقي

(١) اليوسفيات: صراحب يوسف الفاتنات.

(٢) الأبرق هنا: التفر، الواضح: صفة للتفر أنى

يُلهيك تخلابا عن الأرباح <sup>(١)</sup>  
عما قليل أضت صفر الراح <sup>(٢)</sup>  
من صالح الأعمال جم العاب <sup>(٣)</sup>

خاء خبت نار اسرى شماغ يفخر بالأنجارات والأسنان <sup>(٤)</sup>  
ما الفخر إلا للفتن السوانغ حيث التقى مخيم الأشياخ <sup>(٥)</sup>  
أولى النهى والعزم والآلياب

وهو يختبر صاحبه من سحر نفر المرأة الجميلة، إذ يخليب له ويلهيه عن أرباح الأعمال الصالحة، فيبعد صفر الكف من الصالحات مملوءة بالآثام والذنوب، ويقول: خدت نار شخص شامخ بأنه كيرا واستعلاء، يفخر بالأصول والأسباب، وليس ذلك يفخر، إنما الفخر للنبي القديم حيث منزل الأشياخ من التقى والصلاح أولى العزم والعقل الراجحة. وفي مخمس ثان له ينشد:

وأول ما أوصى به في مخمسى ليس سرائيل التقى خير ملبس  
به ساد أقوام من الجن والإنس وليسوا ذوى مال ولا بنوى فلس  
ولا زيل ما نالوا ببعض ولا سُر  
بذلك أوصى الله من كان واعيا من أهل القرون السالفات الخوارايا  
ونادى به أهل المصور البواقيا وقال: انقون اليوم حق تقانيا  
يُطاع فلا يعصى وشكرا بلا كفر

وهو يقول: أول ما يوصى به في مخمسه أن يلبس الإنسان سرائيل التقى ولا يتخلصها عن جسمه ونفسه أبدا فهى خير ملبس، وطلاما ساد بها أقوام من الجن والإنس وأصبحوا من أكبر الآثرياء وليسوا بأصحاب أموال كبيرة ولا قليلة، ولا نالوا ما نالوا من غنائم حرب بالرماح والسيوف، ومع ذلك هم أغنى الأغنياء، ويقول إن تلك وصية الله أوصى بها ذوى الآلياب من أهل القرون السالفة، وبالمثل من أهل المصور الباقيه، إذ قال - عز من قائل - انقون اليوم حق تقانى، وطاعته واجبة وشكرا فرض بلا كفر، وقرأ مخسته مؤسس الدولة المحفصية أبو يحيى زكريا، فشعرها بمخمس ثان، وله مرثية بديمة في حاله مربيه وراعيه أبي يحيى زكريا بن إبراهيم، وفيها يقول:

آخر وأجدد للأجيافان والمُقتل <sup>(٦)</sup> تقنى بكاه على الإسلام لم تقبل <sup>(٧)</sup>

(٤) التواخ: المقبر.

(١) أضت: صرت.

(٥) تقى: تحرر - تبل : ثغر النعم مدرارا.

(٢) المأب يريد الآثام، جمع حوية (أى إثم).

(٣) الأنجلارات والأسنان: الأصول والأعراف.

يُسطو عليها يُسطو المُتَّبِ والمُعذَلَ<sup>(١)</sup>  
 يهْنَأُ العِيَّاهَ بِنُو الْآدَابِ بِالْأَمْلَ<sup>(٢)</sup>  
 حِينَ اعْتَرَثَهُ بَنَاتُ الدَّهْرِ بِالسُّمْلَ<sup>(٣)</sup>  
 سَمَّا يَزِيدُ عَلَى التَّسْكَابِ وَالْهَسْلَ<sup>(٤)</sup>  
 مُسْوَى الْعِلُومِ بِمُحَمَّاهُ وَلَمْ يَؤُلَّ<sup>(٥)</sup>

وهو يبكي خاله، ويقول إنه أحرى وأجدر للأجيافان والمقل أن تبكي دما على الإسلام وفقيده، ويُعجب أن لا تُنفر الدموع مدرارا، ويُدعى على من يعاتب الناس على بكائهم عليه ويُعذّل لانتها، حتى ليُتَضَعَّ لم حزناً موجعاً كحزنه، ويقول إن بنى الآداب بعد أن غَيَّب عنهم لن يهْنَأُوا بأمل ولا بأمنية، وإنه لم يعد يرى من حوله، إذ أصابته بُناتُ الدَّهْرِ ونِكَانَهُ فِي نَاظِرِهِ وكأنما فُقِّطَتْ عينيه بحدِّيَّةِ حَمَّةٍ. ويطلب إلى رفقاءه أن يزوروا معه القبر ويُسْكِنُوا دُمُوعَهُمْ هناك. فقد توفى أبو يحيى زكريا الذي طالما انقدت مُناراتُ الْعِلُومِ وصوَّاها في حياته، وقد مات ولم يُعد. ويُضيَّ الشاعر في مرثية خاله منشدا:

يَا وَحْشَةَ السَّيْرِ الْفَرِّاً عَنِ الْأُولَى  
 قَنْدَمَا جَرَى فِي نَبِيِّ اهْ وَالرُّسُلِ<sup>(٦)</sup>  
 وَفِي التَّنْزِي لِوَعْوُلِ صَبَّةِ الْبُلِّ<sup>(٧)</sup>  
 أَوْ لَا فَلَا وَلَدَتْ عَنْ آخِرِ الطُّولِ<sup>(٨)</sup>  
 مَهْلًا بِهِنْكِ تِرَابُ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ

وهو يبالغ إذ يجعل الدين بعد وفاة خاله يعود غريباً، ويبدو من الشطر الثاني أن خاله كان يعنى بالسير التارِيخية، ويُعود إلى المبالغة في البيت إذ يقرن وفاة خاله بوفاة الرسول ﷺ ووفاة الأنبياء! ويقول إن حَيَا لَا يُسْتَعْصِي على الموت، لا الأسد في أغياهَا ولا الوعول في ذرى الجبال وقُممها العالية، وينبه به ويُفَخِّر، إذ يقول مثله فلتله الأمهات وإلا فلا تلد إلى آخر الدهر، ويُدعى على الشامتين بوته. ولعل فيها أنسنة من شعر فتح بن نوح ما يصور ملوكه الشريرة الخصبة.

ذَعْهَا تَسْبِيلُ أَسَالَ اهْ مَقْلَةَ مَنْ  
 أَبْعَدَ مَاغَابَ بَنْدُرَ الدِّينِ فِي جَدَّهِ  
 كَيْفَ الْبَقَاءُ لِطَرْفِ زَالَ نَاظِرَهُ  
 زُرْ سَاحَةَ السُّفَعِ وَاسْفَعَ عَنْهَا حَزَنَاهَا  
 أَعْنَى الْوَلَى أَبَا يَحْيَى الَّذِي حَيَّتْ

يَا غَرْبَةَ الدِّينِ بَعْدَ الشِّيخِ مُفْتَقِداً  
 لَا عَنْ تَرَاضِ جَرِي حُكْمِ الْمُنْسُونِ بِهِ  
 قَنْسَرَا عَلَى الْأَسْدِ فِي الْأَغْيَالِ وَاغْلَهُ  
 كَمْنَاهُ فَلَتَلِدْ أَنْشَى مَفَاخِرَهُ  
 يَا أَيُّهَا الشَّامَتُ الْمَبْدِي شَمَاتَهُ

(١) صوى: أعلام ومنارات. يؤل: يرجع  
 (٢) أغيا: جمع غيل: بيت الأسد. الوعول جمع  
 وعل: تيس الجبل  
 (٣) عن آخر الطول: يزيد إلى آخر الدهر

(٤) يسطو: يطش ويفهر. العزل: اللوم  
 (٥) جدت: قبر  
 (٦) بُنَاتُ الدَّهْرِ: نِكَانَهُ. سُلَ الْمَنِ: فَقْعَاهَا  
 بِسَارَ حَمَّى.

## (ب) ابن أبي الدنيا

هو أبو محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا الصدق الطرابلسي المولود بطرابلس سنة ٦٠٦ وفيها نشأ ونهل من حلقات علمائها وأدبائها، وارتحل إلى المشرق لقضاء فريضة الحج، واستمع إلى كثير من العلماء، وعاد إلى تونس في عهد مؤسس الدولة المغربية أبي زكريا (٦٤٧ - ٦٢٥ هـ). ونال حظوة عنده، ورجع إلى بلدته: طرابلس فترة، واستدعي إلى تونس، فولى بها المنظسط الرفيعة إذ ول قضاء الجماعة، كما ول الخطابة بالجامع الأعظم وغير ذلك من المناصب حتى وفاته سنة ٦٨٤ للهجرة. وله تصانيف ومؤلفات قيمة، منها: المقيدة الدينية وشرحها وجلاء الالتباس في الرد على نفاة القياس وكتاب مذكُّر الفواد في الحض على الجهاد. ومر في حديثنا عنه بين الفقهاء أنه كان يدرس لطلابه في بعض دروسه بطرابلس كتاب الإرشاد والبرهان للجويني إمام الحرمين وكتاب المستصنف للفزالي. وبجانب هذه الثقافة الدينية المتعمقة كان شاعراً، وفيه يقول التجاعي في رحلته: «من فضلاء طرابلس المشهورين بالعلم والمشاركة في الأدب». وقد أنشد له بعض أشعاره، وذكر أن له قصيدة طويلة افتتحها بقوله:

بحمد الله نبتدئ الأموراً ونختتم آخرنا فيه المحبوراً

ولم يذكر التجاعي سوى المطلع، ويبدو أنها كانت موعدة طويلة، وقد سقطت من يد الزمن وربما سقطت له معها أشعار أخرى له في الموعظ والدعوة إلى الزهد، وما أنشده له التجاعي قوله:

ولزِدُومْ بَيْتَ بِالشُّوْحَشِ مُؤْنِسِ أَيُّ الْقُرْآنِ وَنُورُهُ فِي الْجِنَّسِ <sup>(١)</sup> فَلَيَنْفِرُنَّ نَفْرَ ظُلْمِي الْمُكَبِّسِ <sup>(٢)</sup> مِنْ زَلَّةٍ أَوْ غُثْرَةٍ فِي الْمَجْلِسِ	طَرَقُ السَّلَامَةِ وَالْفَلَاحِ قَنَاعَةُ يَكْفِيهِ أَنْ يَكُونَ أَنِيسَةُ إِذَا رَأَتْ عِنَاهُ إِنْسَانًا أَتَى وَلَقِلْمًا بِنَفْكٍ صَاحِبٌ مَقْوُلٌ
---	--

ويبدو أن الآيات مقتطعة من قصيدة طويلة في النصح بالقناعة وهي الطريق الذي لا يخطئ إلى السلامة والفلاح، والعاقل من اعتزل الناس ولزم بيته مقتطعاً إلى الانتباش ب المجالس الذكر المحكم ومناراته الساطعة في الليالي الشديدة الظلم، ويدعو إلى التغور من الاجتماع بأى إنسان

(١) الجنس: الليل الشديد الظلم.

الشجر.

(٢) المكس: الكناس وهو مأوى الطي في

خشية لدغاته التي يصيب بها من حوله، وكأنما يوسم في محيلته قول القائل:  
**عَوْيَ الذَّنْبِ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذَّنْبِ إِذْ عَوْيَ وَصَوْتُ إِنْسَانٍ فَكَدْ أَطْبَرَ**  
 ويقول أخيراً متفرماً من مجالسة الناس إن الجلوس إليهم قد يؤدي إلى عثرات اللسان وزلاطه  
 منك أو منهم. فأقول لك أن تبتعد عنهم وعن مجالسهم، وأن تعزلهم معتصماً بيتك حتى لا تغليط  
 وحق لا تسمع غلطها من إنسان. وولي المستنصر الحكم بعد أبيه أبي زكريا، وأحسن ابن أبي  
 الدنيا بجهفة منه، وأنه رعا أسر في نفسه شيئاً منه، فكتب إليه يستطنه:

أموالاي مازلت نتيلون عبدكم ضربوا من النعماء جلت عن العيش  
 ولم يبق إلا المفو وهو أجل ما يُنال فاكمل لي به منحة الفضل  
 فما العيش في الدنيا بغير رضاكم بضاف ولا طم العيادة يحملوني  
 وقد كثُر الإعراض صفو معيشتي فأتذكرت أحوالى وأنكرني أهلى

وابن أبي الدنيا يعترض للمستنصر الحفص بأنه ما يزال يفخر بنعم لامثل لها ولاقربي،  
 ويتوسل إليه أن يمن عليه بمنحة كبرى، هي نعمة المفو، حتى يكمل بها ما ينحه من أفضال  
 كثيرة، ويقول له إن الحياة بدون رضاكم تكونت مياهاها، ولم يعد في طعمها شيء من الحلاوة،  
 ولقد بدل إعراضكم عن معيشك، حتى أصبحت أكثر أحوال، بل إن أهل أنكروني لما يعترض  
 من فلق وضيق لم يألفوه مني. ويستر في استعطافه منشداً.

ولِي أَمْلَأَ بِقَضَى بِغَسْرَانِ زَلْتَى وَبِالْمَغْفِرَةِ عَنْ جُرْمِي وَبِالصَّفْحِ عَنْ فَعْلِي  
 بِقَبَتْ تَزِيدَ الْمَلَكِ عِزْرَا وَبِهَجَةِ دَعَائِي رَسُومَ الْفَضْلِ وَالدِّينِ وَالْعَدْلِ  
 وَلَا يُخْطِشَنِي مِنْكَ عَفْوُ وَرَحْمَةُ فَبِإِيمَانِهَا مَا أَخْطَا أَهْدَى قَبْلِي  
 وَصَلَى إِلَهُ الْغَرْشِ بَلْدَمَا وَعُودَةَ

وهو يسأل المستنصر ضارعاً أن يغفر له زلة ويفغى عن جرمته ويصفح عن فعله الذي  
 افترقه، ويأخذ في الدعاء له أن يظل يزيد الملك عزاً وأبهةً وبهجةً ومسرةً ويحمي رسوم الفضل  
 والإحسان والدين الحنيف والعدل الذي لا تصلح حياة الرعية بدونه، وهو بهذا الدعاء  
 وما يسوق فيه من صفاتك في رأيه يحاول أن يستدر عطفه ويسأله المفو، بل يسأله الرحمة وأن  
 يرق له قلب، ويقول له إنك داننا تسفيها على الناس، فلا تحرمني منها، ويختتم دعاه بالصلوة  
 على الرسول ﷺ، وكأنما يذكره ليكون شفيناً عند. وأسدل عليه المستنصر عفوه، وعاد إليه  
 رضاه. ولعل فيها أنشدت له من أشعار ما يصور شاعرية غزيرة خصبة، وأنه كان يعرف كيف  
 يصطفي ألفاظه ومعانيه في لغة شعرية مصفاة، وبدون ريب كان معروفاً بقدرته في حُوك الكلم،

ما أتاح له أن يشغل منصب الخطابة في الجامع الأعظم، كما أتاح له هذه الأبية الشعرية لِلحكمة فكراً وصياغة.

### (ج) ابن معمر

هو أبو على الحسن بن موسى بن معمر المواري الطرابلسي، كان فقيها ممتازاً وشاعراً نابها مثل ابن أبي الدنيا معاصره، وفيه يقول التجاني في رحلته: «أحد أرباب الرتب الجامعين بين رئاسة الفقه ورياسة الأدب، ولد بطرابلس سنة ٦٠٩ وقرأ بها يسراً، ثم توجه إلى (مدينة) المهدية (تونس) للقراءة بها على الفقيه أبي زكريا البرق» ويقول أيضاً: «كان فقيها مفوهاً خطيباً لسناً» وطمحت نفسه للنزول بتونس عاصمة الدولة المغربية لعله يأخذ مكانه بها بين فقهائها وأدبائها وزملائها. ولفت إليه الأنظار بعمقه في المذهب المالكي، مما أتاح له أن يتولى مناصب متعددة في دولة الخليفة المستنصر المفتشي (٦٤٧-٦٧٥ هـ) إذ أستد إليه منصب القضاء في كثير من بلاده في إفريقية التونسية وفي المزائر مثل باجة التونسية وبجاية المزائرية. وولى خطبة أو منصب العلامة الكبير في ديوان الإنشاء، كما ول النظر في خزانة الكتب، ويقول التجاني: «كان في لسانه فضول كثُر امتحانه به وال تعرض له بسيبه» وفعلاً نُقل إلى المستنصر عنه ما جعله يسخط عليه وينفيه إلى مدينة المهدية سنة ٦٦٧ ويغفر عنه، ولكن بعد عام كامل. وتوفي المستنصر وخلفه ابنه الواقع (٦٧٨-٦٧٥ هـ) فأُسند إليه النظر في خزانة الكتب بتونس، ويبدو أن فضول لسانه عاد إليه فقضب عليه رئيس الدولة ابن أبي مروان، فدخله السجن تأدبياً، ثم رُدّت إليه حرفيته إلى أن فارق دنياه سنة ٦٨٣ للهجرة. وأنشد له التجاني بعض أشعاره، من ذلك قوله متغزاً:

ما أُنْطَرْتْ سُبْحُ أَجْفَانِي الدَّمْوَعَ دَمَا  
لولا أَحْوَارُ جَفَوْنَ أَوْدَعْتْ سَقَماً  
وَلَا سَقَيْتُ رُبَّاهُ مِنْ دَمِي دَيْمَا<sup>(١)</sup>  
وَلَا وَقَتَ أَصْنَلَانَا بِرَبَّمُكْمُ  
مِنْهُ أَذْبَعَ الَّذِي قَدْ كَانْ مُكْتَنَباً  
وَلَا تَنْتَ عَقِيقَ الدَّمْعَ فِي طَلَلِ  
شَفْلِ السَّلُوْ شَتَّيْتَ بَعْدَ بَعْدَكَمْ  
الَّهِنْ يَقْطَعُ مِنْهُ كُلُّ مَا انتَظَمَا  
وَالْوَجْدُ شَادٌ بِجَسْمِي مَا يَهُنَّمَهُ

وهو يقول لولا جمال الماء وما أودع العيون مما يشبه السقم ما هطلت سحب أجفاني بدم الدموع القاني ولا وقفت في الأصول بربكم ودياركم أستقي رياها أمطاراً من دمي، ولا نترت

(١) أصلاناً: أصلاناً: دجا: مطر غزير.

تُخْرِجُ الدَّمْعَ فِي طَلْلٍ ذَاعَ مِنْ فِيهِ مَا كَنْتَ أَكْهَمَهُ وَأَدَارَهُ، وَقَدْ فَارَقْنَا السَّلَوْ وَكَانَ لَا يَبْارِحْنِي وَقَطْعَ الْبَيْنِ وَالْفَرَاقِ مِنْهُ كُلُّ مَا كَانَ مُتَصَلًا وَنَثَرَ مِنْهُ كُلُّ مَا كَانَ مُنْتَظَلًا وَالْوَجْدُ أَخْدَى بِجَسْمِي بَيْنِ وَهُمْ مُسِيَّاً لِي التَّبَاعَ شَدِيدًا لَا أَكَادُ أَطْيِقُهُ، وَيَسْتَرُ أَبْنَى مَعْرَفَةِ غَزْلِهِ:

هَذَا الْبَسِيرُ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي كُتِبَ  
إِلَّا مَعَ السَّهْدِ مَا قَدْ حَطَّ أُورِسَما  
مَازَلْتُ لِلشَّهْدِ وَالْتَّذَكَارِ مُتَقْرِبًا  
أَوْلَاجُ بَرْقُ بَدَاكَ الْأَفْقَ وَابْتَسَما  
وَحِيمُكُمْ وَكَنْتِي بِالْحَسْبِ لِي قَسَماً  
وَمَا تَأْخُرَ مِنْ مِنْ وَجْبِيَ قَنَما

يَا مَنْ يَلْوُمُ عَلَى مَا جَلَّ مِنْ أَسْفَنِ  
مَا خَطَطَ النَّوْمُ فِي جَفْنِي رَسْمَ كَرَى  
أَتَيْكُمْ أَتْنِي مِنْ يَوْمٍ بَيْنِكُمْ  
أَرْتَاجُ إِنْ هُبَ رَيْحَ مِنْ جَنَابَكُمْ  
أَمَا وَمَنْ قَنَرَ الْأَشْيَاءَ مُقْتَدِرًا  
مَا رَامَ قَلْبِي أَصْطَبَارًا بَعْدَ يَدِكُمْ

وَهُوَ يَقُولُ لَمْ يَلْوُمَهُ عَلَى مَا يُظْهِرُ مِنْ عَظِيمِ الْوَجْدِ وَاللَّوْعَةِ إِنْ ذَلِكَ بَعْضُ مَا أَكْهَمَهُ مِنْ  
حُرْفَةِ الْحَسْبِ، وَيَشْكُو مِنَ السَّهْدِ مُفْكِراً فِيمَنْ يَجْهِيْنَهُ حَتَّى يَقُولُ إِنْ مَا قَدْ يَخْطُلُهُ النَّوْمُ فِي جَفْنِي  
مِنْ أَثْرِ لِلنَّاسِ يَحْوِي السَّهْدَ خَطْوَتِهِ وَرَسْمَهُ مُحْوا، فَسَهْدُهُ وَتَذَكَارُهُ لَمْ يَجْهِيْنَهُ يَلْزَمَهُ وَإِنَّهُ  
لِهُشْرِ بِرَاحَةٍ مَا مُثْلِهَا رَاحَةٌ حِينَ تَهْبِيْنَهُ أَوْ يَلْوُحُ بَرْقُ مِنْ أَفْقِهِنَّ مُهْتَسِّاً وَكَانَهُ  
يَحْمِلُ أَثْرًا مِنْ ابْتِسَامِهِنَّ، وَيَقْسِمُ بِرَبِّهِ الْمُقْتَدِرِ وَبِعِيْهِ أَنْ قَلْبَهُ لَمْ يَجْهِيْنَهُ صَبَرَاً عَلَى فَرَاقِهِنَّ  
وَيَعْدِهِنَّ، وَلَا يَرْزَلَ يَلْتَاعَ وَجْدَاً وَهِيَمَا. وَالْأَبْيَاتِ تَسْبِيلُ عَذْوَبَةَ مَعَ مَا تَشْفَعُ بِهِ مِنَ التَّصَوِيرِ،  
مَا يَدْلِلُ عَلَى قُدْرَةِ مُلْكَتِهِ الشَّعْرِيَّةِ وَأَنَّهَا تَوَاتِيْهُ بِمَا يَرِيدُ مِنَ الْأَخْلِيقَةِ وَمِنَ الْأَنْفَاظِ السَّهْلَةِ الْقِ  
تَبَدِّلُ لِسْهُولَتِهَا وَقَرِيبَاهَا مِنَ اللَّغَةِ الْمَأْلَوَةِ كَأَنَّهَا طَوْعُ الْبَدِ، وَهُنَّ لَا تَطَاوِعُ إِلَّا الشَّاعِرُ الْأَصْبَلُ  
الَّذِي يَعْرِفُ كَيْفَ يَؤْنِرُ فِيكَ بِتَصَوِيرِهِ وَبِلْفَتِهِ السَّلْسَلَةِ، وَمِنْ رَفِيقِ غَزْلِيَّاتِهِ قَوْلُهُ:

أَهَا نَرَدُّ لَوْ تَشْفَى لَنَا كُرَبَا  
وَبِالْعِلَّاتِ نَعْمَى لَوْ قَضَتْ أَرْبَا<sup>(١)</sup>  
وَقَدْ تَعْقَنَ مِنْ مَعْتَادِهَا كَذِبَا  
وَمَا الْأَمَانِي يَنْسَالُ الْقَلْبُ بِغَيْرِهِ  
يَرْتَأِيْنَ لَاحَ بَرْقُ مِنْ جَهَامِهَا<sup>(٢)</sup>  
وَمَا تَطَاوِلَ إِلَّا جُذُّ وَانْقُضَهَا<sup>(٣)</sup>  
وَيَخْتَشِيَ الْفَقْدُ إِنْ مَا يَبْتَغِيَ قَرْبَا<sup>(٤)</sup>

(١) التَّعَلُّ: مَا يَتَعَلَّلُ بِهِ الشَّخْصُ وَيَتَلَهُ. أَرْبَا: حاجَة.

(٢) الْجَهَامَةُ: الْمَوْسُ.

(٤) هَرَجُ: اخْتِلَاطُ.

وهو يقول إنه لا يزال يردد لفظة آه تعبراً عن وجده للنيل غير أنها لا تشفيه من كرب الوجد ولو عاته، ولا يزال يخل نفسه وينبأها باللقاء، غير أن التعلات لا تغنى مارباً ولا حاجة وإن القلب لا يزال ظالماً متلهفاً إذ لا يسعه إلا سراب الأمان الكاذب الخادع، وقد يلوح له أمل، وسرعان ما يتوارى كالبرق يختفي مجرد ظهوره ولعنه - إنه يعيش بالأمان في اللقاء، فهي حسنه، على أن حيلها لا يُمَد ولا يطول إلا جُذُّ وانقطع، ولا يزال عقله في اختلاط، كلما شعر أن أميته لن تتحقق، حتى إن ظن أنها اقتربت لا يزال في خوف من ابعادها بل من فقدها فقداً لا أوبة معه. ويستمر ابن معمر في غزله منشداً:

وارحْتَاه لقلبي كم أجهشْهُ  
أمراً يذيب من الأصلاد ما صلْبَا  
وكم يُعاني ملئيات بآيسراها  
يهوُن الأمر من دنياه ما صعبَا  
وكم يلْجِجُ في أفكاره لججا  
وكم تهُب سمواً من تنفسه  
استغفرُ الله لا يشكوا الزمان ولا  
ولا أئن لحظٌ منه أغورَنِي  
أني يُسرَ لبيب أن رأى حُلْماً  
وكيف يطرب من خَمَرَ الفنا شَرِبَا

وهو يأسى لقلبه وما يحيشه من متاع حبٌ تذيب الصغر الصد الصلب وما يجعله من ملمات يعاني منها أشد العناء، وإن آيسراها ليهون أي أمر صعب من دنياه ما ظلت صعبته راسخة جائمة فيه، فما بالنا بأنتقال تلك الملمات وما تحمل من صعوبات لا نطاق، وما أشقي قلبه بها جيماً وما أعظم عناء، وكم يخوض هذا القلب من أفكاره ليجعا شديدة السواد توجع نيران وجد في أحشائه ماتق تلتهابها، وإنها لتقدف بسموم من تنفسه لو استمرت - كما يزعم - لتعت نسم الصبا الليلَ من المهوب. ويعود ابن معمر إلى نفسه، ويستشعر قوة عاتية، ويستغفر الله فإنه لا يشكوا الزمان ولا يصيبه جزع من أحداته، ولا يلين لحظ فاته منه، ولا يحزن لخطوب طرقته ولا يفرح لأمانٍ طوقة، ويقول كيف يسر لبيب عاقل رأى حُلْماً تراهم له وكيف يطرب لسرة من مسرات الدنيا من شرب من كأس الفنا وأسكنه. وله وقد أبل الخليفة الحفصي - ولعله المستنصر - من مرضه.

الله أنت بعد اليأس بالفرج يا أزمة النفر عند الشدة انصرجي  
شكُرُ الغلائق لا يكفي لأيسر ما كفى وسُكن من هُرُج ومن رُهُج<sup>(١)</sup>

(١) هرج ورهج: شعب واحتلاط.

أُنْتَ الْأَنَامْ بِابْقَاءِ الْإِسْمَ فَكُمْ بَصُورِيْهِ صَانْ مِنْ مَالِهِ وَمِنْ مُهْجِ  
إِذَا رَعَى أَقْهَ لِلْإِسْلَامِ رَاعِيَهُ لَمْ تَأْسَ مِنْ فَقْدِ ذِي قَبْرٍ وَلَا هَجْرٍ  
وَهُوَ يَقُولُ إِنَّ أَنْتَ عَلَى الرَّعْيَةِ بَعْدَ يَأسِهَا بِنَعْمَةِ الْفَرْجِ وَكَشْفِ الْغَمِ الَّذِي اعْتَرَاهَا  
بِرْضُ الْخَلِيفَةِ، وَيَتَجَهُ إِلَى أَزْمَاتِ الدَّهْرِ يَسْأَلُهَا أَنْ تَنْفَرِجَ وَتَنْكَثِفَ وَتَنْحَسِرَ عَنْدَ الشَّدَّةِ أَوْ  
الشَّدَائِدِ إِلَى غَيْرِ رَجْمَةِ، وَيَقُولُ إِنْ شَكْرَ الرَّعْيَةِ لَا يَفِي بِهَذِهِ النَّعْمَةِ الْكَبِيرِ نَعْمَةُ شَفَاءِ الْخَلِيفَةِ  
مِنْ مَرْضِهِ وَتَهْدِتَهُ مَا كَانَ قَدْ حَدَّثَ فِيهَا مِنْ اخْتِلاَطِ وَاضْطِرَابِ بَسِيبِهِ، وَيَفْزَعُ أَبْنَى مَعْمَرٍ إِلَى  
الْمَبَالَةِ أَوْ قَلْ يَتَمَادِي فِيهَا، إِذَا جَعَلَ بَقَاءَ بَقَاءً لِلرَّعْيَةِ وَصَوْنَأَ لِأَمْوَالِهِ وَنَفْوسَهَا، وَيَجْعَلُهُ رَاعِيَهُ  
لِلْإِسْلَامِ وَيَرْفَعُهُ فَوْقَ أَفْرَادِ الرَّعْيَةِ درَجَاتٍ. وَلَعِلَّ فِيهَا أَسْلَفَتْ مِنْ أَشْعَارِهِ مَا يَصُورُ شَاعِرَةَ أَبْنَى  
مَعْمَرٍ وَأَنَّهُ يَعْدُ بِحَقِّ أَشْعَرِ شُعَرَاءِ لِبِيَا حَقِّ عَصْرِهِ لِحْسَنِ صِياغَتِهِ وَرَوْعَةِ تَصَاوِيرِهِ وَدَقَّةِ أَفْكَارِهِ.

## ٤

## الشعراء في المعهد العثماني

مِرْ بَنَا أَنَّ الشَّمَانِينَ اسْتَولُوا عَلَى طَرَابِلسَ فِي أَوَاسِطِ الْقَرْنِ الْعَاشِرِ الْمُجْرِيِّ، وَقَدْ ضَمَّ مُحَمَّدُ  
السَّاقِزِيُّ وَالْمُؤْمِنُ طَرَابِلسَ بِرْقَةَ إِلَى لَوَائِهِ بَعْدَ نَحْوِ قَرْنِ، وَبِذَلِكَ أَصْبَحَ لِلِّبِيَا حَاكِمٌ عَشَّافٌ وَاحِدٌ  
يَتَخَذُ طَرَابِلسَ عَاصِمَةً لَهُ، وَكَانَ حُكَّامُهَا يَتَخَذُونَ التَّرْكِيَّةَ لِغَةً رَسْمِيَّةً لِلْمَوَافِنِ، وَأَخْنَوْا مَعَ  
الْزَّمْنِ يَقِيمُونَ مَدَارِسَ فِي لِبِيَا وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَصْبِحُ عَنَائِبَهَا عَلَى تَعْلِيمِ التَّرْكِيَّةِ لِتَخْرِيجِ موَظِّفِينَ  
لِلْمَوَافِنِ يَسَاعِدُونَ فِي تَصْرِيفِ شَنُونِ الْوَالِيَّةِ. غَيْرُ أَنَّ النَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ ظَلَّتْ تَرْعَاهَا  
الْمَسَاجِدُ وَالْزَّوَابِيَا. وَكَانَتْ لِبِيَا قَدْ أَخْذَتْ تَشْفَلَ مِنْذَ الْقَرْنِ الثَّانِي الْمُجْرِيِّ بِالْتَّصُوفِ وَزِوَايَاهِ  
وَشِيوخِهِ، وَاتَّسَعَ اِشْفَالُهَا بِذَلِكَ مِنْذَ حُكْمِهَا الْعَشَانِيَّيْنَ فِي أَوَاسِطِ الْقَرْنِ الْعَاشِرِ الْمُجْرِيِّ أَوْ  
بِعِيَارَةِ أَنَّقَ مِنْذَ حُكْمِ طَرَابِلسَ، إِذَا كَثُرَ الشِّعْرُ حِينَذَ عَلَى لِسَانِ الْصُّورِفِيَّةِ، غَيْرُ أَنَّ الْكَثْرَةِ  
الْفَامِرَةِ مِنْهُ عَامِيَّةً، وَمَا لِيَسْ عَامِيَا يَكْتُرُ فِي الْلُّحْنِ، وَمَنْ يَعْنَفُ إِلَيْهِ أَشْعَارَ كَثِيرَةٍ مِنْ  
دَرَاوِيشِهِمْ عَبْدُ السَّلَامِ الْأَسْرَرِ الْمُتَوَقِّفِ سَنَةَ ١٩٨١ وَكَانَتْ لَهُ زَاوِيَّةً بِمَدِينَةِ زَلِيطَنَ عَلَى نَهْرِ  
مَا ذَكَرْنَا فِي حِدِيثِنَا عَنِ الزَّهْدِ وَالْتَّصُوفِ، وَتَكَثُرَتِ الْعَامِيَّةُ الْلِّيَّبِيَّةُ فِي أَشْعَارِهِ وَيَكْتُرُ فِيهَا الْمَزْرُوحُ  
عَلَى الْعَرْوَضِ، وَرَبِّيَا لَمْ يَكُنْ هُوَ نَفْسُهُ السَّبِيلُ فِي ذَلِكَ، فَنَقْدَ تَحُولَ كَثِيرٍ مِنْهَا شِعْرًا شَعْبِيَا، فَرِبَا  
عَبِثَ بِهِ الرَّوَا وَالْمَشَدُونَ مِنَ الْمَوَامِ، وَمِنْ أَهْمَ أَشْعَارِهِ قَصِيدَةُ نَظَمَهَا فِي التَّسْعِينِ مِنْ عَمْرِهِ،  
وَنَقْطَفُ مِنْهَا بَعْضُ أَبْيَاتٍ تَسْتَقِيمُ فَصَاحَةً وَعَرْوَضًا<sup>(١)</sup>:

(١) انظر القصيدة في كتاب الشيخ سيدى عبد السلام الأسرر لـ سحق المهيمن ص ٣٠٤.

شربت شراب العز من خمرة الصبا  
سقانيه محبوبى بسر البنية  
و بهانت لن الأنوار و انكشف الغطا  
وألهمت أسرارا بسر الجلالة  
ونعمت منشروا إلى كل عاشق  
بأنهم حزني وأهل إرادتى

وكان الشطر الأول في هذه الأبيات مضطربا وأصلحته ليستقيم الوزن. وكان للشيخ أتباع كثيرون جاءوه من كل فج في ليبيا وتونس والبلاد المغربية، وأقاموا له - حين توفى - مأتما كبيرا أنشد فيه بعض مریديه مراثي مضطربة الوزن والصياغة، وإنما ذكرت بعض أشعاره لأدق على تدهور التصوف لفترة ووجودها ملتفعا، فال أبيات لا تحمل أى وجد، إنما هو ظاهر ما كان يرددده الصوفية قديما من كلمات الشراب والخمرة وانكشاف الفطاه والعشق وما إلى ذلك. وقد أحالوا الزوايا في ليبيا وبلاد المغرب من دور عبادة ونسك وتعبُّع فيها لجهاد أعداء الله أو قل أحالوا كثيرا منها إلى دور شعوذة واعتقاد في شيوخها بأنهم أولياء الله يطلعون على الغيب وتخبرى على أيديهم أعظم المخوارق، واستخدموها فيها حلقات الذكر مع الشفاعة والتشوة بالاستماع إلى أناشيد صوفية ممسوحة ومع استخدام الدفوف والبنادر ونفس زاوية الشيخ عبد السلام الأسى بزليطن استحال إلى هذه الصورة، فقد كان يستخدم في زاويته الدف والبندير والأناشيد والشفيق في الذكر، مما أثار عليه حلات شعواء من فقهاء عصره، وهو لا يزال، بل يوهم أتباعه أنه ناظر وجادل نفرا منهم وتبعوه، يقول في نفس القصيدة:

وكم من فقيه كان ينكر حالنا فصار بفضل الله من أهل حضرتى  
فأعطي له التصرف حبّاً ومباناً وصرت إمام الوقت شيخ الطريقة

وهو يزعم - زعماً باطلـا - أن من تبعه من الفقهاء أصبحوا من الأولياء، وأصبح لم التصرف في القضاء أحياء وأمواتا مثله، وهي شعوذة ملأ بها أشاله نفوس العامة في ليبيا والعالم العربي: أن زيارة قبور الأولياء والمتصوفة تنفعهم وينبني أن يقدموا لها النور، وهي لافتة ولا شفاعة، إنما ينفع الإنسان - ويشفع له - عمله. ولكن إذا كان التصوف سائلاً سلوكاً في العصر المعاصر بليبيا وهبط شعرا فإن المديح النبوى ظلل له غير قليل من الرونق عند شاعر ليبي لقب بالبهلوـل، وهو - لفـة - الجامع لخصال الخير وستترجم له، وتتبعه بترجمة أحد ابن عبدالدايم.

(أ) البهلو<sup>(١)</sup> الطرابلسي

هو أحد بن الحسين الملقب بالبهلو، ولد بطرابلس حوالي منتصف القرن الحادى عشر المجرى وتوفى سنة ١١١٣هـ / ١٧٠٢م ولما نهل من حلقات الشيوخ فى مسقط رأسه، وعُبّ منها ما شاء، رأى أن يرحل إلى القاهرة للتزوّد من أعلام الأزهر الشريف وظل فترة به ملازماً حلقة إمامي المالكية فيه: الشيخ محمد المرشى والشيخ عبد الباقى الزرقانى، وكل منها شرح على مختصر الشيخ خليل بن إسحاق فى الفقه، والشيخ خليل - بدوره - فقيه مالكى مصرى، وقد طارت شهرة مختصره في البلاد المغربية إلى اليوم، وافتتحت موهبة البهلو - حينئذ - فأنشأ قصيدة يتوجه فيها إلى موطنها طرابلس، وفيها يقول:

طِرَابُلْسُ الْفَرَا تُرَى لَى عَوْدَةٌ  
إِلَيْكَ وَهُلْ يَدْنُو النَّى كَانَ قَدْ ذَهَبَ  
سَقَى الْجَانَبَ الشَّرْقِيَّ مِنْكَ سَعَابَةٌ  
وَلَازَالَ فِيكَ مِنْ رِبَاحِ الصَّبَابِ مَهْبَبٌ  
بِسَدِيقَةِ حُسْنٍ زَادَهَا اقْهَ بَهْجَةٌ  
وَأَنْ أَهْلِيهَا مِنَ الْغُوفِ وَالشَّفَبَ  
وَكَيفَ بِدَارِيْ قَدْ حَوْتَ كُلُّ رُقْعَةٍ  
بَقَوْمٍ لَهُمْ فِي الْعِلْمِ بَاعُ وَفِي الْأَدْبَرِ  
  
وَرَجَعَ إِلَى طِرَابُلْسِ بَعْلَمِ غَزِيرِ وَأَدْبَرِ وَفِيرِ وَمِلْكَةِ شِعْرِيَّةِ خَصْبَةِ، وَلَمْ يَسْخُرْهَا فِي مَدِيجِ حَكَامِ  
بَلَدِهِ، وَإِنَّا سَخَرْهَا فِي مَدِيجِ صَفْوَةِ الْخَلْقِ سِيدِ وَلَدِ آدَمَ مُحَمَّدَ<sup>عَلَيْهِ السَّلَامُ</sup>، وَنَظَمَ فِي ذَلِكَ دِيوَانًا، قَصَانِهِ  
مَخْسَسَاتٌ مُوزَعَةٌ عَلَى الْمَرْوُفِ الْمَهْجَانِيَّةِ، وَأَضَافَ إِلَى تِلْكَ الْمَرْوُفِ الثَّانِيَّةِ وَالْعَشَرِيَّنِ: «لَا»  
فَأَصَبَّحَتْ تِسْعَةَ وَعَشْرِينَ حِرْفًا، وَلَكُلِّ حِرْفٍ قَصِيدَتُهُ وَهُوَ قَافِيَّهَا وَكُلِّ قَصِيدَةٍ تَنَافَلَ مِنْ  
عَشْرِينَ دُورًا، أَوْ قَلْ كُلُّ مَخْسَسٍ، وَقَدْ عَرَفَ شَعَراَءُ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ بِهَذِهِ الْمَخْسَسَاتِ  
الْعَشَرِيَّةِ، وَعَلَى شَاكِلَتِهِمُ الْأَفْ بَالْبَهْلُولُ أَوْ نَظَمَ هَذَا الْدِيوَانَ، وَيَقُولُ إِنَّهُ نَظَمَ مَخْسَسَاتِهِ عَلَى  
أَسَاسِ قَصِيدَةِ عِيَاضَةِ، وَهِيَ لَا تَوَجُدُ بَيْنِ قَصَانِدِ الْقَاضِيِّ عِيَاضِ إِمَامِ مَدِيَّةِ سِبَّةِ الْمَهْرُورِ وَرِبَّاَ  
كَانَتْ لِهِيَاضَ آخَرُ، إِذْ يَتَسَمَّى بِاسْمِهِ كَثِيرُونَ بَيْنَ مَغَارِبِ وَأَنْدَلُسِينَ، وَأَوْلَ دُورٍ فِي الْمَخْسَسِ  
الْأَوَّلِ يَبْرُى عَلَى هَذَا النَّمَطِ:

أَنْوَبُ اشْتِيَاقًا وَالْفَوَادُ بِحَسَرَةٍ وَفِي طَيْ أَحْشَانِي تَوَقَّدْ جَمَرَةٌ  
مَتِ تَرْجُمُ الْأَحْبَابِ مِنْ طَولِ سَفَرَةٍ أَحْسَنَةُ قَلْبِي عَلَلُونِي بِنَسْرَةٍ  
فَدَانِي جَفَاكُمُ وَالْوِسَالُ دَوَانِي

لأحمد النائب الأنصارى.

(١) انظر في البهلو ديوانه ومقدمته لحققه:  
الطاھر الزاوی وكتابه أعلام لیبیا، والمنهل العنب

وافية الشطر الخامس هزية ومثلها جميع الشطورة الخامسة في أدوار المخمس، وإلى قافية هذا الشطر يناسبُ المخمس جميعه. والأدوار العشرة الأولى في كل مخمس تتخذ الفزل موضوعاً لها بينما الأدوار العشرة الثانية في مدح المصطفى ﷺ كما يقول عحق الديوان الأستاذ الطاهر الزاوي. ونظن ظناً أن وراء الظاهر في المثرة الأولى نفحات من الفزل الصوفى الحسى الذى نقرره في ديوان ترجان الأشواق لابن عربى إذ يتشابه معه في أنه يجمع في غزله ما يختلخ في قلوب المحبين العذريين إزاء محبو باتهم من لوعي الحب والافتتان بجمالهن وسحر عيونهن وورد خلودهن، ودانها محبو باتهم في ارتحال وفراق وبين، وهم مسهدون ي يكون بدمع غزار، ولا يبلغ المحب مراده من الوصال، وهو - لذلك موجع الغواص، إذ لا شفاء له بلقاء أو ما يشبه اللقاء، بل قطبية متصلة، والحب - بل العذاب - يتجدد ألواناً. وجميع العشرينيات عند البهلواني تبدىء بهذا الفزل المليانع، وما يؤكّد تأثيره في غزله بالغزل الصوفى ذكره في مخمسه الخانى معروفاً الكراخى الصوفى وتلميذه السرى السقطى والجندى تلميذ السرى، والتلاتة من صوفية القرن الثالث المجرى المشهورين، وهو ما يجعلنا نزعم أن شعارات من الفزل الصوفى الحسى سقطت في الأدوار العشرة الأولى بمخصوصاته من مثل قوله في مخمسه السيف:

نفوسَ عزيزاتَ تُرَى مِنْ أذْلَاهَا وَسَفَكَ دِمَاهَا فِي الْهَوَى مِنْ أَحْلَاهَا  
وَبَيْ غَادَةَ كَالشَّمْسِ تَمْنَعَ وَصْلَاهَا سَمِحَتْ بِنَفْسِي فِي هَوَاهَا لَعْلَاهَا  
تَدُومُ عَلَى حَفْظِ الْوَدَّةِ وَالْأَنْسِ

تَحْمُلُ قَلْبِي فِي هَوَاهَا تَحْيَةً وَلَمْ تَرْعَ بِالتَّفْرِيقِ دُدًا وَصُبْحَةً  
أَنْادِي عَسَاهَا أَنْ تَفْرَجَ كُرْبَةً سَقْتَنِي كَنْوَسًا بِالْمَعْبُدَةِ صَرْفَةً  
ثَلَتْ بِهَا سُكْرًا وَغَبَّتْ عَلَى جِسْيٍ

وظاهر الدور الأول كأنه غزل طبيعي لمحب يتدلل من تدلل في حبها وأصابته بسهامها حتى كأنما سفك دمه غير مبالية بعده، وقمع وصاحتها، وتعن في هجرتها، وهو لا يزال يأمل أن تراجع نفسها وتذكر له أيام المودة والأنس، وهي معان يقوها الفزلون العذريون ولكن تأمل في الدور الثاني وما ذكر فيه من كنوس المعية وارتواه منها صرفة صافية وكأنما ارتوى من كنوس المعية الربانية التي طالما رددوها الصوفية، ويقول إن نشوة السكر غلت عليه حتى غاب عن جسمه، وكأنه يعني فكرة الفنان الصوفية في الذات العلية إذ يبلغ الصوف من محنته لربه غيابه عن حسه، فقد أصبح روحًا فانية في ربها لا يشعر بشيء في الوجود سواه وسوى محنته التي استفرقت حواسه حتى كأنما أصبح في غيبوبة مطلقة. وحقاً لا يمن البهلواني في غزله الحسى الذي يقدم به مدح النبي، كل هذا الإيمان الصوفى، ولذلك نقول إن في غزله بعض شعارات من المعية الصوفية.

والأدوار المشرفة الثانية في خمسات البهلوان خصّها ب مدح الرسول ﷺ، وفيما يلي ذكر معجزاته التي تتحدث عنها السيرة النبوية مثل اندفاع إيوان كسرى وانطفاء نار فارس عند مولده ومثل شق جبريل لصدره ووضعه التور الرباني فيه بمنزل مرضعته حليمة السعدية، وشكوى الصحابة إليه من قلة الماء في بئر صغيرة كان يتوضأ منها، فقار الماء وتكتاثر بيركه وما قبل من أن الغزالة كلّته وكذلك الذب والضب، معروفة أنّ معجزة الرسول الكبير إنما هي القرآن الكريم ورسالته العظيمة التي وضعت أساساً قوية لطاعة البشرية . ويدرك البهلوان مراراً وتكراراً إسراء الرسول على البراق إلى بيت المقدس وصلاته فيه إماماً للرسل، ومراراً إلى السموات السبع وما غشيه من الأنوار القدسية عند سُدْرَة المنشئ وما يليها يتحدث عن محبه للرسول مصوراً فضاله وشمائله الثالثية السامية، ضارعاً إليه دائياً أن يكون شفيعه يوم القيمة، وتتراءى في جوانب من مدحه النبوى شعاعات من فكرة الحقيقة الحمدية التي تنفي بها الحال والبصري لما جاء في الأثر من قول الرسول ﷺ: «كنت نبياً وأدم بين الماء والطين» وكأن حقيقته أقدم من حقيقة آدم وخلقه، وكأنه المبدأ لكل النبوات والرسالات، وفي ذلك يقول البهلوان في خمسة الخاتمة:

سما مجده بين الأنام وفخره وقد جل من بين البرية قدره  
له المنصب الأعلى لقد تم نصره ختام وإن كان العقيم ذكره  
أخيراً وإن كان المبدأ في النسخ

فالرسول ﷺ - مع تأخره في الرسالة - متقدم في الرتبة على جميع الرسل والأنباء، بل إنه المبدأ لم يجيء، فمن رسالته استمدت جميع الرسالات، وكانت نسختها منذ الأزل، بل إن الوجود جميعه ليستمد منه، إذ هو نور الله، وكل نور في الوجود يستمد من نوره، يقول: نبئ تسامي في الأنام بمجده لقد ضاعت الآفاق من نور سعيده  
وما ذاكه أو الشمس في أضوائها الزاهية إلا فيض من نور وجهه وظلمته السنية، يقول:  
له الشرف العالى بغير سؤيد ذكاء بدأ من نور وجه محمد  
فالرسول ﷺ منشأ التور في الوجود وإن نور وجهه ليشاهد في كل نور: في الشمس وغير الشمس، إذ هو الحقيقة الأزلية أو التور الأزلى الذي يعني الكون والآفاق منذ الأزل أضواء نبرة غامرة.

وأدوار المخمسات في ديوان البهلوان تفيض بالسلامة والمنوبة دون أي غرابة في الكلمة أو صيغة، مما جعل أهل ليبيا - فضلاً عن أهل طرابلس - يشفرون بالديوان ومحاسنه لما يشيع فيه من السهولة والوضوح والصفاء الموسيقي، واعتنوا أن يقيموا لإنشاده حفلات تبدأ من

غرة شهر ربيع الأول كل عام حتى اليوم الثانى عشر يوم مولد المصطفى ﷺ، وربما صحيت الإنشاد ألحان بعض الآلات الموسيقية، وكانت للبهلول - بجانب هذا الديوان النبوى - أشعار تعلمية في فقه مذهب مالك وفي المقائد ولم تصلنا، وكانت له مقامات على نقط مقامات المغريرى سقطت - بدورها - من يد الزمن وبكتبه فخراً ومجداً هذا الديوان النبوى الذى صور فيه مشاعره الصوفية ومحبته المتقدة بين جوانحه لصاحب الرسالة المحمدية.

### (ب) أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الدَّاِنِ

هو أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الدَّاِنِ الأَنْصَارِيُّ، ولد بطرابلس ونشأ بها، وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات علمائها، وفتحت موهبته الشعرية، وكان فقيها ومؤرخاً غير أن الشعر هو الذي جذبه، وكان معاصرَ الأَحْمَدَ الْقَرْمَانِيَّ والْمُؤْمِنِيَّ طرابلس (١١٢٣ - ١١٥٨ هـ) فأخذ يدرب فيه بعض المدرب وحدث في أثناء ولايته سنة ١١٤١ هـ / ١٧٢٨ م أن قام أسطول فرنسي بظاهرة أيام طرابلس وأرسل قبطانه إلى القرماني بشروط يبنى أن يرضخ لها وإلا ضرب المدينة بقذائفه، ولم يرضخ القرماني ولا قبل الشروط، رافقاً تهديد القبطان ووعيده، وضرب الأسطول طرابلس بقذائفه أربعة أيام طوالاً، وأرسل القبطان أو قائد الأسطول الفرنسي بعدها خطاباً يحيث فيه القرماني على الصلح غير أنه صمم أن لا يستسلم، وكان الأسطول قد دمر أكثر من ثلث المدينة إذ ألقى عليها نحو ألفي قنبلة، واستند مالديه من القذائف، فلم يجد قاتله بدا من فك المصار عن طرابلس وعودته إلى بلاده. كل ذلك حدث والخلفية العثمانى لا يدرك ساكناً ولا يحاول التأثر بطرابلس من الفرنسيين. فنظم ابن عبد الدائم قصيدة يستثيره فيها ضدتهم محاولاً أن يلأء حية وحاسة بمثل قوله فيها:

يَا وَاحِدًا مَافِي الْبِسِطَةِ مُلِكُ الْمُلُوكِ بِتَاجِهِ التَّكَلْلُ  
أَوْ مَا يَفِيَكُ حَالُ قُلْعَتِكَ الَّتِي فَازَتْ بِفَتْحِكَ فِي الزَّمَانِ الْأُولِيِّ  
إِنَّا لَنَرْجُو مِنْكَ أَخْذَ النَّارَ مِنْ شَعْبِ الْفَرْنَسِيِّ اللَّهِمَّ اَرْزُقْ

وكان العبدى المغرى قد نزل طرابلس في رحلته إلى الحج سنة ٦٨٨ ويبدو أنه أصابه حيف من بعض أهلها. فعمَّ المدينة وأهلها جميعاً بدم شديد ضممه رحلته المغرية، ذُمَّ المفiste المحتق، ولا نعرف الأسباب الحقيقية لهذا الدم، ورُدَّ عليه رحالة مغرب مواطن له زارها بعده، هو ابن عبد السلام الناصري، إذ دافع عنها دفاعاً حاراً في رحلته المجازية الكبرى، واستشهد على

(١) انظر في أَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ الدَّاِنِ كَابِنَ التَّذَكَارِ وأَعْلَمَ لَهُبِّا لِلطَّاهِرِ الزَّاوِيِّ وَالْمَنْهِلَ الطَّبِّ لأَحْمَدَ فِيمَنْ مَلِكُ طَرَابِلِسَ مِنَ الْأَخْيَارِ لَابْنِ غَلْوَونَ

مدحها بأشعار لغاربة في تغريظها وتغريظ أهلها، ومن قوله: «وحسن أخلاق أهلها وجودهم سارت به الركبان، وعلم علمانها امتألاً به المخالفان، وفضلهم من شمس الصبحي ظهر وأوضاع، وما زالت الأشراف تُهْجَى وتُمْدَح». وابن عبد الدائم أحد من امتهنوا امتعاضاً شديداً من ذم المبدىء لها ولأهلها، مما جعله ينظم قصيدة في الرد عليه، كان لها دوىًّ غير قليل، وفيها يقول:

طِرابُلْسُ لَا تَقْبِلُ السَّنَمُ إِنَّهَا  
لَا حَسَنَاتْ جَازِفَتْ سِيَّنَاتِهَا  
إِذَا أَمْهَا مَنْ قَدْ نَأَتْ بِلَادَهُ  
وَأَوْحَشَهُ فَوْ أَمْرَهَا مَنْ حَاتَهَا  
نَطَامَنْ عَنْ نَفْسٍ وَمَالٍ وَعَشْرَةٍ  
وَيُضْعِنْ بَعْزَ مَائِزَيْ بِجَهَاتِهَا  
لَا هُمَّ تَلُو لِتَأْيِيدِ سُنْنَةٍ  
بِحَفْظِ مَهَانِهَا وَجَمْعِ رُوَاهَاتِهَا

وهو يقول إن طرابلس لا تُنْمَّ ولا تَهْجَى، فحسانتها أكثر من سيناتها ومحامدها أكثر من أن تُخْسَى، ويذكر أن الغريب الطريد من بلاده وحكامها الجائزين إذا نزعوا أمن على نفسه وما له وأهله، ويشعر بعزم مابعده عز طوال إقامته، وبنوه بهمتها في العلوم وخاصة في تأييد السنة بحفظ نصوصها وأسانيد روايتها. والقصيدة في تسمة وعشرين بيتاً وقد شرحها مواطنه ابن غلبون المتوفى سنة ١١٧٧ هـ / ١٧٦٤ م في كتاب سماء: «الذذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الآخيار». وشعر القصيدة وأختها السابقة متوسط، وكأن طرابلس ولبيا جيما استيقنا نهضتها في الشعر إلى عصرها الحديث عند رفيق المهدوي ونظارته.

من المؤكد أن ليبيا أنتجهت نثراً كاماً أنتجهت شعراً غير أن ترها لم تحيط به الكتب إلا قليلاً جداً إذ كثيراً ما نقرأ في كتب الترجمة لهذا الطرابلسي أو لهذا البرقى رسالة أو مقامة، ويكتفى بمثل هذه الإشارة ولا تذكر المقدمة ولا تذكر الرسالة، وبالمثل نسمع عن هذا الفقيه الكبير أو ذاك أنه تولى قضاء طرابلس والخطابة أو تولى الخطابة بالجامع الأعظم في تونس ولا تذكر لهذا ولا لذاك خطبة. وقد يكون من أسباب عدم الاهتمام بتسجيل فنون النثر في طرابلس وبرقة وغيرها من مدن ليبيا أنه لم تنشأ بها دولة ترعى الأدب وتحمييه وتحدث بتشجيعها له وحاجتها إليه نهضة أدبية واسعة كما حدث في تونس وغير تونس من البلدان العربية، ولو أنه نشأت في

طرابلس أو برقة دولة وأنشأها لها ديوان إنشاء لتألق لها كتاب نابهون يدعى مجموع رسائل سياسية بدعة تلقت معاصرهم وتحملهم سجلونها لهم ولبس ذلك فيها نشاطاً أدبياً جماً في النثر لا في فن الرسائل وحده بل أيضاً في مختلف الفنون التشكيلية. ومع ذلك فقد بقيت من النثر الليبي قطع صغيرة وشظايا متفرقة من وصايا الفقهاء والزهاد ونصائحهم من مثل قول عبد الجبار السُّرْقَنْ المذكور بين الفقهاء الزهاد والتوفيق سنة ٢٨١. «مَنْ قَلَّ كَلَامَهُ قَلَّ آثَامَهُ - الصوم عن الكلام أَفْضَلُ مِنَ الصومِ عَنِ الطَّعَامِ - مَنْ زَمَّ (صَانَ) لِسانَهُ كَفْرٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ أَمَانَهُ» . وُسْتَلَ الزاهد عبد الله بن إسماعيل البرقي المار ذكره والتوفيق سنة ٣١٧ عن كثرة بكلاته خطيبة وتقوى، فقال: «إِنَّمَا جَعَلْتُ عَيْنَيِّ لِلْبَكَاءِ، وَلِسَانِي لِتَعْظِيمِ إِلَهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَحْمِيدِهِ وَالصَّلَاةِ عَلَى نَبِيِّهِ، وَبَدْنِي لِلْتَّرَابِ وَالْبَلَلِ، وَقَلْبِي لِلْغُرْفَ وَالرَّجَاءِ، لَمْ أُخْلِقْ لِلْعَبِّ وَلَا لِلْهُوِّ، إِنَّمَا خَلَقْتُ لِلْعَمَلِ الصالح».

وكان الإيابية أكثر احتفاظاً بأقوال أنتمهم، ونجد في كتاب السير للشماخي خطبة لأبي الخطاب المغارفي التاثير بطرابلس سنة ١٤٠ وهي فصيحة، غير أنها شديدة البساطة ولا تعنى بجمال الصياغة، إذ ارتجلها في خطابية الجيش الذي وجهه لإخراج الصفرية من القيروان. ويدرك الشماخي نصاً من أقصر الرسائل المتبادلة بين متعدد لأهل نفوسه وبجيب له، إذ كتب الأول مهدداً ومنذراً: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ»، وهذا عبارتان قرأتين، فأجابه محمد بن جتون الشروسي النفوسي من القرآن أيضاً: «أَلَمْ تَهْلِكْ الْأُولَئِنَ ثُمَّ تَبْعِثُ الْآخَرَيْنَ كَذَلِكَ تَفْعُلُ بِالْمُجْرِمِينَ». وزرى الشاعر فتح بن نوح الإيابي الذي ترجمنا له بين شعراء الدولة الحفصية يعارض أبو العلاء المرى في كتابه الوعظي: «ملقى السبيل» الذي جعله على الحروف الأبجدية، وفيه يذكر سجعات نثرية قليلة ويتبعها ببيتين ينسف معناها، وهو مانقذ به فتح بن نوح في معارضته إلى نهاية الحروف الهجائية بادنا ببيتين بقافية المزة، ودانها يذكر البيتين أولاً ويتلوها بالسجعات الوعظية، ومن سجعاته قوله:

«كُلُّ مَنْ غَدَا عَلَى ظَهِيرَهَا<sup>(١)</sup> وَرَاحَ، مُشْغُولُ الْبَالِ مَا اسْتَرَاحَ، حَقِّ الْأَجْنَةِ فِي الْأَرْحَامِ، مِنْ بَنِ سَامِ وَيَافِيتِ وَحَامِ، كُلُّ أَهْدَافُ السَّهَامِ، أَرْوَفَ خَلْقًا خَلَوَا، وَسَلِيمُ الْخَاطِرِ سُفْلًا وَعُلُوَا، وَهِيَهَا لَنْ تَرَى إِلَّا نَضَوا<sup>(٢)</sup>، فَإِنَا قَدْ.. لَمْ نَرِ إِلَّا عَدَ آمَالَ، وَعَابِدَ مَالَ، وَفَاسِدَ أَعْمَالَ، وَمَتَصْنَعًا بِاسْمَالٍ<sup>(٣)</sup>، فَسَدَ الْعَرَانَ وَالْبَيْدَ، وَأَشْرَقَا عَلَى مَا ذَكَرْتُهُ لِبِيْدَ» والسعجعات تطير عن الفم بخففة لعنوبتها، وهو يعرف كيف يصطفي ألقاظه ومعانيه بحيث تلذ السامع وتعجب عقله، مضينا إليها

(١) ظهرها: يزيد ظهر الدنيا وسطعها الذي (٢) نضوا: مجدها مهزولا.

(٣) أسمال جمع سفل: نوب خلق بال.

تعيش عليه.

بعض محسنات البديع وطبقاته من مثل: «غدا - راح، سُفْلَا - عُلُوا» وجنساته من مثل: «عبد آمال - عايد مال، والبید - لبید) وتصاویره من مثل: «أهداف السهام - نصوا» ولا نشعر في شيء منها جيماً بتكلف أو تصنع فما تميز به من حسن البيان، ويشير إلى بيت ليد العامری المشهور:

**ذهب الذين يعيشون في أكثافهم وبقى في خلف كجلد الأجراب  
ومن طريق سجعاته قوله في بعض هذا الوعظ:**

«مَنِ الْدِينُ وَالْأَرْضُ ، وَمَوْدُوا الْوَاجِبُ وَالْفَرْضُ ، وَمَطْبِعُ دِيَانِ السَّاهِ وَالْأَرْضِ ، وَحُوَيْشَ  
مِنَ الْلُّومِ مَنْ لِيْسَ عَلَى الدِّينِ بِهَجُومٍ ، وَلَا لِلْوَرِي بِظُلُومٍ». وقوله:

«لَوْ عَلِمَ الْفَابِرُ ، مَصْرِعُ الْعَابِرِ ، وَفِيمَ مَضَمُونُ الْمَابِرِ ، مَا أَغْضَى جَفَّنَا عَلَى سِنَةِ (نَعَاسٍ)،  
وَلَا أَدْخَرَ شَهْرًا لِسِنَةٍ. حَبَّدَا مِنْ اعْتِقَى يَذَا ، وَهَبَرَ الْحَنَا وَالْيَذَا (الْبَذَاءُ ) وَأَغْضَى عَلَى الْقَذَاءِ ،  
وَآمَنَ النَّاسُ مِنَ الْأَذَى».

والسجعات في غاية السلاسة والرشاقة وحسن النسق في الجرس، بحيث تستهويك وتغلب  
للبك، وهي ملحقة بالديوان، وإنها لحرية بأن تتحقق مع مايسقها من أشعار وعظية وتنشر نشرة  
مستقلة.



القسم الثاني

تونس



# الفصل الأول

## المغرافية والتاريخ

١

المغرافية<sup>(١)</sup>

جلب هذا القطر قديماً بحسن موقعه على البحر المتوسط وكثرة خيراته الفينيقيون ومن بعدهم الرومان فالوأندلس فالروم البيزنطيين، وهو يقع في المنطقة الوسطى من الشمال الإفريقي بين البحر المتوسط في الشمال والشرق ولبيبا في الجنوب الشرقي والصحراء في الجنوب الغربي والجزائر في الغرب. وتبلغ مساحته نحو مائة وخمسة وعشرين ألف كيلومتر مربع. وتدخل إليه جبال أطلس من الجزائر قرب مدينة تبسة في الجنوب الغربي، وتتصعد بعض فروعها إلى الشمال الشرقي مارة بجبل زغوان شمالي القيروان وتنعطف منها مرتفعات - في شكل تلال - إلى بنزرت. وتقتد سهول تحت أقدام جبال أطلس وخاصة في الشمال. وليس في الأقليم التونسي نهر كبير سوى نهر مجردة المتذرد من الفرب إلى الشمال الشرقي في اتجاه تونس، وسهوله من أخصب السهول، وتنتزع مقادير ضخمة من المحيوب سوى ما ينمو فيها من الزروع والغرس. وتقتد في الساحل على طول البحر المتوسط أراض خصبة وافرة السكان والمعمران. ووراء قابس في الساحل الشرقي إلى شط الجريد وواحاته ترامي في الجنوب أراض منبسطة واسعة فوضطها مراع كثيرة وبعض المزارع، وغريبها بقاع شاسعة من الحلفاء وتوجد بعض السبخات، وشرقها منطقة نفزاوة. ومدينة توزر هي قاعدة منطقة أو شط الجريد الذي تلتقط به غابة واسعة من النخيل، ومهماها تتبع من الرمل وتتجمع خارجها، وتشتمب في جداول عليها أحراجاً صنعتها ابن الشاطط المهندي في القرن السابع الهجري، وتوزر من قديم تعدد من أهم البلاد التونسية لإنتاجها الوافر من البلح والتمور فضلاً عنها من البساتين والغواكه المنتوعة وفي الشمال الشرقي من توزر مدينة قفصة، ويقول جغرافيyo العرب إنها من أكثر بلاد أقه فستقا، وكان

ترجمة الدكتور حاتى الساحل (نشر دار الفرب الإسلامية) ٣٢٣/١ وما يليها ومادة تونس في دائرة المعارف الإسلامية، وما يليها من مراجع.

(١) انظر في جغرافية تونس أو الأقليم التونسي كتابات ابن رسته وابن حوقل وأبي عبد البكري والشريف الإدرسي، وهذه تونس للدكتور المبيب نامر. وتاريخ إفريقية في المهد المفهي لبرنشفيك

يُحمل منها إلى سجل معاشرة في المغرب الأقصى ومدن الأندلس. وكانت تُمَدُّ القبروان بأصناف التمور والفوواكه. ومدن نهر مجردة هي مدن المحبوب ومن أهمها مدن الكاف وسليانة وتبرُّسق وباجة غربي تونس وبينها نحو مائة كيلو متر، ويقول البكري إنها كثيرة الأنهر (الله يزيد جداول المياه) وهي على جبل في هيئة الطيلسان، وتشتهر قديماً بإنجاح المحبوب، وخاصة القمع، ولذلك سموها قديماً باجة القمع. وفُرِّ بالساحل من الغرب ابتداءً من مدينة بنزرت، وهي ثغر في أقصى الغرب التونسي على البحر المتوسط في موقع متان، تحف بها مزارع مشرة وغابات كثيفة. وتشتهر بإنجاحها من المحبوب والبقول والزيتون، فضلاً عن أنها ميناء تجاري مهم، وفي شرقها بحيرة ويقول عنها الإدريسي: فمها متصل بالبحر المتوسط وكلما دخلت في البر اتسعت وكلاً قربت من البحر ضاقت، ويصاد بها أنواع كثيرة من الأسماك. وكان بجانبها محارس أو رباطات ينزلها الناساك المجاهدون في سبيل الله لحماية تونس من القرادنة والغزاوة. وغضي شرقاً على الساحل في الشمال، فتلقاناً تونس على خليجها، وقد بناها حسان بن النعمان والي إفريقية (٧١ - ٨٥هـ) بالقرب من قرطاجة الفينيقية، متخذة منها دار صناعة كبيرة لبناء أسطوله. واتخذتها عاصمة، غير أن الولاة والحكام بعده تركوها إلى القبروان التي كان قد بناها عقبة بن نافع بين سنتي ٥٥٥ و٥٥٠ للهجرة واتخذها هو ومن بعده عاصمة لإفريقية، حتى إذا استولت الدولة الحفصية على صولجان الحكم في الأقاليم اتخذت تونس عاصمة للبلاد، وماتزال هي العاصمة إلى اليوم. وإلى الشرق من خليج تونس خليج الحمامات وبينها شبه جزيرة من أخصب الأراضي التونسية، وتكظ بغابات الزيتون وبساتين الفواكه وخاصة البرتقالي.

وتلقاناً بعد خليج الحمامات في الشرق مدينة سوسة، وقد اتخذتها الدولة الأغلبية منذ أواخر القرن الثاني المجري دار صناعة لسفن أسطولها المحيط، وبواسطة هذا الأسطول استطاعت تلك الدولة الاستيلاء على صقلية سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م وعلى مالطة سنة ٢٥٥هـ / ١٦٨م يقول ابن رسته في كتابه: «الأعمال النبوية»: إن ساحل سوسة كبير السواد من الزيتون والكرم والأشجار، وبه قرى كثيرة ينصل بعضها بعض، وهي - مثل بنزرت - يصاد بها أنواع مختلفة من الأسماك، وخاصة من المحيطان. وجنوب سوسة مدينة المتنير وكانت في الأصل عرساً كبيراً أو رباطاً بناه هرثمة بن أعين والي الرشيد لحماية الساحل وحراسته وظللت تسمى مع الزمن إلى أن أصبحت مدينة كبيرة. وإلى الجنوب منها مدينة المهدية التي بناها المهدى مؤسس الدولة العبيدية الفاطمية بتونس، بناها على نتوء صخري بالساحل تكون حاضرة له ودار صناعة لأسطوله، ويقول البكري إنها من أتعجب الدنيا. وإلى الجنوب منها صفاقس وهي مدينة تجارية مهمة، وتحيط بها أشجار الزيتون والفوواكه، وفي كتاب الخليل السندينية أنه يصاد بها أنواع من السمك تفوق الم忽ر، وبحيرها صوف تصنف منه ثياب رفيعة، وقد يوجد في بحيرها صدف يشتمل

على لؤلؤ صغير الحب، وأمامها جزر قرقنة ويشتهر سكانها بصيد الإسفنج. وإذا سرنا نحو الجنوب لقيتنا مدينة قابس متوسطة خليجها وتصاد فيها الإسفنج أيضاً بكثرة، ويكثر بها التخيل والمعون الجاربة، ويقول المكرى إن اللوز كبير بها وبالمثل جميع الشمار، ويكثر بها التوت، وحريرها أطيب الحرير وأرقه. وإلى الجنوب الشرقي من خليجها جزيرة جربة الكبيرة الخصبة. وإلى الجنوب منها منطقة نفزاوة المشهورة بواحاتها وتشتهر ناحية طرّة فيها بصناعة الزجاج من قديم لوجود الكارتن هناك بكثرة. والأشجار والزرع تحيط بالإقليم التونسي على امتداد سواحله شمالاً وشرقاً وفي حوض نهر مجردة غرباً وفي واحات نفزاوة وشط الجريد. والمنطقة الوسطى وحدها منطقة الراعي وفيها تنتقل القبائل الراحل.

ومناخ القطر التونسي - في جملته - مناخ البحر المتوسط دافئ معتدل، وتزول الأمطار بها يختلف كثرة وقلة حسب أنواعها، وهي تكثُر في الشمال شتاءً، وتقل قلة شديدة في الجنوب، وتختلف درجة الحرارة فيها باختلاف البقاع ووقعها على الجبال وسفوحها وفي السهول الزراعية وبقرب البحر أو في داخل الصحراء.

## ٢

### التاريخ<sup>(١)</sup> القديم

كانت تعيش في القطر التونسي وغيره من أقاليم المغرب - في المصور السعيدة - قبائل لا حضارة لها سماها الرومان باسم البربر، وحوالي القرن العاشر قبل الميلاد ارتاد سواحل إفريقيا النيتيقيون بحثاً عن مواقع غنية بالثمينات يُرسّون بها سفنهم للتبادل التجاري، وكانوا شعباً ملائحاً احترف التجارة، وأعجبتهم ساحل الإقليم التونسي، فاختنعوا فيه موقع لإقامة مقرّة يتبادلون فيها السلع التجارية مع أهله وسكانه. ومع الزمن ومرور دوراته المتقدمة رأوا أن يقيموا لهم في ذلك الإقليم مدينة تكون لبعض أسرهم مستقرّاً كما تكون مركزاً ثابتاً لتجارتهم، وفي تاريخ غير معروف بالضبط هل هو القرن الثامن قبل الميلاد أو قبله أو بهذه أنسوا لهم مدينة غربى مدينة تونس الحالية سموها قرطاجة، وأخذت تزداد قوة، وأخذت بعهارتها وتجارها ينشئون لهم مراكز تجارية جديدة في الساحل الإفريقي مثل بجاية ورشاشال في الجزائر وطنجة في

المغرب الكبير للأستاذ محمد عل دبوس (طبع مطبعة الملحق في القاهرة)

(١) انظر في تاريخ الإقليم التونسي القديم خلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب (طبع تونس) والجزء الأول من تاريخ

المغرب الأقصى وزلوا ساحل إسبانيا في الجنوب الشرقي والغربي وأسسوا لها مدینتين: قرطاجنة على البحر المتوسط وقادس على المحيط الأطلسي.

وكان الفينيقيون أصحاب حضارة، ومحروف أنهم اشتغلوا هم من حروف المير وغليفيتة المصرية أبجديتها التي نشروها في البلاد التي نزلوها قديماً كما نشروا في العالم القديم. وقد نزل قرطاجنة التونسية كثيراً من أسرهم، وخالفوا السكان الإفريقيين، وامتنعوا بهم مصاهرة وغير مصاهرة، بحيث أصبحت لهم في قرطاجنة دولة كبيرة، كما أصبح لهم شعب ضخم يتألف منهم ومن البربر، واتسعوا في تجارةهم مع المراكز التجارية التي أنشئوا في الواقع المذكور آنفاً وفي فرنسا وسقلياً، وجابت قواقلهم الصحراء في الجنوب وحملت من السودان الرقيق والعاج والتبن. ولا نصل إلى أواسط القرن الثالث قبل الميلاد، حتى نجد روما تحاول أن تخوض من شوكة نفوذهم في البحر المتوسط، وسرعان ما نشبت الحروب بين الطرفين وظلت أكثر من مائة عام ابتداءً من سنة ١٤٦ إلى سنة ٢٦٤ قبل الميلاد، وكان ميدانها لنحو عشرين عاماً جزيرة صقلية موضوع النزاع بين القوتين الكبيرتين، وأذاعت قرطاجنة في نهايتها للصلح، وعادت الحرب بينها للتشوب سنة ٢١٨ قبل الميلاد واستمرت حتى سنة ٢٠٢ إذ بانت حملة هانيبال الكبرى بالإخفاق، وكان قد كُوِّنَ جيشاً ضخماً اقتصر به جبال البرانس وجنوب فرنسا وشمال إيطاليا محاولاً أن يفتح روماً، غير أن الأقدار لم تسعفه، وبعد ذلك بنحو خمسين عاماً نشبت بين روما وقرطاجنة حرب ثالثة ظلت ثلاث سنوات من سنة ١٤٩ إلى سنة ١٤٦ قبل الميلاد انتهت بانتصار روما وتدميرها نهائياً لقرطاجنة الفينيقية. وكانت حضارتها قد استقرت في الشمال التونسي قرونا وأجيالاً متعددة، وكانت حضارة متقدمة لا في شتون الملاحة والتجارة فحسب فهم أساتذتها في العالم القديم بل أيضاً في صناعة السفن والمعادن والزجاج وفي زراعة المحبوب والبقول وأشجار الفاكهة وغراسة الزيتون والمظنون أنهم نقلوه - كما نقلوا كثيراً من أشجار الفاكهة - إلى إفريقيا في تونس وغيرها من موطنهم الأصلي في الشام، ومن أكبر الأدلة على اهتمامهم بالشئون الزراعية في إفريقيا التونسية أن نجد عالئهم الزراعي الكبير: ماجون (Magon) يؤلف أقدم كتاب عالمي في الزراعة وغراسة الأشجار وقد نقله الرومان إلى اللاتينية حينما قهروا القرطاجيين التونسيين واستولوا على البلاد منذ سنة ١٤٦ قبل الميلاد. كما استولوا على ما فيها من كنوز العلم والعرفان وكنوز الخيرات والطبيبات.

ومنافسة لقرطاجنة الفينيقية وهيكلها الضخمة ومبانيها السامة أقام الرومان لهم بجانبها قرطاجنة جديدة شادوا فيها هياكل ومعابد ومبانٍ باستقى كما شادوا مسرحاً لتمثيل وملعباً لصارعة الحيوان وبعض الحمامات. وكانوا يحكمون قرطاجنة والقسم الشمالي من الأقاليم التونسية مباشرةً، وما وراءه في نفس الإقليم وفي نوميديا (القسم الشرقي من المغراز) كان

يمكّه ولاة تابعون لهم من البربر، واشتهر من بينهم والي يسمى بوعرطة حارب الرومان وحاول الاستقلال بيلاده ووقع في أيدي أعدائه فسجنهوا بروما إلى أن قضى تحبه سنة ١٠٦ قبل الميلاد. وأخذت البلاد تستكين لروما، وأخذ بعض البربر ينشأ بها ويتعلّم فيها مثل يوما الثاني المتوفى سنة ٢٢ للميلاد، وهو جزائري، وقبره بالقرب من شرشال، وله مؤلفات مختلفة باللاتينية في تاريخ الرومان وفي المغرافية والموسيقى. واندمج بعض البربر في الحياة الرومانية واستطاعوا الوصول إلى أعلى الوظائف في الدولة، حتى ليصبح أحد أبواء روما ويجلس على عرشهما سنة ١٩٣ للميلاد بربرى من مواليه ملطة على الساحل الإفريقي ويقال: هل من مواليه ليدة بجوار طرابلس، وهو ستيوس سيفيروس. وتابعت روما قرطاجة في العناية بالزراعة في إفريقيا التونسية وشق القنوات بها وإقامة السدود والخزانات والصهاريج والمواجل، مما جعل الزراعة تزدهر بها في زمنهم الذي امتد نحو ستة قرون طوال. وتظل التجارة مزدهرة بها أيضاً وتظل القوافل تتدحر إلى الجنوب لحمل السلع من السودان. وقد نزلتها - وعاشت فيها - أسر رومانية كبيرة. وحين اعتنقت روما المسيحية حاولت نشرها فيها، وابتنت لها بعض الكنائس، ويدوأ أنها عملت على نشر لغتها اللاتينية، وقد ظلت حية في بعض الأسلمة بعد الفتح الإسلامي - كما سرى - قرروا طوبية، وسرى بعض الأئم الأغالبة يتلذثها، كما تعلمها المز لدين الله الفاطمي.

وتأخذ الأصول في روما تسوه، حق إذا مضينا في القرن الخامس الميلادي زادت سوءاً على سوء، مما جعل أحد ولاتها في إفريقيا المسما بونيفاس يخرج عليها ويستغيث بقبائل الوندال البرمانية التي كانت قد استولت على إسبانيا، وتقدم تلك القبائل، وتعيث في إفريقيا التونسية دماراً وفساداً لمدة مائة عام من سنة ٤٣٩ إلى سنة ٥٣٤ للميلاد، خربت فيها كل - أو أكثر - ما كانت تزدهر به البلاد من أسباب المضاربة والمران مما أقامه بها الفينيقيون والرومان إلى أن خلصها منهم القائد البيزنطي بلزيز Béliaire سنة ٥٣٤ للميلاد، وأصبحت إفريقيا التونسية - من حيث لا ينزع - تابعة لقيصر بيزنطة (القسطنطينية) ويسمى العرب سكان هذه الدولة باسم الروم. وكانت بيزنطة تولى على إفريقيا حاكماً عالماً يلقب بالبطريق Patricius مقامه بقرطاجة، وأسندت إليه إصدار الأوامر والإشراف على الموظفين وعلى أداء الحكم والشئون المالية، وكانت ينتفعون سياسة خرقاء ظالم في فرض الضرائب الفادحة والجيبيات والإتاوات الباهضة، ولم تعن بيزنطة - وبالتالي حكامها - بنشر لغتها اليونانية في البلاد على نحو ما عنيت روما وحكامها - من قبل - بنشر اللغة اللاتينية، فلم تكن اليونانية تتجاوز ألسنة الموظفين والجنود البيزنطيين، وظلت اللاتينية هي اللغة المسيطرة في المدن الإفريقية: في قرطاجة وسوسة وغيرها بسبب ما كان فيها من غاليات رومانية كبيرة.

## الفتح<sup>(١)</sup> - بقية الولاة - الدولة الأغلبية

### (١) الفتح

كان يحكم قرطاجة وإفريقية قبيل الفتح العربي بطريق بيزنطي يسمى جرجيوريوس وسماه العرب جرجير، وحين رأى صاحف الدولة البيزنطية واستيلاء العرب على أكبر دُرُّتين في تاجها: الشام ومصر صُمِّمَ على الاستقلال، فخلع طاعة بيزنطة وضرب الدنانير باسمه، وبينما هو غارق في حلمه إذا الجبيش العربي الفاتح للشام ومصر يستولى على برقة وطرابلس وتوابعها في سنتي ٦٤٢-٦٤٣ هـ / ٢٢٣-٢٢٤ مـ. ويتوفى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ويخلفه عثمان بن عفان فيولى على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح وأمره بغزو إفريقية، فيسير إليها في عشرين ألفاً من الصحابة والتبعين يتقدمهم نفر من الصحابة أو من أبناء كبارهم، مثل ابن أبي سرح الصحابي عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن العباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن جعفر وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، ولذلك سُمِّي الجبيش جيش العدالة، ووصلت طلائع الجيش إلى إفريقية التونسية في سنة ٦٤٧ هـ / ٢٢٧ مـ واستولت على قابس، وكان جرجيوريوس قد عرف أن العرب لا بد أن سينازلوه، فانسحب من قرطاجة إلى الداخل محتمياً بمحصن أنشاء البيزنطيون إلى الجنوب الغربي من القيروان يسمى سبيطة وجمع إليه جيشاً جراراً من البيزنطيين والبربر، يقال إنه كان مائة ألف، والتحم البيشان وانتصر المسلمون وقتل جرجيوريوس في المعركة، قتله عبد الله بن الزبير، وفتحت إفريقية التونسية أبواب مدنه لسرابا الجيش العربي الباسل، وأسرع البيزنطيون والبربر في كل مكان إلى طلب الصلح، وصالحهم القائد ابن أبي سرح على مقدار من المال، وكانت الوعة حاسمة، فلم تقم بعدها لبيزنطة قائمة، ويقال إن ابن أبي سرح ترك بعد ذلك القطر التونسي وعاد إلى مصر دون أن يولى عليها أحداً وهو قول غير صحيح، لأنه لم يحدث أن العرب في فتوتهم الأولى فتحوا

الثالث من كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع الدار البيضاء) وتاريخ ابن خلدون والمؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار والحملل السنديسة في الأخبار التونسية للوزير السراج وخلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب

(١) راجع في الفتح وبقية الولاة والدولة الأغلبية كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم وتاريخ الطبرى وابن الأثير وتاريخ إفريقية والمغرب للرقق القروارق (قطعة منه طبع تونس) ومعالم الإيمان للدباغ وابن ناجي ورياض النفوس المالكى والبيان المغرب لابن عذاري والقسم

بـلـا وفـرـضـوا عـلـيـها إـنـاوـاتـ وـضـرـائبـ وـتـرـكـوـها وـانـصـرـفـوا، وـكـأـنـ فـتـحـا لـمـ يـجـدـتـ، مـا يـجـعـلـنـا نـزـجـعـ ما قالـه بـعـضـ الـمـؤـرـخـينـ مـنـ أـنـ خـلـفـ عـلـيـها نـافـعـ بـنـ عـبـدـالـقـيـسـ الـفـهـرـيـ، وـكـانـ يـتـخـذـ زـوـيلـةـ الـقـىـ فـتـحـهـا فـي حـلـةـ عـمـرـ بـنـ الـعـاصـ مـقـرـاـ لـحـكـمـهـ فـي طـرـابـلـسـ وـبـعـدـ ضـمـ إـفـرـيقـيـةـ التـونـسـيـ إـلـيـهـ. وـلـاـقـامـتـهـ فـي زـوـيلـةـ ظـلـنـ خـطـأـ أـنـ أـبـنـ أـبـيـ سـرـحـ لـمـ يـتـرـكـ وـرـاـمـهـ فـي إـفـرـيقـيـةـ التـونـسـيـ عـامـلاـ. وـبـعـدـ أـنـ الـخـلـيـفـةـ عـشـمـانـ بـنـ عـفـانـ وـلـىـ عـلـيـهـ بـأـخـرـةـ مـنـ أـيـامـهـ سـنـةـ ٣٤ـ لـلـهـجـرـةـ مـعـاوـيـةـ بـنـ حـدـيـجـ السـكـوـنـيـ. وـتـحـدـثـ فـتـنـةـ عـشـمـانـ فـيـعـودـ، وـتـضـطـرـبـ الـأـمـورـ فـيـ إـفـرـيقـيـةـ كـمـاـ اـضـطـرـبـتـ فـيـ الـوـلـاـيـاتـ الـأـخـرـىـ.

وـلـاـ استـقـرـتـ الـأـمـورـ مـعـاوـيـةـ بـنـ أـبـيـ سـفـيـانـ أـرـسـلـ إـلـىـ إـفـرـيقـيـةـ جـيـشـاـ عـدـادـهـ آـلـافـ بـقـيـادـةـ مـعـاوـيـةـ بـنـ حـدـيـجـ سـنـةـ ٤٤٥ـ هـ /ـ ٦٦٥ـ مـ وـعـلـمـ قـيـصـرـ بـيـزـنـطـةـ بـهـاـ الـجـيـشـ فـأـرـسـلـ إـلـىـ قـرـطـاجـ نـجـدـةـ بـحـرـيةـ وـالتـحـمـ بـهـاـ وـبـعـدـ اـنـضـمـ إـلـيـهـاـ مـنـ الـبـرـ بـرـ مـعـاوـيـةـ بـنـ حـدـيـجـ وـهـزـمـهـ هـزـيـةـ سـاحـقـةـ لـمـ يـدـ الـبـيـزـنـطـيـوـنـ بـعـدـهـ يـقـدـمـونـ لـعـونـ قـرـطـاجـ، وـاستـشـهـدـ فـيـ هـذـهـ الـفـرـزـوـنـ أـبـوـ زـمـعـةـ عـبـدـ اـقـهـ الـبـلـوـيـ الصـحـابـيـ، وـكـلـفـ مـعـاوـيـةـ عـبـدـ اـقـهـ بـنـ الـزـيـرـ بـعـثـةـ فـتـحـهـ سـوـسـةـ فـتـحـهـاـ وـفـتـحـ عـبـدـ الـمـلـكـ بـنـ مـرـوـانـ بـنـزـرـتـ.

وـوـلـىـ مـعـاوـيـةـ عـقـبـةـ بـنـ نـافـعـ الـفـهـرـيـ عـلـىـ إـفـرـيقـيـةـ سـنـةـ ٥٠ـ هـ /ـ ٦٧٠ـ مـ وـيـجـرـدـ وـصـولـهـ إـلـيـهاـ رـأـىـ أـنـ الـمـكـمـ الـرـبـيـ لـاـ يـبـتـ فـيـهاـ وـلـاـ يـسـتـقـرـ إـلـاـ إـذـاـ أـنـشـتـ بـهـاـ مـدـيـنـةـ عـرـبـيـةـ تـكـونـ مـعـسـكـراـ لـلـجـيـشـ الـعـرـبـيـ الـذـيـ تـتـقـلـلـ جـنـوـدـهـ فـيـ إـفـرـيقـيـةـ بـحـيـثـ تـكـونـ دـارـاـ لـأـسـرـهـ وـقـاعـدـةـ لـنـشـرـ الـدـينـ الـهـنـيفـ وـلـفـتـهـ الـعـرـبـيـ، وـاـخـتـارـ لـمـدـيـنـةـ مـوـقـعـاـ عـلـىـ بـعـدـ نـحـوـ ثـلـاثـتـ مـيـلـاـ مـنـ الـبـحـرـ الـمـوـسـطـ، وـسـمـاـهـ «ـالـقـيـرـوانـ»ـ أـيـ الـمـعـسـكـ، وـبـدـأـ فـيـهاـ بـإـنـشـاءـ الـجـامـعـ الـمـسـوـبـ إـلـيـهـ فـيـ وـسـطـهـاـ، وـبـيـنـ بـجـوارـهـ دـارـ الـإـمـارـةـ، وـأـحـاطـهـ بـهـاـ سـوـرـاـ، وـسـرـعـانـ مـاـ أـصـبـحـتـ مـدـيـنـةـ كـبـرـىـ وـظـلـتـ أـمـ الدـنـ فـيـ إـفـرـيقـيـةـ قـرـونـاـ مـتـطـلـوـلـةـ فـيـ الـعـلـمـ وـالـقـنـافـذـ وـفـيـ الـتـجـارـةـ، وـاـسـتـغـرـقـتـ عـمـارـتـهـاـ مـنـهـ خـسـ سـنـوـاتـ حـتـىـ سـنـةـ ٥٥ـ هـ /ـ ٧٧٤ـ مـ وـأـصـبـحـتـ مـرـكـزاـ لـتـعـرـكـاتـ الـجـيـشـ الـفـاتـحـ بـعـدـ أـنـ كـانـ مـرـكـزاـ تـلـكـ التـعـرـكـاتـ بـرـقةـ وـزـوـيلـةـ. وـعـزـلـهـ مـعـاوـيـةـ وـوـلـاـهـ أـبـاـ الـمـاهـجـرـ فـيـ نـفـسـ الـسـنـةـ الـمـذـكـورـةـ آـنـفـاـ، وـمـنـ أـعـمـالـهـ الـجـلـيلـةـ فـتـحـ بـلـيـزـرـةـ شـرـبـلـ وـإـدـخـالـهـ جـمـيعـ بـلـادـ الـجـرـيدـ فـيـ إـسـلـامـ، وـبـالـمـثـلـ جـمـيعـ بـلـادـ الـجـزاـئـرـ وـتـقـلـلـ فـيـهـ بـجـيـشـهـ إـلـىـ تـلـمـسـانـ حـيـثـ دـارـتـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ قـبـيلـةـ أـورـبةـ الـبـرـنـسـيـةـ وـزـعـيمـهـ كـسـيـلـةـ مـعـرـكـةـ اـنـتـصـرـ فـيـهـ وـأـسـرـ كـسـيـلـةـ فـعـالـمـهـ مـعـاـمـلـةـ كـرـبـةـ جـعلـهـ يـعـتـقـدـ إـلـيـسـلـامـ وـاعـتـقـتـهـ مـعـهـ قـبـيلـةـ أـورـبةـ. وـيـتـرـقـيـ مـعـاوـيـةـ وـيـتـلـفـهـ اـبـنـهـ يـزـيدـ فـيـعـدـ عـقـبـةـ بـنـ نـافـعـ ثـانـيـةـ وـالـيـاـ عـلـىـ إـفـرـيقـيـةـ سـنـةـ ٦٦٢ـ هـ /ـ ٨٦١ـ مـ وـاـسـتـخـلـفـ زـهـيرـ بـنـ قـيـسـ الـبـلـوـيـ عـلـىـ الـقـيـرـوانـ وـاتـبـعـهـ بـجـيـشـهـ إـلـىـ شـطـ الـجـرـيدـ وـأـذـعـنـ لـهـ، كـمـاـ أـذـعـنـ الزـابـ فـيـ الـجـزاـئـرـ وـمـضـيـ بـيـجـاـهـدـ فـيـ سـبـيلـ اـقـهـ إـلـىـ أـنـ وـصـلـ إـلـىـ الـبـرـ الـمـحيـطـ، فـأـدـخـلـ فـيـهـ قـوـانـيـنـ فـرـسـهـ وـرـفـعـ يـدـهـ إـلـىـ السـاءـ قـائـلـاـ بـأـعـلـىـ صـوـتـهـ: «ـالـلـهـ إـنـ أـشـهـدـكـ أـقـهـ وـصـلـتـ بـرـاـيـةـ

الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يُعبد أحد سواك» وكُرِّاجعاً بعد أن دُوَّخ القبائل المغربية ودانت له، وكان قد دُوَّيْخ كُسْيَلَة زعيم قبيلة أوربة في أول ولاليته الثانية لوقوفه قدماً ضد الإسلام، وأسرّها في نفسه هو ومن غضبوه له من البربر الذين لم ينسوا قوميتهم البربرية، وضمّ كسبيلة على الثأر، حتى إذا تقدم عقبة جيشه بالزاب في عودته، وبقي في نفر قليل معه إذا كسبيلة الأئمَّة يحاصر عقبة مع جمٍّ من الروم ومن قومه سنة ٦٤٦هـ/١٦٨٢م ويجمعون عليه وعلى من معه من أصحابه وكانت نحو ثلاثةمائة، وقاتلتهم قتال الأبطال، وتکاثروا عليهم فاستشهدوا جميعاً، ودفنتوا في نفس المكان -نُصُرَّ الله وجوههم- وأقيم على قبر عقبة مسجد يعرف باسمه، وهو من المزارات الكبيرة في المغرب. واتسعت ثورة كُسْيَلَة، وتبعته جموع غفيرة من البربر دخل بها القبائل، وتراءج الجيش العربي بقيادة زهير بن قيس إلى برقة انتظاراً لجيش عربي يقدم عليه للقضاء على تلك الثورة، وتصادف أن ثورة عبد الله بن الزبير في المحجاذ كانت قد بدأت وشفل بها مروان بن الحكم حتى إذا أصبحت العلاقة حالية لعبد الملك بن مروان وهدأت الأمور في الشرق أرسل إلى زهير سنة ٦٩٦هـ/١٦٨٨م جيشاً جراراً زحف به زهير إلى كُسْيَلَة وجومعه، فهزّقهم شر ممزق، وقتل كسبيلة وخلق كثير من البربر، واسترجع زهير القبائل وتعقب المنزهين في الجزائر إلى أن أخرجهم منها، وعاد إلى العاصمة ورتب شؤونها، ورأى أن يعود بعد هذا النصر العظيم إلى الشرق، وبينما هو في نفر قليل من صحبه عند برقة إذا هو يرى بعض سفن الروم وهو يسوقون أمامهم بعض المسلمين، أسرّوهם على حين غفلة، فنازلهم وكبت لهم الشهادة عند ربه، ويقول الرقيق القبرواني عنه: «كان زهير من رؤساء العبادين وكبار الزاهدين».

وللملك عبد الملك بعد زهير على إفريقية حسان بن التعمان سنة ٧١٠هـ/١٦٩٥م وكانت لا تزال للروم جالية كبيرة في قرطاجة تتجمّس لبنيزنته وتعيث فساداً ضد العرب فحاصر البلدة وفتحها عنوة وأذعن من بها من النصارى، ولم يكُن ينصرف عنها حتى تخصّنا بها فقاد إليهم وهدم حصون قرطاجة وأسوارها حتى لا يحميهم منه شيء، وفرّ منها كثيرون إلى البحر المتوسط وما وراءه، وظهر بنزرت وشمال إفريقية التونسية من الروم وفرض الجزية على من ظل منهم ومن البربر على دينه المسيحي، واشتغلت في أوائل عهده فتنة في قبيلة جراوة الزناتية بجبال الأوراس في الجزائر تزعّمتها امرأة ببربرية اسمها «دهيا» وسمّها العرب الكاهنة، ونازلاها حسان سنة ٧٦٠هـ/١٦٩٥م ولم يكتب للMuslimين النصر، واضطرب حسان إلى التراجع حتى مدينة سرت بليبيا، وظلّ بها خمس سنوات متقدراً مدة من مصر أو من دمشق، وأتاه في سنة ٨٠هـ/١٦٩٩م مدد ضخم فاشتبك مع الكاهنة في معركة عنيفة قتلت فيها سنة ٨١هـ وأسلم ابنان لها فجعلهما قاندين لجيش مكون من اثني عشر ألفاً من العرب والبربر، وبذلك دعم نظرية

الإسلام في المساواة الثامة بين العرب والموالي المسلمين بربيراً وغير بربيراً فلا فرق بين عرب وبربرى في جميع الحقوق حق في قيادة الجيوش. وساد الأمن والنظام المغرب جيشه. واتجه إلى عمارة البلاد فجذب بناء الجامع الأعظم بالقىروان، ورأى بناقب بصيرته ضرورة أن يكون لإفريقية التونسية ميناء بدلًا من قرطاجة، ولم يثبت أن اختار للمدينة موضعًا بجوار قرية تسمى تينس أو ترشيش، وشق إلى البحر المتوسط قناة تدخل إليها السفن وتخرج منها وألحق بالميناء دار صناعة كبرى لإنشاء أسطول ضخم يحمي شواطئه الديار الإفريقية من غارات الروم، وجلب من مصر ألف أسرة قبطية لمساعدته في إنشاء تلك الدار والأسطول، وسمى الميناء تونس، ولم تثبت تونس أن أصبحت أماً كبيرة من أمهات المدن المغربية إلى اليوم، وبهذا الجامع الكبير المسى جامع الزينة لزيستونة كانت فيه. واستحدث حسان للولاية تنظيم إدارياً ومالياً عممه في جميع البلاد المغربية، ونشر العربية في المغرب وجعلها اللغة الرسمية في جميع الدواوين، ونظم الجبايات في المدن ومع رؤساء القبائل، وقسم الأراضي التي كانت ملكاً للدولة البيزنطية بين صغار الفلاحين من البربر، مما جعلهم يدخلون في دين الله أفواجاً نصراً للدين الحنيف. وبكل ما قدمت عن حسان بن النعمان تعد ولايته على إفريقية خاتمة الفتح الذي بدأه عمرو بن العاص سنة ٦٤٢هـ - ٩٥٧م فقد استقر الدين الحنيف في جميع البلدان المغربية واعتنقه المغاربة، لما تحمل تعاليمه من المساواة الثامة بين جميع المسلمين عرباً وبربرياً وغير بربيراً.

### (ب) بقية الولاية

ويختلف حسان بن النعمان على المغرب موسى بن نصير سنة ٨٦٥هـ / ٧٠٥م وكان ماهرًا في الإدارة وشتون المغرب وببدأ أعماله بتوجيه حلة إلى جبل زغوان - وأتبعها بحملات أخرى عادت بنتائجها وافرة، ثم قام بجعله الكبرى التي اكتسبت المغرب حق طيبة على المعیط وإقليم السوس في أقصى الجنوب. وأتم التنظيمات الإدارية لبلاد المغرب، إذ قسمه ولايات، وجعل لكل ولاية قاعدة عربية يحكمها أحد ولاته، فالنخب الأقصى عاصمه طنجة، والمغرب الأوسط عاصمه تلمسان، والمغرب الأدنى عاصمه القىروان، وهذه شرقاً حتى شمال طرابلس وغرباً حتى شمل نوميديا (قسنطينة وبجاية) وإقليم الزاب إلى نهر شلُف في الجزائر، وجعل برقة ولاية قائمة بنفسها وعاصمتها برقة (المرج منذ القرن السابع المجري) وأضاف إلى هذه الولايات ولاية جنوب المغرب الأقصى، هي ولاية السوس الداخلية في الصحراء، وجعل عاصمتها سجلماسة، وولى عليها طارق بن زياد التفزاوى البربرى، ثم نقله إلى طنجة. وفي سنة ٩١٥هـ / ٧٠٩م عزم على غزو إيبيريا، فأرسل إليها حلة استطلاعية بقيادة طريف، وهو أيضاً بربيراً، فنزل بإيبيريا في موضع يقابل مدينة طنجة، سُمِّي جزيرة طريف لنزوله فيه، وعاد يحمل إلى موسى أنباء طيبة، فأرسل في السنة التالية طارقاً على رأس حلة كبيرة، وجاءه أنه

فتوجهاته، واستمدّ طارق، فذهب إليه على رأس حلة جديدة أتم بها معه فتح الأندلس. والمحلسن الأوليان كانتا تتكونان من العرب والبربر، ونفس قاديهما : طارق وطريف كانا - كما أسلفنا - بربرين وبذلك خطا سياسة حسان خطوات، فجعل من البربر ولاة وقوادا للجيوش. ومنذ عقبة بن نافع كان البربر يشتركون مع العرب في حلالهم المحرية وجهادهم في سبيل الله، مما يدل - بوضوح - على تقلّل الإسلام في نفوسهم، حتى أصبحوا سريعاً من دعاته وحاته، وكانت كثرة جند موسى بن نصير منهم سواه في فتوحه لبقية المغرب حتى ديار السوس أو في فتوحه لإيبيريا.

ويُعزّل سليمان بن عبد الملك قصير النظر موسى بن نصير عن إيبيريا والمغرب جيّما سنة ٩٦هـ/٧١٤م ويصبح صولجان الخلافة بيد عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩هـ/٧١٧م فيدخل إصلاحاً كبيراً على أدلة الحكم في الدولة إذ يأمر الولاية بالتسوية المطلقة بين العرب والموالي أو الشعب المفتوحة في المزاج وجباية الأموال أخذنا بتعاليم الدين الحنيف، ويرسل إلى إفريقية عشرة من الفقهاء على رأسهم إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ويقال إنه أُسند إليه الولاية، وكلّفهم أن يعملوا على نشر الإسلام، وأسلم على أيديهم أفواج بربرية لا تكاد تحسّن فضلاً عن أنهم بنوا في الشباب فكرة التفقه في الدين، مما أعدّ أهل إفريقية التونسية والمغرب ليشاركووا سريعاً في الدراسات الدينية.

ولا نكاد نغضي في القرن الثاني الهجري حتى يتوفى الخليفة العظيم عمر بن عبد العزيز، ويتولى بعده الخليفة الطائش يزيد بن عبد الملك، فيُعزّل ابن أبي المهاجر عن إفريقية ويعول عليها عاماً ظلوماً غشوماً هو يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة العجاج، فقدم إلى القيروان سنة ١٠٢هـ/٧٢٠م وسرعان ما أخذ البربر بسياسة العجاج في ظلم موالى السواد في العراق والتفريق بينهم وبين العرب في المزاج، مما يتعارض تماماً شديداً مع تعاليم الإسلام في رفع الفروق بين المسلمين عرباً وموالى، وكأنما عين يزيد ابن أبي مسلم عن رؤية الفروق الواضحة بين الموالى الفلاحين في سواد دجلة والغرفات من جهة والبربر من جهة ثانية، فإن البربر قبل ولادته كانوا قد أصبحوا مع العرب رفقاء سلاح وجهاد، وأنقوا معهم فتح بقية البلاد المغربية وإيبيريا، مما جعل البربر - حين طفح الكيل - يجمعون على قتل يزيد بن أبي مسلم الباغي وقتلوه سنة ١٠٣هـ/٧٢١م وتولى بعده بشر بن صفوان الكلبي، وينذّر له أنه غزا صقلية سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م وأصاب منها غنائم وافرة، وولى بعده هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن السلمي وأسأله السيرة، فعزله وولأهها سنة ١١٤هـ/٧٣٣م سفيهاً كبيراً هو عبيدة الله المحباب، وينذّر له أنه جدد جامع الزيتونة وعن بدار الصناعة وغزا أسطوله صقلية، غير أنه كان باغياً طاغياً هو وعماله، فتنفسوا في جمع المزاج وجباية الأموال من البربر، وبلغ من سنه

عامله على طبقة عمر بن عبد الله المرادي أن صرُّح بأنه يريد تخييب أراضي البربر أى أخذ خمسها للدولة زاعماً أنها فُتحت للعرب وغثائم حرب لهم. وكان المخواج صفرية وإيابية قد دأبوا منذ ولادة يزيد بن أبي مسلم وما أنزل بالبربر من حيف وعسف في شتون المخواج يدعون لعقيدتهم ومبادئها التي توجب التسوية بين العرب والموالي ببربر وغير ببربر في الشؤون المالية ومناصب الدولة حتى منصب الخلافة، فهي ليست حقاً لقريش وحدها دون العرب وبقية المسلمين بل هي حق لأكفاء المسلمين جميعاً عرباً وغير عرب حتى لو كان عبداً جهشاً، ووُجد المخواج في بلاد المغرب تقليلاً شديداً لمبادئهم بسبب سياسة ولاة بن أبي الفاسمين في القرن الثاني الهجري، إذ رأى البربر - أو كثير منهم - فيها ما يغلظهم من ظلم الأمويين وعسف ولاتهم. وأخذ جيلٌ نفوسه في ليبيا يصفي للدعوة الإيابية، وهي دعوة معتدلة إذ تدعو لإمام يحقق العدالة والساواة المطلقة بين المسلمين عرباً وغير عرب، ولا تذكر المسلمين ولا تقاتلهم إلا إذا باذرواها بالقتال، واستجاب - أو أخذ يستجيب - المغرب الأقصى للصفرية، وهي دعوة متطرفة إذ تكرر المسلمين وتعد دارهم دار حرب، وتزعم دعوتهم بالقرب من طبقة ببربرى من قبيلة مضمرة **البتيرية** هو ميسرة، وبابعه البربر وكُونَ منهم جيشاً احتل به طبقة، وفتكت بعامتها القسوم عمر بن عبد الله المرادي، وهزم ميسرة في بعض الواقائع، فولت الصفرية عليها خالد بن حميد الزناني سنة ١٢٣ ولقيه جيش لابن المبحاح في الميزات على نهر شلف، وهزمها خالد في معركة عنيفة، سميت معركة الأشراف لكثرتها من قتلها من أشراف العرب. وعزل هشام بن عبد الملك واليه ابن المبحاح سنة ١٢٤ هـ / ٧٤١ م وولى على إفريقية كلثوم بن عياض القشيري يعاونه ابن أخيه بلج بن بشر، ويلتقيان بخالد بن حميد والصفرية جنوب طبقة ويزمان ويقتل كلثوم، ويضطر بلج إلى العبور إلى الأندلس ببقية الجيش. ويولى هشام على إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبي، ويقدم إلى القيروان، وسرعان ما يستنصر الصفرية لمربه قائدان صفيريان: عربي هو عكاشة بن محسن وبربرى هو عبد الواحد بن يزيد الهاوري، وكانتا قد اجتمعا في الزاب بالميزات، واتفقا على أن يسير عكاشة مع جيشه في السهول شمال الأوراس ليهاجم القيروان من الجنوب ويسير عبد الواحد من ناحية قسنطينة ليهاجم القيروان من الشمال، وعرف حنظلة خطتها، فأسرع بلقائه عكاشة وهزمها هزيمة ساحقة، وتقدم عبد الواحد إلى القيروان، فاستثار حنظلة فقهاءها، فخرجوها مع جيشه لمنازلته، وخرج معهم نساء القيروان حاملات للسلاح مستسللات للموت مع الجيš، فامتلاً الرجال حبة ودارت الدوائر على عبد الواحد وجيشه من الصفرية، وحمل رأسه إلى حنظلة فخرّ له ساجداً.

وُقتل الوليد بن يزيد الخليفة الأموي سنة ١٢٦ فطمع عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع في الاستيلاء على ولاية إفريقية وأعلن الثورة سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٤ م ففك حنظلة

في حربه، وكان تقىاً ورعاً، فكره أن يقتاتل المسلمين، وترك القبروان عائداً إلى المشرق. وصارت الخلافة إلى مروان بن محمد سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م فأقرّ ولاية عبد الرحمن بن حبيب على إفريقية درماً للانقسامات والفتن بها، وأنه أعلم بشئونها إذ هي داره ودار جده عقبة بن نافع. ولم تثبت الإباضية أن ثارت بطرابلس سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م بامامة عبدالقه بن مسعود التجيبي فأرسل إليه عبد الرحمن أخيه إلياس، فقضى على ثورته، وبائع الإباضية بهذه الحارث بن تليد بالإمامية، واتخذ وزيراً له عبد الجبار بن قيس المرادي، ونازلاً جيوش عبد الرحمن مراراً، وأغتيلوا سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م وبذلك انتهت ثورتها. وفي نفس السنة قضى العباسيون على الدولة الأموية، فأقرّوا عبد الرحمن بن حبيب في ولايته على القبروان وإفريقية، وسمع بجتماع للصفرية في تلمسان سنة ١٣٥هـ/٧٥٢م فجاجهم وهزمهم. وأرسل حلة إلى صقلية وعادت بغنائم كثيرة، ومن أهم أعماله استيلاؤه على جزيرة قوّصرة التي تبعد عن تونس نحو ثلاثين ميلاً. واستمرت نابعة للقبروان وإفريقية حتى تنازل عنها أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية لفرديرك الثاني ملك صقلية سنة ١٣٨هـ/٧٥٤م وتأنّر على عبد الرحمن أخيه إلياس وعبد الوارث وقتلاه سنة ١٣٧هـ/٧٥٤م وتولى إلياس وقتلته حبيب بن عبد الرحمن، وتولى مكانه، وفي سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م ثارت عليه قبيلة ورْجومة التفزاوية الصُّفرية واستولت على القبروان منه واستباحتها، وانتسبت إليها حبيب سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م وقتلته، وظلت في القبروان تستحلّ المحارم وترتّب العظام، فامتنع لأهلها أبو الخطاب عبد الأعلى بن السُّمعَّن إمام الإباضية في طرابلس وجبل نفوسه، فخلص القبروان منهم سنة ١٤١هـ/٧٥٨م وولى عليها عبد الرحمن بن رستم الإباضي، وأرسل المنصور العباسي محمد بن الأشعث وإلى مصر بجيشه جرار إلى إفريقية، فناذل أبي الخطاب في معركة حامية الوطيس قتل فيها، ففرّ وإليه على القبروان عبد الرحمن بن رستم إلى الزاب في الجزائر وأسس للإباضية دولة في تيهرت استمرت حتى سنة ١٤٦هـ/٩٠٩م وتولى الأغلب بن سالم التميمي على إفريقية سنة ١٤٨هـ/٧٦٥م وقتل سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م في بعض حروبه، وخلفه عمر بن حفص المهلي، وكان بطلاً مغواراً وابني بالزاب مدينة طينة، وثار عليه إباضية طرابلس بزعامة أبي حاتم وحاصروا القبروان، وخرج إليهم وقتل سنة ١٥٤هـ/٧٧٠م.

وولى القبروان وإفريقية بعد ابن حفص المهلي ابن عممه يزيد بن حاتم، وفيه يقول مؤرخ القبروان الرقيق: «كان كثير الشبه بجده المهلب في حروبه ودهائه وكرمه وسخائه، وقام أظفار الصفرية في الزاب، وانسحبوا فلولهم إلى ديار زناته في الصحراء، كما قلم أظفار الإباضية في طرابلس وجبل نفوسه وقتلوا بأبي حاتم الإباضي وصحبه هناك وبذلك ظلت لأهل السنة المنزلة العليا في القبروان وجميع بلاد المغرب. وقد ضبط أمرور الدولة بمنتهي المzman، ومن أعماله تجديده بناء جامع القبروان سنة ١٥٧هـ/٧٧٣م وترتيبه للأأسواق فيها، إذ أفرد لكل صناعة وتجارة

مكاناً معيناً. وكان أديباً حفياً بالشعراء يجذل لهم الطعام، وشدو إلينه الرحال من الشرق، وبذلك أحدث في القيروان حرفة أدبية، وكان يعقد لها الندوات في دار الإمارة. وما يروى من سيرته الزرقة أنه رأى يوماً يأخذ ضواحي القيروان غنماً كثيراً فسأل عن صاحبه فقيل له إنه لا به، فطلبها وعنده على مزاجته الرعية في صور التكسب وأمر بذبحها وتوزيعها على الناس. وظل والياً على إفريقية سبعة عشر عاماً حتى توفي سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م وولى بعده أخوه روح بن حاتم سنة ١٧١ هـ / ٧٨٧ م وكان عالى الحمة عادلاً حسن السيرة، وفي أيامه ظهرت دولة الأدارسة بالغرب وبوبع إمامها الأول إدريس الحسني سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م وأسسوا مدينة فاس واحتذوها عاصمة لهم، وتوفي روح سنة ١٧٤ هـ / ٧٩٠ م ودفن مع أخيه في قبر واحد. وتولى لها بعده نصر بن حبيب الملهبي وكان حسن السيرة، وعزله الرشيد وولى عليها الفضل بن روح، واضطربت عليه الأمور، فولى الرشيد عليها سنة ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م هرثمة بن أعين وكان من كبار قواده وكان حسن السياسة والإدارة، وايتق رباط المستير بين سوسة والمهدية لحماية الساحل من غارات نصارى البحر المتوسط، وظلت الأبنية تتسع حوله حتى أصبح مدينة كبيرة في القرن السادس المجري. ولم يلبث هرثمة أن آثر العودة إلى الشرق سنة ١٨١ هـ / ٧٩٧ م، وولى عليها الرشيد محمد بن مقاتل العكى ولم يحمد سيرته فعزله.

### (ج) الدولة الأغلبية

كان إبراهيم بن الأغلب التميمي قد ولد هرثمة على الزاب، فقضطبه بحرمه، وأعجب به هرثمة لقوته شخصيته، واستشار الرشيد هرثمة في وال كنهه يوليه إفريقية، فأشار عليه بإبراهيم وامتدحه له، وكانت إفريقية تكلف الدولة العباسية نفقات باهظة بما ترسل إليها من الجيوش، وكان والي مصر يرسل إلى واليها سنوياً مائة ألف دينار، وكان إبراهيم يتطلع لحكم إفريقية - مثل أبيه - وكان الرشيد يأمل في وال يرجعه من نفقاتها الباهظة، ولم يجد بأساساً من كثرة ثناه هرثمة على إبراهيم بن الأغلب في أن يوليه عليها وسرّ إبراهيم، وقال له إنني لن أحتج إلى ما ترسله مصر لإفريقية من أموال، وأنتعهد أن أرسل سنوياً إلى بيت المال ببغداد أربعين ألف دينار، وكأنه وفر للدولة أو تعهد أن يوفر لها مائة وأربعين ألف دينار سنوياً، سوى ما كانت تتكلفها الجيوش من أموال ونفقات ضخمة. وكان قد درس في شبابه بمصر وحضر حلقات فقيهها: الليث بن سعد، مما أتاح له أن يكون فقيها مثل أستاذه، وكان الليث يعجب ب תלמידه، مما جعله يهبه جارية، هي جُلَاجِل زوجة وأم ابنه زيادة ألق، وكان شاعراً خطيباً. واقتضى به الرشيد فكتب له المهد بولاية إفريقية سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م وجعلها لقبه يتوارثونها من بعده. ومن حيث بدأ شخصية إفريقية - وخاصة إفريقية التونسية - في الظهور، فقد أصبحت بها دولة مستقلة وإن ظلت تدين بالولاء اسمياً للعباسيين، وأخذت تعمل جاهدة على

النهوض بالبلاد نهضة حضارية قوية. وقد ساس إبراهيم إفريقيا سياسة رشيدة، وصم على أن تكون له قوة عسكرية تحميه هو وأسرته من كانوا لا يزالون بالقيروان من المتراسين وغيرهم من الجندي، وكانت من ثلاثة عناصر: البربر المستعربة والصقالية الذين كان يجلبهم تجار الرقيق وزنوج السودان الذين كانت تجلبهم القوافل. وابتنى له والأهل بيته ضاحية على بعد نحو أربعة كيلو مترات من القيروان، سماها «العباسية» ونقل إليها معسكلات جنده وخرائن السلاح والأموال كما نقل إليها حواشيه واتخذها دار إمارته. وظل يدير دفة هذه الدولة إدارة حازمة ومؤسس بنائها الشامخ طوال اثني عشر عاما إلى أن توفي سنة ١٩٦هـ/١٩١٣م وبخلفه ابنه أبو العباس عبدالقه، ولم يكن سوسيا ويتوفى سنة ٢٠١هـ/١٩٤٨م فيخلفه آخره زيادة آقا، وكان من أعلم أهل بيته فصيح اللسان بصيرا بشئون الإدارة والحكم، فثبت سلطان أسرته، وتقلب ذاتها على خصومه، وشجع العلم والعلماء. ومرّ بنا أن ولاة إفريقيا حاولوا غزو صقلية مراراً، وكان زيادة آقا عظيم الملة، فأخذ يمد العدة لفتحها، بادئاً ببناء سور حصين حول تقرسوسة، وبين بجوارها رباطاً لحمايتها وحماية الساحل واتخذها مرسة لأسطوله، وبين له فيها دار صناعة كبيرة، وأخذ يكثُر من قطمه وسفنه، حتى أصبح أقوى أسطول حربي في البحر المتوسط، ويغزو به سرداية سنة ٢٠٦هـ/١٩٤٨م ويعود محلاً بالفنان. ويرسل إلى صقلية سنة ٢١٢هـ/١٩٥٧م جيشاً بقيادة الفقيه أسد بن الفرات قاضي القيروان لفتحها، ونزل الجيش بمدينة مازر، والتقي بجموع الصقلين وهزمنهم، وأخذ يستولى على حصون ومدن متعددة، وفي حصار سرقوسة شرقى صقلية توفي القائد العظيم أسد بن الفرات، ومضى الجيش في فتوحه. وهو حدث من أعظم الأحداث في تاريخ الأمة العربية، ولزيادة آقا وقائد ابن الفرات بهذه وشرفه. ويدل أكبر الدلالة على قوة هذا الأسطول الأغلبي القاتع لصقلية أن نجد أهل مدينة نابولي في إيطاليا يستتجدون بزيادة آقا ضد أعدائهم المجاورين لهم من الفرنج سنة ٢٢٢هـ/١٩٣٦م وينجدهم الأسطول وتنظر نابولي بأيدي جنوده ويعمارته زمناً غير قليل. وجدد زيادة آقا بناء جامع عقبة في القيروان ولبس نداء ربه سنة ٢٢٣هـ/١٩٣٧م وخلفه آخره الأغلب، وفي عهده فتح الجيش أكثر ما يبقى من صقلية سنة ٢٤٤هـ/١٩٣٨م وتمكن الأسطول من الاستيلاء على مدينة باري شرقى إيطاليا سنة ٢٢٥هـ/١٩٣٩م واتخذها قاعدة حربية ومرسة لسفنه في البحر الإدريسي، ويتوفى سنة ٢٢٦هـ/١٩٤٠م ويترك مقاليد الحكم آخره أبو العباس محمد، وفي أيامه أغارت بفتنة سنة ٢٣٠هـ/١٩٤٤م بعض سفن إيطاليا على شواطئ الساحل ونهبت بعض أقوات السكان وأسرت عدداً منهم، ساقتهم إلى إيطاليا عبيداً أرقاء وبايعتهم في الأسواق، وغضب الأمير الأغلبي محمد حبة مواطنبيه، فأمر الأسطول بخروج قطع منه لغزو إيطاليا وأرسست عند مصب نهر تiber المنحدر من جهة روما ، وانتشر جنودها في ضواحي روما واقتحوها عنوة واستولوا على بعض ما في كنيستها الكبيرة من تحف، وظلوا يترددون عليها

وعلى أنفاسها نعوا من شهرين، وعادوا دون أن يصاب أحد منهم بأذى، ويتوافق الأمير محمد سنة ٢٤٢هـ/٨٥٦م ويتوالى ابن أخيه أحد وفي أيامه استولى المسلمون في صقلية على مدينة قصريانة المنيعة سنة ٢٤٤هـ/٨٥٨م وأعاد بناء جامع تونس وزينه بقباب ونقوش وأعمدة رخام بدعة كما زين جامع عقبة في القيروان بقبة خارجة عن البهرو وحراب رخام مزودين بالتفوش، وبين الماجل (الصهريج) الكبير بالقيروان وماجل سوسة، وتوفى سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م وخلفه ابنه زيادة أله الثاني، ودار العام، فتوفي، وتولى بعده ابن أخيه أبو الغرانيق سنة ٢٥١هـ/٨٦٥م وفي عهده فتح الأسطول سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م جزيرة مالطة وطلت تابعة للقيروان نحو قرنين ونصف حق استولى عليها روجار الأول ملك صقلية سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ويتوافق أبو الفرانيق سنة ٢٦١هـ/٨٧٤م وخلفه أخيه إبراهيم وفي أيامه فتحت سرقوسة آخر معاقل الروم في صقلية سنة ٢٦٤هـ/٨٧٧م. وفي نفس السنة بنى مدينة رقادة على بعد ثمانية أميال جنوب القيروان، ونقل إليها أهل بيته ودار إمارته ورجال دولته وجندته، وبعد عهده من أزهى المهدود على حضارة في الدولة الأغلبية إذ بنى في عاصمه: رقادة بيت حكمة كبيت هرون الرشيد والمأمون في بغداد، وجلب إليه طائفة بارعة من العلماء أطباء ورباضيين وفلكلوريين وموسيقيين وأملق به مكتبة ضخمة، فتح أبوابها للطلاب والقصداد. وبعث بذلك في إفريقيا التونسية نهضة علمية وثقافية واسعة. وأنشأ إبراهيم محارس ورباطات كبيرة على الساحل واستحدث فيها نظام إشارات بالأضواء، ترسل تواً من رباط إلى رباط عند حدوث أي هجوم، بحيث إذا حدثت أي غارة بحرية للأعداء في أي بقعة على الساحل علمت بذلك في الحال جميع الرباطات والمحارس، وأصيب في أواخر ولايته بمرض السوداء، مما جعله يسفك دم كثيرين من أقاربه، وعلمت بذلك الدولة العباسية فأرسلت إليه سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م أن يغنى نفسه من الحكم ويتنازل عنه لابنه عبد الله. وتصدّع لهذا الأمر، وسلم صولجان الحكم لابنه، وكأنما أراد أن يكفر عما صنع من سفك الدماء فرأى أن يمضى بقية حياته في الجهاد، وأعدَّ أسطوله لإعدادًا كبيرًا لغزو إيطاليا في نفس السنة، وعبر به مضيق مسينا قاصداً قلوبرية وأرض إيطاليا الجنوبيَّة، واستولى على عدد من المقصون الإيطاليين في الجنوب غير أن الموت باعثه، فعاد به الأسطول إلى بالرم في صقلية ودفن بها، ونقل ابنه عبد الله رفاته إلى القيروان. وكان عبد الله على جانب كبير من التقوى والصلاح وكتب إلى عماله بالرفق في معاملة الرعية، وتوفى سريعاً سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م. وخلفه ابنه أبو مصر زيادة أله، وكان أبو عبد الله الصناعي داعية عبد الله الفاطمي قد نشر دعوته الإسماعيلية الفاطمية في كُتابة بالجزائر، ودخل في دعوته كثيرون، ف تكون منهم جيشاً قضى به على دولة تيهرت الإيابية، وتقدم بجعشه من الجزائر قاصداً القيروان ولقيه جيش أغليان في قرية الرئيس، فهزمه، وأحسن أبو مصر زيادة أله الأغلى أنه لن يستطيع الصمود لأجل عبد الله الصناعي داعية الفاطميين، فخرج عن ملكه فاراً إلى المشرق وتردد بين مصر والشام في

انتظار نجدة من العباسين، وواغاه الأجل بعدينة الرملة في فلسطين. وهكذا انتهت في إفريقيا التونسية دولة الأغالبة التي استطاعت في نحو مائة عام أن تنهض بها نهضة حضارية ثقافية كبيرة، كما استطاعت أن تكون لإفريقيا وللعرب أكبر أسطول في البحر المتوسط لزمنها، ومن أعمالها المجيدة فتح صقلية ومالطة وتعريبها ونشر الإسلام بها آمادا طويلة إلى أن استولى عليها النورمان.

## ٤

## الدولة العبيدية - الدولة الصنهاجية - المجرة الأغربية

### (أ) الدولة<sup>(١)</sup> العبيدية

كان أبو عبد الله الصناعي قد تعرف على جماعة من قبيلة كاتمة المجزائرية في المع وقدم معهم إلى ديارهم، وكان لسنا جدلا، فأعجب من اجتماعوا حوله من هذه القبيلة، ولما اطمأن لهم أخذ يعلن بينهم أن آل البيت هم الأحق بإمامية المسلمين وخلافتهم، ودعا للرضا المصوم المستتر منهم صاحب الزمان، وأخذ المستجيبون له يتکاثرون ودخلت كاتمة في دعوته وطاعته فأخذ ينظمها تنظيمياً، وزحف بها - كما أسلفنا - إلى إفريقيا التونسية وهزم جيش الأغالبة في الأربعين، وتقدم إلى القيروان ودخلها بجنوده واستولى على دواوينها وخزانتها، وكان قد أرسل إلى عبيد الله المهدى إمامه يستقدمه من سُلَّمِيَّة في سوريا مقر الدعوة الإسماعيلية. وخوفاً من ولادة العباسين اتجه به رفقاء إلى سجلmasة مركز الصفرة في المغرب الأقصى فسجنه صاحبها، وخلصه أبو عبد الله الصناعي، وقدم به إلى القيروان سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م وسلمه مقايد الحكم. وسمى المؤرخون دولته باسم الدولة العبيدية تمييزاً لها في إفريقيا من دوله أحفاده بصر التي لقبوها باسم الدولة الفاطمية. وبابع أهل القيروان عبيد الله وتلقب بأمير المؤمنين. ويبدو أنه أحسن في أبي عبد الله الصناعي نديمه على ما أولاه من الخلافة والملك فبادر إلى سفك دمه على نحو ما صنع قديماً المتصور العباسى بأى سلم الخراسانى داعيهم، وبين المؤرخين خلاف في نسب عبيده الله المهدى إلى البيت الفاطمى وهل هو علوى حقيقة أو غير علوى، وصحح نسبة

الأهار وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والمؤنس في أخبار إفريقيا وتونس لابن أبي دينار وخلاصة تاريخ تونس لحسن حسن حتى عبد الوهاب.

(١) انظر في الدولة العبيدية بتونس البيان المغربي لابن عذاري ويعالم الإيمان للديباخ وابن ناجي والقسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب وسيرة الأستاذ جونز والمحة السيراء لابن

ابن خلدون. وأخذ يصرف الأمور في الدولة، وقرب منه قبيلة صنهاجة المزائرية وأرسل زعيمها مصالحة على رأس جيش إلى المغاربة الأوسط والأقصى واستطاع الاستيلاء على مدينة فاس من الأدارسة الحسينيين. وأخذ دعاته يحاولون إقناع فقهاء السنة بمبادئ الدعوة الفاطمية وعقدوا لذلك مجالس تجربة لم فيها كبار الفقهاء في القبروان وناظر وهم منظرات حامية مبنية ما في الدعوة العبيدية الإسماعيلية من مبادئ تختلف الإسلام من مثل تقديس الخليفة العبيدي وأدّعاء أنه الصورة المحسّدة له في الأرض وأنه معصوم وأنه يعلم الغيب إلى غير ذلك مما كان يزعمه دعاء عبيد الله المهدى، وشعر أن القبروان ليست - بفقهائها وشيوخها - دار أمن له ولأسرته، فرأى أن يختار موطنًا على الساحل لمدينة جديدة له، واختار رأساً بارزاً بين سوسة وصفاقس، وأخذ منذ سنة ٣٠٣ يؤسسها، وتم له تأسيسها سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م وسماها المهدية نسبة إليه ونقل إليها آله وجنته ودواوينه وأمواله واتخذها مقر حكمه. وكانت قد عصت عليه صقلية فردها إلى طاعته وولى عليها أحد عماله، كما كانت قد عصت عليه طرابلس وثبت بها نورة إباضية، فردها ابنه وولى عهده القائم إلى الطاعة وأغمرها ثلاثة ألف دينار، ومضى القائم في حلة إلى الإسكندرية والقيوم وعاد دون طائل، وفي سنة ٣١٥ خرج القائم إلى المغرب الأوسط وبين مدينة المحمدية (المسلية). وتوفى عبيد الله المهدى سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٢ م وخلفه ابنه القائم، واهتم - مثل أبيه - بالأسطول وبعث على بعض قطمه وسفنه يعقوب بن إسحق فغزا جنوة وكرسيكا وسردانية، وعاد بغنائم وافرة، وثار عليه سنة ٣٢٦ هـ / ٩٣٢ م أبو يزيد مخلد بن كيداد الزناتي من الصفرية التكاريّة الذين يستحلون سفك الدماء، وتبعد خلق كبير، وفي سنة ٣٢٣ هـ / ٩٤٤ م زحف إلى إفريقيا التونسية، واستولى على تبسة والأربس وباجة وتونس ورقادة بجوار القبروان وعلى القبروان نفسها وحاصر المهدية واستولى على سوسة، وتوفى القائم في أكتوبر ذلك سنة ٣٢٤ هـ / ٩٤٥ م وخلفه ابنه المنصور واستتجد بقبيلة صنهاجة، فجاءته وفككت عن المهدية الحصار، وأرسل أسطوله إلى سوسة ونصرها ضد أبي يزيد واستتبع معسكره نهياً وإحرافاً واتجه إلى القبروان ففتحها أهلها من دخولها وظل المنصور يتعقبه، وظفر به في أرض كاتامة بالجزائر في أول سنة ٣٢٦ هـ / ٩٤٧ م، وأنشأ المنصور - ابتهاجاً بانتصاره عليه - مدينة بالقرب من القبروان سنة ٣٢٧ هـ / ٩٤٨ م سماها «المنصورية». وولى على صقلية ابن أبي الحسين الكلبي، وظلمت إمارتها لعقبة طويلة. وتوفى سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م وخلفه ابنه المعز، وفي سنتي ٣٤٧ و ٣٤٨ دُوَّنْ قائدته جوهر الصقلي البلاط المغربي إلى المحيط، ودان له المغرب الأوسط (الجزائر) والأقصى. وبلغ المعز اضطراب أحوال مصر بعد موت كافور الإخشيدى ولاشغال بغداد عنها بما كان بها من الفتن، فأرسل إليها قائده جوهر الصقلي في جيش جرار سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م فدخلها حتى الفسطاط دون مقاومة تذكر، وخطب جوهر في الجامع العتيق جامع عمرو بن العاص بالفسطاط باسم المعز، وأقام بمصر الدعوة الفاطمية وأخذ في بناء

القاهرة، واستولى عسکرہ علی الرملة وبعضاً بلدان الشام . وأرسل إلى المعز يجتھ علی القديم إلى مصر فعمز المعز على المسير إليها، ورتب شتون الدولة في إفريقيا، ورحل في موكب ضخم في شوال سنة ٣٦١هـ/١٩٧١م ونزل القاهرة التي بناها له جوهر سنة ٣٦٢هـ/١٩٧٢م وظلت مقر خلافة خلافة الفاطميين من بعده إلى نهاية دولته، وكان محظوظاً إذ أطلقت خلافته البلاد العربية من الشام إلى السوس الأقصى.

### (ب) الدولة الصنهاجية<sup>(١)</sup>

لما عزم المعز على الرحيل إلى مصر ونقل خلافتهم إليها فكر فيمن يوليه علی إفريقيا، وكانت قبيلة صنهاجة البربرية قد أيدت دعوتهم بزعامة شيخها زيري في حرب الثائر الصُّفرى مخلد بن كيداد، وكان لزيري اليد الكبرى في هزيمة مخلد وإنقاذ المهدية والقروان منه وكافأه الخليفة المنصور على ذلك بتوليته على المنطقة الغربية في الجزائر، وفيها أسس مدينة أشير ودفع ابنه بلکين إلى تأسيس ثلاث مدن: الجزائر ومليانة جنوب شرشال والمدية إلى الجنوب منها، وكان بلکين ذا بأس وحزم وشجاعة ونجدية مع إخلاصه للعقبة العبيدية وتفانيه في نصرتها، فرأى المعز أن يُنْصِبَ عنه في إفريقيا، وأنزله القروان وكناه أبو الفتوح يوسف، ولم يجعل له ولاية على طرابلس وصفلية، وكان حرياً أن يضيّف إليه سقلية خاصة لأنها بعيدة عن مصر ولن يستطيع تجدها سريعاً لا هو ولا عقبه، وأيضاً فإنها تُعدُّ امتداداً لإفريقيا التونسية في البحر المتوسط وهي التي فتحتها وأدخلت بها سكانها والإسلام وحضارته فكان ينبغي أن يتركها بلکين. وكان بلکين ثاقب البصيرة، فأخذ يعمل على إقامة دولة بربرية إسلامية في الديار الغربية، وهي أول مرة في التاريخ الإسلامي يباح لبربرى من صهيون أهل المغرب تأسيس دولة مغربية إسلامية، وكان الأمويون في الأندلس يشرون أهل فاس والمغرب الأقصى على العبيديين والآله لهم بلکين، فقد جيئوا سنة ٣٦٨هـ/١٩٧٨م لتأديب الخارجين على الدولة هناك، ودخل فاساً كما دخل أصيلاً على المحيط الأطلسي. وتوقف سنة ٣٧٤هـ/١٩٨٤م وخلفه في ولايته ابنه المنصور ونشبت حروب بينه وبين أعمامه، وانهزموا ولحق بعضهم بالأندلس واتفق لهم - في عهد الطوائف - أن أسسوا لهم مملكة بغرنطة، واشتبك في حروب طويلة مع قبيلة زناتة، وأنهكته الحروب معها ومع أعمامه، فرأى أن ينسحب جنوده من المغرب الأقصى حتى يضع نهاية للحروب المستمرة مع زناتة، وقصر إمارته على إفريقيا التونسية والجزء الشرقي من الجزائر حتى

وابن خلدون ومعالم الإيمان في معرفة أهل القروان للدبة وابن ناجي.

(١) راجع في تاريخ الدولة الصنهاجية البيان المغرب لابن عذاري والقسم الثالث من كتاب أعمال الاعلام لابن الخطيب وتاريخ ابن الأثير

الزاب ووادي نهر شلف، وكانت جاءته هدية ثمينة من الخليفة الفاطمي بها فيلة وزرافات تبارى الشعراة القبرانيون في وصفها، وتوفي سنة ١٩٦٥هـ/١٣٨٦ م وخلفه ابنه باديس أبو مناد، ولما جاء تقليد الخليفة الفاطمي له أمور إفريقية سنة ١٩٧٣هـ/١٣٨٧ م أقام بالمهديّة موكيما استعرض فيه الجنود وسفن الأسطول وقذف النفاطون بالثار، ولعبت بين يديه الفيلة والزرافات وإبل شديدة البياض. واستقرت له الأمور في إفريقية التونسية، وثارت عليه قبيلة زنانة في المغرب الأوسط (المجازر) سنة ١٩٨٣هـ/١٣٨٨ م فسر إلىها جيشاً جراراً وجعل عمه حاداً قائد، وله ملك ما يفتحه، وانتصر عليهم، وعاد إلى قسنطينة، وأسس لنفسه قلعة حصينة سُبِّتَ إليه باسم قلعة بن حاد، وجعلها قاعدة لحكمه ومرکزاً لجيشه، ويدو أن باديس ندم على ما تعهد به لعدمه أن يمتلك ما يفتحه، فطلب إليه التنازل عنه، وأبى حاد، ونشبت بينهما حروب كادت ترجع فيها كفة باديس، غير أن الموت عاجله - وهو يوشك على النصر - في المحمدية بالجزائر سنة ٤٠٦هـ/١٥١٥ م.

وتولى المز بعد أبيه باديس وكان في الثامنة من عمره فقام بشتون الدولة كبار رجالاتها وأعمامه ماعدا حادا فإنه ظل مصماً على الاستقلال بقلنته عن القبروان وابن أخيه المز واستولى على بعض مدن في الزاب، ونازله جيش المز سنة ٤٠٨هـ/١٣٩٤ م وهزمه فتقدم يطلب الصلح مع المز حقنا للدماء على أن يظل موالياً له مع تمهّد بالاستقلال في قلمته ومنطقته. وانقسمت بذلك دولة صنهاجة إلى إمارة شرقية عاصمتها القبروان وإمارة غربية عاصمتها قلعة بن حاد، ويبلغ المز سن الرشد وكان يحسن تدبير الحكم فبني ذكره وعملت شهرته وهادته الملوك على تناهى الديار، إذ جاءته هدية من السودان تحمل إليه عبيداً وزرافات وأسوداً، وجاءته هدية من قصر القسطنطينية، وجاءه تقليد من الخليفة الفاطمي بلقب شرف الدولة. وكان الشعب حانقاً على العقيدة العبيدية لميادتها المترفة عن روح الإسلام، وأخذت تتشدد في القبروان نورات على أتباع تلك العقيدة، فتابع المز شعبه، وخلع طاعة الفاطميين في القاهرة، وحمل جميع رعيته على منصب الإمام مالك الذي ارتضته المغرب وفقهازها منذ القرن الثاني المجري، حتى إذا وافت سنة ٤٣٨هـ/١٤٠٤ م كشف النقاب عن وجهه وأمر بقطع اسم خلفاء القاهرة الفاطميين من خطب الجمعة وذكر اسم الخليفة العباسى في بغداد. وبذلك تطهّر المغرب على يده من المذهب الشيعي الإسماعيلي الفاطمي. وحين جاءت هذه الأنباء الخليفة الفاطمي املاً غيظاً وموجدة، ففرض عليه أحد وزرائه المسني باسم اليازوري أن يتخلص من جموع نجدية بدوية نزلت بشرق البيل في الصعيد وأخذت تعيث فيه فساداً بدفعها إلى المغرب لضرب المز بن باديس والقضاء على سلطانه ونفوذه، ولقي هذا المرض استحساناً من المستنصر، وأقبلت جموع هؤلاء الأعراب - وكانت تقدر بعشرات الآلاف - على ليبيا وإفريقية التونسية وواقتلت المز، وهزمته، وأضطرته إلى إخلاء القبروان والانتقال إلى المهديّة - وكان عاملها ابنه تميم - فانتقل

بأهلها وحاشيتها إلى تلك المدينة، وظل بها إلى وفاته سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م ودفن برباط المستبر مع آبائه، وقد بلغت القبروان وإفريقية التونسية في عهده كل ما كان يأمله أهلها من تقدم في المدينة والحضارة والعلوم، وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة، كما ازدهرت النهضة الأدبية وتکثر الشعراً كثرة مفرطة مما سترعرع له في غير هذا الموضوع، واستخلف على الدولة بعده ابنه تمياً وانكمشت الدولة إذ لم يعد يتبع تميا منها إلا جزء من ساحل البحر المتوسط بين سوسة وقباس، وكان عالماً وشاعراً ومثالاً للحاكم العربي الصلب رفقي عهده أغاث أسطول جنوبي من ثلاثة سفينه على المهدية سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م ولم يلبث أن انصرف لشدة مقاومته وأغارت به بعد ثلاثة وعشرون سفينه إيطالية فهزهم بحارتها وقتل كثريين منهم وعادوا مدحورين إلى البحر المتوسط وما وراءه، وفي أيامه استولى التورمان سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م على جزيرة صقلية وفي السنة التالية على جزيرة مالطا، ولم يكن يشاغب تمياً أساطيل الغرب وفرضته فحسب، فقد كان يشاغب الأعراب المهاجرون إلى إفريقية التونسية، وظل صامداً على الرغم من قلة جنده وقلة موارده إلى أن توفي سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م، وخلفه ابنه يحيى، وكان محبوها من الرعية، وأنشأ أسطولاً كبيراً غزا به جنوة وسردانة وعاد بأموال وغنائم وافرة وتوفي سنة ٥٠٩هـ / ١١١٥م وولى بهذه ابنه على وقد أنشأ في عاصمة مدرسة للكيمياء عهد بها إلى الكيميائي الأندلسى أمية بن أبي الصلت وناصره أحد بن خراسان أمير تونس، فأرسل إليه جيشاً اضطره إلى إعلان الطاعة، وتوفي سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م وخلفه ابنه الحسن في الثانية عشرة من عمره، وفي أوائل عهده سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م هاجم أسطول تورمانى المهدية، ولقيهم جنود الحسن وأنزلوا بهم مقتلة عظيمة، وعادوا خاسرين مدحورين، وأعد رجار الثانى أسطولاً ضخماً مكوناً من ثلاثة سفينه وهجم به على المهدية، ورأى الحسن أن للاطاحة بمنه القليلين بلقائه فانسحب سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م من المهدية حقناً للدماء، واستناث بعد المؤمن بن علي أمير دولة الموحدين بالمغرب الأقصى وكان التورمان قد احتلوا المهدية فخلصها منهم سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م وولى عليها الحسن بن علي الصنهاجى وأشرك معه عاملًا من الموحدين، وبذلك انتهت الدولة الصنهاجية من إفريقية التونسية بعد ما أدى حكامها الأولون والأخيرون من أعمال ومؤثرات جليلة.

### (ج) المجرة<sup>(١)</sup> الأعرابية

أعلن المعز بن باديس استقلاله بالقطر التونسي عن الدولة الفاطمية بمصر، وأسقط اسم الخليفة الفاطمي المستنصر من خطب الجمعة، وأمر الخطباء أن يذكروا الخليفة العباسى القائم

(١) غير مصدر فضل القول في هذه المجرة ابن خلدون في الجزء السادس من تاريخه (طبعة بولاق).

بأمر اقه على المنابر، وجاءه منه تقليد يعترف له فيه بالاستقلال، وعلم بذلك كل المستنصر الفاطمي فاستشار وزرائه ماذا يصنع، وتقىع منه وزيره اليازوري. ذاكرا له أن خير تأديب للمرع يردعه أن نطلق عليه الأعراب البدو من قبائل سليم وهلال وزغبة ورباح الذين نزلوا في قفار الصعيد بين النيل وزروعه والبحر الآخر، والذين يشكو الفلاحون المصريون من غاراتهم، فنكون قد تخلصنا منهم، وانتقمنا بهم من المزع وصنعيه. واستصوب المستنصر رأيه ومشورته، فاستدعى شيوخ هذه القبائل وعرض عليهم المجزرة إلى بلاد المغرب، ووعدهم أن يوليهم أعمالها، ومنع الشيوخ أعطيات كبيرة، ومنع كل أعرابي من عامتهم بغيرا ودينارا، وقال لهم المستنصر: «قد أعطيتكم المغرب وملك المز بن بلکین الصنابجي» وكانوا يعلون بئنات الألوف، فانصروا على المغرب كسليل جارف، وبدأوا بأرض برقة وطرابلس فاستولوا عليها، وتقدموا فاحتلوا مدينة قابس، وحاول المز بن باديس إيقاف هذا الطوفان المنهر على بلاده، فالفتني بجموعهم في موضع يسمى «حيدران» بين قابس وصفاقس ولكنه هزم وانسحب مع قلول جنده إلى القيروان. ورأى خطأ أن يستقدم بعض شيوخهم إلى القيروان وزوجهم من كرياته، زُلّق لهم وقربي، ونصحه ابنه تيم أن لا يستدعهم، ولم يستمع لنصحيته، وجاءوه وانتهت جماعتهم القيروان، وأضطرب إلى الانسحاب والالتجاء إلى المهدية لخلاصها قلاعها وأسوارها وكان قد دُرِّجَّ عليها، فاختنمتها قاعدة لما بقي من ملكة منذ سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م. ولم يقض هؤلاء الأعراب المهاجرون على دولة المز بن باديس وسلطانه فحسب، بل لقد قضوا على كثير من الزروع والمنشآت وأحدثوا كثيراً من الاضطراب والفوضى، ووقفوا - آل حين - النهضة المضمارية التي كان قد بثها الأغالبة في البلاد وفتحوا الدولة الصنابجية، وليس ذلك أيضاً فحسب، فقد تحولوا بإفريقية التونسية من نظام الوحدة السياسية إلى نظام التفرق والتشتت، فلم تعد لها دولة واحدة منظمة ترعى مصالحها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، بل أصبحت دولاً متفرقة أو قل وحدات صغرى من الدول، على نحو ما كان يعيش هؤلاء البدو في قبائلهم من انقسامها إلى عشائر، وكما أن لكل عشيرة شيخها وحياتها المستقلة، كذلك أصبحت إفريقية التونسية إفريقيات وتحولت مدتها إقطاعيات إمارات لنحو مائة عام ويلاحظ ذلك ابن خلدون قائلاً: «لما تقلب العرب على إفريقية وانحل نظام الدولة الصنابجية وارتحل المز بن باديس من القيروان إلى المهدية انتزى التوار في البلاد» وكُوِّنَ كل ثائر في بلد دولة أو إمارة صغرى وراثية. وهكذا تأسس في البلاد - على هدى نظام العشائر المتفرقة - نظام أمراء الطوانف، ولكن أمير بلاده أو إقطاعيته، وهو غالباً أمير أعراب ورث عنده أسرته إمارته، وذكر من أهمهم: بن الورد من لهم في بتزرت، وبن جامع من بن هلال في قابس، وبجانبهم أمراء بربزيون مثل بن الرند من مغارة الزنانية بقفصة وبق مليل من برغواطة بصفاقس، ومن أهم هذه الإمارات الصغرى إمارة تونس وكانت لبني خراسان. وبدون ريب أضعف هذا التفتت إفريقية التونسية، مما جعل

النورمان - كما مر<sup>٢</sup> بنا آنفا - يغزون المهدية سنة ٥١٧ هـ ويعيدون الكرة سنة ٥٤٣ هـ بقيادة روجار الثاني ويظلون بها نحو اثني عشر عاما ويسطونون على ساحل إفريقيا التونسية الشرقي ومدنه: قابس وصفاقس والمنستير وسوسة، وينزل روجار في قصور المهدية الشاغنة، ويتخذ فيها دواوين حكم تلك المدن وإدارتها إلى أن خلصتها دولة الموحدين سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ مـ. وكل ما حدث من ذلك إنما كان بسبب هجرة الأعراب الكبيرة إلى إفريقيا وما نشأ عنها من تفتت قواها في عهد إماراتها أو دولاها الصغرى، فإذا روجار الثانى ملك صقلية يغزوها ولا يجد على أسوارها من كانوا يحمونها ويتحقون أعداءها سحقا.

## ٥

**دولة<sup>(١)</sup> الموحدين - الدولة الحفصية****(أ) دولة الموحدين**

أنشأ هذه الدولة ابن تومرت المصلح الديق المغربي الذي زار المشرق وتلمنذ فيه على الأشعرية وغيرهم، ورَجَع إلى المغرب، فنظم فيه ثورة واسعة ضد دولة المرابطين المغربية وفقهائهم المالكية، وتبعه كثيرون، وسمى جمهورهم باسم الموحدين، وإليهم نسبت الدولة. وبدأ منازلة المرابطين سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ مـ غير أنه توفى سريعا فخلفه عبد المؤمن بن علي وهو بعد المؤسس الحقيقي لتلك الدولة، وقد استطاع القضاء على دولة المرابطين وأخذ يمتلك الأندلس منذ سنة ٥٤٠ هـ. وذكرنا - آنفا - أن الحسن بن علي آخر أمراء الدولة الصنهاجية استتجد به حين استولى منه روجار الثانى على المهدية وساحل إفريقيا التونسية الشرقي، وما إن علم بجلية الأمر حتى امتنأ غيظا ولباه بجيشه جرار سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ مـ ومضى يفتح مدن المغرب الأوسط: الجزائر وبجاية وقسنطينة وبعض مدن إفريقيا التونسية، وكان بنو خراسان يحكمون تونس ففتحوها عنده سنة ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ مـ ورافقه في هذه الرحلة أسطول كبير، وتقدم إلى المهدية وحاصرها بجندوه برا وبأسطوله بحرا، وطال الحصار إلى ستة أشهر، واحتلها عبد المؤمن يوم عاشوراء سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ مـ وأقطعها الأمير الحسن بن علي الصنهاجى وأشارك في حكمها أحد الموحدين. ونقل عبد المؤمن عاصمة إفريقيا التونسية منها إلى مدينة

الأعلام لابن الخطيب والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للناصرى وعصر المرابطين والموحدين لمحمد عبد الله عنان.

(١) انظر في دولة الموحدين البيان المغرب والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون والمن بالامامة لابن صاحب الصلاة والم Cobb للمراركش وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركتى وأعمال

تونس، وتنظر عاصمة للبلاد إلى اليوم ويقيم فيها دواوين الحكم، وبطريق فيها وفي ولايتها ما اخذه في دولته بالغرب من الترتيب المخزنية في تنظيمصالح الحكومية وظلت هذه الترتيب قائمة إلى نهاية حكم الدولة الحفصية، ويتوافق سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م وخلفه ابنه يوسف وتنظر إفريقية التونسية هادنة لعهده حتى إذا كانت سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م ثار عليه بنو الرندا فقصة بشط البريد فخرج إليهم وتقلب سريعا عليهم، وعاد إلى عاصمته: مراكش وتوفي سنة ٥٨٠ وخلفه ابنه يعقوب وكان من وزرائه الشيخ عبد الواحد جد الحفصيين، وكان تقي الدين بن أخي صلاح الدين الأيوبي فكر في الاستيلاء على ليبيا وإفريقية التونسية للاستعانت بها في حرب الصليبيين، وكلف بهذه المهمة قراقوش وابن قراتكين، واستولى الأول على مدينة قابس واستولى الثاني على مدينة قصبة، وفي هذه الأثناء فكر بنو غانية ولادة المرابطين في جزر ميورقة ومنورقة وباسبة أن يثأروا لدولتهم من الموحدين، وتسلل منهم إلى إفريقية التونسية على وأخوه يحيى يريدان أن يقبا فيها دولة ويعدا جيشاً للانتقام على الموحدين، وعلم يعقوب بما يحدث في إفريقية التونسية فخرج إليها في جيش جرار سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م وظل طوال طريقه يبني في سائر أعماله المارستانات للمرضى والمساجد للمصلين وانقض على قصبة وقتل ابن قراتكين كما انقض على قابس ولم يجد بها قراقوش واستولى على أمواله وأهلها مما اضطره إلى إعلان طاعته، أما ابنها غانية فحين علم بقدوم يعقوب انسحب إلى شط البريد وفيه لقى على مصرعه سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م. وعاد يعقوب إلى عاصمته، وأخذ ينهمك في الإعداد لموقعة الأرك التي سمع فيها سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م ملك قشتالة ألفونس الثامن ومن تجمع له من جملة الصليب الهولنديين والإنجليز، وازداد حينئذ عيش يحيى بن غانية واستول على شط البريد والقيروان وطرابلس وقابس وصفاقس وتونس، وتوفي يعقوب سلطان الموحدين سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م وتولى ابنه الناصر وظل يفكر في شأن يحيى ورأى أن يرسل جملة بحرية كبيرة إلى أخيه عبد الله في جزائر البليلار (ميورقة ومنورقة وباسبة) حتى يجتث جذور جرثومة الفساد واستولى عليها أسطوله سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م وصمم بعد ذلك على قطع فروع البرثومة في إفريقية التونسية واستتصال يحيى بن غانية، فخرج في جيش جرار ومهه وزيره أبو محمد عبد الواحد بن يحيى بن أبي حفص سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م وأوقع بيحني هزيمة ساحقة بالقرب من مدينة قابس، واسترجع مدينة المهدية وغيرها من المدن التونسية، وعاد إلى مراكش سنة ٦٠٣ واستخلف أبو محمد عبد الواحد بن يحيى بن أبي حفص على تونس (إفريقية التونسية) وطرابلس، وأخذ زمام الأمور بها يتجمع ويستقر في يده ويد أبنائه، وكأنما كان حكمه لتونس وطرابلس تمهدًا قويًا لقيام الدولة الحفصية، وقد نازل يحيى بن غانية في نواحي طرابلس وهزمه وفرّ جريحا.

(ب) الدولة<sup>(١)</sup> الحفصية

استقام حكم عبد الواحد في تونس وطرابلس وأخيه الناس وعظموا إلى أن توفى سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م وخلفه ابنه عبدالرحمن، وعزله سريعاً سلطان الموحدين وولى أخيه عبدالقادر، فعهد لأخيه أبي زكريا يحيى بحكم قابس سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٢م ولم يلبث أن غضب عليه ونهض لحربه، وخالقه بعض القواد، والتحقوا بجيش يحيى وقت له الفلة على أخيه، فدخل تونس سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م وبايته مجرد دخوله، وأخذ يعمل على الاستقلال بولايته وكان مما حفظه على ذلك أن أنهاء سلطان الموحدين بمقرب العظيم صاحب موقعة الأزرك وأبناء عمومتهم أخنوا يتشارعون على الملك والحكم وأخذت دولة الموحدين تضعف شيئاً شديداً وسرعان ما قطع أبو زكريا اسم سلطان الموحدين من خطب الجمعة وجعلها باسمه سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م وبذلك أعلن قيام دولة الحفصية واستقلاله ثانية عن دولة الموحدين. وفي سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م وقع مع فريدرิก الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة - تفادياً لغارات أسطوله على ساحل تونس - معاهدة اعترف فيها بملك فريدرick لجزيرة قوصرة (بنطلاية) بعد أن ظلت تابعة لإفريقية التونسية خمسة قرون وكان من شروط المعاهدة أن تظل الدولة الحفصية تأخذ نصف جيابتها وظل هذا الشرط سارياً طوال حياة أبي زكريا، وبحجرد وفاته انقض هذا الشرط وأجبر المسلمين فيها وفي مالطة وقليقية على الخروج منها جميعاً إلى الدولة الإفريقية، ومن يقى أجبر على اعتناق النصرانية. وظل أبو زكريا يتعقب يحيى بن غانيا حتى توفى في برية تلمسان سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م، وفي سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م بايعت تونس أبي زكريا ثانية، ويقال إنه أعلن حينئذ قطع اسم سلطان الموحدين من خطب الجمعة أو خليقتهم وذكر اسمه فيها. وكان بهذه قيام الدولة الحفصية إنما كان في سنة ٦٣٤هـ والرأي الأول أكثر سداداً.

وتعاظمت حالات نصارى الأندلس وأخذت مدنهم الكبرى تسقط في

وخلصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب وكتابه ورقات عن المضادة الغربية وتاريخ إفريقية في المهد الحفصي لروبرت تشيفيلد وراجع فيه خاصة علاقات حكام الدولة الحفصية مع أمراء وحكام صقلية وموانئ إيطاليا وفرنسا وأسبانيا.

(١) انظر في الدولة الحفصية البيان المغرب لابن عذاري وتاريخ ابن خلدون وعلم الإيجان للدباغ وابن تاجي والمؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار ورحلة التجاعي ورحلة البدرى والفارسية في مهادى الدولة الحفصية لابن قنفذ والخلل التنبية في الأخبار التونسية للوزير السراج

حجورهم فأرسل إليه زيان بن مرديش صاحب بلنسية سنة ٦٢٥هـ / ١٢٣٧ م وفدا يستجده لنصرته ضد أعداء الإسلام، كان فيه أبو عبد الله بن الأبار، وأنشده قصيدة فريدة منها قوله:

**أدركْ بخيكَ حَيْلَ اللَّهِ أندلسًا إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنْجاتِهَا تَرَسًا**

وليأهم بأسطول محمل بالأغذية والأسلحة، ووكلت في أيدي النصارى، وقد ابتلى جامع القصبة في تونس وصومعته ونقش عليها اسمه، وحين تُمْتَأْنَ فيها بنفسه، وأنشأ في قصره داراً للكتب جمع فيها ستة وثلاثين ألف مجلد في مختلف العلوم والأداب، وكان عادلاً حسن السيرة كما كان فقيها وشاعراً أبيضاً، وكان يأخذ نفسه بالتفتش والزهد في متاع الحياة، وجمع للدولة بعلمه وسياسته الرشيدة أمولاً طائلة، وأخذت تونس (إفريقية التونسية) تستعيد مجدها وشخصيتها القوية أيام الأغالبة والصهاجيين، ونفت سوق العلم والأدب وكفر الطباء والشعراء وتوفي أبو ذكري سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩ م.

وخلقه ابنه المستنصر محمد وكان أبوه عن بربريته قدْرُ أمور الدولة تدبيراً محكماً وانتشرت تونس في عهده. وما قضى الترار في بغداد على الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة العباسي سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨ م وأصبح المسلمون بدون خلافة وخليفة جاءته في سنة ٦٥٧هـ بيعة أمير مكة بالخلافة بإنشاء عبد الحق بن سعيد صوفى الأندلس، وكان جماعوا هناك فقرئت على الملأ واحتفل بها احتفالاً عظيماً، ومن حبيبه تلقب بأمير المؤمنين، وبايده بنو مرين يفاس، وفي ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩ م غرَّت الأمانى لويس التاسع بعد تكبيل مصر به وبحملته المشهورة، فقد حللة كبيرة هاجم بها تونس براً وبحراً، وحاصرها ستة أشهر، ودُفِنَ تحت أسوارها، وعادت الحملة مدحورة إلى البحر المتوسط وما وراءه، بعد أن أغمرها المستنصر مالاً كثيراً، ومن أعماله الجليلة بناء المنيايا التي كان يجري علىها الماء إلى مدينة قرطاجة من زغوان في أيام الرومان وأصلح ما أفسده الزمن منها، ومُدِّها في تونس إلى السقايات المختلفة: جامع الريونة وغيره، وازدهرت الحياة والحضارة بتونس لهذه ازدهاراً عظيماً، وتوفي سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٦ م وتولى بعده ابنه يحيى الواقع، ومُدِّها في تونس إلى أزمة الحكم، وخرج عليه في سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢ م ناصر يسمى أحد بن مرزوق المسيل أدعى أنه الفضل ابن أمير المؤمنين الواقع بن المستنصر، وتمكن من الاستيلاء على تونس بمساعدة أغراب قابس الملايين، وبعد ستة ونصف من حكمه تصدى له الأمير عمر أخو الواقع وجمع له جيواً سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤ م وقبض عليه وقتله، وتولى شتون الحكم، وسرعان ما خرج عليه بالجزائر ابن عمه يحيى بن إبراهيم واستقل ببيجاية وقسنطينة، وتوفي عمر سنة ٦٩٤هـ / ١٢٠٤ م وخلفه أبو عصيدة محمد بن الواقع وحاول استرجاع القسم الشرقي في الجزائر وأخفق، وتوفي سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩ م دون عقب واضطررت

الأمور في تونس، واستطاع أبو يحيى ذكريا بن اللحياني أن يستولى على زمام الأمور سنة ٧١١هـ/١٣١١م وكان شيخاً كبيراً، فتخل عن الحكم لابنه أبي ضربة، وحاربه أمير قسنطينة الحفصي أبو بكر سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م وهزم وقبض على صولجان الحكم في تونس وتلقب بالمتوكل على الله، وخرج عليه بعض الأمراء من أسرته وأمدهم بنت زيان أمراء تلمسان من بي عبد الواد، فأصهر إلى سلطان بي مرين في المغرب الأقصى، وهاجم معه ديار هذه الإمارة أو المملكة سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م واقتسمها فيما بينها. وصفا له الجبو حتى وفاته سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م وأخذ يعني بالحركات العلمية والأدبية وازدهرت لعهده، كما عنى بشئون الزراعة والصناعة والتجارة، فازدهرت جيماً، وما يدل على هذا الازدهار ما ذكره المؤرخون من أن عدد دكاكين العطارين وحدهم في أيامه بلغ في تونس سبعمائة دكان، وبوبع بعده لابنه أبي حفص الثاني، وثار عليه أخيه أبو العباس، وانتهز السلطان المريني أبو الحسن فرصة هذه الفتنة فاتجه في جيش جرار إلى تونس سنة ٧٤٨هـ وفتck بسلطانها أبي حفص، واستقام له ملك المغرب الأوسط، والأدق لمدة ستين ونصف، غير أنه لم يحسن السياسة مع الأعراب كما كان يحسنها سلاطين تونس فثاروا عليه ونالزوه في تونس وهزموه، وجاءه الخبر بأن ابنه أبي عنان نار عليه في مراكش، فعاد سريعاً إلى عاصمه سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م، وعادت تونس للحفصيين، وتولى زمام الخلافة والحكم الفضل بن أبي بكر الحفصي، ودبر له الحاجب القديم الشريэр ابن تافراجين مؤامرة قُتل فيها، وتولى أخيه أبو إسحاق إبراهيم سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م وأخذ ابن تافراجين حاجبالة، واضطربت عليه الأمور إلى أن توفي ابن تافراجين سنة ٧٦٦هـ ولم يلبث أن توفي سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م. واستولى على زمام الأمور في تونس أبو العباس أحد الحفصيين سنة ٧٧٣هـ/١٣٧٠م وهو من خيرة الحكام الحفصيين قمع الأعراب وأهل الفساد، واسترجع ما خانع من الدولة في أثناء الفتنة مثل المهدية وسوسنة وقابس وشط الجريد وجزيرة جربة، وسد الأمن والعدل فازدهرت البلاد. وفي أيامه غزا الجنوبيون والفرنسيون المهدية في ثمانين قطمة، ودافعهم عنها جيشه وردهم على أعقابهم خاسرين، وتوفي سنة ٧٩٦هـ/١٣٠٢م بعد ما أعاد لتونس ما كان لها من هيبة وقوة.

وخلفه ابنه أبو فارس عبد العزيز، وفيه يقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب: «هذا السلطان درأ عقد الدولة الحفصية وغفر من مفاخر البلاد التونسية، سار بعدل وتدبر وسياسة، فازدهرت إفريقية (التونسية) في أيامه، وبلغت شأوا بعيداً في الثروة والصرمان». وقد بدأ عهده بإخضاع طرابلس وقابس وفقصة والجريد وبسكرة والصحراء، وكان بنو سليم قد أكثروا من الثورات فقلّ أظفارهم، واستنصرخوا سلطان فاس المريني بالغرب الأقصى فأرسل لهم جنوداً من عنده وانضم إليهم أمير بجاية الحفصي ابن أبي ذكريا، واتجهوا بجموعهم إلى تونس سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م فهزتهم وقتل الثائر الحفصي، وصم على الثار من السلطان المريني،

فلا شارف عاصمته «فاس» أرسل إليه بالطاعة، فعفا عنه ونصحه أن يحكم بالعدل الذي لا تستقيم حياة الرعية بدونه. ورجع إلى عاصمته بعد أن دان له شمال إفريقيا بالسمع والطاعة. وفي سنة ١٤٣٢هـ/٨٣٥هـ احتل ملك أرجنون جزيرة جربة وأنجدها ولاذ المحتلون بالفرار. وقد أنشأ طائفة من القلاع والمحارس لحماية السواحل والغور، وبني مارستانًا للمرضى والمعجزة، وأنشأ لنفسه قصراً بضاحية باردو في تونس وأحاطه بحدائق بدعة وشيد فيه خلفاؤه المفضيون والمشانيون قصوراً وحدائق أنيقة. ومن مآثره الجليلة تشييد مكتبة لطلاب العلم في أحد أروقة جامع الزيتونة إلى الشمال وجمع لها آلافاً من المجلدات وقفها عليها، وقد نُحي عن كاهل الشعب كثيراً من الضرائب الفادحة وبسط العدل والأمن، وتوفي سنة ١٤٣٤هـ/٨٣٧هـ.

وتولى بعده حفيده محمد المتتصر، وأنشأ مدرسة سميت المدرسة المتتصرية، وبني زاوية الشيخ الصالح أحد بن عروس وتوفى بعد عام وشهرين، وخلفه أخوه أبو عمرو عثمان سنة ١٤٣٩هـ/٨٣٩هـ وظلّ العدل والأمن والاستقرار الرعية طوال حكمه الذي امتد إلى نحو أربعة وخمسين عاماً إذ توفي سنة ١٤٨٨هـ/٨٩٣هـ وقد قمع ثورة أبي الحسن في قسطنطينة وبجاية، وثارت عليه تلمسان وأعادها إلى طاعته، وكان أخوه المتتصر توفي ولم يكمل مدرسته المتتصرية فأكملها، وشيد لنفسه مدرسة كبيرة جعل فيها مسجداً للصلوة وغرفاً للدراسة ومساكن للطلبة وسمطاً يمتد كل يوم للقراءاء، ووقف عليها ما يكفيها ويكتفى منها من العلامة والطلبة، وبين ثلاثة مكاتب لقراءة القرآن، وعُنِي بإنشاء مكتبة عمومية في أحد أروقة جامع الزيتونة، وأتتها بعده حفيده أبو عبد الله محمد، ونسبت إليه فسميت العبدية. ومن حسناته كتابة مصحف بخط يده في عدة أسفار جعله بجانب نسخة البخاري التي وقفها أبوه في جامع الزيتونة. وخلفه حفيده أبو زكريا، لمدة ست سنوات، ووليهما بعده أخوه أبو عبد الله محمد الذي أتمَ المكتبة العمومية التي ابتدأها جده كما أسلفنا.

وكانَ الدولة الشامية قد عظم شأنها وأصبح لها أسطول ضخم ينافس الأسطول الإسباني أقوى أساطيل أوروبا حينذاك في البحر المتوسط، وكان لها أميران من أمراء البحر هما الأخوان: عُرُوج وخير الدين ويسمه الإفرنج ببروسه، وكانتا يستغلان بالقرصنة لحساب الدولة الشامية، وتقديماً إلى الأمير أبي عبد الله محمد المفضي المذكور آنفاً طالبين منه الموافقة على أن يتخذَا من جزيرة جربة قاعدة لأعمالها البحرية ضد السفن الإسبانية لتخلص مدينة الجزائر من احتلال الإسبان على أن يكون له المنس من غنائمها، وقبل منها هذا المرس، وظل ذلك مدة، وحدث أن استطاع عُرُوج وخير الدين تخلص مدينة الجزائر فعلاً من يد الإسبان واتخذَاها منذ سنة ١٥١١هـ/٩١٦هـ قاعدة لأعمالها البحرية واستغفلاً عن جزيرة جربة التونسية. وكانت الدولة التونسية قد أخذت في التدهور والضعف الشديد لعدم الأمير أبي عبد الله محمد، ورأى

ذلك خير الدين رأى العين، وتوفى الأمير أبو عبد الله سنة ٩٣٢هـ/١٥٢٦م وخلفه ابنه الحسن فرأى خير الدين أن يزحف إلى تونس من الجزائر، ويضمها إلى الدولة العثمانية كما ضم إليها الجزائر، وزحف إليها فعلاً واستولى عليها سنة ٩٣٥هـ/١٥٢٩م فلماًً الأمير المفضي الحسن إلى كارلوس الخامس ملك إسبانيا، فرأها فرصة عظيمة، وقدم معه سنة ٩٤٣هـ/١٥٣٧م ودخل مع الحسن تونس عنوة، وفرَّ خير الدين بجنده إلى الجزائر وأذنَّ كارلوس بجنده بهبَّ تونس، فاستباحوا حماها، وأجلس الحسن على عرشها وأشرك معه في الحكم أحد قواده، وعقد معاهدة معه بمقتضها يتنازل للإسبان عن بعض المدن التونسية سوى ما اشترطه عليه من دفع أموال باهظة سنوياً، وثار على الحسن ابنه أحد حاكم عنابة (بونة) وانضم إليه كثيرون. وبعد قتال عنيف استولوا على تونس وسلموا عين الحسن، فقد بصره وفر إلى القيروان وتولى ابنه أحد مكانه، واستولى الإسبان على المهدية والمستير وجزيرة جربة والقيروان وكان أهل طرابلس قد استغاثوا بالدولة العثمانية فأذاحت عنهم فرسان مالطا كما ذكرنا في حديثنا عن ليبيا. سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م بفضل أسطول درغوت الذي كان مرابطًا أمام الجزائر، وقد استطاع أن يفك المهدية والقيروان وجربة والمستير من أيدي الإسبان وأقام بكل منها حامية عثمانية وناتبا، وكان خير الدين (بر باروسة) قد حررَ الجزائر من الإسبان وأصبحت ولاية عثمانية، فأرسل الأمير أحد المفضي إلى واليها سنة ٩٧٧هـ/١٥٧٠م أحد وزرائه يستجده به ضد الإسبان، فانتهز الفرصة وقدم بعيش استولى به على تونس وأخذ البيعة فيها للسلطان العثماني، فارتُكَّ الأمير المفضي أحد بالإسبان أعدائه فأعادوا الحماية وعرف الأمير أحد خطأه، فترك الحكم لأخيه محمد سنة ٩٨٠هـ/١٥٧٣م ورحل إلى صقلية وظل بها إلى مماته، وخضع محمد للحماية التونسية، وأشرك الإسبان في الحكم الكُنْت سِرْتُلُونَ وازدادوا عسفاً وعنتاً، وتكررت استغاثة الوزير سنان باشا، ففتكت بالحماية الإسبانية فتكاً ذريعاً وطرد بقيتهم من البلاد إلى البحر المتوسط وما وراءه، وأرسل بالأمير المفضي محمد إلى الأستانة فظل معتقلًا بها إلى وفاته. وبذلك انتهت الدولة المفضية بعد أن حكمت تونس نحو ثلاثة وخمسين عاماً.

## العهد<sup>(١)</sup> العثماني

كانت فاتحة أعمال سنان باشا بعد تحريره القطر التونسي أن أعلن إلحاقه بالدولة العثمانية، فأصبحت إحدى ولاياتها في إفريقيا الشمالية المتدة من مصر إلى الجزائر، وأخذ يرسى النظام الذي سيقوم على أساس الحكم في تونس، فنظم الديوان الذي تجتمع فيه الهيئة الحكومية للنظر في شئون الجندي والولاية، وقُرر الرواتب، ورتب جلية الأموال مشرقاً باسم البالى، وجعل للبلاد حامية عسكرية عداتها أربعة آلاف جندي من الإنكشارية، وهم جند الدولة الذين كانت تربيتهم تربية إسلامية عسكرية، وكانت تجلبهم من الأناضول ومن سياياها في أوروبا، وجعل على كل مائة منهم أميراً يسمى «الدای» وجعل عليهم رئيساً هو الأغا، وانتخب بعض الأعيان من البلاد لمشاركة الديوان في الحكم، وضرب السكة باسمه. ولما أنهى كل هذه الترتيبات وخطب الخطباء في تونس باسم السلطان العثماني عاد إلى إسطنبول دار دولته وحكومته. وعيّنت إسطنبول لتونس والباي بلقب باشا، ولم يلبث الديّات أن شفوا على الوالى سنة ١٥٩١هـ/١٩١٩م واتفق الرأى على اختيار أحدّهم ليكون له الرأى النافذ في شئون الإنكشارية، وسرعان ما أخذ هؤلاء الديّات يتسلّطون على الحكم في تونس ويعينون الوالى منهم وتضطر الدولة إلى قبول الواقع، وأول داي منهم تولى شئون البلاد عثمان داي، وكان من خيرة الجنديّين رافقوا سنان باشا، وقد تولّاها سنة ١٤٠٧هـ/١٥٩١م فسّن قوانين وطلّ بها الأمن والعدل في البلاد، وأشرف على الفرستة في البحر المتوسط وعظم حظ تونس من غنائمها الواقرة، وفي أيامه سنة ١٤١٦هـ/١٦٠٩م أخرج الإسبان من بقى بدیارهم من الأندلسين إلا من تنصر أو ظاهر ينتصره، فهاجر منهم ألف إلى تونس، وأكرّهم عثمان داي، إذ أقطع ذوى اليسار منهم ما اختاروه من الأراضي ووزع على المحتاجين منهم الأموال والنفقات فانتشروا في أرجاء البلاد وأخذوا يؤمنون فيها الدين والقرى وينشئون المصانع والمزارع والبساتين، وبذلك أحدثوا في إقليم تونس نهضة عمرانية وصناعية وزراعية، ويقال إن

ورحلق العيashi والناصرى ودائرة المعارف الإسلامية في مادة تونس وما يجاورها من مراجع تاريخية عن المصدر التركى وخلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب.

(١) انظر في العهد العثماني بتونس كتاب المؤمن في أخبار إفريقيا وتونس لابن أبي دينار وال محلل السنديسة في الأخبار التونسية للوزير السراج وذيل مشايخ أهل الإيجان بفتورات آل عثمان لمolin خوجة تحقيق الطاهر المعموري (طبع تونس)

المهاجرين منهم في عهد عثمان داي كانوا يبلغون ثلاثين ألفا، ولم يليث أن ترقى سنة ١٦١٩هـ / ١٧٥١م ودفن بزاوية ابن عروس. وخلفه يوسف داي، واستمر نزول المهاجرين الأندلسيين في البلاد وأقاموا عليها عمراًانا وفيراً، وقد استرد جزيرة جربة من والي طرابلس العثماني، واتفق على تسوية الحدود بين تونس والجزائر، ومن أعماله إنشاء جامعه الكبير ومدرسة سميت المدرسة اليوسفية نسبة إليه، وتنظيمه أسواق المتأجر، ونشط الأسطول التونسي لأيامه بقيادة قبطانه مراد، ويقال إنه غنم في إحدى غاراته البحرية تسعين سفينه.

وتوفي يوسف داي سنة ١٦٣١هـ / ١٧٥٠م وخلفه القبطان مراد رئيس البحر، وفي أيامه تعمقت تونس بحياة رغدة آمنة فأحبه الناس، وعمل على أن تظل ولاية تونس في بيته فتازل عن الحكم لابنه حودة، وأقرت الدولة العثمانية صنيعه، وبذلك أصبح حكم تونس وراثياً في أسرته، وكان عهده وعهد ابنه حودة عهداً هنيناً في تونس واستطاعت كتبية الصبانجية أن تقضى على المصايف قضاء نهائياً في عهد حودة فأمنت السبيل وعاش الناس في اطمئنان سابق أو غامر في جميع أنحاء الإقليم، ومن أعماله بناء جامع بديع بجوار زاوية أحد بن عروس وصومنة أنيقة جامع الزينة ومارستان للمرضى، وعُنى بقصور الحفظيين في باردو. واشتهرت زوجته عزيزة حفيضة الداي عثمان بأعمال بر كثيرة، من ذلك أنها حبست وفناً كبيراً على مارستان كان خاصاً بمرضى الأعصاب، ولذلك سمي دار الدراوش، ومن الطريف أنها خضت قساً من الوقف بالعود والرباب والضاربين عليها تروحاً لأولئك المرضى، وبذلك سبقت الطب الحديث إلى تبيان تأثير الموسيقى في مداواتهم وتهذبهم. وتوفي حودة المرادي سنة ١٦٦٦هـ / ١٨٠٧م وخلفه ابنه مراد وكان حسن السيرة وقبضاً بقوة على زمام الأمور، وسمع بأن جنود الإنكشارية في طرابلس قتلوا الوالي فذهب إليهم ونكل بهم، وأجلس ابنه له في عمله. وتوفي سنة ١٦٧٦هـ / ١٨٠٦م، وولى بعده خلف سه شاع في أيامهم البغي والظلم، وتنازعوا في الاستيلاء على الحكم واستعن بعضهم بالجزائر، ودخلت جنودها تونس غير مرّة، مما جعل الداي إبراهيم الشريف يفتاك باخر أمرائهم سنة ١١١٤هـ / ١٧٠٣م. وبذلك انفرضت الدولة المرادية، وعادت الجزائريون الكرة على البلاد التونسية، وهزموا إبراهيم الشريف.

وجزع أهل الحال والعقد في تونس من الشوخ وغبرهم، واتفقت كلمتهم على إسناد الدولة للباي حسين بن علي وكان قد تقلد وظائف حربية وإدارية مختلفة للأسرة المرادية، ولم يجد بدا من النزول على رأيه وإرادتهم. وفرح به أهل تونس وبابيعه في ربيع الأول سنة ١١١٧هـ / يوليه ١٧٥٥م. وبدأ أعماله بإصلاح سور تونس وتحصين قلاعها، ولم يليث الجيش الجزائري أن خيم بالقرب من تونس فدارت الحرب وثبت التونسيون، وتقهقر الجزائريون إلى بلادهم. وأخذ الإقليم التونسي يعيش في أيامه حياة رغدة آمنة وانتعشت المزارع والمتأجر والمصانع، وأخذ يعني بإنشاء المدارس، فأنشأ في تونس مدرستين كما أنشأ مدرسة في كل من

القيروان وسوسة وصفاقس ونقطة، واخذ قصر باردو مقراً لحكومته وبين به قصراً ومسجداً. ورضيت عنه الدولة العثمانية فجعلت ولاية تونس وراثية في أسرته، ولم يكن له ولد في أول أمره فتبني ابن أخيه علي بن محمد، وعُيّن بتربيته وجعله ولباً لمهدده ثم رزق بابنه محمد وعلى، فنتقل ولاية العهد منه إلى ابنه محمد الرشيد وجلب لعل ابن أخيه من الدولة العثمانية لقب الباشا، ولكن علياً ظل غاضباً، ووصل إلى الجزائر، فشجعه حاكماً العثماني على مقاومة عمه وأمده بجيش جرار، زحف به إلى الإقليم التونسي والتقي بجيش لعمه وانتصر عليه سنة ١١٤٧هـ/١٧٣٥م ودخل تونس وتقلد شعار الولاية، وأصبح تابعاً لوالى الجزائر العثماني يُؤدي إليه المزاج، أما عمده حسين باي فإنه نجا مع ابنه إلى القيروان وأخذ يعد جيشاً للقاء ابن أخيه حتى إذا كانت سنة ١١٥٣هـ/١٧٤١م التقى الجيشان جنوبي القيروان ودارت الدوائر على جيش حسين وقتله في المعركة. وأصبح على والياً لتونس دون منازع. وكان البحارة الجنوبيون يقيمون في مرسى طبرقة بالشمال الغربي للقطر التونسي، فبعث ابنه يوسف على رأس جيش شردهم كما شرد فرنسيين في قرية بجوارهم أقاموا بها مراكز تجارية. وحدث شغاف بين الآباء وأبيه، وتحارباً ودارت الدوائر على ابنه. وكان على باشا متعمقاً في الدراسات اللغوية، وله شرح كبير على كتاب التسهيل لابن مالك في النحو، وجمع في قصر باردو مكتبة نفيسة، وأنشأ أربع مدارس بعاصته: الباشية نسبة إليه والسليمانية ومدرستي بير الحجاز، وكان راعياً للأدباء والشعراء من أمثال علي الغراب ومحمد الورغى. وكان ابنه عمده حسين قد فرّاً بعد مقتل أبيهما إلى الجزائر مستتجدين باليها التركى، وظلا هنالك ستة عشر عاماً استطاعاً في نهايتها أن يقتما الوالى التركى بأن يرسل معها جيشاً لنصرتها على ابن عمها وأخذها بثارها، وأرسل معها جيشاً جراراً، حاصرها به تونس، ودافع ابن عمها على دفاعاً مستعيناً سنة ١١٦٩هـ/١٧٥٦م وخرّ صريحاً في المعركة.

وتربع ابن عمده محمد الرشيد على كرسى تونس، وكان مولعاً بالموسيقى والتلحين والضرب على مختلف الآلات، فترك تدبير شئون الدولة لأخيه علي، ولم يثبت أن توفى سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٩م وخلفه أخوه علي واهتم بتعضيد التجارة والزراعة والصناعة، وانتشر في القطر الأمن. وأنشأ في تونس محكمة شرعية ومدرسة لقبت بالجديدة، كما أنشأ تكية للضعاف والمجذة من الرجال والنساء، ولما تم بناؤها وأخذت تقدم الفداء للمحتاجين قاد إليها جماعة من المُعنى فاقدى البصر وجلس معهم وأطعمهم بيده. وحدث في أوائل حكمه سنة ١١٨١هـ/١٧٦٨م أن ألحقت فرنسا جزيرة كورسيكا بمتلكاتها فلم تصادر الحكومة التونسية على هذا الإلحاد ولا اعترفت بالجنسية الفرنسية لأسرى تلك الجزيرة من جملهم إلى تونس أمراء البحر المتوسط وقراصنها، وأعلنت فرنسا الحرب على تونس وأطلق أسطولها قنابل على ثغور المنستير وسوسه وحلق الوادى وبنزرت وبعد اتصالات أُبرم الصلح بين فرنسا وتونس

باردو سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م. ولما تقدمت به السن ووهن منه الجسم أشرك ابنه حودة معه في الحكم، وكانت الدولة العثمانية في ذلك فوافقت، وتوفى سنة ١١٩٦هـ/١٧٨٢م. وخلفه ابنه حودة، وكان أبوه قد عُنِّي بتربيته وإعداده لإدارة الحكم والدولة إدارة سديدة وفي عهده استأجر بحارة تونسيون من بعض بعارة البندقية سفينته لحمل بضائعهم من الإسكندرية إلى صفاقس، وعرج بهم البحارة على مالطة، فقبضوا إليها على التونسيين وزوجُ بهم في السجن بحجة ظهور وباء فيهم وأمر بإحراق ما معهم من السُّلْم. وعاد التجار التونسيون إلى العاصمة تونس، وتظلموا بحودة، فطلب من نائب جمهورية البندقية أن تؤدي جهوريته قيمة ما ضاع على التجار التونسيين بمقتضى القانون التجاري، وأفضى هذا النزاع إلى إعلان تونس الحرب على البندقية سنة ١٢٠٤هـ/١٧٩٠م وجهزت لذلك أسطولها، ورضيت البندقية بدفع الغرامة وانعقد الصلح بين الحكومتين. وفي سنة ١٢٠٩هـ/١٧٩٥م وفدى على تونس والي طرابلس على القرمانلي فراراً من ثورة لعل برغل فيها، فأحسن استقباله حودة، وكان على برغل قد استولى أيضاً على جزيرة جربة التونسية، فأرسل إليها حودة الأسطول التونسي فاستردها بمجرد ظهوره أمامها، وأرسل أحد قواده على رأس جيش مع والي طرابلس فدحر على برغل وأقرَّ عليها على القرمانلي، وعاد الجيش ظافراً منصراً. ونشبت الحرب بينه وبين الميزار سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٧م وكانت لهم الجولة الأولى وأعاد حودة الكرةً وانتصر جيشه انتصاراً ساحقاً. وكل ذلك يدل على أن تونس حظيت في عهد حودة بمكانة دولية كبيرة.

وقد عم فيها الرخاء والأمن ونشطت الزراعة والصناعة والتجارة بها نشاطاً كبيراً إلى نهاية حكمه سنة ١٢٢٩هـ/١٨١٤م وكان معاصراً لنزول المهملة الفرنسية مصر وانتصار المصريين عليها انتصاراً حاسماً سنة ١٢١٥هـ/١٨٠١م وهو انتصار هز العرب في جميع بلدانهم هزة عنيفة جعلتهم يستيقظن من سباتهم الطويل ويستشرفون عصرهم الحديث مستশرين فيه كيانهم وهو ينتهي المربي الإسلامية، ونرى البالى حودة يستشعر - بقوه - شخصية تونس ومحاول - جاداً - أن يعيد إليها قواها التي طمرها العثمانيون حقباً متواالية، فيأمر بتجنيد التونسيين وإشراكهم في الجيش والحكم مع الترك أو الحامية التركية، وضرب للتونسيين بنفسه مثلاً وطبيعتها متبايناً بذلك مفاخرًا، وبذلك ابتدأ الداي حودة ببلده العصر الحديث في القرن التاسع عشر بدءاً قوياً سديداً.

# الفصل الثاني

## المجتمع التونسي

### ١

عناصر<sup>(١)</sup> السكان

البربر هم العنصر الأول الذي سكن القطر التونسي وعمر أرضه أجيالاً وقرونا قبل أن ينزله عناصر جدد، واختلف المؤرخون في أصلهم ونسبهم، فقيل هم إفريقيون أصلاً وموطناً وقيل بل هم آسيويون، فمن قائل إن أصلهم من اليمن، ومن قائل إن أصلهم من الصالباق انتقلوا من ديار الشام إلى إفريقيا، ومن قائل إنهم أخلاط من كنعان والعمالق، ومن قائل إنهم من عرب الشمال من ولد قيس بن عيلان، ومن قائل إن جدهم مازيق كان أخاً لفلسطين وأن أبناءه بارحوا الشام واخترقوا مصر إلى إفريقية، ومازيق كان ابن كنعان بن حام، وهو بذلك حاميون لاساميون، وبعلق ابن خلدون على هذه الآراء وما يائتها في بيان نسب البربر بأنها «أحاديث خرافية إذ مثل هذه الأمة (البربرية) المشتملة على أمم وعوالم ملأت جانب الأرض (المغاربية) لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر حصور، والبربر معروفوون في بلادهم وأقاليمهم متميرون بشعاراتهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام، فما الذي يحوجنا إلى التعلق بهذه الترهات في شأن أوليائهم ولا يحتاج إلى مثله في كل جيل وأمة من العجم والعرب». وبصيف ابن خلدون إلى ذلك قوله «إن نسبة البربر يزعمون في بعض شعوبهم أنها من العرب مثل لواحة يزعمون أنها من حمير، ومثل هوارة يزعمون أنها من كندة ومثل زناتة يزعمون أنها من بقايا التابعة.. وهذه كلها مزاعم، والحق الذي شهدت به الرطانة والمعجمة (في ألسنة البربر) أنهم بعزل عن العرب». وابن خلدون يحقق في وصف ذلك كله بأنه مزاعم وترهات، إذ لا حاجة للبربر بذلك كله، إذ هم شعب عريق أصيل مضاء لشعوب العالم العربيقة الأصيلة مثل

عبد الوهاب: الجزء الثالث، والمغرب الكبير لرشيد الناظوري: الجزء الأول، كذلك تاريخ المغرب الكبير لدبور وبرنسفيلك ٣١٣/١ وما بعدها.

(١) انظر في عناصر السكان بتونس الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون، وكتاب ورقات عن المضمارية يا فريقيبة للأستاذ حسن حسن

العرب والمصريين والقرس والروم. أما تسميتهم باسم البربر فالظنون أن الرومان - وربما اليونان - هم الذين أطلقوا عليهم أخذًا من الكلمة الإغريقية *Barbarus* ومعناها الأجنبي الذي يرطن بلغة غير مفهومة، إذ كانت لغة البربر - بالنسبة للرومانيين واليونان - أصواتاً مبهمة، والكلمة بهذا المعنى الإغريقي تلتفى بمعنى البربرة في العربية وهو الشتمة بالكلام بحيث لا يفهمه السامع.

وظل البربر لا يتصلون بالشعوب القديمة آمادًا طويلة حتى إذا كان القرن العاشر قبل الميلاد أو قبله أو بعده بقليل كان فينيقيون من سكان لبنان - وكانوا شعبًا ملحيًا - يجوبون الساحل الإفريقي بحثًا عن مواضع يتداولون فيها سلعهم وعرضهم مع البربر، وأعجبتهم تونس، فنزلوا بها، ومع مرّ عشرات السنين اختنوا لأنفسهم فيها موطنًا ومركزًا لتجارتهم، إذ أسسوا فيها مدينة قرطاجة بالقرب من مدينة تونس الحالية، واستوطنها كبير من أسرهم الفينيقية، وأنشأوا بها دولة وجيشاً منهم ومن البربر، وقد امتهنوا بهم وصاهر وهم وعلموهم الملاحة والتجارة وتبادل السلع وفلاحة الأرض وغرس الأشجار، ونقلت إليهم قوافلهم المتعمرة في السودان كثيرًا من الزنوج، وفسحوا لبعض اليهود في النزول بعدينتهم. وبذلك أصبح يوجد فيها لمهدهم أربعة عناصر من السكان: عنصر بربرى من سكانها الأولين وعنصر فينيقى وعنصر زنجي وعنصر يهودى، ويدور الزمن وتستولي روما على قرطاجة، وتبقى من أنقاضها قرطاجة جديدة، وتستوطنها أسرُّ رومانية كبيرة، وتضيف القوافل زنوجًا جدًا كثيرين إلى البلاد، ويفد عليها منذ سنة ٧٠ للميلاد بعد تحطيم الإمبراطور تيتوس لمعبد بيت المقدس أسر يهودية كبيرة، ويدور الزمن دوره ثانية وتستولي جموع الوandalus على تونس سنة ٤٣٩ للميلاد، ويظلون بها حتى سنة ٥٣٤ مضيفين إلى البلاد عنصراً ألمانيا جديداً، وخلفهم البيزنطيون حتى سنة ٦٤٧ مضيفين بدورهم العنصر البيزنطي الإغريقي.

ثم يكون الفتح العربي، وتظل تتمم إلى القطر التونسي جيوش لإكمال الفتح أو للقضاء على بعض التورات طوال القرن الأول الهجري، وتخدم ثورات البربر ضد الإسلام والعرب، وتشتعل في القرن الثاني ثورات المخواج من البربر. وتظل الدولتان الأموية والعباسية ترسلان الجيوش لإخادها، وكثير من جنود هذه الجيوش استقر في إفريقية التونسية وأصبحت مستقرة له منذ أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان في سنة ٥٠ هـ/٦٧٠ م فقد سكناً بعض الجنود الفاتحين وأسرهم واحتذوا موطنًا لهم ومقراً. وأخذ كثير من جنود هذه الجيوش يسكن في بعض بلدان تونس عملاً على نشر الإسلام والربية. وكانت هذه الجيوش تضم عناصر من العرب ومن البلاد الإسلامية المفتوحة: إيران وسكان الرافدين في العراق والشام ومصر وكل هذه العناصرأخذت تتزوج بالبربر في تونس امتزاجاً سريعاً بحكم ما يجمع بينهم من الدين واللغة.

ولم تشارك مصر في هذا الامتzaج بين كان ينتظم منها في الجيش العربي فحسب، بل شاركت أيضاً في عهد حسان بن النعمان سنة ١٩٥هـ/١٩٧٦ م بالآف أسرة قبطية طلبها للمساعدة في تأسيس دار صناعة لسفن أسطوله الذي سيحملها سواحلها ويفزو جزر البحر المتوسط، وجاءته وزوجها بين تونس ورادس وقرطاجة، ومنذ إبراهيم الأغلب يستكثرون الأغالبة في المرس من الصقالبة، وأيضاً من الزنوج، وكانوا لعهد إبراهيم أكثر من خمسة آلاف، ولكرة خيرات تونس وطبياتها وحسن معاملة الإسلام للنصارى واليهود ظل ينزلها منها كثيرون.

وفي منتصف القرن الخامس الهجري تدخل القطر التونسي جموع المجرة الأعرابية التي تحدثنا عنها في الفصل الماضي، والتي كانت تبلغ - فيما يقال - نحو نصف مليون، ولا بد أن جاهير كبيرة منهم ألقوا عصاها بتونس وبلدانها وسهولها وزروعنها حتى لقد أصبحت بلدان مختلفة على الساحل وفي الداخل بأيديهم. وحقاً سبّبت هذه المجرة الكبيرة غير قليل من الاضطراب في البلاد والغوصى، ولكن ربّ نفحة سبّبت نعمة، فإن هذه المجرة أتت بسرعة تعريب البربر والشمال الإفريقي المغربي جميعه، فإن من كانوا يستقرون في البلاد المغاربية من الجيش العربية الفازية في القرنين الأولين الهجريين كانوا قلة بالقياس إلى جموع البربر المديدة، ولذلك كان تعرب البربر بطيناً، حتى إذا حدثت هذه المجرة تعرب البربر نهايًا وأصبحوا شعباً عربياً، إذ امتهنوا بالعرب معيشة ومصاهرة، حتى أصبح لا يوجد فرق بين عربي وبربر، ويصور ذلك ابن خلدون في قبيلة هوارة قائلاً: إنهم صاروا في عدد الناجحة (الرعاة) بني سليم في اللغة والزي وسكنى الحيام وركوب الخيل وكسب الإبل ومارسة المزروع». وهكذا الأعراب مع البربر في كل أرجاء المغرب، وفي الحق أن هذه المجرة الأعرابية الضخمة لم تكن عنصراً جديداً أضيف إلى ما كان بتونس من عناصر، بل كانت شعباً أضيف إلى شعب واندمج فيه وأصبح الشعوب شعباً واحداً. ويستولى التورمان على صقلية سنة ٤٨٤هـ/١٠٩٢ م.

ويعود إلى تونس كثرة من أبنائها الصقليين ولا تكاد توسم الدولة الحفصية حتى تحدث نكبة الأندلس الكبيرى نكبة سقوط مدنهm في حجر الإسبان النصارى واحدة إثر أخرى، ويأخذ الأندلسيون في المجرة إلى المغرب الأقصى، ويتجهون كثيرون منهم إلى تونس، ويرحب بهم مؤسس الدولة أبو زكريا وابنه المستنصر، ويفسحان لعلمائهم وأدبائهم في المركبين الأدبية والعلمية، كما يفسحان للزراعة وأصحاب الصناعات منهم، وتأخذ أعدادهم في التزايد طوال القرن السابع الهجرى، وخاصة مع سقوط البلدان الأندلسية مثل إشبيلية وبلنسية، وكان كثيرون من هؤلاء الأندلسيين المهاجرين يرجعون إلى أصول عربية وبربرية، وكان بينهم من يرجعون إلى أصول

مصرية أو إيرانية، من قدم آبائهم من آسيا مع الجيوش الفاتحة للأندلس كما كان بينهم مسلمون يرجعون إلى أصول إيبيرية وقوطية ووandalية من سكان إسبانيا القديمة، وكثير نزول هؤلاء المهاجرين الأندلسيين بتونس بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢هـ / ١٣٩٧م ويقال إنهم بلغوا حق هذا التاريخ نحو مائة ألف أو يزيدون. وفي سنة ١٦٠٩هـ / ١٦١٦م نفى الإسبان بقية من كان بها من المسلمين إلا من أعلن تصره أو ظاهر بذلك، وقدم إلى تونس منهم في سنة واحدة لعهد عثمان داي نحو ثلاثة ألفاً، ورحب بهم كما مر بما في الفصل الماضي، وهو ترحيب لا يستحق شكره من أجله وحده بل يستحقه أيضاً قبله التونسيون الذين أتوا هم المعينة الكريمة بينهم في المدن، حتى كان ليسورهم في تونس العاصمة حيّان: حومة الأندلس وزقاق الأندلس، وتأسست للعمال والصناع قرى ومراسك بالقرب من العاصمة زاولوا فيها صناعتهم من النسوجات الحريرية وغيرها، ونزل القرويون منهم في مناطق خصبة غربة المياه شمالي على ضفاف نهر مجردة. ومن المؤكد أن الإسبان الذين احتلوا تونس نحو أربعين عاماً (٩٤٣-١٩٨١هـ) لم يختلفوا وراءهم أسراً إسبانية حين طردتهم سنان باشا إلى البحر المتوسط وما وراءه.

وكان الولاة في العهد العثماني يتخلدون لهم حاميات عسكرية من الإنكشارية، وكانت تضم تركاً من الأناضول وأجناساً متنوعة من مختلف أنحاء الدولة العثمانية وأسرى جبوشها من الدول الأوروبية وكانت تربيهم جميعاً تربية إسلامية عسكرية، وترسل ببعضه آلاف منهم إلى تونس وبالمثل إلى بعض البلاد العربية، وكانوا يتزوجون من تونسيات فربطهن بتونس صلات عائلية وثيقة. واتسعت حركة القرصنة حينئذ لسبعين: حتى العثمانيين بالبحارة، وقد استطاع خير الدين (بربروسه) وعروج وأمثالهما أن يصلوا البحر المتوسط في القرن العاشر المغربي بحراً عثمانياً، والسبب الثاني غيط الأندلسيين المهاجرين من الإسبان والأوربيين الذين كانوا يساعدونهم في الغروب، فكانوا يوغررون صدور البحارة الترك عليهم ليأسروهم ويسترقونهم، وكانتا يسخونهم على وجوههم من البحر بالألاف أحياناً، وكان كثيرون منهم: إسباناً وفرنسيين وإيطاليين ويونانيين وكريتيين ونورماناً يعتقدون الإسلام وترأّد إليهم حرثياتهم ويكونون أسراءً ويندجنون في أهل البلاد. وكانتا يتولون في تونس أحياناً مناصب علياً. وهذه العناصر الإفريقية والآسيوية والأوروبية المفرطة في الكثرة، منذ أيام الفينيقين إلى هذا العصر لها دلالتان: دلاله الأولى على وفرة طبيات الرزق التي عُرفت بها تونس والتي جعلت كثيراً من الشعب تتسابق على النزول بها وأحياناً على المكث بها حقيقة أو حقيقة من الزمن ودلالة ثانية هي ما حلته تلك الشعوب إلى تونس من حضارات كان لها غير قليل من التأثير في حياتها مع الاحتفاظ ذاتياً بما لها من ذاتية وشخصية.

المعيشة<sup>(١)</sup>

عُنِ القطر التونسي - على مر الأزمنة بالزراعة، وقد أولاها الفينيقيون والقرطاجيون اهتماماً كبيراً، إذ رأوها تتنفس وفرا من حبوب وبقول متنوعة، وقد حملوا إليها من موطنهم شجرة الزيتون، وربما أيضا الكروم والتين واللوز، وبدل - في وضوح - على اهتمامهم بالزراعة أن أقدم كتاب على فيها وفي غرس الأشجار ألفه عام قرطاجي يسمى ماجن Magon وأن الرومان نقلوا عن قرطاجة هذا الكنز الزراعي النقيس إلى لقفهم حين استولوا عليها سنة ١٤٦ قبل الميلاد، وعُنوا - مثل القرطاجيين - بالزراعة وحفروا لها القنوات لجلب المياه، وأقاموا بها الصهاريج والخزانات والأحواض، مما لا يزال شواهده قائمة في إفريقيا التونسية. وظلّ أهلها في العهد الإسلامي يعنون بالزراعة، فهي معاشهم، ومنها قوتهم وزادهم. وقد عُنِ بها الأغالبة عنابة كبيرة، وما يدل على ذلك أنهم كانوا لرى الأرضي وجلب المياه وتخزينها في الصهاريج وتوزيعها في السقايات إدارة كبيرة، عُنوا لها مشرفاً سمه «صاحب المياه» واستغلوا في ذلك كل ما خلفه القرطاجيون والرومان والبيزنطيون في البلاد مع ما أضافوه من قنوات ودواليب وأحواض وخزانات جديدة، مما جعل البلاد التونسية تلقى في حبورهم بكل ما تستطيع من طيبات الشمار، وتزدهر فيها الزراعة وغراسة الأشجار ازدهاراً لم يلها له مثيل في قرنها من العصور، وأخذت البلاد تعيش في بُلْهُنَى من العيش، وأخذت الأغالبة يعنون منها أموالاً طائلة، ساعدتهم مساعدة عظيمة في بناء أسطوالم الذي فتحوا به صقلية ومالطة، كما ساعدتهم لا في بناء قصر أو قصور فحسب، بل في بناء مدينة هي العباسية ومدينة ثانية هي رقادة التي زارها أبو عبد البكري، فقال في كتابه المسالك: «ليس يأغrique أعدل هواء ولا أرق نسمة ولا أطيب تربة من مدينة رقادة، ويدركون أن من دخلها لا يزال ضاحكاً مستبشرًا من غير سبب»؛ مدینتان كبريتان بنتها دولة الأغالبة التي أطلت البلاد التونسية قرناً من الزمان بفضل ما جنت من خيراتها. وإذا تركنا شمالاً تونس إلى الداخل لقيتنا مدن في السباب والواحات كثيراً ما نوء بها جغرافيyo العرب ورحالتهم لما بها من البساتين المشرة والكرום والمشمش والتين

إفريقيا وتونس لابن أبي دينار وكتاب ورقات عن  
المضاربة العربية في إفريقيا التونسية للأستاذ حسن  
حسن عبد الوهاب.

(١) راجع في المعيشة المسالك لأبي عبد البكري  
ورحلة التجاعان والبيان المغرب لابن عذاري وكتاب  
وصف إفريقيا للحسن الوزان المؤنس في أخبار

واللوز والفسق، ويقولون إن بها غدراناً وأباراً كثيرة. وبعض المهاجرات - وخاصة في التواحي الشرقية - مفازات شاسعة تنمو فيها الأعشاب والمحشائش وترعاها قطعان الغنم والأبقار والإبل والخيول.

وطلت الزراعة مزدهرة في عصر الدولة الصنهاجية حتى منتصف القرن الخامس المجري، وأصابها غير قليل من الانتكاس مع المجرة الأعراية، حق إذا كانت الدولة المختصية وأخذت بم الأمان والاستقرار في البلاد بعد حركات قراقوش وأبني غانية عادت الزراعة في البلاد إلى الإزدهار بفضل عناية مؤسس الدولة أبي زكريا بشتون الرى وعناية ابنه المستنصر، ويقول ابن أبي دينار إنه أكمل بناء الحنایا والقنوات التي كان يجري على الماء إلى مدينة قرطاجة في الزمن الأول (الأيام القرطاجيين والروماني) وأصلح ما فسد منها، وأجرى الماء عليها من عيون جبل زغوان في الجنوب الغربي إلى تونس وجانتها وزرروعها وسقايتها وجماعتها الكبير: جامع الزيتونة. وبنوه الحسن الوزان بما شاهد حول تونس في القرن العاشر المجري من زروع وبساتين قائلاً: «توجد في خارج تونس مزارع غاية في الإبداع تنتج فواكه رائعة بكثيات قليلة ولكنها في غاية الجودة، وهناك عدد لا يُحصى من البساتين المزروعة بالبرتقال والليمون، وبالورد وبيزهور جبنة أخرى، وفي المكان الذي يدعى الباردو على الخصوص توجد البساتين والقصور الفخمة». وبنوه ابن أبي دينار في زمنه أوائل القرن الحادى عشر المجري بجنات تونس وبساتينها، ويقول إن من رأى نمارها وفواكهها يعجز الوصف إذ لا تدخل تحت حصر» ويقول أيضاً: «يدخل إليها في فصل الخريف أزيد من ألف حل من النبض بخلاف ما يباع منه من تين وبطيخ وغيرها». وبدون ريب كان للمهاجرين الأنجلوسيين إلى تونس فضل كبير في هذا الإزدهار منذ عصر الدولة المختصية، وازدادت الزراعة ازدهاراً حين ازداد المهاجرون منهم زيادة مفرطة في سنة ١٦٠٩هـ/١٧٩٠م وما بعدها لمهد dai عثمان والدai يوسف كما مر بما في الفصل الماضي، ويقال إن عددهم بلغ حينذاك أكثر من مائة ألف، وقد استقر كثيرون منهم - كما أسلفنا - في المناطق المختصبة الشمالية حول نهر مجردة، ونزل بعض منهم في أنحاء قليلة المياه فاستخرجوها عن طريق طواحين الريح، ونزل بعضهم في أماكن صعبة بسروح الجبال، واستطاعوا - بجهدهم - أن يجعلوا كل ما نزلوا فيه واستقروا به إلى جنات وزروع وقنوات وعيون. وتلقانا أشجار الزيتون والبرتقال واللوز والفسق في كل مكان كما تلقانا أشجار التفاح، وخاصة في الواحات ومنطقة شط الجريد. ويهدو أن الرومان تقلغلوا مع القوافل التجارية إلى هذه المنطقة وظل كثيرون منهم فيها بعد الإسلام لا قرنا بل قرون متطرولة، حتى لئن التجانى الذي زارها في أوائل القرن الثامن المجري يقول في زيارته لها التي سجلها في رحلته: «إن أهل توزر (غربي شط الجريد) وأكثر بلاد الجريد من بقايا الروم الذين كانوا بأفريقية قبل الفتح الإسلامي» ويقول إن بعضهم كان لا يزال يتكلم اللاتينية.

وعرف القطر التونسي مختلف الصناعات - وخاصة اليدوية - من قديم كالتجارة والمدادة وعصر الزيتون واستخراج المعادن. وكان بها معادن كبيرة مثل الرصاص والحديد والزنك والزنبق والفضة والذهب أتاحت للقطر موارد مالية غير قليلة. حتى لزى الأغالبة ينصونها بإدارته يستدونها إلى موظف سموه: «صاحب المعادن» واشتهرت «قرطاجة» في غرب القطر بما كان يستخرج فيها من معدن الحديد، مما هيأ صناعات حديدية مختلفة مثل الأفقال والمفاتيح والأبواب والتراويف، واشتهر «طرّة» من إقليم نفزاوة في الجنوب الشرقي للقطر بمعدن الكارتن، وهيأ بدوره لصناعات زجاجية وبلاورية. ومن أهم الصناعات صناعة المفرز مطلياً وغير مطل وما يتصل بها من الآنية والأباريق والكيران والمواعين، ويقول ابن أبي دينار في فواتح كتابه «المونس»: «تصنع بتونس آنية للهاء من خزف شديد البياض في نهاية الرقة والشقاوقة لا يعلم له نظير فيسائر الأقطار». ومن الصناعات صناعة دبغ الجلود وكان ينتفع بها في صناعة السروج. ومن الصناعات عصر الزيتون في معاصر كثيرة معدة لها، وتونس تشتهر بهذه الصناعة منذ عصر الرومان، وكانوا يرسلونه إلى روما في مواعين كبيرة، ويدل على كثرة معاصره في المكتب الإسلامية ما يذكره ابن أبي دينار وهو أن أبو يزيد عجل بن كياد - حين زحف على إفريقية التونسية في عهد الخليفة العبيدي القائم بأمر الله ودخل القيروان وتونس - نبه اثنى عشر ألف جاية زيتنا. ويقول الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا الذي سُجِّل فيه زيارة لتونس: «على مسافة أربعة إلى ستة أميال حول تونس تنتشر مصانع عديدة لإنتاج الزيت لا تنبئ مدينة تونس فحسب، بل للتصدير كذلك، وتصنع من حطب الزيتون فحم يستخدم في المدينة، ويستعمل جزء منه في التدفئة».

وكانت صناعات المنسوجات القطنية والصوفية والحريرية والكتانية منتشرة في تونس وغيرها من بلاد القطر التونسي، ويقول أبو عبد البكر في كتابه المسالك عن النسيج بمدينة سوسة: «الحباكه بها كثيرة ويُغزل بها غزل تباع زنة المثقال منه بمقابلين من ذهب». ويتوهُ الحسن الوزان في القرن العاشر المجري بما كان من النسيج في تونس وصناعته قائلاً: «غالبية سكان تونس من المحاكة (النساجين) وتصنع فيها كمية كبيرة من الأقمشة المتقدمة كل الإنقان والتي تباع في كل إفريقية، وهي مرتفعة السعر كثيراً لأنها ناعمة ومتينة، ويرجع السبب في ذلك إلى أن النساء يتقنْ مهنة الغزل كل الإنقان» ويرجع بما الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب إلى مدينة رقادة في عهد الأغالبة قائلاً: «كان بها دار الطراز وكانت مصنعاً تتسع فيه الأكسيه من الحرير والقطن والصوف، وكذلك العصام والأخزمه إلى غير ذلك من الملحق التي يجهها الأمير (الأغلبي) في الأعياد وعند تقليد المناسب لأعيان الأمة ورجالات الدولة، وكانت تُكتب على هذه الملحق كتابات موشية بخيوط الحرير والذهب، وهي تقوم مقام الأوسمة في عصرنا الحديث».

ولا بد أن الصناع كانوا يوشون ثياب النساء بهذه المخيوط وبخيوط أخرى فضية لتكميل زينتهن بما لها من لمعان وبريق.

وكان الصانع التونسي يعنى بزركرةة ما ينسج من السجاجيد وخاصة للأمراء وأعيان البلاد، وكان يرسم عليها بعض الحيوانات أو بعض البلاد، ويدرك الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب أنه صنع للمعز الفاطمي قبل تحوله إلى القاهرة مقطع كبير رايم من الحرير الأزرق الملوّن النسوج بالذهب وقد رسمت فيه صورة الأرض بكل ما تشمل عليه من الأقاليم والمدن والأنهار والجبال وصورة المرمرين الشريفين. ولعل في عرضنا لذلك كله ما يدل على الرقي الحضاري الذي نعمت به تونس قبل مصر الحديثة، وكانت الأخشاب فيها وافرة مما هيأ للتفنن في صناعة الأناث، كما هي الزجاج والخزف للتفنن في صناعة المواتين والحرير والصوف والقطن والكتان للتفنن في الرياش وكل ما يلزم القصور والمنازل من فنون الزينة والزخرف.

ومن الصناعات التي كانت مزدهرة بتونس الورقة أو صناعة الورق والكتابه فيه، ومعروف أن بغداد لم تعرف إلا في عصر الرشيد، وقبل ذلك كانت الكتابة في الرق أو الجلد المهيأ للكتابة وكذلك في البردي الذي كانت تستخدمه مصر منذ عصور الفراعنة، وهو نبات كانت تضم أوراقه الطويلة بعضها إلى بعض بطريقة خاصة، فيصبح صالحا للكتابة فيه. وكان القطر التونسي يجعل التوين من المشرق وكان اعتماده الغالب على الرق وجلب معها الأقلام والمداد. وتعرف على صنعها، حق إذا فتحت صقلية سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٨ م وكان بها بردي كبير أخذوا - كما يقول ابن حوقل - يقتلون أكثره حبلا للسفن» وأنه كان يُصنع طوابير أو صحفا لدواوين الأمير الأغلبي ومن نلاه من حكام القطر التونسي، وأخذ الشعب التونسي يحسن صناعة الورق من الكتان ويسمى الكاغد نفس اسمه الذي نقله العباسيون مع الورق من الصين، ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب إن صناعته انتقلت من تونس إلى صقلية وعبرت صناعته مضيق مسينا إلى ساليرنو نابولي، فلما تأدي حيث استطاع جو تيرج بعد قليل اختراع الطباعة، وبدهى أنه لو لا الورق ما اخترعت الطبعة. ومن الممكن أن تكون أوروبا عرفت الورق ونقلت صناعته عن الأندلس، غير أن الأستاذ عبد الوهاب يرجع معرفتها به عن طريق تونس وصقلية.

ومنذ فتح العرب القطر التونسي تبع في المنشآت العماراتية وتشاد، ولا يشاد بناء مفرد أو قصر مفرد، بل تشاد مدن، بدأ ذلك عقبة بن نافع ببناء القبروان، وبين تونس بهذه بقليل حسان ابن النعمان، وبين الأغالبة العباسية ورقداء، وأحالوا قرية سوسة على الساحل مدينة وتغراً ضخماً، وبين عبد الله المهدى مدينة المهدى وجعلها داراً لحكمه وتغراً لأسطوله، وأحال حفيده المنصور قرية صبرة بجوار القبروان إلى مدينة وسمها «المنصورية» نسبة إليه. وكانت المدينة

من تلك المدن حين تبني لا يقتصر فيها على تصر للحاكم، بل كانت تبني فيها قصور ومساكن لآل بيته ولجنده وحاشيته ودواؤيه، وبينها جامع كبير وخطط شارعان متعامدان يقام عليهما حوانئ للصناع والتجار ومساكنهم، فهي مدينة كاملة. وكانت هذه المنشآت - بل المدن - الصناعية تحتاج إلى مالا يكاد يحصى من العمال والصناع، إذ لا بد لها من يقطعنون الأحجار ومن يقطعنون الرخام وينحوونه أعمدة للقصور وكذلك للمغارس والمحصون التي كانت تشد على طول الساحل التونسي باسم رباطات.

وكان يبنى حول كل بلدة جديدة - وقد يبني حول بعض البلدان القديمة - سور ضخم لكن يحيط بها من الأعداء حين يهاجرونها وتقام فيه أبواب كبيرة مصفحة بالحديد. ولم يكن المuran حينئذ مدناً ومعاقل وحصونا فحسب، بل كان أيضاً صهاريج وأحواضاً كبيرة لساقية الزروع والمساجد والشعب. وكل ذلك استلزم صناعات كثيرة من حداوة ونجارة وغير نجارة وحدادة سوى النقاشه واستخدام الفسيفساء (الموزاييك) في حيطان الفرق والسقوف والأروقة المختلفة الرسوم بما يتراوّى فيها من الأزهار والرياحين والمناظر البدية، وزخرفوا بالفسيفساء أحياناً صهاريج الماء وأحواضه. وكان الحكم يبنون لأنفسهم قصوراً شاسعة على نحو ما مرّ بنا في الفصل الماضي من تشيد أبي فارس لقصره الضخم في إحدى ضواحي تونس المسماة باردو، وتواتت في الصالحة قصور للحكام من الحفصيين والشافعيين كانت تبهر من يراها فضلاً عن يزورها ويرى منحوتها ونقوشها البدية. وهي المنازل العادية للشعب كان أصحابها يتأثرون فيها، يقول الحسن الوزان عن منازل تونس: «لأكثر المنازل منظر بديع، وهي مبنية بحجارة مجهزة وجيدة النحت، وسقوفها مزданة كثيراً بالفسيفساء وبالجص المجزع، مع فن رائج، ومزروقة باللون الأزرق وبألوان زاهية أخرى.. وتبلط الفرق برباعات من بلاط مطلٌّ بلون فاتح كما يبلط الصحن أيضاً ببلاط مطلٌّ بالدهان. وبيوتها على العموم - وحيدة الطابق - وطاً مدخل بديع.. ويلجأ كل واحد إلى جعل مدخل بيته أكثر أناقة وأكثر زينة. وبجانب منازل المدينة وقصورها كانت هناك دور صناعة خاصة بالأساطيل ومحاجاتها وإعدادها في تونس وسوسة والمهدية، واستلزمت كثيراً من الخشب وال الحديد لصنع سفن الأسطول وأيضاً من الخيال ونسج الكتان لشراعات السفن وقلاعها، وبلغت سفن الأسطول في عهد الأغالبة ثلاثة سفين، سوى ما كان يحتاج إليه الأسطول من الأسلحة والعتاد العربي من مثل السيف والرماح والأقواس والسياه والمجنيفات وألات هدم الأسوار، سوى بناء الأحواض الواسعة في التغر لخدمة السفن.

وهذا الإنتاج الصناعي الوافر وما سبقه من الإنتاج الزراعي الكبير هيأ تونس - منذ عصر القرطاجيين - لأن تصبح سوقاً عالمية كبيرة، فكانت ترسل بمنتجاتها شمالاً إلى شعوب

البحر المتوسط الأوربية وشرقاً إلى مصر والشام وتركيا وغرباً إلى الجزائر ومراكش وإسبانيا وغربي أوروبا حتى إسكندرناوة، ومنذ عصر القرطاجيين كانت قوافلها تتقلقل في فلات الصحراء الكبرى إلى السودان الأوسط والغربي عملاً بالسلع التونسية من الزيتون وزيته والتقطيع ومن النسوجات القطنية والكتانية والحريرية ومن السروج واللبود وأقفال الحديد والمفاتيح والإسفنج الذي يصاد على الساحل والملح المطعون الذي يحمل من ملاحات تونس الكثيرة، وتعد محملة بالجلود وريش التعام والماعج أو ناب الفيل والتبّر والرقيق الأسود الكبير. وذكرنا في الفصل الماضي أن إبراهيم بن أحد الأغلبي استكثر من هذا الرقيق الزنجمي في حرسه حتى بلغوا عشرة آلاف عَدداً، ومنذ الأزمة السعوية كان يظل كثيرون من هذا الرقيق في القطر التونسي مما جعل لهم فيه - من قديم - بعض القرى. وطبعي أن تنشأ في كل بلد تونسي سوق داخلية يشتري منها أهلها ما يحتاجون إليه من الحبوب والشمار والخضر والصناعات المختلفة. وأول من أمر بتنظيم هذه الأسواق في القطر التونسي الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤ هـ) يقول أبو عبيد البكري: «كان السُّمَاط - وهو سوق القيروان - متصلة (أي دكاكينه متلاصقة) فيه جميع التجار والصناعات وهو الذي أمر بتنظيم هكذا». وابتعدت الأسواق في تونس وغيرها هذا النظام، حتى إذا كان عهد يزيد بن حاتم المهلبي (١٥٦ - ١٧٠ هـ) رتب أسواق القيروان. عاصمه ترتيباً جديداً، وفي ذلك يقول ابن عذاري في البيان المغرب: «قد مهد أموربلاد، ورتب أسواق القيروان، وأفرد لكل صناعة مكاناً». ومعنى ذلك أنه جعل لكل صنعة مجموعة من الدكاكين خاصة بصناعتها وبيعها، ويحدّد مكاناً للحسن الوزان عن. سوق تونس حين زارها، ويدرك أن أهم الأمكنة في سوق تونس مكان تجارة النسوجات، يقول: «وهناك سوق خاص في تونس يحوي عدداً كبيراً من تجار القماش، وبعد هؤلاء أكثر أهل المدينة ثراء، ويشغل تجارة آخرون وصناع معهم هذا السوق كالعطارين، وباعة الأشربة والتربيقات، وباعة المطروق والحرير، والخياطين والسرّاجين (باعة السروج) والفرّانين (باعة الفراء) وباعة الفاكهة، والحلابين، وصناع الزلايبة (حلواً) والقصابين (المزارعين) الذين يذبحون في فصل الربيع والصيف أكثر من سائر الحيوانات الأخرى، وثمّ يهمن كثيرة أخرى تمارس في هذا السوق لا يتسع المقام لذكرها».

## الرُّفَه - المطعم والملبس - الأعياد - الموسيقى - المرأة

### (أ) الرُّفَه<sup>(١)</sup> - المطعم والملبس

ما عيز القطر التونسي كثرة الأمتنة والسلع والتمار والفواكه فيه، مما أتاح له - وخاصة في مدنه الشمالية حياة راقفة، وبصور ابن أبي دينار ما كان فيه أهل مدينة تونس من رفاهية في حياتهم بأن أغلبهم كانت لهم جنات وبساتين خارج المدينة، يقضون فيها الصيف والخريف مع أسرهم، فكانوا يمرون في الذهاب إلى المدينة كل يوم حيث يزاولون أعمالهم ويعودون في المساء إلى بساتينهم وجناتهم ومن أجل ذلك كانت الدكاكين في أسواق تونس لافتة صينا وخريرا إلا بعد طلوع الشمس.

ويقول الحسن الوزان إن الخبز طريف جدا في تونس، وهو أبيض اللون ومحبوب بشكل حسن، ولا يُصنع من الدقيق فحسب بل يمزج معه السميد، وتبدل عنابة كبيرة في إعداد عجينة إذ يضرب بعدها شبيهة بذلك التي يضرب بها الأرز في مصر، ويدرك الحسن الوزان عقب ذلك وجبيتين شعبيتين أولاهما تسمى البسيس، وهي وجبة خفيفة مؤلفة من دقيق الشعير المملوول بالماء ويوضع فيه قليل من الزيت أو شيء من عصير الليمون أو البرتقال، ومن عادة الباعة والصناع وسكان المدينة تناول هذه الوجبة في النهار، والوجبة الثانية تسمى البازين، وهي أفضل من سابقتها، وتُصنع من عجينة تُقلق في الماء، وبعد أن تنضج تُرَصَّ في وسط دعاء وتُسقى بالزيت أو برق اللحم. ويقول الحسن الوزان: هناك وجبات أخرى أكثر لذة في الطعام، ومن مطاعمهن لحم يسمى المرزوقة نسبة إلى مدينة إبراءة تسمى مرو والروز واللحم فيها يطبع بأباريق تفوح، ويعدون أكلها عقب الإفطار في الصوم من التطيب. ومن طعامهم الزرير ويسمى في بعض البلدان باسم المويس وهو خليط من الأbizار والبهارات حار الطبيعة. ويعصاد السمك على طول الساحل التونسي، وهو رخيص الثمن، ويصطادون منه أنواعاً كثيرة منها نوع يسمى سبارس يصاد في صفاقس، وقد تكون الكثرة من سكان البلدة صيادين. ويشتهر سكان مدينة المهدية بصيد الحوت، ولأهلها شرف بأكله وتقني في طرق صيده. وكما تتبع مطاعم سكان القطر

المغاربة العربية بإغرافية للأستاذ حسن حسن  
عبد الوهاب وبرنشفيك ٢٨١/٢ وما بعدها

(١) انظر في الرُّفَه - المطعم والملبس الحديث عن  
مدينة تونس في كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان  
وراجمه في صفاقس، وكذلك كتاب ورقات عن

التونسي تتربع حلواتهم، ومنها المتروض ويقول برشفيك إنه يصنع من السميد والسر والعلل والبهارات ويقل في الزيت وينتهي به ابن أبي دينار، ويقول: هو أطيب حلواتهم وليس بعده شيء، ومنها الزلايبة وهي حلواة من عجين رقيق يصب في الزيت ويقل ثم يصب في محلول السكر، ومر بنا - منذ قليل - أنه كان بتونس سوق خاصة للزلايبة.

وإذا تركنا المطعم إلى الملبس وجدنا الحسن الوزان يقول: «أهل تونس طيبون للغاية ومحببون كثيراً، ويلبس صناعها وتجارها وأئتها وجميع موظفيها هنداً جيلاً لاتقا، ويضعون فوق رموزهم قلنسوة مقطادة بقماشة طويلة، كما يضع العسكريون وموظفو البلاط قلنسوة على رموزهم ولكن بدون قماشة. ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب كانوا يلبسون الشاشية التونسية الحمراء ويكسون القشائية الصوفية. أما السيدات فيقول عنهن الحسن الوزان: إنسيدات تونس هنداً جيداً، وعندما يكن في الخارج يسترن وجههن.. بوضع عصابة عريضة جداً من قماش فوق الجبين، وهناك حجاب آخر يدعى سفارى يجعل من رموز النساء رموزاً ضخمة كبيرة، ولا تنفي النساء إلا بزيتهم وعطرهن، بدليل أن باعة العطور هم دوماً آخر من يغلق داكيتهم» ولابد أنهن كن يعنين بجوهرهن وكانت في تونس سوق لبيع الجوهر للنساء كي يمكنن بها زيتها. وبفصل القول فيها كان من تزيين النساء في ملابسهن لذلك العصر الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب قائلاً: «أهم ما ورثت النساء عن أمهاتهن بالمهدية في ذلك العصر أنواع من الكساء والتطريز بالحرير على الثياب الداخلية مثل القممجة وغيرها، ومنها أنواع من الوشاح والمواسى الحريرية المزركشة بألوان متغيرة، ومن هذه المواسى تحلى صدور بعض الثياب النسائية، وهي تحفة فنية». ويقول في موضع آخر عن حجاب النساء في الساحل التونسي إنهم عند خروجهن من بيوتهم يرتدين إزاراً أسود ولا يتركن ظاهراً من وجوهن إلا العيون.

### (ب) الأعياد

كتب ابن أبي دينار في كتابه: «المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس» فصلاً<sup>(١)</sup> طريفاً عن الأعياد في تونس وأن أهلها كانوا يخرجون فيها للترفة والتمل بمواطن الجمال في ضواحي تونس، ويستهلها بعيد عاشوراء في اليوم العاشر من المحرم، وفيه ينفق التونسيون أموالاً طائلة في الأطعمة والفاكه والحلواة، وعادة في اليوم التاسع السابق له يطعمون الدجاج ويتحللون بالدويدة وهي مثل الكتافة عند المصريين ويعرفونها بأكلون من ذلك بقولهم: «الفطير

(١) انظر الفصل في أواخر كتاب المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس لابن أبي دينار.

وما يطير» وما يطير الدجاج والفتير الديبة. ومن رأى هذا العيد في تونس رأى العجب، فالموانيت - وخاصة حوانيت الفواكه - تزين. وعادة يخرج الناس زكاة أموالهم في هذا اليوم، ولذلك يتکاثر فيه الإنفاق على المأكل والمشرب، وكل ينفق بقدر استطاعته وبيع من آلات الطرب والملاهي للصبية ما يغدو المصر.

ومن ذلك عيد المولد النبوى الشريف لسيد الكائنات ﷺ، وأول من عنى بإقامة الاحتفال به بين حكام الدولة الحفصية أبوفارس عبد العزيز في مطلع المائة التاسعة للهجرة، وأصبح ذلك تقليداً سنوياً في ليلة الثاني عشر من شهر ربيع الأول كل عام إذ توقد القناديل وتضاء الشموع وتزين المكاتب ويقام احتفال عظيم بدار نقابة الأشراف يحضره القراء والفقهاء والناس من أطراف البلد ويعتلى الفنان والأشعار والأنشاد بالمدانع النبوية، ويظل الاحتفال بهذا العيد في بعض زوايا تونس خمس عشرة ليلة متواصلة تتشدد فيها مدانع الرسول الكريم، ويزرع الناس للتفرج. وتُضئن في أثناء ذلك الأطعمة الفاخرة احتساباً لوجه الله تعالى وقربى لحبيبه غير البرية.

ومن ذلك عيد الربيع أو عيد النيلوز في أول مايو من كل عام، ويقول ابن أبي دينار إنهم كانوا ينفقون فيه أموالاً تفوت الإحصاء ويتفاخرون بصنع أطعمة باهظة التكاليف من مثل المرقاز، ويقول برتسيك إنه نوع من النقانق، ويكترون من شراء الفواكه والرياحين والبقول، ويقول إن ما يباع في هذا اليوم من الفواكه والخضار والرياحين يصلح مقدار ما تشتريه تونس في عام، وينذر أنهم يجعلون من ذلك حوانيت في منازلهم يعلقون فيها جميع البقول والرياحين، ويقول إنهم يتجاوزون ذلك إلى الفنان وآلات الطرب فيجتمعون عند مكان يسمى بالوردة، وفيه يجتهد أهل الخلاعة والمجون من مغافن ومطربين ومشعوذين، وينذهب كثيرون من أهل تونس للفرجة عليهم وشراء ما يعرض من فاكهة وحلوى.

ويذكر ابن أبي دينار أنه كانت تقام أعياد في ليلة النصف من رجب والسابع والعشرين منه وليلة النصف من شعبان والسابع والعشرين منه. وكانت ليالي شهر رمضان تُعدّ عيداً كبيراً، وكانت مختلفون بها غاية الاحتفال ويقومون بواجب رمضان وواجب حقه أتم القيام، وتختتم الإمام القرآن العظيم في صلاة التراويح بأغلب المساجد. وكان يقام احتفال كبير حين يختتم صحيح البخاري، وينذر ابن أبي دينار أن المنادى كان ينادى في سوق تونس بأن الختم لصحيح البخاري غداً صباحاً أو عشيّة فيتسارع النساء والصبيان والقواصن والعلوم لذلك. وكان هذا نفسه يحدث في القاهرة حين يختتم قراءة صحيح البخاري في الليالي الأخيرة من رمضان.

(ج) الموسيقى<sup>(١)</sup>

عقد الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في الجزء الثاني من كتابه: «ورقات عن الحضارة العربية بإفريقيا التونسية» مبحثاً طويلاً رائعاً عن الموسيقى وألات الطرب في القطر التونسي ذكر فيه أنه ليس لهذا القطر مأثور قديم ذو بال في الموسيقى، وأنه يتصل فيها مباشرة بالعرب. وقد عرف عن الفاتحين الأولين طريقة الحِدَام التي اشتهر بها العرب من قديم، حتى إذا تولاه المهاة وخاصة يزيد بن حاتم (١٥٤ - ١٧٠ هـ) استحالـت القـيرـوان إلى مـرـكـزـ نـشـاطـ أدـبـيـ بنـ استـقـدـمـهـمـ مـعـهـ مـعـهـ الـشـعـرـاءـ وـالـمـنـفـنـيـنـ مـنـ بـغـدـادـ، فـعـرـفـتـ مـنـ حـيـنـتـدـ بـالـقـطـرـ التـونـسـيـ آـلـاتـ الطـربـ مـثـلـ الطـبـورـ وـالـمـازـهـرـ (ـالـدـفـوـفـ)ـ وـشـبـابـاتـ الـقصـبـ، وـازـدـادـتـ فـيـ الـقـيرـوانـ الـمـرـفـةـ بـالـفـنـاءـ وـآـلـاتـ الطـربـ حـيـنـ نـزـلـ بـهـ زـرـيـابـ عـلـىـ زـيـادـةـ أـلـهـ الـأـغـلـبـيـ سـنـةـ ٢٠٥ـ وـظـلـ لـدـيـهـ أـشـهـرـ قـبـلـ رـحـلـتـهـ الـمـشـهـورـ إـلـىـ قـرـطـطـةـ، وـزـيـادـةـ أـلـهـ يـسـتـعـمـ إـلـىـ الـخـانـهـ، وـيـُـظـنـ أـنـ أـخـذـتـ بـعـضـ الـجـوارـيـ فـيـ الـقـصـرـ عـنـ شـبـيـنـ مـنـ تـلـاحـيـنـ، وـماـ تـلـبـتـ أـنـ تـسـمـ بـأـنـ فـيـ الـقـيرـوانـ حـيـاـ خـاصـاـ لـلـمـلـاهـيـ وـالـطـربـ، يـقـصـدـهـ أـهـلـهـ لـلـفـرـجـةـ وـكـانـ جـمـعـاـ لـلـمـنـفـنـيـنـ وـالـضـارـبـيـنـ عـلـىـ الـآـلـاتـ الـموـسـيقـيـةـ، وـكـانـ أـهـلـ الـخـلـاعـةـ وـالـجـوـنـ يـخـتـلـفـونـ إـلـيـهـ، وـيـذـكـرـونـ مـنـ أـسـهـمـ الـمـنـفـنـيـنـ فـيـ قـاسـيـاـ الـجـوـعـيـ وـأـبـاـ شـرـفـ، وـغـضـنـ إـلـىـ أـيـامـ إـبـرـاهـيمـ بـنـ أـحـدـ الـأـغـلـبـيـ (ـ٢٦١ـ ٢٨٩ـ هـ)ـ فـتـجـدـهـ يـرـسـلـ سـفـارـاتـ مـتـعـدـدـةـ إـلـىـ الـمـشـرـقـ لـتـجـلـبـ إـلـيـهـ صـفـوةـ مـنـ الـعـلـمـاءـ وـالـمـوـسـيقـيـنـ لـيـحـدـتـ فـيـ رـقـادـةـ -ـ الـقـيـادـةـ -ـ الـقـيـادـةـ جـوـارـ الـقـيرـوانـ -ـ نـهـضةـ عـلـمـيـةـ وـمـوـسـيقـيـةـ، وـجـلـبـ إـلـيـهـ مـنـ بـغـدـادـ مـنـ اسـمـ مـؤـنـسـ، لـقـنـ غـنـاءـ جـوـارـ الـقـصـرـ فـيـ رـقـادـةـ عـاصـمـةـ الـأـغـلـبـيـةـ وـهـوـ يـقـومـ فـيـهاـ مقـامـ زـرـيـابـ فـيـ قـرـطـطـةـ عـاصـمـةـ الـأـمـوـيـنـ، وـجـلـبـتـ لـزـيـادـةـ أـلـهـ الـأـصـفـرـ أـخـرـ الـأـغـلـبـيـةـ جـوـارـ يـحـسـنـ الـفـنـاءـ مـنـ بـغـدـادـ، وـيـتـكـاثـرـ هـوـلـاءـ الـجـوارـيـ الـمـنـفـنـيـاتـ كـمـاـ يـتـكـاثـرـ الـفـنـونـ أوـ قـلـ يـأـخـذـونـ فـيـ التـكـاثـرـ لـعـهـدـ الـعـبـيدـيـنـ، وـتـسـعـ الـمـوـجـةـ فـيـ عـهـدـ الـدـوـلـةـ الـصـنـهـاجـيـةـ وـمـاـ كـانـ فـيـ قـصـورـهـاـ مـنـ مـجـالـسـ الـأـنـسـ وـيـشـتـرـكـ فـيـ الـفـنـاءـ غـيـرـ تـونـسـيـ يـتـقـدـمـهـ عـبـدـ الـوـهـابـ حـاجـبـ الـمـنـصـورـ الـأـمـيـرـ الصـنـهـاجـيـ (ـ٣٧٤ـ ٣٨٦ـ هـ)ـ وـكـانـ شـاعـرـاـ وـيـتـفـنـيـ فـيـ شـعـرـهـ وـيـلـحـنـهـ، وـيـتـحـدـثـ مـرـارـاـ مـوـرـخـ الـقـيرـوانـ إـبـرـاهـيمـ الرـقـيقـ عـنـ مـجـالـسـ غـنـانـهـ، وـيـفـدـ عـلـىـ يـحـيـيـ حـبـيدـ الـمـعـزـ بـنـ بـادـيـسـ فـيـ عـاصـمـةـ الـمـهـدـيـةـ (ـ٥٠١ـ ٥٠٨ـ هـ)ـ أـمـيـةـ بـنـ أـبـيـ الـصـلتـ الشـاعـرـ الـأـنـدـلـسـيـ، وـكـانـ مـقـنـاـ لـعـلـمـ الـمـوـسـيقـيـ الـأـنـدـلـسـيـ، فـنـقـلـ إـلـىـ الـمـنـفـنـيـنـ فـيـ الـمـهـدـيـةـ الـمـانـ الـمـنـفـنـيـنـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ، وـلـنـ هـمـ -ـ عـلـىـ أـسـاسـهـ -ـ الـأـغـانـ الـإـفـرـيقـيـةـ، وـمـنـ حـيـنـتـدـ أـخـذـ الـفـنـاءـ فـيـ إـفـرـيقـةـ الـتـونـسـيـةـ وـمـاـ يـصـحـبـهـ مـنـ مـوـسـيقـيـ يـزـدـهـرـانـ، وـمـاـ لـبـثـ الـمـهـرـاتـ الـأـنـدـلـسـيـةـ الـمـارـةـ بـنـاـ -ـ فـيـاـ أـسـلـفـاـ -ـ

(١) انظر في الموسيقى المزء المأثور من كتاب وما به من مراجع وبرنامجه ٤٣٢/٢ وما بعدها ووصف إفريقيا للحسن الوزان ص ٤٥٣-٤٥٤.

لمهد الدولة الحفصية أن زادتها ازدهاراً. وما يدل على هذا الازدهار في المعهد الحفصي أنه كان للجيش فيه فرقة موسيقية تصحب أمير البلاد الحفصي في حفلاته وتنقلاته قصى وراء الأعلام السلطانية تدق الطبول وتتفنن في البوقات، وذكر برنشفيك أن السلطان أبا فارس الحفصي (٧٩٥-٨٢٣هـ) الذي ضربية كانت تؤخذ من الموسيقيين والفنانات المحترفات، وأهدي ملك نابولي آلة أورجن إلى ابن السلطان عثمان سنة ١٤٧٧هـ / ١٤٧٢م ويدرك الحسن الوزان أن السلطان الحفصي أبا عبد الله بن الحسن الذي زار تونس في عهده سنة ٩٢٢ للهجرة كان يعيش بين المطربين والمطربات في قصره وبساتينه. ولا يعن الولاة العثمانيون بالموسيقى إلى أن تولى رمضان باي (١١٠٨-١١١٠هـ) إذ كان خيراً بأنواع الموسيقى ذات الأوتار وذات الزمامير، وكان عارفاً للألحان ولوغاً بالفناء، وجلب من بلاد النصارى الآلة الموسيقية المعروفة باسم الأورجن وكان مفتيه «مزهود» يطربه بتلاحميه عليه.

وتزدهر الموسيقى بتونس في المهد الحسيني الشافعي منذ عهد الباي محمد الرشيد (١١٦٩ - ١١٧٢هـ) وكان يتقن النظم بالشعر العربي، كما كان يتقن الضرب على مختلف الآلات الموسيقية مثل العود والكمنجة، وجعله ولمه بالألحان والإيقاعات يؤلف بين الأغانى الأندلسية المعروفة في تونس باسم المأثور والألحان التركية. وقد أدخل فيها من تلك الألحان البُشَرَف وهو افتتاح اللحن واستهلاكه. وكان للبيات احتفال موسيقى يقيمونه ليلة العيد في باردو، وكان أشبه بهوك موسيقى كبير، ويحضر فيه كبار الفقهاء، فإذا صُلَّى المغرب مُدْ ساط بأنواع الأطعمة وألوان الملوي، وجلس الباي في صدر السماط وتتوالى طبقات المدعىدين، وبعد بُرْحة مجلس الباي يبهوه، ويجلس عن يمينه وشماله الفقهاء والكتاب، ويصفط باقى الناس صفين عن اليمين وعن الشمال، وتونقد الشموع ويُوقِّي بالمجامر يغوح منها الطيب والمسك، ثم يدخل المفدون من الترك بآلاتهم فيغدون باللسان التركي ببرهة ثم يغرسون ويدخلون بعدهم المطربون والمنفون بالفناء العربي. وظلت هذه المراكب تقدّم في مواسم الأعياد باردو حتى نهاية هذا العصر.

ويحاذب هذه المرة كفالة عند سكان المضر، وخاصة في تونس كانت هناك حركة غنائية بدوية عند أهل الوبر التونسيين حلها إليهم - كما يقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب - بنو سليم وبنو هلال في هجرتهم الكبيرة، إذ ظلوا يحافظون على أغانيهم التي ورثوها عن أسلافهم في بوادي نجد والمحجرا، وقد لقنوها في بوادي تونس بعض عبادتهم وأرقائهم من أصحاب الأصوات الشجاعة، ليشندهوا في الأعراس مصحوبين بعازف الشبابات وضاربي الطبول. ويقول الأستاذ عبد الوهاب إن لهم عزفاً يسمى طرق الصيد أي صيد الأسد، يعزف به على الشابة البدوية، وفيه يقصون أقاوميّاتهم الغرامية في وصف رحلاتهم مع محبوّاتهم.

ويتخلّون مقاطع الأقصوصة بطرق حوافر الخيل للأرض ونبع الكلاب وزنير الأسد، للدلاة على تطور الأحداث في القصة أو في الرحلة الغرامية فراراً من الأهلين لعدم رضا الأب عن زواج التحابين، وكأنهم يتمثلون فيها قصص الغرام النجدي التي كان يجرّم فيها الأب النجدي الزواج بفتاته أو ابنته على من ينزل بها من شباب القبيلة كما هو معروف في قصة ليل العاشرية وعاشقها ابن عمها قيس المجنون بها غراماً وهياماً.

#### (د) مكانة المرأة<sup>(١)</sup>

مرّ بنا في حديثنا عن الملبس في القطر التونسي أن النساء في تونس والمهدية كن يبالغن في العناية بزيتهم وعطرهن وهنداهن، ولا نزيد أن نعرض لذلك وما يائله مما يتصل بهن، إنما نزيد أن نقف عند مدى إحساسهن بكرامتهم، ويُصور ذلك بوضوح ما يروى من أخبارهن، فمن ذلك ما تذكره الروايات عن أبي جعفر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية فإن هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤ هـ) كان قد أقام عيوناً على أسرة إبراهيم بن محمد حفيض عبد الله بن العباس وإخوته لما كان يبلغه من نشاطه ويعزف فيه من الحزم وبعد النظر أو لعله كان يتوقع من أبناء الأسرة أن يفكروا أحدهم في الثورة على خلافتهم الأموية، ولم يوزع إلى عيونه بتعقب إبراهيم بن محمد وحده بل أيضاً بتعقب أخيه السفاح وأبي جعفر المنصور ويبدو أن المنصور رأى أن يتبعه - لفترته - عن أنتظار هؤلاء العيون، واختيار القبروان لنزول بعض أقربائه فيها وتصادف أن رأى في مقامه لديه فتاة تسمى «أروى» أُعجب بها، فطلب يدها فاشترطت عليه أن لا يتزوج معها سراري أو جواري، وإن تسرّى عليها كانت عصمتها بيدها، وانفصلت عنه، كما تجري بذلك عادة القبروانيات من قديم، وقبل أبو جعفر شرطها، وعاد بها إلى أهله. وتتطورت الظروف، وأصبح خليفة، وأنجب منها المهدى الخليفة بهذه وأخاه جعفراً والد زبيدة حفيدة أروى وزوجة ابن عمها هرون الرشيد الخليفة بعد أبيه، وورثت عن جدتها حصافتها. وقد برّ المنصور بوعده لأروى، فلم يتزوج عليها إلى أن توفيت سنة ١٤٦ للهجرة، وكان قد أنطعها ضيعة، فوفقتها - كما يقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب - على ذريتها من الأرماء اللاتي يوت عنهن أزواجاً هن، وكذلك على العوانس اللاتي لم يتزوجن، حفظاً لكرامتهم وصيانة هن، وهي مأثرة وبر رفيع بفلذات الكبد من البنات سُجلَتْ أروى في تاريخ المرأة التونسية، كما سجلت شعورها بالكرامة في صورة نبيلة.

الثاني قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب للرقق القبرواني ص. ١٢٠ وما بعدها وفي الموقف الثالث ولادة خفاجة بن سفيان في صقلية.

(١) انظر في الموقف الأول القسم الأول من كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب وفي الموقف

وموقف كريم ثان لنساء القيروان عامه حين استغفر عبد الواحد بن يزيد الهمواري وعكاشة بن محسن الصفرية في الجمازير للهجوم على القيروان، وكان الصفرية قد اشتهرت بسفك الدماء وهتك المحرمين وسبعين، وكان عبد الواحد قد اقترب من القيروان في ثلاثة أيام، وأخذ حنطة بن صفوان والي القيروان يستعد للقائه، وما إن أخذ بعد صفوف جيشه هذا اللقاء حتى فوجيء بنساء القيروان فعقدن الألوية، وأخذن معهن السلاح، وعزنن على القتال واستبسلن للموت مع الرجال، وخلفن لأزواجهن: لئن انحزم أحد منكم إلينا مولياً عن العدو لنقتلته» وحين سمع الناس هذا الوعيد والتعریض الشديد من النساء وطنوا أنفسهم على الاستشهاد، فالموت أولى بهم من عار رسباء زوجاتهم، وانتهاكهن وبيعهن في الأسواق بيع الإمام، والتحم القتال وتدعى الأقران والأبطال، وانتصر حنطة والجيش ونساء القيروان، وقتل عبد الواحد وقتل من جوشه مائة وثمانون ألفاً، وهي مفارقة باقية للمرأة التونسية لاستشعارها - إلى أقصى حد - كرامتها وحياتها للوطن استشعاراً يجعله لها التاريخ في الأزمة الإسلامية الماضية.

وموقف كريم ثالث للمرأة التونسية لا في القطر التونسي بل في صقلية، فإن واليها خفاجة بن سفيان كان قد شدد الحصار على أهل طرميس سنة ٢٤٨ هـ / ٨٦٣ م وكانوا ينذرون جيشه نزالاً ضارياً ورأوا أن يقفوا المرتب وطلبو من خفاجة وفداً للمقاومة، فأرسل إليهم وفداً على رأسه زوجته لماواضتهم، وهي أول سيدة عربية تتولى السفارة بين قومها وأعدائهم، واستقبلوها بحفاوة، ونزلوا على إرادتها فيها وضعته لهم من شروط الصلح، وسلموها مفاتيح المدينة، وبذلك نجحت سفارتها نجاحاً عظيماً، إذ حققت دماء المسلمين وسلمتهم مفاتيح مدينة بأكملها ودخلوها صلحًا، وبين هذه السيدة البطل محمد بن خفاجة هو فاتح مالطة سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م إذ أعد لفتحها أسطولاً قضى به على حاميتها الرومية، وظللت مالطة تابعة لصقلية إلى أن استولى عليها التورمان بعد نحو مائتين وثلاثين عاماً. ومعنى ذلك كله أن للمرأة التونسية تاريخاً بعيداً في المصور الإسلامية يصور حضارتها وكياستها وشعورها بكرامتها إلى أقصى حد.

الدين<sup>(١)</sup>

كان برب القطر التونسي - مثل بقية البربر في الأقطار المغاربية - وتبين بعدون الشمس والقمر والكواكب السيارة ويقدمون لها القرابين، وكانوا يقدسون كثيراً من الأحجار والأشجار، وكان القرطاجيون وتبين مثلهم، وبعد أنهم أخذوا يفسحون لليهود في التزول بقرطاجة منذ القرن الثالث قبل الميلاد، ولم يلبثوا أن عملوا على نشر اليهودية بين البربر، ولم يعتنقها إلا قليلاً من البدو، وأخذ اليهود يغدون على القطر التونسي بعد تحطيم الإمبراطور تيتوس لمعبد بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد حتى إذا كان الفتح العربي أخذوا يتكلّرون - مع السنين - في القيروان حتى كان لهم فيها حارة - أو كما نقول الآن حيَّ - وكان لهم مقبرة خاصة بهم، وأيضاً كان لهم سوق يسمى سوق اليهود، وكان لهم معبود يذدون فيه شعائرهم الدينية، وكل ذلك يفضل الإسلام وما بنه في المسلمين من روح التسامح مع أهل الكتب الساوية، وصدوراً عن هذه الروح كان علماؤنا المعمقون في علوم الأوائل يفسحون لهم في التلمذة عليهم وفيأخذ ما عندهم من هذه العلوم وما أضافوه إليها، مما جعل نفراً منهم في القيروان يتزودون من معارف أطبانها المسلمين ما أتاح لهم أن يصبحوا من كبار الأطباء على نحو ما سنعرف في فصل الثقافة.

وكانت المسيحية قد أخذت تنتشر منذ القرن الثاني للميلاد في قرطاجة وبعض بلدان القطر التونسي عن طريق بعض القساوسة من قبط مصر الذين حاولوا الدعوة لها مبكّرين، وبذلك عُرفت فيها - أو أُسْتَ - كنيسة العقيدة الأرثوذكسيّة المصرية. وبعد ذلك حين اعتنقت روما العقيدة المسيحية أخذت تعمل على نشرها لا في إيطاليا وحدها بل أيضاً في الولايات التابعة لها، واتسع العمل على ذلك منذ عهد الإمبراطور قسطنطين واستيلاته في روما على أزمة الأمور سنة ٣١٢ للميلاد إذ أُعلن المسيحية ديناً رسمياً للدولة وأخذ يعمل على نشرها في قرطاجة وإفريقية، وبذلك أصبح للمسيحية في القطر التونسي كنيستان: الكنيسة الأرثوذكسيّة القبطية السابقة،

كتب التاريخ وخاصة البيان المقرب لأن بن عذاري وعلم الإيمان لأن بن ناجي ورياض النفوس للملكى وتاريخ ابن خلدون وخلاصة تاريخ تونس لحسن حسنى عبد الوهاب.

(١) انظر في اليهود والنصارى كتاب ورقات للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب في موضوع متفرقة وبرنسشك ٤٢٩/١ وما يبعدها وكتاب تاريخ المغرب الكبير لدبورز دراجع في المركبة الإسلامية

وكنيسة روما الكاثوليكية. وكان في القطر التونسي - حين الفتح - مسيحيون كثيرون، إذ كانت المجالس والمحاكم الرومانية مسيحية، وكانت روما قد نشرتها قبل الفتح في بقایا السلالات القرطاجية وبين البربر، واعتنقها كثيرون من الشعب البربرى في المدن لما رأوا فيها من الدعوة إلى المساواة والمعدل الذى لا تصلح حياة الشعوب بدولته، غير أنهم عادوا فوجدوها دين حكامهم من الرومان الذين يظلمونهم ظلماً فادحاً في الضرائب وغير الضرائب، فانصرفوا عنها إلا قليلاً منهم، ومع ذلك ظل قساوسة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية يدعون لها، وتقللوا بدعوتهم حق بلاد الجريد التي كانوا يسمونها قسطنطيلية. وبعد الفتح العربي أخذ كثيرون من هؤلاء المسيحيين يدخلون في الدين الجديد طواعية، وبذلوا أي إكراه، لبساطته ولنحيره الشعب من كل عبودية ومن كل ظلم مع معه الجميع المواجب الطبقية والاجتماعية بين أفراد الأمة، فهم جميعاً متساوون في كل الحقوق وكل الواجبات، وبذلك نفهم كيف أُوشك الإسلام في القرن الأول الهجري أن يقضى على المسيحية قضاء مبرماً في القطر التونسي مع أن العرب طوال هذا القرن وبعده رخصوا للمسيحيين التونسيين بتجديد كنائسهم وتركوا لهم ممتلكات الحرية في إقامة طقوسهم وشعائرهم الدينية. ولو لا أن عناصر مسيحية ظلت تنزل البلاد من وقت لآخر لافتتحت المسيحية من القطر التونسي - أيام المد الإسلامي - محوا تماماً، وأول ما كان من ذلك استقدام حسان بن النعمان (٧١٥-٨٥٠هـ) ألف أسرة قبطية للمساعدة في إنشاء دار الصناعة بتونس، وبذلك ظلت الكنيسة الأورثوذكسية حية في القطر التونسي. ويجلب إبراهيم بن الأغلب آلافاً من الصقالبة لحرسه، وجلب حفيده إبراهيم بن أحد رهباناً من صقلية للمساعدة في الترجمة بدار المحكمة التي أسسها، مما أتاح للكنيسة الكاثوليكية أن تظل حية هي الأخرى، ويجلب العبيداليون بدورهم صقالة وصقلين، ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب إن المسيحيين وفدو بكثره في عهد الدولة الصنهاجية، وخاصة أن أمراء بعض حكامها كن مسيحيات ويتمنعن بحربيهن الدينية. وكانت في تونس حارة خاصة بالمسريين ومقرة أيضاً خاصة بهم وكنيسة يقيمون فيها شعائرهم، وأخذوا يتکاثرون حين عظم نشاط أمراء البحرين الشماليين وكانوا أسرى حقاً، ولكن الديانات كانوا يساعدونهم في أداء شعائرهم الدينية، ويدل على كثريتهم حينئذ ما يقال من أن مراد باي قبل أن يتول الولاية سنة ١٢٢٠هـ / ١٦١٤ حين كان أميراً للبحر جلب لتونس في إحدى المرات اتفى عشر ألف أسير أوربي مسيحي.

وأخذ البربر في اعتناق الإسلام منذ فتح عبد الله بن سعد بن أبي سرح القطر التونسي سنة ٢٧ للهجرة، واستقر العرب في بعض مدنه وأنحائه، ولم يكن العرب غزاة فاخرين فقط بل كانوا يعدون أنفسهم - قبل كل شيء - ناشرين للإسلام وهداه في أطيان الأرض، وما نصل إلى عهد حسان بن النعمان (٧١٥-٨٥٠هـ) حتى نجد في جيشه كتبية بربرية كبيرة تبلغ اتفى

عشر ألفا كما يقول ابن عذاري تشتراك في فتوحه وجهاته في سبيل الله. وهي دولة قوية لاندماج البربر في الإسلام، فإنهم لم يسلمو فحسب بل أصبحوا من دعاة الإسلام ومحاتته، وقد اشتراكوا بقوة في جيش طارق بن زياد الفاتح لإيبيريا، ونفس القائد: طارق كان بربريا، وولاه موسى بن نصير والي إفريقيا بعد حسان على طنجة، ثم كلفه بفتح إيبيريا سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م وأخذت انتصاراته تتواتي، واستمد موسى بن نصير، فلعله به على رأس جيش مزبور من العرب والبربر وتم لها اكمال الفتح المبين.

ومعنى ذلك أتنا لا نصل إلى الربع الأخير من القرن الأول المجري، حتى يصبح البربر لا في القطر التونسي وحده، بل في جميع بلاد المغرب شعباً إسلامياً لا يُؤدي شعائر الإسلام وفرضه الديني فقط، بل أيضاً يعمل على نصرة الإسلام ونشره لا في ربوع المغرب وجباله الوعرة وصحاريه المتراصة فحسب، بل أيضاً في إيبيريا بأوروبا، وهو ما أدخل جماعة المؤرخين والمستشرقين الغربيين، فإن الرومان ظلوا يحتلون البربر قرونًا متطاولة وظلوا يحاولون نشر المسيحية في ديارهم، ولم يجدوا بينهم آذاناً صاغية، وما هي إلا أن يغزوهם العرب، وإذا هم يفتحون أندر عرthem وأفندتهم للإسلام، فيصيرون في نحو نصف قرن شعباً إسلامياً، إذ وجدوا الإسلام يحررهم من الظلم والاستبداد اللذين طالما ذاقوها في حكم البيزنطيين والرومان تحت ظل المسيحية سوى ما تحمله تعاليمه للشعوب من المدالة بين الناس والمساواة ومحو كل الفوارق الطبقية والجنسية. وانضمت إلى ذلك تعليمات ولاة القرن الأول المجري عقبة بن نافع وأبي المهاجر وحسان بن النعمان وموسى بن نصير لتعاليم الإسلام ومبادئه في حكم البربر بحيث أصبح البربر يشعرون أنه عضو عامل - كبقية الأعضاء عرباً وغير عرب - في أسرته الإسلامية الكبيرة، فله ما للعرب من الحقوق، وعليه ما عليهم من الواجبات، فهو يتولى حكم هذه المدينة أو تلك، وهو يقود الجيوش الإسلامية في المغرب وخارج المغرب، لا فرق أى فرق بين بربرى وعربي.

<sup>وتوج</sup> عمل ولاة القرن الأول المجري في نشر الإسلام بين البربر بالبعثة التعليمية التي أرسلها عمر بن عبد العزيز إلى القيروان سنة مائة للهجرة على رأسها إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، وأسند إليه ولاية المغرب وكانت البعثة مكونة من عشرة من صفة الفقهاء في الأمة أرسلهم عمر لتلقّيه البربر والعمل على نشر الإسلام بينهم، وأهّلهم بالإضافة إلى إسماعيل عبد الله بن يزيد المافري المعروف بالمبيل، وعبد الرحمن بن رافع التوخي وإسماعيل بن عبد الأنصارى وسعد بن مسعود التجيبي، وكل منهم بني في القيروان داراً لمسكنه ومسجدًا لصلاته واجتماعه بالبربر يفهمهم في الدين وكتاباً لتعليم الناشئة مبادئ العربية وتفعيلها القرآن الكريم. وبذل كل منهم أقصى ما يستطيع في نشر الدين الحنيف، يتقدمهم في ذلك

إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، وفيه يقول ابن عذاري: «مازال إسماعيل حريصاً على دعاء البربر إلى الإسلام، حتى أسلمت بقية بربر إفريقية على يديه في دولة عمر بن عبد العزيز، وهو الذي علم أهل إفريقية الحلال والحرام».

وعلى هذا النحو أصبح البربر في نهاية القرن الأول المجري شعباً إسلامياً بالمعنى الدقيق. هذه الكلمة فهو يتغلغل في ذات نفوسهم، ويتعصب قلوبهم وأفنيتهم، وخلف عمر بن عبد العزيز خلفاء أمويون خلوا السبيل فولوا على القبروان وإفريقيا ولاة طاغيون باغين أنفسنا يفرّون بين العرب والبربر في الخراج، مما جعل البربر يفكرون في مخرج من هذا الظلم الفادح، وسرعان ما أخذت المخواج الصفرية والإباضية ينشرون مبادئ عقيدتها الآخذة بتعاليم الإسلام في التسوية بين العرب والبربر في الخراج وغير الخراج. ونُكِّبَ البربر بتألهة عبد الرحمن المبحاب القبروان وإفريقيا، وكان هو ونوابه في إفريقيا جميعها ينتهي الحقن والسفاهة. فضلاً عن فرقية بين البربر والعرب، وأخذت جموع كبيرة في المفرقة الأقصى والأوسط تتضمّن تحت لواء الصفرية، وكانت امتطافية تطرفاً شديداً يستحلون من المسلمين سفك الدماء وسيس النساء واسترقاتهن، وانضمت جموع أخرى تحت لواء الإباضية في جبل نفوسه ولم يكونوا يستحلون - مثل الصفرية - سفك دماء المسلمين ولا سيّن نسائهم. وثار الصفرية بالغرب الأقصى وتقدم جيشان لهم إلى القبروان سنة ١٢٤هـ / ٧٤١م يريدون الاستيلاء عليهما ومؤمناً هزيمة ساحقة. ودخلت قبيلة ورجومة الصفرية القبروان سنة ١٣٨هـ / ٧٥٥م وأخرجها منها أبو الخطاب الإباضي سنة ١٤١هـ / ٧٥٨م وولى عليها عبد الرحمن بن رستم الإباضي، وسرعان ما نازل جيش عباسى أبي الخطاب وقضى عليه، وفر عامله عبد الرحمن بن رستم إلى الجزائر وأسس في تيهرت دولة إباضية.

وكل هذه الإمامات للإباضية والصفرية بالقبروان لم تترك بها أى أثر، وكأنها كانت سحابات صيف لم تكدر تلمح حتى أفلعت، ولا تسمع عن أى أحد من القطر التونسي اعتقاداً إحدى هاتين العقائدتين. ومعنى ذلك أن القبروان ظلت داراً كبيراً للسنة، ولم تأبه بتعاليم الصفرية والإباضية، وقد امتنعت المسام ونازلت الأولين منازلة ضارية كما مرّ بما في الفصل الماضي، بل لقد دمرت جيشين لها ومحقتها محققاً ذريعاً. وأخذت القبروان في أواخر القرن الثاني المجري وطوال القرن الثالث بذهبين من مذاهب أهل السنة هما منصب أبي حنيفة ومنصب مالك، وكان للمذهب الثالث غير قليل من الكلمة لكترة فقهائه، وما إن تستقر الأمور في القبروان ليقى عبد الغافل والمظفين حتى يعلنوا عقيدتهم الشيعية، وحتى يأمر عبد الله المهدى أول خلفائهم بتعطيل تعليم الشريعة والفقه على مذاهب أهل السنة، ويريد بذهبى مالك وأبي حنيفة، ومنع شيوخ المذهبين من إلقاء دروسهم في جامع عقبة فكانوا يقرنون تلاميذهم إما في بيوتهم وإما في حواتيتهم، وكانتوا قد اضطهدوا

محمد بن اللباد رئيس المالكية، وسجنه، وعادوا فردوإليه حريته وألزموه الاعتكاف في بيته، فكان تلاميذه يقصدونه خفية ويقررون عليه في بيته، وكان ربيع القطان يقرن تلاميذه في حانته الذي بيع فيه القطن. وظل العبيديون يحاولون القضاء على مذهبى مالك وأبي حنيفة، وعلماء السنة يقاومونهم مقاومة حادة وينازلون دعاتهم منازلات ضارية، وكان الفقيه سعيد بن الحداد يقول هذه المنازلات في أيام عباداته المهدى، وسمع به وباسكتاته الدعاة وإزالتهم المحجة، فاستدعاهم - كما يقول المالكى في كتابه «رياض النغوس» - وعرض عليه الحديث النبوى: «من كنت مولاه فعل مولاه» فقال له سعيد: هو حديث صحيح قد رواه أهل السنة، فالتفت إليه وقال له: فما للناس لا يكونون عبيداً؟ فقال له سعيد: أعز الله السيد، لم يرد (الرسول) ولاية الرُّق، إنما أراد ولادة الدين، فقال له عباد الله تعالى: «ما كان ليشرأ أن يؤتى به الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله، ولكن كونوا ربَّانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون، ولا يأمركم أن تخذلوا الملاكك والأنبياء والزعماء وأيماركم بالكفر بعد إذ أنتم سلمون» ثم قال سعيد: فيما لم يجعله الله لنبي لم يجعله لغير النبي، وعلى لم يكن نبياً إنما كان وزير النبي عليه السلام. وبذلك أفحشه، فقال له انصرف. ولم تقف المسألة في العقيدة العبيدية الفاطمية عند محاولة الخلفاء العبيديين استبعاد الناس، فقد حاولوا إيقناعهم بأنهم الصورة المحسدة للذات العليّة تعالى الله عن ذلك علو كبيراً إلى غير ذلك من ضلالاتهم التي صورنا أطراها منها في كتابنا - بهذه السلسلة - عن مصر. وطلت القبروان تقاطع عقيدتهم إلى أن انتقلوا إلى القاهرة وعادت لمذاهب أهل السنة نشاطاتها وخاصة مذهب مالك، ولم يلبث المعرصي التهابي سنة ٤٣٨هـ / ١٠٤٦م أن حمل الناس والفقهاء على اتباعه، فظل هو المذهب السفي الأأسى في القطر التونسي إلى اليوم، وحقاً اشتراك معه المذهب الحنفى أيام العثمانيين، ولكن ظل هو المذهب السفي للجماهير التونسية.

## ٥

الزهد والتتصوف<sup>(١)</sup>

هذا القطر أو هذه الدار التونسية الكبيرة للدين الحنفي أخذت تحول سريعاً إلى دار

الفلسفى والسوق ما كتبنا عنها في الجزء الخامس يصر من هذا التاريخ للأدب العربي وكذلك نظر في هذا الجزء ترجمة أبي المحسن الشاذل.

(١) راجع في الزهد والتتصوف كتاب رياض النغوس في الترجم وذكذلك طبقات علماء إفريقيا لأدب العرب ومعلم الإيمان لابن ناجي، وبرنسفيلك ٢٣٢ وما بعدها. وانظر في المتزعمين الصوفيين:

كثيرى لعبادة أقه الواحد الأحد، وأخذت المساجد تُبنى في كل بقعة وفي كل بلد، وكان الفاتحون يُقرنون البربر القرآن ويفقعنهم في الدين وينشرون فيهم تعاليم الإسلام وما يدعو إليه من العبادة والنسك، وقد تميز أفراد البعثة التي أرسل بها عمر بن عبد العزيز سنة مائة للهجرة بالزهد في عرض الدنيا الزائل، وكان منهم إسماعيل بن عبد الذي اشتهر في القبروان باسم تاجر أقه، لأنه كان يتاجر ويحمل ثلث كسبه قه، ينفقه في وجهه الخير، وهو يمثل شخصية زهاد الدين الحنيف الأولين، فهو يبعد أقه ويقف الناس في الدين، ومحفظ الناشطة القرآن في كتاب، وهو لا يعيش كلاً أو عبنا على الدولة ولا عالة على الناس، بل يتاجر ويكتسب من التجارة ما يقيم به أولده، ثم هو يقوم بالواجب الأكبر عليه للأمة: واجب الجهاد لأعدانها وأعداء دين أقه، وبآخرة من حياته في القبروان حل سيفه وخرج مجاها لإعلاء كلمة أقه في صقلية وغرق في البحر المتوسط سنة ١٠٧ للهجرة، وتلتقي بهد في القبروان يزهاد كهرين تُعنى كتب الطبقات بالترجمة لهم والحديث عنهم ومن أحهم في أواسط القرن الثانى المجرى ويما بن يزيد اللخمى، وكان زاهداً وعايضاً ناسكاً، وتوه به طويلاً أبو العرب في الطبقات والممالك في رياض النفوس، وبالمثل تَوَهَا بالْهَلْوَلِ بن راشد وزهده وورعه، وكان يحاصرها على بن زياد أول من دخل كتاب الموطأ لمالك بن أنس إلى إفريقية التونسية، توفي سنة ١٨٣ للهجرة، ولهم كتاب في الزهد، وبالمثل لمبد الملك بن أبي كريمة مولى إسماعيل بن عبد تاجر أقه كتاب في الزهد، وكان من أهل الفضل والورع.

ومن أهم ما سجلته كتب الطبقات هؤلاء الزهاد الورعين أنهم كانوا دائماً يخرجون في وقت من السنة للعبادة في الرباطات والمحارس التي كانت متخذة على طول الساحل التونسي لإقامة المجاهدين المتربيين بالقراصنة الغربيين أعداء أقه حين يغيرون فجأة في موضع على الساحل التونسي الطويل، والمعروف أن زيادة أقه الأولى الأغلبية حين أعدّ حملته المشهورة لفتح صقلية في سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م جعل قاتلها أسد بن الفرات قاضي القبروان وكبير فقهائها في زمانه، وفي ترجمة سحنون أكبر فقهاء القبروان وبعد أنه كان يرابط وقطا في السنة بالقرب من ميناء سوسة، ومع أنه كان على شيء من الزراء كان يتخشن في ملبه ويطعمه مع الورع الصادق والزهادة في الدنيا، وكان ابنه محمد الذي خلفه في حلقته لإقراء الطلبة يخرج وقطا في السنة - مثل أبيه - للمرابطة وحراسة المسلمين، وتُرَوَى له مقتلته في قراصنة الروم، فقد تصادف أن لقيهم ذات مرة وقد أشرقوا - في غيبة الرجال - على ثعب بعض الأموال وسيسي المريض فتقصد سيفه وأخذ بيده رمحه وامتطى جواداً له، ورأه بعض المرابطين فأسرعوا إليه، وكثير وكثيراً معه، واشتبكوا في حرب مع القراصنة، وأجهزوا على بعضهم، ففرت بقيتهم هاربة إلى البحر المتوسط وما وراءه، وإنما نسوق ذلك لتدل على أن الزهاد والنساك في الحقب الإسلامية الأولى لم يكونوا

يعيشون للزهد وعبادة ربهم فقط، بل كانوا دائمًا يحملون السلاح ويتقدمو الصنوف في حرب أعداء الله والوطن، مؤمنين بأن جهاد أعداء الله لا يقل عن عبادته نسكاً وفُرْبَةً إليه. ولم يكونوا يعيشون حالة على المجتمع، بل كانوا دائمًا يخترقون حرفاً تُدَرِّبُ عليهم أرزاقهم، على نحو ما مرّ بنا آنذاك عند إسماعيل بن عبد تاجر الله.

وأخذ هؤلاء الزهاد والعباد يتکاثرون في القيروان أثناء القرن الثالث المجري، حتى لزراهم يتغذون مسجداً سمه مسجد السبت، كانوا يقصدونه يوم السبت للذكر والعبادة، وكانوا ينشدون فيه الأشعار بتطريب فرادي وجماعة، وكان ذلك كان مقدمة لما سيصير إليه ذكر الله في البلدان المغربية، إذ سيصبح اجتماعات دورية للذكر في المساجد والزوايا بعد أن كان مرتبطاً بجهاد أعداء الدين والوطن ومرافقتهم على الساحل التونسي الطويل في الرباطات والمحارس الكثيرة التي كانت تُمَدَّ بالশرات. وحاول - مبكراً - يحيى بن عمر الكنانى المتوفى سنة ٢٨٩ للهجرة أن يقاوم الاجتماع المار للذكر في مسجد السبت، فألف كتاباً يردهم عن هذا الطريق الذي ابتدعوه ولم يستجيبوا إليه.

ومن يقرأ الترجم في كتاب رياض النقوس للعالكي المتوفى سنة ٤٧٢ للهجرة وكتاب معالم الإيمان للدباغ وذيله لابن ناجي المتوفى سنة ٧٣٨ يلقاء كثير من الزهاد النساك وخاصة بين الفقهاء والتقاة، وأخذ التصوف ينشط في الدولة المفصية منذ مؤسسه أبي زكريا، وكان ورعاً تقلياً وكان كلما بني مسجداً نهض بأول أذان فيه قُرْبَى لربه، وبين أمراء الدولة كثيراً من المساجد في تونس وبلداتها. وأخذ التصوف ينشط في عهد تلك الدولة، وكان بعض أمرئاته الأندلسية ينزلون القطر التونسي قبل تلك الدولة في القرن السادس المجري، ومن نزل بها منهم أبو مدين شعيب، وهو من إشبيلية، أجاز البحر إلى المغرب، فاشتهر به خبره في التصوف والنسك، وتوفى بتلمسان سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م وله فيها زاوية كبيرة، وله أتباع كثيرون، وكان قد نزل بتونس فترة، وتبعد في طريقه الصوفية غير تونسي، منهم أبو سعيد خلف بن يحيى التميمي المتوفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م والمدفون ببلدة جبل النار بالقرب من قرطاجة، والبلدة مسماة باسمه وفي رأى أن أباً مدين كان ينزع في تصوفه المتزع الفلسفى، وهو المتزع الذي بدأ الملاج والذى كان أصحابه يؤمنون بالاتحاد بين المخلوقات والخالق جل شأنه أو بعبارة أخرى بين الإنسان وربه، واقترب بذلك الإيمان بالفناء في الذات العلية، والباحثون في هذا المتزع، منهم من يقف عند الظاهر من عبارات أصحابه وأشعارهم فينسبونهم إلى القول بالاتحاد مع الذات الإلهية وأكثر من ذلك بالتحليل وأن الله يجعل في الإنسان وجزئيات الطبيعة، ويؤثر عن أبي مدين أنه كان يقول: «بِ قُلْ، وَعَلَى دُلْ، فَأَنَا الْكُلُّ» والعبارات قد تفسر بأن أباً مدين يؤمن بالاتحاد في الذات العلية وحلوها فيه وقد تفسر بأنه إنما يؤمن بالفناء في الذات الربانية. وزار تونس بعده من أصحاب

المنزع الصوفى ابن عربى المرسى الأندلسى الناشئ ياشبيلية والمتوفى بدمشق سنة ٦٢٨هـ/١٢٤٠م وهو من أئمة هذا المنزع، وظل فى تونس فترة ألف فيها كتابه: «الدواين الإحاطية فى مضاهاة الإنسان» ونظن ظنا أنه خلف بتونس بعض مربيه المعجبين به ويتزعمه.

ومن المؤكد أن هذا المنزع الصوفى الفلسفى لم يكتب له الشيوخ والانتشار فى تونس، إنما الذى كتب له ذلك المنزع الصوفى السنى الذى لا يؤمن أصحابه بحلول الذات العلية فى جزئيات الكون ولا بالاتحادها أو مع الإنسان ولا بالفناء فى الذات الربانية، فحسبهم عبادة وذكره وتسبيحه، وقد قام على هذا المنزع فى القرن الخامس عبد الكريم القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م والإمام الغزالى المتوفى سنة ٥٥٠هـ/١١١٢م وسرعان ما أخذت الطرق الصوفية السننية فى الظهور أثناء القرن السادس الهجرى، ومن أهمها طريقتان: القادرية نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلانى مولدا الحسيني نسباً نزيل بغداد المتوفى سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م والطريقة الأحمدية أو الرفاعية نسبة إلى الشيخ أحد الرفاعى البغدادى المتوفى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣م، ورجحت البلاد الإسلامية بهاتين الطريقتين، وأخذت تصيف إليها طرقاً صوفية سننية جديدة، وتخرّج شيخ تونسي هو الشاذلى أبو الحسن على بن عبد الله الحسينى المنصوب إلى بلدة شاذلة بالقرب من مدينة تونس المولود سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م لإنشاء طريقة صوفية سننية، بجانب الطرق التى عمّت وشاعت فى البلدان العربية، وأخذت يحاول نشرها فى تونس، وتبعد مريديون كثيرون رجالاً ونساء، منهم على الترجانى وحسن السنجومى وللأ(السيدة عائشة المتوفاة سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م وهى من قرية منوبة غرب مدينة تونس ولها زاوية كبيرة، ولبعض النساء يبلّتها اعتقاد فيها، ولذلك يزورنها ويتوسلن بها ل حاجاتهن: حُمل وغيره). وفي تونس تعرّف بتلميذه أبي العباس المرسى، وصحبه مع جمع من مربيه إلى الإسكندرية سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م وسرعان ما أصبحت طريقة أحد الطرق الصوفية السننية بصر. وظلّت طريقة حية بتونس مع طريقة القادرية السابقة لها، ومع طرق أخرى وفدت على تونس من المقربين الأوسط والأقصى مثل طريقة التجانى والطريقة العروبية للشيخ أحد بن عروس المتوفى سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٢م وله في تونس زاوية كبيرة.

وقد تكاثرت زوايا المتصوفة في تونس والأقطار المغاربية كثرة مفرطة، وتحولت في الحقب المتأخرة إلى ما يشبه تكايا ينزلها مع الدراويس الجوالين كثير من المشعوذين الدجالين، وكان منهم من يدعى لنفسه الكرامات وأنه من أولياء الله، وأقام براء منه لأنحرافه عن جادة الدين والتصوف السنى الحقيقى.

## الفصل الثالث

### الثقافة

١

المركة العلمية<sup>(١)</sup>

(أ) فاتحون مجاهدون معلمون

خرج عبد الله بن سعد بن أبي سرح والى مصر للخليفة عثمان في جيش المسلمين عددهم عشرون ألفا للاستيلاء على إفريقيا التونسية سنة ٢٢٧هـ/٦٤٧ م والتقي بعيسى والى بيزنطة النائز عليها والمستقل بالبلاد: جرب جبوريوس وكان في مائة ألف من الروم والبربر، ونصر الله المسلمين، وقتل جرب جبوريوس في المعركة وسحق جيشه سحقا، وأخذت مدن إفريقيا التونسية تفتح أبوابها للمسلمين. وعادة يذكر المؤرخون هذا الفتح المبين ولا يتحدثون عن جنوده وأنهم كانوا جنود الدين الخينف خرجوا وحاربوا جهادا في سبيل نشره، بقيادة ابن أبي سرح أحد كتاب الوحي وممه في المقدمة العابدة: عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، ويقال أيضا كان معهم عبد الله بن جعفر وعبد الله بن مسعود، ولذلك سمى جيش العبادلة وكلهم من نقاء الأمة الورعين. لم يخرجو إلى إفريقيا التونسية ابتلاء دنيا، إنما خرجوا للجهاد في سبيل الله ونشر دينه الخينف في أرجاء إفريقيا، وبضربة من يد عبد الله بن الزبير قتل جرب جبوريوس وبضربات من أيدي زملائه العبادلة وأيدي جند الدين الخينف المجاهدين في سبيله انزلم الجيش الضخم ومن بقي من عساكره أصحابهم رعب شديد واعتصموا بالمعاقل

للسراف وطبقات التحريين واللغويين للزبيدي وانظر في جامع عقبة والزيتونة معلم الايان لابن الديهاغ وابن ناجي وكتاب ورقات عن المضاارة العربية في إفريقيا للأستان حسن حتى عبد الوهاب وانظر المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس لابن أبي دينار.

(١) انظر في الفاقدين المسلمين كتب التاريخ مثل فتوح مصر لابن عبد الحكم وقطعة من تاريخ إفريقيا للرقيق القبرواني (طبع في تونس) ومقديمات المجزء الأول من رياض النفوس وراجع في الشأن العلمية طبقات أبي العرب والبيان المغرب لابن عذاري والحملة السراء وأخبار التحريين البصريين

والمحضون، ولم يلتبوا أن جاءوا إلى ابن أبي سرح مستسلمين طالبين الصلح فصالحهم، ودانت إفريقية التونسية للدين الحنيف وجنوده.

ونجد عند الفاتحين ذاتها هذا الشعور بأنهم مجاهدون في سبيل الله، فإن ابن أبي سرح قبل منازلة جريجوريوس يخطب في الجيش عرضا على الجهاد، إنه ليس فتحا ولا غزوا إنما هو جهاد في سبيل إعلان كلمة الدين الحنيف، ودانتا نجد هذا الشعور ماثلا في أذهان الفاتحين وكان أول من تعمق في البلاد المغاربية مجاهدا في سبيل الله حق المحيط الأطلسي عقبة بن نافع، وقد أدخل فيه قوام فرسه ورفع وجهه إلى السماء متاجرا ربه بقوله: «اللهم إني أشهدك أنى وصلت برأيتك الإسلام إلى آخر المعمورة حق لا يبعد أحد سواك» فهو وجنوده لم يكونوا غزوة للمغرب الأقصى يجمعون منه الفنانم، إنما كانوا جنوداً له ي يريدون أن ينشروا دينه إلى أقصى الأرض المعمورة. وتتفق عقبة وثار كسيلة، ودخل بجموعه القيروان، وقتلك زهير بن قيس القائد بعد عقبة به وبجيشه حتى إذا دان له المغرب أباً أن يظل حاكماً له، وعاد إلى المشرق قائلاً: «إن ماقدمت إلا للجهاد، وأخاف أن تغيل نفسي بي إلى الدنيا فأهلك». قادة الجندي الفاتحين للمغرب والجندي أنفسهم لم يكونوا طلاب دنيا إنما كانوا مجاهدين يتغرون نشر الإسلام طالبين ما عند الله من ثواب الآخرة، وهو لذلك لا يبالون بالموت، فقد باعوا أنفسهم له، صفة كللت غزوتهم في الفتوح الإسلامية بالانتصارات الخامسة.

وتتضاعف خلال ذلك صفة ثانية لهم هي أنهم ناشرون للإسلام، فليس منهم من فتوحهم تلك الأرض وماعليها من طيبات الرزق، إنما همهم تلك القلوب للدين الحنيف، وهو لذلك يحاولون - كل بقدر إمكانه - تعريف البربر به وبنطليمه، وأخذ يستجيب لهم البربر، لما وجدوا في عقيدته من بساطة، إذ لا تدعو الإيمان بوحدانية الله، وليس فيها فكرة التسلية المقددة عند النصارى، وآله رحيم وسعت رحمته كل شيء، وهو عالم قادر شامل علمه - وشملت قدرته - كل ما في الكون، والمسلمون عرباً وبربرياً سواسية في جميع الحقوق والواجبات مع العدل المطلق الذي لا تصلح حياة الشعوب بدونه، ومع حمو جميع الفروق الطبقية والاجتماعية بين أفراد الأمة، ومع تحرير الشعوب من كل عبودية، وقد أخذ هذا الجندي الفاتح للمغرب المجاهد في سبيل الله يحاول - بكل ما يستطيع - نشر هذا الدين، فهم يحفظون البربر شيئاً من القرآن، وهم يقفونهم على تعاليم الإسلام وهديه، وبذلك كانوا معلمين للبربر كما كانوا مجاهدين، ونبع تعليمهم سريراً، وأخذت جماعات كبيرة من البربر تعتقد الدين الحنيف لا اعتناقها ظاهرياً، بل اعتقاداً يعمق منها القلوب والأفتداء، فإذا هي تخلص له، وإذا هي تحمل السلاح لنشره وحرب أعدائه وأعداء الله، فمن ذلك ما يقال في ولاية أبي المهاجر الإفريقي (٦١-٥٥هـ) من أن قبيلة أوربة اتخذت مع جيشه في الاستيلاء على الساحل الشمالي للجزائر، وبصبح البربر جزءاً

لا يتجزأ من الجيش العربي لعهد حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) إذ نراه يعين ابن الكاهنة التي قادت ثورة عنيفة ضد المسلمين قائدین في الجيش بعد إسلامها، وأدخل فيه كتبية من البربر عداتها اثنا عشر ألفاً، وبذلك لم يعد في الجيش أى فارق بين العرب والبربر، فهم يجندون فيه ويتولون قيادة بعض فرقه الكبيرة. ويتولى بعده موسى بن نصر (٨٦-٩٦هـ) فيتخذ من البربر ولاة وقواداً مثل طارق بن زياد فقد ولأه طنجة ثم جعله قائداً للجيش الفاتح لإيبيريا وكان جيشه مؤلفاً من سبعة عشر ألف جندي عربي واثني عشر ألف جندي بربري، وأمر موسى الجنود العرب أن يعلموا إخوانهم جنود البربر القرآن وأن يفهومهم في الدين كما يقول ابن عذاري، وفي رواية أخرى: أن موسى ترك سبعين رجلاً من العرب يعلمون البربر القرآن وشرائع الإسلام. وهؤلاء السبعون فقيها لا يعودون شيئاً بالقياس إلى ما حدث حتى تاريخ ولاية موسى بن نصر من اندماج المغرب في الأمة الإسلامية. إذ أصبح يدين بيديها القويم ويتكلّم كثيرون من أهله بالعربية وهو عمل ضخم لا ينهض به سبعون فقيها، إنما تهضب به الجيوش العربية الفاتحة للمغرب التي خرجت إليه للجهاد في سبيل الله، ولنشر دينه وتعاليمه، مما يجعلنا نزعم أن هؤلاء الجنود كانوا مجاهدين في نشر الدين الحنيف بالمغرب من جهة ومعلمين لأهله القرآن و تعاليم الإسلام من جهة ثانية.

### (ب) النشأة العلمية

أخذ ينشأ في القيروان وتونس - منذ أواخر القرن الأول الهجري - جيل من مواليد إفريقيا التونسية يكتب على حلقات العلماء الوافدين من المشرق ينهل منها مثل عكرمة مولى ابن عباس المفسر المشهور، ويقول المالكي في رياض النغوس إن مجلسه كان في مؤخر جامع عقبة في القيروان حيث كان يلقى دروسه على الناس في التفسير والمحدث ومات سنة ١٠٥ للهجرة. وذكرنا في غير هذا الموضع أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أرسل إلى القيروان بعثة تعليمية مكونة من عشرة فقهاء اختارهم، ليفقهوا الناس في الدين وما يتصل به من تفسير للذكر الحكيم ومن شرح بعض الأحاديث النبوية، وهم: إسماعيل بن أبي المهاجر المخزومي، وجعيل بن عمير، وإسماعيل بن عبد الأنصاري، وعبد الله بن يزيد المافري، وسعد بن مسعود التجيبي، وعبد الرحمن بن رافع التخوخي، وحيان بن أبي جبلة القرشي، وبكر بن سوادة الجذامي، وموهوب بن حُمَيْر، وطلق بن جابان الفارسي. وأُسند إلى ابن أبي المهاجر - بمحاتب عمله الديني - ولاية إفريقية والمغرب كما أُسند إلى جعيل بن عمير فضاء المبدى، ويجدر أن نزلوا القيروان اتخاذ كل منهم داراً لسكناه ومسجدًا لصلاته وتعليم الناس أمور دينهم وسنة رسولهم. وهؤلاء المعلمون الرسميون للدولة كان يشتراك معهم في تعلم الشباب علماء آخرون من أهمهم يحيى بن سعيد الأنصاري الذي أرسله عمر بن العزيز عاملاً على الصدقات.

وكان محدثنا كبيراً ومحن روى عنه الحديث الأئمة أبو حنيفة وأبي حمزة واللثيم بن سعد فقيه مصر والأوزاعي فقيه الشام. وقد نزل مدينة تونس وأخذ عنه شبابها الحديث يتقنهم خالد بن أبي عمران التجبي قاضي القيروان وزميله عبدالرحمن بن زياد وعلى بن زياد.

والثلاثة من تلامذة يحيى بن سعيد الأنصاري والمعلمين العشرة الذين أرسلهم إلى القيروان عمر بن عبد العزيز وقد رأوا أن لا يكتفوا بما أخذوا عنهم بل ينبغي أن يضيفوا إلى ذلك رحلة علمية إلى مصر والمجاز والعراق للأخذ عن كبار الفقهاء والمحدثين وحملة العلم في تلك الديار. ولفت خالد بن أبي عمران التجبي أنظار الليث بن سعد وعبد الله بن هبطة في مصر وأبا حمزة إمام المجاز، وروروا عنه بعض أحاديث، وهي في موطن أبا حمزة عنه يسند يحيى بن سعيد المذكور آنفاً. وعبد الرحمن بن زياد تولى القضاء بالقيروان مرتين كان أبوه من جند حسان بن النعمان ولد له سنة ٧٤ للهجرة وتوفي سنة ١٦١ وحل للقاء العلماء والمحدثين في مصر والشام وال伊拉克 والمجاز عنه روى الحديث الفقيهان المصريان ابن هبطة وابن وهب كما رواه عنه سفيان الثوري العراقي. وعلى بن زياد التونسي معاصره رحل بدوره إلى الشرق وتلمنذ في مصر للبيت بن سعد وابن هبطة وفي العراق لسفيان الثوري وحل عنه كتابه المعروف باسم جامع سفيان وفي المدينة تلمنذ مالك، وهو أول من أدخل كتاب الموطأ في الفقه المالكي إلى المغرب، وكان يعاصره من الشباب العلمي في القيروان عبد الله بن فروخ الذي ثقف الفقه والمحدث على شيخ القيروان، ورحل إلى العراق ولزم أبو حنيفة فترة، ثم رحل إلى المجاز ولقى مالك بن أنس وكان يكاتب، وهو أول من نشر فقه أبي حنيفة في القيروان.

وهذه النشأة للعلوم الدينية رافقتها في إفريقيا التونسية نشأة العلوم اللغوية لسبب طبيعي، وهو أن من يزيد حفظ القرآن ورواية الحديث النبوى لا يمكنه أن يتقن ذلك إلا إذا وقف على سُنن العربية وكانتوا يستعينون على ذلك في أول الأمر برواية الأشعار، وكانت مدینتنا البصرة والكوفة جاذبتين في القرن الثاني الهجرى في وضع قواعد العربية، وولي القيروان والمغرب يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٥-١٧٠هـ) وكان بحراً فياضاً وصعب معه إلى إمارته المعمر بن سنان التميمي، وكان - كما يقول ابن الأبار فى ترجمته بالحللة السيراء - من أعلم الناس أيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها، وعنه أخذ أهل إفريقيا حرب غطفان وغيرها من وقائع **الغرب** ومحن صحبه يزيد كاتم سره أبو علی الحسن بن سعيد البصري، وهو من النحاة البصريين وكتاب المواتين، وكان يزيد غيناً مدراراً في الجبود والعلاء، كما ذكرنا، فاته غير شاعر، كما أنه أو **فرد عليه غير عالم نحوى ولغوى**، ومن أمّه يونس بن حبيب إمام البصرة في النحو واللغة، وتسامع به شباب القيروان فأكثروا عليه يأخذون عنه ما عنده، ووقف على يزيد من الكوفة قتيبة الجعفى وهو من نحاتها، وقد أفاد منه الشباب القيروانى وانتفعوا به، ووفد عليه

أيضاً عياض بن عوانة الكلبي النحوي الكوفي سنة ١٥٥ فرحب به، وخصه بتعليم أولاد أسرته وعندهأخذ أبناء القبروان النحو والمربيبة. وأخذ ينشأ في القبروان سريعاً جيل يعني برواية الأشعار والأخبار كما يعني باللغة والنحو على شاكلة أمان بن الصمصامة بن الطرماني الطائي الشاعر المشهور في مصر الأموي، وكان الصمصامة هاجر إلى القبروان في أوائل القرن الثاني، ولد له فيها أمان، وكان راوية للغة والشعر كما يقول ابن حزم، وتتلمذ له كثيرون من شباب القبروان في النحو واللغة والأدب. وما نصل إلى أواخر القرن الثاني المجري حتى يصبح للقبروان نعاه بالمعنى الدقيق لكلمة نعاه من مثل عبد الملك المهرى تلميذ أمان وعياض بن عوانة وغيرهما من النحاة والرواة، وبتكاثر النعاه في جيله وجيل تلاميذه.

#### (ج) دور العلم : الكتاتيب - المساجد - جامعاً عقبة والزيتونة - بيت الحكمة - الزوايا - المدارس

منذ استقرار العرب في القبروان والبلدان بإفريقيا التونسية أخذت تنشأ كتاتيب لتحفيظ الناشئة القرآن وتعليمهم مبادئ العربية - حتى يحسنوا أداء الآيات القرآنية - والأحاديث النبوية. ويبدو أنها أخذت تتکاثر منذ عهد حسان بن النعمان (٧١-٨٥ھـ) وكان يتعلم فيها أبناء البربر والعرب جميعاً، وطلبت أساس التعلم في البلاد، مثلها في ذلك مثل مدارس البلدان العربية، وتبصر الفقيه محمد بن سحنون المتوفى سنة ٢٥٦ للهجرة إلى أهمية التعليم في الكتاتيب وما ينبغي أن يؤخذ به في هذا التعليم من آداب ومن صفات في المعلمين وطراطئ معاملتهم للناشئة، مما جعله يكتب فيه كتاباً يعنون «آداب المعلمين» وفيه يرسم لهم قواعد التربية للناشئة من أبناء المسلمين، وما ينبغي أن يتصرفوا به في السلوك معهم وواجبات المعلم إزاءهم وأخذهم بالنهج السليم، وعُنى بنفس الموضوع بعده أبو الحسن القابسي المتوفى سنة ٤٠٣ھـ إذ ألف فيه كتاباً باسم «الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين» وهو أوسع من كتاب محمد بن سحنون وأكثر تفصيلاً، وفيه تحدث عن آداب معلم الإناث وما يصلح أن يعلم للناشئة وما لا يصلح وسياسة المعلم في تعليم الصبية إلى غير ذلك من موضوعات طريفة.

وكانت الدار الثانية للتعليم بعد الكتاب المسجد، حيث كان الشيخ يتحدثون في التفسير والحديث النبوى والفقه واللغة العربية والناس يتعلمون حولهم كما تتعلق الناشئة والشباب للتعلم وأخذ ما لديهم من تعاليم الدين وعلوم الإسلام والمربيبة. وقد أخذت تنبت في القبروان وتونس وغيرها من البلدان مساجد كثيرة، ومررت بها أن جميع أعضاء البعثة التي أرسلها عمر بن عبد العزيز إلى القبروان لتعليم الفقه والتفسير والحديث النبوى يبن كل منهم مسجداً وألقى به كتاباً. أما الكتاب فلتحفيظ القرآن، وتعتقد الصلة في المسجد، ويجلس الشيخ في جانب منه يلقى بعض دروسه الدينية.

وهنالك مسجدان بل جامعان كبيران تحولا مع السنين إلى جامعتين عظيمتين، وهما جامع عقبة بن نافع في القبروان وجامع حسان بن النعمان في تونس المسمى جامع الزيتونة، والجامع الأول بناه عقبة في تأسيسه للقبروان بين سنتي ٥٥٥ و٥٥٥ للهجرة وجده حسان بن النعمان في ولايته (٦٧١-٦٨٦هـ) وأزاد العرavan في القبروان وضاف بأهلها فوسعة عبيادة بن المحباب في ولايته (١١٦-١٢٢هـ). ومنذ أنشئه هذا الجامع يتحذه الشيوخ من أهل العلم لمدارسة الناس في علوم الدين وتحول سريعاً مركزاً للعلوم الدينية يؤمن شيوخه الطلاب من كل أنحاء المغرب فضلاً عن أرجاء إفريقيا التونسية، ولم يتأنّ ذلك إلى القرن الثاني المجري بعد توسيعة ابن المحباب له، كما قد يظن، إنما بدأ ذلك فيه منذ إنشائه في القرن الأول، يدل على ذلك ما ذكره أبو العرب في طبقاته، وأشارنا إليه في غير هذا الموضوع، من أن عكرمة مولى ابن عباس وتلميذه المتوفى في سنة ١٠٥ كان يجلس في مؤخره ويلقى على الناس دروسه في التفسير والحديث النبوى، ولابد أن رَجَرَ الجامع بحلقات أخرى لشيوخ مائلين في الفقه والشرعية الإسلامية، وأيضاً لشيوخ يرونون الأشعار والأخبار، حتى إذا ظهرت نحل المخوارج أخذ دعاتها يدعونه لها، وتكونت حلقات حول بعض هؤلاء الدعاة في جامع القبروان وخاصة حول عقيدة الإباضية، وحين ازدهرت الدعوة لمبادئ المعتزلة في القرن الثاني أخذت طريقها إلى جامع عقبة، وكان أهل السنة يضيقون بمناظرات الدعاة لقائد المخوارج والمعتزلة، حتى إذا ول سخنون إمام المذهب المالكي السنى القضاة سنة ٢٣٤ للهجرة أمر بوقف مناظراتهم وإلغاء حلقاتهم، حتى لا يفسدوا - في رأيه - الناس والشباب. وأكبر الفتن التي هاجروا إلى الجامع بعد وفاته سنة ٢٤٠ يتعلّقون فيه ويتجاذلون. وفضي إلى قيام الدولة العبيدية في القبروان، فيحرم خلفاؤها تدريس الشريعة الإسلامية على مذاهب أهل السنة من مالكية وحنفية في الجامع، ويضطر الشيوخ إلى تدريسها للطلاب في بيوتهم وحوانيتهم ويظل ذلك إلى مبارحتهم إفريقيا التونسية وعاصمتهم المهدية إلى القاهرة، وتعود إلى الجامع حلقات أهل السنة وخاصة المالكية وتظل له مكانته الكبيرة في الحركة العلمية بالبلاد.

وجامع الزيتونة بتونس ظل مع جامع عقبة في القبروان يقود الحركة العلمية منذ القرن الأول المجري في إفريقيا التونسية، بناء حسان بن النعمان في ولايته (٦٧١-٦٨٥هـ) وجده عبيادة بن المحباب سنة ١١٦هـ/٧٣٤م للهجرة. وأعاد تجديده وزخرفه - كما يقول الأستاذ حسن حسق عبد الوهاب - الأمير أحمد بن محمد الأغلبي وأتم بنائه آخره زيادة أقه سنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م، وأضاف إليه بنو خراسان في إمارتهم لتونس بعض تجديفات، منها زيادة أبوابه إلى اثني عشر باباً بعد أن كانت ستة، ودخلت عليه تجديفات أخرى في الحقب التالية. وهو مثل جامع عقبة أخذت الدروس الدينية تعقد فيه منذ تأسيسه، وأخذ شباب تونس يختلفون إلى حلقات شيوخه، وأخذوا يتمون دروسهم فيه ويترسّجون مثل خالد بن أبي عمران التجيبي

فاضي القيروان المتوفى سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م وهو أحد من سنوا زملائهم في تونس والقيروان الرحلة إلى المشرق للتزود من حلقات علمائه، كما مرّ بنا في غير هذا الموضع، واقتدى به في طلب العلم بالشرق تلميذه عبد الرحمن بن زياد وعلى بن زياد، والثلاثة في النروءة من علماء إفريقية التونسية، وأمّ الطالب حلقاتهم بتونس من كل فوج. وتكثر أسماء فقهاء تونس ومحنتها في القرن الثالث الهجري حق إذا ول الفاطميون بأخره من هذا القرن عطلاوا في جامع الزيتونه دراسات الفقه على أساس مذاهب أهل السنة، حق إذا انحصر ظلهم عن المهدية وغادروها إلى القاهرة عادت إلى الجامع حلقاته الدينية، وخاصة حلقات الذهب المالكي وشيوخه النابيين، وقد تهيأ له ولجماع عقبة من قديم أئمة في الفقه، وخاصة الفقه المالكي، وكذلك في الحديث لا يقلون فقهها وعلمها عن نظرائهم في البلاد العربية. وقد نال جامع الزيتونة الحظ الأعظم أيام الدولة الخصبة إذ عنيت عناية كبيرة ببيانه ومكتبه وشيوخه وطلابه.

ومن دور العلم المهم في إفريقية التونسية وإن لم تمر طويلاً بيت الحكمة الذي أنشأه إبراهيم الثاني الأغلبي محاكاة لدار الحكمة التي أسسها بغداد هارون الرشيد ورعاها ابنه المؤمن. وكان هذا البيت خاصاً بعلوم الأوائل مثل دار الحكمة البغدادية، وللأستاذ حسن حسن عبد الوهاب مبحث قيم فيه بالقسم الأول من كتابه ورقات عن الحضارة العربية في إفريقية التونسية، وفيه تحدث عن تأسيس إبراهيم الثاني الأغلبي له، وتنظيمه وحزانه كتبه وإمداده سنويًا بالعلوم والمخطوطات، إذ كان يرسل سنويًا سفارة إلى بغداد بطلب إخصائين في علوم الأوائل وشراء مخطوطات الكتب النفيسة في الطب والفلك والرياضيات إلى غير ذلك. ويستظر الأستاذ عبد الوهاب أن المترجمين فيه ترجموا أحياناً من اللسان اللاتيقي بعض الكتب، ويقول إن هذا البيت أوجد النواة لمدرسة الطب القيروانية التي أثرت في الحركة العلمية بالمغرب، ويدرك أن قسطنطين القيسين المسيحي المولود بقرطاجنة سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م والناشيء بالقيروان والمتلذذ لما شاهد أطبانها نقل كتبهم الطبية المهمة إلى اللسان اللاتيقي في جامعة ساليرنو ومنها انتقلت إلى الجامعات الإيطالية وغير الإيطالية مما كان له أثره العريق في النهضة الثقافية بالبلاد الأوروبية. وغضي إلى عهد على بن عيسى الصنهاجي أمير المهدية (٥٠٩ - ٥١٥ هـ) فنجد أنه ينشئ مدرسة للكيمياء زودها بما تحتاجه من آلات لتحليل المعادن وأدوات مختلفة للتقدير.

وأخذت تونس منذ القرن السابع الهجري تستكثـر - مثل بقية بلدان المغرب - من زوايا المتصورة، وتبعتها في ذلك بقية بلدان الإقليم التونسي وهي أشبه بمساجد صفرى تضم مهاف للشيخ والطلاب وتلقى فيها دروس العلوم الدينية واللغوية، مما جعلها تشارك في نشر التعليم بمستوياته المختلفة، وكان يلحق بها عادة كتاب تحفيظ القرآن

ال الكريم . وفي عصر الدولة المغربية تجد الحركة العلمية تزدهر بفضل رعاية الدولة لها وما أنشأت من مدارس شارك فيها المهاجرون الأندلسيون إلى تونس، وأول مدرسة أسستها هذه الدولة مدرسة الشماعية أسسها أبو زكريا أول حكامها، وأسست الأميرة عطف أرماته المدرسة التوفيقية، وأسس أبو زكريا بن السلطان أبي إسحق مدرسة ثالثة هي مدرسة المعرض بسوق الكتبين، وأسست أخت السلطان أبي بكر مدرسة رابعة، وأسس الوزير ابن تافراوين مدرسة خامسة، وأسس السلطان أبي عبد الله بن أبي فارس المدرسة المنصرية، وتوفي قبل أن تتم فاتح بناءها أخيه أبو عمرو عثمان على أكمل بناء وأتقنه ووقف عليها وقفًا كافياً . وغضي إلى العهد المنامي، وبظل للحركة العلمية نشاطها وخاصة حين قدم إلى تونس المهاجرون الأندلسيون سنة ١٦٠٩ هـ / ١٧٩٠ م ومؤسس مراد باي الثانى مدرسة عرفت بالمرادية في سوق القماش . وأسس الباي حسين بن علي ثلاث مدارس: المسينية والنخلة والمدرسة الجديدة، وأسس مدارس أخرى بالقيروان وسوسة وصفاقس ونقطة، وأسس ابن أخيه على أربع مدارس: الباشية في سوق الكتبين والسلامية ومدرسة بير المغار ومدرسة حوانيت عاشر . وبلغت المدارس في تونس بأخرة من هذا العهد العثماني عشرين مدرسة .

#### (د) المكتبات

وعما عمل على أن تظل الحركة العلمية نشطة في القىروان وتونس وغيرها من بلاد إفريقيا التونسية على توال الأزمات تأسيس المكتبات العامة وفي الجواعن والمدارس والزوايا . وكانت دانيا مفتوحة الأبواب للشيخوخ والطلاب يفيدون منها، وفي مقدمتها المكتبة العتيقة بجامع عقبة في القىروان، ولابد أن كان الشيخ في القرنين الثانى والثالث للهجرة يهدون إليها نسخة أو أكثر من مؤلفاتهم، واهتم الأغالبة بها ووقفوا عليها كتباً كثيرة، ومثلهم الأعيان وأصحاب اليسار، ولا تزال إلى اليوم قوج بنفاتس المصاحف المزخرفة وأمهات الكتب في الفقه والتفسير والحديث والقراءات واللغة والأدب . ولما أنشأ إبراهيم الأغلبي الثانى بيت الحكمة برقادة أسس فيه مكتبة ضخمة وأخذ يجمع إليها ذخائر الكتب وروائعها في علوم الأولئ والغيرها من العلوم الدينية واللغوية، وحين بني عبيد الله المهدى مدينة المهدية نقل إليها كثيراً من روانع الكتب في هذه المكتبة، وأسس حفيده المنصور مكتبة في مدينة المنصورية وجلب إليها آلاف المخطوطات، ونقل المز منها ومن مكتبة جده المهدى كثيراً ما كان بها من المؤلفات معه إلى القاهرة غير أن بقية فيها من الكتب ظل يتنفع بها طلاب العلم والعرفان . ومن المؤكد أن سوق الوراقين الذين ينسخون الكتب كانت رائجة، ويروى عن حمدون بن مجاهد الكلبي أنه قال: «كتب بيدي ثلاثة آلاف وخمسة كتاب» كما يُروى عن أبي العرب التميمي صاحب كتاب طبقات علماء إفريقيا وتونس أنه قال: «كتب بيدي أربعة آلاف كتاب» واشتهر كثيرون بتكونهم لأنفسهم

مكتبات خاصة مثل أحد بن على بن حيد وكان أبوه من وزراء الأغالبة، وشغف بجمع الكتب، وبيعت مكتبته بعد وفاته بألف ومائتي دينار، وشغف عبد الله بن أبي هاشم التجيبي المتوفى سنة ٣٤٦ للهجرة بنسخ الكتب وجمعها، فلما توفي بلغ وزن ما عنده من الكتب سبعة قناطير جميعها بخطه ما عدا كتابين. وكثير من العلماء كانوا يحرصون على جمع الكتب وتكونين مكتبات لهم كبيرة، منهم الطبيب أحمد بن الجزار المتوفى بالقيروان سنة ٩٧٩هـ / ١٣٦٩ م كانت له مكتبة ضخمة، إذ يقول ابن جلجل الأندلسي في كتابه طبقات الأطباء: إن وزن كتبه التي خلفها بلغ عشرين قنطرة. ويروى أن المعز بن ياديس (٤٥٤-٤٠٦هـ) أشفق على أبي بكر عتيق السوسي الفقيه الحافظ الورع حين علم بضيق ذات يده مما لا يمكنه من اقتناه الكتب، فأرسل إليه - كما في كتاب معالم الإيمان - مجموعة كبيرة من أمهات كتب العلوم الدينية حلها إليه عشرون حفلاً، ومعها رسالة رقيقة يقول له فيها: «هذه كتب في خزانتنا ضائعة. وبقاواها عندنا مما يزيدنا ضياعاً، وأنت أولى بامتلاكها للانتفاع بها» فالاتس الشيباني يكتب على كل جزء منها أنه موقف على طلبة العلم، وأودعت جميعاً بمكتبة جامع عقبة بالقيروان لينتفع بها الشيوخ والطلاب.

ولم تلبث سيول الأعراب المجارفة من بني سليم وهلال أن اكتسحت القيروان بأخرة من أيام المعز بن ياديس سنة ٤٤٩هـ / ١٠٥٨ م وتوقفت بالقيروان الحركة العلمية المزدهرة، وحاول على بن يحيى حفيد المعز الصنهاجي (٥١٥-٥٠٩هـ) أن يسترد المجد العلمي لإفريقية التونسية أو شيئاً منه، فأنشأ بالمهدية مدرسة للكيمياء، كما مرّ بنا، وألحق بها مكتبة، غير أنها لم تكمل سوى نحو ربع قرن. وظلت إفريقية التونسية مضطربة نحو قرن نهب فيه -أوضاع- كبير من الكتب النفسية التي كانت مودعة في جامعى القيروان والزيتونة، حتى إذا كان عهد الدولة الحفصية وأخذ مؤسسها يسترد للبلاد ما كان بها من نهضة علمية أُسس في القصبة بعاصمة تونس مكتبة ضخمة جمع لها بقايا مكتبات الأغالبة والصنهاجيين، وأضاف إلى ذلك كثيراً من الكتب والممؤلفات ويقال إنها كانت تحتوى ستة وثلاثين ألف مجلد، وظل خلفاؤه يعنون بجمع الكتب لها، وظل الشيوخ والطلاب ينتفعون بكتبها طوال أيام الدولة الحفصية، وكان بها كتب نفسية كبيرة، حتى لترى ابن خلدون يذكر أنه بعد تأليفه لكتبه بقلعة أبي سلامة في الجزائر احتاج إلى مراجعة بعض أمهات الكتب، فولى وجهه إلى تونس ليطلع على ما يريد منها في المكتبة الحفصية. و Ashton السلطان أبو فارس عبد العزيز أنه حين صار إليه صولجان الحكم سنة ٧٩٦هـ / ١٣٢٤ م على بتأسيس مكتبة تحت الصومعة بجامع الزيتونة وقف كتبها على طلبة العلم، وجعل لها وقتاً محدوداً للاطلاع فيها كل يوم وجعل عليها قومةً ومناورين يتناولون الكتب للطلبة ويردونها إلى مكانها بعد فراغهم منها، واشترط في وقوفه أن لا يغار منها كتب في الخارج محافظة عليها وصيانة، وعنى بهذه السلطان أبو عبد الله محمد بن الحسن بتأسيسه مكتبة بني هاشم مقصورة بطرف

صحن جامع الزيتونة، ونقل إليها كتب مكتبة أبي فارس وجعل لها وقتاً محدداً للاطلاع وقومة ومتناولين وسميت نسبة إلى باسم المكتبة العبدالية. وبعث الإسبان حين استولوا على تونس - في القرن العاشر المجري - بهذه المكتبة وعانتها فيها فساداً، وأنقذ بعضهم منها كتاباً أرسل بها إلى مكتبة الغاتيكان بروما، ولا تزال بها إلى اليوم. ولم يكن الشمانيون أصحاب حضارة ولا ثقافة، فلم يعنوا بمكتبات تونس العناية الواجبة، حتى إذا قامت الدولة المراديةأخذ النشاط يعود إلى جامع الزيتونة ومكتبه، واطرد هذا النشاط في عهد الدولة الحسينية منذ استولى على مقايد الحكم مؤسساً لها حسين بن علي إذ عين بالجامع أربعين مدرساً في مختلف العلوم الدينية واللغوية وأجرى لهم رواتب، وانتظم التعليم بالجامع منذ ذلك الحين.

## ٢

علوم<sup>(١)</sup> الأوائل

لا يُذكر أحد من أصحاب علوم الأوائل قبل أيام الدولة الأغليبية إلا ما يتردد في كتب الترجم عن أشخاص يسمونهم فقهاء البدن، ولم يكونوا أطباء بالمعنى الدقيق لكلمة طب، إذ كانوا يعتمدون على بعض المعارف والخبرات البسيطة. وأول ذكر للطلب بمعناه الدقيق - وبالمثل لعلوم الأوائل - نلقي به في عهد الدولة الأغليبية حينما أنشأ إبراهيم الثاني الأغليبي (٢٦١ - ٢٨٩ هـ) في عاصمته رقادة بجوار القيروان بيت الحكمة الذي أئمننا به فيما أسلفنا، إذ استقدم له من بغداد الدارسين للطب ولعلوم الأوائل كي ينهضوا بالدراسة فيه، وكان من استجابوا له في سنة ٢٦٤هـ/٨٧٧م إسحق بن عمران، وكان حاذقاً بالطب وعلوم الأوائل، وفيه يقول إبراهيم الرقيق مؤرخ القيروان: «كان إسحق طيباً حاذقاً منتمياً بتأليف الأدريية المركبة بصيراً بتفقة العلل» ويقول ابن جليل الأندلسي في كتابه طبقات الأطباء: «به ظهر الطب في المغرب وعرفت الفلسفة» ويقول صاعد الأندلسي: «من اشتهر بعلم الطب وسائر العلوم المستنبطة من العلم الطبيعي إسحق بن عمران، وكان مقدماً في جودة قريحته وصحة

الخامس من تاريخ الأدب العربي لبروكليمان والقسم الأول من كتاب ورقات عن المضاربة العربية. بإفريقيا التونسية والعلم عند العرب للأدوسي ولتاريخ الأدب المغربي العربي لكراتشفسكي.

(١) انظر في علوم الأوائل بإفريقيا التونسية كتاب طبقات الأطباء لابن جليل وطبقات الأمم لصاعد والجزء الأول من البيان المغربي لابن عذاري وأخبار المكتبة للقطنطي ومقدمة ابن خلدون، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيحة ومعالم الإيمان لابن ناجي وبرنسفيل ٣٨٧/٢ وما بعدها. والجزء

علمه، وهو الذي ألف بين الطب والفلسفة بديار المغرب». وواضح أنهم جمعوا له بين الطب والصيدلة والفلسفة وعلوم الطبيعة، وهو - يحق - مؤسس مدرسة الطب وعلوم الأوائل بإفريقية التونسية، ومن تلذموا له في الطب محمد بن الجزار وزيدان بن خلفون، وفي الطب والفلسفة إسحق بن سليمان الإسرائيلي، وفي الفلسفة أبو سعيد الصيقل، وألف مجموعة من الكتب في الطب وغيره، لم يبق منها إلى اليوم سوى كتابه: الماليخوليا وفي مكتبة ميونخ مخطوطة منه، ويقول ابن جلجل في هذا الكتاب: «لم يُسبق إسحق بن عمران إلى مثله، ترقى سنة ٢٩٥هـ/١٠٧م. وكان يعاصره ويعمل معه في بيت الحكمة فلكي من مواليد القيروان هو إسماعيل بن يوسف، رحل إلى العراق ودرس هناك علم الفلك والنجوم، ويقول الزيدي: «كان غاية في علم النجامة» وحقق في بغداد صنعة الطلاء المتصلة بتحميم وجوه النساء وأبدانها ونظريتها بصنوف من الطيب والعقارب، وهو ما يسمى عند الغربيين باسم «الماكياج»، ولعلمه بهذا الطلاء، والفلك اشتهر باسم الطلاء المنجم، وكان يشتغل في بيت الحكمة بالفالك والرياضيات، ولما غلب الفاطميون على القيروان غادرها إلى قرطبة، وهو دليل على أن بيت الحكمة في رقاده كما كان يعني بالطب كان يعني بالرياضيات، ونفس الشرف عليه وهو أبو اليسر رئيس دواوين إبراهيم الثاني الأغلبي كان يعرف بلقب الرياضي مما يدل على علمه بالرياضيات، ولا بد أن كان اليهت يعني أيضا بالكيمياء والطبيعيات وأيضا بالفلسفة، فقد وضع إسحق بن عمران فيه أساس الدراسات في كل ذلك.

ومن الأطباء الذين لمع اسمهم أيام إبراهيم الثاني الأغلبي زيدان بن خلفون، وكان طبيبا في دمنة (مارستان) القيروان، وكان يذهب إليها في أيام معينة من الأسبوع لزيارة من بها من المرضى، وكان يزور أيضا دار الجندياء لرؤية المصاين والكشف عليهم وتتبع سيرة مرضهم، توفي سنة ٢٩٢هـ/١٠٤م جلب أحد رسل زيادة أقا الأصغر إليه طبيبا يهوديا ناشتاً من مصر يسمى إسحق بن سليمان الإسرائيلي، تلذم إسحق بن عمران في بيت الحكمة حتى إذا ترقى خلفه فيه، وسرعان ما انتهت دولة الأغالبة فخدم العبيدين منذ خليفتهم المهدى إلى المعز، ويقول فيه ابن جلجل: «كان مشهورا بالخذق والمعرفة، جيد التصنيف بالعربية بصيرا بالمنطق يُعنى بالفلسفة متصرفا في ضروب المعرفة»، وعمر حق بلغ المائة، وتوفي حول منتصف القرن الرابع، وأُسنده إلى يهود إفريقية رياستهم الدينية، وله مؤلفات في الطب بالعربية وترجمت سريعا إلى العربية، ومن مؤلفاته العربية كتاب المعيقات وكتاب البول وكتاب النبض وكتاب الترافق وكتاب بستان الحكمة وكتاب الأغذية والأدوية. ويشتهر في القرن الرابع المجري طبيان يهوديان من تلامذة إسحق بن سليمان الإسرائيلي هما دونش وموسى بن العزار، ودونش من مواليد القيروان بأخرة من القرن الثالث المجري تخرج على يديه إسحق بن سليمان الإسرائيلي في الطب والنجوم والحساب والفلسفة، وكان يتقن العربية،

ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ابن ابن البيطار ينقل في كتابه عن الصيدلة أو الأدوية المفردة عن كتاب له يسمى التلخيص وصفه فيه لبعض النباتات، مما يدل على أنه كان كتاباً في الأدوية المفردة، ويدرك الأستاذ عبد الوهاب أن له كتاباً في الحساب الهندسي وكتاباً ثانياً في الفلك وحركة الكواكب، وموسى بن العزاز طبيب إسرائيلي، توفي بعد سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م وقد خدم هو وأبناؤه الدولة العبيدية وخلفاءها في المهدية وبعد تخرجه إلى القاهرة وله كتاب باسم الأقرابدين أى الصيدلة، مما يدل على اهتمامه بتركيب الأدوية وطرق العلاج بها. ومن أطباء العبيديين الإفريقيين أعني بن أعين، وكان يحترف في القيروان طب العيون - ويسميه العرب - الـ كـحالـةـ، ولما انتقل المعز إلى القاهرة انتقل في جنته، وكان ماهراً في معالجة الرمد المزمن، ومن شفى على يديه شيخ المالكية ابن أبي زيد، ولهم كتاب في الطب وكتاب في أمراض العيون ومداواتها.

وتوارث الطب في القيروان -منذ عهد الأغالبة- أسرة بنى الجزار، وأول من اشتهر بالطب فيها أبو بكر بن الجزار تلميذ إسحق بن عمران طبيب بيت المحكمة كما يذكر ابن جلجل، ومثله آخوه إبراهيم وكان يعني بالـ الحالـةـ أو طب العيون. وابنه أحد المولود سنة ٢٨٥ هـ / ٩٩٨ م بالقيروان أربع أطباء الأسرة وقد توفي سنة ٣٦٩ هـ / ١٩٧٩ م ومن طريف ما يروى عنه أنه بنى عند باب داره عيادة لاستقبال المرضى، وأفرد فيها قسماً خاصاً لصيدلية جعل لها فتق يسمى رشيقاً، تقدّم بن يديه جميع الأدوية من معجونات وأشربة ومراثم، وكان إذا فحص المريض ووقف على دائه وصف له في ورقة ما يناسبه من الأدوية، فإذا أخذها إلى رشيق وبطشه دواده الموصوف، بالضبط كما يحدث في عصرنا، فللأطباء عياداتهم وللأدوية صيدلياتها. وأحد بن الجزار يقوم في الطب بالقيروان مقام ابن سينا في إيران والزهراء في قرطبة. وللأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ترجمة ضافية له في القسم الأول من كتابه ورقات عن المضاربة العربية بإفريقية التونسية تحدث فيها عن سيرته ومؤلفاته وفي مقدمتها كتابه: «زاد المسافر وقوت الحاضر» في علاج الأمراض بمجلدان، ويقول عنه إنه «من أهم الكتب الطبية العملية التي وضعها المسلمون»، ويدرك أن قسطنطين المعروف باسم الحكم الإفريقي عد - حين رأس كلية ساليرنو في جنوب إيطاليا - إلى ترجمة هذا الكتاب إلى اللاتينية ونسبه - كذلك وبهتان - إلى نفسه، ويعلم بما كتب حول الكتاب من بحوث في العصر الحديث، ويدرك مؤلفات ابن الجزار بأسمائها وقد بلغت سبعة وتلائتين كتاباً في الطب والتاريخ والمغرافيا والأحجار الكريمة، وله بجانب كتبه الطبية الكثيرة كتاباً في الصيدلة بعنوان: «البيغة في الأدوية» و«الاعتماد في الأدوية المفردة».

ونظل حركة علوم الأوائل التي غرس الأغالبة جذورها نامية في أرض القيروان الطيبة.

ونلتقي بأبي عبد الله محمد بن يوسف التاريخي القيروانى نزيل الأندلس المتوفى سنة ٣٦٣ في عصر المستنصر الأموى، وله كتاب عن مسالك إفريقيا ومالكها انتفع به أبو عبد البكرى فى كتابه «المسالك والمالك»، وبُطّل القيروان عصر الدولة الصنهاجية، وكل كتاب القيروان العلمية النفسية ترجمتها القسيس قسطنطين سالف الذكر فى أثناء رياسته لكتبة ساليرنو ولذئر جبل كاسينو، ولم يكدر يترك كتابا علميا منها لعلماء القيروان من أمثال إسحق بن عمران وابن المزار إلا ترجمه هو وربما هؤلاء هذا الدير. وانتقلت ترجماته إلى العالم الغربى منذ القرن الحادى عشر الميلادى إذ توفي سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م وكان لتلك الترجمات، كما مرّ بنا، أثر بعيد في النهضة العلمية الأوروبية. وكان يعاصر الرياضى الفلكى المجازرى ابن أبي الرجال رياضيًّا قيروانى، هو عبد المنعم بن محمد الكندى القيروانى المتوفى سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م وكان إماماً في الرياضيات حاذقاً في فن الأشكال الهندسية لإقليميس. ومرّ بنا - منذ قليل - أنَّ الأمير على بن جعفر الصنهاجى (٥١٥-٥٠٩هـ) أنشأ مدرسة للكيمياء في عاصمة المهدية، وقد أشرف عليها كيميائى أندلسى كبير، هو أمية بن أبي الصلت، ولم تدم بعد وفاته طويلاً، غير أنها تدل على ما ظلل بالمهديه والقيروان من روح علمية حتى مطلع القرن السادس المجرى.

ونلتقي في أوائل عهد الدولة الخصصية بعالم تونسى موسوعى كبير هو التقىاش الكيميائى أحد بن يوسف المولود بقفصة التونسية سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م وقد لاه أبو زكريا خطة القضاة ببلدة قفصة وله رحلات كبيرة إلى الشام والعراق وإيران وأيضاً مصر واستقر بها حتى توفي بعد سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م وكان قد تعمق كل فروع الثقافة الإسلامية كما تعمق علوم الأوائل، ورأى أن يضع للدارسين في وطنه والأوطان العربية موسوعة تضم كل العلوم والفنون والتاريخ، وجعلها في أربعين كتاباً، وأنفرد منها كتباً للطبع والطباعة ومظاهرها وكل ما فيها من نبات وحيوان ومعادن، وفي كل فرع من علم يذكر ما فيه للبيونان والفرس وغيرها من المعجم والعرب، ومن كتب هذه الموسوعة كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار وهو في علم المعادن، وقد نشر في هولاند بالقرن الماضى مع ترجمة لاتينية، وحققه في مصر الدكتور محمد يوسف حسن ونشره مع مقدمة تحليلية. وله كتاب عن الفناء والموسيقى وألات الطرب سماء: «متنعة الأسماع في علم السماع»، وفيه تحدث عن تاريخ الموسيقى عند العرب وفي إفريقية التونسية وفي الأندلس على مر العصور حتى زمنه، وهو طرفة نفسية، ونلتقي في عهد المستنصر بطبيبه: ابن اندراس محمد بن أحد المتوفى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٦م وكانت له مشاركة في الرياضيات والمقولات، ويشتهر حينئذ آل الصقل الزيات بالطب وابن الكعاد رياضي يوضعه الجداول الفلكية قبل سنة ٦٧٩هـ/١٢٨١م. وكان يلمع من حين إلى حين عالم بعلوم الأوائل وخاصة في مجال الطب لحاجة الناس والبيمارستانات إليه، ونضرب مثلاً لهم عبد السلام بن ابراهيم الزيات الصقل المتوفى سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٣م وقد ألف ابنه أحد المتوفى سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م للسلطان

المحضى أبي فارس عبدالعزيز - كما في الضوء الامم للسخاوي - مختصرًا في الطب بربه إلى ثمانين بابا، ونضرب مثلاً ثانياً بطبيب هو عبدالرحمن بن أبي سعيد الصقل الم توفى سنة ١٤٦٧هـ / ١٨٧٢م ومثلاً ثالثاً هو أحمد الخميري من أطباء تونس في القرن العاشر المجري ولهم كتاب في الطب والأطباء يسمى تحفة القادم.

ولم نعرض حق الآن لعلم المغرافية في تونس، وتلقانا في مقدمة ابن خلدون الم توفى سنة ١٤٠٦هـ / ١٨٨٠م فصول مختلفة في حديثه عن العمارة إذ يفرد فصلاً للحديث عن العمارة في الأرض وما بها من البحار والأنهار والأقاليم، وهو يدها كرة، نصفها يابس ونصفه فقط المسكن أو المعمور، ويتحدث عن أقاليمها السبعة وانقسام كل إقليم إلى عشرة أجزاء، ويقول صراحة إنه ينقل عن بطليموس المغراف المصري القديم والإدريسي في كتابه المشهور: زهرة المشتاق في اختراق الآفاق الذي ألفه في نحو منتصف القرن السادس لروجارت الثاني التورماني ملك صقلية، ويكلل حديثه المغراف في ذلك عن الربع الشمالي من الأرض الأكثر عمراناً من الربع الجنوبي ويدرك مقتنيات من كتاب الإدريسي، ويضيف بعض معلومات عن جزر المحيط الأطلسي والسودان، وينقل عن ابن سعيد المغراف الأندلسي. وأهم من هذا الحديث المغراف الذي غالب عليه فيه النقل حديثه الذي يعد سابقاً فيه تأثير البيئة المغرافية في حياة البشر وتأثير الهواء في ألوانهم والملحوم والمحصب في أبدانهم وأخلاقهم، وبجانب هذه المغرافيا الاجتماعية عنده جغرافيا اقتصادية بصورة فيها العمارة البدوي والمصري، ونصف المضرى والمماش وألوانه. وهذه الوجوه من المغرافيا الاقتصادية والاجتماعية تعد الجوانب المغرافية عنده.

والمعروف أن كثرين من جغرافيي العرب عُنوا بوضع خريطة للعالم، وكان بطليموس المغراف المصري القديم قد وضع خريطة للعالم تدارسها علماء العرب في عصر المؤمن ووضعوا للعالم خريطة أكثر دقة، ومازال جغرافيي العرب يضعون خرائط على هدى خريطة المؤمن حتى جاء الإدريسي المذكور آنفاً ووضع خريطة الكبيرة التي تراعي درجات الطول والعرض وقد أهداها إلى روجارت الثاني الملك التورماني. ونجد جيلين في أسرة الشرقي بصفاقس في الأقليم التونسي يعنيان بوضع خرائط للعالم ما بين عامي ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م و١٠٠٩هـ / ١٦٠٠م تعد صوراً منقحة لخريطة الإدريسي كما يقول كرانشوك فسلى في كتابه تاريخ الأدب المغراف العربي، وقد وضع أولهم: علي بن أحد الشرقي الصفاقسي سنة ٩٥٨هـ / ١٥٥١م أطلساً في شفاف ورقات يصور بها سواحل البحر المتوسط وهي محفوظة في المكتبة الأهلية بباريس. وفيها خريطة للقبلة ووضحت عليها موقع جميع البلدان بالنسبة للكعبة، ويليها خريطة عامة للعالم ثم خرائط لسواحل إسبانيا وجزر البليار وسواحل إيطاليا ومعها جزيرتا كورسيكا وسردانيا والسائل

المقابل لإفريقيا ثم خرائط لسواحل البحر الأسود والداخل المتوج لأسيا الصغرى والشام ومصر وخريطة لليونان وجزر الأرخبيل وكربلاء وساحل إفريقيا مقابل لها، وخريطة لبرقة وطرابلس وتونس. وفي أوكتوبر خريطة للعالم رسماً أحد أبناء الأسرة سنة ٩٧٩هـ/١٥٧١م. ويدرك كراتشيفسكي خريطة للعالم لأحد أبناء الأسرة سنة ٩٨٦هـ/١٥٧٩م. وكان آخرهم محمد بن علي الشرقي الصقافسي وهو خريطة للعالم رسماً سنة ١٠٠٩هـ/١٦٠٠م. وتدل هذه الخرائط على أن خريطة الإدريسي تحولت عند هذه الأسرة إلى أطلس وخريطة حاتمية، وهو بلا ريب عمل جغرافي جليل لتونس.

## ٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد<sup>(١)</sup>

من هنا الحديث عن نشأة علوم اللغة والنحو بالقروان وأنها اعتمدت على بعض رواة اللغة والشعر مثل أمان بن المصمة بن الطرامح، كما اعتمدت على بعض نحاة كوفيين وأغدبن مثل قتيبة الجعفي وعياض بن عوانة، وسرعان ما ظهر جيل قرواني خالص يتعنى باللغة والشعر مثل أبي محمد عبد الله بن محمود المكوف المتوفى سنة ٢٠٨هـ/٩٢٠م وأصله من سرت بليبيا، ويقول القبطي: «كان من أعلم خلق الله تعالى بالعربية والغريب والشعر وتفسير المشروحات وأيام العرب وأخبارها ووقائعها..» وله كتب كثيرة أملأها في اللغة والعربية والغريب، وله كتاب في العروض يفضله أهل العلم على سائر الكتب المؤلفة فيه لما بين فيه وقربه، وعليهقرأ الناس المشروحات، وإليه كانت الرحلة من جميع إفريقيا والمغرب، وله أشعار فصيحة وأراجيز غريبة، وله كتاب في شرح صفة أبي زيد الطائي للأسد جواد فيه وحسنه. وكان يعاصره عبد الملك بن قطن المهرئ القرواني شيخ أهل اللغة والعربية وراوى القوم وعمدهم ورئيسيهم كما يقول القبطي وكان من أحفظ الناس لأنساب العرب وأشعارهم ووقائعهم وأيامهم، وكانت الأشعار المشروحة تقرأ عليه مجردة من الشرح فيشرحها ويفسر معانيها، فلما دخلت هذه الأشعار مشروحة إلى القروان نظر طلبة العلم من العربية فيها فلم يجدوا في شرحه خلافاً لما قال أصحاب الشروح ولا وجدوا عليه في روايته وشرحه اللغوی شيئاً من الخطأ، وهو

(١) راجع في تراجم هذه الموضوعات طبقات وكذلك ابن الأبارق الملقب السيراء وابن عذاري في التهويين واللغويين للزبيدي وإناء الرواية للقطني والبيان المغرب واظفر المؤلفات المذكورة للحصرى وابن شرف وابن رشيق في تراجمهم وراجع كتابنا ومعجم الأدباء لهافت وانظر في عبدالدايم بن مرزوق بخطه المتنس للضعى والصلة لابن شوكوال دراجع الأنفرنج لابن رشيق في الموه بأشعارهم منهم

تلמיד لأمان بن الصمصامة وعياض بن عوانة وقبيبة الجعفي وكثير من الأعراب مثل أبي المتبع الأعرابي وغيره، غير أنه عمر عمرًا طويلاً، إذ توفي سنة ٣٥٦هـ/١٩٦٦م. ومن معاصره أبو أحمد بن إبراهيم بن أبي عاصم أبو بكر اللؤلؤي المتوفى سنة ٣١٨هـ/١٩٣٠م وكان من العلماء النقاد في العربية والغريب والنحو والقيام بأكثرب دواوين العرب، وهو تلميذ أبي محمد المكتوف المذكور آنفاً، وألف كتاباً في الضاد والظاء فحسنه وبينه. ولم تلبث القبروان أن أخرجت لغويها كثيرًا طار اسمه في الآفاق هو القرّاز محمد بن جعفر التميمي المتوفى سنة ٤١٢هـ/١٩٣١م درس على شيوخ القبروان، ثم رحل إلى العراق فدرس على أئمة اللغة والنحو، ونزل في القاهرة أيام العزيز نزار (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) وعرف فضله، فعين في دواوين العزيز، وألف له استجابة إلى طلب منه - كتاباً في المروف التي ذكرها التحاة في قوله: إن الكلام اسم و فعل وحرف جاء لمعنى على أقصد سبيلاً وأقرب مأخذ وأوضح طريقة، فيبيان معانى المروف مع ترتيبها على حروف المعجم، فبلغ الكتاب ألف ورقة، وقدم إلى العزيز صورة منه فأعجبه ورضيه. وتوفى العزيز فعاد إلى القبروان وشُفِّف به وبمجالسه الطلاب والمتأدبوهون لعلمه اللغوي الغزير وحسن تدوّقه للأدب، ولم يكن ذوقه للأدب والشعر فحسب، بل كان أيضًا ناقدًا بصيراً وشاعرًا مجيداً، وفخر على يديه ابن شرف القبروان الشاعر المبدع وابن رشيق الشاعر والناقد الممتع. وله في اللغة معجم سماء «جامع اللغة» وهو معجم كبير رتبه على حروف المعجم، ويقول ياقوت في معجم الأدباء عنه إنه يقارب في الحجم معجم التهذيب للأزهرى، وله في الضاد والظاء وتبادلها في الكلمات مبحث كبير في ثلاثة أجزاء، وله المثلث في اللغة، وله كتاب ما أخذ على المتبنى من اللحن والفالط، وكتاب العشرات يذكر فيه اللفظ ومعانيه المتراوفة، وفي دار الكتب المصرية منه خطوطه، وله إعراب مقصورة ابن دريد وشرحها، وكتاب الحال والشتات في أوصاف الأدباء طبع في صيدا ولبنان، وله شرح رسالة البلاغة في مجلدات، ومن كتبه الطريقة ضرائر الشعر، وهو دراسة تفصيلية لما يجوز للشاعر استعماله من ضرورات الشعر، وهو مطبوع بتونس. وتنقى تلميذه الحسن بن محمد التميمي اللغوي النسابة، وكان القرّاز قد عنى به محبة له، فبلغ به نهاية الأدب وعلم الخبر والنسب، وكان شاعرًا نابها قوى الكلام خبيرًا باللغة، وكان شديد الشفف بديوان ذي الرمة، وعنه أخذة الناس كثاً أخذوا دواوين الماجاهلة. وكان معاصره إسماعيل بن إبراهيم القبروانى اللغوى، تقدّم في علم الغريب وطلبه وعلو سماعه، وكان يبحث عن الشذوذ اللغوى بحثاً شديداً، وإلى أمميات كتبه ترجع - كما يقول القبطى - جميع النسخ وبها تقابل وعليها تصلح، وهو من مذاх المعز بن ياديس وفيه يقول:

**بَذْ الْمُوكْ جَلَالَةً وَمَهَابَةً وَعَلَا عَلَى النُّظَرَاءِ وَالْأَشْكَالِ**

وتنقى بعد الدائم بن مرزوق المتوفى سنة ٤٧٢هـ/١٩٥٣م كما في بغية المتنس للغضبى،

درس العربية على شيخ القبروان وارتحل إلى المشرق وتجول في حلقات شيوخه بالبصرة وببغداد، ودخل الشام والتقى بأبي العلاء المعري، وأخذ عنه ديوانه: سقط الزند واللزوميات، وعاد إلى بلده، ولم تلبث هجرة الأعراب أن اكتسحت القبروان فهاجر إلى الأندلس، ونزل المَرْيَةِ وإشبيلية، وهناك أخذ يلقى دروسه، ويروى أشعار أبي العلاء، ومن تلمذ عليه عالم الأندلس اللغوي ابن السُّيد البطليوسى بشهادة ما يرويه عنه في كتابه: «الاقتضاب في شرح أدب الكتاب» كما لاحظ الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب، ويقول إنه أول من أدخل شعر أبي العلاء إلى إفريقيا والأندلس، وأكبرظن أن نسخة سقط الزند التي شرحها ابن السيد وطبعت مع شروح السقط الأخرى في القاهرة مأخوذة عن نفس المخطوطة التي حلها ابن مرزوق عن أبي العلاء، وأنه شرحه بمجرد أن سمعه من ابن مرزوق، وأنهنفسظن إزاء شرح ابن السيد لطائفة كبيرة من شعر اللزوميات المطبوع في جزءين في القاهرة، إذ اعتمد في هذا الشرح - فيما أظن - على رواية اللزوميات التي سمعها عن ابن مرزوق، والأبيات - في رواية ابن السيد - تصحح كثيراً من أبيات اللزوميات المنشورة، ولعلم محققاً تونسياً محفوظاً يجد في جامع الزيتونة أو جامع عقبة مخطوطه من اللزوميات مأخوذة - أو مروية - عن نسخة ابن مرزوق قبل مبارحة القبروان إلى الأندلس، ويمكن التأكيد من ذلك براجعتها على شرح اللزوميات لابن السيد. وله معجم في اللغة وشرح على ديوان المتني.

ولقانا في أوائل عهد الدولة الحفصية محدثين أبي الحسين المنوفي سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م حاجب أبي زكريا مؤسس الدولة ووزير ابنه المستنصر، وهو من أسرةبني سعيد الغرناطية، وكان لغويًا وشاعرًا وكان ابن سيده الأندلسي قد رتب معجم «المحكم» على أساس مخارج المروف طبقاً لمجمع العين للخليل بن أحد، فقلب ترتيبه إلى ترتيب معجم الصحاح للجوهرى، وسمى صنيعه «ترتيب المحكم». وكان يعاصره عالم لغوى من علماء المجرة الأندلسية في القرن السابع المجرى هو أحد بن يوسف الليل الأندلسي المنوفي بتونس سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م وله على كتاب الفصيح لشعب شرح سماه: «تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح» ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب إنه ينقل فيه مراراً عن معجم القراء: «جامع اللغة» وعن كتابه: «المثلث» كما ينقل فيه أيضاً عن معجم ابن مرزوق، وكأن أعمال ابن مرزوق - وفي ظننا ما رواه من شعر أبي العلاء - كان لا يزال محفوظاً في موطنه حتى نهاية القرن السابع المجرى.

وكل من نظمناهم في سلك اللغويين - أو كثرتهم - يوصفون في كتب التراجم بأنهم كانوا نحاة كما كانوا لغوين غير أنها لاحظنا أنه غلب عليهم مباحث اللغة، ومرّ بنا في الحديث عن النشأة اللغوية أنه كان بين اللغويين نحويان كوفيان استوطنوا القبروان وقد خلف بعدهما جبل

قبره وإن خالص عُن بال نحو وتعلمه، منه حدودن محمد بن إسماعيل المتوفى بعد المائتين، وفيه يقول الزبيدي: «كان مقدماً في العربية والنحو وكان يقال إنه أعلم بالنحو خاصة منه باللغة، لأنَّه كان يحفظ كتاب سيبويه ويستظله» ويقول القسطلي له كتب في النحو وأوضاع في اللغة، وكان أحد المشددين في كلامه والمتقدرين في خطابه. وكان يعاصره أحد بن أبي الأسود النحوي القبرواني كان يقرئ النحو واللغة بمسجد قرب داره، يقول الزبيدي عنه: «له تصانيف في النحو والغريب وممؤلفات حسان، ويقول القسطلي: كان غاية في علم النحو واللغة. ومن معاصريه عبد الله بن أبي حسان المحسني المتوفى سنة ٢٢٧هـ / ٨٤١م رحل إلى العراق وأخذ النحو عن أعلامه في البصرة والكرفه، وعاد إلى القبروان فأفاد الطلاب بما حل من النحو وقواعديه. وينتظم علماء النحو في القرنين الثالث والرابع للهجرة بالقبروان، ومنهم السجحي أبو علي النحوي الضرير المتوفى سنة ٣٤٢هـ / ٩٥٣م وبنوه المالكي في كتابه: «رياض النغوس» بمعرفته الواسعة باللغة والنحو وله كتاب أقيمة الأفعال. وكان يعاصره ابن الوزان إبراهيم بن عثمان المتوفى سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٧م يقول الزبيدي عنه: «إمام الناس في النحو (بالقبروان) وكثيرهم في اللغة وعظيمهم في العربية والعروض، وانتهى في اللغة العربية إلى ما لعله لم يبلغه أحد قبله، وأما في زمانه فما يشك فيه أحد، حفظ كتاب سيبويه وكتاب المصنف في غريب الحديث لأبي عبيدة القاسم بن سلام وإصلاح المنطق لابن السكينة ومعجم العين للخليل بن أحمد وغير ذلك من كتب اللغة ثم كتب الفرأ، وكان يميل إلى قول أهل البصرة مع علمه بقول الكوفيين، وكان يفضل المازق في النحو وابن السكينة في اللغة، وكان يستبط من مسائل العربية والنحو أموراً لم يتقدمه فيها أحد. واشتهر بعده عبد العزيز بن أبي سهل النحوي اللغوي القبرواني الضرير المتوفى بالقبروان سنة ٤٠٦هـ / ١٠١٥م وكان شاعراً مطبوعاً، ويقول ابن رشيق في وصفه: «كان مشهوراً بال نحو واللغة جداً مفتقرًا إليه فيها بصيراً بغيرها من العلوم.. ولا غنى لأحد من الشعراء المذاق عن العرض عليه والجلوس بين يديه، ولم ير ضرير أطيب منه نفساً ولا أكثر حياء. وكان يعاصره عبد العزيز بن خلوف النحوي، نوه ابن رشيق بشعره وقال له في سائر العلوم حظوظ وافرة، وحقوق ظاهرة، وأغلبها عليه علم النحو والقراءات وما تعلق بها، وفيه ذاكه يخرج عن الحد المحدود. ونلتقي بعلي بن فضال المتوفى ببغداد سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م وهو من سلالة الفرزدق الشاعر الأموي المشهور ومن أبناء القبروان النابهين في عصره غادرها مع الهجرة الأغراهية المشهورة إلى الشرق حتى نيسابور وغزنة، وعاد إلى بغداد، فقضى نظام الملك إلى مدرسته النظامية بها حتى وفاته، وهو مفسر كبير للذكر الحكيم، وله مصنفات مختلفة في الأدب والتاريخ، وكان إلى ذلك عالماً كبيراً في النحو واللغة، وما صنفه في النحو «إكسير الذهب في صناعة الأدب» في عدة مجلدات وكتاب العوامل والمواصل وكتاب الإشارة إلى تحسين العبارة وشرح عنوان الإعراب والمقدمة وشرح معانى المروف وغير ذلك وله كتاب في العروض.

ودرس مثله في النظامية ببغداد معاصره ومواطنه عبد الله بن مسلم القبروانى النحوى أبو محمد المتوفى سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م ويقول القبطى: كان له معرفة بالنحو واللغة. وتکاد تتوقف المراکة العلمية في الدراسات النحوية نحو قرن أو تزيد بسبب الهجرة الأغريقية وماحدث بعدها من حروب قراؤش وابن قراتكين وابن غانية: على وبحى.

وتهض بالبلاد الدولة المفصية ويعود إلى المراکة العلمية نشاطها، وخاصة في مدينة تونس عاصمة تلك الدولة، ويدعى المهاجرون من الأندلس في صدر تلك الدولة من كبار العلماء والأدباء بوقود أدبى وعلمي جزل، فتزداد اشتغالاً وضياءً ونوراً. ومن صفة من هاجر إليها من نعمة الأندلس إمام كبير من آئمة النحو هو ابن عصفور الإشبيلي أبو الحسن على بن مؤمن المولود سنة ٥٩٧هـ / ١٢٧٠م والمتوفى سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م وقد رحب به مؤسس الدولة أبو زكريا واغتنى أستاذًا ومعلمًا لابنه وولي عهده المستنصر، وأسند إليه التدريس في جامع الزيتونة وفي مدرسته الشماعية، وكان يدرس للطلاب كتاب سيبويه وكتاب الجمل للزجاجي والإيضاح لأبي علي الفارسي وله عليهما شرحان، كما كان يدرس لهم مصنفيه البديعين: المقرب في الصناعة النحوية والممتع في الصناعة الصرفية واغتنى أعماله في عصرنا موضوعات للحصول على الدرجات العلمية في الجامعات العربية لحسن عرضه لمسائل النحو وأبوابه حدوداً وترتيباً وتقسيماً، وفي كتابنا المدارس النحوية ترجمة له وبيان بعض آرائه التي انفرد بها بين النحاة، وأخذ عنه في تونس النحو تلاميذ كثيرون بحيث أصبحت له فيها مدرسة كبيرة، وتذكر أسماء نعمة في القرون التالية، ومن أهتمهم في المهد المشتاق محمد فاتحة الفقيه في القرن الثاني عشر المجرى كان يقرئ الطلاب في جامع الزيتونة مفتي ابن هشام في النحو ولعبد القادر الجبالي شرح على شواهد المفن في أربع مجلدات ولمحمد سعادة حاشية على الأشعرى سماها توير السالك من شرح منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، ولمحمد بن على بن سعيد المجرى المتوفى سنة ١١٩٩هـ / ١٧٨٤م حاشية مطولة على شرح الأشعرى لألفية ابن مالك.

ومنذ نزول العرب واستيطانهم في إفريقيا التونسية كان كثيرون منهم ينشدون الأشعار العربية ويرونها للأجيال الناشئة، وما يتقدم القرن الثاني المجرى حق تردد في كتب التراجم أسماء رواة للشعر كان يلتف حولهم الشباب في القبروان وغير القبروان لكتابة الأشعار وتدوينها، تذكر منهم سليمان بن حميد الفاقعى، وله ترجمة في كتاب الخلدة السيراء لابن الأبار، وهو من قدموا مع العملات التي كان يوجهاً للأمويون إلى القبروان والمغرب، وله مشاركة في الأحداث التي مرت بها أيام عبدالرحمن بن حبيب وقتل أخيه إلياس له وعاش إلى أيام يزيد ابن حاتم المهلبي (١٥٥-١٧٠هـ) ويقول ابن الأبار فى التعريف به: «فارس العرب قاطبة بالمغرب فى عصره وأحسن الناس لساناً وأبلغهم، إلى معرفة أيام العرب وأخبارها ورواية لوقائعها

وأشعارها.. حلت عنه نوادر مستطرفة وحكايات مستمتعة، وروى له ابن الأبار شعراً في أحد مواقفه مع بعض ثوار البربر. ومن هؤلاء الرواة المبكرین للأشعار في القيروان الحكم بن ثابت السعدي، دخل إفريقية - كما يقول ابن عذاري - سنة ١٤٤هـ/٢٦١م مع جيش محمد بن الأشعث للقضاء على ثورة الإباشين في طرابلس وتونس لعهد المنصور، وكان أحد قواد الجيش وبعد القضاء على تلك الثورة سكن القيروان، حتى إذا تولى الأغلب التميمي بعد ابن الأشعث شهد معه حرب بعض الثوار من البربر سنة ١٥٠هـ/٢٦٧م وهو من سلالة سلامة بن جندل الشاعر الجاهلي المشهور، وكان شاعراً وروائياً كبيراً للشعر، روى عنه أبناء القيروان كثيراً من أشعار الجاهلين والمخضرمين. ومن هؤلاء الرواة للأشعار الحسن بن منصور بن نافع المذجعى، وفيه يقول ابن الأبار: «كان بصيراً باللغة نافذاً في النحو عالماً بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها». وحرى أن نضيف إلى هؤلاء الرواة المبكرین للأشعار الجاهلية والإسلامية المعم بن سنان التميمي القائم مع يزيد بن حاتم المهلبي في ولايته، وقد ذكرناه في نشأة العلوم اللغوية، وأيضاً لابد أن نضيف كبار الشعراء الواقفين على يزيد بن حاتم لمدحه مثل ربعة الرقى الشاعر العباسى النابى وبالمثل من وقد عليه من اللغويين والنحاة أمثال يونس بن حبيب عالم البصرة النحوى واللغوى الكبير، فهو زلام جيماً شاركوا في روایة الشعر الجاهلى والإسلامى لشباب القيروان.

ومر بنا أن عبد الملك بن قطن كان يشرح أشعار الجاهلين والإسلاميين ويفسّر معانيها وأنها حين نقلت إلى القيروان ومعها شروحها وجد طلابه أن هذه الشرح تطابق شروحه. ولم تنقل إلى القيروان في القرن الثالث المجرى الدواوين القديمة الجاهلية والإسلامية فقط، بلأخذت تنقل أيضاً دواوين الشعراء العباسيين ويشهد لذلك ما روى عن أبي اليسر الشيباني رئيس ديوان الإنشاء المتوفى سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م من أنه دخل إلى إفريقية رسائل المحدثين (العباسيين) وأشعارهم، وهو لم يدخل دواوين أمثال بشار وأبي قام فحسب، بل دخل أيضاً رسائل أمثال عبد الحميد الكاتب وابن المقفع والماجست وسهل بن هرون وغيرهم، ومثل ذلك أصبح منذ القرن الثالث المجرى مدًى أيدي المتأدبين في القيروان وتلقائهم أبهارهم عن طريق من كانوا يرتحلون إلى المشرق-أو يقدون منه-ويعملون نفاسه من الدواوين والرسائل. ومن يقرأ المنتخبات الرائعة من الشعر والنثر التي جمعها أبو إسحق إبراهيم المصري المتوفى سنة ٤١٢هـ/١٤٢١م باسم «زهر الآداب وشر الألياب» و«جمع الجواهر في الملحق والنواتر» يعرف أنه لم يكن في المشرق ديوان لشاعر عباسى ولا رسائل لكاتب أموى أو عباسى ولا مجموعة في الشعر أولى بالنثر، لم يكن شيء من ذلك كذلك كله غالباً عن القيروان وأدبها المصرى، فقد اختار في مجموعة السالفتين أروع وأبدع ما للمحدثين العباسيين من شعر ونثر وأخبار ونوادر وملح كما يقول، حتى لنجد عنده قطعاً من نصوص أدبية مفقودة إذ نراه مثلاً يختار لسهل بن هرون قطعاً

من قصصه الطريفة التي صاغها حماكا لقصص كليلة ودمنة، والتي لا يوجد منها الآن في المشرق شيء. وقد ولد بقرية تسمى الحضر بجوار القيروان فنسب إليها، وهو أستاذ علمين من أعمال الأدب في القيروان: ابن رشيق وابن شرف، وكان ودوداً ومالقاً لشباب القيروان ومتاديبها، فكانوا يجتمعون عنده ويأخذون عنه كما قال ابن رشيق وقال عنه أيضاً: إنه كان شاعراً نافذاً عالماً بتزيل الكلام، وقد افتتح به كتابه الأنثوذج في شعراء القيروان، وذكره مراراً في كتابه المسعدة، واستشهد فيه ببعض أشعاره. وكان بحق - كما قال ابن رشيق - ناقداً ذوقاً للأدب، فجمع - وخاصة في زهر الأدب - فرائد بدعة من شعر المحدثين وتراثهم وأخبارهم، وكأنه أراد بذلك أن يكمل كتاب البيان والتبيين للجاحظ، إذ رأه يشغل بكلام الإسلاميين والمجاهلين، ولابي العباسين المناعة الكافية فرأى أن يكمل مختاراته المجاهلية والإسلامية بمختاراته الشعرية والنشرية للعباسين، ولاحظ ذلك ابن سام في ترجمته بالقسم الرابع من كتابه الذخيرة. فقال: «عارض المصري أبي بحر الجاحظ بكلاته الذي وسمه بزهر الأدب فلم يرى ما قصر عن مداره ولا قصرت خطاه، ولو لا أنه شغل أكثر أجزاءه وأنحائه بكلام أهل العصر (يريد العباسين) دون كلام العرب لكان كتاب الأدب، لا ينافيه ذلك إلا من ضيق عينيه الرمد، وأعمى بصيرته المسد». وهي شهادة قيمة بروعة الكتاب وروعته ما يحمل من النصوص العباسية شرعاً ونثراً. وربما كانت أهم مجموعة أدبية بهذه في القطر التونسي مجموعة المعاشرة لأبي المحاج ي يوسف بن محمد الباباسي الأندلسى نزيل تونس المتوفى سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٦م وقد كتبها بتونس سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م وقرأها الطلاب عليه، ومنها مخطوطه في دار الكتب المصرية.

وحاول ابن شرف القيروان الشاعر المتوفى سنة ٦٤٠هـ / ١٠٦٧م بالأندلس أن يكون له نصيب في عالم النقد، فكتب مبحثاً يسمى تارة أعمال الكلام، وتارة رسائل الانتقاد، وطبع بالعنوانين، تناول فيه الشعر والشعراء منذ المجاهلة إلى زمانه، وهو ملاحظاتٌ جملةً أكثر منه آراءً نقديّة، أو هو انطباعات عن الشعراء في جمل مسجوعة، وكأنه يُولّف مقامة - لا يبحث نقدياً - عن الشعراء، ومن قوله عن أبي نواس: «أول الناس في خرم القيس». وذلك أنه ترك السيرة الأولى وتكتّب عن الطريقة المثل، وجعل الجد هزاً صادف الأفهام قد كُلّت.. فتهاي الناس شعراً، وأغلوا سعراً، وشفعوا بأسفه، وكلفوا بأضعفه» ويقول عن ابن الرومي: «شجرة الاختراع، وثمرة الابتداع، وله في المجاهد ما ليس له من الاطراف، فتح فيه أبواباً، وخلع منه أبواباً، وطوق فيه رقاباً، يطول عليها حسابه، ويحقق فيها ثوابه» وكأنه يقيس هجاءه بقياس خلقٍ لا يقيس فني، ويقول في التبني: «شُفِلتْ بِهِ الْأَلْسُنْ، وَسَهَرَتْ فِي أَشْعَارِ الْعَبُونِ الْأَعْيُنِ، وَكَثُرَ الْفَانِصُ فِي بَحْرِهِ، وَالْمَفْتَشُ فِي قَعْدِهِ، عَنْ جُهَانِهِ (أَلْوَلَهِ) وَدُرْهَمِهِ، وَلَهُ شِيَعَةٌ تَقْلُو فِي مَدْحَهِ، وَعَلَيْهِ خَوَارِجٌ تَعَاوِنُ فِي جَرْحِهِ، وَهَذِهِ آرَاؤُهُ فِي الشِّرْكِ اِنْطَبَاعَاتٍ لَا تَحْمِلُ تَعْلِيلاً ولا دليلاً.

ولم تعن القبروان بالبلاغة كما عنيت بالنقد، وأكبر نقاد القبروان وبلاغتها المعدودين في النقاد والبلغيين الكبار ابن رشيق المتوفى بازدر في صقلية سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣ م وله كتاب «قراءة الذهب في صناعة الأدب» وهو في السرقات الشعرية، وله كتاب «الصلة في صناعة الشعر ونقده»، وهو يجمع فيه بين النقد والبلاغة، ويقول فيه القطبي: «اشتمل على مالم يشتمل عليه تصنيف من نوعه وأحسن فيه غایة الإحسان» وقال القاضي الفاضل: «هو ناج الكتاب المصنفة في هذا النوع» وقال فيه ابن خلدون في مقدمته: «هو الكتاب الذي افرد بهذه الصناعة - يزيد صناعة الشعر - واعطاتها حقها، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله». وهي شهادة قيمة. وكل من يقرأ الكتاب يعرف بوضوح أن ابن رشيق وضع بين يديه كل ما أنتجه المشرق من مباحث ومؤلفات في النقد والبلاغة من مثل البيان والتبيين للجاحظ وطبقات فحول الشعراة لابن سلام والشعراء والشعراء لابن قتيبة والبديع لابن المعتر ونقد الشعر لقديمة ونقد النثر لابن وهب والموازنة للأمدي والصناعتين لأبي هلال المسكري وكتابات الحافظ في البديع والبلاغة وأضاف إلى ذلك كتاب المتن في علم الشعر وعمله لمعبد الكريم النهشلي، وسوئى من ذلك كله - وربما اطلع على كتب أخرى - كتابه الذي ذاع وشاع في العالم العربي غرباً وشرقاً منذ تأليفه إلى اليوم لدقته منهجه وحسن تبويبه وترتيبه، ولما يحمل من مواد طريقة تعبيط بالشعر وصنه ونقده وفنون بلاغته، وقد بدأ بالدفاع عن الشعر والشعراء واضحاً الشعر في مرتبة بلاغية أعلى من مرتبة النثر، ويفرد ببابا لبلاغة اللفظ والمعنى قائلاً إنها متلازمان، فاللفظ جسم وروحه المعنى، ويقول إن للشعر لغة خاصة به، ويعرض للمتكلمين والمقلين من الشعراء وللمطبوعين والمتكلفين والأصحاب مدرسة البديع وللوزن والقافية وعمل الشعر وشحد القريم له ولافتتاح الشعراء قصائدتهم بالنسبة للهذا والهزوج من فائحة التصييد إلى موضوعها وللمخترع في الشعر والبديع، ويفصل القول في الاستعارة والتشبيه أهم ألوان البيان وفيض إفاضة واسعة في ذكر ألوان البديع ومحسنته متأثراً بأبي هلال المسكري في كتابه الصناعتين والحافظ في كتابه حلية المحاضرة، وقد اعتمد على الكتاب الأخير اعتماداً واسعاً في حديثه عن ألوان البديع وفنونه من مثل الجناس والطباقي والمقابلة والتميم والتسهيم والترصيح وصحمة التقسيم إلى غير ذلك من محاسنات كبيرة. وكان القبروانين لم يجدوا حاجة إلى التأليف في البلاغة وفنون البديع بعده، وبالمثل في نقد الشعر وصناعته، وقد تحدث حديثاً مستفيضاً عن موضوعات الشعر بادئاً بالنسبة ومتضلاً القول في كل موضوع تفصيلاً دقيقاً، وتحدث عن السرقات الشعرية، واتفق مع النقاد في أن السرقة إنما هي في البديع المخترع الذي يختص بها شاعر ويسرقه أحد الشعراء، لا في المعايير المشتركة بين الشعراء، ويدرك ما يعنّي إليه الشاعر من المعارف والثقافة. والكتاب غني بالأفكار والأراء النقدية، ومثله في هذا الغنى كتابه: «أنواع الزمان في شعراة القبروان» وقد جمعه من بطون المخطوطات وغيرها من الكتب وحققه

تحقيقاً علمياً سديداً الأستاذان محمد المرزوقي و بشير البكوش وقدما له بقلمة قيمة. وقد استطاعا بتألهمها العلمي جمعه من مخطوطات مسالك الأباء والآباء لابن فضل الله العمرى والوافق بالوقيات للصفى وغيرها من المخطوطات والمصادر، وبذلك رداء إلى الحياة بصورة إن لم تكن طبق الأصل تماماً، فهي مقاربة له أشد القرب، وفي الكتاب مائة ترجمة للشعراء من معاصريه، مما يدل على حدوث نهضة شعرية لعصره في القطر التونسي. وهو يستهل كل ترجمة لشاعر بسطور عنه وعن صفتة وشعره ثم يورد ما اختاره منأشعاره مع بعض أحكام تقديرية. والكتاب يوزع بدقّة للحركة الأدبية في عصر الدولة الصنهاجية، وبعبارة أخرى أدق في عصر المزبن باديس. ولا يلقى بعد ابن رشيق ناقد كبير أو بلاغي كبير في القبروان أو تونس إلا ما كان من حازم القرطاجي نزيل تونس في عهد المستنصر بن أبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية، وعاش حق سنة ٦٨٤ هـ ١٢٨٤ م وله في النقد والبلاغة كتابه المعرف: « منهاج البلقاء وسراج الأدباء » وهو فيه يمزج بين قواعد النقد والبلاغة عند العرب وقواعدها عند اليونان وبين دون ريب أفاد منه المتأدون بتونس، وأنه أعاد لهم درسه مراراً، وقد تحدثت عنه في الجزء الخاص من هذه السلسلة بالأندلس.

## ٤

### علوم (١) القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

بعجرد أن أسسَتُ القبروان وتونس كان هناك مقرنون كثيرون يُقرنون الناشئة في الكاتب، ودائماً أينما وجد الفاتحون في صدر الإسلام والنصر الأولى دُرّوا بالقرآن الكريم دوى النُّجل، وكان منهم دائماً من يتجرّدون لتحفيظه للداخلين في الإسلام وإقرارتهم آياته الكريمة، ومن الصعب التعرف عليهم ومعرفة أسمائهم، فهم كالجندي المجهول، يُرى أثره ولا يُعرف اسمه، غير أن كتب التراجم أحياناً تذكر بعض الأسماء من حفظوا بإقراء القرآن في الأزمنة المبكرة،

بشائر أهل الإيمان بفتحات آل عنان حسين خوجة تحقيق وتقديم الأستاذ الطاهر المصوري وشجرة التور الزكية لمحمد مخلوف وعنوان الأربع عاً نشأ بالملكة التونسية من عالم وأديب وكتاب ورقات للأستاذ حسين حسني عبد الوهاب والحياة الثقافية بأفريقية صدر الدولة الحفصية (مقال في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة).

(١) راجع في هذه العلوم طبقات أبي العرب ورياض التفوس للمالكي وطبقات القراء لابن الجوزي ورحلة المبدري وطبقات المفسرين للسيوطى وسائل الإمام لابن الدبياغ وابن تاجى ومقدمة ابن خلدون في العلوم والدياج المذهب فى معرفة أعيان المذهب لابن فرجون والحمل الشندسية في الأخبار التونسية لأبي عبد الله الراجح تحقيق الأستاذ محمد الحبيب المبلة وذيل

من ذلك اسم أبي منصور مولى سعد بن أبي وقاص، وهو - كما في كتاب رياض النفوس والمعلم - من دخل إفريقية وسكن القبروان، وكان مقرنا للقرآن ومهدنا وفقها مفتياً. واجتماع الفقه ورواية الحديث النبوى مع إقراء القرآن الكريم لأبي منصور لا يستغرب، لأن التابعين من أمثاله كانوا يجمعون بين إقراء الناشطة والناس للقرآن وإسماعهم بعض الأحاديث النبوية وتفقيههم في الدين بعمره أحكامه وتعاليمه. وعلى هذه الشاكلة كان الفقهاء المشترأ أعضاء وقد عمر بن عبد العزيز لسنة مائة للهجرة، فهم يقرئون الناس الذكر الحكيم ويررون لهم بعض الأحاديث النبوية ويلمعونهم أمور دينهم الحنيف. وعلى بعض القبروانيين بحمل قراءات القرآن عن نافع قارئ المدينة. وكان ورش المصري قد حل قراءته فأخذتها جماعة من القبروان عن تلاميذه المصريين. ومن أهمهم في القرن الثالث الهجرى محمد بن عمرو بن خيرون المتوفى سنة ٣٠٦هـ/١١٨م. وقد حل قراءة ورش، وقدم بها إلى القبروان كي يقول ابن المجزري في طبقاته، وكان الفالب على قراءة الناس فيها قراءة حزنة أحد القراء السبعية، ولم يكن يقرأ قراءة نافع إلا خواص الناس، فلما قدم ابن خيرون إلى القبروان اجتمع عليه الناس ورحل إليه القراء من آفاق المغرب، ومن مؤلفاته كتاب الابتداء والنظام وكتاب الألف واللام. وكما أخرجت القبروان إماماً لغوريا هو القزار، وإماماً نادقاً بلاغياً هو ابن رشيق، أخرجت إماماً في القراءات هو مكي بن أبي طالب القيسى المولود بالقبروان سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م ولما استكمل القراءات بالقبروان رحل إلى مصر سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م وتلذمذ في القاهرة لشيخ قرائتها ابن غليون، وكان يعود إلى بلده ثم يرجع إليه، حتى أخذ كل ما عنده، وهاجر إلى قرطبة سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م وظل يقرئ بها الناس حتى توفي سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م وله في القراءات كتاب التبصرة في خمسة أجزاء، وكتاب ثان في أصول قراءة نافع، وكتاب ثالث في المدى لورش، وذكر له ابن خلكان عشرات من الكتب في القراءات والتفسير والفقه والمرية. وكان يعاصره أحد بن عمار المهدوى المتوفى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م وله كتاب المداية في القراءات السبع وله عليه شرح كما يقول ابن المجزري وله كتاب الموضع في تعليم وجوه القراءات. وظلت قراءة الذكر الحكيم ناشطة في القبروان على مدار السنين، وانتشرت بها أسرُّ توارتها جيلاً بعد جيل، وبصور ذلك - من بعض الوجوه - ما ذكره العبدى في رحلته حين زار تونس في سنتي ٦٨٨هـ/١٢٩٠م و٦٩١هـ/١٢٩٢م والتقى بالرحلة التونسى أبي الحسن على بن إبراهيم التجانى فى مسجد إقرانه، وما قال له: «أنا الثاني عشر مدرساً من آبائى على نسب كلهم قدموا هنا» (أى في هذا المسجد) للقراءات، وإذا حسبنا لكل جيل ثلاثة قرون سنة على الأقل كان معنى ذلك أن الأسرة توارت إقراء القرآن نحو ثلاثة قرون ونصف أى منذ منتصف القرن الرابع الهجرى. ومن كبار القراء فى العهد المفضى أبو القاسم الليبى معاصر التجانى صاحب الرحلة، وكان الطلاب يقرءون

عليه بمسجد إقرانه كتاب التيسير في القراءات السبع للدانى. وأشهر القراء بعده محمد بن بدال المترقب بمنتصف القرن الثامن الهجرى وكان يدرس لطلابه قصيدة الشاطبى في القراءات: حرز الأمانى ويفسر أبياتها لهم، وبلغمال ترتيله وحسن صوته كانت تُشدّ إليه الرجال لسماعه، وكان السامعون من حوله يُرثون بين خاشع وباك وداع. وكان يعاصره محمد بن محمد بن حربة الأنصارى. وكان يقرئ تلاميذه بقراءة الأئمة الثانية، ومنهم الفقيه الكبير محمد بن عرفة الورقى الآقى ذكره بين الفقهاء والمترقب فى أوائل القرن الناسع الهجرى وكان مقرنا كبراً وبجوداً عظيمًا للقرآن الكريم. ويكثر في ترجمة العلماء أن يقال عنهم إنهم مجيدون في قراءة القرآن، ونجد في العهد العثماني وظيفة في جامع الزيستونة مخصصة لقراء القرآن العظيم على كرسى الجامع، ومن تولاها الشيخ على السويسى، وأيضاً وظيفة أخرى لشيخ القراء ومن تولاها في القرن الثاني عشر الهجرى مصطفى الأزميرلى، وكان يعاصر قاره باطاق وله كتاب في القراءات المشر سماه: «الجوهرة النضرة والرياضن المطرة في متواتر القراءات العشرة».

وطبيعى أن كانت الأجيال الأولى في القبروان وتونس التي اعتنقت الدين الحنيف وأخذت تحفظ بعض آيات القرآن تطلب معرفة تفسير ما تحفظه، فكان المترقبون الأولون لهم بمحاولون إفادتهم ما يحفظونه، وتنشأ في المشرق حركة واسعة في تفسير القرآن، ويشهر عبد الله بن العباس الصحابي الجليل ابن عم الرسول ﷺ ياتقانه لتفسيره حتى ليصبح إماماً كبيراً فيه، ومحمله عنه تلاميذ مختلفون، ويتوزعون بما حلوا في البلدان الإسلامية ويعظم القبروان بتلميذ بربى له، هو عكرمة مولاه، ويقول أبو العرب في طبقات علماء إفريقية وتونس: «كان مجلسه في مؤخر المسجد الجامع (جامع عقبة بالقبروان) في غرب الثارة بالموقع الذي يسمى بالركبية». وما من ريب في أنه كان يلقى في مجلسه على الناس تفسير مولاه ابن عباس للقرآن الكريم، وسمعه منه خلق كثيرون من أهل القبروان وغيرهم، وقد دخل الطبرى تفسيره الذى حمله عن ابن عباس في تفسيره الكبير بحيث يمكن لباحث أن يستخرج منه وينشره مستقللاً، وما زال عكرمة يلقى دروسه حتى توفي سنة ١٥٠هـ/٧٢٣م. ومن المفسرين للذكر الحكيم في القرن الثانى المجرى يحيى بن سلام وقد حُررَ بالقبروان سنة ١٧٥هـ/٧٩١م وكان الطلاب يقصدونه من كل فجٍ لسماعه منه، ويدرك أبو العرب في طبقاته أن عيسى بن مسكون سمع تفسير ابن سلام من موسى بن جرير، كما يذكر أن أسد بن الفرات قاضى القبروان وفاتح صقلية المترقب سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م كان يفسر الذكر الحكيم في بعض مجالسه أرقى بعضاً دروسه بجامع القبروان، وللمقرئ الكبير مكي بن أبي طالب المار ذكره كتاب الهدایة إلى بلوغ النهاية في معانى القرآن وتفسيره وأنواع علومه: سبعون جزءاً، وكتاب الإيضاح في ناسخ القرآن ومنسوخة ثلاثة أجزاء. ويلقانا في القرن الخامس لمهد الدولة الصنهاجية مفسر كبير هو على بن

فضال المتوفى سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م وله التفسير المسمى البرهان المعبدى في عشرين مجلداً، وله تفسير ثان باسم الإكسيير في علم التفسير: خمسة وتلاتون مجلداً، وله التكثف في القرآن. وصنف كتاباً في شرح بسم الله الرحمن الرحيم، ومرّ بنا أن نظام الملك الحقة بمدرسته النظامية في بغداد يدرس لطلابها، وله كتب كثيرة في النحو ذكرنا بعضها في حديثنا عن النحوة في القبروان، ولله كان يدرس في النظامية التفسير والنحو معاً. ومن كبار المفسرين في أوائل عصر الدولة الخصوصية عبد العزيز بن محمد القرشي المعروف بابن زبيدة المتوفى سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م وهو من كبار الفقهاء المحافظ وله تفسير جمع فيه بين طريقة ابن عطية الأندلسى وطريقة الزمخشري وعليه تخرجت طائفة كبيرة من طلاب تونس في العلوم الدينية. ومن كبار المفسرين في القرن الثامن الهجرى محمد بن عبد النور التونسي تلميذ ابن زبيدة المتوفى سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م وله اختصار تفسير الفخر الرازى. وتنقى في القرن التاسع الهجرى بفسر من كبار المحافظ هو محمد بن عمر الألبى المتوفى سنة ٨٢٢هـ / ١٤٢٣م تلميذ ابن عرقه، وله تفسير كبير للقرآن الكريم كان يقع في ثمان مجلدات. ولمحمد زبيدة المتوفى بالقرن الثاني عشر الهجرى في العهد الشافعى حاشية على تفسير أبي السعود. ويدون ريب كان المفسرون للقرآن الكريم بعرضون على الطلاب أمهات كتب التفسير المشرقة للطبرى والزمخشري والفخر الرازى وغيرهم، وظل ذلك في المهد المشماق، إذ تجد الشیخ محمد الفاسى يدرس لطلابه تفسير البيضاوى، ولا بد أن غيره من كتب التفسير المهمة كان يعرض على الطلاب.

وبتكلّر المحدثون في القبروان وتونس كثرة مفرطة، ومن قدمائهم في القبروان حتش بن عبد الله الصناعى، دخل إفريقياً غازياً مع موسى بن نصير ٨٦ - ٩٦هـ) وسكن القبروان وحدث بها، كما حدث بها عكرمة مولى ابن عباس المار ذكره بين المفسرين. وتنقى بعثة عمر بن عبد العزيز التي كانت مؤلفة من عشرة فقهاء، وجميعهم كانوا محدثين وفراءً وفقهاءً كما مرّ بنا وكان يعاصرهم عبد الله بن المغيرة بن أبي بردة قاضى القبروان لعمر بن عبد العزيز وبمحى بن سعيد الذى أرسله عمر بن عبد العزيز عاماً على الصدقات، وكلما حلّ عنه الحديث كما حلّ عن معاصرها أبي غطيف بشر المفلل، وهو يروى عن جماعة من الصحابة وخاصة عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعليه اعتماده في الرواية. وتنقى بمحذت تونسى كبير سبقت الإشارة إليه هو عبد الرحمن بن زياد قاضى القبروان في عهد المنصور وقلنا عنه في النشأة العلمية إن ابن وهب وأبن هبطة الفقيهين المالكين المصريين رويا الحديث عنه، وذكرنا معه هناك على بن زياد التونسي، وقلنا إنه أول من أدخل الموطاً لمالك وجامع سفيان الثورى في الحديث إلى إفريقياً التونسية، وكان يعاصره المحدث عبد الرحمن بن الأشرس زميله في التلمذة على مالك. وتنقى بالبهلوان بن راشد المتوفى بالقبروان سنة ١٨٣هـ / ٧٩٩م وهو تلميذ مالك بن أنس وسفيان الثورى، وتلّمذ للبيهقي مصر، وكان معروفاً بالتفوي

والتمسك بالسنة، وتفصّل عنه في ذلك حكايات كثيرة، مما جعل أباً العرب والمالكي والدバاغ يطيلون في الترجمة له. ومن المحدثين بعده يزيد بن محمد الجمحي المستشهد في فتح صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وكان ثقة صدوقاً كثير الحديث سمع من مالك بن أنس في المدينة وغيره من كوفيين وبصريين وشاميين. وكان يعاصره موسى بن معاوية الصادحي المتوفى سنة ٢٢٥هـ/٨٣٩م وأكثر مثل الجمحي من الأخذ عن مالك والكوفيين والبصريين وغيرهم، وكان يرابط بالمستير على الساحل قرب القبروان في شهر رمضان، ويقول عنه سخنون إنه كان أطول رفقتنا صلاة، وربما أمضى بعض الليالي مصلياً. ومن معاصره عون بن يوسف الخزاعي المتوفى سنة ٢٣٩هـ/٨٥٢م وكان إذا قال فيكتبه «حدتنا» فهو سماع، وإذا قال «أخبرنا» فهو إجازة. وزدهر مذهب مالك في القبروان منذ القرن الثالث المجري، وكان العلم المنصور بأعين أصحابه كتابه «الموطأ» وهو كتاب فقه وحديث، مما جعل فقهاء جيماً محدثين، ولذلك من الصعب أن نفرد المحدثين من الفقهاء منذ هذا القرن.

ونكتفي بذكر ألم المحدثين في القرون التالية، ومن ألمهم وأنبهم في القرن الرابع المجري أبو الحسن القابسي على بن محمد بن خلف المار ذكره في صدر حديثنا عن دور العلم، وإليه انتهى تدريس الحديث النبوى في القبروان وكان قد رحل إلى المشرق ورجع منه بكثرة نفيته منها ما حل به إلى الطلاب والشيوخ في جامع الزيتونة من صحيح البخاري، وكان يدرس للطلاب، وعنيت به إفريقية التونسية بعده كما عنيت بصحبيه مسلم، وهو جيماً وكتب السنة الأربع المشهورة: للترمذى والنسانى وأبي داود وابن ماجة محل إجلال وتوقير في بلدان العالم الإسلامي جميعه. وللمازرى محمد بن علي الصقل نزيل المهدية وحامل لواء العلوم الدينية فيها وفي البلدان المغربية المدفون بالمستير سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م شرح نفس على صحيح مسلم سواه المعلم بفوائد مسلم، وشرحه القاضى عياض باسم إكمال العلم بفوائد صحيح مسلم، وللإبى التونسى المار ذكره بين المفسرين شرح على صحيح مسلم سماه: «إكمال الإكمال بفوائد مسلم» في سبع مجلدات جمع فيه بين شرح المازرى، وشرح عياض، وشرح التنوى. ومن كبار المحدثين في القرن الثامن شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر الوادى آتش الأصل التونسي المولد والوطن المتوفى سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م. وكان يقرئ تلاميذه في جامع الزيتونة الصحيحين: صحيح البخارى وصحبيه مسلم. ونلتقي في أوائل المهد العثمانى بالشيخ إبراهيم الرياحى وكان يدرس للطلاب شرح القسطلاني على صحيح البخارى، ويدرك ابن أبي دينار فى أواخر كتابه «المؤنس» طائفة من كبار المحدثين في القرن الحادى عشر المجرى بتونس، منهم أبو العباس أحد الشريفين المنفى وأبو الحسن على الفماماد وسعيد المعجوز وأبو عبد الله محمد ناج العارفين العثمانى، ومن يضاف إلى هؤلاء المحدثين من كتاب ذيل بشائر أهل الإيان بفتحوات آل عثمان محمد برناز، ومحمد قويس، ومحمد فاتحة و محمد زيتونة.

وكان الفقهاء في أول الأمر يجمعون كما ذكرنا بين إقراء القرآن ورواية الحديث النبوى والفتوى فيها بعيد من أمور الدين، ولذلك من الصعب أن نميز في القرن الأول المجرى وغير قليل من القرن الثانى بين الفقيه والمحدث والمقرئ، ونفس بعثة عمر بن عبد العزىز فى سنة مائة للهجرة يقال عن كل منهم فى كتب التراجم إنه يجمع بين هذه الصفات الثلاث أو أقل إنها تصف بذلك نفراً منهم وتترك الآخرين لأنهم معروفة لأنهم جاموا لتحفيظ الناس والناثنة القرآن وتفقىهم فى الدين بما يلقونه من تعاليمه ومن أحاديث الرسول ﷺ. ونقرأ عن على بن رباح اللخمى أنه قدم إفريقياً غازياً فى عهد موسى بن نصیر وأنه سكن القىروان واختلط بها مسجداً ومنزلة لسكناته وأن أهلها تفقهوا عليه، وهو تابعى روى عن عمرو بن العاص وأبى هريرة وأبى قتادة وغيرهم من الصحابة، وبذلك نستطيع أن نعده أول فقيه قىروانى. وجاء بعده خالد بن أبى عمران التميمي، قدم أبوه مع جيش حسان بن النعمان واستوطن مدينة تونس، وولد له فيها خالد وحفظه أبوه القرآن وروى عنه وعن بعض القىروانين الحديث ورحل إلى الشرق وسمع من القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ومن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومن عروة بن الزبير وله كتاب كبير عنهم فى الحديث وروى له مالك فى الموطأ بعض أحاديث نبوية سمعها - كما مر بنا - من يحيى بن سعيد فى القىروان، وكان فقيها بصيراً بالفتوى وتولى قضاء تونس إلى أن توفي سنة ١٢٣ هـ / ٧٤٠ مـ. وتنقل بعده بأبى كرب عبد الرحمن بن كربلاً قاضى القىروان وفقيقها المستشهد فى حرب الصفرية سنة ١٣٩ هـ / ٧٥٦ مـ.

وأخذ كثيرون من القىروانين يرحلون إلى المجاز لأداء فريضة الحج ولقاء إمام دار المجرة: المدينة، وسماع الموطأ منه، ولم يثبت نفر منهم أن تغيردوا لحمل الكتاب، وسيق إلى ذلك على بن زياد من أبناء تونس - كما مر بنا في غير هذا الموضوع - فكان أول من جلبه إلى موطنه، وأخذ يدرسه في جامع الزيستونة، وحله - أو أخذه عنه - كثيرون من تونس ومن القىروان ومن غيرها، ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب توجد قطعة من روايته للموطأ في مكتبة القىروان الصيتية، ومر هنا تعريف به في الشأن العلمية، توفي عن سن عالية سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ مـ وذكرنا أنه كان يعاصره عبد الله بن فروخ، وكان أبوه خراسانياً قدم إلى القىروان في جيوش الأمويين وسكنها وولد له فيها عبد الله، وقد حفظ القرآن ثم تلمند على شيوخ بلدته، حق إذا أخذ ما عندهم اتجه إلى العراق، ونزل الكوفة وصعب الإمام أبا حنيفة مدة طويلة مكتفه من أن يحمل عنه منهجه الفقهي المختفى، ولم يرجع إلى القىروان مباشرة بل عرج على المدينة وسمع الإمام مالكا وهو يلقى الموطأ، ورجع إلى القىروان، وأخذ ينشر في طلابه فقه أبي حنيفة، توفي سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ مـ. وكان من أئمه الطلاب في زمانه وزمن على بن زياد شاب تونسي هو أسد بن الفرات، كان أبوه خراسانياً، دخل تونس مع جيش ابن الأشعث

سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١ م واستوطن تونس، وولد له فيها أسد، وفيها نشأ وحفظ القرآن، ثم اختلف إلى علی بن زياد وابن فروخ، ورحل إلى الحجاز، فسمع من مالك الموطاً، ثم رحل إلى العراق فاستمع إلى أصحاب أبي حنيفة وخاصة أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وزُلَّ الفسطاط ولزم دروس عبد الرحمن بن القاسم إمام المذهب المالكي بعد استاذة مالك دون ما سمعه عليه في مدونته له تسمى الأسدية، وأخذ أسد يدرس في القبروان مدونته عن ابن القاسم لطلابه، وتولى القضاء لزيادة أقه الأغلبي، فكان تارة يأخذ في قضائه بمذهب مالك وتارة يذهب إلى حنيفة حسب ما يتراوَى له من الوجه الصحيح في الحكم، والمعروف أنه كان القائد في فتح صقلية، واستشهد بعد فتحه لمصر بذاته سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٨ م.

ونحن لا نصل إلى أواخر القرن الثاني الهجري حتى يكون الطلاب في تونس والقبروان عرفاً - معرفة جيدة - مذهب مالك عن طريق علی بن زياد وأسد بن الفرات، كما عرفا مذهب أبي حنيفة عن طريق عبد أقه بن فروخ وأسد بن الفرات أيضاً وإن غالب عليه مذهب مالك، ومضي المذهبان يتعايشان في القرن الثالث الهجري، ولكن منها فقهاؤه، وكان مما مكِّن للمذهب الحنفي في القرن الثالث أن الأغالبة كانوا يختارون غالباً القاضي من الأحناف، كما كان يصنَّع العباسيون، وكانت كثرة الفقهاء في القبروان تؤثر مذهب مالك، ونستطيع أن نميز بين فقهاء الأحناف المهمين حيثُنَّ معاشر بن منصور رفيق أسد بن الفرات في تلمذته على عبد أقه بن فروخ، ومثله سليمان بن عمران، وكان يلزم أسد بن الفرات، ومن فقهاء الأحناف أيضاً لمهد زيادة أقه الأغلبي الأول أبو محزز محمد بن عبد أقه الكتافي، وكان هو وأسد بن الفرات شريكان في القضاة بالقبروان، وتناطراً أمام زيادة أقه في التبديد، فكان أسد يقول بتحريري وأبو محزز بمخالفته متبايناً رأي الأحناف وهم لا يجلونه مُسْكراً وإنما قبل إسکاره، ومن فقهاء الأحناف أيضاً لمهد الدولة الأغلبية عبد أقه بن محمد بن الأشج، قال الحشن في طبقاته: كان مذهبة مذهب الكوفيين، توفي سنة ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م. وكان يعاصره الفقيهان الحنفيان أبو العباس بن القيار، وأبو العباس بن عبدون القاضي، ويقول الحشن عنه: «كان حافظاً لمذهب أبي حنيفة، ولاه إبراهيم بن أحمد (الأغلبي) القضاة ثم عزله» توفي سنة ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م. ومنذ استولت الدولة العبيدية على القبروان من الأغالبة أخذ المذهب الحنفي يقل فقهاؤه ولا انتهت تلك الدولة أخذ المذهب المالكي في الغلبة عليه حتى إذا كان العز بن باديس وحمل الناس والفقهاء على مذهب مالك دون غيره من المذاهب إرضاء للجماهير في رعيته قُل في القبروان وإفريقية التونسية من يعنِ بالذهب الحنفي، ونستطيع أن نذكر منهم في أوائل عهد الدولة الخفوصية محمد الزناتي إذ يقول صاحب الحال السنديسي إنه كان إماماً في المذهب الحنفي، ويعود المذهب الحنفي إلى ما كان له من الازدهار في زمن الأغالبة أيام الحكم العثماني، وبعبارة أخرى منذ عهد يوسف داى (١٥٩٩ هـ / ١٠٤٧ م - ١٦٣٧ هـ / ١٠٤٧ م) إذ

أصبح قاضي القضاة أو رئيسهم حنفياً، وُسُمِّيَ فيها بعد شيخ الإسلام، ولم يكن حكم للقاضي المالكي ينفذ إلا إذا وافق عليه القاضي الحنفي، وتبع ذلك أنأخذ المذهب الحنفي يدرس في تونس بالمدرسة الشعاعية وغيرها. ومن مشاريع الحنفية في القرن الحادى عشر المجرى بالمعهد العثماني من ذكرهم ابن أبي دينار في آخر كتابه «المؤنس» محمد بن شعبان إمام جامع يوسف داى، وأبو الحسن كرباسة المدرس بالمدرسة الشعاعية، وبنكاثر بتونس فقهاء الأحناف منذ هذا التاريخ، ويضيف حسين خوجة في كتابه: بشائر أهل الإيمان بفتورات آل عثمان جعفر كرباسة. وتقطع أخبار من يتبعون إلى مذهب الشافعى، ويدركُ عن سعيد بن الحداد الفقيه والمتكلم الكبير المازِرَ ذكره المتوفى في مطلع القرن الرابع المجرى أنه بدأ حياته مالكيا، ثم تحول إلى مذهب الشافعى ثم عاد إلى المذهب المالكي.

وكان المذهب المالكي قد أخذ في الازدهار بالقيروان وإفريقية التونسية منذ مؤسسه أسد بن الفرات بما كان يلقى على الطلاب من مدونته الأسدية عن عبد الرحمن بن القاسم إمام المالكية بالفسطاط وكان يعاصره سحنون تلميذ على بن زياد، وقد أخذ عن أسد بن الفرات مدونته وحملها معه إلى ملليها عليه عبد الرحمن بن القاسم، وقرأها عليه، فأصلح له جوانب فيها، وعاد بها سحنون إلى القيروان، وأخذ يمل هذه الصورة الجديدة من المدونة على الطلاب وجاءوه من كل فجٍّ حق قالوا إنه تخرج على يديه سمعانة فقيه. ونسبت المدونة إليه - وكان ينبغي أن تتسب إلى عبد الرحمن بن القاسم - إذ أصبح اسمها مدونة سحنون، وطارت شهرتها في بلده والبلدان المغاربية جيئاً. وهو أول من أقام نظام الحسبة في القيروان حين تولى قضاها سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م إلى وفاته سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م وخلفه في حلقةه ابنه محمد المتوفى سنة ٢٥٦هـ/٨٦٩م وذكر مترجموه له تأليف مختلفة ومرّ بنا كتابه: «آداب المعلمين». وكان يعاصره محمد بن إبراهيم بن عبدوس المتوفى سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣م وكان جيد القرحة غزير الاستبطاط، وله كتاب في شرح مسائل مدونة سحنون، ويقال إنه لما تصفّح محمد بن عبد الله بن عبد الحكم إمام المالكية في الفسطاط بعد ابن القاسم كتابه وبعض كتب محمد بن سحنون قال في كتاب ابن عبدوس: هذا كتاب رجل أتى بعلم مالك على وجهه، وقال في كتاب لابن سحنون هذا كتاب رجل سبع في العلم سبعاً. وتنطق بعدها بيحى بن عمر الكافاني المتوفى سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م وكان فقيها، وله كتاب في الرد على الإمام الشافعى، وكتاب ثان في الحسبة بعنوان: «أحكام السوق» وهو منشور.

وحين استولى العبيديون على القيروان اضطهدوا فقهاء المذهب المالكي إذ حاولوا نقلهم من المذهب المالكي السقى إلى مذهبهم الإسماعيلي فعارضوه، وناظروا دعاتهم مناظرات حادة. وكان من أهم المعارضين لهم والمناظرين المجادلين لدعاتهم محمد بن اللباد رئيس المالكية وإمامهم

بالقيروان، فسجنه فترة، ثم ددوا إليه حر بيته على أن يلزم بيته ولا يلقي الطلاب في جامع عقبة، فكان يلقاهم في بيته كما مرّ بنا إلى أن توفي سنة ٢٣٢٣هـ / ١٩٤١م وله مصنفات مختلفة منها كتاب في الطهارة وكتاب في فضائل مالك. وانحسرت غمة العبيدين عن القيروان سنة ٢٣٦١هـ / ١٩٧١م برحيل المعز العبيدي إلى مصر. ولمع سريعاً تلميذ لابن الباد، هو عبد الله بن أبي زيد المتوفى سنة ٢٣٨٦هـ / ١٩٦١م وإليه انتهت رياضة المالكية بالقيروان والبلاد المغربية، وإليه رحل الطلاب من جميع آفاق المغرب، ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب إنه بعد المجدد للسنة ولنذهب مالك في المغرب بعد انحسار حركة التشيع، وله الرسالة الجامحة لعقيدة أهل السنة ردّ بها على الشيعة وطا شروح كثيرة، وله كتاب التوادر والزيادات على مدونة سحنون، ويقول ابن خلدون: «جمع فيها ابن أبي زيد جميع ما في الأهميات من المسائل والخلاف والأقوال». ومن تلاميذه أبو الحسن القابسي المازري ذكره بين المحدثين. ونلتقي بهدأباً عمران الفاسي المتوفى سنة ٤٢٠هـ ثم بأبا إسحق إبراهيم التونسي المتوفى بمنتصف القرن الخامس وله شرح على المدونة باسم التعليقة، كما نلتقي بأبا الحسن اللخمي المتوفى سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م وله كتاب التبصرة. ويلقاناً بعده الإمام المالكي الحافظ المازري محمد بن علي الصقلي المذكور بين المحدثين، ويقول ابن فرحون عنه: إمام أهل إفريقيا والمغرب، وصار الإمام لقباً له، فلا يعرف بغير الإمام المازري، درس الفقه والأصول وله فيها كتب قيمة.

وفي أواسط القرن السادس الهجري استولى عبد المؤمن على الأقاليم التونسية ولم يحاول -فيها يبدو- نشر المذهب الظاهري مذهب دولته فيه، واكتفى بأن يذكر في خطبة الجمعة اسمه أو اسم المهد ابن تومرت زعيم دولته ولذلك ظل المذهب المالكي مسيطرًا ولانسمع عن اتباعه المذهب الظاهري في عهدهم وعهد الدولة الخصصية التي خلفتهم إلا عن بعض أفراد اعتنقوا المذهب الظاهري من حين إلى حين.

ومن كبار فقهاء المالكية في القرن السابع الهجري الحافظ الفقيه عبد العزيز القرشى المعروفة باسم بزيزة المذكور بين المفسرين ومن أهم تلاميذه أبو القاسم بن أبي بكر المعروف بابن زيتون قاضي تونس في صدر الدولة الخصصية المالكية المتوفى سنة ٦٩١هـ / ١٢٩١م وهو محرر عقد الصلح بين المستنصر والمسيحي الفرنسي بعد موته لوييس التاسع تحت أسوار قرطاجنة سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧١م. وفي أواخر هذا القرن السابع وصل من القاهرة كتاب المستنصر ابن الحاجب في الفقه المالكي وشغل بشرحه علماء البلدان المغربية. ونلتقي في القرن الثامن بمحمد بن عبد السلام المواري مجده الحركة الفقهية كما يقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب وشيخ الجيل التالي المتوفى سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م المتولى قضاء الجماعة، له شرح لختصر ابن الحاجب بعد من أهم شروحه، كما يقول ابن فرحون، ومن أتبغ تلاميذه ابن خلدون المؤرخ والفقه المالكي الكبير، وستترجم له بأخره ن هذا الكتاب، ومن أنبغهم أيضاً محمد بن عرفة الورغى

المتوفى سنة ١٤٠٣هـ / ١٤٠٠م، شيخ شيوخ عصره، كما يقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب، ويفتح ابن فرحون ترجمته بقوله: «هو الإمام المقرئ الفروعي الأصولي البیان المنطقی شیخ الشیوخ، وبقیة أهل الرسوخ، ولہ تألیف منها تقییده الكبير فی المذهب المالکی فی نحو عشرة اسفار، أقبل الناس علی تحصیله شرقاً وغرباً». ومن تلاميذه في القرن التاسع الهجري محمد بن عمر الأبي المذکور بين المفسرين والمحدثین.. ولہ فی الفقه شرح علی مدونة سخنون.

طبيعي أن يتراجم ازدهار دراسات الفقه المالکی في المهد العثماني، وخاصة منذ عهد يوسف دای في النصف الأول من القیجن الحادی عشر الهجري، إذ أصبح رئيس القضاة حنفیاً، وأصبح حکم القاضی المالکی لا ينفذ إلا بعد مصاده عليه، ويدکر ابن أبي دینار في آخر کتابه المؤنس من فقهاء المالکیۃ بالقرن الحادی عشر محمد فناة المدرس في جامع الزیتونة، ومثله سعید الشریف وعبد القادر الجبالي، وتظل دراسة الفقه المالکی ناشطة في جامع الزیتونة إلى العصر الحديث. ويضیف حسین خوجه في كتابه ذیل بشائر أهل الایمان بفتحات آل عثمان: سعید الشریف ومحمد الحجیج ولہ حاشیتان علی مختصر خلیل فی الفقه.

ومن يقرأ كتب تراجم العلماء والفقهاء - منذ القرن الثانی الهجري يشعر كأنما كانت القیروان مرآة للمذاهب الكلامية التي نشأت في العراق، إذ كانت مبادئها ونظرياتها تثار في القیروان، ويتناولون فيها ويتجادلون كثیرون، ومن أوائل ما كان من ذلك الجدل في مبادئ الخارج، وخاصة مبادئ الإباضية والصغریة التي اعتنقها كثیرون من أهل المغرب - منذ أوائل القرن الثانی الهجري -. وكانت قد اقتربت بها في المشرق فكرة المسلم مرتک الكبيرة أما الصغریة فذهبت إلى الحكم عليه بالکفر وغالت في سفك الدماء كما مر بنا في الفصل الماضي، وقالت الإباضية إنه کافر نعمۃ لا کافر ملة وحكمت عليه بأنه مسلم عاصٍ ولم تعد دار المسلمين - مثل الصغریة - دار حرب، وذهب أهل السنة من المالکیۃ وغيرهم إلى أنه مسلم فاسق، وذهبت المرجنة إلى إرجاء الحكم عليه لربه يوم القيمة، كما ذهبت إلى أنه يکفى في الإیمان القول أی التلطف بالشهادتين، ولا ضرورة فيه للعمل، وهو أداء الفروض الدينیة، بينما أهل السنة يرون أن الإیمان قول وعمل، فمن لم يؤدّ الصلاة والفرض الدينیة لا يعد غسلیاً. ويروى أبو العرب في ترجمة يحیی بن سلام المتوفى سنة ١٧٥هـ للهجرة والمذکور بين المفسرين أنه كانت تجرى مناقشات بجلسه في الإرجام. وكان مذهب الاعتزال والمترزلة قد ازدهر بالشرق في القرن الثانی الهجري وتجادل أهل البصرة وبغداد طويلاً مبادئه الخمسة المشهورة وهي القول بالوحدانية وبأن مرتکب الكبيرة في منزلة بين الإیمان والکفر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنکر والقول بالعدل على اقه وأنه يعلم الأصلح لعباده، وأنه منفذ - لا بد - وعده ووعيده.

وينتقل هذا المذهب إلى القبروان ويتجادل أهل السنة مع معتقبيه، وفي خبر عند أبي العرب، أنه كان للمعتزلة بالقبروان سقية يجتمعون فيها، وتوقف شخص بإزائهم وهم يتجادلون يستمع إليهم.

ولذا مضينا إلى القرن الثالث وجدنا محنة خلق القرآن التي امتنع بها الفقهاء من أهل السنة في عصور المؤمن والمعتصم والواతق ينتقل الجدل والمحوار فيها إلى القبروان، فعنهم من يقول إن القرآن - كما قال أهل السنة - قديم، ومنهم من يقول - كما قال المعتزلة - إنه حادث مخلوق غير قديم. ويدرك أبو العباس في طبقاته مناظرة حدثت أيام زيارة آفة الأغلى (٢٠١-٢٢٣ هـ) عن خلق القرآن كان الجغرفي يقول فيها إنه غير مخلوق، والشیری يقول إنه مخلوق. وفي طبقات أبي العرب أنهم كانوا يتجادلون كثيراً في التشبيه على الذات العلية. واتسع الجدل في ذلك كله بجامع عقبة، إذ كان لكل فرقه من ذكرناهم حلقة يجتمعون فيها ويتجادلون جدلاً كثيراً. وكان أهل السنة يضيقون بهذا الجدل وما يحدهه من جلبة وضوضاء في جامع عقبة حتى إذا تولى سحنون قضاة القبروان سنة ٢٣٤ هـ ٨٤٨ م «فرق» - كما يقول مترجحوه - حلقات أهل البدع منهم في المسجد الجامع وشد أهل الأهواء وكانتوا فيه حلقاً من المخوارج: صفرية وإياضية ومعهم معتزلة، ينتظرون ويفظرون زيفهم.. وأمرهم أن لا يجتمعوا فيه» وقد أثار هذا الجدل الواسع للمعتزلة وغيرهم في القبروان حركة جدلية واسعة، حتى ليصف أبو العباس والخشني في طبقاتها غير واحد بأنه كان من الجدلين المناظرين الذين يعرفون كيف يدفعون الخصوم بالحجج والبراهين الساطعة، ولم يصفا بذلك المعتزلة أو كما يسمونهم أحياناً العراقيين بل يصفان بذلك كثيرين من أهل السنة. ومن كبار متكلميهم المجادلين عن عقيدتهم المفحمين لتصومهم أبو عثمان سعيد بن محمد المشهور بابن الحداد رأس المدرسة الكلامية بالقبروان كما يقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب وقال الخشنى في طبقاته: غالب عليه الكلام والجدل والمناظرة.. ولهم مقامات كريمة وموافق عمودة في الدفاع عن الإسلام والذب عن السنة» ويصفه المالكي في رياض النقوس بأنه كبير المناضلين عن السنة وكانت له مجالس كبيرة مع أهل العراق (يريد المعتزلة) القائلين بخلق القرآن من أهل القبروان، ويسوق الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب من هذه المجالس مجلساً تعاور فيه مع عبد آفة بن الأشج في خلق القرآن وأسكنه وقطمه، ولا سلطط عبد آفة المهدى داعيته أبا العباس المخطوم بجدال فقهاء القبروان ومحاولته إقناعهم ببيان دعوتهم الإسماعيلية كان أكبر من تصدى من أهل السنة له ولغيره من دعاتهم في أربعين مجلساً سجل منها الخشنى في طبقاته أربعة مجالس ونسوق مثلاً من هذه المجالس، فقد سأله أبو العباس المخطوم هل يجوز تقديم المفضول (أى أبي بكر وعمر في الخلافة) على الأفضل (أى علي) فأجابه بقوله تعالى: **﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ**

أقه قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أئن يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يُؤتَ سُلْطَةً من المال قال إن أقه اصطفاه عليكم وزاده سُلْطَةً في العلم والجسم<sup>(١)</sup> يريد أنه فضله على النبي، والنبي أفضل منه، ودليل آخر ذكره من السنة وهو أن الرسول ﷺ أمر على جيش عمرو بن العاص فكان يقسم *الفنان* (الفنان) ويأمر وينهى فيقطاع يصل بهم الصلوات. وتحت يديه في الجيش أبو بكر وعمر وها جيئنا أفضلاً منه<sup>(٢)</sup>. وعلى هذا النحو كان سعيد بن الحداد يجيئ أبا العباس المخطوم وحاصره حوارا غرسا بأدلة قرآنية وأحاديث نبوية، وبضيف إلى ذلك حججها منطقية دامغة مما يجعله من كبار المتكلمين المدافعين عن عقيدة السنة لاق القبروان وحدها. بل في العالم الإسلامي جميعه. وإذا كانت القبروان عرفت المذاهب المبكرة في العراق للمعتزلة وغيرهم فإنها عرفت مذهب الأشعرى الذي أخذ في الانتشار منذ القرن الرابع المجرى حلء إليها أبو الحسن القابسي المذكورين المحدثين، والمتوفى سنة ٤٠٣ ومعرف أن للأشعرى نظرات دقيقة في التوسيط بين القائلين بالجبر وأن حرية الإنسان معلولة وبين القائلين من المعتزلة بالاختيار وحرية الإنسان في إرادته، وأيضاً بين أهل السنة من مثل ابن حنبل في كتابنا «العصر العباسي الثاني». ومن كبار الأشعريين القبروانين محمد بن عتيق التميمي القبرواني أخذ علم الكلام بالقبروان عن أبي عبد الله بن الحسين بن حاتم صاحب أبي بكر بن الباقلان (الأشعرى) ورحل إلى بغداد ودرس بها علم الكلام بالمدرسة النظامية. وقال السلفى كان مشاراً إليه في علم الكلام قال لـ أنا أدرس علم الكلام منذ سنة ثلاثة وأربعين وأربعين توفي سنة ٥١٢هـ/١١١٨. ولعل في كل ما قدمت ما يدل - بوضوح - على أن علماء القبروان استوعبوا جميع المذاهب الكلامية الشرقية، وعم المذهب الأشعرى هناك منذ القرن الخامس المجرى.

## ٥

التاريخ<sup>(١)</sup>

## منذ الحقب الأولى في المعهد الإسلامي يعنى أهل إفريقيا التونسية بكتابة التاريخ، وأول

والغرب (طبع تونس) ومقدمة أخوذج الزمان لابن رشيق (طبع تونس) وابن خلدون وعلم الإيان لابن الدبهاغ وابن ناجي ورحلة التجانى والاحاطة للسان الدين بن الخطيب في يحيى بن خلدون ومقدمة تاريخه والتعریف بابن خلدون بقلمه والأدلة = البينة التورانية على مفاخر الدولة المفصية

(١) راجع في المؤرخين التاليين طبقات أبي العرب ورياض النغوس للمالكي و مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة في سيرة المهدى لمعرف الماجد ومقدمة سيرة الاستاذ جوزن المطبوعة بالقاهرة وكذلك مقدمة افتتاح الدعوة وطبقات المشتى وقطعة الرقيق القبرواني من كتاب تاريخ إفريقيا

مؤرخ نلتقي به عيسى بن أبي المهاجر، حفيد أبي المهاجر والي إفريقية التونسية والمغرب (٥٥ - ٦١ هـ) توفى بأواخر القرن الثاني المجري، وله كتاب مغازي إفريقية، وهو مفقود غير أن المؤرخين بعده ينقلون عنه تقولا مستفيضة على نحو ما نجد في طبقات علماء إفريقية وتونس لأبي العرب. والمؤرخ الثانى بعده عبد الله بن أبي حسان البصري المتوفى سنة ٢٢٢٧هـ/٨٤١م وله كتاب في أخبار إفريقية وحروتها ولمحمد بن زيادة الله الأغلبى المتوفى سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م كتاب في دولتهم الأغلبية، ولأبي علي بن الوكيل القبروانى المتوفى سنة ٩٢٢هـ/١٠٢٢م كتاب في تاريخ إفريقية. وكل هذه الكتب التاريخية مفقودة. وبجعفر بن علي الحاجب كتاب في سيرة المهدى الفاطمى ومن كتب التاريخ التي يظن أنها كتبت قبل انتقال العبيدات الفاطميين إلى مصر أو بعد انتقالهم مباشرة سيرة الأستاذ جوزف وافتتاح الدعوة الفاطمية والمجالس والمسائرات للقاضى التعمان القبروانى العبیدى، ومن الكتب التاريخية العبیدية كتاب لأحمد بن الجزار الطبيب القبروانى المشهور المذكور بين الأطباء وهو كتاب باسم تاريخ الدولة يزيد الدولة العبیدية. ومن الكتب المهمة كتاب طبقات علماء إفريقية وتونس لأبي العرب محمد بن قيم القبروانى المتوفى سنة ٢٢٣هـ/٩٤٤م وهو منشور بتونس، ونلتقي بعده بكتاب طبقات علماء إفريقية لمحمد بن الحارث بن أسد الحشنى المتوفى سنة ٣٦١هـ/٩٧١م وهو مكمل لبسالته ومطبوعان معًا بدار الكتاب اللبناني بيروت، وللرقين القبروانى صاحب ديوان الرسائل في عهد باديس الصنهاجى وابنه المعز المتوفى حول سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م كتاب مهم في تاريخ إفريقية والمغرب، وهو مفقود سوى قطعة منه نشرها د. منجي الكعبي بتونس تورخ لنحو قرن وربع من ولاية عقبة بن نافع إلى ولاية عبد الله الأغلبى وهو ابن إبراهيم مؤسس الدولة الأغلبية، ويلقانا بعده كتاب أنموذج الزمان في شعراء القبروانى لابن رشيق المتوفى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م ومر بنا حديث عنه بين النقاد، وكان يعاصره أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله المفلکي المتوفى سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م وله الكتاب البدیع: رياض النقوس في طبقات علماء القبروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ويقدم في أوائله قصة الفتاح العربي في إفريقية كاملة معتمداً في الأكثر من روایاته على المؤرخين القبروانين السابقين له، وفي نهاية كل طبقة من العلماء والفقهاء يفرد فصلاً لأهل العبادة والنسل، طبع القسم الأول منه في القاهرة وطبع القسم الثانى في تونس. ومن أهم كتب التراجم القبروانية والتونسية بعده كتاب معالم الإيمان في معرفة أهل القبروان عبد الرحمن بن محمد الأنصارى المعروف بالدبياغ المتوفى سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م وهو يعتمد

---

لابن الشماع (طبع تونس) والمؤنس لابن أبي الإياع بفترحات آل عنمان ومقدمته وفيه ترجمة دينار والميلل السنديسة للسراج، وذيل شائز أهل محمد السراج، وشجرة التور الزكية لمحمد مختلف.

على المالكى إلى حد كبير وأكله بإضافات وتعليقات أبو الفضل بن عيسى بن ناجي التخوى المتوفى سنة ١٤٣٩هـ / ١٤٣٦ م والكتاب وإضافات ابن ناجى مطبوعان معا. وللتتجانى عبد الله بن محمد المتوفى بعد سنة ٧١٧هـ / ١٣١٧ م رحلة مشهورة مطبوعة بتونس تحول فيها مع أبي يحيى اللعياق قبل سلطنته في البلاد التونسية حق أقصى الجنوب وغراها حتى طرابلس وهو فيها يدون أخبار البلاد وأوصافها وعلماءها وعبادها بحيث أصبحت الرحلة تاريخاً على علما وأدبها واجتماعها للبلدان التونسية في مطلع القرن الثامن المجرى. ولأبي محمد عبد الله بن عبد البر التخوى المتوفى سنة ٧٣٧هـ / ١٣٣٧ م تاريخ مرتب على السنين مثل الطبرى. ولإبى بن خلدون المتوفى سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨ م كتاب بقية الرواد في ذكر الملوك من بين عبد الواد بتلمسان حق زمنه. ولعبد الرحمن بن خلدون أخيه المتوفى سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٥ م تاريخه المشهور «العبر» وبه جزءان عن البربر بإفريقية التونسية والبلاد المغربية وبهذا معلومات تاريخية طرفة عنهم وعن شعوبهم وقبائلهم ودولهم ينفرد بها لأخته من مصادر مغربية لم يطلع عليها سواه. ولأبي العباس أحمد بن الشاعر المعروف بابن الهيثم المتوفى في أواخر القرن التاسع المجرى كتاب عن الدولة الحفصية باسم الأدلة البينة التورانية على مفاخر الدولة الحفصية ألفه في أواخر سنة ١٤٥٧هـ / ١٤٥١ م وللزركشى كتاب تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية وينتهي به في تاريخ الدولة الحفصية إلى سنة ٨٨٢هـ / ١٤٧٧ م، ولابن أبي دينار الذى كان حيا سنة ١١١٠هـ / ١٦٩٩ م كتابه النفيس: «المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس، ولحسين خوجه المتوفى سنة ١١٤٥هـ / ١٧٣٢ م ذيل بشائر أهل الایمان بفتورات آل عثمان وهو ترجمات لعلماء البلدان الكبيرة: القبروان وصفاقس وجربة وسوسة وتوزر وباجة، وخصص تونس بالترجمة فيها لاثنين وأربعين عالما دينيا. ولمحمد بن السراج المتوفى سنة ١١٤٩هـ / ١٧٣٦ م الحلل السندينية في الأخبار التونسية يعنى فيه بالحديث عن المدن التونسية وعلمائها وأدبائها بادئاً بمدينة سوسة.

## الفصل الرابع

### نشاط الشعر والشعراء

#### ١

#### تعرّب القطر التونسي

كان البربر ينتشرُون قديماً في جميع الأراضي الممتدة غرب مصر من واحة سيوه إلى المعیط الأطلسي، وكانوا يتكلمون لهجات ببربرية شقّ ردها على الأجناس واللغات القديمة إلى أصلين: ليبى في شرق تلك الأراضي ونوميدي في أواسطها وغريبيها، وهي لهجات تعدد جنساً وتتفاوت فيها بينما يصعب التفاصيل بين سكان منطقة في ليبيا كسكن جبل نفوسه وسكان منطقة في الأقاليم التونسي كسكن منطقة الجريد فضلاً عن سكان المغرب الأوسط في الجزائر والمغرب الأقصى في المملكة المغربية.

نزل الفينيقيون - كما مرّ بنا - بساحل تونس، أو بعبارة أدقّ أخذوا يرددونه منذ أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، وكوّنوا لهم غرب مدينة تونس الحالية مدينة قرطاجة حوالى القرن الثامن قبل الميلاد، ولعبت تلك المدينة في المنطقة - كما أسلفنا - دوراً حضارياً عظيماً إلى أن دحرها الرومان واستولوا عليها في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد، ونشروا بالمنطقة لغتهم اللاتينية كما نشروا بها المسيحية حين اعتنقوها، وتهذّبوا إمبراطوراً عظيماً هو سيفيروس Septimus Severus وكانت بارعاً هو أبوه Abulée. كما تهذّبوا بعض القديسين مثل ترتوليان Tertulien. وتظلّ المنطقة تابعة لروماستة قرون طوال، وكانت تتبعها أيضاً بقية الساحل الإفريقي من برقة إلى المعیط الأطلسي، مما جعل اللاتينية تسود في كل تلك المناطق سواء في شئون الحكم الرسمية أو في شئون الدين ولذلك اضطرّ كثيرون من البربر في تونس وغيرها من الأقاليم المغربية أن يتّعلّموا اللاتينية ويتقنّوها تحداً وكتابة. وقد نزّلوا الواندال الجرمانيون سنة ٤٣٩ وظّلوا بها مائة عام يدمرون كل ما بها من مظاهر الحضارة والمعuran إلى أن خلعتها منهم بيزنطة، وحاولت تنشر بها اليونانية غير أن اللاتينية ظلت هي اللغة المسيطرة على الألسنة وفي شئون الدين إلى أن فتحها العرب، وظلت فترة غير قليلة متداولة وخاصة في قرطاجة وما حولها، وزراها لا تزال حية على بعض الألسنة في قفصة جنوب الأقاليم التونسي

في القرنين السادس والسابع المجريين كما يحدّثنا عن ذلك الإدريسي والتجانفي في رحلته، وإن كان من المؤكّد أنه أصايبها حينئذ غير قليل من التعرّيف بسبب اختلاط المتكلّمين بها بسكان تلك المنطقة البربرية ولغتها.

وعلى الرغم من القرون المتطاولة التي عاشت فيها اللغة الفينيقية المتحضرة بالإقليم التونسي والقرون الأخرى التي عاشت فيها اللاتينية المتحضرة بهذا الإقليم وأنّها كثير من البربر تكلماً وكتابة على الرغم من ذلك لم تتحول اللغة البربرية - لا في تونس ولا في أي إقليم آخر - إلى لغة متحضرة أيام الفينيقيين بحيث أصبح لها حروف استحدثها البربر يكتبونها بها، ومن ثمّ لم يتركوا قبل الإسلام أي آثر كتبى بلغتهم البربرية يمكن منه التعرّف الدقيق على تارّيخهم القديم، وقد رجع العرب في معرفته إلى الكتب والكتابات اللاتينية، وما يؤكّد ذلك أننا نجد يامبساي ملك نوميديا البربرى أيام الفينيقيين يحرر كتبه باللغة الفينيقية لغة فرطاجة، كما نجد بين ملوكها أيام الرومان من يحرر كتبه باللاتينية أو الإغريقية، فلم تكن البربرية - قبل الفتح العربي الإسلامي - إذن لغة حضارية وكان كثيرون من البربر يعرفون اللاتينية كأسلفنا وقد أخذت اللختان تزايلُ السنة أهلها وتعلّم عملها العربية في تونس وغير تونس من أقاليم المغرب مع اعتناق السكان الإسلام واختلاطهم بالعرب عن طريق القاهرة والعاشرة منهم، وخاصة في المدن التي نزلوها، إذ كان سكانها - لذلك - أسرع في التعرّف من سكان القرى الريفية والجبال والنجاد والبواudi، وكانتا يعودون في الإقليم التونسي وغيره بالآلاف، وقد بلغ عدد الجنود الفاتحين في عهد الأموريين وأوائل عهد العباسين نحو مائة وخمسين ألفاً سوياً من كان يرافقهم من النساء والأطفال، وما يذكر - بالشأن الجم - للفاتحين في المهدى الإسلامية الأولى أنّهم لم يكونوا غرّة يجمعون غذائم الفتوح، كما يحاول المستشرقون أن ينعتوهم، بل كانوا ناشرين للدين الحنيف، وتسلّل منهم - كثيرون من مدن الإقليم التونسي وغيره من الأقاليم المغاربة - إلى القرى والجبال والبواudi يدعون إلى دين الله بحثة وحاسة باللغة.

وقد جعلت تعاليم الدين الحنيف السامية وما يدعو من إخاء وتسامح ومعاملة حسنة شعوب البربر تقبل عليه، وخاصة بعدما رأوه يرفع عن كواهلهم ظلم الأمم السالفة التي كانت تتصرّ لنفسها خيرات بلادهم وترهقهم بالضرائب الفادحة، مما دفع البربر - وخاصة في المدن - إلى الدخول في الدين الحنيف ومرّ بنا أن قبيلة ببربرية - هي قبيلة أوربة - اعتنقت الإسلام في عهد عقبة بن نافع حوالي سنة ٦٠ للهجرة، وكان البربر الذين أسلموا يقلّلون على حفظ كبير من آى الذكر الحكيم واستظهار بعض الأحاديث النبوية، وكانتا يتلقّنون ذلك في كتابيْب أخذت تنشأ سريعاً في المدن وبعض القرى الكبيرة، كما كانوا يتلقّنونه في حلقات كثيرون من

كانوا يعتلون بالمساجد منصات محاولين أن يعلّموا الناس بعض تفسير القرآن شارحين لهم بعض الأحاديث النبوية مع التعرُّض لجوانب من تعاليم الدين الخفيف، وأخذ كثيرون في البوادي وسفوح الجبال يسعون إلى حفظ الذكر الحكيم كما مرّ بنا في الحديث عن الثقافة وشفف عمر بن يمْكَنَ بحفظ القرآن ومراجعته فيه الجنود العرب المارِّين بمنطقة حق حفظه جميعه.

ومن المؤكد أن المدن التونسية - كما أسلفنا - أخذت في التعرُّب سريعاً عن طريق من نزلها من الجنود العرب طوال القرن الأول المجري بعد الفتح وشطرًا من القرن الثاني، فهي لم تنتظر طويلاً حتى يتم لها التعرُّب. وما لا ريب فيه أن القiroان التي أنشأها عقبة بن نافع في منتصف القرن الأول المجري لتكون معسكراً لجيشه كانت عربية خالصة منذ إنشائها، وتبعتها في التعرُّب مدن تونس وسوسة وصفاقس وقابس، بحيث لا تمضى طويلاً في القرن الثاني المجري حتى تصبح مدننا عربية خالصة، أما في الداخل والبوادي والجبال فقد ظل يغلب على الناس التخاطب بالبربرية طوال القرون الأربع الأولى للهجرة.

وما نكاد نصل إلى منتصف القرن الخامس للهجرة حتى يأخذ الإقليم التونسي في إكمال تعرُّبه، إذ اكتسحته موجات من قبائل هلال وسليم وزُغبة ورياح بأمر الخليفة الفاطمي المستنصر بالقاهرة - كما مر - للقضاء على دولة المعز بن ياديس الصنهاجي انتقاماً منه لخلمه تبعية بلاده للدولة الفاطمية الإسماعيلية الشيعية وإعلانه استقلاله وعدة الإقليم التونسي إلى مذهب أهل السنة. واستطاعت هذه الموجات البدوية الكيفية أن تلجمه مع أسرته للمقام بمدينة المهدية وأن تجتاح القiroان وكل الإقليم التونسي بعده ووديانيه وجبلاته وبوادييه، وكانوا يبلغون نحو نصف مليون نسمة وامتزجوا بالبربر وتكونُ من الشعبين شعباً عربياً تام العروبة في اللغة والدين والزي والمطعم والمعادات والأخلاق والماتم والأعراس، واجتاحتوا البلاد يابلهم وخيلهم ورجالهم ونهبوا خيراتها عشرات من السنين، ومع كل ذلك حلوا إلى كل أنحاء الإقليم التونسي وأطافوه النائية اللغة العربية وفرضوها على البربر فرضاً عن طريق الامتزاج بهم واصهرتهم، حتى ليقول ابن خلدون - كما مر بنا في الفصل الماضي - عن قبيلة هوارة البربرية التونسية إنهم «صاروا في عدد الناجمة (بني هلال وسليم) في اللغة وسُكُنَّ المنيام وركوب الخيل والإبل ومارسة المزروع وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلكم، وقد نسوا رطانة البربر واستبدلوا بها فصاحة العرب فلا يكاد يفرُّ بينهم» فهم قد أصبحوا - بفضل هذه الموجات البدوية من بني سليم وهلال وزغبة - عرباً في العادات وركوب الخيل والإبل ومارسة المزروع وما ينساق في ذلك من الملبس والمطعم والأفراح والازداج والسلوك والأخلاق، ويقول ابن خلدون إن رطانة البربر زايلت ألسنتهم وحلت مكانها الفصحى، ونراه يقول في موضع آخر عن

هواة إنهم «تَدُوا - مع الأعراب - ونسوا رطانة الأعاجم وتتكلموا بلغات العرب وتعلموا بشعاراتهم في جميع أحوالهم».

ولم تتبُّد هواة التونسي أو تتعرب وحدتها في الإقليم التونسي، بل تعرب الإقليم جمعيه من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب في خلال قرن بل يزيد، إلى أن تستول على الإقليم زعيم دولة الموحدين المغربي عبد المؤمن بن علي، ولكن هل العربية التي حلتها قبائل هلال وسلمي وزغبة إلى الإقليم التونسي هي الفصحى أو هي عربية دارجة عامية؟ ونرجع أنها الفصحى، وبدل على صحة رأينا أن القبائل من سليم وهلال وزغبة كانت قد انضوت تحت لواء الأعجم القرمطي حين غزا الشام ومصر سنة ٣٦٠ للهجرة ورأى الخليفة الفاطمي العزيز - حين صاحبه - أن ينزلها في صعيد مصر، وحوّلهم بهذه الخليفة الفاطمي المستنصر إلى تونس لضرب المعركة بين باديس كـأسلافنا، وكانت الجزيرة العربية مصدرها لا يزال سكانها يحافظون على الفصحى بشهادة الجوهري في مقديمة معجمه الصحاح إذ يقول إنه أخذ اللغة عن أهلها مشافهة، وإن طُوف في بلاد ربيعة ومصر، ونجد الباحرزي في كتابه *ذمة القصر المؤلف في منتصف القرن الخامس المجري* يتترجم لشعراء كثرين من قبائل نجدية شرق وينشد من أشعارهم، مما يدل على أن الفصحى كانت لا تزال حية بعد مفارقة بن سليم وهلال للجزيرة بنحو قرن، ويبدو أنها ظلت حية في الجزيرة العربية قرونًا بعد ذلك، فإن عمارة اليمن يشهد - كما مر بنا في الجزء الخامس من هذه السلسلة - بأن تمامة والبودي وأهل الجبال في اليمن - لمصره بالقرن السادس المجري - كانوا يتكلمون الفصحى ولا يلحوتون في كلامهم، وما لا شك فيه - إذن - أن قبائل بنى سليم وهلال التي نزلت مصر وتركتها إلى ليبيا وتونس وما وراءها من بلاد المغرب لم تكن تطلق عربية مولدة أو عربية عامية، إنما كانت تطلق عربية فصيحة، ومن الخطأ أن يتشكك بعض الباحثين في صفاء عربتهم مستدلاً على رأيه بـشعر القصص الملالية المعروفة التي تحكي مغامرات أبي زيد الملالي في شعر شعبي مختلف في صياغته - قليلاً أو كثيراً - عن صياغة الشعر العربي الكامل الفصاحة فضلاً عما يبرئ فيه من خلل الإعراب، غير أن هذا القصص نشأ في عصور متاخرة، حين أخذت لهجات قضيدة بدعة لأحد رؤساء قبيلة عوف من بنى سليم، وكانت تستولى على ما بين قابس وسوسة، وهو عنان بن جابر، وكان أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية قد أوجز الصدور بين قبيلته وقبيلة علاق، فنشبت بينهما معارك ضارية، وأغضب ذلك من أبي زكريا عنان بن جابر فرحل بقبيلته إلى صحراء المغرب الأوسط (المجازر) فكتب إليه محمد بن أبي الحسين وزير أبي زكريا قضيدة يعاتبه فيها على هجرته عن وطن آبائه، ويدعوه إلى العودة إليه، ثم كتب إليه قضيدة ثانية، فرد عليه عنان عززونا لما اضطر إليه من فراق موطنه، وفيها يتحدث عن بسالة قبيلته في المرووب بمثل قوله:

وَكُنْا إِذَا مَا جَبَشَ صُفْتُ جَنُودَهُ تَرَانَا عَلَى خَيْلٍ عَنَّاقٍ ضَوَامِ  
نَحْوُضَ وَغَاهَا وَالقَنَا تَقْرَعُ التَّنَاءَ بِكُلِّ حُسَامٍ مَشْرَقٍ وَبَاتِرٍ

وَتَسْجُعُ الْفَصِيدَةَ جَزْلَ مِنْ، وَهِيَ مَعْرِبَةٌ إِعْرَابًا تَامًا، وَتَرْجِعُ إِلَى النَّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ  
السَّابِعِ الْمُهْجَرِيِّ مَا قَدْ يَدِلُ - مِنْ بَعْضِ الْوِجْهَاتِ - عَلَى أَنْ قَبَائِلَ سَلِيمَ - وَمِنْهَا غَالِبًا قَبَائِلَ  
هَلَالَ - لَمْ تَزَادِلْ أَسْتَهَا الْفَصَاحَةَ وَلَا أَصَابِهَا خَلْلُ الْإِعْرَابِ فِي النَّطْقِ حَتَّى عَصْرِ عَنَانَ بْنِ  
جَاهِيرَ، وَقَدْ يَسْتَدِرُ أَرَيْنَا - مِنْ بَعْضِ الْوِجْهَاتِ - مَا حَكَاهُ الْعَبْدَرِيُّ فِي رَحْلَتِهِ عَنْ أَهْلِ بَرْقَةِ الْلِّيَّبِيَّةِ  
مِنْ أَنْ «كَلَامُ عَرَبِ بَرْقَةِ مِنْ أَنْفُصِ كَلَامِ عَرَبِ سَمِعَنَاهُ»، وَيَقُولُ: وَعَرَبُ الْمَجَازِ أَيْضًا نَصَاحَاءَ،  
وَلَكِنْ عَرَبُ بَرْقَةِ لَمْ يَكُنْ وَرَدَ النَّاسُ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَخْتَلِطْ كَلَامُهُمْ بِغَرْبِهِمْ، وَهُمْ الْآنُ (فِي أَوَّلِ  
الْقَرْنِ السَّابِعِ الْمُهْجَرِيِّ) عَلَى عَرَبِيَّتِهِمْ لَمْ يَفْسُدْ مِنْ كَلَامِهِمْ إِلَّا الْقَلِيلُ، وَلَا يَخْلُونَ مِنَ الْإِعْرَابِ  
إِلَّا بِاً لَقَدْ رَهِنَ لَهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا يَعْرِفُونَ». وَيَسْوَقُ الْعَبْدَرِيُّ أَسْتَهَا مِنْ كَلَامِهِمْ سَمِعَهَا كَمَا  
رَوَاهَا وَفِيهَا يَحْتَفِظُونَ حَتَّى زَمْنَهُ بِالْإِعْرَابِ. وَمِنْ بَقِيَّاهَا هَذِهِ الْإِعْرَابُ - فِي رَأْيِي - احْتِفَاظُ  
قَبَائِلَ الْمَحَمِيدَ وَالْمَرَازِيقَ وَأَوْلَادِ يَعْقُوبَ وَغَيْرِهِمْ فِي النَّوَاحِي الْجَنُوبيَّةِ مِنَ الْإِقْلِيمِ التُّونِسِيِّ  
- إِلَى الْيَوْمِ - بِنَوْنِ النَّسَوَةِ فِي كَلَامِهِمْ، فَيَقُولُونَ: «النَّسَاوِينَ يَشَرِّبُونَ وَيَأْكُلُونَ وَيَغْزِلُونَ».  
وَلَا تَزَالْ هَذِهِ النَّوْنُ تَنْتَشِرُ فِي نَوَاحِي طَرَابِلسِ وَبَرْقَةِ الْلِّيَّبِيَّتِينَ كَمَا يَقُولُ الأَسْتَاذُ عَبْدُ الْوَهَابِ.

وَلَيْسَ مَعْنَى كُلِّ مَا قَدِمَتْ أَنَّ الْعَامِيَّةَ الْعَرَبِيَّةَ لَمْ تَأْخُذْ طَرِيقَهَا إِلَى الْأَسْنَةِ أَهْلِ الْمَدِنِ فِي الْإِقْلِيمِ  
التُّونِسِيِّ إِلَّا فِي وَقْتِ مُتأَخِّرٍ، فَالْمُلْظَنُونَ أَنَّ هَذِهِ الْمَدِنَ مُثِلُّهَا مُثِلُّ الْفَسْطَاطِ فِي مَصْرِ وَغَيْرُهَا مِنَ  
الْمَدِنِ الْعَرَبِيَّةِ اسْتَخْدَمَتْ مُبَكِّرًا لِغَةَ عَامِيَّةٍ بِهَا غَيْرُ قَلِيلٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْبَرْبَرِيَّةِ الْمَحَلِّيَّةِ، وَخَالِيَّةٍ  
مِنَ الْإِعْرَابِ، مُتَغَيِّفَةٍ مِنَ الْمَرْكَاتِ وَمُلْتَمِسَةُ التَّسْكِينِ لِأَوْلَاخِ الْكَلِمَاتِ. وَيَبْدُو أَنَّ هَذِهِ الْعَامِيَّةِ  
الْقِبْرَانِيَّةِ أَوَّلَيْنِيَّةِ أَوَّلَيْنِيَّةِ أَخْدَتْ تَشْيِيعَ فِي الْأَسْنَةِ مِنْ أَوَّلِيَّنِيَّةِ الْمُهْجَرِيِّ وَأَنَّ فَاعْتِيَّ  
صَفْلِيَّةَ مِنَ الْقِبْرَانِيَّينِ وَالْتُّونِسِيَّينِ سَنَةَ ٢١٢ لِلْهِجَرَةِ حَلَوْهَا إِلَيْهَا، كَمَا حَلَوْهَا إِلَى مَالَطَّةِ حِينَ  
فَتَحُواهَا سَنَةَ ٢٥٥ لِلْهِجَرَةِ لِهَدِيِّ الْأَمِيرِ الْأَغْلَيِّ أَبِي الْفَرَانِيَّ، وَقَدْ ظَلَوْا يَحْكُمُونَهَا حَتَّى سَنَةَ  
٤٨٥ لِلْهِجَرَةِ حِينَ اَنْتَزَعَهَا مِنْهُمْ رُوجَارُ التُورْمَانِدِيُّ صَاحِبُ صَفْلِيَّةِ، وَظَلَّ الْمُسْلِمُونَ بِهَا تَحْتَ  
وَلَاهِ التُورْمَانِدِيُّ نَحْوَ مَانَةِ وَسْتِينِ عَامًا إِلَى أَنْ أَجْبَرَهُمْ عَلَى مَيَارِحَتِهِ فَرِيدِرِيكُ الْثَانِي إِمَرَاطُورُ  
الْمَانِيَا سَنَةَ ٦٤٧ لِعَهْدِ الْمُسْتَنْصِرِ الْحَفْصِيِّ كَمَا مَرَّ بِهَا، وَمِنْ حِينَئِذٍ أَصْبَحَتْ مَالَطَّةُ مَسِيْحِيَّةً خَالِصَةً،  
وَقَدْ ظَلَوْا إِلَى الْيَوْمِ يَتَداوَلُونَ فِي حَيَّاتِهِمْ لِهَجَةَ عَرَبِيَّةِ مَالَطَّةِ مُشَتَّتَةً مِنَ الْلِّهَجَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِيْ كَانَ  
يَسْتَخْدِمُهَا آبَاؤُهُمْ وَبِعُقْدٍ يَقُولُ الْأَسْتَاذُ حَسَنُ حَسَنُ عَبْدُ الْوَهَابِ: «إِنَّ بَقاءَ هَذِهِ الْلِّهَجَةِ فِي  
مَالَطَّةِ لَظَاهِرَةٌ عَجِيْبَةٌ، بَلْ حَجَةٌ قَوِيَّةٌ وَمَعْجَزَةٌ بِالْفَلَقِ فِي حَبْوَيْةِ الْلِّهَجَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَرَسوخَهَا الْمُعِيقُ فِي  
قَرَارَةِ نُفُوسِهِمْ مِنْ يَتَكَلَّمُهَا مِنَ الْأَجْيَالِ. أَلَا تَرَى هَذِهِ الْجَزِيرَةُ الْمُسِيْحِيَّةُ التَّنْعِلَةُ قَدْ تَعَاقَبَتْ  
عَلَيْهَا - مِنْ ثَمَانِيَّةِ قَرْوَنَ - أَمَمْ وَدُولَ مُتَعَدِّدةَ، أَخْرَهُمُ الْإِنْجِليْزُ وَوَدُوا لَوْ يَحْمِلُونَ أَهْلَهَا عَلَى

التخاطب بلغتهم، فلم يتهيأ لهم ذلك، وبقي الماطليون محافظين على ما عندهم من العربية خلداً عن سلف، وإن في ذلك لذكرى لأول الألباب».

وطلت العامية شائعة على ألسنة أهل القبروان والمدن الساحلية الشمالية إلى أن خففت من حدتها في منتصف القرن الخامس المجري الزحقة الملالية والسليمية، وقد مضى الزاحفون يعرّبون المناطق البعيدة والأطراف النائية التي لم يكن لها عهد بالعربة، وكان مما عمل على نشر العربية في الإقليم التونسي بعد هذه الزحقة هجرة الأندلسين إليه في أوائل القرن السابع المجري إذ يقول ابن خلدون: «إن ملكة العربية صحت في إفريقية (تونس) بجلاء أهل شرق الأندلس إليها» والمعروف أن هذا الجلاء كان في أوائل القرن السابع. على أتنا لا نصل إلى أوائل القرن الثامن المجري حتى يحدّثنا التجاون في رحلته عن شعراً سليمين وهلاليين اشتهروا بأشعارهم الملحونة، ويسمون الفتوالين. وأطال ابن خلدون في أواخر هذا القرن في الحديث عن هؤلاء الأعراب القوالين في تونس والبلاد المغربية، وكان اللحن شاع على ألسنة الأعراب جيئاً في القرن السابع المجري، وربما سبق هذا التاريخ في بعض الأنحاء وتأخر في أنحاء أخرى مثل عرب برقة بشهادة العبدري كما مرّ بنا. ويقول ابن خلدون في الفصل الذي عقده لأشعار الأعراب وأهل الأمصار لمده: «إنهم يفرضون الشعر لهذا المهد في سائر الأعراض على ما كان سلفهم المستعربون يأتون منه بالطقوس مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من التسبيب وال مدح والرثاء والهجاء» ثم يقول: «وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم، فإن غالب كلماتهم (أشعارهم) موقوفة الآخر، ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب». وأخذت هذه العامية التونسية تتأثر بعد ابن خلدون بلغة من احتنّها من الإسبان ومن الترك على نحو ما من بنا في حديثنا عن تاريخها، وبذلك احتوت العامية التونسية بعض رطانات في مقدمتها الرطانة البربرية التي امتزجت بها من قديم.

وإذا كان ابن خلدون لاحظ أن المهاجرين الأندلسين القدامى في القرن السابع المجري <sup>بنوا</sup> روحًا وانتعاشًا في مملكة العربية التونسية فإن ملاحظته تتصبُّ - فيها بعد - على المهاجرين الأندلسين في أوائل القرن الحادى عشر المجري، إذ <sup>بنوا</sup> نفس الروح والانتعاش، وحالوا بينها وبين الركود الأدبي الذى رافق العثمانيين في حكمهم للبلاد العربية المشرقية. ومن المؤكد أنه كانت هناك لغة عامة يتداوّلها الناس - كما مرّ بنا - وأخذت تشيع في البوادي والأنحاء البعيدة منذ القرن السابع المجري، وربما قبل ذلك في بعض الجهات، غير أنه من المؤكد أنه كان للفصحى دانيا السيادة عليها، لأنها لغة القرآن الكريم والدين الحنيف ولغة الثقافة والعلم بختلف فروعه، ولغة الأدب وروائعه الشعرية والتربيّة.

## كترة<sup>(١)</sup> الشعراء

طبيعي أن يكون أول شعر ينشد في الإقليم التونسي بالقيروان وغير القيروان هو ما كان ينشده الجندي الفاتحون، والمعروف أن الشعب ظل متصلاً في هذا الإقليم وغيره من أقاليم المغرب، مما جعل الدولتين الأموية والعباسية ترسلان الجيوش إلى القيروان من حين إلى آخر حتى منتصف القرن الثاني الهجري. وكان في هذه الجيوش غير شاعر نابه تلقن عنه الشباب الإفريقي في القيروان وغيرها الشعر إما لهم مما نظمه وإما لغيرهم مما رأوه وأنشدوه، ولم تُعن كتب التراجم منهم إلا بين اشتهر بهم بقيادة أولوا ليا، ومن قدماء منْ ترجمت لهم أبو الخطاط المسام بن ضرار الكلبي، وكان شاعراً مفوهاً وفارساً نابهاً بين أقرانه في القيروان، وولاه حنظلة بن صوفان والي إفريقية هشام بن عبد الملك الأندلس سنة ١٢٥ للهجرة وعزل عنها سنة ١٢٨ فعاد إلى القيروان وسرعان ما توفي بها، وأنشد له ابن الأبار في كتابه الحلة السيراء أشعاراً بدعة. ومن شعراء الجندي الذين قدموا في عهد بن أمية سليمان بن حميد الفافقى وفيه يقول ابن الأبار: «فارس العرب قاطبة بالغرب في عصره، وأحسن الناس وأبهفهم، إلى معرفة أيام العرب وأخبارها، ورواية لوقائعها وأشعارها، ويقال إنه توفي سنة ١٦٠ للهجرة وهو القائل:

وإنا إذا ما الحرب أُسيّر نارها لنثني المنيا دارعين وحُسرا

ومن شعراء الجندي الذين قدموا إلى القيروان في عهد بن العباس الحكم بن ثابت السعدي من سلاة سلامه بن جندل الشاعر المحايلي المشهور، قدم إفريقية في جيش محمد بن الأشعث الخزاعي سنة ١٤٤ لمهد المنصور إغاثةً وعوناً للأغلب التيميسي والي القيروان، وأصبح من قواد جيشه، حق إذا استشهد الأغلب سنة ١٥٠ للهجرة رثاه رثاء حاراً، وكان الأغلب شاعراً، وتولى القيروان بعده عمر بن حفص المهلبي، واستشهد في بعض المعارك، فولها أبو جعفر

الستديسة للوزير السراج ووفيات الأعيان لابن خلكان في تراجم حكام الدولة الصنهاجية ومقنية ابن خلدون وتاريخه.

(١) انظر في الشعراء التاليين الحلة السيراء لابن الأبار وألموذج الزمان في شعراء القيروان لابن رشيق والبيان المغرب لابن عذاري والمغيرة (قسم شعراء المغرب - للعماد الأصبهان) والحلل

النصرور يزيد بن حاتم المهلبي وكان غاية في الجود ممدحاً، وظل والياً عليها من سنة ١٥٤ إلى ١٧٠ واستطاع أن يتحول بها إلى بيتنا كبيرة من بيتات الشعر والأدب واللغة في زمانه، وكان شاعراً مجيداً، ومن طريف شعره قوله في وصف كرم أسرته:

ما يألف الدرهم المضروب بخُرقتنا إلا لاماً قليلاً ثم ينطلق<sup>(١)</sup>

وقد جاء القبروان وفي صحبته المُصرّ بن سنان التّيمي، من تيم الرباب، اخْفَذ زميلاً له في طريقة ليؤنسه بطرائف الأخبار، ويقول ابن الأبار: «كان أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها، وعنه أخذ أهل إفريقيا حرب غطفان وغيرها من وقائع العرب» ويترجم ابن الأبار لابنه عامر، ويدرك بعض أشعاره، ويقول من أحفاده حزنة بن أحمد بن عامر وكان أدبه ظريفاً، وتتسابق غير شاعر في الوفود على يزيد كما توافدوا قديماً على جده المهلب في خراسان، ومنهم ربيعة الرّقى الشاعر العباسى المشهور، وفيه يقول:

هو البحر إن كُلْت نفَسَكَ خَوْضَةً تهالكت في آذِنِهِ المُسْلَاطِمِ

وهي قصيدة طارت شهرتها في مصر العباسى، وله فيه مداعن أخرى بديعة، ومن الشعراء الكبار الذين وفدو عليه بالقبروان ابن المولى، وفيه يقول:

إذا تبَاعَ كُرِبَةً أو تُشَتَّرَى فسوَاكَ بائِعَهَا وَأَنْتَ المُشْتَرِى

ويقال إنه أعطاه على هذه القصيدة الرائعة كل ما كان في بيته ماله، ولابن المولى وربيعة الرقى ترجمتان مفصلتان في كتاب الأغانى، وقد أقاما عنده في القبروان طويلاً والتلف حولهما شبابها يرونون عندها شعرها وشعر معاصرها، وذكر ابن خلkan في ترجمته بين من وفد عليه من الشعراء الشهر المتميى وأنه أغنى عليه مالاً جزيلاً.

ومرّ بنا في الحديث عن اللغوين أن كرم يزيد بن حاتم لم يجلب إلى عاصمة الشعراء فقط بل جلب إليها جلة من النحاة المشهورين مثل يونس بن حبيب وقبيبة الجعفى، وكانت قد أخذت تنشأ في القبروان طائفة من المعلمين الشعراء، منهم أمان بن الصُّمَاصَةَ بن الطرامح ويبدو أن أبياه كان قد نزل القبروان في أوائل القرن الثاني الهجرى وأخذ التعليم مثل أبيه حرفة له، وفيه يقول الزبيدي: «كان شاعراً عالماً باللغة». وكان يعاصره معلم، يعكف شباب القبروان على أخذ اللغة والشعر منه، كما يأخذون النحو والمرية والأدب، هو عياض بن عوانة، ويقول الزبيدي إنه كان ينظم الشعر ويعجُّد فيه. ولا نكاد نخطو في النصف الثاني من القرن الثاني

(١) خُرقتنا: يزيد ثيابنا

المجرى حق نرى أعمال اللغويين المقيمين والوافدين من أمثال أمان بن الصمصامة ويونس بن حبيب والرواة من أمثال المسرور بن سنان التميمي وسليمان بن حيد الفافقى تشر نمارا يائمة كثيرة في شباب ترسخ في نفوسهم فطرة العربية ويطلب كثيرون منهم التخصص في الفقه لا على أساسنته في القبروان وتونس فحسب، بل أيضا في المجاز وال伊拉克، من أمثال عبد الرحمن بن زياد وكان شاعرا وعلى بن زياد الذي أدخل لأول مرة كتاب الموطأ إلى المغرب، وقد توفي سنة ١٨٣ وكان يعاصره عبد الله بن فروخ وعبد الله بن غانم الرعناني الفقيهان القبروانيان المشهوران.

وعلى الرغم من أن إبراهيم بن الأغلب استقل بالقبروان سنة ١٨٤ وكانت بها دولة الأغالبة التي ظلت بها أكثر من قرن وحققت لها نهضة ثقافية كما مر بها في الفصل الماضي، على الرغم من ذلك فإن نهضة الشعر بها لا تتراءى لنا واضحة، إذ يظل أصحاب الترجم لا يعنون غالبا طوال هذه الدولة إلا بن سال الشعر على لسانه من حكمها أو من أفراد الأسرة ومن شاركهم في هذه الموهبة من الفقهاء واللغويين. وكان إبراهيم بن الأغلب مؤسسها شاعرا، ويسوقون له أشعارا في الفخر، وكان قد نشأ بمصر وتزوج بها، وكان قد فارق زوجته وسأر وحده إلى القبروان وحن إليها فأنسد:

ما سرت ميلا ولا جاوزت مرحلة إلا ذكرك يُثني دائيا عنقى  
ولا ذكريك إلا بتُمرّنْقا أرعى النجوم كان الموت مُعنتقى

وكان حفيده الأمير أبو العباس محمد شاعرا (٢٦٦ - ٢٤٢) وهو الذي استولى على رومة فترة من الزمان تم اضطرار جيشه إلى الانسحاب لتکاثر من جاءها من نجدات المسيحيين، وله أشعار يغتر فيها ببنبه وأسرته، من مثل قوله:

أنا الملك الذي أسمى بنفسي فأبلغ بالسمّ بها السحابا  
أظلّ عشيري بِجناح عزّى وأمنعها الكرامة والتّوابا

ومن أفراد الأسرة الشعراة أحمد بن سوادة والى صقلية المتوفى سنة ٢٦٠ وله أشعار بد菊花 في الحماسة والفارغ. ومن أفراد الأسرة أيضا مهرية الأغالبة المتوفاة سنة ٢٩٥ وطا مرثية بد菊花 في رثاء ائمه مات غربا. ومن عُرف بالشعر ونظم في عهد الأغالبة عيسى بن سكين القاضي المتوفى سنة ٢٩٥ وشعره في التحسر على الشباب، وكان يعاصره الفقيه أحد الصواف وشعره في الحكم والمواعظ. ومن اشتهر بالشعر من اللغويين في عهد الأغالبة الحسن بن منصور المذحجي، يقول ابن الأبار: «أقل ما تصرف فيه الشعر وكان بصيرا باللغة نافذا في النحو عالما

يَوْمَ الْرُّبُّ وَأَشْيَارُهَا وَوْقَانُهَا وَأَشْعَارُهَا» ومن قوله في رثاء ابن عم له:

### لِكَافِ لَا تَضْمُنُكَ اللَّهُ تَعَالَى يَعْنَى قَدْ فَارَقْتُهَا الشَّمَاءُ

وأشعر منه، بل ربما كان أشعر للغويين عامة في القبر وان حق نهاية عهد الأغالبة عبد الملك المهرى أستاذ أهل اللغة والنحو والرواية في عهد الأغالبة، توفي سنة ٢٥٦ للهجرة، وله مريضة بديعة لسحنون، ومن تلاميذه الشاعراء حمدون الملقب بالمنجمة، وفيه يقول الزبيدي - كما مرّ بنا - شعره عليه أثر التكليف، أما في النحو والمرية والغريب فهو الغاية التي لا بعدها.

وتنتقل إلى عصر الدولة العبيدية في القبر وان والإقليم التونسي منذ سنة ٢٩٧ إلى سنة ٣٦١ وقد تحول به عبيد الله المهدى أول خلفائهم هناك إلى عصر دعاية للذهب الإسماعيلي الذي جاء بحمله، فكان فقهاؤه ودعاته يجادلون عنه فقهاء الذهب السنى بالقبر وان، وكانت القبر وان سنة فكانتوا يعتقدون فيها المناظرات بينهم وبين أبي عثمان سعيد المداد وغيره من فقهاء السنة القيرانيين المظام، ولأبي عثمان مع دعاتهم أربعون مجلسا حفظ لها الحشى في طبقات علماء إفريقية - كما مر بنا - أربعة منها علا فيها صوره وفكرة على دعاتهم، وطبعي في هذا الجو المشحون بالجدل في حفاظ الذهب الإسماعيلي أن يطعن خلفاء الدولة الفاطميين التونسيون أن يكون لهم أنصار من الشعرا يعتقدون دعوتهم ويدافعون عنها، وطبعي أن يتزروا عليهم الأموال ثرا، وكما قال بشار قدما:

### يَسْقُطُ الطَّيْرُ حِيثُ يَتَبَرَّدُ الدَّبُّ وَتَقْشَى مَنَازِلُ الْكَرْمَاءِ

وقد أكثر عبيد الله المهدى وخلفاؤه من نثر الذهب، وتکاثرت طيور الشعرا من حولهم تلتفت هذا الذهب في القبر وان وفي المهدية عاصمتهم الجديدة، وتباري الشعرا من أمثال خليل بن إسحق الطرابلسي الذى عرضنا له في ليبيا وأمثال سعدون الورجيفي القائل في مدح المهدى:

### هَذَا الْإِمَامُ الْفَاطِمِيُّ وَمَنْ بِهِ أَمْتَ مَخَارِبُهَا مِنَ الْخَنَّارِ

ويضى قائلًا إن مدن الشام وال العراق لابد أن تستسلم له حق يسود فيها العدل الذى لا يستطيع الناس الحياة بدونه. وكان المهدى نفسه شاعرا، يحسن نظم الشعر، وتداول الكتب قطمة طريقة تسبّب له تارة وتارة أخرى تسبّ إلى داعيته أبي عبد الله الصنعان، وهي تضى على هذا النحو:

مَنْ كَانَ مَفْتُطًا بِلِينَ حَشِيشَى  
فَحَشِيشَى وَأَرِيكَتَى سَرْجَى  
مَنْ كَانَ يَعْجِبُهُ وَيُبْهِجُهُ  
تَقْرُرُ الدُّفُوفُ وَرَنَّةُ الصَّنْجُ  
فَأَنَا الَّذِى لَا شَيْءَ يَعْجِبُنِي  
إِلَّا اقْتِحَامِي لَعْجَةُ الْوَقْعِ

فهو يعيش حاملاً سيفه ومتظلاً سرج حصانه مزدرياً حياة الترف واللهو والاستماع إلى الفناء ونقر الدفوف ورنات الصُّنوج، وكل ذلك يتركه وراءه، إذ لذته جيئها في قيادة الجيوش واقتحام بلجح الحرب ولطبيها المستعر، وهي أخلاقية مثل مؤسس دولة، وبحق أحسن دولتهم العُبَيْدِيَّةُ في الإقليم التونسي، وكان ابنه القائم شاعراً مثله، وله قصيدة حماسية خاطب بها العباسين، مفتتحاً لها بقوله:

ألا إن حُدُّ السيف أَشَفَّى لذِي الْوَصْبِ      وأَعْرَى بَنَيلِ الْمَقِ يَوْمَا إِذَا طَلَبَ

وخلقه ابنه المنصور وكان جواداً مَدْحُواً وفارساً مقداماً، وقد استطاع في أول خلافته القضاء المبرم على ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد كما مرّ بها في القسم التاريخي، وفيه يقول شاعره أبواب بن إبراهيم:

يَا بْنَ الْإِمَامِ الْمَرْتَضِيِّ وَابْنَ الْوَصِّيِّ (م) الْمُصْطَفَى وَابْنَ النَّبِيِّ الْمَرْسَلِ  
اللَّهُ أَعْطَاكَ الْخِلَافَةَ وَاهْبَا وَرَآكَ لِلْإِسْلَامِ أَمْنَعَ مُتَقْلِّ

ولأنَّ القاسم الفزارى فيه قصيدة بدِيَة حين أَمْنَ أَهْلَ الْقِيرَوانَ بعد ثورة مخلد بن كيداد سنُصرُّضُ هَانِي غَيْرَ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَيَتَوَلَّ الْخِلَافَةَ بَعْدَهُ أَهْلَ الْمَعْزِ، وَيَأْتِيهِ الشُّعَرَاءُ مِنْ كُلِّ فَجَّ وَفِي مَقْدِمَتِهِمْ أَبْنَى هَانِي الْأَنْدَلُسِيُّ وَلَهُ فِيهِ قَصَائِدَ طَنَانَةً، وَقَدْ تَرَجَّنَا لَهُ فِي قَسْمِ مَصْرُّ، وَحِينَ فَتَحَ  
جوهر الصقل مصر للمعز أَنْشَدَ أَبْنَى هَانِي قصيدة افتتحها بقوله:

يَقُولُ بْنُ الْعَبَّاسِ هَلْ فَتَحَتْ مَصْرُّ فَقُلْ لَبِقُ الْعَبَّاسِ قَدْ قُبِّنَ الْأَمْرُ  
وَمِنْ أَهْمَ شِعَرَانِهِ عَلَى بْنِ الْإِيَادِيِّ، وَسَنُخَصِّهُ بِتَرْجِمَةٍ.

وينتهي عصر الخلافة العُبَيْدِيَّةُ في الإقليم التونسي سنة ٣٦١ بانتقال المعز الفاطمي إلى القاهرة واتخاذها عاصمة لملكه وملك أبنائه وأحفاده من بعده، ووقع اختياره على بُلْكِين بن ذيরى الصنهاجى ليخلفه على الإقليم التونسي، فأسس بها دولة صنهاجية أثاحت للإقليم التونسي كل ما كان يحلم به من ازدهار فكري وأدبى، ومع أن المعز بن ياديس غالب على أمره أيام موجات هبّى هلال واضحٌ إلى أن ينسحب إلى المهدية سنة ٤٤٩ فإنه استطاع هو وابنه تميم ومن خلفهما فيها أن يستمموا لهذا الإقليم كل ما كان يتمناه من هبة أدبية وفكريَّة، وفي المعز يقول ابن خلkan: «كان عبّا لأهل العلم كثير العطاء مدحه الشعراً وانتجهم الأدباء، وكانت حضرته محطّ هبّ الآمال» ويقول في ابنه تميم: «كان عبّا للعلماء، معظمًا لأرباب الفضائل حتى قصصه الشعراً من الآفاق على بعد الدار كابن السراج الصوري وأنظاره، وكان يميز الجوانز

السنن ويعطي المطاء الجزيل» واقتدى به ابنه يحيى (٥٠٩ - ٥١١) في سيرته، فكانت عنده جماعة من الشعراء - كما يقول ابن خلكان - قصدوا ومدحوه وخذلوا مدحجه في دواوينهم، ومن جملة شعرائه أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى، وله فيه مدائخ كثيرة أجاد فيها وأحسن، وله أيضاً مدائخ في ولده أبي الحسن على (٥٠٩ - ٥١٥ هـ). وفي حفيده الحسن، وكان روجار صاحب صقلية قد استولى منه على المهدية سنة ٥٤٣ واستردها منه عبد المؤمن أمير الموحدين سنة ٥٥٥. وسار الحسن سيرة آبائه في العناية بالعلماء والشعراء.

وعصر هذه الدولة الصنهاجية يعد عصر ازدهار الإقليم التونسي ولشعرائه، إذ أصبحوا يبدون بالمشترات، حتى لتجد ابن رشيق المتوفى سنة ٤٥٦ يؤلف فيهم كتابه: «أغواذ الزمان في شعراء القبروان» يضممه مائة ترجمة لشعراء قبروانين في زمانه، وبينهم شاعرة مبدعة، وكان الكتاب مفقوداً، واستطاع الأستاذان محمد العروسي الطبوى وبشير البكوش أن يجمعاه من مسالك الأباء لابن فضل الله العمري وغيره من المخطوطات التي انتفظت بترجماته، وأن يعيداه كأنما ترکه ابن رشيق بالأمس، وهو عمل علمي جليل فعلاً عما قدما له من دراسة وما ملا به هوامشه من تحقيقات قيمة، وبذلك وضعا تحت يد الدارسين للنهاية الشعرية في القبروان أروع نص يكتبه من تصوير هذه النهاية، ولم يُعَظِّمُ الإقليم التونسي بنصٍ مماثل قبل ابن رشيق ولا بهذه له خطورته، ويقال إنه كان له كتاب عن شعراء المهدية سقط من يد الزمن، ولو أنه وصلنا لا تسعنا تحت أغبينا صورة النهاية الشعرية في هذا الإقليم الشقيق لذلك العهد الصنهاجي، إذ الأغواذ لا يصور كل ذلك العهد، فقد كتبه ابن رشيق حوالي سنة ٤٢٥ ويغلب أن يكون كثير من المترجم لهم فيه قد عاشوا إلى منتصف القرن الخامس ورأوا موجات بن سليم وهلال تأتي على القبروان وكثير من المدن، ومع ذلك فقد انسحب المعز بن باديس إلى المهدية، وخلفه عليها سريعاً ابنه قيم من سنة ٤٥٤هـ إلى سنة ٥٠١ ومررت هنا كلمة ابن خلكان عن قيم وكيف كان يُدقن الأموال على الشعراء والعلماء وكيف قصده الشعرا، من الأقاليم البعيدة فضلاً عن إقليمه، وننجي توجه ابنه يحيى وحفيده على وابنه الحسن في نثر الأموال على الشعراء، ولا ابن حديس الصقل وأمية بن أبي الصلت الأندلسى في الثلاثة مدائخ رائعة، وبالمثل من كان يعطف بهم من شعراء القبروان، غير أنهم جميعاً لم يقيض لهم ما قيض للمعز بن باديس من عنابة ابن رشيق بالترجمة لشعراء القبروان والإقليم التونسي لزمانه.

وكان الإقليم التونسي منذ زحفة بن هلال وسلمي قد تحول إلى ما يشبه عصر الطواوف المعروف في اليونان، ففي المهدية أسرة المعز بن باديس وأبنائه، ورق تونس بنو حراسان كانوا عمالاً للدولة الصنهاجية واستقروا عنها منذ سنة ٤٥٨ وفي ققصة والجريدة بنو الرند، وفي سوسة الملايين، ويشتهر آخر أمرائهم جباره بن كامل بن سرحان البميد الصيت بالجود وإغداقه

الأموال على الشعرا، ومن يده أخذها روجار الصقل واستردها منه عبد المؤمن مع البلاد الساحلية. واستولى الملاليون أيضاً على قابس، إذ ظلت ليفي جامع منهم حتى سنة ٥٥٤ واستشهد من أمرائهم بأخرة من أيامهم أبو الحملات مدافعاً، ومنها استنزله عبد المؤمن أمير الموحدين، وكان جواداً مدمحاً، والتف حوله كثير من الشعراء. ومن الغريب أن هذا المصر الذي توزع فيه الأقليم التونسي بلداناً وإمارات متعددة لم يضعف فيه الشعر بل ظل مزدهراً، وخاصة حول أمراء المهدية وقبائل وسوسنة، إذ كان أمراء البلدان فيه يتنافسون في جذب الشعراء إليهم، وكلُّ يحاول أن يجمع في بلده العديد منهم، ليتحدونا عن مناقبه ومفاسخه، وكانت تحف بتيم بن المعز في المهدية كوكبة من الشعراء، منهم - كما في المزيدة - حميد بن سعيد، وكان من الشعراء المجيدين وهو الذي جمع شعر تيم، ومنهم - كما في الحلل السنديسية - محمد بن حبيب القلاطني وأبو الحسن بن محمد الحداد، وتلتقي بشعراء أمير قابس أبي الحملات مدافعاً آخر أمراء بن هلال بها، ومتهم جعفر بن الطيب الكلبي وسلمان بن فرحان القابسي وهو من الشعراء المجيدين والسكندري الفقهي وبخي بن التيفاشي، كما تلتقي فيها بشعراً جباراً بن كامل بن سرحان أمير سوسة الماز ذكره، ومتهم أبو ساكن عامر بن محمد بن عسکر الملالي وأبو الحسين بن الصبان المهدوي والتراب السوسي وهو من الشعراء المبدعين، وكان وراء هزلاً الشعراً الذين سميوا به شعراً بارعون مثل تيم بن المز صاحب المهدية وعلى المُصْرِي المهاجر إلى الأندلس وأبي الحسن على بن محمد المخولاني المعروف بالحداد المهدوي المهاجر إلى الإسكندرية وأبي الفضل بن النحوى التوزرى وابن بشير المهدوى وعبد الله الشقراطسى ومحمد بن شرف المهاجر مع ابنه إلى الأندلس.

ويدخل الإقليم التونسي منذ منتصف القرن السادس المجرى في حوزة الموحدين، غير أن ابن غانية وقرقوش يحدثان فيه شيئاً - كما مرّ بنا - ظل فترة طويلة، ويعيد الأمان فيه إلى ناصبه وإلى الموحدين أبو زكريا بخي بن عبد الواحد مؤسس الدولة الحفصية بتونس، وقد انتدحتها عاصمة له، وظلت عاصمة للدولة بعد حلها حتى انتهت دولة الحفصيين، بل لقد ظلت إلى اليوم عاصمة للإقليم التونسي. وكان أبو زكريا سيوسا حلباً منصفاً محسناً لتدبير دولته، وكان معدوداً في العلماء وفي الشعراء وله شعر مدون مع إحسانه لاختيار الرجال الذين يديرون معه دفة الحكم، مما جعل أيامه خيراً أيام على الإقليم التونسي وأكثرها أرزقاً وجمعت دولته طائفة من كبار العلماء وناببي الشعراء لا من الإقليم التونسي وحده، فقد نزل بدياره كثرة غامرة من علماء الأندلس وشعرائه مثل ابن الأبار وأحمد بن عميرة وحازم القرطاجي وتنقل هذه السبيل الأندلسية وأفاده على تونس في عصر ابنه المستنصر مثل ابن بُرْطلة رئيس الوقف الذي قدم إلى تونس سنة ٦٥٧ مبادعاً المستنصر خليفة وأميرًا، ومثله ابن القصیر شاعر المستنصر وله فيه مدائح كثيرة، وعلى شاكلتها ابن أندراس أهم أطباء المستنصر. وهذه الأسماء

الأندلسية التي ذكرناها إنما هي رموز، فقد كان عليه الأندلس وشعراؤها الذين نزلوا بتونس وماوراءها من المدن لا يُحصى عدّاً، وقد بعثوا فيها جيّعاً حركة أدبية عظيمة، اقترنت بما كان في البلاد من نشاط أدبي، فإذا هي تبدأ - منذ الأيام الأولى للدولة الحفصية - في نهضة أدبية عظيمة، فإذا التفتنا إلى شعراء تونس وجدناهم كثيرين، مثل أبي طاهر الحميري المتوفى سنة ٦٣٩ وعنهان بن جابر الملالي المتوفى سنة ٦٤٥ وأحمد الليلاني المتوفى سنة ٦٥٩ وأبن عربة المتوفى مثله سنة ٦٥٩ ومحمد بن أبي الحسين وزير المستنصر المتوفى سنة ٦٧١. ووراء هؤلاء في القرن السابع المجري غير شاعر مبدع مثل ابن الشهاب التوزري المتوفى سنة ٦٨١ وله شرح وتحميس لقصيدة الشفراطيسية اللامية في المديح النبوى، وكان يعاصره ابن السّماسط البكري المهدوى المتوفى سنة ٦٩٠ وأشعاره جميعها مدائح نبوية رائعة. وتظل هذه النهضة الشعرية أيام الحفصيين مطردة في القرن الثامن المجري، ويلقانا به شاعران من أسرة التجاعي هما أبو الفضل وعبد الله صاحب الرحلة، وقد توفيا سنة ٧١٨ للهجرة، ونلتقي بإسحاق بن حسينة المتوفى سنة ٧٤٠ وبمحمد الطريف المتوفى سنة ٧٨٧، وما تثبت تونس أن تلقى بذرتها البتيبة ابن خلدون المتوفى بالقاهرة سنة ٨٠٨ وهو ناثراً أكبر منه شاعراً. وقلما نلتقي بشاعرهم في المقلب المتأخر للدولة الحفصية، باستثناء الشهاب بن الخلوف المتوفى سنة ٨٩٩ وأبي الفتح بن عبدالسلام المتوفى سنة ٩٧٥. وفي رأى أن ضعف الشعر لمهد الدولة الحفصية في القرنين التاسع والعشر المجريين يرجع إلى ما أخذ يسود منذ زمن ابن خلدون في الإقليم التونسي وبجاية بعامة من اللغة العامية التي لا تحتفظ بالإعراب في أواخر الكلمات، مما جعله يقول بمقدمة في الفصل الخاص بأشعار العرب وأهل الأمسار لزمنه: «فاما العرب أهل هذا الجبل المستجمعون عن لغة سلفهم من مصر فيفترضون الشعر لهذا المهد في سائر الأغاریض على ما كان عليه سلفهم المستعربون، ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسب والدح والرثاء والمجاء، ويستطردون بالمخروج من فن إلى فن في الكلام.. وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه، ماعدا حركات الإعراب في أواخر الكلم فإن غالب كلماتهم موقفة الآخر. ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب». ويبدو أن هذه العامية غير المعرفة اتسع استخدامها في الإقليم التونسي، مما جعل الناطقين بالشعر الفصيح المرب يقلون، وكان زملاؤهم من أصحاب الشعر العامي المسئون بالقوالين يظهرون في المهد الأول للدولة الحفصية على استحياء غير أنهم أخذوا يتكلّرون منذ زمن ابن خلدون والقرن التاسع المجري.

وكان شئون الحكم في أواخر عصر الدولة الحفصية قد ساءت سوء شديداً واستعان بعض حكامها بالإسبان وزلوا في ديارها - كما مرّ بنا - منذ سنة ٩٤٢ وأخذت البلاد تعانق من ظلم الإسبان وعسف الحفصيين ويستولى العثمانيون سنة ٩٨١ على الإقليم التونسي ويظل يعاني من

سوء الحكم العثماني إلى أن تولاه الدولة الحسينية منذ سنة ١١١٧ غير أن هذا الحكم السرى حسنة فإن الإسبان أخرجوا من ديارهم من بقى بها من المسلمين سنة ١٠٦١ فاستقبلهم الحاكم التركى للإقليم التونسي: عثمان داى استقبلا كريما، وأوسع لهم في اقطاع الأراضي ومتزاولة الصناعات، كما أوسع للشخصيات الفكرية والأدبية الالامة أن تزاول حياتها في تونس، وبذلك أخذنا يردون لها دورها الثقافى في العصر الصنهاجى وأوائل العهد بالدولة الحفصية غير أنه لم يتع لتونس حينئذ حكام يستطيعون أن يحققوا لتونس هذا الدور، حق تولت الأسرة الحسينية شؤون الإقليم، وكان مؤسساً منها متقدماً مستثيراً وكان أبناؤه يحسنون العربية، بل كان ولـى عهده من بعده: محمد الرشيد شاعرًا وموسيقياً، وله ديوان شعر، وكما كان مولعاً بالشعر كان مولعاً بالفنانة والموسيقى، وإليه يرجع فضل ترتيب الأغاني الشعبية التونسية والأندلسية. وبحق فتحت هذه الأسرة الحسينية عصرًا جديداً بتونس، ظل يواكبها إلى آخر هذا العصر وفترة في مصر الحديث، وكما أكثروا من إنشاء المدارس والاهتمام بجامعة الزيتونة وعلمائها من كل صنف أكثروا أيضاً من الاهتمام بالشعراء والأدباء، وبذلك ظلت بتونس حركة أدبية ترافقتها طوال عصر الدولة الحسينية، ومن نلقي به من شعرائها في أول المهد بها ابن أبي دينار صاحب كتاب المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس وأحد برناز وحمد الوزير السراج صاحب الحلل السنديسة ومحمد الخضراوى ومحمد سعادة وإبراهيم بن القاسم الخراط، وأعلى منهم مرتبة في الشعر على الغراب الصفاقي وله ديوان منتشر وحمد الورغى والطوير القبروانى وحمد الشافعى وجمدة ابن عبد العزيز والمحجرى، وتلقي بأخره من العصر بمحمد ماضور القاضى وكان ينزع في شعره نزعة صوفية كما نلقي بمحمد الأصم والطاهر بن عاشور، ونجد عندهم معارضات كثيرة، والطريف أنهم يعارضون بعض شعراً الأندلس في قصائدهم مثل ابن زمرك.

## ٣

## أغراض الشعر والشعراء

أخذت الحركة الشعرية تنهض في القبروان والمهدية منذ عصر الفاطميين أو منذ أوائل القرن الرابع، واتسعت في عصر الدولة الصنهاجية اتساعاً كبيراً أتاحت لابن رشيق أن يؤلف فيها كتابه الأنوفوج الذي ترجم فيه لامة شاعر وشاعرة، واتسعت مع تلك الحركة حركة تقديرية خصبة، فالفيل ابن رشيق كتابه المديع: الصدمة في صناعة الشعر ونقده، ولم تتوقف موجات الحركة الشعرية مع الزحفة الأغربية لبني سليم وبني هلال، فقد ظلت منها - كما أسلفنا - أسراب في المهدية وفي قابس وسوسة وعادت إلى الاتصال مع الأزمية الأولى للدولة الحفصية، وغذتها حينئذ هجرة الأندلسين إلى تونس وما وراءها من البلدان.

وبالمثل غذتها هجرة عائلة في القرن الحادى عشر الهجرى انتشلت الأدب شعراً ونثراً مما كان قد صار إليه من الضعف الشديد وغلبة العامية عليه. ولن نستطيع أن نفصل الحديث في المراكة الشعرية لاتساع جوانبها ومناسبي القول فيها، بل سن侊م إلى غير قليل من الإجمال في عرض أغراض الشعر ومن جمل في كل عرض، متذكرين من ذكرهم رموزاً من عاصرهم - وكذلك من خلفهم - من الشعراء، ونستهل ذلك بالحديث عن غرض المدح والناهين من شعرائه على مر المصور.

### شعراء المدح

أخذت سوق المدح تتفق في الأقليم التونسي مع قيام الدولة العبيدية التي كان خلفاؤها يتخلون منه منشورات للدعابة لحكّمهم، ومرّ بنا ذكر بعض مادحיהם، ومن أهمّهم أبو القاسم الفزارى المنوف سنة ٣٤٥ وله مدحه بديعة في المتصور الفاطمى حين انتصر على مخلد بن كيداد النائز الخارجى سنة ٣٣٦ هـ وفيها يذكر من اشتهروا في الجاهلية والإسلام بالشرف والجلود والباس، ثم يأخذ في مدح المتصور وأنه لا يقل عنهم بأساً وجوداً وشرفاً بقتل قوله<sup>(١)</sup>:

أبوهُ صنَّى من تَوَابَةِ هاشِر  
شَرِيفُ الأَدَانِيِّ وَالْأَقَاصِيِّ مَهْبَطٌ  
إِذَا مَا عَذَّنَا فَضْلَ أَهْلِ الْمَكَارِمِ

وكان يعاصره على بن الإيادى، وسنخذه بكلمة. ويدور الزمن وتنتفى بحكم الدولة الصنهاجية، وكانت بحوراً فياضة، فجذبوا إليهم الشعراء من كل بلدة ومكان في الأقليم التونسي، وتميلت مواهفهم الشعرية الخصبة في مدارحهم، من ذلك قول ابن سفيان في المتصور الصنهاجي المنوف سنة ٣٨٦ للهجرة<sup>(٢)</sup>:

مِنَ الطُّفُنِ وَالْأَرْضِ الْمَرِيَّةِ خَاتَمَ  
وَلَيْتَهُ فِي لَئِمِ التَّرَابِ الْجَمَاجِمَ<sup>(٣)</sup>  
كَانَ ضِيَاهُ فِي التَّرَاقِيِّ تَعَامَ<sup>(٤)</sup>  
وَقَدْ صَبَّغَ مِنْ بَيْضِ الْفِرْنَدِ خَوَاتُمُ<sup>(٥)</sup>

وَمُعْتَرِّكٌ ضَاقَ الْفَضَّا فِي مُقَابِهِ  
تَجْلِي لَهَا الْمَتَصُورُ فَانْجَابَ جُنْحُنَّهَا  
قَنَاثُهُمْ فِي حِيثُ لَا السِيفُ يَنْتَصِبُ  
كَانَ الطَّلَّا وَسْطَ الْعَبَاجِ خَانَرَ

(١) بجمل تاريخ الأدب التونسي للأستاذ حسن حق عبد الوهاب ص ٨٦.

(٢) أنوذج الزمان في شعراء القهروان جمع وتحقيق محمد العروسي المطوى وبشير الكوش ص ١٠٠.

(٣) الجنح: الظلام.

(٤) ينتضي: يسلل من عمه.

(٥) الطلا: الأعناق. الفرند: السيف.

وتصوير الفضا وأنه ضاق بالقتل تصوير قريب، غير أنه جعل الأرض كأنها تحولت خاتماً يغتصب على قتل الأعداء، ويستتر فيجعل تناثر جاجهم ورؤوسهم على التراب كأنها تنفذ للمنصور أمراً بلشها للتراب، ويتصور ضياء سبوف جيشه في تراقيهم كأنه ثمان، ويتسع به الميدان فيجعل أعناقهم وسط غبار الملحمه كأنها خناصر وقد أحاطت بها من بعض السبوف خواتم. وهي رواعات متتابعة من الميدان البديع، وقد عقب ابن رشيق على الأبيات بقوله: «هذا كلام منتقى، ليس فوقه مرتفق». ويقول قرهب المزاعي في باديس بن المنصور<sup>(١)</sup>:

أَبْنَى مَنَادٌ سَلْكُمْ سَنَنَ الْهَدَى  
وَكَانُ بَادِيسَ الْمَلَكُ فِيْكُمْ  
شَمْسُ الضَّحْنِ وَكَانُكُمْ أَفْيَارُ  
رَاقِ تِلَاعَ الْبَرْزَ يَحْمِي حَوْزَةَ  
حَدُّ الْبَوَاتِيرِ وَالْقَنَا الْخَطَارُ  
وَهُدَا بِمَدْحَهِ جَازَعُ فِي مَهْمِيَّةِ  
وَشَدَا بِهِ الْحَضَارُ وَالسَّمَارُ

والكلمات في الأبيات رصينة، ولكن المعانى مطروفة في المدح، فبنو مناد أسرة باديس يسلكون طريق المدى، وهم أهل الوفاء، وباديس شمس وهو أعمار من حوله، وهو راق تلاع العز أى أعلى حام لحوز ملكه ونواحيه بالأسلحة الفاتحة، وهو محبوب حق ليجدو مدحه في القفار كل خائف حتى ليشدو باسمه ويتفق الحضار والسمار، ولإبراهيم بن القاسم القرشاني مدائح متعددة فيه وسنفرده بكلمة. وكان العز بن باديس غنيتاً مدراراً، حتى قبل إن الشعراه الذين مدحوه وحفوا به بلغوا المائة عدداً، ومن رائع مدائحه قول عبد العزيز بن خلوف المحروري<sup>(٢)</sup>:

نُعَمَاءُ فِيمَا نَالَتِ الْأَحْيَاءُ  
لَوْ يُسْتَطِعُ لِأَدْخَلُ الْأَمْوَاتَ مِنْ  
سُوتُ رَعَايَاهُ يَدَا إِنْصَافِيَّةِ  
مُتَنَوِّعِ الْمَرْزَمَاتِ مَاهَ مُفْدِقَيَّ  
مَا أَنْتَ بِعْضُ النَّاسِ إِلَّا مُثْلِمَا

فلو يستطيع العز لنشر الأموات كي يقاسموا الأحياء من رعيته ما ينذر عليهم من نعماه، وإن يدى إنصافه لتسوى تسوية عادلة بين الأغنياء والفقراء من رعاياه، وإنه لتنوع المزمات فهو على رعيته غيث مدار، وهو على أعدائه صخرة صماء، وما يليث الشاعر أن يماق ب بصورة بديعه فالعز حقاً واحد من الناس إلا أنه ينفرد عنهم كما تفترق من بين الحصى الياقوتة الحمراء.

(١) الأنفوذج ص ١٦٣.

(٢) الأنفوذج ص ٣٢٥.

وفيه يقول ابن شرف القبروان<sup>(١)</sup>:

شَهَابُ الْعَرَبِ مَهْلُكٌ كُلُّ بَاغٍ  
وَمَحْرُقٌ كُلُّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ  
نَقْطَعُ دُونَهُ الْبِيْضُ الْمَوَاضِيْ  
وَتُجْفِلُ مِنْهُ إِجْفَالُ الظَّلِيمِ  
وَيَجْلُو عَنْهُ لَيْلَ النَّقْعَ وَجْهَهُ  
كَبْدُ التَّمَّ فِي اللَّيلِ الْبَهِيمِ<sup>(٢)</sup>

فهو لا يملك البقاء فحسب، بل يدمّرهم ويحرق شياطينهم الملعون ، لأنّ لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ومن دونه تقطّع السيف الحداد القاطمة، وتغفر منه نفور النعام في البوادي، حقّ إذا أثير بالغبار الكيف في الحرب تحبل وجهه كما يتجلّى البدر في اكتماله بالظلّام المداجي. وكان يعاصر ابن شرف المحسن بن رشيق القبروان شاعر المعز وسفرده بكلمة، وخلف المزف المهدية ابنه تميم، وكان محباً للعلماء ومعظماً للشعراء وقصدوه من الآفاق البعيدة، ولو أشعار جيدة، وفي عهده أغاث أسطول النصارى على المهدية وعاثروا فيها فساداً سنة ٤٨٠ هـ إلى أن انسحروا بقوله<sup>(٤)</sup>:

**أَنْ يَلْمُمُ الْخَيْالَ أَوْ يَقْفُّ وَبَيْنَ أَجْفَاتِنَا نَوْيَ قُنْدَ**

وخلف تميم ابنه يحيى، وبه نزل أمية بن أبي الصلت الشاعر الأندلسي الكبير فأعدّ عليه من إكرامه وكذلك ابنه على وحفيده المحسن وأغلق عليهم من مدائنه، وبه على أسطولاً للقاء روجار وحاشية المهدية فتبارى الشعرا في مدحه بسببه من مثل محمد بن بشير المهدوي وغيره، وكان متول قابس رافع بن جامع الملال مُدّيده إلى روجار ضده ضدّ العرب فضمّ على فتحها وتم له ذلك سنة ٥١١ وتبارى الشعرا في تهنته بهذا الفتح من مثل قول محمد بن بشير الذي يفهم رافعاً بأنه أصبح نصراانيا<sup>(٦)</sup>

**سَلْ رَافِعًا مَا النَّذِيْ أَجْرَى تَنْصُرَهُ وَهُلْ يَقْبَلُ الذُّلُّ عَنْهُ مِنْ بَهْ وَنَتَّا  
لَوْ لَمْ يَرِ الرُّومَ أَهْلًا وَالصَّلِيبَ أَتَاهُ لَمْ يَشْكُلُ مِنْ عِيْشَهُ فِي قَابِسِ زَنْقَادَ<sup>(٧)</sup>**

يقول له إن حياته في قابس كانت صفوّاً هنيئةً لو لا ما كثراها من تعاونه مع روجار وأعوانه

(١) الأنوفوج ص ٣٤٢.

(٢) البيض المواضي: السيف القاطمة. تجفّل: نفر وتفزع.

(٣) النقع: غبار الحرب.

(٤) الملل السنديسة ٤٦٨/٢. قند: بعيدة.

(٥) قند: بعيدة.

(٦) الملل ٣٥٥/٢ وقابل بتاريخ الأدب التونسي

ص ١٧٦.

(٧) الرتق: الماء الكبير.

من النصارى حق لكتابنا فارق دينه وتنصر بوقوفه مع أعداء الإسلام لا يذكر عهدا ولا ذمة.

وفي أواخر عمر الطوائف يلقانا مدافع بن رشيد من بنى جامع الملاليين وكان شجاعاً حق لقب بأبي الملاليات، كما كان جواداً ممدوحاً، وذكر صاحب المزينة من مدارسه أبا محمد الكلبي والسكندري القفصي ويعين بن التيفاشي، وأهم شعراته جيما سلام بن فرحان القابسي جليسه وزيره، وأنشد له العصاد في مدحه ميمية بديعة يقول فيها<sup>(١)</sup>:

هُنَّ مُدَافِعُونَ أَنَّ أَفَهْ خَوْلَةَ سَعْدَا يَنالُهُ كُلُّ الَّذِي رَأَاهُ  
قُمْ فَاقْتَحَمَ الْأَرْضَ فَالْأَمْلَاكُ كُلُّهُمْ سَوْاكُمْ أَضْحَوْا عَنِ الْعَلَيَّهِ نُوَاماً

وكان في نفس المقدمة أميراً على سوسة جباره بن كامل بن سرحان البعيد الصيت المشهور بالبلود، وهو هلال مثل مدافع أمير قابس وشاعره ابن فرحان، ومن مدارسه أبو الحسين بن الصبان المهني وفيه يقول<sup>(٢)</sup>:

فَقُلْ لِلْمُتَشَبِّهِ عِزْ لَهَا غَدَا لِجَمِيعِ الْبَرَابِا يَنْمَالَا

فهو ثمال وغياث لا للعشيرة وحدها بل لجميع الناس، وأهم منه بين شعراء جباره التراب السوسي، وسنخنه بترجمة موجزة.

ونقضى إلى عصر الدولة الخفوصية وكان مؤسساً لها أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد، وكان شاعراً محاسناً، وله أشعار حاسية جيدة وفي موضوعات مختلفة، واهتم بالحركة العلمية والأدبية في عهده، وفسح فيها وفي دولته للمهاجرين الأندلسيين، وطم فيه ولعاصرتهم من التونسيين مدافع كثيرة، وهو جدير بها لما امتاز به من بعد النظر وحسن التدبر مع سمو الهمة، وكان يلقب بالأمير فحسب، وعرض له بعض الشعراء بأنه ينبغي أن يتسمى بأمير المؤمنين قائلاً<sup>(٣)</sup>:

أَلَا صَلْ بِالْأَمْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ فَأَنْتَ بِهَا أَحَقُّ الْعَالَمِيْنَا

فجزره زجاً شديداً، ولم يقبل منه ذلك، حتى إذا تولى ابنه المستنصر عمل على أن تأتيه البيعة بالخلافة كما مر بتنا في تاريخه، وكان ذلك من أسباب تكاثر العلماء والأدباء والشعراء في تونس، إذ أصبحت تُعد نفسها - من بعض الوجوه - حامية حمى الإسلام، ومن أهم شعراتها ابن عُرَيْبَةَ وسنخنه بكلمة. وحدثت نفس لويس التاسع بعد إخفاق حملته على مصر أن يغير على تونس سنة ٦٦٨ للهجرة وحاصرها نحو أربعة أشهر، وكان عداد جيشه الذي هاجم به

(١) المزينة (قسم شعراء المغرب) طبع تونس ١٣٨١/٢.

(٢) المثل التنسية ٤/١٠٢٤.

مصر سبعين ألفاً فأصبح لا يُرى فيه إلا قتيل أو أسير أو جريح، وقُيدَ لويس إلى دار تعرف بدار ابن لقمان والأغلال في يده وحارسه الطواشى صبيح، وافتكر نفسه من الأسر بدية كبيرة، فقال للويس بعض التونسيين مشيراً إلى كارته ببصر<sup>(١)</sup>:

يا فرنسيسْ هذه أخت مصر فتأذنْ لما إليه تصيرْ  
لك فيها دارُ ابن لقمان قبرَ وطواشيك مُنْكِرُ ونكير\*

وصدقَت الأقدار قول هذا الشاعر التونسي فإن لويس دُفن تحت سور تونس، وعاد جيشه إلى فرنسا مخذولاً مدحوراً. ولم يخل حكم المستنصر من عصيان بعض القبائل عليه في الجهات الثانية، وعصت عليه رياح في جهة بسكرة، ووصلت إليه جماعة منها على غير أمان، فصلب أبدانهم ببسكرة ورميهم بتونس، وفي ذلك يقول أبو عبد الله بن أبي قيم العميري مادحاً للمستنصر<sup>(٢)</sup>:

ويا حُسْنَ ما فَرَّتْ به أَعْيُنُ الْوَرَى رهوس رياح في رهوس رياح  
فهُبَّى دَمَاءُ الْمَارِقِينَ مِبَاحَةً وهذا جَمَعُ الْإِسْلَامِ غَيْرُ مِبَاحٍ  
بِمُسْتَصِرِّ تَرْبِيَّيِ الْمَدَا بِكَاتِبٍ نَعَسِ نَوَاسِي أَرْضِهِمْ بِنُواحِ

ويظل خلقه المستنصر معنين بالحركتين الأدبية والعلمية. ويشهر بين كتاب دواوينهم وشعرائهم آل التجاني وتنتهي في الشعر بين نسانthem زنب بنت إبراهيم التجاني، وطم آخر غير قليل في الحركة الأدبية حتى زمن الخليفتين أبي عصيدة وأبي ضربة. ويشهر بين مذاخ الخلقاء في النصف الأول من القرن الثامن المجري، بل قبل ذلك بفترة عبد الله التجاني صاحب الرحلة المشهورة المترقب بعد سنة ٧١٨ وسنخذه بكلمة، وكان يصادق كبير مشيخة الدولة أبي يحيى اللحيلي المفصلي وتولى الخلافة حينها. ومن خلفه أبو يكر المتكل، وكان شاعراً وفي شعره وشعر معاصريه من أهل تونس يقول ابن فضل الله العمرى في مسالك الأنصار: «أَهْلُ إفريقيَّةِ (تونس) لطفُ أَخْلَاقِ وشَمَائِلِ بَالنِّسَبةِ إِلَى أَهْلِ بَرِّ العَدُونَةِ (المغرب) وسَازِرُ بَلَادِ الْمَغْرِبِ بِمَجاوِرِهِمْ مَصْرُ وَقَرِيبِهِمْ إِيَاهُمْ وَمَخَالِطُهُمْ إِيَاهُمْ وَمَخَالِطَةُ مَنْ سُكِنَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَهْلِ إِشْبِيلِيَّةِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ وَهُمْ مَنْ هُمْ خَفَّةُ رُوحٍ وَحَلاوةُ بَادِرَةٍ، وَأَهْلُ اِنْطَبَاعٍ، وَكَرْمٌ طَبَاعٌ، وَنَاهِيَكُمْ مِنْ بَلَادِ مَنْ شَرُّ مَلْكُهَا السُّلْطَانُ أَبِي يَكْرَ التَّوْكِلِ قَوْلُهُ:

السائل النمير وعبدالمجيد التركي ص ١٣٠.

(١) المثل ٤/١٣٢.

(٢) الفارسية لابن منفذ تقديم وتحقيق محمد

مواطُنا في دهرهنْ عجائِبْ  
وأزماَنا لم تَمْدَن الغرائبْ  
ولا حَدَثَتْ عنها الْلَّوَالِي التواهِبْ

وقوله في العماسة:

انظر إلينا تجدنا ما بنا دفَشْ  
وكيف يطرق أَسْدَ القابة التَّعْشُ  
إننا بارتِكابِ الموت تُبَشِّعُ

لا تعرفُ العادَتَ المرهوبَ أنْفَسَا  
عَسَى اللَّهُ يَدْنِي لِلمُحِبِّينَ أَوْيَةً

وقوله في الغزل:

فُتْشَفَى قلوبُ مِنْهُمْ وَصَدُورُ  
فَأَعْقَبَهُمْ عَنِ الدارِ أَمْسَى يَحْزُنُهُ

سرورُ  
وَكُمْ مِنْ قَصْصِ الدارِ أَمْسَى يَحْزُنُهُ

وإذا كان هذا رقة طبع السلطان فما ظنك بغيره من العلماء والأدباء<sup>(١)</sup>!. ولعل هذا الحكم الدقيق لا بن فضل اقه العمري خير رد على ابن خلدون المترقب بعده بستين عاما وما ذهب إليه في مقدمته من عراقة العجمة في لغات أهل الأنصار، كما هو واضح - كما يقول - في لغات أهل إفريقيا وأشعارهم، ويتبعد بالتهمة في الإقليم التونسي قائلا: «ولهذا ما كان بإفريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق وابن شرف، وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئن عليها، ولم تزل طبقتهم في البلاغة حتى الآن مائلة إلى القصور». وابن فضل اقه العمري إنما يتكلم عن شعراء الإقليم التونسي فما بالننا بالقرن التالية لابن رشيق وابن شرف ومن بها من الشعراء التونسيين الجيدين المحسنين، من أمثال على الحصرى وعبد اقه الشقراطسى من شعراء القرن الخامس بعد ابن رشيق وابن شرف وأبي الفضل بن التحوى والتراب السوسى من شعراء القرن القرن السادس وابن عُرَيْبة والسماطى المهدوى من شعراء القرن السابع وعبد اقه التجانى وابن حسينة من شعراء القرن الثامن، وجميعهم من تباهى بهم تونس، وستترجم لهم في الصحف التالية محاولين أن نوضح برائعهم الشعرية، وتفس ابن خلدون كان شاعراً وله مدائح في السلطان أحد معاصره، وهو لا يتفوق في شعره تفوقه في نثره، ولذلك ستنترجم له بين الكتاب. وفي الحق أنه قسا في حكمه على شعراء تونس وبالغ في قسوته. وفي سنة ٨٣٨ تولى أبو عمرو عثمان حتى سنة ٩٣٥ وهو خاتمة خلفائهم الضابطين للحكم وإدارته، وفي الحال

(١) صبح الأعشى ١١٥/٥ وقارن ب تاريخ الأدب التونسي ص ١٨٥.

الستديوية أنه مدرج الشهاب ابن خلوف<sup>(١)</sup> المزاحيري المتوفى سنة ٨٩٩ ولد في مدحجه<sup>(٢)</sup>:

تلقاه أَنَّ حَلَّ يَسْطُطُ لِلْقَرْيٍ بُسْطًا يُظَلِّلُهَا الْقَنَا الرِّبَانُ  
شَرَفُ أَتِيهِ وَبَيْتُ مُلْكٍ شَامِنٍ فَوْقُ السَّمَاكِ غَدًا لِهِ إِبْوَانُ

فهو جواد لا يزال جوده يفيض في كل مكان يصلح فيه، ولا تزال رماح شجاعته وشجاعته  
جيشه تظلle وتظل من حوله من رعاياه، شرف ناله من بيت ملك سامي، إيوانه فوق السماك في  
أعلى مكان. وتحت العصر المفصلي بأبي الفتح بن عبد السلام الذي يكى الدولة المفصية  
وتاريخها بكاء حاراً.

ويعود إلى المدح والشعر بعامة غير قليل من الانتعاش في عصر الدولة المسينية، العثمانية  
كما أسلفنا إذ كان حكامها يولدون بتونس ويتربون فيها تربية عربية، وأخذوا يشعرون بأنهم  
تونسيون وأن واجبهم أن ينضموا بتونس علمياً وأديباً وهو ما وضعه نصب عينيه مؤسساً لها  
حسين بن علي، وبالمثل على ابن أخيه حين استولى على الحكم، ودارت الدوائر عليه لابن عمه  
محمد الرشيد، فاستولى على صولجان الحكم، وكان شاعراً بارعاً وموسيقياً ماهرًا فبقي في تونس  
حركة أدبية وموسيقية تخفق بالحياة، وسار سيرة أبيه وابن عمه في تشجيع الطبلاء والشعراء، ولم  
يلبث أن توقي فخلقه أخوه على الثاق، وتعرض حكمه لهزات عنفية كانت له فيها دائياً الفلبية،  
وخلقه ابنه حودة وكانت أيامه أيام رخاء ويسر، ونعتمت فيها الرعاية بالأمن والاستقرار ورخاء  
الأسماء وصلاح البلاد، فكان طبيعياً أن يكون الفنان المحادي عشر والثاق عشر المجري قرق  
عمران وخصب في الحياتين العلمية والأدبية، غير أن تونس أصابها حينذاً ما أصاب البلاد  
الغربية من تخلف في الحياة العلمية، ففتت تعتمد على المتون والشروع وكان ابن خلدون لم  
يختلف وراءه فيها من ينهض بالحياة العلمية في المستوى الذي كتب فيه مقدمته، وأيضاً فإن الحياة  
الأدبية - وحياة الشعر خاصة - أصابها غير قليل من التخلف، إذ أخذ الشعراء يرتكبون  
لأنفسهم الاكتفاء في كثير من الأحيان بأن يعارضوا هذا الشاعر أو ذاك من شعراء الألاف،  
فإن تركوا المغارضة فإلى تلك شديد بقون البديع وخاصية فن التوربة، وبذلك ضيقوا على  
أنفسهم القنوات التي يبني فيها الشعر وملاؤها بما لا يخص من المحسنات البديعية،  
وهي محسنات كانت من الكثرة بحيث كانت تخفق الشعر ختفاً، وتصبح وكأننا في حاجة إلى  
مصالح ديوجين لنجد شاعراً تونسياً يخلص أشعاره من هذه الأعشاب والمعوقات الضارة التي  
نکاد نفقد لها الحياة، ومع ذلك لن نعد أن نجد بين شعراء المدح من يخفف عن شعره عبه

أعيان هذه المحسنات، من مثل قول السراج صاحب المثل السنديسة مهنتا محمدًا الرشيد بجلسه على أريكة الولاية<sup>(١)</sup>:

أشير المسادة يهنيكم  
شباب الولاية بعد المشيب  
وأيام ملككم ألبستها  
على العز نوب الجمال العجيب  
ملبك يحال سنا وجده  
ضحي الشمس من فوق غصن رطيب

فقد رد إلى الولاية شبابها وألبسها ثوب الجمال العجيب، وكأنما سنا وجهه ضحى الشمس من فوق غصن رطيب. وهو مجرد كلام وليس فيه رصانة التعبير ولا دقة المعان ولا دقة التصوير، إنه مجرد كلام منظوم على وزن وقافية، وبنفس الأسلوب بهذه حودة بن عبد العزيز محمدًا الرشيد باى حين استولى على صرمان الحكم قائلًا<sup>(٢)</sup>:

الآن قد واف الأمير وطاب لـ زمن الحسين أن أبىت مسّهرا  
الأروع الملك الرشيد محمد  
أعلى الملوك ذرًا وأطيب عنصرا  
لبلأ وأفضل من يقود العسكرًا  
وأجل من جل الخطوب وقد دجت  
بنزل النوال كها استهلت ديمه  
وبكته سيف يسريلك تُسرّا

والأبيات ليس فيها روح وبعض ألفاظها فلق ولا يكاد يستقر في موضعه على نحو ما يتضمن في كلمة «مسهرا» في البيت الأول وكلمة «تسّرّا» في البيت الرابع، وبدلًا من أن يبيت هاتان لاعتلاء محمد الرشيد باى منصة الحكم بيت مسهدًا. وخير من هذين الشاعرين الطوير القيررواني في تهنته لعل باى الثاني حين انتصر على بعض خصومه وأذاقهم وبالعصيان مستهلاً تهنته الطويلة بقوله<sup>(٣)</sup>:

فتح ونصر وإسلام وآقبال<sup>(٤)</sup>  
لمن له خضعت جيده وأقبال  
ومن له همة شماء قد سُجنت  
لها على الفلك الدوار أذیال<sup>(٥)</sup>  
ومن سريرته طابت وسيرته الـ<sup>(٦)</sup>  
على بن حسين من له فخر  
على الملوك وإعظم وإجلال

والقصيدة بها شيء من الرصانة يحول بينها وبين السقوط كسابقتها، وإن كانت لا تستمر في

(٤) صيد: جع أصيد: السيد الشريف، أقبال: جع

(١) الأدب التونسي في العهد الحسيني ص. ٤٠.

قبل: ملك.

(٢) نفس المصدر ص. ٤٥.

(٥) شباء: سامية.

(٣) الأدب التونسي في العهد الحسيني ص. ٤٥.

هذه الديباجة. وأكثر من هذه القصيدة رصانة وجزالة قصيدة خلية المشرق في نفس المدح يمحّسه ويسثيره فيها على منازلة خصومه مستهلاً لها بقوله<sup>(١)</sup>:

قاتل يسْعِدك فالعالى تجذُّ  
واعزُمْ فَبِدُوكَ لم ينزل يتَجَدَّدُ  
والحربُ أنت مُجِيدها ومجيئها  
والخلقُ تَلَمْ والواقعَ شهَدُ  
سمعت خيولك بالحروب فهزَها  
طربُ وباتَ للصَّهْيلِ ترَدَّدُ  
ما ذاك إلا أنها عَوْذَتْها  
عُمَرَ النَّاسَ حَتَّى التَّجَمُعُ العَورَدُ<sup>(٢)</sup>

ويستمر الشاعر طويلاً في وصف معارك على باى وما يخوض فيها من الدماء إلى أعدائه وما يقطف من رؤوسهم. والقصيدة حاسية قوية، ولم تنشد شيئاً من شعر الشاعرين الرسميين على الراب الصفاقي ومحمد الورغى، لأننا سنخصصها بترجمتين مجلدين. وتنوقف الآن لترجمة لبعض من مروا بنا من شعراً المدح، وستحاول الإيجاز قدر المستطاع.

### على<sup>(٣)</sup> بن محمد الإيادى

نشأ وتربى بتونس، وهو من أهم شعراء الدولة العُبيدية بالقاهرة والمهدية، وخدم الخلفاء: القائم والمنصور والمنز، وذكره محمد بن شرف فقال: «أُمَا عَلَى بْنِ الإِيَادِيِّ التُّونْسِيِّ فَشِعْرُهُ  
الْمُوْرَدُ الْعَذْبُ، وَلِفَظُهُ الْلَّوْلُوُرُ الْرَّطْبُ، وَهُوَ بُخْرُىُّ الْغَرْبِ، يَصُفُّ الْحَسَامَ، فِي رُوْقِ الْأَنَامِ، وَيَشَبُّ  
فِي عِشْقٍ وَيَحْبُّ». ومن شعره في وصف أسطول القائم بالمهديّة:

اعْجَبَ لِأَسْطُولِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ  
وَلِحَسْنِيِّ وَزَمَانِهِ السُّتْرِيِّ  
لَبَسْتَ بِهِ الْأَمْوَاجَ أَحْسَنَ مَنْظَرٍ  
يَبْدُو لِعِينِ النَّاظِيرِ الْمُسْتَجْبُ  
مِنْ كُلِّ مُشْرَفَةٍ عَلَى مَا قَابَلَتْ  
إِشْرَافَ صَدِرِ الْأَجْدَلِ الْمُتَّصِبُ<sup>(٤)</sup>  
دَهَاءَ قَدْ لَبَسْتَ نَيَابَ تَصْنِعُ  
تَسْبِيَ الْمَقْوَلَ عَلَى نَيَابَ تَرْهِبٍ<sup>(٥)</sup>

وتصوّره للسفن بأنها منتصبة الصدر كالصغر تترقب ما تنقض عليه تصوير بديم، ويتصوّر اللون الأبيض في أعلىها كأنه نياً ترحب، ويتحدث عن نار النفط التي تقذفها بالستتها على الأعداء وعما يحفلها من مجادف مصفرقة في الجانين تطير بها في عباب البحر المتوسط طيرانا. ويظليل في وصف الأسطول منتقلًا بين تصاوير رائمة وهي قصيدة بديمة، ومثلها قصيدة ثانية

(١) للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص. ٩٦.

(٢) الأدب التونسي في المهد الحسيني، ص. ٤٥.

(٤) الأجلد: الصقر.

(٢) النجع: دم الجوف.

(٥) دهاء: سوداء لطلاتها بالقار.

(٣) انظر ترجمة الإيادى في تاريخ الأدب التونسي

وصف فيها القصر الذي أنشأه المنصور بضيّرة إحدى ضواحي المهدية، وفيه يقول:

بني قبة للملك في وسط جنة لها منظر يزفني به الطرف مُونق  
لها جدول ينصب فيها كأنه حسام جلاه القرن بالأرض مُلْصَق  
لها مجلس قد قام في وسط مائها كما قام في قبض الفرات الخورنق  
إذا بث فيها الليل أشخاص نجيمه رأيت وجوه الزنج بالنار تُعرَقُ

والصور بدعة فالجدول كأنه حسام جلاه القرن أو الحداد فهو يلمع أشد اللمعان بما فيه من مياه، وهو مُلْصَق على الأرض بل ملصق بها لا يتركها أبداً، وقد قام وسط الماء مجلسها، وكأنه قصر الخورنق الذي بناه المنذر بن ماء السماء قديماً على ضفة الفرات، حتى إذا دجا الليل وانتشرت النجوم على صفحة السماء رأيت وجوه الزنج تُعرَقُ بالنار، وتتكاثر هذه الصور وما يائتها في شعر الإيادي مما يدلّ بوضوح على ثراء ملكته الشعرية، وقد توفي سنة ١٩٧هـ/٣٦٥م.

الكاتب<sup>(١)</sup> الرقيق إبراهيم بن القاسم القيروانى

نشأ وتربي في القيروان وإليها نسب، وهو شاعر باديس ورئيس الإنشاء في الدولة الصنهاجية لمدة خمس وعشرين سنة، وهو مؤرخ إفريقية الكبير، وتاريخه فيها وفى المغرب في عدة أجزاء، لم تنشر منه حق الآن سوى قطعة صغيرة، ويقول عنه ابن خلدون في مقدمته: «الرقيق مؤرخ إفريقية والدول التي كانت بالقيروان ولم يأت من بعده إلا مقلد له» ويقول ابن رشيق: «هو شاعر سهل الكلام محكمه لطيف الطبع قويه، تلوح الكتابة على ألفاظه، غالب عليه اسم الكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار، وهو بذلك أحق الناس، وله في باديس أشعار مختلفة منها قوله:

وما مثل باديس ظهير خلافة إذا اختير يوماً للظهور موضوع  
نصرها لها من دولية حاتمية إذا ناب خطب أو فاقم مطعم  
حسام أمير المؤمنين وسهمه وسم زعاف في أعاديه متقطع

في باديس ظهير الخلافة وعوتها ونصرها الأكبر حين توب كارنة أو يتفاقم خطب، إنه حسام أمير المؤمنين وسهمه وسم قاتل لأعاديه، وله قصيدة يصف فيها وقعة حرية استبل فيها باديس بشلل قرب المهدية (المسلة) سنة ٤٠٥ وكتب له فيها النصر على أعدائه، يقول:

(١) ص ٥٥ وبجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٢١.

انظر في الكاتب الرقيق معجم الأدباء ٢١٦/١

وفوات الوفيات ٤١٧/١ وابن رشيق في الأنموذج

وقد تضائق فيه ملتقى الحدق  
مثل النجوم تهافت في ذيقي الفسيق  
كالشمس في الجو لا تخفي عن العين  
وبأيضاً في الورى أشفقاً على الفرق  
أبو مناد تبكي مات من فرق

لم أنس يوماً بشلبي داع منظرة  
والبعض في ظلمات الليل بارقة  
وقد بدا معلماً باديءاً مشهراً  
وأي راحته لو فاض ناهلاً  
لو صور الموت شخصاً ثم قيل له

وهو يصور في البيت الأول ما أخذ الناس من الفزع في أول المعركة، ويقول إن السيف  
كانت تلمع وتبرق في ظلمات الفبار وكأنها نجوم تهوا في ذيقي الليل، ولم يلبث أن بدا باديء  
وسط ظلام المعركة وكأنه الشمس لا تخفي عن الأ بصار، ويتجسد له الجود والباس في راحته،  
فلو فاضت على الورى لأشفقو على أنفسهم من الفرق في جوده وبأسه، وما يلبث أن ينفذ في  
 مدحه لباديء إلى صورة طريقة، ولو تجسد الموت شخصاً، ثم قيل له هذا أبو مناد باديء ملات  
من الفرق والفرع، وقد علق ابن رشيق على بعض أبيات القصيدة بقوله إنها بدعة «حسناً  
ولاحمة وإنجازاً وفصاحة وليس في ألفاظ الكتابة العذبة مثل ما أتي به ولا متزداد عليه،  
ألا ترى كيف تأتق فأغرب، وتفتح فأعجب». وله مداعع رائعة في محمد بن أبي العرب قائد  
باديء. وزار القاهرة وله قصيدة يتشوق فيها إلى أهلها ومنتزهاتها البدعة، وقد توفى حوالي سنة  
٤٢٠هـ/١٠٣٠م.

ابن<sup>(١)</sup> رشيق

هو أبو علي الحسن بن رشيق، ولد بمدينة المحمدية المعروفة الآن باسم المسيلة لأب رومي من  
موالى الأزد سنة ٣٩٠ و كان أبوه يخترف الصياغة فعلمته صنعته، وأحسن الفلام بنزعة فيه إلى  
الأدب، فهاجر إلى عاصمة القيروان المشهورة به حينئذ سنة ٤٠٦ وأخذ ينهل من حلقات  
شيوخها وغنى بالآدباء والشعراء القيروانيين، وأخذت ملكته الشعرية تتفتح، و Ashton بجودة  
الخطاط وحسن القراءة، حتى إذا كانت سنة ٤١٧ وكان المعز بن باديء قد بنى لنفسه بناء في  
صَبْرَة: إحدى ضواحي الهدية، رأى أن ينشد قصيدة، وما قاله فيها:

يابن الأعز من أكابر حمير سُلالة الأملال من قَعْطَان

خلكان ٨٥/٢ وشنرات النصب ٢١٧/٢ والنتف من  
أشعار ابن رشيق وابن شرف للمعین وبجمل تاريخ  
الأدب التونسي للأستاذ حسن حسن عبد الوهاب  
ص ١٨٢ وديوانه بتحقيق د. عبد الرحمن ياغي.

(١) انظر في ترجمة ابن رشيق آخر كتابه: «أغذج»  
الزمان في شعراء القيروان والمربيدة للعماد  
الأصبهان (قسم المغرب - طبع تونس ٢٣٠/٢)  
وإثناء الرواة ١/ ٢٩٨ ومعجم الأدباء ١١٠/٨ وابن

من كُلِّ أَبْلَجِ أَمِيرِ بَلْسَانِيهِ يضم السيف سواضع التيجان  
وأَعْجَبَ المَعْزَ بالقصيدة، وشعر ابن رشيق باستحسانه لها، فحاول أن يتقارب منه بقصيدة  
لامية أكثر من القصيدة الأولى إبداعاً واقتاناً، فُقِيَّدَ في ديوانه وأخذ الصلة منه، وحُمِّلَ على  
مركب تمييزاً له بين أقرانه، وفي مدحه يقول:

لَذْنُ الرَّماح لَمَا تُشَقِّيْ أَسْتَهَا  
مِنْ مَهْجَةِ الْقَيْلِ أَوْ مِنْ مَهْجَةِ الْبَطْلِ  
لَوْ أَورَقْتَ مِنْ دَمِ الْأَبْطَالِ سُرْقَنَا  
لَأَوْرَقْتَ عَنْهُ سُرْقَنَا الْذَّهَلِ  
إِذَا تَوَجَّهَ فِي أُولَى كَتَانِيهِ  
لَمْ تَفْرَقْ الْعَيْنَ بَيْنَ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ  
فَالْجَيْشُ يَنْفَضُّ حَوْلِهِ أَسْتَهَا  
نَفْضُ الْعَقَابِ جَنَاحِيهَا مِنَ الْبَلْلِ

فرماح المَعْزَ لَذْنَةً لَمَا يَسْقِيَهَا مِنْ مَهْجَةِ الْمُلُوكِ وَالْأَبْطَالِ، ولو أن الرماح تورق من دم الأبطال  
لأَورَقَتْ رماحةَ الدِّقْيَةِ، وما أَعْظَمَ كَثَائِهِ إِنَّهُ حِينَ يَتَوَجَّهُ فِي أَوْلَاهَا لَا تَسْتَطِعُ التَّغْرِيْةَ بَيْنَ  
السَّهْلِ وَالْجَبَلِ وَمَا يَلْبِثُ أَبْنَى رشيقَ أَنْ يَنْفَذَ إِلَى صُورَةِ بَدِيعَةِ فَالْجَيْشُ يَنْفَضُّ مِنْ حَوْلِ المَعْزِ  
أَسْتَهَا نَفْضُ الْعَقَابِ جَنَاحِيهَا مِنَ الْبَلْلِ وَيَقُولُ أَبْنَى خَلْكَانَ: هَذَا الْبَيْتُ مِنْ فَرَانِهِ، وَكَانَ كَثِيرًا  
مَا يَنْفَذُ إِلَى مَثْلِ هَذِهِ الْفَرَانِدِ، فَقَدْ غَابَ المَعْزُ عَنْ حُضُورِهِ وَكَانَ الْعِيدُ مَاطِرًا، فَأَنْشَدَ:  
تَجْبِئُهُمُ الْعِيدُ وَانْهَلَتْ بِسَادِرَهُ وَكَنْتُ أَعْهُدُ مِنْهُ الْبَشَرَ وَالْمُضْحَكَانِ  
كَانَهُ جَاءَ يَطْوِي الْأَرْضَ مِنْ بُعْدِ شَوْقَةِ إِلَيْكَ فَلِمَا لَمْ يَجِدْ بَكِ  
وَكَانَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْفَذُ إِلَى هَذِهِ الصُّورِ الْبَدِيعَةِ، وَيَدْعُهَا إِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى مَا تَحْمِلُ مِنْ عَنْصَرِ  
الْمَفَاجَأَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي تَمِيمِ بْنِ الْمَعْزِ:

أَصْحَحُ وَأَعْلَى مَا سَمِعْنَاهُ فِي النَّدْنَى مِنْ الْخَبَرِ الْمَأْتُورِ مِنْ قَدِيرِ  
أَحَادِيثِ تَرْوِيَةِ السَّيْوُلِ عَنِ الْمَهَيَا عَنِ الْمَهَرِ عَنْ كَفِّ الْأَمِيرِ تَبَرِّ

وقد ظلَّ مع المَعْزَ يَؤْلِفُ كَتَبَهُ الرَّانِعَةُ: الْعَمَدةُ وَغَيْرُهُ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ الْمَهْرَةُ الْمَلَالِيَّةُ وَتَرَاجَعَ  
أَمِيرُ المَعْزِ بَكِيَ الْقِيرْوَانَ طَرِيْلاً، وَرَحَلَ إِلَى جَزِيرَةِ صَقلِيَّةِ وَاسْتَقَرَّ بِمَدِينَةِ مَازِرٍ إِلَى أَنْ وَافَاهُ أَجْلُهُ  
سَنَةُ ٤٥٦هـ/١٠٦٤م، وَلَهُ فِي بَكَاءِ الْقِيرْوَانَ وَمَا صَارَ إِلَيْهِ أَشْعَارٌ كَثِيرَةٌ بَدِيعَةٌ.

### التراب<sup>(١)</sup> السوسي

هو من شعراء عصر الطوائف ومن أهل سوسة. التغر المعرف على المتوسط إلى الجنوب

(١) انظر في التراب السوسي المربدة ١٣٠/١

.٣١٠/٢ والحلل السنديبة

الشرقى من تونس ومثلها مثل قابس دخلت فى حوزة العرب الملالية بعد زحفتهم إلى الإقليم التونسي. وما زال يتوالى أمراء من عرب الملالية منذ عهد تميم بن معن، انتزاعها من أيدي الدولة الصنهاجية، وملكتها أخيراً جبارة بن كامل بن سرحان الملالى الذى اشتهر بجوده، فأقبل عليه الشعراء يقدموه إليه مدائعهم وفي مقدمتهم شاعره التراب السوسي، وهو سوسى المولد والمربي والحياة والوفاة، وله فيه قصائد بدعة طوال إمارته لسوسه إلى أن استولى عليها روجار صاحب صقلية حين أخذ المهدية من يد الحسن بن يحيى بن تميم الصنهاجى سنة ٥٤٣ واستولى عليها على بقية بلاد الساحل التونسى إلى أن خلص عبد المؤمن سوسة والمهدية وببلاد الساحل جيماً من أيدي النورمان النصارى سنة ٥٥٥ ودخل جبارة في طاعته. وللتراب السوسي قصيدة بدعة في جبارة على نهج قصيدة مهيار الديلمى: (بكر العارض تحدوه العلامى) ومقدمتها لا تقل عنها وجهاً وأضطرام المطلب شوقاً وغراماً، كما لا تقل عنها نسقاً موسيقاً بدعاً، وفي مدحه لجبارة يقول:

مُقْبِلُ القلب على سُبْلِ الْهَدَى  
معرض عن كُلِّ سَاجِرِ الأَنَامِ  
لِئِنْ يَتَرَى مَا الْمَزَامِيرُ وَلَا  
يَسْعِمُ الصُّنْجُ وَلَا ذَاقَ الدَّامَامَ<sup>(١)</sup>  
وَإِذَا اسْتَصْرَخَهُ فِي حَادِثٍ  
فَلَعِنِ الْحَادِثِ جَرَدَتْ حُسَاماً  
بِيَتِهِ كَعْبَةُ بِشَرِّ نُصَبَّتْ  
تَقْيِيمُ الْفَمِ عَنِ النَّاسِ انْفَاصَاماً  
لِذَوِي الْحَاجَةِ زِحَاماً حَوْلَهَا  
وَجِبَارَةُ - فِي الْأَبْيَاتِ - يَقْبِلُ عَلَى طَرَقِ الْهَدَى وَيَعْرَضُ عَنْ كُلِّ مَا يَبْغِي إِنَّا، كَمَا يَعْرَضُ  
عَنْ كُلِّ هُوَ مِنْ مَزَامِيرِ وَخَرِ وَضْرَبَ لِلنَّصِيجِ، إِنَّهُ لِيَغْيِثُكَ غَوْثَ السَّبِيفِ القَاطِعِ فِي أَىِّ حَادِثٍ  
يَعْتَرِيكَ. وَمَا يَلِيهِ التَّرَابُ السُّوَسِيُّ أَنْ يَتَفَذَّلَ إِلَى صُورَةِ بدْعَةِ، فَبَيْتُ جِبَارَةِ كَانَهُ كَعْبَةُ تَفَصِّمِ  
الْفَمِ عَنْ قَاصِدِيهِ مِنْ ذَوِي الْحَاجَاتِ. وَيَتَخَيلُ أَنَّهُمْ يَزْدَحُونَ حَوْلَ مَنْزِلِهِ ازْدِحَامُ الْمَجَاجِ حَوْلِ  
الْكَعْبَةِ، وَلَهُ فِي جِبَارَةِ قَصِيدَةٍ ثَانِيَةٍ وَقَفَ فِيهَا طَوِيلًا عَنْدَ أَطْلَالِ صَاحِبِهِ وَتَحْدَثَتْ عَنْ أَيَّامِهِ  
الْخَوَالِ وَمَنْ كَانَ بَهَا مِنْ الْفَانِيَاتِ الْفَانِتَاتِ وَأَطْلَالِ فِي وَصْفَهِنِ، وَخَرَجَ إِلَى مَدِيعِ جِبَارَةِ بِمِثْلِ  
قوله:

جِبَارَةُ ابْنِ كَامِلٍ  
كَهْفُ النَّسَدِيِّ وَالْكَرْمِ  
الْمَارِضُ الَّذِي إِذَا  
أَخْلَقَ صَوْبَ النَّمِ  
سَرَّتْ سَحَابُ جِسْدَهُ  
مِنْ غَيْثِيِّ الْمُنْسَبِ  
نَهَرًا لِكُلِّ مَقِيمٍ<sup>(٢)</sup>

(٣) الميا: الفيت.

(١) المدام: الخمر.

(٢) المقام: مقام إبراهيم في الكعبة.

أَسْرَجْ كُلُّ شَيْطَمْ<sup>(١)</sup>  
وَسُلُّ كُلُّ مُرْهَمْ<sup>(٢)</sup>  
تَرَاهِ إِنْ صَاحْ بِهِمْ  
تَرَاكِبُوا مِنْ خَوْفَهِ<sup>(٣)</sup>

والآيات تسهل عنوية مع صور بدعة، فالعارض أو السحاب الذي يخلف صوب الديم والأمطار لا يزال يهطل بجانبه عارض جوده بغية المدار، حق ليغيب أنهاراً من الحياة والغيث المتدافع لكل معدم، وحين يسرج كل فرس كأنه أسد ضخم، ويسل كل سيف حاد ولهن قاطع ترى الأعداء حين يمحى وطيس العرب ويصبح بهم يتراكون بعضاً على بعض فرعاً منه ورعاً ما بعده رعب. والقصيدة توجّب مثل هذه الصور البدعة، مع ما توجّب به من خفة في الموسيقى حتى لكانها تطير عن الفم طيراً، مما يرتفع بالتراب السوسى إلى منزلة علياً في عالم الشعر. وقد ظلل الناس في الإقليم التونسي يغرون بانشادها حتى أوائل القرن الثامن الهجري، إذ يشهد التbiani في ذلك في رحلته قائلاً إن أعراب زماننا قد أولموا بانشادها وكثرة تردادها حتى عصره. ولعل في ذلك ما يدل - من بعض الوجه - على صحة ما زعمته في غير هذا الموضع من أن الفصحى كانت لا تزال تجرى في ألسنة الناس - وخاصة من الأعراب - حق هذا التاريخ.

ابن<sup>(٤)</sup> عربية

هو أبو عمرو عثمان بن عتيق المهدوي، من شعراء المهدية وفقهائها ومحدثيها الأعلام، ولد سنة ٦٠٠ وبها منشأه ومرباءه، وله كثير من المصنفات منها كتاب جوامع الكلم النبوية، وأثار السباحة في أشعار الصحابة، وله ديوان سماء قصائد المدح ومصائد المنج، وكانت له في أبي ذكري يا مؤسس الدولة الخفصة مدائح كثيرة، وقد استدعاه مع جماعة من خواصه وشعرائه لنزهة في روضه المسمى بأبي فهر، فنظموا في وصفه قصائد وقدموها إليه، وأجادتهم عنها بآيات تتضمن تفضيل قصيدة ابن عربية على قصائد من حضرة من الشعراء قائلاً:

أَلَا إِنْ مَضَارَ الْقَرِيبِ لِمَتَدٌ بِهِ شُعْرَاءُ السُّقْقِ أَرْبَعَةُ لُدُّ  
فَأَمَّا الْمَجْلُ فَهُوَ شَاعِرٌ جَمِيعٌ أَنِّي أَوْلَى وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ بَعْدُ

ووجهة من قرى المهدية، واضح أنه يريد بشاعرها ابن عربية، وله شعر طريف في

(١) الشيط الطويل الضخم يعني به الفرس.

(٢) لهن: سيف قاطع.

(٣) انظر في ترجمة ابن عربية الحال السنديبة

التونسي ص ١٩٧.

(٤) الشيط الطويل الضخم يعني به الفرس.

(٥) لهن: سيف قاطع.

(٦) انظر في ترجمة ابن عربية الحال السنديبة

الشوق إلى بلدته، وهو ما جعله في أثناء مدحه لأبي زكريا يطلب إليه أن يوليه قضاء بلدته  
جمة قائلًا:

ذكرت جمّة والذّكرى تبعي أئمّة وأين جمّة مني والمنشتير  
وما مناي لباليها التي سلفت  
لما هوائي معانها المعاطير<sup>(١)</sup>  
لكن بها رجم مجنفه يَسْتَ  
من أن تقرُّني منها المقادير  
فبيان رأي من أدام الله نعمته  
عليه لى خطّة فيها فما يجوز  
وكان ابن عربية خير أبو زكريا بين قضاه جمة أو قضاه النستير بالقرب منها، وعيّنه قاضيا  
بتبرسق وظل بها إلى وفاته سنة ٦٥٩. ولما توفى أبو زكريا وتولى ابنه المستنصر نظم قصيدة  
رائعة جعل شطرها الأول عزاء في أبي زكريا وشطرها الثاني تهنة للمستنصر، وقضى على هذه  
الشاكلة:

وللن طوى بَرِّ الإماراة مغرب  
فأضاه بالمرحوم ذلکم الشّرّى  
بَسْطوا لسان الشّكّر فيمن بايعوا  
ورأوا خلآل محمد فتبashروا  
فلقد جلا شمس الخلافة مطلع  
وأنصار بالنصرور ذاك المربيع

ويقول الرواية إنها قصيدة طويلة، ويدل ما ذكره من أبياتها السالفة على مهارة ابن عربية  
في الجمع بين التعزية والتهنئة في كل بيت من أبياتها. ولو وصلتنا القصيدة أو بعبارة أدق  
لو وصلنا ديوان ابن عربية لاستطعنا أن نحكم على إبداعه الشعري بصورة أكثر دقة، ومع ذلك  
فالأشعار التي أنشدتها له الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب تدل على موهبة شعرية فذة، وإذا  
كان التراب السوسي يدل على خطأ حكم ابن خلدون في أن الشعر التونسي توقف بعد ابن  
رشيق وابن شرف، فإن عربية يدل بيوره على خطأ هذا الحكم.

#### عبد الله التجانى

هو عبد الله بن محمد التجانى، من أسرة ظلت راعية للأدب والثقافة منذ عهد مؤسس الدولة  
المفصية أبي زكريا إلى عهد أبي يحيى زكريا الذى اشتهر باسم ابن اللمباني (٧١١-٧١٧هـ)

للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ص ١٦٢ وكاب  
المعلم في تاريخ الأدب التونسي من ٢١٢ ورابع  
الرحلة طبع تونس.

(١) معانها: منطفاتها.

(٢) انظر في التجانى المعلم السنديسة (رابع  
الفهرس) والقسم الثالث من كتاب الورقات

وقد ولد عبد الله حوالى سنة ١٢٧٢هـ / ١٦٧٠ م ورعاه أبوه محمد خير رعاية، فأخذ ما عند أبيه وأسرته من الأدب والفقه، وانتظم مبكراً مثله في ديوان الإنشاء وعُرف بالبراعة في الشعر والترسل، وكان طموحه أوسع من ذلك، فأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين من أهل تونس والطارئين عليها. وانعقدت صداقته وتفقى بينه وبين أبي بمحى ذكريا المشهور بابن اللحياني كبير أمراء الدولة المغربية، حتى إذا رأى هذا الأمير أن يقوم برحالة واسعة في شرقى الإقليم التونسي وجنوبيه سنة ١٣٠٧هـ / ١٧٠٦ م اصطحبه معه في تلك الرحالة التي ظلت سنتين ونصفاً، وفي نهايتها تجول معه في الإقليم الطرابلسي، وأقام به التجاعي مدة تحدثنا عنها في طرابلس وعن أخذ عنه صحيح البخاري ومسلم، وعاد إلى تونس وأخذ في تأليف رحلته الطريفة، وفيها يتحدث عن البلدان التي زارها مع ابن اللحياني جغرافياً وبنانياً وتاريخياً مع عرض أعلامها من الفقهاء والمحدثين وأصحاب العربية والشعراء الأفذاذ على مر العصور حتى عصره، ويدرك أن الأمير ابن اللحياني فكر ستة في الملح فجامتهم الآباء بمجاعة شديدة في برقة، ويدرك أن ابن حسينة نظم قصيدة ينهى فيها عن الحج حيثنة، وينشد مظلمه، ويقول إنها سقطت من ذاكرته، غير أن له قصيدة جعلها معارضة لقصيدةه، وينشدتها، وفيها يقول مادحاً ابن اللحياني:

رسول زهـت الأيام بـ	وتحلـت من بعد القـطلـ
شرفـ بالـإـرـثـ تـملـكـ	فـتـقـلـ أـحـسـنـ مـنـقـلـ
بـأـسـ كـالـنـارـ إـذـ اـضـطـرـتـ	وـنـدـىـ كـالـفـيـثـ التـنـهـلـ
يـنـضـسـ الـأـرـاءـ مـسـدـةـ	فـنـقـلـ الـأـرـاءـ أـنـذـأـ
فـنـ قـوـلـ أـنـذـأـ أوـعـلـ	فـأـقـيمـ لـلـدـيـنـ تـجـلـدـ
فـنـ عـزـ بـاقـ مـتـصلـ	فـشـروـطـ الـحـجـ لـزـواـلـ الـقـنـةـ وـالـسـبـلـ

والقصيدة طويلة، وهي تدل على قدرة ملكه الشعرية إذ يندفع فيها ولا يكاد يتوقف، ويقول لابن اللحياني أقم فيكى ما تقدمه للدين من خدمات، وقد ارتفع عنك الحج لفقد شرط الاستطاعة وأمن السبل، وقتل الرحلة بأشعار يتبادلها مع أصدقائه وأبيه وأفراد أسرته، من ذلك محاولة الشاعر ابن حسينة أن يتبادل معه الشعر، فأجابه مادحاً:

وـمـنـ لـمـ تـلـفـ فـيـ الدـنـيـاـ تـدـيـدـهـ	أـمـسـرـ كـلـ مـنـقـبةـ حـيـدـهـ
وـأـفـكـارـ مـؤـسـيـةـ سـيـدـهـ	أـعـنـتـ عـلـىـ النـظـامـ يـعـسـنـ طـبـعـ
لـيـقـصـرـ عـنـ مـجـارـيـكـ الـمـدـيـدـهـ	وـتـسـأـلـىـ الـجـوابـ وـإـنـ فـكـرـىـ
وـهـوـنـ مـنـ مـطـالـبـ الـشـدـيـدـهـ	فـمـهـدـ لـىـ عـلـىـ التـقـصـيرـ عـنـرـاـ
وـسـقـيـدـ دـائـرـ وـعـلـاـ جـدـيـدـهـ	وـدـمـ فـيـ عـزـةـ وـبـلـوغـ قـفـيـدـ

وهو بطل من شاعرية ابن حسينة وبجمله أكثر منه تفوقاً في عالم الشعر، ولم يكن ابن حسينة يقلّ عنه شاعرية وبراعة فيها يورد من أشعار له.

### على<sup>(١)</sup> الغراب الصفاقسي

منشأه ومرباء مدينة صفاقس في القرن الثاني عشر الهجري، وكان أبوه محمد في ثراء ونعة مما أتاح له الاختلاف إلى حلقات العلماء والأدباء في بلدته والتأهل من بناء علمهم وأدبهم وانتقل إلى تونس، فحضر دروس علمائها المختلفين في المنطق والفقه وأصول الفقه والفقه المالكي والمحدث النبوى والبلاغة والعربية، ويقال إن أصل مجده إلى تونس قضية شرعية في إرث أبيه وتعرف على رجالاتها: رجال الدواوين وساستها وقد وضع بين يدي ديوانه مقدمة طريفة ذكر فيها أنه كان في بده حياته (بصفاقس على ما يظن) لا يزال حين تفتحت موهبته الشعرية ينتقل بين الجد والمجنون إظهاراً لقدرته، وكثير منها لم يكن مطابقاً للواقع بل على حسب ما يقتضيه المقام من المفاكحات أو محاكاة للبلفاظ في بعض المطاراتحات. وبعود الغراب إلى ذكر ذلك في مقدمته لديوانه لعل الثاني بن الحسين وقد سماه «ديوان بهجة النفس والعين في صفات الأمير على بن الحسين». وكان اتصاله برجالات الصر من الساسة وكبة الدواوين سلماً طيباً لاتصاله بعلي الأول ابن الأمير محمد الذي استلب أولاد أخيه الحسين الحكم إلى أن استردّه محمد الرشيد وإخوته بعد عشرين عاماً بفضل جيش جزائري نصرهم على عمه، واستقر الحكم من حينئذ في يد الأسرة الحسينية. وقد أسدت على الأول إلى الشاعر خطة العدالة التي كان يرنو إليها، وله فيه ثلاث مدائح، أهمها مدحه رائية، وفيها يقول:

ملِيكُ لَهُ فَضْلٌ وَمَجْدٌ وَسُؤْدٌ  
لَهُ عِنْدَهُ مَقْرُونَةٌ بِصِيَانَةٍ  
إِذَا وَقَعَتْ أَسِيَافُهُ فِي عِدَانَهُ  
إِذَا رَفَعَ الْأَعْلَامَ فَاجْزَمْ بِيَكْسُرٍ

عنوان الأريب عاشرنا بالملكة التونسية من عالم أدب (طبع تونس) ٣٢/٢ وشجرة التور الزكية في طبقات المالكية لمحمد مختلف (طبع القاهرة) وبجمل تاريخ الأدب التونسي للأستاذ حسن حسني عبدالوهاب ص ٢٣٩ وكتاب الأدب التونسي في المهد الحسيني للهادى الفزى (طبع تونس) ص ٩١.

(١) انظر في ترجمة الغراب مقدمته العامة لديوانه والخاصة التي وضعها بين يدي ديوانه الثاني في مدائح علي باى بن الحسين وهو مصنّع في ديوانه بتحقيق وتقديم محمد المادى الطاهر المطوى وعمر ابن سالم (طبع تونس) وقد ضُمن الديوان رسائله ومقاماته، ومن الكتب التي اهتمت بالترجمة له كتاب

وأغدا ذكر البيت الأخير لأنه كان يتصنع أحياناً لقواعد النحو، فقد ذكر فيه الرفع والجرم والفتح والجمع الصحيح السالم والجمع المكسر، ولكن ذلك كلّه لم يفسد البيت عنده، وهو لا يكتر من مثل ذلك في شعره، فقول من قال إنه كان يكتثر من التورية في شعره يريد مثل ذلك من التصريح بعض مصلحات العلوم وخاصة النحو وأنه يخفر بذلك عن المحدود فيه مبالغة، إذ تتضمن في شعره قوة شاعريته وأنه يتدفق فيه رغم ما قد يتضمن له من المحاسن وخاصة الجناس، وله مدحه لم يُفْلِي منه بيتاً من أبياتها وقد ذكر في فاتحتها أن ذلك طلب منه، والحق أنه يتميز بشاعرية خصبة، وديوانه الثاني أنشأه في علي بن الحسين وقد استولى على صولجان الحكم بعد أخيه الرشيد من سنة ١١٧٢ حتى سنة ١١٩٦ وكان سياسياً محظياً وقرب الشاعر منه وعاش في زمانه حتى توفي سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م وأهداه أكثر من ثلاثين مدحة مكوناً بذلك هذا الديوان الثاني الذي قلنا آنفاً إنه سماه: «ديوان بهجة النفس والعين في صفات الأمير على بن الحسين» وله يقول في بعض مدحه:

إِلَيْهِ فَتَقَّى أَنَّ الْإِبَابَ مَفَانِمُ  
وَهَذَا لَجْرُحُ النَّاثِبَاتِ مَرَاهِمُ  
- وَتَبَيَّنَ عَنْهُنَّ - الْكَمَاءُ الضَّرَاغُمُ  
لَمَا عَلَقَتْ بِالْمَالِمِينَ مَائِمُ  
فَذَاكَ لَهُ كُفٌّ وَذَلِكَ سَاجِمٌ  
نَيَّمَنَا بِهِ فِي ظَلٍّ عَيْشٍ كَانَمَا

مَلِيكٌ إِذَا الْأَمَالَ مِنْكَ تَوَجَّهَتْ  
بِحَلْمٍ وَعَدْلٍ حُصُّ، هَذَا لَمَنْ جَنَّ  
لَهُ وَثَبَاتٌ فِي وَغْنَى الْحَرَبِ تَتَشَنَّى  
لَهُ عَفَّةٌ لَوْ أَنَّهَا فِي الْوَرَى سَرَتْ  
إِذَا ابْجَسَتْ مُزْنَ السَّمَاءِ وَكَفَهُ  
نَيَّمَنَا بِهِ فِي ظَلٍّ عَيْشٍ كَانَمَا

والقصيدة تتدفق برنات موسيقية بديمة، والألفاظ سلسة عذبة، والتقطيم في البيت الثاني دقيق، فالعدل لمن جنى والحلل مرهم لجرح الناثبات، وله وثبات في رغى الحرب بتحاشاها وبعده عنها الشجعان شجاعةً ضاربة، ويبالغ في وصف عنقه وأنها لو وزعت على العالمين ما كان في الدنيا مائة، ويقول إذا انفجر مزن السماء بالفيت وكفه بالجلود وتوقف المزن وكفه تظل هاطلة ولا تتوقف أبداً، وينذر أنهم نعموا بالأمير على الثاني في ظل عيش نائم رافه، حتى لكانوا يعيشون معه في جنان الخلد، وقد حفت معيشتهم بتمائم وتعويذات حتى لا تتبدل أبداً، ولعل صوت على الغراب الصفاقي انتفع لنا الآن، وهو صوت فيه غير قليل من جمال العبارة وحسن الصياغة وأحياناً مع المبالغة الشديدة.

(٢) ثان: تعاوين.

(١) الكمة الضراجم: الشجعان الأسود.

## محمد<sup>(١)</sup> الورغى

هو محمد بن أحمد الورغى، نسبة إلى قبيلة ورقة التي كانت تنزل قرب مدينة الكاف في الجنوب وقيل بل كانت تنزل على الحدود التونسية المجزانية، ولا نعرف شيئاً عن ميلاده ولا عن شأنه، ويبعد أنه التحق أولاً بالكتابي، وحفظ فيها القرآن الكريم، ونفاجأ به في جامع الزيتونة بتونس يدرس على شيوخه الفقه والتاريخ وعلوم الحديث والتفسير والكلام والمنطق وعلوم العربية والبلاغة، ويُبَدِّى من الذكاء ما جعله يجلس للتدريس بجامع الزيتونة. وجعلته زعنفة الأدبية يختار العمل كاتباً في ديوان الإنشاء لمهد الأمير على الأول، وتولى في عهده من الشهرة والجاه ما جعله كاتبه وشاعره الأول فلا يترك حادثاً ولا عيداً إلا ويديع فيه مدحه، وتدور الدنيا دورات وإذ أولاد أخيه حسين يستردون السلطان المفقود، ويجلس على أريكة الحكم محمد الرشيد لمدة ثلاث سنوات ثم أخوه الأمير على الثاني حتى سنة ١١٦٩ ويوشك نجمه أن يأفل منذ ولادة الرشيد سنة ١١٦٩ فيسجن ويعذب، وما زال يمتحن بدانحة إلى أخيه الأمير على الثاني، ويتوسط له عند أخيه وترد إليه حرسته، حتى إذا أصبح صولجان الحكم بيده قرْبَه منه، وظن ظناً أن لزوجته ابنة على الأول أثراً في قربه منه وقربه على الغراب الصفاقي كما مر بنا، مما جعله ينظمها بين كتابه وشعراته. وظل الورغى يحظى بجوائز على الثاني حتى وفاته سنة ١١٩٠ للهجرة، ومدائحه منقسمة بين على الأول وعلى الثاني، ومن بديع ما له من مدائح في على الأول قصيدة في إيقاعه بقبيلة التمامسة حين ثبّت ركب حبّيج من فاس وألزمها برد كل مانبيته، ولو يقول:

وإلا فما تُقْنِي صدورُ المراتب  
إذا لم يَمْيِّزْ فضلُّها بالتجارب<sup>(٢)</sup>  
وإن كرِّتْ أهلُ الدواعي الكواذب  
وفى قصص الباشا عيون الغرائب  
إذا قال: واغوثاً أهلُ المصائب

هو العزُّ فى سُرُّ القنا والقواضِ  
وسيُـانِ أغمارُ الرجالِ وصيـداها  
هو الملك الداعى إلى الحق وحده  
ومنْ عَرَفَ الأيامَ قصْ غريرها  
ومن مثله يُـذْعَى لكتشِ ملْمَةٍ

(١) التونسي في المهد المسيق ص ١٤٩ وديوانه مطبوع بتونس.

(٢) أغمار الرجال: من لبس لهم خبرة من العامة. الصيد: الساد.

(١) انظر في الورغى شجرة التور الزكية لمخلوف وعنوان الأربع لمحمد التيفر والجزء الثاني من تاريخ ابن أبي الضياف والورغى للحبيب ابن الموجة وبجمل تاريخ الأدب التونسي للأستاذ حسن حسني عبدالوهاب ص ٢٤٧ والأدب

ترى الخيل في آثارهم مستطرية سحائب حتف أرددت بسجانب  
وما ارتفعت شمسُ الضعى قيد رمحهم عن الأفق حتى أنشوا في المخالب<sup>(١)</sup>

والأبيات حاسية والورغى يقول فيها إن العز في الرماح والسيوف ولا فضل بين شجاع وجبار إذا لم تغزها التجارب في طيس العرب، ويصف علياً الأول بأنه يعيش للدفاع عن الحق وكشف الملمات عند أهل المصائب، ويقول إن خيل على الأول عصفت بأعدائه، وما زالت سحائب حتفها تعقبها سحائب حتف حتى دمرتهم، وما ارتفعت شمس الضعى قدر رمح حق أنشوا في مخالب فرسانه كأن لم يكونوا شيئاً مذكورة. وتختلف مدائنه في على الثاني عنها في على الأول فأكثراها استعطافات واعتذارات على شاكلة قوله:

يا أيها الملك الذي نظر السنَا  
في وجهه الأشنى فقال مروفُ  
أنت الذي ينسى الغريب بقربه  
أوطانه وجودُ منه المُسلق  
فاذادَ وهو على الورى يتدقق  
مالى أحابُل شربة من عفوكم  
إن كان لي الذنب العظيم فعلمكم  
قالت قبيلة للرسول «وربما  
من الفتى وهو المفيف المعنق»

والقصيدة من نفس الوزن والقافية اللذين اختارتها قبيلة لبكاء أبيها النضر بن الحارث ومقتل رسول الله له بعد غزوة بدر بالصفراء، ويقال إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين سمع شعرها قال: أما إن لو سمعت هذا قبل مقتله لم أقتله، وقتل الورغى في البيت الأخير بجزء مؤثر من بيت لقبيلة، وكماله:

ما كان ضرك لو سنت وربما من الفتى وهو المفيف المعنق  
وكانه يلفت علياً الثاني إلى مدى تأثير الرسول باستعطاف قبيلة، وهو يتحذذ وزن قصيدها وقافيتها وسيلة إلى قلبه، ويتأثر ببعض معانيها، وله قصيدة في مدح على الثاني تسيل عنوبة ولسلامة يبدأها بقوله:

### حاجة المدح لعلو الفرزل حاجة الصب لأولى القبل

حتى إذا استوقف الفرزل فيها أخذ يدحه بانتصاره على بعض الثنائيين مُسبباً عليه كثيراً من الشعائير مبالغة مفرطة. وكان لا يقل عن على التراب الصفاقي مثانة أسلوب ورصانة صياغة وجزالة الفاظ، ولم يستكثر منه في شعره من مصطلحات العلوم ومحضات المدح.

(١) قيد: قدر.

## شعراء الفخر والهجاء

الفخر وما يتصل به من الحماسة من موضوعات الشعر القديمة، حتى لقد سمي أبو عام مختاراته من الشعر حتى عصره باسم ديوان الحماسة إشارة إلى أنه الموضوع الغالب على الشعراء قديماً، ومذ مختاراته إلى عصره، ودانيا يزدهر في البيئات المريمية التي تكثر فيها المروء، ولا نغلو إذا قلنا إن القبروان ظلت تشهد حروباً كثيرة في القرنين الأول والثانى للهجرة، واتصل شيء من ذلك في فتح صقلية سنة ٢١٢ ثم في فتح مالطة سنة ٢٥٥ وهاجها مخلد بن كهداد الصفرى في عصر القائم الفاطمى ثم كانت زحفة بن سليم وهلال في القرن الخامس، ومنذ غلب روجار التورماندى على صقلية سنة ٤٨٤ كانوا ينادلون الساحل الشمالى للإقليم التونسى واستولوا على المهدية مراراً. وفي القرن السادس المجرى صلح الإقليم نار المربى وكانت أشعلاها فيه قراقوش وأبنا غانية، واستول عليه الموحدون، ثم قامت الدولة المفصية وكانت القبائل في الجنوب والجزائر ماتنى تناونها، وتنزلا الإسبان بأخرة من الدولة ثم العثمانيون. وإننا ذكرنا ذلك لتندل على أن الإقليم التونسى كان معداً دانياً ليزدهر فيه شعر الفخر والحماسة، وأول عصر ازدهر فيه هذا الشعر عصر الدولة الأغلبية إذ نجده على لسان مؤسس الدولة الأغلبية إبراهيم بن الأغلب وحفيده أبي العباس بن الأغلب إذ يقول في قصيدة بناها على الفخر بالنسبة والمحسب<sup>(١)</sup>:

أنا الملك الذى أسمُو بنفسي فأشبلع بالسمُّ بها السحابا  
إذا نَفَتْ عن كرمى ومجدى وجذَّتْي المصاصة واللبابا

فهو يسمى بنفسه مصدراً في الباء حتى يبلغ بها السحاب، وهو المصاصة أو الجوهر واللباب من المجد والكرم، ويضى متحدثاً عن سياسته وحسن تدبيره وشجاعته. وكان من بيته أحد بن سوادة الأغلبية المتوفى سنة ٢٦٠ والى الزاب وطرابلس وصقلية، وكان بطلاً في المروء وله في جميعها وقائع مشهورة، وله شعر كثير يفخر فيه بپأسه وببطوله وبلاته في المروء من مثل قوله<sup>(٢)</sup>:

أنا من قد جال ذكرى وجَرَى بين الأنسام

---

(١) بجمل تاريخ الأدب الأنجلوى ص. ٥٩. (٢) بجمل تاريخ الأدب التونسى ص. ٦٣.

أركب الهول يكراً نى على الجيش اللهم<sup>(١)</sup>  
تعرف الأنسُر بأسى فهُن من فوق حوابي

فقد طار اسمه وطار صيت شجاعته بين الناس بركره أهوال الحرب، وإن النسور لتعرف  
بأنه فهُن ما تزال حائنة حول رياته، ولا تزال خلفه وأمامه تتقدّر غذامها من أشلاء أعدائه  
من يذيقهم كأس المنون. وكان القائم بأمر الله، الفاطمي شاعراً مثل أبيه وله منه شعر يفتخر  
فيه، من ذلك قوله، وقد غزا مصر مراراً ولم يكتب له النصر كما كتب فيها بعد جلوهر الصقل،  
ومن قوله يذكر هذا الفزو آملاً في النصر<sup>(٢)</sup>:

فسرتُ بخييل الله تلقاه أرضكم وقد لاح وجه الموت من خلل العجب  
وأردفتها خيلاً عناقها يقصدوها رجالاً كأمثال الليوث لها خَبْبٌ<sup>(٣)</sup>  
فكان بحمد الله ما قد عرَفْتُم وفرتُ بهم الفرج والنصر والقلب<sup>(٤)</sup>  
وذلك ذاتي سابقتي وذاكم فدونكم حرزاً تضرم كاللهب

وهو يصور سيره بجيشه تلقاء مصر وقد ترافق الموت له ولرجاله، ولم ينكح، بل أردد خيله  
خيولاً أخرى عليها رجال شجعان كأئم الأسود، يثنون ويسرون حتى تم له النصر، غير أنه  
اضطر إلى العودة بجيشه إلى المهدية، وهو يتوعّد خصمه بأنه سيظل يعادد الكرة عليهم  
وسيظل يشغل حرباً تضطرم باللهب حتى يتحقق ما يريد من النصر النهائي. وشاعر الفخر في  
الدولة الصنهاجية قيم بن المز وستخصه بكلمة، ومن ثلثيّهم في العصر أبو طاهر التجيبي،  
ومن طريق ما له في عزة النفس<sup>(٥)</sup>:

إلىكم أُقرُّ النفس في المرتعن المُحلِّ  
وأقنع من جد المكاسب بالهزل<sup>(٦)</sup>  
أكفل أقلامي مدى مُساحلًا  
ولم أتعمل مهري ورمي ولا نصلبلي  
ومن كفل الأقلام لا البيض همه  
أقمن به بين المذلة والقلل

فهو يرى نفسه بكتاباته وأدبه قد أقام في المرتع المجدب، إذ الأقلام لا تعود على أصحابها  
بحياة راقفة إنما الذي يعود عليه بذلك سلاحه، ويقول إن من كانت الأقلام لا السيف مدي  
هم في الحياة أقام فيها بين النزل والفقر، وإنه حرى به أن يحمل سيفه حتى يمْدُّ بين الأبطال

(٤) الفرج: النصر.

(٥) نفس المصدر ص ١٣٨.

(٦) المحل: المجدب.

(١) اللهم: العظيم.

(٢) مجلل تاريخ الأدب التونسي ص ٨٣.

(٣) خَبْب: غَنْو سَرِيع.

الشجعان ويعيش معيشة جديرة به. ويلقانا في أول الدولة الحفصية مؤسساها أبو زكريا، وله قصيدة حاسية طويلة يقول في فاختتها<sup>(١)</sup>:

أَبْتَ دَاعِيَهَا فَالْجَبَبُ يَجْبَبُ  
وَبَثَّ لَظَاهَرًا فَالْخَبَبُ يَخْبَبُ  
وَشِئْمَ عَزْمَةَ لَا يَفْعَلُ الْعَجَزَ مَنْتَهَا  
فَذُو الْعَزْمَ فِي الْيَوْمِ الْعَصِيبُ يَعْصِيبُ  
وَلَا تَنْهَى الْعَلَيَّامَ إِلَّا بِأَبْيَضٍ  
لِغَرْبِيَّهِ فِي هَامِ الْكَمَاهَ غَرَوبٌ<sup>(٢)</sup>

وهو يدعو كل شخص إلى أن يخوض غمار المغرب، إذ لا يتكل عنها إلا الجبان. ويتربع بعزم قوى فصاحب العزم هو الذي يصيب الهدف المأمول، ودائماً تتسلح للعلياء بسيف حاد يقطع رؤوس شجعان الأعداء قطعاً ولا يبقى منها بقية. وتلقانا عند شعراء هذه الدولة الحفصية أشعار حاسية كثيرة، ونجد ابن خلدون يشارك فيها واصفاً شجاعة البدو وبطولة فرسانهم، وبالمثل نجد طائفة من هذه الأشعار عند شعراء العصر الحسيني، وما يتبناها فيه قصيدة على الغراب الصاقسي في الأسطول الذي أنشأه على الثانى الحسيني، وفيها يقول<sup>(٤)</sup>:

بَشَارُ فِي الْإِسْلَامِ زَادَ بِهَا عِزًا  
وَآيَاتُ نَصْرِ نُورُهَا يُدْهِبُ الْعَجْزًا  
سَوَابِحُ فَلَّكِ الْمَعَانِمِ أَنْشَتَ  
يَسَابِقُ أَفْلَاكَ السَّمَا جَرَبِهَا وَخَرَا  
يَنْهُوزُ بِأَجْرٍ مِنْ عَلَاهَا وَمُفْنِرٌ  
إِذَا ضَرَبُوا فِي الْبَحْرِ أَوْ رَكِبُوا غُزًا<sup>(٥)</sup>  
إِذَا لَقَيَ الْإِسْلَامَ كَفُرًا تَرَى بِهَا جَمِيعَ الْبَدَا أَشْرَى وَأَعْنَافُهُمْ حَرَا

والقصيدة توج بحماسة ملتهبة، فالأساطول وسفنه يترى للإسلام وأيات نصر مجده، وإن السفن لتسابق أخلاق السباء في جريها حتى لا يمكن أن يفلت منها المدو، وحق إذا لقيته أصبح كل أفراده إما أسرى وإما مذبوحين ذبحاً، فهم بين أسير وقتل، وكان يعاصر على الغراب الأمير على الثانى الحسيني قوله في الفخر شعر بديع وسنخذه بكلمة، ومن أنشد لهم الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب أشعاراً في الفخر ابن سعيد الحجرى ومحودة بن عبد العزيز.

وإذا تركنا الفخر إلى المجاهد لم نجد ابن رشيق ولا من جاءوا بعده يتسعون في الكتابة عن هذا الفن، إما لأن أهل الإقليم لم يكونوا يعيجون به، وإما لأن الشعراء أنفسهم لم يكونوا يعيشون له كما كان يعيش بعض الشعراء في العراق وفق الشام ومصر، ومع ذلك فقد توقف ابن

(٤) بجمل تاريخ الأدب التونسي ص ٢٤١. الأدب

التونسي في المهد الحسيني ص ١٠٢.

(٥) غُزًا: غزاة.

(١) بجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٨٨.

(٢) التخيب: الجبان.

(٣) لغريبه: بلسانيه. هام الكماه: رموس التجمان.

رشيق عند شاعر يسمى بكر بن عل الصابوني، وقال إنه كان صاحب نوادر وهجاء خبيث، ولم يكدر يلم من هجائه إلا بأمثلة قليلة كان يسف فيها إسقافاً شديداً، ونجد عند بعض هجائه هجاء للفقهاء كالشأن في الأندلس من مثل قول أبي طالب الدلائلي<sup>(١)</sup> :

لَا تَكُنْ مِثْلَ مَعْشِرِ فَقَهَاءٍ جَعَلُوا الْعِلْمَ لِلدرَامَ حَمِيدًا  
طَلَبُوهُ فَصَيَّرُوهُ مَقَاشًا ثُمَّ كَادُوا بِهِ الْبَرِيَّةَ كَيْدًا

وق ظنتنا أن أحد الأسباب في انصراف الناس بتونس وغيرها من البلاد المغربية إلى التصوفة أن وجودهم زهادا في كل ما يهد الحكام من أموال فاطحناها إليهم، وما ساقه ابن رشيق في أغواذه قوله بعض المجانين في أحد الكتاب<sup>(٢)</sup> :

وَكَاتِبٌ يَتَسْخَنُ مَا يَنْسَخُ جَمِيعُ مَا يَكْبَهُ يَفْسَخُ  
جِزْرَتُ فَلَا أُدْرِي أَثْوَابَهُ أَمْ عِرْضُهُ أَمْ جِهَرَهُ أَوْسَخُ

وقد عم الوساخة في حبر الكاتب وعرضه وأنواعه، وبذلك لسعه لسعا شديداً، وأكثر منه لسعا وإيلاما ما قيل في مصلوب، وهو قول قرهب الخزاعي، ويبدو أنه صلب معه آخرون بنفس تهمة المروق عن الدين<sup>(٣)</sup> :

مَا رَاقَبَ اللَّهُ فِي عِرْضِ النَّبِيِّ وَلَا  
مُرَدَّتُمْ فَلَقِيتُمْ بَطْشَ مُقْتَدِيرٍ وَتَلَكَ سُنْتَهُ فِي كُلِّ مَرَدَا

فهو - وأصحابه - مارقون ملحدون، يستحقون ما نزل بهم من عقاب أليم، وتتفجح حدة الهجاء في زمن الدولة المغربية ويعود إلى الاشتغال في عصر الدولة المسيحية، وخير من يمثله محمد الرشيد المسيحي في هجاء ابن عمه على الأول وبيان عقوبة لعمه ونبه للحكم منه ومن إخوته، وظل يكرر ذلك طويلا في مثل قوله<sup>(٤)</sup> :

إِسْتَأْصَلَ النَّاسُ نَهِيَا وَاسْتَبَاهَ نَهَا  
نَهَى عَلَيْنَا وَأَهْلَيْنَا وَشَتَّتَنَا  
قَدْ عَقَ وَالَّذِي وَالْمُمْ يَا عَجَبًا

(٤) ديوان محمد الرشيد ص ٦٤ وانظر الأدب التونسي في العهد المسيحي ص ٦٩.

(١) الأنفوذج لابن رشيق ص ١١٨.

(٢) الأنفوذج ص ٢٤٩.

(٣) الأنفوذج ص ٣٢٩.

وهو يتجه بظلمه وعسفه واستباحة أموال الناس ودمائهم وتشتيته له والأخوهه وفرارهم منه إلى الجزائر، مع عقوق ضخم لأبيه ولعمه الحسين وابن عمّه، بل لقد ظل يوقد المرب حق نصر افة الشاعر وعاد إلى صولجان حكمه. وحرى أن تتوقف الآن قليلاً لنخصه ونخصص تيم بن المعز بكلمة.

### تيم<sup>(١)</sup> بن المعز الصنهاجي

كانت الدولة الصنهاجية تنسب نفسها وقبيلتها إلى حمير، وهو أثر من آثار التعرب الذي أحدثته الزحفة الملالية في قبائل البربر، إذ انتسب كل قبيلة إلى قبيلة عربية وخاصة القبائل العربية الجنوبية، ولد تيم لأبيه المعز بصيرة (المتصورية) سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م وعن أبيه تيم وتنصيفه عنابة واسعة، ولما بلغ سن الثالثة والعشرين فوض إلى حكم المهدية، ولم تلبث الزحفة الملالية أن قدمت إلى القيروان بدعاة من المعز لاستعانته بهم في حرب أبناء عمّه بني حاد أصحاب الكلمة النسوية إليهم في الجزائر، ونصحه تيم أن لا يفعل ذلك ولكنه لم يستمع إلى نصحه فقدمو القيروان والإقليم التونسي وخرّبوا كل ما نزلوا به، ولم يجد المعز بدا من أن يلجم سلطانه بها وظل ينازل بني هلال مراراً إلى أن توفي سنة ٥٠١ عن تسع وسبعين سنة. واتتجه شعراء الأندلس والمغرب والشام فأجزل لهم العطاء سوى من كان ينتحجه من شعراء الإقليم التونسي أمثال أبي الحسين بن خصيّب وأبي عبد الله محمد بن علي الفقهي وأبي الحسن على بن محمد المداد، ومن مدحه من شعراء أبيه ابن شرف وعبد الكريم بن فضال وابن رشيق ومرّ بنا مدحه له. وكان مع شاعريته الفذة نادقاً مجيداً للشعر، قال ابن الأبار: كان يعرض الشعراء وينتقد عليهم ألفاظهم، ويدرك أن شاعراً أنشده في وقت هرج:

تَبَتْ لَا يُخَاسِرُكَ اضْطَرَابُ إِلَيْكَ تَدْ أَعْيَهَا الرِّقَابُ

فقال له: أرأيتني - وبحكم - طرت خفة ورميت بنفسك من علو هذا القصر قلقاً واضطراباً، وسُكّته ولم يسمع من قصيده سوى هذا البيت. وروى له شعر كثير، من ذلك قوله يحيى بن بعض القبائل لمنازلة الأعداء:

أَمَا فِيكُمْ بِشَأْرٍ مُشْتَقْلٍ  
فَمَا كَانَتْ أَوَانِلَكُمْ ثُدْلُ

مَتَ كَانَتْ دَمَازُكُمْ تُطَلَّ  
أَغَانِيْمْ نَمْ سَالِمْ إِنْ فَشَلَمْ

الأعلام ٧٣/٢ ويحمل تاريخ الأدب التونسي ١٥٩/٦ وابن خلkan ٣٠٤/١ ص ١٦٨.

(١) انظر في ترجمة تيم الحلقة السابعة ٢١/٢ وابن خليلون ١٥٩/٦ وابن خلkan ٣٠٤/١ وأعمال

وَنَمْتُمْ عَنِ طِلَابِ الْمَجْدِ حَتَّىٰ كَانُ الْمَرْءُ فِيمُ مُضْطَجِعٍ  
وَمَا كَسَرْتُمْ فِيهِ الْمَوَالِيٍّ لَا يَمْضِ تَقْلُّ وَلَا تَسْلُ<sup>(١)</sup>

وتعبر سيرورة القبيلة بذكر ثأر الذي يشتمل له الغضب في صدر كل عربي، فالعار كل العار عند العرب أن لا يأخذوا ثأرهم وأن تظل دمائهم وتذهب هدرا دون مناضل عنها يقتسم لها الموت انتقاما. ويضرب للقبيلة على وتران هو الذل، فالعربي الكريم لا يمكن أن يقبل الذل ولا الضيم، فقبل كل شيء عزة النفس، ومن أجلها تحطم الرماح ونقل السيف. ولابد أن القبيلة امتلأت غيظاً وحدنا على أعدائها، واندفعت تطلب ثأرها وتحامى عن كرامتها وعزتها باذلة المهج والأرواح. وينشد متھماً غایة التھمّس:

بَكَرُّ الْمَهْلِ دَامِيَّةُ النَّحْوِ  
وَقَرْعُ الْهَامِ بِالْقُضْبِ الْذَّكُورِ<sup>(٢)</sup>  
لَا قَتْحَمَنِيَا حَرْبًا عَوَانَا  
يَشِيبُ لَهُوا رَأْسُ الْكَبِيرِ<sup>(٣)</sup>  
فَبِمَا الْمَلْكُ فِي شَرْفٍ وَعَزٌّ  
عَلَىٰ التَّاجِ فِي أَعْلَى السُّرُّرِ  
وَإِمَّا الْمَوْتُ بَيْنَ بَخَالِدٍ أَبَدَ الدَّهْوِ<sup>(٤)</sup>

فسيظل تميم يدفع المحتل في موقعه بعد موقعة بعد تلطخت نعورها وصدرها بدماء الأعداء، وسيظل يضرب في رومسهم وأعناقهم بسيوفها الحادة مشتملاً على أعدائه حروباً ضارية يشيب لهمها كل من يراها، ويقول إنه لن يغادر ساحة هذا الشرف والعز، فيما يحيى الناج على رأسه ويصونه، وإن الموت الزؤام بين الرماح والسيوف، أو بعبارة أخرى إما حياة شريفة عزيزة، وإما موته أيضاً شريفاً عزيزاً، موته الأبطال الكرام. ومن طريق ما نتعمم في همام منافق:

رَأَيْتَكَ قَاعِدَا عَنْ كُلِّ خَيْرٍ  
وَأَطْسَوْرَ لَهَا لَطْفَ دِجْنَقٍ  
وَقَدْ يَمْدُّ الْوَعْدَ وَلَيْسَ يُوْفِنَ  
كَخْرُ الْمَاهِ فَوْقَ الْمَاهِ طَافِ  
كَذَلِكَ زَمَرَةُ الدُّفْلِيِّ تَرَاهَا  
وَأَنْتَ الشَّهْمُ فِي قَالَا وَقَلْتُ  
وَالْفَاطِلُ تَنْمُقَهَا وَسَنَتُ  
وَلَيْسَ بِمَقْائِلِيِّ يَوْمَا فَعَلْتُ  
بِيَرْوَقُ وَسَالِهِ أَصْلُ وَنَبْتُ<sup>(٥)</sup>  
تَشْوِقُ الْقَيْنَ حَسْنَا وَهِيَ سُخْتُ<sup>(٦)</sup>

(١) ظبا: جمع ظبة: حد الربيع القاطع.

(٢) خز الماه: الطحلب.

(٣) المرب العوان: المرب المكرة مرة بعد الكريه.

(٤) العوال: الرماح. يمض: سيف.

(٥) القض الذكور: السيوف الحادة القاتمة.

(٦) أخرى.

وهو بصورة يقعد عن كل خير، ويبارد بكلام فيه حنق ولطف وتسقى دون أن تكون فيه فائدة وإذا أخذت ولم يوف بوعده، ولا خير عنده ولا غناه فيه كالمغز الذى ينسجه الماء أحياناً على سطحه يررق النظر ولا أصل له، بل كزهرة الدفل الحمراء تشق العين ولا رائحة لها ولا عطر تشره حوها

### محمد<sup>(١)</sup> الرشيد الحسيني

من أهم ما يميز الحكم العثماني في عهد الدولة المسيحية التي امتد حكمها منذ سنة ١١٧٠ـ ١٧٥٠ للهجرة/ الميلاد أن حسين بن علي مؤسساًها مع أنه كان تركي الأصل كان تونسي المولد والنشأة وللهفة فأخذ يعني بمقاييس التونسيين هو وجميع أفراد أسرته كما عنوا بالحركة العلمية في جامع الزيتونة وفيها أنشئوا من مدارس كبيرة، وعنوا أيضاً بالحركة الأدبية فضموا إليهم كثيراً من الشعراء وأغدقوا عليهم الأموال والرواتب، وشاركوا بأنفسهم في الحركتين العلمية والأدبية، وقد اشتهر على<sup>\*</sup> الأول بشرح له على كتاب التسهيل لابن مالك كما اشتهر على الثاني بدارسته صحيح البخاري غير تعمقه في النحو والفقه وأصول الدين والبيان كما تشهد مданع الغراب الصفاقي. واشتهر محمد الرشيد الذي استرد حكم تونس له وإلخوته بأنه كان شاعراً فذا كما كان موسيقاً كبيراً، وإليه يرجع فضل ترتيب الأغانى الشعبية التونسية والأندلسية المسماة باسم المأثور، وله ديوان شعر، ونراه فيه أيام غربته بالجزائر يفتخر بتونس وما نشر فيها أبوه من العلوم والأداب بمثل قوله عن تونس ويسماها باسمها القديم: ترشيش:

أقمنا يقدّر الجهد قائم شرّينا  
فترشيش أضحي علّمها يتدفقُ  
وجرّت ذيول الفخر عن نظر انها  
فلا الشام يعكيها وما هن جلقُ  
وليس لنا نهلّ عليها معلقُ  
وما في جميع الأرض مصر يفوقها  
أبي الله أن تُنهى ديار أعزّة  
وتَدرُس آثار المعانى وتُتعْنِى<sup>(٢)</sup>

فهو يفخر بأن أبياه أقام في تونس الشريعة وأحيا بها الآداب حق غدت تفاخر الشام وعاصمتها جلق أو دمشق، ويرفعها فوق جميع البلدان العربية، رغم أن ليس فيها كمغر نيل يتذدق، ويقول إناته حفظها وصانها عن أن تتفنى ديارها ورسومها، وتبسم له الدنيا وبعد إلى تونس ويجلس على أريكتها ويشعر بفخر لا يضاهيه فخر ويشد:

(١) انظر في ترجمة محمد الرشيد المشرع الملكي وحمل تاريخ الأدب التونسي ص ٢٣٦.

(٢) تدرس: تعنى.

والتأريخ الباشي والخلاصة الندية للبايجي المسعودي

أَيْشِهْنَا فِي الْمَالِمِينْ قَبِيلُ  
أَرِي الْبَزْ لَا يَأْوِي سُوَى بَيْتِ مَجْدِنَا  
وَإِنْ نَخْنُ سِرْنَا فِي كُمَّةِ جِبْوِشْنَا  
تَكَادُ جِبَالُ الْأَرْضِ مِنْ عَظَمِ بَأْسَنَا

وَتَبَلُّ عَلَانَا مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ  
وَلَا فِي جِمَانَا يَسْتَذَلُّ ذَلِيلُ  
فَلِلْعِيلِ وَقَعَ فِي التَّرْزِ وَصَهْيلُ  
تَذَوْبُ جِبَالِ الْأَرْضِ عَلَى سَطْحِ التَّرْزِ وَتَبِيلُ

وهو يرفع نفسه وأسرته فوق العالمين، فلم يتل أحد مثالوا من العلام والمجده والعز، حق إن أحدا في حاهم لا يمكن أن يصبه أى أذى أو أى ذل. ثم يتحدث عن شجاعته وشجاعة جيوشه وكيف إذا سارت هرت الأرض خيولهم وزلزلتها زلزالا، بل إن الجبال لتکاد تميل أيام بأسمه وتذوب ذوبانا. وهو فخر لا يستغرب من دحر جيوش ابن عمه واسترد حكم أبيه لأسرته سنة ١١٦٩ للهجرة ولم يتمتع بنصره وحكمه طويلا فقد توفى بعد ثلات سنين سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٩م.

## ٥

## شعراء الغزل

لا يکاد شاعر ينظم الشعر إلا وينظم في الغزل بعض أبيات له مصورا فيها حبه إزاء المرأة ومعبرا عن هذه العلاقة الإنسانية الحالية. ويوج كتاب الأنوجوج لابن رشيق بأشعار الغزل والحب، منها الطبيعي الذي يتدفق عن نفس صاحبه في سهولة وطوعية، ومنها المتكلف الذي يصنعه صاحبه صناعة. وأيضا منه المستقل بقطع مفردة، ومنه الذي يوضع تمهيدا لما وراءه من مدح وغير مدح. ولن نستطيع أن نعرض ما في الأنوجوج من طرائف الغزل الكثيرة، ولكننا سنكتفى ببعض ما أنشده لكتار العلماء والشعراء، من أعجب بهم ابن رشيق مثل أبي عبدالقه بن جعفر التميمي المعروف بالقزار المتوفى سنة ٤١٢ وكان لا يبارى في علوم اللغة والنحو والقراءات، ويشيد بجيد شعره وبلغوته فيه بالرفق والدعة أقصى ما يحاوله أهل القدرة على الشعر من توليد المعانى وتوكيد المباني، ويدرك من بديع غزله<sup>(١)</sup>:

أَمَا وَمَحْلُ حَبِّكَ مِنْ فَزَادِي  
وَقَنْبُرُ مَكَانِكَ فِي الْمَكَبِينَ  
لَوْ اِنْبَسْطَ لَنِ الْآسَالُ حَتَّى  
تَعْسِيرُ لِي عَيْنَكَ فِي يَمِينِي  
وَخَطَطُ عَلَيْكَ مِنْ حَنْرِ جَفُونِي  
لَصُنْتِكَ فِي مَكَانِ سَوَادِ عَيْنِي  
فَأَبْلَغُ مِنِكَ غَيَابَاتِ الْأَسَانِي

(١) الأنوجوج من ٣٦٦ وإناء الرواة ٨٤/٣ ويعجم الأدباء ١٧ / وابن حلكان ٣٧٤/٤.

والقطعة طريقة، فهو يريد أن يضع صاحبته في سواد عينه ويخيط عليها جفونه، حق بمحظتها ويصونها ويبلغ منها كل أمانية، ويضع في القطعة قاتلاً إياها يخاف عليها من المخفي وراء الحاط العيون، وإنها كل دنياه. ويشيد ابن رشيق بابن البقال عبد العزيز بن أبي سهل الخشنى التنحوى اللثوى المترقى سنة ٤٠٦ ويقول عنه: «كان شاعراً مطبوعاً يلقى الكلام إلقاًه ويسلك طريق أبي العناية في سهولة الطبع ولطف التركيب وقرب مأخذ الكلام، وينشد من غزله قوله<sup>(١)</sup>:

يا غُصَّنَا غُصَا من الآسِ  
صُورُوكَ اللَّهُ عَلَى صُورَةِ  
أَكْثَرُ مِنْ تَرْدِيدِ أَنفَاسِي  
نَسِيَتْ وُدُّي وَتَنَاسِيَتِي  
وَلِيُّسْ قَلْبِي لَكَ بِالْأَسِّيِّ  
وَلِيُّسْ لِي مَنِّكَ سَوْيَ حَسْرَةَ  
تَجْوَلُ بَيْنَ الشَّوْقِ وَالْيَاسِ.

فচون صاحبته كفنن الآس يتلقى لينا ونعومة، ويعجب أن تكون درة متلائمة وهي من الناس، وقد صورت صورة جميلة كانت أسباب وسواسه واحتلاله عقله، وإن ذكرها لتردد في خاطره أكثر من تردد أنفاسه، وقد نسيت وده وتناسته وليس قلبه لها بالناس، فقد حفرت صورتها فيه حفراً، ولم يبق له منها سوى حسرة تتردد بين الطبع في اللقاء واليأس. ويقول<sup>(٢)</sup>: محمد بن علي الأزدي:

تَرَنُو بِأَجْفَانِ سُكَارَى بِلَا  
سُكُرٍ مِنَ الْعُسْنِ مِرَاضٍ بِمَعْلَحٍ  
نَلَاحٌ مَا بَيْنَ الشَّفِيقِ الْأَقْدَاحِ  
بِمَهْجَنِي أَفْدَى الَّتِي صَمِرْتُ  
وَمَنْ إِذَا رَمَتْ سُلُّوا دَعَا  
قَلْبِي وَلِيٌّ: حِبْهَا لَابِرَاحٍ

فهي ترنو بأجفان كأنها سكري علىة من المحسن وهي صاحب غاية الصحة، وضحت احمررت خداها، وكأنما ومض نثرها المشبه للأفراح في نصاعة بياضه بين ورد الشقيق المتوجه حرة على خذودها. وإنه ليغدقها بهجهته رغم ما أصابت به جسمه من الأقسام، ويقول إذا أراد سلوا عنها نادي قلبه وعقله حبها لا تبرح أبداً. ويقول الأفلاامي محمد بن سلطان شاكيا حبه وألامه فيه<sup>(٣)</sup>:

(١) الأنفوذج ص ١٦٠ وإناء الرواة ٨٤/٢.

(٢) الأنفوذج ص ٤٠١.

(٣) الأنفوذج ص ١.

مُفْلَةٌ إِنْسَانُهَا غَرْقٌ  
وَمَبَابَاتٌ مَضَاعِفَةٌ  
وَحَشْأًا يَسْطُو بِهِ لَهَبٌ  
وَفَتَى أَشْفَى عَلَى جُرُفٍ  
مِنْ هَلَاكٍ مَا بِهِ رَمْقٌ  
فَتَسَعَ أَهْلَ الْحَبَّ وَيَهُمُ  
لَيْتَ أَهْلَ الْحَبَّ مَا خَلَقُوا

والشكوى بدعة، ومن شأنها أن تخنو صاحبته عليه لو سمعتها، ويقول ابن رشيق: «هذه هي الألفاظ العذبة الغزلة الرقيقة التي تلتصق بالقلب وتتعلق بالنفس، وتثيرى مجرى النفس، وهذه هي طريق الحذاق في الغزل خاصة لأن المراد منه استدعاء المعيب واستعطافه برقة الشكوى ولطف المتاب وإظهار الألم والإقرار بالغلبة».

ومرّ بنا في حديثنا عن الغزل بالجزء الخاص من الأندرس أن أدبية متفرقة غفيفة تسمى حدة من مدينة وادي آش كانت تهوى صديقة لها وأنها نظمت فيها مقطوعة غزلية بدعة تصف فيها فنتتها بحسنتها وجاهها، وكانت لها أخت تسمى زينب شاعرة مبدعة، ومن الطريف أنها نجد في أوائل الدولة الخصصية شاعرة من بيت التجانى تسمى زينب بنت إبراهيم التجانى تفتئن بشعر إحدى صواحبها فتقول في وصف حنة وجهه<sup>(١)</sup>:

إِذَا اسْنَدْتَ مِنْهُ عَلَيْهَا كُفْنِنَ أَرَاكِ عَانِقَتَهُ أَرَاقَمَ<sup>(٢)</sup>  
أَنْبَثَ طَوِيلَ فَهُوَ يَسْتُرُ جِسْمَهَا إِذَا نَزَعْتَ عَنَهُ الْمَلَابِسَ أَسْحَمَ<sup>(٣)</sup>  
كَانَ الصَّبَاجَ ارْتَاعَ مِنْ خُوفِ طَالِبٍ بَشَارِ فَالْسَّوَى بِالْدُجْنِ يَنْكُمُ

وهي تتصور ذوات صاحبتها أو ضفاترها كأنها أرقام أو حيات تعانق غصن أراك أو بعبارة أخرى تعانق قامتها الهيئة الرشيقة، وتقول إن شعرها أنيث أو كيف ملتف، وإذا نزع عنه ثيابها بدا سواده على جسدها الأبيض الناصع، حتى لكانه صباح أخذنه الفزع من مطالب بناء، فاختبأ في دُجى هذا الشعر، متخفياً ومتستراً ما استطاع.

ونختار ثلاثة من الشعراء الغزلين من المصور المختلفة غالب عليهم الغزل واشتهروا فيه، وهم على الحمرى في زمن الطوانف وأحمد اللبابى في زمن المخصوصين ومحمد ماضور في زمن المسيسين.

(١) ورقات عن المضاراة العربية [إنgrish] (٢) أرقام: حبات.

(٣) أسم: أسود.

على (١) المصرى

هو علي بن عبد الغنى الفهري المصرى ابن أخت المصرى صاحب زهر الآداب كان كفيفاً، وخلف فيه عنوان الزحفة الملالية على القبروان مرارة شديدة، فول وجهه نحو الأندلس، وتهاداه أمراء الطوائف وخاصة المقابر بن هود أمير سرقسطة، وفيه يقول ابن بسام في كتابه الذخيرة: «كان بحر براعة ورأس صناعة، وزعيم جماعة، طرأ على جزيرة الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه بالقبروان، والأدب يومئذ يألفنا نافق السوق، معمور الطريق، فتهادهه ملوك طوائفها تهادى الرياض التسیم، وتنافسوا فيه تنافس الديار في الأنس المقيم». ولما خلع يوسف بن تاشفين ملوك الطوائف استقر في طنجة يقرئ بها القرآن إلى وفاته سنة ٤٨٨ وكان عالماً فذا بالقراءات وطرقها، ولهم منظومة في قراءة نافع، وكان شاعراً مبدعاً، وله في الشعر ديوان لم يصلنا، ومن رائع غزله قصيدة المرقصة:

باليَلِ الصُّبُّ مَنْ غَدَّ  
رَقَدَ السُّنَّارُ فَلَرَقَّ  
أَسْفَ لِلْبَيْنِ يُرَدَّ  
فِيكَاهُ النُّجُمُ وَرَقَ لَهُ  
مَا يَرْعَاهُ وَيَرْضَهُ  
نَصِيبُتْ عَيْنَاهِ لَهُ شَرِكًا  
فِي النُّسُومِ فَمَرَّ تَصْبِيَّهُ  
يَامَنْ سَفَكَتْ عَيْنَاهِ فَيَمِّي  
وَعَلَى خَدَيْهِ تَسْوِدَهُ  
خَدَّاكَ قَدْ اعْتَرَفَا بِيَمِّي  
فَعَلَامَ جَفُونُكَ تَجَحَّدَهُ  
بِاللَّهِ هَبِّ الْمُشْتَاقَ كَرَى  
فَلَعْلَ خَيْالَكَ يُسْمِدَهُ

والقصيدة طويلة، وبلغ من روتها أنها عارضها من شعراء العرب كثيرون آخرهم شوقى محاولين أن يقتبسوا منها شيئاً من حسنها الموسيقى ومن معاناتها البديعة، وهو يسأل ليل المحبوب عن غد، وهل سيستمر حتى قيام الساعة. وقد نام السماء، أما هو فيسهد أسفه على الفراق وإنه ليبيكى بدموع غزار، حتى ليبكى النجم له، وبينما ماماً آملأ في رؤيته حلماً فلا يراه. ويقول إن عينيها سفكت دمه، وشاهده تورد خديها المترفين به ففيهم جحود جفونها، ويسألاها أن تهبه نوماً لعل طيفها يسعده. والقصيدة تكتظ برقائق بالغة، وهي رقة تشهد له بشاعرية فذة، وما أنشده له ابن بسام:

الرابع ص ٢٤٥ وحمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٥٨.

(١) انظر في ترجمة على المصرى معجم الأدباء ٣٩/١٤ وأبن خلكان ٣٣١/٣ وجذوة المصدى: ٢٩٦ وأبن بشكوال في الصلة والذخيرةقسم

رُدِيْ حُشَائِه عاشِق مهْجورِ  
ذَكْر الفراق فماتَ إِلا شوقه  
وَأَوْلُو الْهَوَى مُوتَى بغير قبورِ  
وَدُعَتْ مَنْ أَهْرَى بل استودعتها  
قلبي ويسِّرْ مدامعِي وزفيرِي  
فِي كُتْبَ يَنْزِجْسَتِينْ جفتُ عليهما نَفْسِي فلمَّا آتَمْ بغير ضميرِي

وهو يسأل صاحبته أن ترد عليه مهجرته، بعد أن هجرته وفارقته، ومحس كأنه مات، وما أهل الموى إلا موقي بغير قبور، ويقول إنه دُعُها بل لقد استودعها قلبها ودموعه وزفيره وحنت عليه فيكت، وهو أن يقبلها وتراجع خوفا عليها من نفسه المار فاكتفى بأن يقبلها سرا في ضميره، وكان يميل إلى الجنس والتلاعيب به حق في الحب وفي القوافي كقوله:

إِنْ كَمْتُ الْمَوْى فَقَدْ صَارْ بِرْيَ عَلَانِيَه  
لِسَقَامِ أَذَانِي وَشَحْوَبِ عَلَانِيَه

فلم تعد هناك فائدة من كتمانه، فقد أصبح سره فيه ذاتها ومعروفا لسقامه وشحوبه الذي علاه، وكان يعرف كيف ينفذ إلى مثل هذا الجنس في قافية البيتين بخفة، مما يدل على قدرة شاعرية بدعة، مع ما يمتاز به شعره من طرافة الأخيلة وحلارة الموسيقى.

### أحد<sup>(١)</sup> الليلاني

هو أحد بن إبراهيم التيسى المشهور باسم الليلاني نسبة إلى قرية تسمى لليلانية بالقرب من المهدية، وقد نهل من حلقات شيوخها وأعلام أدبائها. وفتحت موهبة الشعرية مبكرة فقادها المهدية إلى تونس، واختلط برجالات الدولة، وطمحت نفسه إلى الثراء، فعمل في التجارة وكون بيته وبين تجار جنوة ومرسيلية علاقات تجارية أخرى منها ثراء طائلة، وأوغر حсадه صدر المستنصر عليه، فكان ذلك سببا في مصادرته وإهدار دمه سنة ١٢٦٩هـ/١٨٥٩م وله أشعار غزلية بدعة، منها قوله:

أَنِّي الَّذِي يَقْضِي بِهِ الْوَجْدُ  
أَعْلَمُ رَبِيعَ حَبِيبِهِ تَبَدُّلُ  
وَيَذْكُرُ ماضِي عَهْدِهِ فَاشْدُ  
إِنْ عَاقَ عَنْ مَقْصُودِكَ الْبَعْدُ

هَذَا الْمُذَبِّبُ وَهَذِهِ تَبَدُّلُ  
مَا هَكُذا حَالُ الْمُحِبِّ إِذَا  
سَرُّخَ دَمْوَعُ الْعَيْنِ مُبْتَدِرًا  
وَالْأَنْمَى عَلَى شَغْفِ مَوَاطِنِهِمْ

(١) انظر في ترجمة الليلاني المجلل السنديسة ٥٠١٢

وبحمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٩٥.

## ولعل مانرجو تجود به كف الزمان وشيم الجد

وهو يعجب فيه ديار المحبوبة: العذيب ونجد، وهو لا يزال يبكي، وأن له أن يكف عن بكائه، فتلك أعلام ربع محبوته تبكي، فحق له أن يسرع دموع العين ويشنو بذكر الماضي من عهد الأحبة، بل إنه ليدعو المحب إلى لتم مواطئه أقدامهم إن عاقه عنهم البعد ولم يستطع سريعاً لقائهم، ويأمل أن تعود له كف الزمان بأمنيته ويساعده الحظ في نيلها. ويقول متغزاً:

خلياني يا صاحبي ونجدا هيجثنا بالسلام شوفاً ووجدا  
فلينجدي بين الجوانح وَّ مستبعد مادام ربما لسعدي  
لأنقولوا سرام سعدي بعيداً رب سفدي أني فقرب بعضاً  
أهل ودى ما حلت عن حفظ عهدي وهوأكم ماغير التائى عهداً<sup>(١)</sup>

وهو يطلب إلى صاحبيه أن يدعاه ونجداً ويكتأً عن لومها فإنه كالربيع تزيد نار زده المستكنة بين جوانحه اشتعمالاً بتعلقه بسعدي، ولا تقولا إن ربع سعدي بعيد، فرب سعد حدث قرب الربيع والديبار، ويلتفت إلى سعدي قائلاً لها إنه لا يزال على العهد ويقسم لها بحبها ما غير العياد له عهداً ولا حباً. ويلومه عنده في تعلقه بمحبوبته تعلقاً مسراً، فيقول له:

رُدْ لِ قلبي لتعذله فهو في كُفَيْه أَجْمَعَه  
لمنظمه دُرْ يُساقطه ونطاق السُّمْع يجمعه

فقلبه ليس معه ليعدله، بل هو مع صاحبته، وإنه ليتزامن له جال لفظها وهي تنشره درراً ونطاق سمعه يجمعها درراً وراء درراً. ولعل في ذلك كله ما يصور افتتانه في غزله ورقته.

## محمد<sup>(٢)</sup> ماضور

من أسرة فاضلة من الأسر الأندلسية التي نزلت الإقليم التونسي في القرن الحادى عشر المجرى واستقرت ببلدة سليمان، منشأة فيها كثيراً من البستانين وحقول المحبوب المتعددة، وولد بتلك البلدة محمد لأبيه محمد ماضور أحد علمانها الأفاضل سنة ١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م وفيها منشأة مرباه على أبيه وعلمانها حق إذا أصبح شاباً تحول إلى تونس وجماعتها الزيتونية، فنهل من حلقات علمانها، وأعجبهم فيه ذكاؤه، فأستدروا إليه - حين استكمل دراسته - للدرس للطلاب بتلك الجامعة، وعاد إلى بلدته «سليمان» إماماً وخطيباً يجتمعها، حق إذا توفى أبوه حل محله في

(١) حلت: تغيرت. التائى: البعد.

الأدب التونسي ص ٢٦١ والأدب التونسي في

المهد المسيحي للهادى النزى ص ١٠٤.

(٢) انظر في ترجمة محمد ماضور بجمل تاريخ

منصب القضاء ببلدته، وظل يليه إلى وفاته سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١١ م.

وكانت موهبة محمد ماضور الشعرية قد تفتحت مبكرة، فُعرف بين الشعراء والأدباء برقه أشعاره، وقد خلف ديواناً لا يزال مخطوطاً، ومعظمها غزل ينبع عن حس مرهف، من مثل قوله:

إلى كم تجسّر ولا تنصف  
وتهجّر فيها ولا تعطف  
وحتى متى الهجر لا ينقضي  
وأخلف وعدك لا يخلف  
وقد عجل صبرى وشقّ الهوى  
على ديني ريحه تتصف  
وأنسر الهوى لج بي للتوى  
وقلبي بنيرانه يسرجف<sup>(١)</sup>  
ولب سها واصطبار وَهَى  
وشوق تهَى القلب لا يُقرَفُ

وهو يقول إن صاحبته نظمه ولا تتصفه فدانياً تهجره ودانياً تختلف وعدها له، حتى نجد صبره، وشوقه يتقدّ في فزاده وإنه لأسيير الهوى ويقاد ينتفعه، بينما قلبه يتلذّى بنيرانه، وقد سها به ووهى منه اصطباره، وشوقه لا يزداد. ويقول:

باظبية أسللت في القلب نيرانا  
وخلقشت مع الأشواق حُنارانا  
صبرى ودمى لما حملت من شففي  
هذا تلاشى وهذا صار غدرانا  
يلا شمس حُنْيَنْ تبدّلت في ملاحتها  
ما إن ذكرتُك إلا صرت من طَرِب  
وخلقتني مع الأشواق حُنارانا

فصاحبته أسللت في قلبه نيرانا لاتتفتّ أبداً، وقد تلاشى صبره وذرف الدموع مدراراً حتى ليستحيل غدرانا، ويستعطفها بحسناها أن تقرن به إحساناً إليه ومودة، ويعرف بأنه أصبح من طيب ذكرها موهاً منترياً. ويقول:

شوقى يزيد على طول المدى حُرقا  
قه ذاك **المحيَا نورُ بهجته**  
ياظيبة الإنس رفقاً بالذى عَثِقا  
يُغشى سَنَ القمر السارى إذا اتسقا  
يهواك **لَيْ وقلبي مع جوانحه** كذلك سمعى وطرفى كلما رَمَقا

وهو يقول لصاحبته إن قلبه يزداد مع الزمن حرقاً ولوّعات مضنية، ويتسلل إليها أن ترقق بعاشقها، ويتولاه العجب بجمال وجهها وينغيل كأنما القمر يستمد سناه وضوئه في ليلة اكتماله من نوره البهيج. ويقول لها إن كل ما فيه يهواها، يهواها له وقلبه وجوانحه وسمعه وبصره.

(١) التوى: الملاك.

## الفصل الخامس

### طوانف من الشعراء

١

#### شعراء الغربة والشکوى والعتاب

كان كثير من سكان الإقليم التونسي يرحلون عن ديارهم إما طلباً للكسب وابتغاء الرزق وإما طلباً للعلم وابتغاء التعمق فيه وإما طلباً للجهاد في صقلية أو في الأندلس وابتغاء الاستشهاد في سبيل الله، ومن غادر القبروان إلى مجاهد صاحب دانية في شرق الأندلس (٤٠٥-٤٣٦هـ) للجهاد ضد نصارى الشمال، ابن الصفار السوسي، وحين دخل عليه مدحه بقصيدة يائية حكى في فاتحتها حوار زوجته معه وقولها له: ملن تتركني وتترك أطفالك يقول<sup>(١)</sup>:

بكْتُ وشكْتُ واسترجمتْ وتوجّهْتْ فَظَلَّتْ لها مسترجعاً متباكيَا  
وقالتْ أما تهاكَ أن تذكر النُّؤْيِ نُهْيَ قد نَهَتْ عنك الصَّبَا والتَّصَابِيَا  
ومنْ لصَارِيَ منْ عِيَالِهِ ترَكَهُمْ كُرْغَبِ الْقَطَا يَهْفُونْ طَمَّا وساقِيَا  
ولنْ يَجِدُوا لِلْعِيشِ بعْدَكَ لَذَّةَ ولنْ يَشْرِبُوا منْ بَعْدِكَ الماء صانِيَا  
فَقَلَّتْ لها إِنَّ الذِّي لِيْسَ غَيْرَهُ إِلَّهُ كَفَاهُمْ حَافِظًا وَمُرَاعِيَا

وهو يصور ساعة الوداع لزوجته وصفاره وهي تبكي وتتو奔ج، وهو يبكي، وتنقول له ألم ينهك عقلك الذي طالما نهاك عن الصبا والتصابي. وتستمطنه بصفار في المهد كُرْغَبِ القطا لم ينت بعده ريشهم، ولن يطيب لهم عيش بدونه، غير أن نداء المجهاد كان أقوى من نداء الأطفال فقال لها إن تركتهم لرب الكافى الحافظ الراعى. وكان شباب القبروان وغيرها من مدن تونس لا يزال بعد حفاظه للارتحال إلى المشرق للتهل من أسانتذه في مصر والمحاجز والشام والعراق ولم يكن آباءوهم يقفون حجر عترة في طريقهم بل كانوا يشجعونهم للنبوض بهذه الرحلات العلمية، رغم ما يشعرون به من فقدهم وما يطُرُون في ذلك من شوق وحنين، ومن خير ما يصور ذلك قول على الناسخ يخاطب ابنه وقد سافر إلى مصر وهو صغير السن ابتجاه العلم<sup>(٢)</sup>:

(١) الأنوفج ص ٢٦٦.

(٢) الأنوفج ص ٢٦٦.

ما باتَ منكَ خَلْيَا طُعْنَةً منْ كُوبِ  
حتى تَقْبَلَ بالتفريقِ في عَيْقَى<sup>(١)</sup>  
أَمْسَى بِأَرْضِ الْفَلَّا فَرْدًا بِغَيْرِ أَبِ  
يَا مَنْ لِمَقْتَرِبٍ بِالْكَلْمَنْ  
لِلرَّأْيِ ذَاكَ وَانْ أَمْسَى بِهِ عَطْبَى  
إِنْ لَمْ تَجْزِيْ هَنَى أَعْلَى السَّبْعَةِ الشَّهْبِ  
وَهُوَ يَعْتَبُ عَلَى الدَّهْرِ أَنَّهُ لَا يَبْيَتْ يَوْمًا خَالِيَا مِنْ إِحْدَى كَرْبَهِ وَأَنَّهُ لَمْ يَكْفِ نَوَابَهُ صَرْفَهُ عَنْ  
نَقَاهَةِ حَقِّ تَعْقِيَتِهِ فِي ابْنِهِ الْبَارِ بِهِ فَحَرْمَتِهِ مِنْهُ وَكَانَ أَلْقَتْ بِهِ فِلَّةً دُونَ أَبْ بِرْعَاهِ، وَيَشْعُرُ  
بِفَرَاقِ ابْنِهِ لَهُ كَانَهُ أَمْسَى غَرِيبًا فِي وَطْنِهِ، وَكَانَ مُقْتَرِبًا يَبْكِي بِدَمْوعِ غَزَارِ مُقْتَرِبًا، وَيَتَمَسَّكُ  
الْأَبُ، أَمَّا فَلَذَّةُ كَبَدِهِ، فَيَقُولُ لَهُ إِنْ رَأَيْكَ فِي الرَّحْلَةِ هُوَ الصَّوَابُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ عَطْبَى وَتَلْفَى،  
وَيَضْعِمُ نَصْبُ عَيْنِهِ طَمْوَحَ الْمَاهِلِ، فَالْمَلِيَّةُ لَا تَعْجَبُهُ وَلَا تَرْضِيهِ إِلَّا إِذَا تَمَدَّتْ بِهِ أَعْلَى الشَّهْبِ  
السِّيَارَةُ السَّاطِعَةُ. وَيَعْلَقُ ابْنُ رَشِيقٍ عَلَى أَبْيَاتِ هَذَا الشَّاعِرِ فَيَقُولُ: «هَذَا كَلَامٌ يَظْهُرُ عَلَيْهِ  
التَّوْجِعُ وَالتَّفَجُعُ، وَتَشْوِهُ رَأْفَةُ الإِشْفَاقِ، وَرَقَّةُ الْأَشْتِيَاقِ، حَقِّ تَدْرُّ عَلَيْهِ الْجَفْوُنُ بِحَلْبِ الشَّنُونِ  
(الدَّمْوعِ). وَلَيْسَ يَخْفِي عَلَى أَحَدٍ مِنْ يَعْرِفُ الْكَلَامَ حَسْنُ هَذَا التَّخْرِيجِ وَالتَّلَطُّفِ فِي الْاعْتِذَارِ  
عَلَيْهِ فَعْلُ الْفَلَامِ. وَإِنْ هَذَا الشِّعْرُ لِيَهُونَ رِزْنَةً مِنْ أَصْبَاهِ مِثْلِ هَذَا الْمَاصَابِ فِي وَلَدِهِ، حَقِّ يَسْهُلُ  
عَلَى الْآبَاءِ فَقْدَ الْأَبْنَاءِ وَيَجْسُرُ الْفَلَمَانَ عَلَى مَفَارِقَةِ الْأُطْوَانِ». وَمِنْ تَلْهُوْنَ عَلَى وَطْبِهِمْ تَلْهُوْنَ  
شَدِيدًا زَمْنَ الدُّولَةِ الصَّنْجَاجِيَّةِ ابْنِ عَبْدُونَ الْوَرَاقِ السُّوسِيِّ، وَسَخَّنَهُ بِكَلْمَةٍ. وَلَعْلَى الْحَصْرِيِّ  
الشَّاعِرُ الْمَبْدِعُ قَطْمَةً يَتَشَرَّقُ فِيهَا إِلَى الْقِيرَوانِ وَتُونِسِ حِينَ إِقَامَتِهِ بِالْأَنْدَلُسِ، وَهُوَ فِيهَا مَعْزُونٌ  
حَزَنًا شَدِيدًا وَفِيهَا يَقُولُ<sup>(٢)</sup>:

سَلَامُ غَرَبِّ لَا يَشُوبُ فَيْزَدَارُ  
لَمْنَ بَاتَ مَثْلِي لَا حَبِيبُ لَا جَارُ  
فَقْدَ مَرِضَتْ لِلْقِيرَوانِينَ أَبْصَارُ  
وَكَيفَ غَنَّاءُ الطَّيْرِ فِي غَيْرِ آيَكَاهَا  
أَلَا يَا بِرْوَقًا لُعْنَ مِنْ نَحْوِ صَبَرَةِ  
عَسَى فِيكَ مِنْ مَاءِ الْعَنَيْنَ شَرْبَةَ  
وَهُوَ يَعْجِيْ العَدْوَةِ الْقُصُوْيِ: الْقِيرَوانِ وَدِيَارَهَا وَيَصْرُحُ بِأَنَّهُ يَانِسَ مِنَ الْعُودَةِ بَعْدَ أَنْ أَنْزَلَهَا

(٢) الذِّكْرَ ٤/٢٦٠.

(١) صَرْفَكَ: نَوَابَكَ وَحَدَّتَكَ.

أعراب سليم وهلال الدمار، وإنه ليكى بكاء لا ينقطع للوطن وما صار إليه من الوحدة الوحشة فلا حبيب ولا جار، ويدعو للقبر وانين: القبر وان وتونس أو القبر وان وصبرة المذكورة في الأبيات وكانت بلدة كبيرة قرية منها، يدعو لها أن يزايدها ما غشى الأنصار فيها من مرض المدم والتغريب، ويعجب أن تقف الطير في غير أيكها وقد بعثت عنها أو كارها وفراحتها الصغار، إنه وأمثاله من شعرا العدة القصوى لا يستطيعون الفتنة إلا أن يكون بكاء وأنينا، وتلوح له بروق من نحو صبرة وهي بروق خلب، ليس فيها أمطار إلا دموعه، ويتنفس جرعة ماء من حنيات تونس ولو قدر ما يحمل منقار طير من الماء حتى يشفى به أو صاب نفسه وفؤاده. ويقول الشاعر المفضي ابن عُرْبَيْةَ يتشوق إلى المهدية وأهله <sup>(١)</sup>:

أَفُولُ لِرَبِّ قَافِلٍ عَنْ مَعْرُسٍ  
إِجْمَعَةَ تَرْبِيَّةِ الْحَمْوَلِ مَتَاجِدَةَ  
لَكَ اللَّهُ أَتَيْنَا عَنِ الْبَلَدِ الَّذِي  
أَكَابِرُهُ أَسْلَافُنَا وَأَسَالْجُهُ  
وَعَنْ وَطْنٍ لَوْلَا الْعَلَا وَطِلَابُهَا  
لَعْزٌ عَلَى مَنْوَى أَنَّى خَارِجَهُ  
وَشَاطِئَهُ أَنَّى تَسْوَعُ حَسْنَهُ  
وَخَضْرِيهُ أَنَّى تَدْفَعُ مَانِجَهُ  
سَلَامٌ عَلَى الْمُهَدِّيَيْنِ فَفِيهِمَا  
أَبْ بَنَتْ عَنْهُ قَاسِرُ الْخَطْرِ هَادِجَهُ<sup>(٢)</sup>

وهو يقول لركب راجع من منزله آخر الليل بجمة جارة المهدية، وبفاله تضرب الأرض بعواجرها لنقل ما تحمله: لك اقه أخبرنا وأمعتنا عن البلد الذي يتميز رجاله ببلج وجههم وطلقاتها وبشرها، وحدثنا عن هذا الوطن الذي اضطررتنا إلى تركه في طلب الملا وعن شاطئه المتوع الحسن وخضرمه أو بحره الذي تتداعف أمواجه. وهدى المهدية وأختها (صبرة) سلام، ففيها أبوه الذي تركه واهن العظم فاصر الخطوط يتهدج في مشيه مرتعنا، وإنه ليمثل عليه برا وشفقة. ويقول حودة بن عبد العزيز أحد رجالات الدولة الحسينية المتوفى سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م متशوقا في الغربة إلى أهله بتونس <sup>(٣)</sup>:

فَبَعْدَكُمْ لَيْسَ لِي فِي الْعِيشِ مِنْ أُرْبَبِ  
عَهْدِهِمْ مِنْتَهِي الْآمَالِ وَالْتَّلْبِ  
أَشَابَتِ الرَّأْسَ مِنِي وَهُنَّ لَمْ تَشِبِّ  
أَقْتَ عَصَاهَا لِيَنَا لَاقْتَ مِنَ التَّصِّ

مَلَكُتُ دَهْرِي وَمِلْتَنِي حَوَادِثُهُ  
لَهُنَّى عَلَى زَمَنِ لَابْلِ عَلَى سَكَنِ  
كَمْ لَيْلَةً بَعْدَهُمْ قَدْ بَتْ أَسَهْرُهُمْ  
كَانُ أَفْلَاكُهَا مِنْ طَوْلِ مَا انْقَلَبَتْ

(١) الملل السنديبة ٥٠٥/٢ ويحمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٩٧.

(٢) أبهجه جع أبهج: الناظر وجده بشرا.

(٣) المداد: الماشي متألقا في ضعف وارتعاش.

(٤) بحفل تاريخ الأدب التونسي ص ٢٥٨.

وهو يقول إنه ملُّ دهره وما تقلب فيه من أحداث السياسة حق لم يهد له بعد أهله في العيش من أرب. ويدرك أيام أن كان يقضى زمنه مع أهله وهم كل مناه من دنياه، وقد أصبح بعدهم يعيش مسهدماً مفكراً فيها بلته به الليالي، ويتخيل كأن أفلالكها من طول ما سارت أفت عصاماً واستراحة لا تبرح ولا ترير لشدة ما عانت من التعب والمشقة. وحرى بي في ختام حديثي عن الغربة وتشوق القيرانيين والتونسيين فيها إلى ديارهم أن أشير إلى أنهم كثيراً ما تشوقوا إلى الديار التي بارحوها إلى وطنهم، ومن أهم الأقطار التي كانت غالباً نفوسهم بها صابحة بما قطعوا بها فيها وبيناظرها الطبيعية الفاتنة مصر، وكان الكاتب الرقيق الذي مرت ترجمته كثيراً ما يكلمه حكام الدولة الصنهاجية بسفارات إليها، وله رائبة يتشوق فيها إليها وإليها وأسماكها أشاد بها ياقوت في ترجمته، وأهم منها تصيدة لأبي الفضل يوسف بن محمد المعروف باسم ابن النحوى، وكان قد حج، وفي رجوعه افتن بمصر وبنيلها وطبعتها فنظم تلك القصيدة يصور شوقيه إلى ديارها ومشاهدتها الفاتنة وفيها يقول<sup>(١)</sup>:

حَدَّثَنِي عَنْ نَبِيلِ مَصْرَ إِلَى الْمَاءِ حَادِي  
وَالرِّيَاضِ الَّتِي عَلَى جَانِبِهِ  
وَاجْعَلَاهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ زَادِي  
إِنْ مَصْرًا هَا مَعَانِ لَعْنَى  
قَدْ تَأْتَى عَلَى جَمِيعِ الْبِلَادِ  
هَذِهِ الْأَرْضُ إِنَّا هِي نَادِي  
مَصْرُ مِنْ بَيْنِهَا سَرَاجُ النَّادِي

وهو منذ فارق مصر وبنيلها الكوثر - كما يقول شوقي - ظانِّه إلى جرعة ما منها، وقد خلبته رياضها وورودها ورياحيتها، ويقول إن مصر حظيت بمعان ومشاهد لم تحظ بها سائر البلاد، ويتصور المعمورة جميعها نادياً ومصر سراج النادي. وهي خيبة كرية لمصر من تونسي يوثق العلاقة بين الشعبين من قديم.

وتذكر الشكوى على ألسنة القيرانيين والتونسيين، مثلهم في ذلك مثل إداتهم من شعراً الأقاليم العربية، فهم يشكرون منهم من الدهر وما يصيّبهم من بلاته وأرزانه، ويشكون من الإخوان أنانياً لهم وعدم وفائهم، ومن طريف شكاوهم من الدهر وصروفه ونوابه قول إبراهيم الحصري صاحب «زهر الآداب» وغيره من التأليف الرائعة والتصانيف الفاتحة كما يقول ابن<sup>(٢)</sup> بسام:

تَلَاهَظَنِي مُرْوُفُ النَّهْرُ شَزَداً  
كَانَ عَلَى لِلَّادِيَامِ وِتْرَا  
وَفِي قَلْيَ صُدُوعٍ لِيَسْ تَرْفَا<sup>(٣)</sup>

(٢) الذخيرة القدس الرابع ص ٥٩٦.

(٣) رقا النعم: جف بعد جربانه.

(١) المريدة (قسم شراء المغرب - طبع تونس)

.٣٢٥/١

أَلْتُبُ فِي الدُّجَى طَرْفًا كُلِّيًّا  
إِذَا جَهِبَ السَّلَامُ عَلَى زُرُّ  
وَلَوْنَشَرَ الَّذِي أُطْوَى عَلَيْهِ  
أَصْمَ مِسَامَعَ الدُّنْيَا عَوِيلًا  
وَهَرَّ جِوانَحَ الْأَيَّامَ ذُغْرَا

وهو يشكوك شكوى مرة من صروف النهر وكيف أنها تنظر إليه غاضبة كأن لها عنده ثأراً وما تزال التواب تنزل به وما تزال دموعه لا تجف أبداً، وقد تصدع قلبها، ولا يبرأ من صدوعه أبداً، وأف للليل، فإنه لا يزال مسهدًا فيه كلما زر عليه رداء الظلام، ويقول إن ما يطوي عليه من المuros لو وزع على جميع من تحتوهم الأرض من الأنام لأصموا مسامع الدنيا عويلاً وأنينا وطزوا ضلوع الأيام ذعراً وفزعاً ما بعده فزع، ويقول تميم بن العز شاكياً من الزمان وأرزاها<sup>(١)</sup>:

أَلْقَى مِنَ الْأَرْزَاهِ وَهُوَ جَلِيلٌ  
شَبَّا السَّيْفَ عَصْبُ الشُّفَرَتِينَ صَقِيلٌ<sup>(٢)</sup>  
وَتَسْخُونَ بِمَا فِي نَفْسِهِ لَجَهُولٌ  
عَذَابِيَّ أَنْ أَشْكُو إِلَى النَّاسِ أَنِّي عَلِيلٌ

وَذِي عَجَبٍ مِنْ طَوْلِ صَبْرِيِّ عَلَى الَّذِي  
يَقُولُونَ مَا تَشْكُو فَقْلَتْ مُنْتَ شَكَا  
وَانْ امْرَأًا يَشْكُو إِلَى غَيْرِ نَافِعٍ  
عَذَابِيَّ أَنْ أَشْكُو إِلَى النَّاسِ أَنِّي

وهو يقول إن الناس يتعجبون من طول صبرى على ما يصيبين من الرزايا والمصابات الطيبة، ويسألونني مم تشكوك، وأجبتهم هل يشكوك حد السيف القاطع، ولمن أشكوك إن من يشكوك إلى من لا يستطيع نفسه ويسير إليه بما في نفسه دون فائدة بل هو بالناس وحقائقهم، وإنه ليعدني أن أشكوك إلى الناس أتفى عليه ومن أشكوك إليه مثل عليه ويقول ابن خلدون في شكوى الزمان<sup>(٣)</sup>:

مُرَادِي وَلَمْ تُطِعْ الْقِيَادَ ذَلِولُ  
زَمَانَ بِنَيْلِ الْمَطَلُوتَ بِخَيْلٍ<sup>(٤)</sup>  
فَفِي كَبْدِي مِنْ وَقْعِهِنَّ فُلُولُ  
تَكَادُ لَهُ صُمُّ الصَّلَادَ تَزُولَ<sup>(٥)</sup>

إِلَى مَ مَقَامِ حِيثُ لَمْ تُرِيدِ الْعَلا  
وَيَنْهَبُ لَى مَا بَيْنَ يَأْسِي وَمَطْعِمِ  
أَمَا لِلْمَالِيَّ أَنْ تَرَدَّ خَطُوبِهَا  
بِرَوْعَنِيَّ عَنْ صِرْفَهَا كُلُّ حَادِثٍ

وحق ابن خلدون يشكوك من أن العلا لا تطييه ما يريد وأنه لا يجد في دنياه ذلولاً تطييه القيادة، ولا يزال بين يأس وطمع أو أمل، والزمان بخيلى عليه بنتل المعال، ويقول أما آن لليل

(١) المجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ١٦٩.

(٢) شبا السيف: حد طرقه. عصب: قاطع.

(٤) المطلوت: المال.

(٥) الصlad: جمع صد: الصخرة الصلبة.

(٢) نفس المصدر ص ٢١٨.

أن ترّد خطوبها وكورانها عنه وإن فلولها وشررها ليتضعن في كبدِه، وإن كثيراً من الأحداث  
لينزل به مما تكاد يتشقق له الصخر الصلب. ويقول ابن سعيد المجري في العهد الحسيني  
المتوفى سنة ١٧٨٥ للميلاد<sup>(١)</sup>:

يلالي من فرط الجوى ليلة العشر  
نهارى سيف سُلْ من حيث لا أُنرى  
خليلى إن الدهر أبدى إسامى  
وماضٌ مثلى أن نلظى بناره  
ويطول على الليل حتى كأنما  
ويزعجنى الإباح حتى كأنما  
وأظهر ما قد كان أَسْرَى من مكرٍ  
وهل ضر ابريزا نلظى بالجمر

فليله يطول عليه من فرط الوجد حق كأنه ليلة العشر، ويزعجه الصباح حق كأنما سيف  
نهاره سُلْ عليه من حيث لا يدرى. ومحاطب صاحبيه، فالدهر قد أظهر ما كان يضر من مكرٍ  
وأساء إليه إسامه بالغة، ويتماسك، ويجمع إرادته، ويسلن أنه لن يضره التلظى بناره، وهل يضر  
الذهب الحالص التلظى بالجمر وليه<sup>(٢)</sup>

وعلى نحو ما أكثر القبرانيون والتونسيون من الشكوى سواه من الدهر أو من الناس  
أكثرها من العتاب وما قد يجر إلىه من الاستعطاف، وها باهان قديمان في الشعر العربي، ومن  
طريف ما للقراز من عتاب لأحد أصدقائه وكان قد أسلم وليمة في ختان لابنه وابن أخيه ولم  
يذعه سهوا<sup>(٣)</sup>:

واحسرتنا مات أترابى وأقرانى  
وشتت الدهر أصحابى وأخدىنى  
وغيرت غير الأيام خالصتى  
والمنتضى العرّ من أهل داخونى  
وصار من كنت فى السراء أذكرة  
بل لست أنساه فى الضّراء ينساني

وهو يتسرّ على أصدقائه جميعاً، إذ غيرت الموادت أخلاقهم وأصفاهم وأعزهم، وصار من  
كان يذكره في السراء ولا ينساه في الضّراء ينساه كأن لم يكن بينهم ود ولا صداقة. ومن طريف  
ما نقرؤه من عتاب في عصر الدولة الصنهاجية عتاب خديجة بنت أسد بن كلثوم الماعفري  
لأخيها، وكانت شاعرة مجيدة وأعجبت بشاعر أندلسى نزل بديارها، وشُبّ بها، فثار لذلك  
إخوتها فكثبت إلى كبيرهم<sup>(٤)</sup>:

أخى الكبير وسيسى ورنى  
ما بآل حطى منك حطٌ نجيس

(١) المجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ١٢٤ والمرية ١/٣٢٧.

(٢) الأنفوذج ص ٢٥٦.

(٣) الأنفوذج ص ٣٦٨.

عندى بطاعة ربِّ القدُّوسِ  
عن ذاتي أبداً لفُرط نُحوسِ  
حقَّ الرئيس الرفق بالمرموسِ  
وإذا رضيت لى الهوان رضيَّه وجعلتْ  
نوبَ الذل خيرَ توسِّ.

أبغِ رضاك بطاعة مقرونية  
 فإذا زلت وجدت حلمك ضيقاً  
 يا سيدى ما هكذا حكم النهى  
 وإذا رضيت لى الهوان رضيَّه

وخدبيجة تعاتب أخيها عتاباً رقيقاً فهو آخرها وسيدةها ورئيسها وتشكو من حظها السيء، مع أنها تهض رضاه وتطيئه طاعتها لربها القدس، فإذا ودت شاعراً وجدت حلمه لا يسع ودها ولا يغفر لها لفُرط نحوسها، وتستعطفه فليس هذا حكم العقل ولا حق المرموس على الرئيس من الرفق، وتحاول أن تغسل قلبها إليها، فإذا كان قد رضي لها الهوان رضيَّه ولم تخلي عنها نوبَ الذل يوماً، والقطعة رقيقة متنهي الرقة، وخديجة بجانب زينب التيجانية الشاعرة التي مر ذكرها في الحديث عن الفزل رمزان قويان لمشاركة نساء القبروان وتونس في الحركة الأبية بالعصور الماضية، ويقول ابن رشيق معاينا<sup>(١)</sup>:

أجدك لم أجد للصبر باباً  
فتدخله على سمية وضيق  
وإن أصبرْ فعن إفراط جهيد  
سأعرض عنك إعراضاً جميلاً  
وألا قال إلا عن سلاقي  
بعيد المهد بالذكرى سحيق

فقد أعتنِ صديقه حق لم يعد يجد للصبر باباً، ومع ذلك إن استطاع يوماً الصبر فمن فرط جهد، وحرى به أن يقلق أشد القلق، ويقول له سأعرض عنك إعراضًا جميلاً، وسألناك بوجه بشوش حين يتصادف اللقاء، وقد بعد المهد بالذكرى بعدها شديداً، ويقول على المُحضرى معاينا بعض خلاته<sup>(٢)</sup>:

وأوذيت حتى لا أرى من أصادق<sup>(٣)</sup>  
يخلُّه لم تُصفُ منه الخلاق<sup>(٤)</sup>  
أنا مذنب أم ليس فيه موافق  
جذاراً ولا آسى على من أفارق  
واني لمن يبغى ودادي لواطن

بترمت بما ألقاه من أوامق  
إذا ما أمرت أصفته الود وانتقا  
فيما ليت شعرى هل إلى الناس كلهم  
فلا أنا مسروّ بن هو واصلى  
واني لمن يبغى انتقامى لقائم

(١) أوامق: أتبادل معه الود.

(٢) الأنفوذج ص ٤٤١.

(٤) خلق: صداقته.

(٢) المجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ١٦٠.

وعلى الم Curse متبرم بأصدقائه لما يلقى من أذاهم، وقد يظن بشخص خيراً فتصفه الود لما رأى من بعض صفاته، حتى إذا اختره وجده أخلاقه كثرة غير صافية، ويعجب هل أساء إلى الناس جميعاً حتى لا يجد بينهم صديقاً مواقفاً، وجعله ذلك لا يُسرّ بن يحاول صداقته ولا يأسى على من ينتقضها نقضاً، ويعود فيقول إنه يتعمق ويغير كل من يحاول انتقاده، وأما من يد له يد الوداد فإنه يصبح واماً له وبعضاً. ويلقانا عتاب عنيف بين وزير المستنصر الحفصي محمد بن أبي الحسين وشيخ قبيلة سليم: عنان بن جابر، وستنحصه بكلمة، ويرسل شاعر العصر الحسيني الأول على الغراب الصفاقسي بقطعة شعرية لمحمد بن كمون يعاتبه لإبطائه في كتابة عقد له<sup>(١)</sup>:

يا أبا عبد الله حُتَّام أَسْعِي  
لَكَ فِيمَا أَرَوْمُ شَهْرًا فَشَهْرًا  
هَلْ لِهَذَا الْوَقْوفِ مِنْكَ وَجْرِي  
غَایَةً يَنْتَهِ لَهَا الْجَرْيُ أُخْرَى  
مَا أَرَى فِي قَضَاءِ مَا رَأَيْتَ عُشْرًا  
وَلَئِنْ كَانَ إِنَّ لِلْقُسْرِ يُشَرِّا  
لَيْتْ شَعْرِي أَفِي وَقْوْفَكَ هَذَا  
طَولَ جَرْيِي نِرْوَمْ أَمْ رَأَيْتَ أَجْرَا

وهو يعتب على الكمون أنه داتم السعي له والإلحاح عليه لا يوماً بعد يوم بل شهرًا بعد شهر ليكتب له العقد، والكمون يسُوفُ ويماطل، ويقول له ليس فيها أربده عشر، وإن كان فإن للسرير يسراً، ويسأله هل تزيد مني طول جري لمزيد من الإلحاح أو تزيد مني مزيدًا من الأجر، وحرى بنا الآن أن نتوقف لنشخص شاعر الغربة ابن عبدون بكلمة، وبالمثل شاعر العتاب الفاضب: ابن أبي الحسين.

ابن<sup>(٢)</sup> عبدون

هو محمد بن عبدون الوراق من أهل مدينة سوسة على ساحل البحار، وبنوه ابن رشيق بشعره قائلاً إنه «شاعر وطيء الكلام، كلف بعنوية اللفظ والتسلل إلى المعنى البعيد ببطافة وسكون جاش». وحدث أن توفيت زوجته وابنته في آن واحد، ففارق بلدته «سوسة» في سنة ٣٩٣ للهجرة ورحل إلى جزيرة صقلية وزنل على أميرها ثقة الدولة يوسف بن عبد الله ومدحه، وكان قد أتى به في الحكم ابنه جعفرًا منذ سنة ٣٨٨ لإصابته بالفالج، فالحقيقة بابنته، فأداته وقربه، غير أنه سرعان ما حُنّ إلى بلده، فرفع إلى جعفر قضيدة يسأله فيها الرجوع إلى وطنه، وصور مدى رغبته في ذلك من خلال تشويهه إلى رؤية قصر طارق وكان رباطاً بغرب سوسة، له

(١) الديوان ص. ٣١٠.  
والحلل السنديسة ٣٠٧/٢ والمجمال في تاريخ الأدب

(٢) انظر في ترجمة ابن عبدون الأنفوذج ص. ٣٩٠.  
التونسي ص. ١٠٨.

برج شديد العلو، وبصور حنيناً متاجعاً في صدره إلى سكانه قائلاً:

يا قصر طارق الذى طرقت  
أحشائى فيه بلايل الصبر  
وأقه ما قصرت عن تل斐  
لكنى قصرت بالنشر  
فسقاك منهـل العبا وسقـى  
غصراً تقضى فىك من عصر  
أعطى عهود اته صفة من  
أعطى العهود بجانب العـبر  
لو أستطيع سـبتـت من طرب  
شوقا إليك سـواـد ذا الـبحر

وهو يهتف بقصر طارق المجاور لمدينته سوسة وما يثير في صدره من شجون، ويقول إنه لم يُقصّر إزاءه عن تلـف وإنما قصر قـسـراً وجـبراً، ويدعـو له ولـأيـامـهـ المـتوـالـىـ فيهـ بالـسـقـيـاـ،ـ وـيـعـاهـدـهـ عـهـدـ حـجـاجـ بـيتـ اللهـ الحـرامـ عـنـدـ الحـجـرـ أوـ الحـطـيمـ بـجاـنـبـ الكـبـةـ المـقـدـسـةـ آـنـهـ لـوـ اـسـتـطـاعـ لـسـعـ الشـوقـ ظـاهـرـةـ عـلـىـ هـذـاـ الشـعـرـ وـلـطـفـ الـحـضـارـةـ معـ مـيـاهـ تـكـادـ تـبـعـ منـ جـانـبـهـ،ـ فـهـوـ أـنـدـىـ منـ الزـهـرـ،ـ غـبـ القـطـرـ،ـ وأـحـلـ مـنـ الـوـصـلـ بـعـدـ الـهـجـرـ،ـ وـلـمـ سـعـ جـعـفـرـ بـنـ نـقـةـ الدـوـلـةـ هـذـهـ الـأـبـاـتـ اـزـدـادـ بـهـ إـعـجـابـاـ وـفـيـ ضـنـانـةـ،ـ فـمـنـهـ مـنـ السـفـرـ،ـ فـكـتـبـ اـبـنـ عـبـدـونـ إـلـىـ أـبـيـ نـقـةـ الدـوـلـةـ يـسـأـلـهـ فـيـاـ سـأـلـ فـيـهـ وـلـهـ،ـ وـيـشـكـرـ لـاـ نـالـهـ لـدـيـهـاـ مـنـ الـجـبـودـ،ـ وـيـشـوـقـ إـلـىـ وـطـنـهـ بـجـسـداـ شـوـقـهـ فـيـ قـصـرـ طـارـقـ قـائـلاـ:

يا قصر طارق هـمـىـ فـيـكـ مـقـصـورـ  
شـوقـ طـلـيقـ وـخـطـوـىـ عـنـكـ مـأـسـورـ  
إـنـ نـامـ جـارـكـ إـنـ سـاـهـرـ أـبـداـ  
أـبـكـىـ عـلـيـكـ وـبـاكـىـ الـبـيـنـ مـعـنـورـ  
عـنـدـىـ مـنـ الـوـجـدـ مـاـ لـوـ فـاضـ مـنـ كـبـدـىـ  
إـلـيـكـ لـاحـتـرـقـتـ مـنـ حـولـكـ الدـوـرـ  
لـاـ هـمـ إـنـ الـجـوـىـ وـالـوـجـدـ قـدـ غـلـبـاـ  
صـبـرـىـ فـكـلـ اـصـطـبـارـىـ فـيـهـماـ زـوـرـ

وهو يبيـتـ قـصـرـ طـارـقـ هـمـهـ وـيـقـولـ لـهـ إـنـ شـوقـىـ لـكـ حـرـ طـلـيقـ وـخـطـوـىـ إـلـيـكـ مـقـيدـ مـأـسـورـ،ـ  
وـإـنـ نـامـ جـارـكـ نـومـاـ هـنـيـناـ فـانـ أـتـجـرـعـ سـهـرـاـ أـبـكـىـ فـيـهـ عـلـيـكـ بـكـاءـ لـاـ يـنـقـطـعـ،ـ وـيـذـكـرـ أـنـ فـيـ  
كـبـدـ مـنـ لـوـاعـجـ الـوـجـدـ وـلـهـيـهـ مـاـ لـوـ فـاضـ عـلـىـ مـاـ حـوـلـ الـقـصـرـ مـنـ الدـوـرـ لـاـ حـتـرـقـتـ جـيـعاـ،ـ  
وـيـفـزـعـ إـلـىـ رـبـهـ فـانـ مـاـ يـحـمـلـ مـنـ الـجـوـىـ وـالـوـجـدـ الـلـتـائـعـ قـدـ غـلـبـاـ صـبـرـهـ،ـ وـلـمـ يـعـدـ يـسـتـطـعـ اـحـتمـالـاـ  
لـهـ،ـ وـمضـىـ فـيـ الـقـصـيـدةـ يـدـحـ نـقـةـ الدـوـلـةـ،ـ وـلـمـ يـجـدـ عـنـدـ اـبـهـ جـعـفـرـ -ـ مـأـمـولـهـ،ـ  
فـاضـطـرـ إـلـىـ أـنـ يـخـرـجـ مـنـ صـلـيـةـ خـفـيـةـ دـوـنـ عـلـمـهـاـ،ـ وـعـادـ إـلـىـ سـوـسـةـ،ـ وـهـاـ توـقـ حـوـالـ سـنـةـ  
٤٠٠ـ هــ/ـ ١٠١ـ مـ،ـ وـيـنـشـدـ لـهـ اـبـنـ رـشـيقـ مـقـطـوـعـةـ بـدـيـعـةـ فـيـ مـلـعـبـ سـوـسـةـ الـرـوـمـانـيـ وـفـيـهاـ يـتـحدـثـ  
عـنـ شـادـوـ وـمـلـكـهـ وـجـبـوـشـهـ،ـ وـيـقـولـ إـنـ الـأـرـضـ ضـمـنـهـ جـيـعاـ:

طحنتهم طحن الرحا فإذا الإن سان والدهر صخراً وزجاج  
فالناس جيماً يطحنون طحن الرحا، بل لأن الدهر صخراً، وهو يطحنهم بل يفتنهم كأنهم  
زجاج لا يعاد له سبك.

### محمد<sup>(١)</sup> بن أبي الحسين

هو أبو عبد الله محمد بن أبي الحسين العنسى كان أحد الرجالات دهام وذكاء، وقربه منه أبو زكريا مؤسس الدولة الخفصة وابنه المستنصر. حق كان كبير رجالاتهم وزرائهم، وكان متفتاً في ضروب العلوم ومتعمقاً في اللغة، وله معجم رتب فيه حكم ابن سيدة على نوح الصاح  
للجوهرى بحسب أواخر الكلم، واختصره في معجم سماء الخلاصة. وكان مع ذلك سيوساً يحسن  
تدبر الدولة الخفصة ويقود جيوشها في المعارك المريمية، وما زال المستنصر حفياً به إلى أن توفى  
سنة ١٢٧١هـ/١٢٧٣م. وكان شاعراً مجيداً. وكان أبو زكريا يقرب منه شيخ القبائل ومن بينهم  
عنان بن جابر زعيم عشائر مرداس من قبيلة بني سليم النازلين في قابس، وكانت له مكانة  
كبيرة عند أبي زكريا وصلات وعواند. ويبدو أنه ظن به وبعشائر المرداسية بعض الظنون فأوقع  
بيتها وبين قبيلة علاق ونشبت بينها معارك. وتتبه عنان بن جابر لصنيعه، فغضب غضباً شديداً،  
ورحل مع عشيرته إلى بني هلال في الجزائر أو المغرب الأوسط، وعرف أبو زكريا خطأه فسأل  
وزيره ابن أبي لح ن أن يكتب إليه مسترضاً، وكان مما تبادل معه ابن أبي الحسين قصيدتان  
رائيتان، وابن أبي الحسين في قصيده يعاتبه في شيء من الدين حيناً وفي شيء من الجفاء حيناً  
آخر، لعله يعود إلى صوابه ويرجع إلى موطنها، وله يقول مستطرداً من التشبيب إلى عناته عناباً  
رفقاً:

يُخْصَّ بِهَا عَنْ عَنَانَ بْنَ جَابِرِ  
فَكَفَ طَوَى كَشْحَانَ عَلَى نَفْسِ غَابِرِ<sup>(٢)</sup>  
بِوَاطْنِ صَنَاعَاهَا بِحَفْظِ الظَّواهِرِ  
نَجَرُّ بِهَا أَذْيَالَنَا جَرُّ سَادِرِ<sup>(٣)</sup>  
عَلَى كُلِّ رِتَابٍ بِخَفَانَ خَادِرِ<sup>(٤)</sup>

فَدُونُكُمْ بِا لِلرِّجَالِ تَحْبِيَّةً  
فَقُّ ما دَعْنَهُ زَلَّةً فَأَجَابَهَا  
وَقَدْ كَانْ بَيْنَ - يَا عَنَانَ - وَبَيْنَكُمْ  
وَفِي كُلِّ عَامٍ كَانْ لِلْجَيْشِ وَقَعَّةً  
تَظَلَّلَنَا الرَّابِيَّاتُ وَهِيَ خَسَوَقُّ

(١) انظر في ترجمة محمد بن أبي الحسين القسم الثالث من كتاب ورقات عن المعاشرة العربية بإفريقية ص ٧٥ وكذلك كتاب المعلم في تاريخ الأدب التونسي ص ١٩٩ ومنها نقتطف بعض أشعار ابن أبي الحسين.

(٢) طوى كشحنا: أضر ناه.

(٣) سادر: لا يهالي بشيء.

(٤) الرباب: الأسد والشجاع الجرىء. خفان: مأسدة. خادر: مقزم.

وهو يخص عنان بن جابر بتحية يستحقها. إذ هو فق عزيز شريف لم يستجب يوما إلى أى زلة تدعوه، وبعجب إذن كيف ول مفاضيا مطروبا على الفدر بدولته، ومحاول أن يجذبه إليه، بما كان بينها من صدقة ومن اشتراك في حرب أعداء الدولة سريا جارين أذيال الخلاة بانتصارتهم غير مبالغين بشئ، والرايات نظلل متحركة أبطال جيشهم بل ليوته التي اندفعت من مأسدة خفاف المقدمة بها تردد أن تلتهم الأعداء التهاما، ويضى ابن أبي الحسين معانينا لعنان:

اذْكُرْكَ الْهَفْدَ الذِّي كَانَ بَيْنَا  
وَكَنْتَ تُعْجِبَ النَّاسَ فِي خَيْرِ دُولَةٍ  
فَأَصْبَحْتَ جَارًا فِي هَلَالٍ بْنَ عَامِرٍ  
وَكَنْتَ كَلْمَثَ الْفَابَ عَزًّا وَمَنْعَةً  
فَصَرَّتْ كَامِلَ الرُّنَالَ التُّوَافِرِ<sup>(١)</sup>  
وَكَنْتَ نَزِيلَ الْمُلْكَ تَجْنِي نَسَارَةً  
أَفَانِينَ مِنْ أَفَانَ رِسَانَ نَاضِرٍ  
وَقَدْ كُنْتَ تَلْقَى الْمَرْ تَحْتَ ظَلَالَهُ

وهو يذكره بما كان بينه وبين رجال الدولة الحفصية من عهد ومبادر، وكأنه نسيها نسيانا تماما، ويقرن حال العز القدية بجابر بما صار إليه، فقد كان يغير الناس وأصبحت قبيلة هلال تغيره، وكان كالأسد عزا ومنعة فصار مثل النعام المترائر في البوادي وكان يعني ألوانا من ثمار ملك وطيد ناضر، وكأنما يحاول أن يؤنسه، فيقول له إنك طالما تنتصت بالعز في ظلال الملك الحفصي وهذا أنت تصطل بالذل في هواجر المغرب الأوسط. ويعود إلى الذين مع عنان فيقول:

عَزِيزٌ عَلَيْنَا - يَا عِنَانَ - ضَلَالَةُ  
فَدِيْتُكَ لَا تَشْرِي الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى  
وَمَا الْعَرَبُ الْقَرْبَاءُ إِلَّا بِعِهْدِهَا  
هَذِهِكَ الْهَوَادِي - يَا عِنَانَ - وَأَنْطَرْتُ

وهو يتلطف له ذاكر أن هجرته بعشائره كانت ضلاله لم يستمع فيها إلى نصيحة ناصح ولا إلى زجر زاجر، ويقدّمه بنفسه أن لا يشتري الضلاله بالهدى ولا المعنى بالبصر وأن يتبع سنن آبائه بالولفاء بالمهد. ويدعو الله أن يهديه وأن يطرى السحاب الغادية أكتاف ديaries بادية وحاضرة. وقد رد عنان بن جابر عليه عنينا بقصيدة تعدد من درر الشعر التونسي، وفيها يذكر أنه لم يبرح موطنه إلا بعد أن ضاقت به الأرض كحلقة خاتم، وبعد أن تبين من أبي ذكري حالا، لا يطيق احتمالها، فهاجر إلى بلدان بني هلال بن عامر لا يعرف أهلها الذل، ويدرك أنه إنما غادر

السب. النرأ : الكتف والمعنى.

(١) الرُّنَال: النعام.

(٢) هذلك الهوادي: يدعو له بالهدى. التوادي:

موطنه صيانته لنفسه ولقومه من الأذى، ويفتخر بأنه ما من أحد من قومه إلا تال عزا ورفعة ويتعدّى من يعاديه، إذ يطعنون أرضه بعواجز خيلهم ويقضون عليه قضاء مبرماً. والقصيدة على لسان هذا البدوي عنان بن جابر السلمي تُعدّ أحد البراهين القوية - كما مرّ بنا - على خطأ ابن خلدون فيها زعمه من أنّ أعراب بني سليم وهلال زايلت استئنفهم الفصحي في أرجاء الإقليم التونسي منذ القرن السابع الهجري بل ربما قبله بفترة غير قليلة.

## ٢

## شعراء الطبيعة

من قد يتفق الشاعر العربي بالطبيعة، ومعرف أن الشاعر الجاهلي لم يترك في بيته الصحراوية زهرة ولا شجرة ولا سحاباً ولا نجراً ولا طائراً ولا حيواناً أليفاً ولا وحشياً إلا تتفق به واصفاً بجماليه أو لسرعته أو لقوته، وتبعه الشعراء في المصور التالية يصفون الرياض والأنهار وما أودع على ضفافها من جمال، كما يصفون الحيوانات والطير من كل نوع، ويصف إبراهيم المصري صاحب زهر الآداب الياسمين قبيل تفتحه قائلاً<sup>(١)</sup>:

لقد رأع رأس الياسمين متوراً كأقراط در فمعت بعثيق<sup>(٢)</sup>  
يمل على ضعف الفeson كأنما له حالتا ذي غشية ومفيق  
إذا الريح أدنته إلى الأرض خلته نسيم جنوب صمعت بخلوق<sup>(٣)</sup>

فالياسمين وهو يوشك على التفتح وقد ابنت في أعلى زهرة حراء يروعك منظره، وكأنه أقراط ذهبية خُبِيَتْ بعثيق أو ياقوت، ومنه ما يميل منحنياً لضعف غصونه، ومنه ما يظل ثابتًا في وقوفه، وكأنما له حالتا مغشى عليه ومفيق، وإذا مر به النسيم ظنته تعطر بخلوق أو طيب ذكى الرائحة. ويقول إبراهيم بن غانم الكاتب القبوراني واصفاً النيل<sup>(٤)</sup> وكان قد أقام بعمر فترة وعاد إلى القبوراني وتوفي بها سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م.

النيل بين الجانين كانما صبّت بصفحته صفيحة صيقل<sup>(٥)</sup>  
يأتيك من كثير الزواخر مدة يمسّك من مائه ومُضنّل<sup>(٦)</sup>

(١) المجلل في تاريخ الأدب التونسي ص ١١٩.

(٢) العقيق: حجر كريم أحمر.

(٣) ضمح: لطفخ. خلوق: ضرب من الطيب.

(٤) الأنفوذج ص ٥٠.

(٥) مسلك: طيب بطبع المسك. مصندل: طيب

طيب الصندل.

وكان ضوء البدر في تمويجه برق نهوض في سحاب مُسْبَلٍ  
وكان نور السرج في جنباته زهر الكواكب تحت ليل الـليل<sup>(١)</sup>

وهو يصور النيل بين شاطئيه كأنه سيف حداد بالغ في جلاله لشدة لمعانه، ويقول إن فيضانه يأتيك بلون كدر كأنه اخْتَلَطَ بمسك أو بشجر الصندل الأحمر، يشير بذلك إلى ما كان يختلط به في فيضانه من الطمي المائل إلى الحمرة، وكان ضوء البدر على صفحة أمواجه برق يوج في سحاب يهطل مدراراً، وكان نور المصايبع في جنباته كواكب مشرقة لامعة في ليل شديد الظلام. ويقول عبد العزيز بن خلوف المتوفى حوالي سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٩ م في وصف سحابة<sup>(٢)</sup> :

مرتجعة الأرجاء يتعيس سيرها  
تقلل فنطبيه الرياح سراحها  
أخفى مسالكها الظلام فأوقدت من برّها - كى تهتدى - مصباحا  
وكان صوت الرعد خلف سحابها حاد إذا ونت الركاب صاحا

وهو يقول إنها سحابة متقلة بطر غزير، وكان نقل ما تحمله يعبس سيرها، وتطلقه الرياح، فتسير وتنيدة في ليلة ذاتية وكان الظلام أخفى مسالكها، فأوقدت من برّها مصباحاً كى تهتدى به في سيرها، ويتصور كأن صوت الرعد فيها حاد خلفها إذا توانت الركائب وتباطلت صاح بها كى تخفي في سيرها مسرعة. وكان يعاصر هذا الشاعر ابن أبي حديدة وكان يعني بوصفه للسحب والتجorum وستخصه بكلمة. والمعروف أن البحر المتوسط يند طويلاً على شواطئه الإقليم التونسي شرقاً وشمالاً من قابس إلى بنزرت، فكان طبيعياً أن يتعرض الشعراء في ثبوره المختلفة لوصفه، من مثل الشاعر أبي الحسين الكاتب، وكان حسن البصر بصناعة الشعر كما يقول ابن رشيق - سالكاً جمجم شعابها، داخلاً من جميع أبوابها متقداً لها في لطافة وحلاؤه، وقد توفى سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٨ م وفي البحر يقول<sup>(٣)</sup> :

انظر إلى البحر وأمواجه فقد علاماً زيد متنفق  
تخالها العين إذا أقبلت حيلاً بدت في حلبة تستيق  
حمراء ودفنا فإذا ما دنت من شاطئ البحر علاماً هلق  
ظهورها در وأفالها ألسها البرى صبيب الفرق

وهو يصور أمواج البحر حين تعاشق رمال الشاطئ وما يعلوها من زبد، وبخالها حيلاً تستيق

(١) الأنجوز ص ٣٦٣.

(٢) ليل الـليل: ليل شديد الظلام.

(٣) المجعل في تاريخ الأدب التونسي ص ١٣٣.

في حلبة، ويراهما حين تعاشق الرمال يعلوها لونان أسود منها وأبيض من الزيد مما يجعلها بلقاء في مرأى العين، وكأنما الرمال تحيلها درا سائلة بينما أواخرها يتصبب عرقاً أو زبداً، وكان على بن حبيب التنوخي شاعراً عذباً للنفظ - كما يقول ابن رشيق - لطيف المعنى قليل التكلف، وقد توفي حوالي سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٩ مـ وله في تصوير المد والجزر عند صفاقس<sup>(١)</sup>:

بَلْدٌ يَكَادُ يَقُولُ حِبٌْ سَنْزُورِهِ أَهْلًا وَسَهْلًا  
وَكَانَهُ وَالبَخْرُ يَخْتَمُ بِسَرِّ تَارَةٍ عَنْهُ وَتَسْلَا  
صَبٌْ يُرِيدُ زِيَارَةً فَإِذَا رَأَى الرُّقِيَّةَ دَلَّ

وهو تعليق طريف للمد والجزر أيام صفاقس التي ترحب دائمًا بضيوفها، وكأنما أمواج البحر، حين تندأ أمامها وتقترب منها وسرعان ما تتراجع، عاشقٌ يريد زيارتها، ويرى الرقيبة في أول راجعاً من حيث أتى.

ونلتقي بأبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية، وكان شاعراً مجيداً وناقداً بصيراً بالشعر، وله أشعار مختلفة في الحمسة ووصف آلات الحرب وغير ذلك، ومن شعره يصف حدائق ونهرها وأزهارها من الرياض التي أنشأها قرب عاصمةه تونس باسم أبي فهر<sup>(٢)</sup>:

وَسَالَ نَمِيرُ الْمَاءِ بَيْنَ اخْضَارِهَا فَجَاءَ كَمْثُلَ الْفَرْقِ بَيْنَ النُّوَافِيدِ  
وَإِلَّا كَمَا شَقَّ الْكَهْوَرُ بِسَارَقَ وَلِلْتَرْجِسِ التَّضَرِّي اصْفَارَ تَغَالَهُ  
كَشْسِنِ أَصْبَلَ بَيْنَ بَيْضِ السَّحَابِ  
نَشَائِرُ دُرُّ أَوْ سَيَانُكُ سَاكِبٌ  
مَسْطَرَةُ الْأَرْدَانِ يَقْعُمُ تَفْحَمَا  
بِعَيْكَ عَرْفُ الطَّيْبِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ<sup>(٣)</sup>

فما زالت العنب يناسب بين خضرتها المائلة إلى السوداء وكأنه فرق شرف في أعلى ضفائر أو كأنه برق في كهور أو سحاب متراكم أو كأنه ضوء صبح يشق غياهب الليل وظلماته، ويقول إن الترجس التضري المصفر يتهدل بين الأزهار البيضاء كشسان أصيل تستدل على الطبيعة من خلال سحب بيضاء، وزهر الياسمين يتأثر على بسطها وكأنه ثمار در أو سيانك صانع حاذق، والمديقة جميعها مطردة الجوانب، وتفتحها يحمل أغواهه ذكية، ويعييك شذا طيبها من كل منعطف وركن، ويستمر أبو زكريا في مثل هذا الوصف بقصيدة، ومن وصف جنات «توزر» وحدائقها شاعرها

(١) الأنوفوج ص ٢٨١ والمحلل السنديسة ٣٢٧/٢.

(٢) المجل في تاريخ الأدب التونسي ص ١٨٩.

(٣) الكهور: قطع السحاب الضخمة.

أبو علي بن إبراهيم، وستفرده بكلمة. وبالقرب من توزر شط الجريد وبه سبخة إذا حاد سالكها عن طريقه غاص في رمالها ولم يُرَ له أثر، وتسنى التاكمّرت ومازها ملح أحاج، وهوazonها شديد الحرارة مليء بالرمال العاصفة، وقد وصفها ابن حُسينة المتوفى حوالي سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢٠م قائلاً<sup>(١)</sup>:

قطمنا التاكمّرت سُرّى ويسرا  
فلا تسأل لما فاسست فيه  
فليل لاتسبر به نجوم  
وأرياح تُصمُّ الأذن منها  
تصدُّ عن الطريق القديق قدي  
ولا أستطيع فتح العين فيها

صيحة يومنا حتى الزوال  
من الأحوال والكرب التقال  
كان ينطث إلى بعض الجبال  
تهبُّ عن العين مع الشمال  
وتضرُّب حُرْ وجهي بالرمال  
لبعض الأمر إلا باحتيال

يقول ابن حُسينة إنه قطع التاكمّرت في ليلة وصيحة يوم حق الظهر وقد قاسى من الأحوال والكرب التقليل ما يجزئ وصفه، فالليل طويل حتى كأنما علقت نجومه ببعض الجبال فهي لا تتعرّك، والرياح تهب ذات العين ذات الشمال محملة برمال تصل الآذان ضاربة الوجه بحسبانها وملقة ستارة كثيفة على الأعين حق لا يمكن فتحها إلا بضروب من الاحتياط.

ويقول محمد الطريف المتوفى سنة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م في وصف روض<sup>(٢)</sup>:

الروض أصبح يُجلِّي في غلاته  
وألقت القبض من أوراقها بسطا  
وقبل الطلُّ خَدَ الأرض فابتسمت  
والورد لما اغتنى من فوق وجنتيه

وأنشد الطير فوق الفصن وازتجلا  
وأليس الروض من أنواره حللا  
أزهارها فندت تزهو بحسن حلّى  
ماء العياء بدا في خدّه خجلا

فالروض يُجلِّي في أجل ثيابه البدية، والطير يتفن فوق الفصن، وألقت الأغصان على الترى بسطا خضراء من أوراقها، وليس الروض حلالا من أنواره وأزهاره وقبل الطلُّ خدد الأغصان فابتسمت أزهارها وافتخرت بأجل حل، أما الورد فقد اعتلى فوق وجنته ماء الحفر، فبدت حرة المجل في خده، ويقول الأمير محمد الرشيد المسني في وصف الربيع<sup>(٣)</sup>:

فَيَمِّ الرَّبِيعِ وَجْهُهُ يَتَهَلَّلُ  
وَالْطَّلُّ يَلْتَمِمُ خَدَّهُ وَيَقْبَلُ  
أَزْهَارُهُ وَالثَّوْحُ خُودُ تَرْفَلُ

(١) المجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ٢٣٨.

(٢) المخلل السنديسة ٣٩٢/٢.

(٣) المجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ٢١٦.

بقلاتيد موشية بزبرجد  
والرعد يضرب بالطبلول وبرقها كالشمع تُلْفِيَ الرياح فيشتعل

فالربيع وقد يوجه المتهلل يعانق الطّلّ ويقبله مراراً وتكراراً، والأنهار تدفقت والأزهار  
تفتحت والأشجار تتباخر بقلائد مزينة بزبرجد، بينما يتوجها المطر بالأزهار، وكأنما الرعد  
يضرب بطبول ابتهاجاً بالربيع، وأمامه شموع البرق فرحة به، وكلما أطفأتها الرياح عادت أكثر  
اشتعالاً وأوفر ضياءً.

وإذا تركنا الطبيعة الصامتة إلى الطبيعة الحية وجدنا الشاعر التونسي يكثُر - كما أكثر سلفه  
المشرقي من قديم - من وصف الحمام والدبكة والفرس، وبينشاد ابن رشيق فيها جبوا أشعاراً  
كثيرة، من ذلك ما أنشده لعنترة التميمي الذي كان مفتوناً بالحمام الداجن، وفي صفات أحدهما  
يقول<sup>(١)</sup>:

وأصفرَ فاقعٍ لا عيب فيه يغوث - إذا وَنَى - عَصْفَ الجنوب  
كأنَّ الشَّمْسَ يومَ الصُّحُورِ أَلْقَتْ عليه رداءًها عند الفروض  
وتنتظرَ شخصَ الألْحاظِ عشقاً كما نظرَ المحبِّ إلى العبيب

فهو أصفر فاقع لونه لا عيب فيه، يغوث الريح حين يطير حق لتعجز عن مداه، وكأنما  
الشمس ألقَتْ عليه رداءً أصيلها الذهبي، وإنَّ ليقتن الأ بصار حين تنظر إليه وتخلب لها كـ  
يخلب المحبوب لب محبه. ويقول ابن الفطاس في وصف طائفة من الحمام<sup>(٢)</sup>:

توسَّدَنَ مَطْرُوْيُّ الْجَنَاحِ كَانَا لهُنْ حشَايَا فَوْقَهُ وَفَرَائِنُكُ<sup>(٣)</sup>  
وَمِنْهُنَّ عَلَى خُضْرِ الْقُصُونِ كَانَا لهُنْ عَلَى قُبْبِ الْأَرَاكِ أَرَائِكُ<sup>(٤)</sup>  
وَلَا شَنَوْ إِلَّا مَا تَصُوغُ لَهُنَّهَا

فقد اخْتَنَنَ من أجنحتهن وساندَ، وكانتا هنَّ كالهشايا والطناش للإنسان، وقد اخْتَنَنَ من  
غضون الأراك أرائك مقاعد ينزلن عليها للراحة، وما أجمل شدوها وغثامها وما تصوغ منها  
من لحون تثير فيه الشجن، وإن دموعه لتنزل مدراها. ويلتفت عبد الرازق بن على التحوى إلى  
قمرى من الحمام على غصن شجرة ينوح فيخاطبه قائلاً<sup>(٥)</sup>:

(٤) الأراك: شجر. أرائك: مقاعد.

(٥) الأنودج ص ١٥٦.

(١) الأنودج ص ٣١٧.

(٢) الأنودج ص ٢٣٤.

(٣) درانك: بسط وطنافس.

وهل لك إلَّف نازح عنك نازع  
دليل أنسى لو أن جفك دامع  
ولأن كان لا يدرى مرادك سامع  
نَسِيبُ الصَّبا طبها إذ الشَّمْلُ جامع  
وليس فِيَّا مِنَّةً ذانع  
أقمرىءِ أَيْكِ الجزع هل أنت جازع  
وفي لعنك المسجوع في رُوق الضَّحى  
أثار كمين الشوق أنك صادع  
كان نسيباً للشمال وللصبا  
إذ ليس بِرْ للمسرة ذاتع

وهو يخاطب قمرى أَيْكِ الجزع متوجباً ومتسانلاً إذ يراه ينوح هل هو جزع لا يستطيع صرا  
عل فراق أليفته وصاحبته التي نزحت بعيداً عنه مثله، ويقول له إن في ثيرات صوتك أسى  
وحزناً عبيقاً وإن جفوته لاتريحه بمدحوم خففه عنه، ويدرك أنه أثار في نفسه بصراحة كواطن  
حبه ولواعجه، وإن كان أحد لا يدرى مقصدك من نواحوك فقد استعدت لـ ذكرى محبيه، حتى  
كأنما تهاب على صَبَا كسبِ الصَّبا طبها حين كان الشَّمْلُ ملتنا بالمحبوبة، وتعيش في سرور دائم  
وعهد وثيق.

وستشخص عبد الواحد بن فتوح المتفق بالديكة والحمام بكلمة. وأكثر شعراء القبور وان  
تونس من وصف الخيل وخاصة الفرس، إذ كانت أمتها أمة حرب ونزال، ومن ذلك أن  
أبا الحسين الكاتب الذي مرت بنا مقطوعة له في وصف أمواج البحر يصف فرساً أشقر له  
قائلًا<sup>(١)</sup>:

لَى فَرْسٍ قَدْ حَسِنَتْ حَالَهُ  
وَاسْتَكْمَلَ الْإِعْجَابَ إِكْمَالَهُ  
أَشْقَرُ كَالْبَرِ جَلَّا لَوْنَهُ  
عَنْ مَخْضِهِ بِالْبَيْكِ صَقَالَهُ  
كَانَا الْبَرُّ إِذَا مَا بَسِدا  
غُرْرَتُهُ وَالشَّمْسُ بِرْبَالَهُ  
كَانُ فِي حُلْقُومِهِ جُلْجُلَاهُ  
حَرُّكُهُ لِلْسَّمْعِ تَهَالَهُ

وهو فرس بلغ القافية من الحسن حتى ليعجب به كل من يراه، فرس أشقر شفرة ناصعة،  
جلاء فيها صانعه أتم جلاء، وكأنما البدر غرته البيضاء المشرقة وكأن الشمس رداؤه الذهبي  
الدرري، وكأن في حلقومه جرساً ما يزال يرن بصفهيله، ومع هذه الأبيات أبيات أخرى بد菊花،  
ويعلق عليها جعيمًا ابن رشيق بقوله: «هذا شعر جمع شذور الحسن واشتتم على فنون الملاحة،  
حتى خلطت حقيقته بمجازه، وطوى إسهامه في إيجازه، واشتبه حُوكُه بطرائه، ونهضت صدوره  
بأعجازه، وأما التجنيس والطبع، والمقابلة والاتفاق، فمن حلة المشهورة، وصفاته المذكورة».  
وكان الخليفة الفاطمي بالقاهرة: نزار رأى أن يرسل إلى المنصور بن بلkin الصنهاجي واليه

على الإقليم التونسي وأفريقية سنة ٢٨٤ هدية سنوية ومعها قيل وطائفة من الخيال وحمار مخاطط بديع الشكل، فكان يخرج بها جيما في مواكبها، ومثله ابنه باديس، وحفيده المعز، ومنذ المنصور يتبارى الشعراء في وصفها نافذين إلى تصاوير لها رائعة، من ذلك قول التونسي على بن يونس المتوفى سنة ٤١٠ في قصيدة يधج بها المنصور وأصفا هدية نزار وما كان بها من الخيال والإبل والفيل<sup>(١)</sup>:

جُرْدٌ سَيْقَنَ الْبَرَقَ غَيْرَ حِوَافِلَ  
بِرْفَلَنَ فِي حُلُلِ الْعَرَقِ وَحَلَّيْهِ  
زَهْوًا فَتَحْسِبُهُنَّ رَوْضًا مُتَشَبِّهً  
وَنَجَابِ مُثْلِ السُّفَيْنِ تَرَى لَهَا  
تَحْتَ الْقِبَابِ تَنْطُطًا وَتَنْضَبِ(٢)  
يَحْمَلُنَّ مِنْ ذِي الْمُلُوكِ هَوَادِجًا  
مُثْلِ التَّصُورِ مُفَضِّلًا وَمُنْهَبِا  
وَكَانُهَا طَوْدٌ أَنَافَ عَلَى رَبِّهِ  
وَالْفَيْلُ يَخْطُرُ بَيْنَهَا وَكَانُهُ  
شَرِسٌ إِذَا أَخْفَقْتَهُ سَهْلٌ إِذَا  
لَأْفَقْتَهُ صَعْبٌ إِذَا مَا صُوْعِبَا

وهو يقول عن الخيال إنها جُرْدٌ قصيرة الشعر، وهي صفة من صفات الخيال الكريهة، ويقول إنها تسيق البرق غير حافلة به وتغرس شوطيه الأبعد والأقرب، وإنها لتبتخر في سروج مزركشة ولم يلمحها بالبلوادر، حق لكونك تنظر منها إلى روض زاد بأزهاره. وبصف الإبل بأنها كالسفين ضخامة، وإنك لترى لها تحت المواجد هدير الفاضب وزفيرته، وإن هواجرتها الضخمة لتزدان بفاخر الرياش المفضض والمنصب، والفيل يغطّر متهدايا بين تلك الإبل والخيال وكأنه جبل أشرف على ربّه وتلال، ويصفه بأنه شرس إذا أغضبه، سهل إذا لطفته صعب إذا ما أثرته. وأحديت من السودان في الجنوب زرافة إلى المعز بن باديس، فصورها شاعره ابن رشيق تصويراً بيديعاً في قصيدة مدح له جاء فيها<sup>(٣)</sup>:

وَاتَّنْكَ مِنْ كَسْبِ الْمُلُوكِ زِرَافَةً شَتَّى الصَّفَاتِ لِوْنَهَا أَثْنَاءً(٤)  
تَحْتَهَا بَيْنَ الْخَوَافِقِ مِشْيَةً  
بَادِيَ عَلَيْهَا الْكَبِيرُ وَالْغَيْلَةُ  
وَتَمُدُّ جِيدًا فِي الْهَوَاءِ يَزِينُهَا  
مُحْلَّتُ مَأْيِرُهَا وَأَشْرَفَ صَنْرَهَا حَتَّى كَانَ وَقْرَفَهَا إِعْنَاءً(٥)

وهو يقول للعز أنتك زرافة ذات صفات شق في لوتها انعطافات أو يقع كثيرة حراء

(١) الأنموذج ص ٣٠٠.

(٢) تقططاً:

(٣) الإكماء: جلوس الرجل على مؤخرته ونصب ساقيه وفتحيه.

(٤) المجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ١٤٦.

وصفاء ودكتاه وييزها بين المخواق أي المخيل المسرعة مشية خاصة يدو عليها فيها الكبر والخيال والعجب الشديد، كما ييزها جيد طويل جداً ترجمه إلى أعلى، وكأنه لوامان ممتدان، وترى لطول يديها وقصر رجلتها واقبلاها عليك بصدرها لأن وقوفها ضرب من الإيقاع أو الجلوس على المآخر مع نصب اليدين وهو تصوير بديع، ومثله تصويره لفحل الإوز، إذ يقول<sup>(١)</sup>:

من التقل في وخل وما هو في وخل  
ينقل رجلته على حمن فشرة  
لـه عنق كالصـولجان ومخـطـم  
يـداـخلـه زـهـرـ فـيـلـعـظـ من عـلـ جـوانـبـهـ الـحـاظـ مـتـهمـ المـقـلـ  
وـهـوـ يـجـسـدـ ذـكـرـ الإـوزـ فـيـ شـيـةـ المـشـاـقـلـةـ كـاـنـهـ يـخـطـوـ فيـ وـخـلـ  
لـاـ يـحـسـنـ المـشـىـ فـيـهـ وـبـعـدـ أـنـ جـسـدـ شـيـةـ هـذـاـ التـجـيـدـ الرـانـغـ أـخـذـ يـصـورـ خـلـقـتـهـ فـلـهـ عـنـقـ  
طـوـبـلـةـ طـوـلـ عـصـاـ الـمـلـوـكـ الـمـسـمـاـ بـالـصـوـلـجاـنـ،ـ وـلـهـ عـطـمـ أـوـ منـقـارـ مـعـقـوفـ كـعـرـجـونـ النـخـلـ الـذـىـ  
يـعـمـلـ شـماـرـيـخـهـ وـغـرـهـ،ـ ثـمـ صـوـرـ شـمـوـخـهـ فـيـ وـقـفـتـهـ فـقـالـ:ـ كـأـنـاـ يـدـاـخـلـهـ زـهـرـ فـيـنـظـرـ مـنـ أـعـلـ إـلـىـ  
جـوانـبـهـ نـظـرـ الـمـشـدـوـهـ الـذـىـ يـظـنـ أـنـ مـتـهـمـ الـعـقـلـ لـطـوـلـ نـظـرـ وـإـعـانـهـ فـيـهـ،ـ وـحـرـىـ بـنـاـ أـنـ نـلـمـ  
بـعـضـ شـمـرـاءـ الـطـبـيـعـةـ مـنـ ذـكـرـنـاـ أـنـتـاـ سـنـعـصـ كـلـاـ مـنـهـ بـكـلـمـةـ مـعـ تـرـيـبـهـمـ تـارـيـخـناـ وـهـمـ  
عـبدـ الـواـحدـ بـنـ فـتـوحـ وـصـافـ الـدـيـكـ وـالـحـلـامـ وـابـنـ أـبـيـ حـدـيـدـ وـصـافـ السـحـبـ وـالـنـجـومـ.  
وـأـبـوـ عـلـ بـنـ إـبـراهـيمـ وـصـافـ الـبـاسـاتـينـ.

### عبد الواحد<sup>(٣)</sup> بن فتوح الزواق

نشأته ومرياه بتونس وبها تأدب، ثم استوطن القيروان، وانتظم في سلك كتاب الدواوين، وفيه يقول ابن رشيق: «شاعر مغلق قوى أساس الشعر وأركانه وثيق دعائمه وبنائه، كأنه أعرابي بدوى يرك ظهر الشعر ويخوض بحر الفكر، يتكلف بعض التكلف، ورق قصائده طول، ويُقدّم من خيار طبقته» توفى سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٦م. ومن شعره في وصف الديك:

وـهـ لـلـأـطـيـارـ ذـرـ خـبـرـةـ	مـنـهـ بـمـاـ يـعـرـفـ مـنـ خـبـرـهـ
فـنـصـ جـيـداـ وـرـقـىـ مـشـبـراـ	دارـ الذـىـ عـودـ مـنـ خـبـرـهـ <sup>(٤)</sup>

(١) ص ٢٢٦ والمعدل في تاريخ الأدب التونسي ص ١٤٧.

(٢) ص ١٣٥.

(٤) نفس: رفع.

(١) بجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٤٧.

(٢) الصولجان: عصا الملك الرازمة لسلطانه.

(٣) عتم: منقار. المرجون ما يحمل التمر. المنق.

(٤) انظر في عبد الواحد بن فتوح الأنفوذ

واستفتح الصوت بتصفيقه اسـ  
**فَلِيلَ الْبَلْلَـ** في غُصْنِـهـ  
ـكَأْنَا تُسْجُـ با قوَتَـهـ  
ـكَأْنَا يَخْطُـرُـ فـ حُلَـةـ  
ـعَذْنِـ الْوَشِـ لـمـ يـشـرـهـ  
ـ(١)

وهو يقول إن الديك هُـ للطير يريد أن ينافسه بما يعرف من خبره وخبرته فـنـصـ جـيدـهـ وـرـفـعـهـ وـرـقـهـ مـنـبـراـ فيـ دـارـ صـاحـبـتـهـ وـمـاـعـودـ منـ مـسـكـنـهاـ وـاستـفـتحـ الصـوتـ بـتـصـفـيقـ جـناـحـيهـ وـتـحـريـكـهـ كـماـ تـسـفـتحـ صـاحـبـهـ الطـارـ الضـربـ عـلـيـهـ تـقـدـمـةـ لـماـ تـوقـعـ عـلـيـهـ مـاـ أـشـعـارـ وـمـاـ إـنـ رـفـعـ الـدـيـكـ صـوـتـهـ وـصـيـاحـهـ حـتـىـ اضـطـرـبـ الـبـلـلـ فـغـصـنـهـ وـأـلـمـتـ بـهـ الـوـساـوسـ،ـ وـحـتـىـ أـرـقـ الـحـمـامـةـ فـ وـكـرـهـاـ،ـ لـحـسـنـ مـاـيـسـعـانـ مـنـ صـيـاحـهـ،ـ وـبـخـيـلـ لـمـ يـرـاهـ كـأـنـاـ تـوـجـ يـاقـوـتـةـ نـاصـعـ الـأـهـمـارـ.ـ وـسـقطـ مـنـهـ لـأـذـنـيـهـ قـرـطـيـنـ بـدـيـعـينـ،ـ وـإـنـهـ لـيـخـطـرـ وـيـتـبـخـتـرـ فـحـلـةـ مـزـرـكـشـةـ كـأـنـاـ صـنـعـتـ مـنـ وـشـىـ عـدـنـ،ـ غـيـرـ أـنـهـ لـمـ يـشـرـهـاـ،ـ إـذـ هـىـ مـنـحـةـ إـلهـيـةـ مـنـحـهـاـ فـخـلـقـهـ.ـ وـيـقـولـ فـصـفـ حـامـ:

بـحـثـابـ أـرـدـيـةـ السـحـابـ بـخـافـقـاـ  
ـكـالـبـرـقـ أـوـمـضـ فـيـ السـحـابـ فـأـبـرـقـاـ  
ـلـوـ سـابـقـ الـرـيـبـ الـجـنـوبـ لـغـايـةـ  
ـيـسـتـقـرـبـ الـأـرـضـ الـبـيـطـةـ مـذـهـبـاـ  
ـوـيـسـتـرـقـ فـيـ الـأـفـقـ وـالـسـقـفـ الرـفـيـعـ مـرـتـقـيـ  
ـوـبـيـظـلـ يـسـتـرـقـ فـيـ الـجـوـ تـحـسـبـ الشـهـابـ الـمـغـرـقـاـ  
ـوـتـكـادـ آـيـةـ عـنـقـهـ أـنـ تـنـطـقـاـ  
ـلـيـسـ الزـجاـجـةـ أـوـ تـجـلـبـ زـيـفـاـ

وـهـوـ يـقـولـ إـنـ الـحـمـامـ لـاـ يـزالـ يـقـطـعـ بـخـافـقـهـ أـوـ جـنـاحـهـ أـرـدـيـةـ السـحـابـ رـدـاءـ وـرـاءـ رـدـاءـ،ـ وـكـأـنـهـ  
ـبـرـقـ يـوـمـضـ وـبـرـقـ وـيـلمـعـ لـلـنـاظـرـيـنـ،ـ وـلـوـ سـابـقـ الـرـيـبـ لـنـايـةـ أـوـ مـقـصـدـ مـاـ تـأـخـرـ عـنـهاـ بـلـ رـيـاـ  
ـسـيـقـهاـ،ـ وـهـوـ يـعـيـشـ فـيـ الـأـرـضـ وـيـتـخـذـهاـ مـسـكـنـاـ وـمـأـوىـ وـعـمـ ذـلـكـ يـرـتـقـيـ وـيـصـعدـ إـلـىـ الـآـفـاقـ  
ـوـالـسـقـفـ الـعـلـىـ،ـ وـيـظـلـ مـصـدـاـ بـجـنـاحـهـ فـالـسـاءـ حـتـىـ لـيـظـنـ أـنـ شـهـابـ فـيـهاـ سـيـسـقـطـ عـلـىـ  
ـالـأـرـضـ،ـ وـيـقـرـبـ مـنـ يـرـاهـ فـيـعـجـبـ بـعـسـنـهـ وـتـكـادـ آـيـةـ عـنـقـهـ أـنـ تـنـطـقـ بـجـمـالـ مـنـظـرـهـ،ـ وـيـقـولـ إـنـهـ  
ـمـتـرـقـقـ مـنـلـائـيـ أـيـنـاـ درـتـ بـبـصـرـكـ حـولـهـ ظـنـنـتـ كـأـنـاـ تـدـورـ حـولـ زـجاجـ دـرـيـ أـوـ حـولـ زـنـقـ  
ـرـجـاجـ بـهـ.ـ وـيـلـقـ أـيـنـ رـشـيقـ عـلـ هـذـهـ الـأـيـاتـ بـقـولـهـ:ـ «ـلـاـ أـعـرـفـ أـحـدـاـ وـصـفـ الـحـمـامـ بـمـثـلـ  
ـهـذـهـ الصـفـةـ»ـ.

(١) الشـنـفـينـ:ـ الـقـرـطـيـنـ.

(٢) تـصـفـيـقـهـ:ـ خـبـرـكـ جـنـاحـهـ.

(٣) بـلـلـ حـيـرـ.

ابن (١) أبي حديدة

هو أبو العباس أحمد بن القاسم اللخمي، أحد الكتاب التابعين في الدولة الصنهاجية وظل يعمل فيها بديوان الرسائل بجانب ابن رشيق وابن شرف إلى أن توفي حوال سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ويبدو أن منشأه ومربياه في القبروان، ويقول فيه ابن رشيق: «شاعر فكه الشعر رائق التшибه مولع به قليل التكلف قوى المنبع والظرف، من رفض الم والهجاء، وكان يغتر التصنيع خبرة جيدة ولا يركب إلا في الأماكن التي تصلح له كما شرط حذق المقدمين، وله بديبة مرضية. وله في وصف سحاب:

يَسَارُبْ مَنَّاقِه تَسْوَه بِتَلَهَا  
تَسْقِي الْبَلَاد بِوَابِلٍ غَيْدَاقٌ<sup>(٢)</sup>  
مَرْتُ فُوْرِقَ الْأَرْض تَسْبُحُ ذَلِيلَهَا  
وَالرِّيحُ تَحْمِلُهَا عَلَى الْأَعْنَاقِ  
وَدَنَتْ فَكَادَ التُّرْبُ تَنْهَضُ نَعْوَهَا  
كَهْوَضٌ مَشْتَاقٌ إِلَى مَشْتَاقِ  
فَكَانَا جَامِتْ تَقْبِلَ تِرْهَبَا  
أَوْ حَاوَلَتْ مِنْ لَذِيَّدَ عِنَاقِ

وهو يقول: رب سحابة ملأة مطراً تتوه بثقلها منه تسقى البلاد منه بوابل غزير، وبتحليلها كأنها امرأة جليلة تمر على الأرض تسحب ذيلها من المطر المتندق والريح يجعلها على الأعناق إجلالاً لها، ويقول إنها دنت من الأرض فنهض الترب لها نهوض مشتاق إلى مشتاق، وكأنما جاءت محملة على الريح لتقبل تربها، بل لكانا تحاول منه عناق حب لمحبوبة غابت عنه طويلاً. وله في النجوم:

وَرَقَ لَهُنَّ عَلَى الْأَرَاكِ حَنِينٌ  
فَكَانَاهَا هُوَ رَاهِبٌ مَحْزُونٌ<sup>(٣)</sup>  
فَكَانَاهَا هُنَى لَوْلُؤَ مَوْضُونٌ<sup>(٤)</sup>  
أَحَدَاقُ رُومٍ مَا لَهُنَّ جَفْنُونٌ<sup>(٥)</sup>  
بَحْرٌ أَحْاطَ بِهَا وَهُنَّ سَفَينٌ  
وَلَقَدْ حَمَى عَنْ مَقْلَتِيْ كَرَاهِمَا  
فِي لَيْلَةِ لِبِسِ الْعَدَادِ هَوَأْهَا  
قَدْ رَصَعَتْ زَفَرُ النَّجَومِ سَامِهَا  
وَكَانَاهَا خَلَلَ الظَّلَامِ رَوَانِيَا  
وَكَانَاهَا الْفَلَكُ الْمُدَارُ عَلَى الدُّجَيِّ

وهو يقول إن حنين حمامات على الأراك ملائعة نهى النوم عن عينيه في ليلة ليس المساء فيها ثياب الحداد في دجاجها فكأنما هو راهب محزون أشد المززن، وقد رصع النجوم المصينة

(١) انظر في ابن أبي حديدة الأنوفوج ص ٧١.

(٢) موضعون: متراكم.

والجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ١٤١.

(٤) روايتها: ناظرات.

(٢) متأفة: معتلة. غيداق: كبير.

الشرفه الساء وكأنها هي لآلٌ تتدخل في نسيجها المحكم، ولكنها وهي ترنو خلال الظلام أحدائق روم ليس لهن جفون فهى ماتنى رأية مدبة نظرها، ولكنها الفلك المستدير على الدجى بعر أحاط بذلك النجوم وهن سفنقة. كأن لا فارق كوفٌ بين البر والبحر والسماء عند ابن أبي حديدة وغيره من الشعراء التونسيين، فهم يغفون بسفن البر من الإبل، ويغفون ابن أبي حديدة بسفن السماء من النجوم.

### أبو علٰى بن إبراهيم<sup>(١)</sup>

لم يزد صاحب الحال السنديسة في التعريف به عن قوله إنه كان كاتباً، وأكبرظن أنه توژرى الأصل، والتتحقق بدواوين الدولة الخفصة في القرن السابع المجرى. وتوزر هي عاصمة واحات الجنوب التونسي، وكان لها نهر ينقسم إلى ثلاثة أنهار كبار، وكل نهر من الثلاثة ينقسم إلى ستة جداول، وأتاحت لها ذلك أن يكثر بها التغيل والبساتين، ولأنه على بن إبراهيم وصف رانع لها ولتنغيلها وبساتينها وجداول مياهها ضئلاً تصيده له رائعة، ومن قوله في تنغيلها:

النَّخْلُ مِثْلُ عِرَانِسِ مَجْلُوَةِ  
فِي سُندُسِيَّاتِ الْلِّبَاسِ تَبَخْرُ<sup>(٢)</sup>  
وَكَانَا نُظَمُ الْحَلْيَةِ لَتَغْرِيْهَا  
مِنْ لَوْلَوْ وَزَبِرْجِدِ يَتَخْرِيرِ  
وَتَرِيْ الزَّبِرْجِدِ عَسْجَدَا وَبَوَاقِتَا<sup>(٣)</sup>  
ذَا أَحْمَرَ قَانِ وَهَذَا أَصْفَرَ<sup>(٤)</sup>  
أَحْلَى مِنَ الْمَسْلِ الصَّفِيِّ طَعْمَةُ  
وَمَذَاقُهُ لَا يَدْعِيهِ السُّكْرُ

وهو يقول كأن حدائق النخل بتوزر فرح كبير يضم ما لا يكاد يحصى من عرائس تغلى في ثياب سنديسة اللون تتبعثر فيها، وقد استدارت حول نحورها عقود متاخرة من اللؤلؤ المصير في أول نشأة البلح وإنها لست تعيل إلى زبرجد أخضر، ويستعمل الزبرجد إما عسجاً ذهبياً وإما ياقوتاً قانياً، ومنه الربط وغير الربط، وإن طعمه لأجل من المسـل، مع مذاق يبدع لا يستطيع السكر أن يدعـيه لنفسه لجمـالـه وحـسـنهـ. ويـصـفـ بـسـاتـينـ تـوزـرـ وـأشـجارـهاـ وـأـزـهـارـهاـ،ـ فيـقـولـ:

الرُّوحُ قَدْ لَبَسَ غَلَالِيْنِ سُنْدَسِ  
تَخْتَالُ فِي أَيْدِيِ النَّسِيمِ وَتَخْطَرُ<sup>(٥)</sup>  
حَلْتُ هَوَادِيْهَا عَقْوَدَ أَزَاهِيرِ  
فَتَرَجَّحْتُ عَجْبًا لِنَنْ يَتَضَرُّرُ<sup>(٦)</sup>  
خَطْبَاؤُهَا تَشَدُّو بَلْعِنِ يَشْحَرُ  
وَالْطَّيْرُ قَدْ رَقِيتْ مَنَابِرَ قُضِيَّهَا

(٤) غـلـالـلـ: جـعـ غـلـالـةـ؛ تـوبـ رـقـقـ. تـغـطـرـ.  
تبـخـرـ.

(٥) هـوـادـهـ: مـقـدـمـاتـهاـ.

(١) انظر في أبي علٰى بن إبراهيم وقصيده الحال السنديسة ٤٣٥/٢.

(٢) سـنـدـيـسـاتـ: نـسـبةـ إـلـىـ السـنـدـسـ وـهـوـ الـدـيـاجـ.

(٣) الصـسـجـدـ: الـذـهـبـ.

والقضب يُثني النسيم فتنقش بعض يقبل بعضها ويُغقر  
كعقول تفني السرار فلتلقي لصقا الحديث وتارة تتأخر<sup>(١)</sup>

فالشجر الملتئ قد ليس ثيابا رقيقة من السنديس الأخضر، وهو يختال في أيدي النسيم  
ويتبخر، وقد حلّت مقلمانه عقود زهر منتفة تبرُج فيها لناظريه أيا تبرُج، والطير قد صعدت  
إلى منابر غصونها، وخطبائزها تنفي بلحن ساحر يخلب الآلياب، والغضون يثني النسيم فتنقش  
وكأنما يقبل بعضها ببعض ثم يتقدّر أو كأنهن سيدات يرددن المساراة ببعض الحديث فلتلقي مصفية  
إلى الحديث تارة، وتارة تأخر، ويستمر أبو على قائلة:

الأرض عاطرة تُزفَّ كأنما غنى نواحِيَها عَبْرَ يُنْشَرُ  
وتَأْرِجَتْ أرجاؤُها فـكأنما مِنْكَ يَضُوعُ خلالها أو عَنْبَرُ<sup>(٢)</sup>  
وكانَ ريحان الحياة وزَوْحَها مُسْتَشِقًّا من عَرْفَها ومَعْطَرُ<sup>(٣)</sup>  
وكانما كُبِيتْ بساطَ زَيْرَجَدْ نُثِرَتْ يواقتَ عليه وجَوْهَرُ

فالأرض جيمها عاطرة وكأنما تُزفَّ في عُرسِ لها، وكل نواحِيَها ينتشر فيها عَبْرَ ذكي، وكل  
أرجانها تفوح بصنوف من الطيب والمسك والعنبر، وكأن أريح الحياة ونبسمها العطر مستنشق  
من شذاها العطر، وكأنما اكتست بساط من الزبرجد تناثرت عليه جواهر ويواقت من كل  
صنف، ويفضي أبو على واصفاً جداولها بهلّ قوله:

الماء تُشَبِّهُ إِلَيْكَ جَدَاؤُلْ قد مَدَهَا النَّهْرُ الْزَّلَالُ الأَكْبَرُ<sup>(٤)</sup>  
صافٍ على صفة المَهَا يَجْرِي على رَمْلِ التَّفَا عنْبَ قِرَاجُ كَوْزَرُ<sup>(٥)</sup>  
وكانَ حَصْبَاؤه في رَوْنَقِ الدَّ سَاءِ الذِّي يَجْرِي عليه جَوْهَرُ

والماء تُشَبِّهُ وتتوزعه جداول: ثانية عشر كأسينا، وقد أمدها النَّهْرُ الكَبِيرُ بآنه الزَّلَال  
الذِّبُّ البارد السلس، والماء في متنه الصفاء، كأنه مَهَا أو بَلْوَر ناصع، وهو يَجْرِي على رمل  
يشبه رمل التفَا الذي يذكره المشاق النجديون، وهو عذب قراح أو خالص، بل هو كونز كنهر  
الفردوس وكأنما حصباؤه جوهر تناثر من عقود كبيرة، وأبو على بدون ريب شاعر بارع ببراعة  
فائقة.

(١) عقول: جمع عقبة: السيدة الكريمة. السرار:

النَّاجَةُ وكتمان الحديث. صفا الحديث: سماحة.

(٢) تأرجَتْ: فاحت. يَضُوعُ: يفوح.

(٣) عرفها: شذاها.

(٤) تشبَّه: تفوه. الزلال: الذِّبُّ الصاف.

(٥) المَهَا: الْبَلْوَرُ. قراح: سانع. كونز: حل-

والكونز: من أنهار الفردوس.

## شعراء الرثاء

### (أ) رثاء الأفراد

للعرب - منذ الجاهلية - في رثاء الأفراد تراث ضخم، وهو يتخذ عندهم ثلاثة ألوان هي الندب والتأبين والعزاء ، والندب هو البكاء على ذوى الرحم من الأهلين والأقارب من ليوا نداء رهم وغادروا الفانية إلى الباقيه، والتأبين هو بكاء الشخصيات الفنية العربية أو السياسية أو العلمية أو الأدبية بذكر فضائلهم وخسارة المجتمع والأمة فيهم، والعزاء استرسال في الحديث عن الحياة والموت وبيان أن الحياة ظل متنقل سرعان ما ينحصر عن صاحبه، فالجميع إلى فناء وعدم، وكثيراً ما يختلط العزاء بالتأبين والندب. وكل هذه الألوان الثلاثة مبثوثة في مراتني التير وانين والتونسين، وتأخذ في الكثرة منذ عصر الأغالبة، ويتوافق فيه سحنون إمام المذهب المالكي وبوبته تلميذه عبد الملك المهرى بمثل قوله<sup>(١)</sup>:

مَيْتَ لِهِ الْبَدُوُّ وَالْحُضَارُ قَدْ خَشَعَا  
بِأَرْضِ الْفَرْقَابِ قَاطِلَةً  
لِلَّهِ أَنْتَ إِذَا مَا هَابَ فَاصِلَةً  
هُنَاكَ بِرُزْتَ يَا سَخْنُونَ مُنْفَرِداً  
فَادْهُبْ فَقِيدًا حَبَّاكَ اللَّهُ جَنَّتَهُ  
وَاحْصُدْ مِنَ الْخَيْرِ مَا قَدْ كَنْتَ مُزَدِّرًا

وهو يقول إن أهل البدو والحضر جميعاً قد خشعوا حين سمعوا بوفاة فقيه الفرب قاطلة، ويقول ما أعظمك حين كنت قاضياً تقضي بالحق على كل متهم فيرتدع ويزدجر، وبنوه بقضائه وأنه سبق فيه بجيلاً كل عالم في عصره، وما أعظم الخسارة في فقده ويدعو الله أن يفسح له في فراديسه وأن يجزيه الجزاء الأوفر عما غرس وقدم بين يديه. ولما توفى ابنه محمد رثاء أحد بن أبي سليمان داود الصواف ببرقة بلغت ثلاثة بيت، وفيها يقول<sup>(٢)</sup>:

وَأَورَثَنَا الْأَحْزَانَ لَا كُنْتَ نَاعِيَا  
نَعِيَتْ إِمامُ الْعَالَمِينَ مُحَمَّدًا  
وَقُلْتَ مُضِيَّ مِنْ كَانَ لِلَّدِينِ رَاعِيَا  
وَمِنْ كَانَ حَرَّاً عَالَمًا ذَا فَضْلَةٍ  
وَالشَّاعِرُ يَكْنِي فِي مُحَمَّدِ بْنِ سَحْنُونَ إِمامَتِ الدِّينِ وَفَقِيْهِ وَعَلِمَهُ وَنَقَاهُ صَدْرَهُ وَطَهَارَةُ قَلْبِهِ

(١) رياض النفوس للمالكي ٢٩٠/١.

(٢) رياض النفوس للمالكي ٣٥٧/١.

وفضيلته أو فضائله. ويتوافق يعني بن عمر إمام المنصب المالكي في سوسة سنة ١٠٩٥هـ/٢٨٧ ويرثيه سعدون الورجيبي بمثل قوله<sup>(١)</sup>:

عِنْ أَمْ بَهَا وَجَدْ فِلْمَ تَبَرُّ تَبَكِي يَلْمِعُ كَفَرَ الدُّرْ مُشَجِّرٌ  
عَجِبَ أَنْ لَمْ آتَ حَزَنًا وَقَدْ دَفَتْ كَفَافِي فِي التَّرْبَ أَنَّقِي الْعَرْبَ وَالْعَجَمَ  
يَا مَوْتَ أَنْكَلَتْنَا يَعْنِي وَكَانَ فَتَى فِي بُلْدَةِ الْقَرْبِ مُثْلِ الْبَدْرِ فِي الظُّلُمِ  
مِنْ كَانَ مِنْ بَعْدِ سَخْنُونِ لَنَا خَلَقَا

<sup>(٢)</sup>

وهو يقول إنه بات مسهدنا عززونا يبكي بدموع لا ينقطع، ويعجب أن لم يمت حزنا وقد دفنت  
كهاد في التراب يعني بن عمر أنقى العرب والعجم، وبلغت إلى الموت لاتنا، فقد أفقدهم يعني  
وكان فقيها لا نظير له، وكان مثل البدر يحرر الظلمات عن الناس، إذ كان خلفاً لأستاذة  
سخنون، وكان في إحقاق الحق وإبطال الباطل مثل السيف المداد القاطع. وحظيت الأسرة  
الأغليبة المحاكمة حينذاك بشاعرة تسمى مهرية الأغليبة، توفيت حوالي سنة ١٠٧٥هـ/٢٩٥  
وكان لها أخ ناسك يسمى أبا عقال هاجر إلى مكة ومات بها غريباً عن وطنه ودياره، ولله مواطن  
كثيرة أنسدعاً المالكي في الرياض وقالت أخته نادية له باكية<sup>(٣)</sup>:

لَيْتْ شِعْرِي مَاذِي عَائِبَتْهُ بَعْدَ طَوْلِ الصُّومِ مَعْ تَفَرِّي الْوَسْنَ  
مَعْ تَرْزُوحِ النَّفْسِ عَنْ أَوْطَانِهَا وَالْتَّخَلُّ عَنْ حَبِيبِ وَسَكْنِ  
يَا شَقِيقَا لَيْسَ فِي وَجْهِي بِهِ عَلَةٌ تَشْعُنِي مِنْ أَنْ أَجِنَّ  
وَكَمَا تَبَلَّ وَجْهُهُ فِي التَّرَى فَكَذَا يَتَلَّ عَلَيْهِنَّ الْحَزَنَ

وهي تتجه بالسؤال إلى شقيقها ماذا رأى في بلاد الفربة بعد ما عانى من طول الصوم  
والشهاد ومع حرمانه من وطنه وتخليه عن سكته وأحبابه، وتحزن عليه حزناً عميقاً فلن تراه.  
وتظل مواجهها معلقة به حتى لتشعر أنها سجن، وتعود إلى نفسها، فكما تبل وجوه في الترى  
بيل الحزن وتبل لوعته.

ولكراءة أهل السنة في القبر وان للمعيدين ومنذهبهم الإسماعيلي انضموا إلى مخلد بن كيداد  
الثائر البربرى الصفرى على القائم بأمر الله العبيدى في حصاره للمهدية سنة ٣٣٣ وقتل في  
هذا الحصار شيخ كبير نشيخ أهل السنة هو أبو الفضل الميسى، فرثاه تلميذه أبو القاسم  
الغزارى، بمثل قوله<sup>(٤)</sup>:

ص ٧١.

(١) رياض النفوس ٤٠٥/١.

٨٧ (٤) المجمل ص

(٢) الصارم الخن: السيف القاطع.

(٣) رياض النفوس للمالكي ٤٣٧/١ والمجمل

يُعْتَرِكُ الْأَبْطَالُ أَيُّ صَرِيعٍ  
أَصْبَيْوْا بِهِ مِنْ فَرْدٍ وَجَمِيعٍ  
وَطُولُهُ احْتِمَالٌ وَاصْطَنَاعٌ ضَيْعٍ  
مَضِي عَلَمُ الْعِلْمِ الرَّفِيعِ وَطَالَما

وهو يتفق لو استطاع أن يفدي هذا الشيخ الصريح بروحه، وبتصوره والغيل تحول حوله في  
معركة الأبطال، ويقول إنه لا يبكي له ولكن يبكي لخسارة عشرة معشر فجعوا فيه، كما يبكي للعلم  
والإسلام والدين والتقوى وطول ما أدى واحتفل في سبيل طلابه وأهل القبروان، وإن كان قد  
فقد علم العلم الرفيع فطالما أصابت رماح الموت العلامة من أمثاله. ويزعن ابن القواص الكفيف  
أبو القاسم عبد الرحمن بن يحيى إمام المالكية ورياستها بالمغرب في زمانه أبي محمد عبدالقه بن  
أبي زيد القبرواني المتوفى سنة ٢٨٦هـ/١٩٧م وفي تأييه يقول<sup>(١)</sup>:

كادت تَهِيَّدُ الْأَرْضُ خَاشِعَةً الرُّبُّعِ  
وَتَسُوْرُ أَفْلَاكُ النَّجُومِ الظَّلِّعِ  
عَجَّبًا أَيْدِيرِيُّ الْعَامِلُونَ لِتَقْشِيَهِ  
كَيْفَ اسْتَطَاعُوا حَمْلَ بَعْرٍ مُّتَرَعِّ<sup>(٢)</sup>  
عِلْمًا وَحَلْمًا كَاسِلاً وَبِرَاءَةً  
وَتَقْنِيَ وَحْسَنَ سَكِينَةً وَتَوْرَعَ  
وَسَعَتْ فِجَاجُ الْأَرْضِ سَعْيًا حَوْلَهِ  
يَكُونُهُ وَلَكُلَّ بَالِكَ مِنْهُمْ ذُلُّ الْأَسْمَرِ وَحْرَقَةُ الشَّوَّجِيَّ

فالأرض تقاد تضطرّب وتُثْوِج خائعة الْرَّبِّيْ هَوْلَ موته، وبالمثل أفلاك النجوم الساطعة،  
ويصعب الشاعر متسائلًا أيُّرُوكَ المَالِمُونَ لِتَنْهَى أَنْهُمْ اسْتَطَاعُوا حَمْلَ بَعْرٍ مُّتَرَعِّ<sup>(٣)</sup>  
وبراءة وتقني وحسن سكينة وجال تورع، وقد اكتظت فجاج الأرض وطرقها الواسعة  
بالمشيعين الذين جاءوه مهزوزين عليه ي يكونه خاشعين متوجعين ملائعين. وبعكى غير واحد عن  
أبي طالب الدلائلي الشاعر في الدولة الصنهاجية أنه فقد من أحبهُ نيفاً وأربعين غريباً في  
البحر - ربيا كانوا ذاهبين إلى صقلية - فصار شعره رثاءً كله تفجعاً عليهم ووفاء لهم<sup>(٤)</sup>، من  
ذلك قوله في أحدهم:

نَأَى بِسُرُورِيْ وَصَبَرِيْ مَعَا وَأَبْقَى فَوَادِيْ عَلَيْهِ صَدِيْعَا

(١) الأنفوذج ص ١٥٣.

(٢) ثور: ثوج.

(٣) مترع: مثلك.

(٤) انظر في هذا الخبر وأبيات الدلائلي الأنفوذج ص ١١٨.

ومات فمات سُرورى به وصُنث حيائى فمتا جيمما  
أصابته عين من الحادثات أصاب العَسِ ناظرها سريعا

وهو يقول إنه حين فارقهأخذ سروره وصبره على بعده معه، وكأنما ترك جرحًا بفؤاده، ولم يلبث أن مات غريقا فمات سرور الشاعر، وكان قد صان حياته من الرحيل معه، وشعر بأنه مات معه. ويقول كأن عيناً من الحادثات أصابته، ويدعو عليها بالمعنى جزاء وفاقاً لها، ويقول ابن رشيق تعليقاً على الأبيات: «هذا هو التفجع والتوجع الذي يقطع القلوب حسرات، وينذهب العيون عبرات». وينشد من مراثيه بيتهن، ها:

أودعته بطن الثرى وتركه في رمسيه والمُوت ما لا ينكر  
قدمته ولو أنه أتصفه ماكنت عنه ساعة أتأخر

فهو قد أودعه في رمه أو قبره ببطن الأرض. والموت حق لا أحد ينكره، ويقول بأنه قدّمه إلى الموت ولو أنه أتصفه لراقهه ولم يتأخر عنه ساعة. ويقول ابن رشيق: «هذه أنفاس مشتملة عن نفس مشتعلة قد دلت على مافي الصدر دلاله الشواطئ على الجسر». ويعوت لابن عبدون الذي مرت ترجمته بين شعراء الفربة ابن وكانت قد ماتت قبله زوجته وبكيتها بمنزل قوله<sup>(١)</sup>:

أدرجت قلبي في مسالِجِ لحد  
صُنْتُ على مسامعي في رَجْبة  
فشكّت سُكّةَ صارمٍ في غمدو  
ماهٌ بخدني والتراب بخدي  
قبرانِ ذا ولدُ وذاك لسوه<sup>(٢)</sup>

وهو يقول إنه دفن النبي والعقل السديد في قبر بسوسة، وكأنما أدخل قلبه في ثنياً لحده، ويقول كأنما سُنْتُ أدناه حين سمع رجعة موت زوجه وابنه، بل لكأنما أصابته صاعقة من صعق الصراح ورعده، وكأنما غُشى عليه فلم يستطع بكاه، وأخلد إلى الصمت إخلاد سيف في غمده، وماذا يجدى سل سيف في الموت؟ وماذا يجدى البكا وعلى خده دموعه والتراب يخدي ابنه، ويقول لقد منع النوم لبعض قبران: قبر ابني الحبيب، وقبر زوجتي المحبوبة. وقال على المحررى الذي

(١) المدنو بتثنيد الواو: النوم.

(٢) انظر الأنموذج ص ٣٩٤

مررت ترجمته بين شعراه الغزل يبكي أباه حين وداع قبره عند رحيله إلى الأندلس<sup>(١)</sup>:

أبا! نَيْرُ الأَيَامِ بَعْدكَ أَظْلَما  
وَبَيْنَانُ مَجْدِي يَوْمَ يَتْهِلُّا  
رَحِلَتْ بِهِ فَالْقَلْبُ عِنْدكَ خَيْرًا  
وَقَنِ اهْنَ عَيْنَيْ منْ تَعْمَدْ وَقْنَةً  
وَقَالَ سَلَامٌ وَالثَّوَابُ جَزَاهُ مَنْ  
أَلْمَ عَلَى قَبْرِ الْفَرِيبِ فَسْلَا

وهو يخاطب أبياه عززونا قائلا إن الأيام التيرة بعد فقده أظلمت وتهدم بناء مجده وعزه يوم موته، وإن كنت راحلا عنك بجسمك الذي أضناه فقدك فإن قلبك عندك مخيم مقيم، ويدعو لمن يقف على قبره مستسقا متراحا مسلما راجيا أن يعززه اهنه عينيه اهنة خير الجزاء. ويقول ابن سام منشد الأبيات السالفة إن المحررى لم يكتف بها في وداعه لقبر أبيه، فقد طأطا رأسه ومدد يده إلى التراب حول القبر، قائلا:

رَحِلْتُ وَهُنَا مُشَوَّى الْمَبِيبِ  
فَمَنْ يَكْبِكْ يَا قَبْرَ الْفَرِيبِ  
سَاحِلُّ مِنْ تُرَابِكِ فِي حَالٍ  
لَكِ أَغْنَى بِهِ عَنْ كُلِّ طَيْبٍ

والبيان مؤثران - كالأبيات السابقة - تأثيرا عيناً لكل من فقد أبياه واضطر إلى فراق قبره بعد موته. وكان على المحررى في النزوة من شعراه القبروان المبدعين. ومات له ابن فعن ع عليه جزاها شديدا، ونظم فيه ديوانا على حروف المعجم سماه «اقتراح القريح واجتراب الجريح» ومن قوله فيه وقد بلغ به الحزن أقصى غايته<sup>(٢)</sup>:

وَضَاقَ بِخَلْلِ الْفَرَاجِ <sup>(٣)</sup>	ذَبَيْتُ مُطْلَّ مِنْهُ دَمْ
دَمْ يُفْطَعُ لَهُ وَدَجُ <sup>(٤)</sup>	عَرْوَقُ النَّاسِ كُلُّهُمْ
إِلَى عِرْقِ الْثَّرَى تَشَجُّ <sup>(٥)</sup>	بَنُو الدَّنْبَا كَائِنُهُمْ
لَقْلَةُ هُمْ مَمْعُ	وَهُلْ هُنَّ غَيْرُ دَارِيْ آنَى
إِذَا دَخَلُوا بِهَا خَرْجُوا	تَأْمَلُ كَيْفَ تَأْكُلُهُمْ
وَمِمْ وَلَدُ هَا تُبْعِدُوا	

(١) الودج: عرق في المعن إذا قطع الذابح انتهت  
الميأة

(٥) تشج: تلف وتعود.

(١) انظر في زناد على المحررى لأبيه. الذخيرة  
الابن سام ٢٧٤/٤

(٢) انظر في الأبيات التالية للذخيرة ٢٧٤/٤

(٣) الأرج: المطر.

يقول إن ريحانه العطر ذو فجأة، وضاق باهنة الفرج من سقمه ومرضه، ولا يليث أن يصرخ، فهو لم يت حتف أنفه، بل مات ذيبيحا وطلّ دمه وأهدر دون أن يقطع منه عرق المعتق الذي لا يبقى مع قطعه حياة، ويعود المصري إلى نفسه، فالناس جيماً ميتون وكلهم راجعون إلى عرق الْتُرَى الذي يتشابك مع عروقهم، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في خلق آدم إذ قال: «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كُنْ فيكون». ومعجب لأبناء الدنيا وقلة همهم كأنهم هيج لا يعون حياتهم، ويقول إنها دار أذى وإنهم لا يلبثون حين يدخلون بها أن يغرسوا منها، بل تأمل كيف تأكلهم مع أنهم أنباؤها وكأنها هرة تلد أبناءها وتقضهم. وغضى إلى العاصي الحسين ويتو في الشيخ محمد زيتونة العالم الجليل سنة ١٤٤١هـ/١٧٣١م ويرثيه الشاعر محمد الحضراوى بمثل قوله<sup>(١)</sup>:

قلب ينوب ومهجة تنقطع  
وأسى يزيد وقلة لاتهجع  
ولبيب نيران نضرم وفندا  
يُفلِّي بجمرها الفتى والأضلُّ  
وتلهُّف وبِكَا وفرط كآية  
ومدامع متفرحة لاتقلع  
فعلميه فلتبيك الأنام جميعهم  
وعليه فلتبيك الأئمَّا جيهم

وقلب الشاعر ينوب حزناً لموت العالم الكبير ومهجته تنقطع حسرات ويزداد أسى وحزناً ويبت مسهاً، وكأنما اضطرم طيب نار في دخالته احترق حشاء وأضله بجمره الموقدة، ويزيد به التلهُّف والبكاء والكافر ولاقمع الدمع بل تهر انهماراً لما نهى الناعي إمام العلماء وشيخ الأنام ومفزعهم في الفتوى ومسائل الدين، وعليه فلتبيك الناس جيماً ويتوجهوا لفقد ويتجمعوا مراراً وتكراراً.

ويرثي محمد الورغى في المعرى الحسيني الأمير محمد الرشيد، ويعجم في مرثيته بين التعزية فيه وتهنئة أخيه على خليفته بمثل قوله<sup>(٢)</sup>:

من أين أدركه الجمام ودونه حزم السلاح وخيمة المراس  
أتغافل البوابُ أم سقت له قبل المجمع بدُّ مع المُسas  
جهد الزمانُ ولو ذرى بقامه ما ساقه قسراً إلى الأرماس<sup>(٣)</sup>  
قادت عرَا الإسلام تنقض بعده لولا مقيم الدين بالقسطناس  
ما أخلق الملك العلي عمادة بعل الشهير النزيه الباس

(١) الأدماس: جع دمس: القبر.

(٢) الأدب التونسي في العهد الحسيني ص ٥٧

(٣) الأدماس: جع دمس: القبر.

وهو يعجب من أن الموت أدرك عصداً الرشيد سلاحه وحرسه من حوله لحمايته، ويتساءل هل تغافل الحمام أو الموت البواب أو سبقت له يد عند المراس، ويقول إن الزمان لودري بمقامه ما ساقه قهراً إلى القبور، وإن عرّا الإسلام الونقى لتکاد تنقض بعده لو لا قيض لها مقيم الدين بالعدل والقسطاس، علىٌ آخر، وما أجدل الملك الرفيع عماده به لخلقه الكريم.

### (ب) رثاء المدن والدول

هذا الضرب من الرثاء قديم في الشعر العربي منذ الجاهلية على نحو ما هو معروف عن الأسود بن يعفر ورثائه لدولة المناذرة في الحيرة ولما قضى العباسيون على الدولة الأموية بكابها أبو العباس الأعمى المكى، وحين حاصر طاهر بن الحسين قائد المأمون بقادس في حرب الأئم ورمها بالحجانيق وكثُر فيها المرق والمدم بكابها غير شاعر عباسى بكاه مراً وتنقدم مع الزمن إلى سنة ٢٥٧ وهاجم البصرة الزنج ويعقرنون مسجدها الجامع ومحيلونها أنقاضاً، وبكابها الشعراً وفي مقدمتهم ابن الرومي الذي نفعح لها وتوجع مستصرخاً لها الخليفة وجيوشه والأمة، ولباء الموق أخوه الخليفة، وظل ينالز الزنج نزاًلاً عنيناً حتى قضى نهايـاً على ثورـهم سنة ٢٧٠. وبدورـ الزـمن دورـات، وإذا أعرـابـ بيـنـ سـليمـ وهـلـلـ يـرـجـعونـ إـلـىـ الـقـيرـوانـ سنـةـ ٤٤٩ـ هـ / ١٠٥٨ـ مـ وـيـنـازـلـمـ صـاحـبـهاـ المـزـ بنـ بـادـيسـ الصـنـهـاجـيـ،ـ وـيـلـحـقـونـ بـهـ هـزـعـةـ شـدـيـدةـ،ـ وـيـضـطـرـ إـلـىـ تـرـكـ الـقـيرـوانـ لـهـ وـيـنـحـازـ إـلـىـ الـمـهـدـيـةـ عـنـدـ اـبـنـهـ حـاكـمـهاـ تـيمـ،ـ وـيـدـخـلـونـ الـقـيرـوانـ فـيـحـلـوتـهاـ أـنـقـاضـاـ،ـ وـيـقـضـونـ عـلـىـ حـضـارـتهاـ،ـ وـيـفـرـ مـنـهاـ كـثـيرـ مـنـ عـلـمـانـهاـ وـنـاهـيـ شـعـرانـهاـ،ـ وـمـنـ غـادـرـهاـ اـبـنـ رـشـيقـ،ـ وـنـاهـ يـصـفـ تـلـكـ التـكـبـةـ فـيـ قـصـيـدةـ طـوـيـلةـ،ـ وـمـنـ قـولـهـ الـمـزـينـ فـيـهاـ<sup>(١)</sup> :

الـمـسـلـمـونـ مـقـسـمـونـ تـسـأـلـهـمـ أـيـدـيـ الـمـصـاةـ بـذـلـكـ وـهـوـانـ  
يـسـتـصـرـخـونـ فـلـاـ يـفـاثـ صـرـيـخـهـمـ حتـىـ إـذـاـ سـيـنـواـ مـنـ الإـرـنـانـ<sup>(٢)</sup>  
خـرـجـوـ حـفـاظـ عـائـذـينـ بـرـيـهـمـ منـ خـوـقـهـمـ وـمـصـابـ الـلـوـانـ<sup>(٣)</sup>  
هـرـبـواـ بـكـلـ وـلـيـةـ وـفـطـيـمـيـةـ وـبـكـلـ أـرـملـةـ وـكـلـ حـصـانـ<sup>(٤)</sup>  
فـتـرـقـوـ أـيـدـيـ سـبـاـ وـتـشـتـواـ بـعـدـ اـجـتـمـاعـهـمـ عـلـىـ الـأـرـطـانـ<sup>(٥)</sup>

وهو يقول إن المسلمين تقسّموا فرقاً بينها أيدي المصاة للرحن تناهم بغير قليل من الذل والهوان، وهوهم أهل القبران يستصرخون فلا يفاث صریخهم حتى إذا بُعْثِتَ أصواتهم من

(١) المجعل في تاريخ الأدب التونسي ص ١٤٥

(٢) الإرنان: الصياغ والصراغ.

(٣) اللوان : الليل والنهر

(٤) حسان: سيدة عفيفه

(٥) يقال: تفرقوا أيدي سباً إذا تشتوا في أرجاء

الأرض

الصراغ ولا مغبة ولا مستجيب خرجوا على وجوههم يُهذبون حفاة عانذين بربهم من القتل  
والأسر وما يأق به الملوان أو الليل والنهار من مصائب ونكبات، ويقول إنهم فروا من الأعراش  
بكل مولودة ومقطومة وبكل أرملة وكل عفيفة رجاء أن يجمعون من السبي والملوان، وتفرقوا  
وتشتتوا في البلاد وتشتت معهم العلماء والشعراء. وكان يعاصره ابن شرف، ولله بدوره في  
القيروان حينئذ بكاء وتفجع مرير، وسنخنه بكلمة. ومن ندبها وتنذر إخوانه بها وقد رحل عنها  
إلى الأندلس على الحصري، وفيها يقول<sup>(١)</sup>:

كَانَهُ عَبْرَاقَ الْمُسْتَهْلَاتِ  
مِسْكِيَّةً وَحَصَاها جَوْهَرِيَّاتِ  
فَإِنَّمَا أَوْجَهُ الْأَحْبَابَ رَوْضَاتِ<sup>(٢)</sup>  
لَا يَنْسَنِنُ بَهَا الْأَعْدَاءُ أَنْ رُزْنَتِ<sup>(٣)</sup>  
إِنَّ الْكَسْوَفَ لَهُ فِي الشَّمْسِ أَوْقَاتُ<sup>(٤)</sup>  
وَصَبَرَةً وَالْمَعْلُوُّ فِي الْجَنَيْنَاتِ  
هَلْ مَطْعَنٌ أَنْ تُرَدِّدَ الْقِرْوَانُ لَنَا

أَلَا سَقَى اللَّهُ أَرْضَ الْقِرْوَانَ حَيَا  
فِيهَا لِدَنَّ الْجَنَّاتِ تُرَبَّهَا  
إِلَّا تَكُنْ فِي رُبَاها رَوْضَةً أَنْفُ  
لَا يَنْسَنِنُ بَهَا الْأَعْدَاءُ أَنْ رُزْنَتِ  
إِنَّ الْكَسْوَفَ لَهُ فِي الشَّمْسِ أَوْقَاتُ  
وَصَبَرَةً وَالْمَعْلُوُّ فِي الْجَنَيْنَاتِ

وهو يدعو للقيروان بالسقيا الوافرة كنوع الغزيرة التي لا تزال كلها ذكرها استهلت فإنها  
رفقة الجنات، تربتها مسك وحصاها جواهر لامعة، وإنما يكن في ربها الآن بعد أن خربها  
بنو سليم وهلال روضة جديدة بديعة فأوجه الأحباب بها روضات فاتنة، ويدرك ما أصاب  
القيروان من خراب فيقول: لا يشمت بها الأعداء لأن روزنت ونكتبت فإن الشمس الساطعة  
يلم بها الكسوف أحيانا، فهو رزء إلى أجل، وتعود بعده القيروان إلى حضارتها وازدهارها  
المهود. ويتحقق أن تعود سريعا إلى أهلها هي وصبرة وغيرها من الموضع والمدن.  
ومر علينا أن عبد المؤمن بن علي أمير الموحدين استولى على مدينة قابس من بد مدافع بن  
رشيد اللال بعد موقعة هزم فيها مدافعين وفر إلى أعراب طرابلس ثم لحق بعبد المؤمن في مدينة  
فاس فأذكره وأسكنه بها، وكان من فر بعد الموقعة أبو سakan عامر بن محمد من عشيرة مدفع  
وأبعد في فراره حتى دمشق وهناك بكى قابس وأيام حكم عشيرته لها. ومن قوله<sup>(٥)</sup>:

يَا حَارِ طَرْفَ غَيْرِ هَاجِعٍ  
وَالْمَدْعَعُ مِنْ عَيْنٍ هَامِعٍ<sup>(٦)</sup>  
إِنِّي مِنْ الشَّمْسِ الْأَلَى  
شَادُوا الْعَلَا أَبْنَاءَ جَامِعٍ  
وَلَقَدْ مَلَكْنَا قَابِسًا  
بِالْمَشْرِفَيْنِ الْقَوَاطِعِ

(٤) المريدة ١٣٩/١ وما بعدها والحلل السنديسة

٣٥٧/٢ وما بعدها.

(٥) هامع: سائل

(٦) الذخيرة ٢٧٧/٤

(٢) أَنْفُ: مزدحرة جديدة

(٣) روزنت: نزل بها رزء: مصيبة

تسعين عاماً لم يكن فيها لنا أحدٌ منازع  
عَبَثْتُ بِنَا أَيْدِي الزَّمَانِ وَأَحَدَثْتُ فِيْنَا الْبَدَانِ

وحارِ مُرْخَةً أَهْيَ يَا حَارَثٍ، وَهُوَ يَشْكُو مِنْ أَنَّهُ بَيْتَ مَسْهَدًا وَدَمْوَعَهُ تَهْمِي لَا تَتْقُفُ لِسَقْطِ  
قَابِسٍ فِي أَيْدِي الْمُوْحَدِينَ وَاتْهَاءَ حُكْمَ دُولَتِهِمْ مِنْ بَنِي جَامِعِ الْمَلَالِيِّينَ، وَيَقُولُ إِنَّهُ مِنَ الشَّمَاءِ  
الْعَلَامُ الَّذِينَ شَادُوا الْمَلَأَ وَرَفَعُوهَا إِلَى السَّمَاءِ أَبْنَاءَ جَامِعِ الْمَلَالِيِّينَ الَّذِينَ مَلَكُوا مَدِينَةَ قَابِسَ  
بِسَيِّفِهِمُ الْحَادِيَةِ الْقَاطِعَةِ تِسْعِينَ عَامًا مَتَّصِلَةً لَمْ يَنْزَعُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ، وَأَخِيرًا عَبَثَتْ بِهِمْ أَيْدِي  
الزَّمَانَ فَأَخْرَجْتُهُمْ مِنْ قَابِسَ وَتَرَكْوْهَا إِلَى الْأَبْدَ. وَيَبْكِيُ الدُّولَةُ الْخَفْصِيَّةُ فِي أَوَّلِ أَيَّامِهَا  
وَحَاضِرَتِهَا تُونِسُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ السَّلَامَ وَسَنْخَصَهُ بِكَلْمَةٍ بَعْدِ ابْنِ شَرْفٍ.

### ابن<sup>(١)</sup> شرف القيروانى

هو أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن شرف المذامي الأجدابي المولود بالقيروان حوالي سنة ٣٩٠ ويبعد من نسبته إلى قبيلة جذام أنه من أبنائها إما صلبة وإما ولاة، كما يبدو من تلقبيه بالأجدابي أن أصل أسرته من أجدادية بليبيا وزارت القيروان وعلى كل حال هو قيروانى المولد والمنشأ والمربي، ويدرك ياقوت في صدر ترجمته له أنه درس على أبي الحسن القابسي وأبا عمران الفاسى. وكان القابسى شيخاً جليلًا من شيوخ القيروان في الفقه والتفسير والحديث، وتوفي سنة ٤٠٣ قلزم تلميذه أبي عمران الفاسى يأخذ عنه ما عنده كا لزم الفزار عالم النحو واللغة بالقيروان في زمانه وأيضاً لزم أبي إسحاق إبراهيم المصري المتوفى سنة ٤١٣ صاحب زهر الآداب، وكان حبيباً إلى نفوس شباب القيروان قريباً إلى قلوبهم، فكان يجتمع معهم عنده وينهل من معارفه الأدبية الكثيرة. وفتحت ملكه الأدبية مبكرة، وألف في نقد الشعراء منذ الجاهلية مصنفاً موجزاً وصف كثيرين فيه وصفاً مجملًا سماه «رسائل الانتقاد» وهو أشبه بمقامة.

ويبدو أنه أخذ يحظى بمكانته مرموقة في الشعر مما جعله يترعرع على رئيس ديوان الإنشاء للمعز بن باديس الصنهاجى على بن أبي الرجال المتوفى سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٥م وأعجب بದانعه فيه، فرأى أن يقدمه إلى المعز ونال استحسانه، وأصبح من شعراء الدولة يتفنّى بانتصاراتها على

التونسي ص ١٥٠ وابن شرف القيروانى للدكتور طه المحاجرى (طبع بيروت).

(١) انظر ترجمة ابن شرف في الذخيرة ٤/١٦٩ وما بعدها والمرتبة ٢/٢٢٤ ومعجم الأدباء لياقوت ٢/١٤٦ والأغواچ ٣٤٦ والمجمال في تاريخ الأدب ٢/١٤٢

قبائل زناتة ولواثة، ويندو على المز في المناسبات المختلفة بمناسبه مع قربته ورفيقه ابن رشيق، وكان المز أديباً ويعقد ندوات يحضرها بعض العلماء والأدباء، وأصبحا شاعرية المقربين، وجَرَ ما ينظمانه في مدحه إلى شيء من المنافسة بينهما، وجَرَت المنافسة إلى شيء من الجفوة ثم المخصوصة، وفزعا أحياناً إلى التهاجي وأخذ كل منها يتعقب سقطات صاحبه، ويكتب في ذلك رسائل وخاصة ابن رشيق، وكثيراً ما كانا يعودان إلى التصاف والمودة - وبينما هم في ذلك إذا بالزحفة الملالية تدمر القبروان فيتركها الشاعزان مع المز إلى المهدية، وسرعان ما ينزلان صقلية، ويظل بها ابن رشيق، أما ابن شرف فيرحل عنها مع أسرته إلى الأندلس، ويبدو أنه لقى مع أطفاله الصغار عنانته في رحلته بحراً وبرأً، ويصورهم في بعض شعره حاماً ضلًّا أو كاره وكلما أفزعهم شيء تزاهموا على ضلوعه، وجضنه لا يسمون - إذ كانوا تسبعة، فهذا يثبت عليه وذلك يُطلق عنه، وهو حان مشق عليهم، وينزل المرية في الأندلس برحاب المعتصم بن صماد ويتقدحه وبينال عطایاه ويرسل ببعض قصائده إلى المعتصد أمير إشبيلية، وظل ينتقل بين أمراء المدن الأندلسية ببنسبة ومرسية وبطليوس وطليطلة والوزير ابن السقا، بقرطة وبينال عطایاه إلى أن توفي سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٥٧ م، ولم يكن ابن شرف شاعراً فحسب، بل كان أيضاً صاحب شعور رقيق رقة مفرطة، كما كان صاحب حس مرهف إلى أبعد حد، وي逞ض ذلك في وصفه لنكبة القبروان سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٨ م حين نزل بها الأغرايب الملاليون، وأخذوا يفتكون برجالها ويسبون نسائمها ويدمدون دورها ويأتون على كل ما كان بها من مظاهر المضاربة والمعران، وله فيها وفيها نزل بها وداهها من الغراب تصادف رائعة، يقول في إحداها - وهي رائحة - إنه لم يبق بها سراج مضيء سوى النجوم ولم يعد ينطفئ فيها خليط معاشر ولا عاذ يُرى فيها أحد من نسائمها الجميلات فقد رحل عنها وأصبحن يتن على فرش المصالح يتغطين بأسمال بالية. ومن رائع تصويره لما حل بالقبروان من عذوان هؤلاء الأغرايب المجنونة يوم غزوهم لها ويصور هذا اليوم الأسود قائلاً:

سُقْ حَفَّةَ بِهِ عَوَارِيَ رَجَلَيْ  
رَحْمَةَ الْعَشْرِ وَالصَّحَافُ تَتَلَّ  
سَخْلَقُ يَبْكُونَ وَالسَّرَاوُرُ تَبَلَّ(١)  
مُلْتَوِي حَسَرَةَ وَشَجَوْرَا وَنُكَلَّا(٢)

بَعْدَ يَوْمٍ كَانَهَا حُبِيرَ الْخَلَدِ  
وَلَهُمْ زَحَمَةَ هَنَالِكَ تَعْكِي  
وَعَجَيْبَ وَضْجَعَ كَضْجِيجَ الْ  
مِنْ أَيَّامِي وَرَاهِنَ يَسَامِي

(١) أيام: جمع أيام: العزب من الرجال والنساء.  
نكلاء: فندا للولد

(٢) في القرآن في وصف يوم القيمة أنه «يوم تُنَلَّ السرائر» وختبر.

## ونَكَالْ أَرَامِلْ حَامِلَاتْ طَفَلَةَ تَحْمِلُ الرُّضَاعَ وَطَفَلَاً<sup>(١)</sup>

لقد كان يوما عصيما لا كمثله يوم، يوم حشر فيه أهل القبروان حفة عراة راجلين، يتدافعون في زحام رهيب كزحام الحشر يوم البعث حين تتل الصاحف، وصباح وضجيج وبكماء من كل جانب كأنه يوم الحشر حقا يوم تبل وتبدو السراير، ونساء أيام غير متزوجات اكتظوا حسرا وحزنا وتکال فاقدات لأزواجهن أرامل مرضعات يحملن طفلات أو أطفالا. ويستمر ابن شرف باكيما ما نزل بالقبروان قائلا:

نَادِيَاتْ، عَفَرَاءَ تُشَبِّهُ سَعْدَى  
وَسَعَادَ تَجِيبَ بِالنُّوحِ جُنَاحَ<sup>(٢)</sup>  
لَيْسَ مِنْهُنَّ مَنْ تَوَدُّعُ جَارًا  
لَا، لَا حُزْنَةَ تَشْبِهُ أَهْلًا  
فَإِذَا التَّفَرَّ ضَمْهُمْ فَرُوقُ الدُّفَ<sup>(٣)</sup>  
رُّوكُمْ لَهُمْ غَيْرُ ذَلِكَ النَّيلَ نَهَلَ<sup>(٤)</sup>  
مِنْ نَعَابِينَ حَامِلِينَ نِسَوَاتِ  
عُصَلَا: ذَابِلًا وَبَنِيلًا وَنَصَالَا<sup>(٥)</sup>  
وَشِيَاطِينَ رَامِحِينَ يُلَاقُو نَبِيِّنَوْنَ الْفَلَلَا مَسَاكِينَ عَزَلَا<sup>(٦)</sup>

وهن نadiesات، عفراء تساعد سعدى في الندب والبكاء وسعاد تجيب جملأ بالنوح والعويل، وليس منها من تقف لتودع جارا ولا سيدة تودع أهلا، وإذا الغلام ضمهم صوب الدهر لهم نيلا غير ذلك النيل من نعابين حاملين نسوانا صلبة: رماحا ونبلا ونصالا، وشياطين تطم بالرماح في سود الفلوان، مساكين عزلا دون سلاح. ويبكي ابن شرف رجال القبروان الذين ولوا منها فرارا، قائلا:

رَاحِلَا بِالْغَلَاصِ يَحْمِلُ رَحْلَاهُ<sup>(٧)</sup>  
إِذَا نَجَتِ الْمَقَادِيرُ مِنْهُمْ  
لَقَنِ الْهُوَنَ وَالْمَذَلَّةَ أَئِي  
كَانَ مِنْ سَائِرِ الْبَلَادِ وَحْلَاهُ  
وَتَرَى أَشْرَفَ الْبَرِّيَّةَ نَفَّاسَا  
نَاكِسَا رَأْسَهُ يَلَاطِفُ نَذْلَا  
مَزْقُوا فِي الْبَلَادِ شَرْقاً وَغَربَا  
يَسْكِبُونَ النَّمَوْعَ هَطْلَا وَوَبِلَا<sup>(٨)</sup>

والرجال إن نجت المقادير منهم راحلا ومعه رحله وما استصحبه فيه من الأوعية لقى الموان والذل أفق كأن وأين حل، وترى أشرف البرية وأعزها نفاسا ناكسا رأسه يلطف أحد هؤلاء

الفبار.

(١) تکال جمع ثاکلة: فاقدة الولد.

(٢) الرحل: ما يحمل على الدابة للركوب أو من متعاثنات.

(٢) عفراء وسعدى وسعاد وجل أسماء نساء.

(٣) فرقوا: سند.

(٤) عصلا معوجة يزيد صلبة. ذابل: رعما دقيقا.

(٥) رامحين: يحملون الرماح، جون: سود من كثرة

الأنذال، وبها للحسرة لقد مُرّق وفُرق أهل القبروان في البلاد شرقاً وغرباً، وإنهم ليسكرون الدموع متابعة ومدارراً. ولا رب في أن ابن شرف استطاع أن يثار لقومه وأهله من سكان القبروان من هؤلاء الأعراب الجفاة الغلاظ ثأراً خالداً على مر الزمن بفضل شاعريته الفذة النادرة.

### محمد<sup>(١)</sup> بن عبد السلام

هو أبو الفتح محمد بن محمد بن عبد السلام مولده ومنشئه ومرباه بتونس في القرن العاشر المجري اختفى في شبابه إلى حلقات العلماء بجامع الزيتونة، وكان ذكياً فحمل عنهم معارفهم وأخذوا ينوهون به وخاصة في الأدب، ولع اسمه بين أدباء تونس وشعرائها، ولما احتل الإسبان مدينة تونس وأخذت تصدر منهم المظالم التي سجلها التاريخ غضب ابن عبد السلام لمدينته وقومه وصم على مقاومة البلاد واتجه إلى الشام وأخذ دمشق مقراً له، وأخذ يقرئ بها للطلاب العلوم المختلفة ونصوصاً جيدة من الأدب إلى أن توفي سنة ٩٧٥هـ/١٥٦٧م ودفن بباب الفراديس، وله قصيدة طربلة أرسل بها من دمشق إلى أهله يتوجه فيها إلى وطنه، ويذكر تونس ودولتها الحفصية، وهو يستهلها بيت أشواقه قائلاً:

سلوا البارق النجدى عن سُبْع أَجْفَانِي  
وعما يقللُى من لوابع نيرانِي  
ولا تأسّلاً غير الصُّبا عن صبائِنِي  
وشدة أشواقِي إِلَيْكُمْ وأشجانِي  
وكُمْ نحوكِم حَمْلَتُهَا من رسالَةِ  
مسْلُوَّةِ فِي شَرْحِ حالِي ووِجْدَانِي  
وَنَاسِدَتُهَا بِسَاقِي إِلَّا تَنْفَضَّلْتُ  
تعيَّةً مشتاقِي إلى ذلك العَمَى  
وَسُكَانِي والنازحين بِأَطْعَانِي<sup>(٢)</sup>

وهو يطلب إلى أهل بلاده تونس الحبيبة أن يسألوا البرق الم قبل من نجد متى المحب عما يذرف من دموع حنيناً إليهم وعاً يضطرم في قلبه من نيران الشوق ولواعجه، ويقول لهم: لا تأسّلاً غير الصُّبا - التي طالما ذكرها التجدديون المحبون - عن أشواقِي وأشجانِي، وأشجانِي، وكم حلتُها إليكم من رسالة مفعمة بمشاعرِ التجددانية، وقد ناشدتها أقاً واستحلقتها به أن تتفضُّلْ يتبلّغُ أحبابِي وجياني التونسيين سلامي وإنها لتعيَّةً مشتاق إلى ذلك المحب وسكانِه وإلى النازحين عنه في الأطعمان والمرواج ويقول.

(١) أقطعان جمع ظعينة: الراحلة يرحل عليها.  
(٢) أقطعان جمع ظعينة: المجمل في تاريخ  
اللّهوج.

(١) انظر في ترجمته وشعره المجمل في تاريخ  
الأدب التونسي ص ٢٣٠.

سحائب تحكى صوب مسمى القانى<sup>(١)</sup>  
تخيّرها قنّا أناضل يونان  
أنيسة إنسان رأها بإنسان<sup>(٢)</sup>  
من الإنس والفضل المبين بما حوت

سفى أقه هاتيك الديار وأهلها  
وحيّا ربوع الحى من خير بلدية  
هي الحضرة العليا مدينة تونس  
لها الفخر والفضل المبين بما حوت

وهو يدعو أقه أن يسقى تلك الديار وسكانها بسحائب تحكى ما ينهى من مدمعه القانى،  
ويسائل أقه أن يعيى تلك البلدة العظيمة التي تغيرها قدّيما فضلاء اليونان، إنها المدينة العليا  
تونس مؤنسة كل إنسان يراها بعينه، وإن لها الفخر والفضل الّيّن بما حوت من رجال الإنس  
ومن الحسن البارع، ويترسل باكيًا الدولة الحفصية بها قائلاً:

مراتب تسمو فوق هامة كيوان<sup>(٣)</sup>  
بها من مانى العز أفسر نبيان  
وحسن نظام لا يُعاب بِنقاصٍ  
تصول بأسيافي وتسطُو بُسران<sup>(٤)</sup>  
وكانْ على الأعداء في حومة الوغى تصول بآبطالٍ وتنطُو بشعمانٍ

لقد حل منها آل حفصٍ ملوّكها  
وأسادوا بها عظم الملوك وشيدوا  
وكان لهم فيها بهمة وبهجة  
وكان لهم فيها عساكر جمة  
 وكانت على الأعداء في حومة الوغى

وهو يبكي الدولة الحفصية مشيداً بملوكها الذين سمت مراتبهم فوق رأس كوكب كيوان أو  
رُحل، واسدوا أكثر الملوك وشادوا بها من قصور العز أفسر القصور وكان لهم فيها حسن وبهجة  
وجمال، وكانت لهم جيوش كبيرة تصول وتنهى بسيوف ورماح صلبة، وكانت تسطو على الأعداء  
في ساح لوعى وال Herb بآبطال لا يائتهم أبطال، ويبكي ما كان بتونس من علم وعلماء وأدب  
وأدباء، قائلاً:

لما في جمامها من أئمَّة عرفـان  
وجاهـة وعزـ مجده ليس بالفـانـ  
يـفـوقـ بـنـادـيـهاـ بـلـاغـةـ سـعـبـانـ  
وـفـ كـلـ نـوـعـ أـهـلـ جـنـقـ وـأـنـقـانـ

وكانت لطلاب المعارف قبلة  
وكان لأهل العلم فيها وجاهـةـ  
ومن أدباء النـظمـ والنـثرـ معـنـىـ  
ومـاـ بـرـحـتـ فيهاـ عـاسـنـ جـمـةـ

وهو يبكي حركتها العلمية والأدبية، ويدرك كيف كان الطلاب يؤمون أئمتها من كل فج  
كما يذكر ما كان لعلمائها عند حكامها وأهلها من جاهـةـ وعزـ مجدهـ لاـ يـفـنـيـ، ويشيد بأدبائها من

(١) صوب هنا: سيل.

(٢) كيوان: زحل.

(٣) إنسان الثانية: إنسان العين وهو المدقق.

(٤) المران: الرماح.

الشعراء والكتاب وبلاعثهم التي تفوق ببلاغة سهيان المشهور بحسن بيانه في أوائل المسر الأموي، وبنوه بما كان بها من محسن حضارية وصناعات بديمة قام عليها أهل حنق وافتنان وإنقان. ويأسى لهذا المصير المحزن الذي أصاب مدينة تونس قائلاً:

نشست ذاك الأنس من بعد جمعه  
فأعظم برزوه خص خير مدينة  
لمرى لقد كادت عليها قلوبنا  
 وما النهر إلا هكذا فاصطبر له

كما انتشرت يوما قلاتُ عقبانِ  
وخير أنس بين عجم وعربانِ  
تضمر من خطبٍ عليها بنيرانِ  
رذئْة مالٍ أو تفرق خلانِ

وهو يقول إن كل هذا الأنس الذي كانت تحظى به مدينة تونس وكل هذا الجاه والمجد تفرق وتشتت كما تشتت وتنتشر قلاتُد أو عقود ذهبية بديمة، وما أعظمها من رزء فادح نزل على خير مدينة وخير أنس بين الأعاجم والعرب، وإن قلوبنا لتضطرم عليها نيراناً ملتهبة. ويعود إلى نفسه فيقول إنه ليس أمانتنا إلا الصبر حق تجل عن مدینتنا تلك الغمرة. وهي حقيقة الدهر، فهو دانياً يرزاً المدن كما يرزاً الناس إما في مال وإما في فراق إخوان وخلان.

## ٤

## شعراء الوعظ والتتصوف

## (أ) شعراء الوعظ

القرآن الكريم دانياً يعظ ويدعو الإنسان إلى التفكير المتصل في ملوك السotas والأرض ليعلم أن له خالتاً أحكم صنمه، ودانياً ينهى إلى أعمال وأقوال من العبادات التي تظهر نفسه كما ينهى إلى أنه حرم الفواشـ ما كبر منها وما صفر وأنه ينبغي أن يسلك طريق الفضيلة والتحلـ بالخلق الحسن حق بناـل رضا ربه ناـذا كل الرذائل ومرقاـيا ربه في كل ما يائـ من قوله أو فعل. وينـي القرآن وينـي في عقيدة المعاد وأن الناس سـيعـون جميعـا يوم القيـمة وكل يحاسبـ على أعمـالـه وينـيـزـ علىـهاـ فإـماـ إلىـ نـعـيمـ آلهـ وـرـضـوانـهـ وإـماـ إلىـ جـعـيمـهـ وـعـذـابـهـ. وـشـرـعـ آلهـ الخطـابةـ الـواـعـظـةـ فيـ صـلـاةـ يـومـ الـجـمـعـةـ كلـ أـسـبـوعـ وـصـلـةـ الـمـبـدـينـ. وـرـاعـظـ الـأـمـةـ الـأـوـلـ الرـسـولـ ﷺـ وـنـلـاءـ الـخـلـفـاءـ الرـاشـدـونـ يـعـظـونـ النـاسـ. وـبـالـمـلـلـ خـطـبـاءـ الـأـمـةـ فيـ مـارـقـ الـعـالمـ الـإـسـلـامـ وـمـغـارـبـهـ. وـنـكـافـرـ الـوـاعـظـ -ـ معـ مـرـ الزـمـنـ -ـ يـعـظـونـ النـاسـ فيـ الـمـسـاجـدـ. وـلـلـإـقـليمـ الـتـونـسـيـ مـثـلـ غـيـرـهـ مـنـ الـأـقـالـيمـ الـإـسـلـامـيـةـ نـشـاطـ وـاسـعـ فـيـ هـذـاـ الجـانـبـ. وـيـكـنـظـ كـتـابـ رـيـاضـ الـنـفـوسـ لـلـمـالـكـيـ بـأـسـاءـ وـعـاظـ كـثـيرـ بـنـ كـانـواـ يـعـيشـونـ مـعـيشـهـ تـقـشـفـ وـزـهـدـ. رـافـضـنـ مـنـاعـ الدـنـيـاـ

طالبين ما عند الله من ثواب الآخرة. وساعد على انتشار هذه الروح الدينية هناك كثرة المحارس أو الرباطات التي أقيمت على طول الساحل التونسي للعبادة والنسك وحراسة البلاد من القراءة وأعداء الله الروم وغيرهم. ولم يكن هناك فقيه كبير إلا ويقيم بها بعض أشهر سنوايا للدفاع عن الوطن حين يباغته عدو أو قراصنة، و Ashton سخنون إمام المذهب المالكي في المغرب جعله بأنه كان يرابط وقتاً في السنة بالمنستير قرب مدينة سوسة، وكان واعظاً وزاهداً كبيراً وكثيراً من تلاميذه كانوا زهاداً واعتزلوا واعتبروا منهم شاعر قفيهان واعظان، هنا أبو العباس بن زرزر وأحمد الصواف، أما ابن زرزر فأكثر من الشعر في توحيد الله والرد على المارقين والملحدين، وأما أحمد الصواف فله شعر كثير في الموعظة وسنخنه بترجمة، ويلقانا بهد ابن الرايس الفضل بن نصر المتوفى سنة ٣٤٤هـ/١٩٥٥م وهو من أخذ الشعراة والعلماء، وله يعظ من قصيدة<sup>(١)</sup>:

مَاذَا تُرِيكَ حَوَادِثُ الْأَزْمَانِ  
وَصَرْفُهَا وَطَوَارِقُ الْحَدَّثَانِ  
وَالجَارِيَاتُ السَّبِيعُ فِي الْفَلَكِ الَّذِي  
يَجْرِي بِتَقْدِيرِ الْمُظَيْمِ الشَّانِ  
مِنْ خَفْضٍ أَعْلَامٌ وَرَفْعٌ مَعاشِرٌ  
بِزَوَالِ سُلْطَانٍ إِلَى سُلْطَانٍ  
أَمَا الزَّمَانُ فَوَاعْظَ لَكَ ضَرْفَةٌ  
لَوْكَتْ مَتَّعْظًا بِصَرْفِ زَمَانٍ

وهو يقول: ها هي حوادث الأزمان وتواترها وحوادث الليل والنهار وما تغير به الكواكب السيارة في الفلك بتقدير الله وما يتصل بذلك من الهبوط بأناس والارتفاع بأخرين وزوال سلطان إلى سلطان، كل ذلك هو الزمان، وحرى بك أن تتعظ بصرفة وبما يجري به من محنة وخطوب. ولا ريب في أن حلقات الوعظ الكثيرة التي كانت متبنية في القبروان وغيرها منذ القرن الثالث قبل قيامها هي التي أعدت لكترة الوعظ على ألسنة الشعراء. ويقول عبد الله بن رشيق المتوفى سنة ٤١٩هـ/١٠٢٩م<sup>(٢)</sup>:

غَيْرُ أَعْمَالِكَ الرِّضا  
بِالْمَقَادِيرِ وَالْقَضَا  
بِهِسَا الْمَرْءَ نَاطِقٌ  
قَبْلَ قَدْ كَانَ فَانْقَضَى

وهو يدعو إلى الرضا بالقضاء فلن يستطيع أحد أن يبدل حكم الله، وإن لابد أن يقبل كل ما ينزله به، فذلك هو عين العقل والصواب. ويعرف عبد الله بن رشيق من الموت إذ ما يلبث أن ينزل بالإنسان، فيقال: قد كان حياً وانقضى أجله وانتهى. ويقول على بن أبي الرجال رئيس

(١) المجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ٨٨.

(٢) صروف بجمع صرف: نوائب الحدثان: الليل والنهار.

(٢) الأنفوذ ص ١٩٢.

ديوان الإنشاء للدولة الصنهاجية المتوفى سنة ٤٢٦ للهجرة<sup>(١)</sup>:

**أَنْ الزَّمَانُ زَمَانُ الْعُقْلِ فَاغْشِ اللَّهَ وَحْلُّ عَنِ الْجَهَلِ**  
واعلم بأنك في الحساب غداً تجزى بما قدمت من فعل

وهو يقول إن من يؤمن الزمان لا يُعد صحيحاً العقل، بل لأنّا عقله به آفة، وأى زمان إننا نعيش فيه حياة قصيرة أو طويلة ثم نلقى الله فعرى بكل شخص أن يخشى وأن يتخلص مما على عقله من غشاوة الجهل فإنه معروض على ربه في الحساب غداً ويجزى بما قدمت يداه من عمل طيب أو سبيء. ويقول على بن حبيب التخوي المتوفى سنة ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٩ م<sup>(٢)</sup> :

**لَمْرَءٌ فِي أَيَّامِهِ وَاعْظَمُ  
كُمْ مِنْ قُرْبِ الْعِنْ في غِبْطَةِ  
أَعْرَاهُ خَرْفُ الدَّهْرِ مِنْ لَبْيَهِ  
فَفَارَقَ الْأَحَبَابَ عَنْ كُرْبَهِ  
أَسْرَفَ فِي الدُّنْيَا عَلَى نَفْسِهِ  
يَارَبُّ غُفرَانِكَ يَرْجُو الَّذِي**

وهو يعظ المفروض بأنه لو فكر في رسمه أو قبره وأنه مدفون به غداً لطأطاً من غروره، وتذكّركم من شخص كان مسروراً في نعمة وحياة رغدة طيبة جرده حادث الدهر من ذلك كلّه، ففارق الأحباب مكرهاً مرغماً وأصبح في حفرة مظلمة لا أنيس ولا رفيق . وينتهي الشاعر إلى ربه معتزاً بما أسرف على نفسه من الذنب راجياً منه الفرقان. ويقول عبد الله التجاني الذي ترجمنا له بين شعراء المدح من قصيدة وعظية طويلة<sup>(٣)</sup> :

**بَادَرَ إِلَى التَّقْوَى بِدَارِ مُسَارِعٍ  
وَانْهَضَ إِلَى الطَّاعَاتِ تَهَضَّ بِسَاقِ.  
قَبِيلَ التَّفَافِ السُّاقِ مِنْكَ بِسَاقِ  
كَذَّهَا وَأَنْتَ لَمَّا كَدْحَتْ مُلَاقِ  
وَجْزَائَهُ جَارٍ عَلَى اسْتِحْقَانِ**

وهو ينصح من يخاطبه بالمبادرة إلى التقوى وعبادة الله بدار مسارع عجل، وبالنهوض إلى

(٤) رسم: قبر.

(١) المجمل ص ١٢٩.

(٢) زمانة: مرض. حُلُّ: تحول.

(٥) المحمل المتوفى ٥١٧/٢ والمحمل في تاريخ

(٣) الأthonog ص ٢٨١ والمحمل المتوفى ٣٣٦/٢  
الأدب التونسي ص ٢١٣ .  
المجمل ص ١٣٤ .

أداء الطاعات فهو من بريد الحصول على قصب السبق، وينصحه كذلك أن لا تفلت منه مهلة ساعة أو لحظة دون أن يعبد الله حق عبادته قبل أن يواfinee القدر ويبعث يوم القيمة يوم المول الأكابر والتغافل الساق بالساق كما جاء في وصف يوم البعث بسورة القيمة. ويستعين عبد الله في البيت الثالث بالآية القرآنية في سورة الانشقاق: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِذْ كَادَ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلِقْتَهُ﴾ فالإنسان عامل في دنياه وسليق جزاء ما عمل من خير أو شر في آخره، إذ كلُّ يُجزى بعمله وبنال ما يستحقه من ثواب أو عقاب. وحرى بنا أن نتوقف قليلاً عند الصواف ومواعظه.

#### أحمد<sup>(١)</sup> الصواف

هو أحمد بن أبي سليمان داود الصواف، ولد سنة ٢٠٤هـ/١١٩٠م ودخل الكتاب مثل لداته وحفظ فيه القرآن الكريم، واختلف إلى حلقات المحدثين والفقهاء، ولزم حلقة سخنون وكان من أقرب تلاميذه إليه لما عهد فيه من ذكاء، وفي كتاب الحلل السنديبة روايات مختلفة له عن أستاذه تتصل ببعض أخباره وببعض الأحاديث النبوية. وكان ثقة في الفقه والعلوم الإسلامية، وروى كثيراً من الشعر غنّى به ملكته الشعرية، وكان يوصي طلبه بالوقار والتلتفت وب مجالسة العلماء وبجانية الأشرار، وكان كثير التأمل في ملوكوت السنوات والأرض، ونقش على خاتمه: «أحمد تفكّر تعبّر» ويؤثر عنه أنه كان يقول: أنا حُبسُ (موقوف) وكثير حبس على طلبة العلم، فهو محبوس على عبادة ربّه ونسكه وكتبه محبوسة على طلاب العلم والمعرفة، وكان شاعراً جيداً وطبعيًّا أن تكون أكثر أشعاره في الحكمة والعلة الحسنة، وعاش طويلاً حتى وفاته الأجل سنة ٢٩١هـ/١٩٠٣م ومن وعظه:

تركتُ تكاليف الحياة لأهلهَا  
وَجَانِبْتُهَا طَوْعًا فَجَانِبَنِي الرَّدُّ  
أَرَانِي بِحَمْدِ اللهِ فِي الْمَالِ زَاهِدًا  
وَفِي شَرْفِ الدُّنْيَا وَفِي العَزِّ أَزْهَدَا  
تَخْلَيْتُ عَنْ دُنْيَايِّ إِلَّا ثَلَاثَةَ دَفَّاتِرَ عِلْمٍ ثُمَّ بَيَّنَتَا وَمَسْجِدِداً

وهو يقول إنه لم يتعلّق بشيءٍ من تكاليف الحياة ومتاعها، ولذلك بارك الله في حياته وجانبه الموت، ويصرّح بأنه زاهد في كل ما يطمع فيه الناس من المال ومن الشرف والعز والمجد فكل ذلك لا يعتد به إنما يعتد بثلاثة لا غير: بدفاتر العلم ومدارسته وبالمسجد يتبتّل فيه إلى ربّه وبيت يأوي إليه، فتلك الثلاثة هي غناه وسعادته وكل ما يقتنيه من دنياه. ثم يقول:

---

(١) انظر في أحد الصواف رياض النغوس السنديبة (انظر المهرس). للبالغ ٤٠٧/١ وما بعدها والمجل ص ٦٩ والحلل

ألم تر أن الدهر يُقْرِي أهله  
فما حل قوم فيه إلا بِجَمِيعِهِ  
وكم قد رأينا من عزيز مُشَرِّفٍ  
أنتَ المانيا وهو في حين غفلة

(١) هوما وأن العيش صار منكدا

وبيت مَقْرًا في القباب مُهْدًا  
فاضح ذليل في التراب مُوسِدًا

وفيم تعلق الناس بالدنيا؟ إن الدهر لا يزال فيها يُقْرِي الناس - ويطعمهم - هوما هما من  
بعدَهُم، وقد صار العيش فيها نكدا كله، وهل أحد فيها إلا أصابته فجعة أو مصيبة موجعة من  
موت صديق أو قريب، وإن الكأس التي ذاقوها ليدوتها كل شخص بدوره، وكم قد رأينا من  
عزيز له شرف لا يدان به شرف يترك ذلك كله حين يوافيه النهر إلى قبر محمد بن القبور، فإنه  
ليموت على حين غفلة من أهله وأصحابه، ويدفن في التراب ويتوسده ويصبح فيه أسيرا ذليلًا  
لا شرف ولا طنافس، ولكن تراب بجانبه تراب. وقال مبتهلا إلى ربه في ختام قصيدة له  
طويلة:

أجزئني من عذابك واعف عنِّي وَكُنْ لِي مِنْكَ بِأَمْلَى مُجِيرًا  
فإني قد كبرت ورقَ عَظِيمٍ وَجَتَ إِلَيْكَ مُسْتَجِيرًا  
 فهو لا يخاف الموت ولا يرهب، ولذلك لا يعد المشيب نذيرا له بل بشيرا، إذ سبلقى ربه،  
وعاش حق توفى في السابعة والثمانين من عمره.

### (ب) شراء التصوف

مر بنا في الفصل الأول كيف أخذت تنشط حركة الزهاد والنساك في القبروان وتونس  
وغيرها من بلدان التغور على الساحل التونسي منذ أواخر القرن الثاني للهجرة، إذ بُني بجوار  
هذه التغور رباطات - وتسمى هناك محارس - للمجاهدين في سبيل الله ضد القراءنة وكانت  
أشبه بمحصون كبيرة إذ كان بعضها يبلغ نحو ثلاثين غرفة ومعها مسجد وحمامات وأحواض  
مياه، وكثيرا ما كان يُلْحَقُ بها إسطبل للخيول حتى يتعرن العباد فيها والناسكون على الفروسية  
ولقاء العدو، وطبعي أن كان بها بعض الأسلحة. وأعطت هذه المحارس أو الرباطات الفرصة  
لكى تتكون طبقات من النساك الذين وهبوا نفوسهم للنساك ولجهاد أعداء الله، وكان  
الفقهاء - حق كبارهم من أمثال سحنون إمام المذهب المالكي في الفقه - ينزلونها فترات  
ويلقون بها محاضرات ودروسًا من شأنها أن تزيد النساك نسكا وأن تدلع الحماسة في قلوبهم  
لحماية الإقليم التونسي.

(١) يقرى: يطعم.

ويمتنا الآن جانب النسك والعبادة، وقد أخذ كثيرون في تلك الممارس يعيشون للنسك الحالص وحاكمهم في ذلك بعض سكان القيروان وغيرها من المدن. وكان التصوف قد أخذ يشيع في الشرق وانتق عنده ضرب فلسفى آمن بالحلول على نحو ما هو معروف عن الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ للهجرة، وظلت القيروان ومحارس الساحل التونسي بعيدة عن هذا التصوف الفلسفى، غير أنه مع الزمن أخذ يظهر فيها من استنفرقا في الزهد والنسك، حتى يمكن أن نسميه متتصوفة، غير أنهم متتصوفة سنين، وهو تصوف فردى فلا طريقة صوفية للمتتصوف ولا مبادئ خاصة يتخلها طريقة الصوفية مثل أبي عقال المار ذكره غلبون بن الحسن بن غلبون من أسرة الدولة الأغلبية من أبناء مدينة رقادة بالقرب من القيروان، وكان عابداً ناسكاً، وهاجر إلى مكة واختارها دار مقام له إلى أن توفى، وله أشعار زاهدة كثيرة عليها مسحة من التصوف أنشد منها المالكى في رياض النفوس مقطوعات متعددة<sup>(١)</sup>.

ومن متتصوفة هذا الدور عرز بن خلف المتوفى سنة ٤١٣ وأبو الفضل بن النعوى المتوفى بعد بقرن، وسنخض كلاً منها بكلمة. ومعنى ذلك أن القيروان ظلت لا تعرف التصوف الفلسفى ولا الطرق الصوفية حتى منتصف القرن السادس الهجرى إلا ما كانت تقرؤه في الكتابات المشرقة، وتنتشر موجة التصوف الفلسفى غرب الأقاليم التونسى بمدينة بجاية إذ ينزلها أبو مدين شبيب المتوفى بتلمسان سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م وكان يشوب تصوفه شيء من الزرعة الفلسفية، وتبعد كثيرون في الجزائر والمغرب وزار تونس، وتبعد فيها غير تلميذه مثل أبي سعيد خلف بن يحيى التميمي المولود سنة ٥٥١ والمتوفى سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م، ويبعد أن عقديته الصوفية لم ترسخ في القيروان، وزار تونس - بعده - يحيى الدين بن عربي المتتصوف الأندلسى المتوفى سنة ٦٢٨ وأقام بها مدة التفت فيها حوله بعض الأتباع، وأهم منه ومن أبي مدين تأثيراً في الإقليم التونسى أبو الحسن الشاذل المولود سنة ٥٩٣ هـ / ١١٧٧ م والناشئ فيه بشاذلة إحدى بلداته واتجه إلى التصوف مبكراً، ورحل إلى المشرق وتعرف فيه على أحد معتقدى الطريقة الرفاعية، وهى إحدى الطرق الصوفية السننية التي ظهرت بالشرق في القرن السادس الهجرى، وعاد إلى المغرب واتجه غرباً إلى قاس ولقي فيها عبد السلام بن مشيش أحد أتباع طريقة أبي مدين، فلزمته مدة، ثم تركه إلى شاذلة وعاش بها فترة، وكان يتركها، أحياناً إلى تونس وينشر فيها دعوته، وتبعد فيها أصحاب كثيرون وكان يهاجم المخالفات والتسلول بقوة، وتعرف على تلميذه أبي العباس المرسى وأعجب كل منها بصاحبها. ويبعد أنه رأى أن يتسع بدعونه إلى طريقة، فصمم على مغادرة تونس إلى الإسكندرية وصاحب معه

أبا العباس المرسي وجما من مریديه ونقطها سنة ٦٤٢هـ، ويقال إنه ترك في تونس خمسين تلميذاً متصوفاً من أتباعه مثل على القرجاف وعائشة المتوبية<sup>(١)</sup> وطريقته أقرب إلى الطرق الصوفية السننية منها إلى الطرق الصوفية الفلسفية، وشاعت طريقته لا في الإسكندرية وحدها، بل أيضاً في القاهرة والمن مصرية المختلفة، بفضل تلميذه السكتندرى ابن عطاء الله، وقد تولى مشيخة الطريقة بعد وفاة أبي العباس المرسي سنة ٦٨٥هـ ولله فيه وفي الشاذلي كتابه الرائع لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن» وقد ساق فيه أربعة أوراد للشاذلي، وأخذت تتولد من هذه الطريقة بعصر طرق جديدة مثل الطريقة الوفاتية، وكلها تتوزع متزعاً سنيناً. وظلت الطريقة الشاذلية تشع في عصر الدولة الحفصية، وأخذت تتشعب معها طرق صوفية مختلفة. ولابد أن نشير إلى اهتمام هذه الدولة ببناء الزوايا في تونس لكيان المتصوفة، حتى اكتسبت بها المدينة كما لابد أن نشير إلى ما ذكرناه في الفصل الأول من أن المتصوفة في العهد الحفصي انحرقوا عن واجبهم من الجهاد ضد أعداء الله وعاشوا عالة على الدولة والأمة مرددين للعامة كلمات القطب والأبدال والكرامات. وتتوقف قليلاً لنتحدث عن صوفيين سنيين مبتكرين هما محرز بن خلف وأبو الفضل بن النحوى.

### محرز<sup>(٢)</sup> بن خلف

هو محرز بن خلف بن رزين من ذرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه، نشأته ومرباءه بتونس، ولابد أن كان والده من فضلاتها، وقد عكف على حلقات الشيوخ بها ينهل من معينهم في الفقه والتفسير والحديث النبوى، وأيضاً في علوم العربية. ولم يحاول بعد أن فرغ من تعلمه وأخذ ماعند الشيوخ أن يجعلس إلى حلقة يعلم فيها الطلاب الناضجين من الشباب، بل رأى أن يعنى بتعليم الناشئة العربية وأصول الدين الحنيف وتعاليمه، وكان يسلك في ذلك طرقاً تعليمية حبيبة مما جعل الناس يطلقون عليه اسم المربى محرز، وكانت مدرسته في مدينة تونس معروفة باسمه، دفن فيها، وكان تقبلاً صالحًا يتتوفر على عبادة ربه والنسك له، مما لفت إليه أنظار مواطنيه، وجعلهم يحسّنون الاعتقاد فيه، حتى أطلقوا عليه اسم الولي الصالح، وظل هذا الاعتقاد يلازم التونسيين بعد وفاته عن سبعين عاماً ونيف سنة ٤١٣ حتى لقيه سلطان المدينة، لقب خصوه به دون غيره من الصوفية أصحاب الزوايا الكثريين في البلدة. وتسوق بعضاً من كلام صاحب الملل السنديسة في ترجمته له إذ يقول عنه: «الشيخ الأستاذ الذي شحن بنفحات عوارفه الآليات، وتفقدى من الإخلاص بخالص اللباب، وفتح له بحضورة اللطائف أعرض باب.. ألا وهو المحجّب الإھاطي بقصور العرفان والكوكب الذي قصر عن مشاهدته العيان، والكهف

(١) من قرية منوبة بالقرب من تونس.

والجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ١١٦.

(٢) انظر في محرز الملل السنديسة ٤/٨٧٤.

الذى استظل تحت جناح مده الملوان (الليل والنهار).. المالكى منها الصوف دأبا البكري (نسبة إلى جده) نسباً، وهى مبالغة واضحة، غير أنها تدل - من بعض الوجه - على مدى اعتقاد التونسيين فيه. ومن قوله في الدنيا وتصاريفها وتقلباتها:

أبْدَتْ لَنَا الدُّنْيَا زَخَارَفَ حُسْنَهَا  
مَكْرًا بَنَا وَخَدِيعَةَ مَا فَتَرَتْ  
وَهِيَ الَّتِي لَمْ تَعْلُمْ قَطُّ لِذَاقِ  
إِلَّا تَكَدُّرْ طَعْمُهَا فَتَسْرُرَتْ  
خَدِيعَةَ بِجَاهِلَاهَا إِنْ أَبْرَرْتْ  
فَجَاعَةَ بِزَوْلَاهَا إِنْ أَدْبَرْتْ  
طَلَابَةَ سَلَابَةَ لِهَبَاتِهَا  
فَإِذَا بَثَتْ أَمْرًا وَتَمَّ بِنَازِهَا  
نَصَبَتْ مَجَانِقَهَا عَلَيْهِ فَدَمَرَتْ

وهي عظة بد菊花، يقول: لافتقر يا تبيه لك الدنيا من زخارفها وزينتها، فذلك مكر منها وخديعة لا تغفر فيها، إنها لم تتصف **وتحلّ** قط لذائق إلا تغير طعمها وتغير مرا شديدا، وخدار من إقبالها بحسناها فلنثبت أن تدبر عنك وتفجعلك فيها أعطنك، إنها وهابة غير أنها سرعان ما تسلب ما وهبتك، وإنها لتغраб ما عمرته لك، وإذا شدت أمرا ورفته عاليا سرعان ما تنصب مجانيتها عليه وتدمره تدميرا كأن لم يكن شيئا مذكورا، ومحاول أن يعزى المظلومين قائلا:

إِذَا ظَالَمْ قَدْ عَاهَدَ الظُّلْمَ مِنْهَا  
وَجَارَ غُلُوْا فِي عُلُوْ اكْتَسَابِهِ  
فِي كُلِّهِ إِلَى رَبِّ الزَّمَانِ وَجَوْزِهِ  
سَيِّدِي لَهُ مَا لَمْ يَكُنْ فِي جِسَابِهِ  
فَكُمْ ذَا رَأَيْنَا ظَالِمًا مُنْجِرًا  
بِرَى النَّجْمِ تَبَاهَا تَحْتَ ظَلِّ رَكَابِهِ  
فَلَمَّا تَمَادَى وَاسْتَطَالَ بِجَوْزِهِ  
أَنْأَخْتَ صِرْفَ العَادَاتِ بِسَابِهِ  
وَعَوْقَبَ بِالذَّنْبِ الذَّى كَانَ يَجْتَنِي  
وَصَبَّ عَلَيْهِ اللَّهُ سَوْطَ عَذَابِهِ

وهو يقول للظلوم إذا رأيت ظالما باعيا غلا وجار في بغيه وعدوانه فاصبر ودعه إلى صرف الزمان وتقلبه فإنه سيره ما لم يكن يخطر على باله، وكم رأينا ظالما عاتيا بلغ من عنوه وبخيه أن كان يرى النجم كأنه يمشي في ركباه، ولما ثمادي في عنوه وبخيه وظلمه نزلت النكبات بياباه وأقامت به لا تبرحه فعقوبة عقابا أليها بذنبه الذي جناه بمعنى بصيرته وصب الله عليه سوط عذابه جزاء وفاقا لظلمه وبخيه. وله موعظة جعل موضوعها مدينة قرطاجنة عاصمة الفينيقين، ومن بعدهم الرومان والبيزنطيون، وتعحدث عن عظمة الأولين البحرينية وبناء الثانيين للطباطروا (التياترو) وبناء حنایاها لتوصيل مياهها وتشييدهم للقصور، ويقول إن كل ما عاشت فيه كل تلك الدول المختلفة أصبح أطلالا دوراس، وختمنها بقوله عن حكامها جميعا واعطا ومنها إلى أنه لبقاء لشيء في الحياة:

لقد وُسّدوا بعد العرير جنادلاً  
ولم يُفْعِنْ عنهم مابَثُوا وشَيَّدُوا  
ولن تَسْمَعوا إِلَى الصَّدِى بَعْدَ هَانِبٍ  
مُجِيئاً لَهُ ثُمَّ الْرِيَاحُ الرُّعَاعُ<sup>(١)</sup>

وهو يقول إن حكامها بعد معيشتهم في القصور الباهظة وما كانوا يتودونه من الحرير والإستبرق والطناقيس أصبحوا يتودون الصخور والتراب، وعيثا حاولوا أن يدفعوا عنهم حوادث الدهر إذ خُرُوا صرعى جميعا، وبليفت الشيخ عزز إلى صاحبها هاتقا إن جزقا بربوعها الدارسة نادياني وتسمعا فإنكما لن تسمعا إلا صدى ندانكما ورياحا عاسفة، إذ أصبحت تلك المدينة ذات التاريخ العريق والأبنية الشاغقة أطلالاً عافية ورسوما دائرة، وهذه هي الدنيا كل شيء فيها إلى يلى وفناه

### أبو الفضل<sup>(٤)</sup> بن النحوى

هو أبو الفضل يوسف بن محمد الذى عُرف باسم ابن النحوى، مولده ومرباء بمدينة توزر قاعدة بلاد العرييد فى الإقليم التونسي وتركها شاباً إلى القيروان ليتهل من حلقات شيوخها وصاحب اللخى وأخذ عنه صحيح البخارى، ولما توفى لزم تلميذه المازرى حامل لواء الفقه المالكى، وحمل عنه مصنفاته الفقهية وأماله فى الحديث النبوى، ونزل قلعة بنى حماد وأقرأ أو درس بها للطلاب وجال فى أنحاء المغرب، وأقرأ فى سجلmasة وفي فاس، وعاد إلى قلعة بنى حماد وتصرد فيها للتدريس بقية حياته إلى أن توفي عن ثمانين عاماً سنة ١١٥١هـ/١٧٣٠م، وكان لا يقبل من أحد عطاء ولا من حاكم راتيا، وظل يعيش طوال حياته من دخل مزرعة له بتوزر، وكان مثالاً رفيعاً للعلماء وعلى سنن الصالحين، قال عياض : «كان من أهل العلم والفضل، شديد الخوف من الله، غالب حاله الحضور معه تعالى». وله قصيدة استثنائية بدعة تسمى «المتنفرجة» طارت شهرتها فى الآفاق وفيها يقول :

اشتَدَّ أَزْمَةُ تَنْفَرِجِيْ قَدْ آذَنَ لِيْلِكِيْ بِالْبَلَجِ<sup>(٢)</sup>

١٧٢ تاريخ الأدب التونسي ص ١٧٢ و تاريخ الأدب

العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف) ١٠٩/٥ وذكر  
قصيده المتنفرجة شروحاً كثيرة منها شرح  
للنقاويس البجائز وشرح لشيخ الإسلام زكي با  
الأنصاري كما ذكر لها تشيرارات وتخييبات مختلفة.

(٣) البلج: ضوء الصباح.

(١) الرعاع: الشديدة

(٢) انظر في أبي الفضل بن النحوى المزينة  
١٩٤/١٣٢ وعنوان الدرية للقرني ص  
١٩٤/١٣٢ وعنوان الدرية للقرني ص  
١٩٤/١٣٢ وكتاب تعريف الخلف برجال السلف  
٢٦٨ من مبادئ الدولة المنصورية لابن منذى  
١٩٥/١٣٢ وما به من مصادر والمجمل في  
الحقنawi

وَظَلَامُ اللَّيلِ لَهُ سُرْجٌ  
وَسَحَابُ الْغَيْرِ لَهُ مَطْرٌ  
وَفَوَانِدُ مُولَانَا جَمِيلٌ  
وَلَهَا أَرْجُ مُنْتَهِي أَبْدًا  
وَالْخَلْقُ جَمِيعًا فِي يَدِهِ  
حَتَّى يَغْشَاهُ أَبُو السُّرْجِ<sup>(١)</sup>  
فَإِذَا جَاءَ الإِيمَانَ بِعِي<sup>(٢)</sup>  
لَسْرُورُ الْأَنْفُسِ وَالْمَهْجَ<sup>(٣)</sup>  
فَاقْصَدَ مَعْيَا ذَاكَ الْأَرْجَ<sup>(٤)</sup>  
فَذَوَوْ سَمَّةً وَذَوَوْ حَرْجَ<sup>(٥)</sup>

وهو يسلم أمره إلى ربه مؤمناً بأن أي أزمة أو كارثة منها اشتدت لابد أن تنفرج، وأن لها  
ليوشك أن يتلوه البلج أو ضوء الصباح، ونفس ظلام الليل الداجي له سرج من النجوم حتى  
يغمره ضوء الشمس أبو السرج، وإن كل شيء له أوان، وما أسرع أن يهطل سحاب الخير  
حين يأتي إيمانه وأوانه، وإن نعم الله لتألق جللاً ترى لتضيء النفوس والأرواح وطا شذى عطر  
معي دائماً فاقصده واحرص عليه حتى تحيى حياة هنية، وارض بقضاء الله في قسمته الخلق بين  
موضع - ومضيق - عليه في الرزق، فلذلك حكمته. وفيها أيضا يقول:

إِذَا افْتَحْتَ أَبْوَابَ هُدْيٍ فَاعْجَلْ لِخَرَاتِهَا وَلِيج<sup>(٦)</sup>  
وَلِطَاعَتِهِ وَصَبَاحَتِهَا أَنْوَارُ صَبَاحٍ مُنْهَلِجٍ<sup>(٧)</sup>  
مِنْ يَغْطِبُ حَوْرَ الْعَيْنِ يَهَا يَظْفَرُ بِالْمُحْرُورِ وَبِالْقَنْجَ<sup>(٨)</sup>  
وَكَنْ الْمَرْضَى لَهَا بِتَقْنَى تَرْضَاهُ غَدَا وَتَكُونُ نَجِي

وهو ينصح مخاطبه إذا افتتحت أمامه أبواب المدى أن يسارع إلى ولو جها ودخولها ليهنا  
بطاعة ربه وأتونها المضيota المشرفة، ولتكن من أهل الجننة وبخطى بالمور ودلائلن وجهان،  
وهولن ينالهن إلا بتقى الله حق تقائه وعبادته له حق عبادته. ويوصيه بتلاوة القرآن الكريم  
والتهجد قربى لرضوان ربه. والمنفرجة في أربعين بياء، كلها بهذه اللغة السلسة العذبة وهذه  
الموسيقى ذات الألحان البدية. وكان أبو الفضل صوفياً ينبع، يأخذ نفسه بالتقشف ويلبس  
خشن الصوف، وبعد أقه كأنه يراه أو كما قال عياص كأنه حاضر معه، وله يضرع إلى الله تعالى  
في بعض تهجمه:

(١) سرج: يقصد النجوم. أبو السرج: ضوء الشمس.

(٢) صباحت: إشراق، منهلج: مضيء.

(٣) المور العين: نساء الجنان كما في القرآن.

(٤) القنج: الدلال.

(٥) وليج: ادخل.

(٦) الإيمان: الأوان.

(٧) أرج: عطر.

(٨) حرج: ضيق.

لِبَسْتُ ثُوبَ الرُّجَّا وَالنَّاسُ قَدْ رَقَدُوا  
 وَقَلْتُ يَا سَيِّدِي يَا مَسْتَهْنَى أَمْلَى  
 أَشْكُو إِلَيْكَ أَمْوَارًا أَنْتَ تَلْعَمُهَا  
 وَقَدْ مَدَتْ يَدِي لِلضُّرِّ مُشْتَكِيَا

وَقَمْتُ أَشْكُو إِلَى مَوْلَائِي مَا أَجْدَ  
 يَا مَنْ عَلَيْهِ بَكْشَفُ الضُّرِّ أَعْتَدْ  
 مَالِي عَلَى حَطْلَاهَا صَبَرْ وَلَا جَلَدْ  
 إِلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ مُؤْتَ إِلَيْهِ يَدْ

وهو يضرع إلى رب لا يلبأ ثوب الرداء والأمل والناس نيا مفانيا بين يديه يشكو متضرعا متذلا إلى سيد الكون ومنتهي أمله في دنياه أن يكشف عنه الضر وكل ما يعلمه مما لا طاقة له ولا صبر ولا جلد على حلله، ويقول ضارعا شاكيا لقد مدلت يدي إلى خير من تمد له الأيدي فلا تردن عن يابيك خاتما، واكتشف عن ما أصابني من ضر بفضلك وإحسانك وإنعامك.

## ٥

## شعراء المدائن النبوية

الرسول ﷺ مثل الأعلى الكامل لل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وهم حين يبحرون يقصدون إليه في المدينة لزيارة قبره العطر، وما من مسلم إلا وهو يتمنى هذه الزيارة الشريفة، فإن أعددته - أو منته - الضرورة وكان شاعراً دبيعاً قصيدة يتشرف فيها إلى اكتحال عينيه برؤبة قبر حبيب أمه وصفيه: الرحمة المهداة والنعمة المسداة إلى أمته المخصوص بالإسراء ليلاً إلى بيت المقدس ومراراً أو رقيه إلى السموات السبع، الذي خُص بالقرآن الكريم معجزته الكبرى التي ليس لها سابقة مائة ولا لاحقة، مع ما اتصف به من خلق رفيع يعجز البيان عن وصفه، ومع رسالته الإلهية المادية التي تتحقق للناس السعادة في الدارين، وقد دبّع حسان وكمب بن زهير وغيرهما في حياته قصائد بدبية في مدحه، وتکاثرت سبّول هذا المدبي بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى إلى اليوم على ألسنة شعراء العالم الإسلامي شرقاً وغرباً بحيث تكون نهراً عظيماً لكل بلد أو قطر إسلامي جدوله المتدق في فيه، والإقليم التونسي كغيره من الأقطار الإسلامية له جدول تترافق فيه المدائن النبوية، ولن تستطيع أن تعرض ما قاض على ألسنة شعراء التبر وأن تونس من هذه المدائن، وخاصة في العصر الحسيني - لكثرتها، ولذلك ستكتفى باثنين من المصور المختلفة اشتهرت مدائنهما النبوية، وهما عبد الله الشقراطسي وأبن السُّلطان المهدوي.

## عبد(١) الله الشُّقراطِيُّ

هو عبد الله بن يحيى بن علي الشُّقراطِيُّ نسبة إلى قلعة رومية أقيمت قديماً بالقرب من قصبة تسمى «شُقراطس». مولده ومراته في «توزر» مثل أبي الفضل بن النعوي، وهو يسمى بنحو حسين عاماً إذ توفي سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٤م. ولما بلغ مبلغ الشاب رأى أن يكمل دراسته في القبروان، فاختطف إلى شيوخها، وأخذ ما استطاع منهم حتى غداً فقيها محدثاً، وحاجاً، وعاد فدين قاضياً في بلده توزر إلى وفاته، وكان مع قيامه فيها بالقضاء يدرس للطلاب وينشر العلم ما استطاع، ويقال إن ابن النعوي درس عليه. وقد طار صيته في أنحاء العالم العربي بقصيدة فريدة في ١٣٣ بيّنا نظمها في مدح الرسول ﷺ، استهلها بقوله:

الحمدُ لَهُ مَا باعثُ الرُّسُلِ هَذِي بِأَحْمَدَ مَا أَحْمَدَ السُّبْلُ  
خَيْرُ الْبَرِّيَّةِ مِنْ بَدْوٍ وَمِنْ حَضْرٍ وَمُتَبَلِّلٍ  
تَوْرَاهُ مُوسَى أَنْتُ عَنْهُ فَصَدُّقُهَا  
ضَامِتْ لِمُولَدِهِ الْأَفَاقُ وَاتَّصلَتْ بُشْرَى الْمَوَافِقِ فِي الإِشْرَاقِ وَالظُّلْمَلِ<sup>(٢)</sup>

وهو يحمد الله باعث الرسل إلى الأمم أن بعث الرسول إلى أمة المحمدية هادياً لها إلى خير السُّبْل أو الطرق وإنه لأفضل البرية جماعة متبدلة ومتحضررة وأكرم الخلق جميعاً حفاةً ومتبللين، ويقول إن توراة موسى بشرت به وصدقها الإنجيل، مشيراً بذلك إلى آية سورة الأعراف وأنه من تشملهم رحمة الله **﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر﴾** ويقول إن الآفاق أضاءت مولده ودُقت البشائر في الإشراق والظلام. ويعنى في ذكر معجزات مولده ومعجزاته في حياته وفي المجرة وما خصه الله به من عروجه إلى السماء. ويعود إلى تفصيل القول في معجزاته ومعجزاته الكبرى القرآن، ويعلم بأذى قريش لمن اتباعوه وهو لا يزال بمكة وخاصة بلاها، ويدرك انتصاره على قريش يدرك إذ حطم جيشهم حطا، وأسر نفراً من أشرافهم، وبكي أهل مكة من رجال ونساء يدموع غزار، ويدرك يوم فتح مكة، وقد جاءها الرسول في عديد من المجنود من يترقب

(١) التوزري مواطنه المتوفى سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٤م، كما ذكر لها تخيّبات لابن الشباط وغيره.

(٢) انظر في الشُّقراطِيُّ الوفيات لابن منذل طبع بيروت ٢٥٢ وعنوان الأربع ٤٢/١، وبجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٦٣ وبروكليمان ١٠٨/٥ ذكر لها تخيّبات لابن الشباط

(٢) الطلام: الظلام.

وذكر أن للشُّقراطِيَّة شرحاً لابن الشباط

و مختلف القبائل، و رأت قريش أن لا قبل لها بلقائه، فاستسلمت ودخلت في دين الله، يقول:

يُضيقُّ عَنْهَا فِجَاجُ الْوَعْتِ وَالسَّهْلِ<sup>(١)</sup>  
 فِي قَاتِمٍ مِنْ عَبَاجِ الْخَيْلِ وَالْإِبْلِ<sup>(٢)</sup>  
 عَرَمَّمَ كَزْهَاءَ اللَّيلِ مُسْجَلٌ<sup>(٣)</sup>  
 فِي بَهْوٍ اشْرَاقِ نُورٍ مِنْكَ مُكْتَمِلٍ  
 وَالْعَيْسُ تَنَالَ زَهْوًا فِي أَعْنَاثِهَا<sup>(٤)</sup>  
 وَذَابَ يَذْبَلَ تَهْلِيلًا مِنَ الدَّبْلِ<sup>(٥)</sup>  
 الْمَلِكُ قَدْ هَذَا عَزٌّ مِنْ عِقَدِتْ  
 لَهُ النَّبُوَةُ قَبْلَ الْعَرْشِ فِي الْأَزْلِ

وهو يتحدث عن يوم فتح مكة و مع الرسول أمم من يشرب والقبائل تضيق عنها فجاج الأرض العصيرة والمهددة السهلة، خوافق متحركة صافت بها لكرتها طاقة المشرق والمغرب، وقد عقدت حركة الخيل والإبل عليها غياراً كثيفاً، إنه ليسش ضخم متسع الأرجاء له جلب وسحب عرمم أو شديد، كزهاء الليل ومقداره، تنصب قطمه انبصابها، والرسول - ﷺ - على رأس هذا الجحفل، يحف به بهاء ونور منه مكملان والخييل تختال في أعنتها ومسيرتها زهوا، والعيس أو الإبل تتبع سائرة في مضاعف من جدها أو أزمتها، وأهل نهلان رافعا صوته بذكر الله من طرب وفرح، وذاب يذبل خوفا من الرماح وكثرة السلاح، وهذا عز لا يماثله عز، عز من كتبت له النبوة في الأزل البعيد قبل خلق المرش وتكونيه، ويتحدث عن الانتصارات في الفتوح الإسلامية في أنحاء المعمورة في العراق وديار الفرس والترك والصين وببلاد النوبة والزنج ومصر والمغرب، كما يتحدث عن منزلة الرسول ﷺ عند الله و اختصاصه بالشفاعة للعباد خلاصا من هول المحن، ويطلب منه الشفاعة ومن الله الفران.

(١) العيس: الإبل. تنال: تسيل وتنصب. رهوا: بطينة أو متندة. نق الجبل: الأرقة المزدوجة الطاقات.

(٢) نهلان ويندل: جبلان عند مكة. الذبل: الرماح.

(٣) فجاج الوعت: الطرق الصعبة.

(٤) ضاق فزع الماقفين: ضاق وسع المشرق والمغرب. عجاج المغرب: غبارها.

(٥) جحفل: جيش ضخم. قفت: بميدان. جلب: صباح. عرمم: شديد. زهاء الليل: مقداره. منجل: منصب ووصيب.

## ابن<sup>(١)</sup> السساط المهدوي

هو أبو يعقوب يوسف بن علي بن عبد الملك بن السساط البكري، ولد بالمهدية سنة ٦١٣ وبها منشأه ومرباء، من بيت علم وفضل وثراء، وتفتحت شاعريته مبكرة، وكان من نعم الله عليه أن قصر شعره على مدح الرسول ﷺ، فلا يوجد له في غير هذا المدح شعر إلا النافق التزّر مما قاله في صباحه، ويقول صاحب الملل السنديسة: «هو عالي الطبلة في الشعر جداً، وشعره مدون مشهور». وظل يجيا في المهدية يمدح الحضرة النبوية حق وفاه الأجل سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م واحتفظ له صاحب الملل السنديسة بخمس قصائد نبوية باهرة، وفي ثانيتها يقول متشوقا إلى يترب زيارتها الشريفة:

رَعْنَى الْحُقُوقِ - كَمَا عَلِمْتَ - حَقِيقُ  
وَالصَّبَرِ عَنْ وَادِي الْعَقِيقِ عَقُوقُ<sup>(٢)</sup>  
شَفَّفَ يَسْوَقْ نَفْوَسَنَا وَيَشْوَقُ  
نُشْفَى بِهِ مَرْضَامُ وَتُنْفَقُ  
حَتَّى اِنْتَشِي كَالْمَسْكِ وَهُوَ فَتِيقُ<sup>(٣)</sup>  
وَعَدَّا تَرَاهَا لِلشَّفَاءِ مَرَاثِيفَا  
وَمَزَارِهَا أَشْفَى إِلَى عَشَاقِهَا

وهو يقول إن للزيارة النبوية حقوقا ينبغي أن تؤدي، وإن الصبر عن زيارة وادي العقيق بالمدينة المنورة ليعد عقوقا، وإن لأهل هذا الحمى بقلوبنا شففاً وشوفاً شديداً ولذكرهم برداً على الأحساء حتى لا ي Kahn دواه يشفى المرضى من عللها الدفينة، قوم بهم ذكا النسيم وطاب بطيبة أو يترب، حتى أصبح كالمسك حين يستطيع شفاء، وإن تراها ليود الناس حبا في الرسول أن يرشوه بشفائهم رشفا، وإن عثاقتها في المعمورة ليتمون زيارتها بطلبون بها النجاة كما يتحقق الفريق شاطنا يأوى إليه من الملائكة. ويقول في القصيدة الرابعة:

أَبَيَ الْحَدِيثَ فَلِيَسْ بِالْمَفْلُولِ  
عَنْ خَيْرِ مَعْوِثٍ وَخَيْرِ رَسُولٍ  
وَأَمْلَأَ مَسَامِعَنَا بِطَيِّبِ حَدِيثِهِ  
فَهُوَ الشَّفَاءُ لِعَرَّ كلَ غَلِيلٌ<sup>(٤)</sup>  
فَكَذَا أَنَّى فِي مَحْكَمِ التَّنْزِيلِ

(١) انظر في ابن السساط المهدوي الملل

السنديسة ٥٠٨/٢ وما بعدها وشجرة التور الزكية

(٢) وادي العقيق: واد بالمدينة.

(٣) طيبة: المدينة. فتق: سالم الرانحة.

(٤) غليل: شدة الطش وحرارته.

.٢٠٨/١ وحمل تاريخ الأدب التونسي ص

وأخصُّ بِتَرْدَادِ السَّلَامِ ضَرِيْحَةً  
 قَسْرًا لِهِ هَضَبَاتُ مَكَّةَ مَقْلَعَةً  
 جَاءَتْ نَعْوَتُ كَمَالِهِ مَنْصُوصَةً  
 هَذَا الْفَخَارُ وَمَنْ يَكُنْ ذَا وَضْعَهُ فَالْمَدْحُ فِيهِ كَقْطَرَةٌ فِي النَّيلِ  
 (١) شَارِقَةٌ وَكُلُّ أَصْبَلٍ  
 (٢) الْرَّوْضَةُ الْفَيْحَاءُ أَقْنُ أَغْوَلٌ

وهو يطلب من صاحبه أن يعيد الحديث مراراً وتكراراً عن خير رسول وبمحoot أهدى إلى البشرية، وأن يلأ المسامع بحديثه الطيب الذكي فإن فيه شفاء من حرارة كل ظمآن شديد، وأن يبدأ وينجذب في الصلاة والسلام على الرسول اتباعاً لهـى القرآن القائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يَصُلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ صَلَاةً عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا﴾، ويقول لصاحبه حُصْنُ بِتَرْدَادِ السَّلَامِ وَتَكَارَهُ قَبْرَهُ كُلُّ صَبَّاحٍ وَكُلُّ مَسَاءٍ، وإنَّه لَقَرَبَ بَدْرَ طَلْعٍ مِنْ هَضَبَاتِ مَكَّةَ وَأَقْفَاهَا، وَأَقْلَلَ أَوْ غَرَبَ فِي أَقْنَقٍ يَتَرَبَّ فِي الرَّوْضَةِ الْفَيْحَاءِ ذَاتِ الشَّذِيْعَةِ، وَيَذَكِّرُ أَنَّ نَعْوَتَ كَمَالِهِ نَصُّ عَلَيْهَا التَّنْزِيلَ كَمَا جَاءَ بِآيَةَ سُورَةِ الْقَلْمَنِ فِي خَطَايَهِ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقِ عَظِيمٍ﴾ كَمَا نَصَّتْ عَلَيْهَا التُّورَةُ وَالْإِنْجِيلُ وَكَمَا جَاءَ بِآيَةَ سُورَةِ الْأَعْرَافِ السَّالِفَةِ فِي تَعْلِيقَتِنَا عَلَى بَعْضِ آيَاتِ عَبَادَةِ الشَّقَرَاطِسِ. وَمَضِيَ ابْنِ السَّمَاطِ فِي التَّصْبِيدَةِ يَعْدِ شَمَائِلَهُ الرَّفِيعَةَ وَيَعْضُ مَعْجَزَاتِهِ، وَقَالَ هَذَا هُوَ الْفَخَارُ الْمُقْبِقِيُّ وَمَنْ يَكُنْ هَذَا وَضْعَهُ فَالْمَدْحُ فِيهِ كَقْطَرَةٌ - حَقَّا - فِي نَهْرِ النَّيلِ. وَنَبِيَّاتِ ابْنِ السَّمَاطِ تَمْيِيزُ بِلْقَةِ سَلْسَةِ عَذْبَةِ مَنْتَهِيَ الْمَذْوَبَةِ وَالسَّلَاسَةِ.

(٢) الْرَّوْضَةُ الْفَيْحَاءُ: لَمْ يُشِيرْ إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ  
 ﴿مَا بَيْنَ قَبْرِيْ وَمَنْهَى رَوْضَةِ مِنْ رِيَاضِ الْمَنَّةِ﴾.

(١) الأصيل: وقت اصفار النس بليل  
 الفرب.

## الفصل السادس

### النثر وكتابه

#### ١

#### المخطب والوصايا

المعروف أن الإسلام فرض في صلاة الجمعة الأسبوعية والعبددين: القطر والأضحي خطبين للوعظ والتصح لل المسلمين، وظل يتول ذلك في تونس وإقليمها كبار الفقهاء الوعاظ من علمائها الأبرار، غير أنه لم يصلنا من هذه الخطب ما نستطيع به الحديث عنها وعرض بعض نصوصها. وطبعي أن يكون لولاتها في القبروان وقادتها في المروب أو على الأقل لبعضهم خطب من حين إلى آخر، وأقدم خطبة وصلتنا عن لولاتها خطبة موسى بن نصير التي خطبها بجامع القبروان حين دخلها سنة ٨٥ في أول ولادته على إفريقية وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

«أيها الناس ! إنما كان قبل على إفريقية أحد رجلين : سالم يحب العافية ويرضى بالدون من العطية، ويكره أن يُكلم<sup>(٢)</sup> وحب أن يُسلم، أو رجل قليل المعرفة راض بالمؤون، وليس أخوه الحرب إلا من اكتحل السهر، وأحسن النظر، وخاض الفُمر<sup>(٣)</sup> وسمت همة، ولم يرض بالدون من المفتن، لينجو وسلم، دون أن يُكلم أو يُكلم .. إن ظرف لم يزده الظرف إلا حذرا، وإن نُكب أظهر جلادة وصبرا .. وبعد فإن من كان قبل كان يصد إلى العدو الأقصى ويترك عندها منه أدنى، ينتهز منه الفرصة، ويُذَلّ منه على العورة، ويكون عونا عليه عند النكبة، وأيم الله لا أريم<sup>(٤)</sup> هذه القلاع والجبال المتنعة حتى يضع الله أرفعها، ويُذَلّ أمنها، ويفتحها على المسلمين بعضها أو أجمعها، أو يحكم الله على، وهو خير المحاكمين».

وببدأ موسى بن نصير بالجibوب في الإقليم التونسي مثل جبل زغوان، ثم أخذ يمتد بفتحه المظيمة حتى دان له المغرب جميعه، وكان شديد الطموح فمدّ بصره وراء المغرب إلى شبه جزيرة

(١) تاريخ الأدب التونسي للأستاذ حسن حسني (٢) الفُمر: الشدائد.

(٤) أريم: أترك.

(٢) يكلم: يمتحن.

(٣) عبد الوهاب ص ٢٦.

(١) يمتحن: يمتحن.

إبيرة وأرسل إليها طارق بن زياد وتبعد، وأتم فتحها ناشرا فيها الإسلام، كما عمل على نشره في ديار المغرب من برقة إلى المحيط، وافتتح له إقليلها كثيرا في أوروبا، ولم يترك قلعة ولا حصن لا في المغرب وحدها كما قال في خطبه بل أيضا في إبيرة بما جعله يحقق من أكبر قواد العرب على مر التاريخ. ومن كبار القواد في الإقليم التونسي بعده أسد بن الفرات أمير الجيش الفاتح لصقلية سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م حين دقت الطيول والبوقات ونشرت الألوية واستعدت السفن لمغادرة ميناء سوسة للفتح تلقت حوله وخطب الجنود، وكان من قوله<sup>(١)</sup>: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له أنها الناس ما ولن لي أب ولا جد ولاية قط، ولا رأى أحد من سلفي هذا قط، وما رأيت ما ترون إلا بالآفلام، فأجهدوا أنفسكم، واتبعوا أبدانكم في طلب العلم وتدرينه، وناهروا عليه تالوا به الدنيا والآخرة».

وكان أسد شيخ فقهاء المالكية في القيروان، واختاره الأمير زيادة أنه الأغلبي لقيادة الجيش، وهو ينصح بالثبات في العلم وتدرينه، فإن من يثابر في تحصيله وسهر الليل يحيط بكل ما يتمناه، وقد مضى حين أرسى أسطوله على شواطئ صقلية يفتح المدن والقلاع واتجه إلى قاعدتها الكبرى: «سرقوسة» في شرقها، وحاصرها واستشهد في حصارها ودفن تحت أسوارها، وتم فتح جميع منها بعده.

ومن المؤكد أن خطبا كثيرة ألقاها حكام الإقليم التونسي في أول حكمهم - وربما في أثناءه - ولكن الكتب التاريخية والأدبية لم تحفظ بها، وأيضا لا بد أن كثيرا من الوصايا في الدول التي حكمت الإقليم التونسي أوصى بها الآباء الأبناء من بعدهم سقطت من يد الزمن فيها عدا وصية أبي زكريا مؤسس الدولة المفصية لابنه وولي عهده المستنصر، وفيها يقول<sup>(٢)</sup>:

«اعلم - سددك الله وأرشدك، وعذاك لما يرضيك وأسعدك، وجعلك محمود السيرة، مأمون السُّريرة - أن أول ما يجب على من استرعاه الله في خلقه، وجعله مستولاً عن رعيته في جُل أمرهم ودُفَّعَ<sup>(٣)</sup> أن يقدم رضا الله في كل أمر يحاوله.. واعلم أن الأمر إذا حاص مجالة، وقصر عن مقاومته رجاله، فمفتاحه الصبر والمرامة<sup>(٤)</sup> وأخذ الرأي من عقلاه الدولة ورؤسائها، وذوى التجارب من نبيهاها، ثم الإقدام عليه، والتوكيل على الله فيها لديه.. ولا تسمع أقوال الفاطلين المفطلين بأنك أعظم الناس قدرًا، وأكثرهم بذلا، وأحسنهم سيرا، وأجلهم صبرا، فذاك غرور ورهان ورُزُور.. عليك بتفقد أحوال رعيتك، ولا تتم عن مصالحهم، ولا تسامح أحداً فيهم، ومهم دعئت لكشف ملأ فاكتشفها عنهم، ولا تراغ فيهم كثيرا ولا صغيرا إذا عدل عن الحق،

(١) الملل السنديبة ٧٥٣/٣.

(٢) دقة: دقيقة.

(٣) (٤) المراة: الحزم.

(٢) بجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٨٧.

ولا يقتصر على شخص واحد في رفع مسائل الرعية والمظلومين، ولا تقف عند مراده فيهم، وإنما ثقافت صادقين مصدقين لهم في جانب أقه أوفر نصيب».

والوصية طويلة، وهي أنه بحسبه بمدحه يضممه لولي عهده، ليتسلّك به في حكمه من بعده، واضح أنه يطلب إليه أن يكون محمود السيرة وأن يجعل رضا الله نصب عينيه في تدبير أمور رعيته وإذا نزلت به شدة استعمال بالصبر والحزم وبرؤساه الدولة وبنهائها المجرمين وعمل بشورتهم ونضجحهم، وبخده من الاستماع إلى من يتلقونه في حاشيته زوراً وبهتاناً ابتجاه القربى إليه والزلفى لديه، والحاكم الحصيف يبعد عنه هؤلاء المنافقين المراثين، ويوصيه بتقدّم أحوال الرعية وأن لا يغفل عن مصالحها ولا يتسامح مع من يعتدى عليها ويسارع إلى كشف كل ملمة تتعرض لها، ويأخذ على يد كل ظالم، ولا يقتصر في رفع مسائل الرعية إليه على شخص عينه خشية أن يكون مفترضاً فيها يعرض عليه، لذلك ينبغي أن يشرك معه آخر أو آخرين، حتى لا يتعرض في فهم هذه المسائل لفسح أو خديعة، وينبغي أن تكون حاشيته مؤلفة من ثقات صادقين لا يحوم حولهم شك أو ريبة.

وزرى ابن خلدون حين نزل القاهرة سنة ١٢٨٤هـ/٧٨٥م مجلس للتدرис بالجامع الأزهر ويحصل بالسلطان المملوكي بررقوق فيكرمه ويوفّر له الراتب شأنه مع أهل العلم، ويتوافى البساطي أستاذ المدرسة القمحيّة المالكية، فيعينه مكانه في شهر المحرم سنة ١٢٨٥هـ/٧٨٦م وزراء في يوم جلوسه للتدرّيس بها يخطب خطبة طويلة يستهلّها بالحمد لله مطليلاً في نعوتة القدسية كما يطيل في الصلة على الرسول والرضا عن آله وصحبه، ويتحدث عن الملة الإسلامية وانتصار أهلها على الفرس والروم وفتحهم العظيمة، ويشيد طويلاً بملوكها وبدوله المالكية ونصرتهم للإسلام وإنشائهم للمدارس وتعimirهم للمساجد وعنايتهم بالعلم والعلماء ويشهد بالسلطان بررقوق وأعماله وأفضاله عليه. ودخلت وظيفة أستاذ الحديث في مدرسة صرغتمش بجوار جامع ابن طولون، فولاه بررقوق تلك الوظيفة فاختار كتاب الموطأ للإمام مالك ليحدث به للطلاب في شهر المحرم سنة ١٢٨٩هـ/٧٩١م وحين جلس للتدرّيس بها ألقى خطبة طويلة، وبعد حدّ ألقاها فيها والصلة على رسوله والثناء على السلطان بررقوق قال إنه قرر للقرامة في دروسه كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس لأنّه من أصول السنّة وأمهات كتب الحديث، وأفاض في الحديث عن مالك ونشاته وسيرته وتأليفه لكتابه الموطأ، ثم أخذ يعدد الطرق لرواية تلاميذه مالك عنه الكتاب، وانتقل إلى بيان سنته للكتاب والشيخ الذين أخذوه عنهم بتونس والأندلس والمغرب في بلدانه المختلفة، ويدرك مع كل طائفة منهم شيوخهم وسنتهم في الرواية، ويعضّ طرقاً أخرى، مما جعل ساميّه في هذا المجلس يرميّونه بالشجاعة إلى أبعد مدى، وإنما أطلّت في بيان ذلك لأدلّ على أن علماء تونس - فيها يبدوا - كانوا يأخذون في

درسهم الأول بجامع الزيتونة بهذا التقليد من الخطبة الطويلة عن الكتاب الذي سيدرسونه للطلاب، وإن لم تصلنا خطبهم العلمية كما وصلتنا خطب ابن خلدون، إذ سجلها بنفسه في ترجمته<sup>(١)</sup> عن حياته، ويقول إنه أعدّها، وهي مكتوبة بأسلوب أبي مسجع بلغ.

## ٢

## الرسائل الديوانية

عرفت القبروان الدواوين منذ أنشأها فيها واليها حسان بن النعمان (٧١-٨٥٨هـ) إذ أقام بجانب دار الإمارة ديواناً للجند وديواناً للخراج وديواناً للرسائل على شاكلة دواوين الخلافة في دمشق، غير أنها لا نسمع عن كاتب كبير تولى ديوان الرسائل قبل خالد بن ربيعة كاتب عبد الرحمن بن حبيب الوالي في القبروان من قبل مروان بن محمد، ويدرك البلاذري أنه كانت بينه وبين عبد الحميد الكاتب المشهور كاتب مروان بن محمد مودة ومكاسبة، وأنه - بفضل هذه المودة - أقر الخليفة عبد الرحمن بن حبيب على ولاية القبروان<sup>(٢)</sup>، ويدرك ابن التديم في الفهرست خالداً بين الكتاب قائلاً: «خالد بن ربيعة الإفريقي متسلٌ بلغ نشأ في الدواوين، وله رسائل مجموعة في الأدب نحو مائة ورقة<sup>(٣)</sup>».

وحيث رسائل خالد بن ربيعة سقطت من يد الزمن وسقط معها جميع الرسائل الديوانية في القبروان إلى أن نلتقي بإبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة الأغلبية وزراء يتبادل مع خريش الكندي أحد قواد الجند الثاني عليه بتونس سنة ١٨٦هـ / ٩٠٢م رسائلتين أولاهما لخريش ينهيدها فيها ويطلب منه طاعته له، ويرد عليه إبراهيم بن الأغلب برسالة يقول فيها<sup>(٤)</sup>:

«من إبراهيم بن الأغلب إلى خريش رئيس الصلال سلام على من اتبع المدحى أما بعد فإن مثلك مثل البعوضة التي قالت للنخلة وسقطت عليها: استمسك فاني أريد الطيران، فقالت النخلة: ما شعرت بسقوطك فيكربني طيرانك».

ولا نعرف هل كتب إبراهيم بن الأغلب هذه الرسالة بنفسه أو كتبها له أحد كتاب دواوينه وتعق الدولة الأغلبية (١٨٤ - ٢٩٦هـ) بكتاب دواوينها وتأخذ في النهوض بها، ومن أشهرها

ص. ٢٤٠.

(١) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً

(٣) الفهرست (طبع القاهرة) ص. ١٧٧ وما بعدها.

(٤) فتح البلدان للبلاذري (طبع القاهرة) .

(طبع القاهرة) ص. ٢٨٠ وما بعدها.

(٤) بجمل تاريخ الأدب التونسي ص. ٤٢.

من كتابها أبو العباس البريدى محمد بن حمدون رئيس ديوان الإنشاء لعهد إبراهيم الأغلبى الثاني (٢٦١ - ٢٨٩ هـ). وقدم على إبراهيم من بغداد أبو اليسير الشيباني إبراهيم بن محمد، وكان قد غضب على البريدى فأقامه مقامه على ديوان الإنشاء بعاصمته «رقدة» وهو أهم كتاب هذه الدولة وستحضره بكلمة. وكانت الدولة الصنهاجية تعنى بدواوينها ورأس ديوان الإنشاء بها لمدة دفع قرن الكاتب الرقيق التهروانى، كما رأسه على بن أبي الرجال، وهما من الكتاب البلغاء، غير أن كتب الأدب والتاريخ لم تحفظ ببعض ما دبجه من الرسائل. ومع ذلك فإن أمير المهدية الحسن حميد تيم بن المعز حين هزم أسطول الملك روجار الثاني أمام عاصمته سنة ٥١٧ كتب إلى سائر الجهات كتاباً منها كتاب يقول في بعض فصوله<sup>(١)</sup>: «إن صاحب صقلية لج في طغيان غيَّه، واستمر على عدوائه وبُغيه، وحله سوءٌ تدبِّره، وفسادٌ تقدِّره، على اهتمام جانب الإسلام، وتوجه أن ذلك سهلٌ للتنسق قرَبُ المرام، فاستجاش وحشَّد، واستفزَّر واستمدَّ، ولا استتبَّ في ظنهُ أموره، وكلَّ تدبِّره، الذي كان فيه تدبِّره، سيرُ أسطوله نحو المهدية - حاماً أقه - في نحو ثلاثة مركب، حُلَّ على ظهرها ثلاثة ألف راكب، وزُهْدَهُ ألف فارس وكان إقلاله في طالعٍ مقارن للنحوس، قاضٍ عليه باتفاق الأموال والنفوس، فمن أول ما أنتَهَ اللهُ فيه من صنته الجميل، وأنظمه من عنايه التي لا يُؤذى حقها بغير التكير الجليل، أن أرسل عليهم رحا صيرت جميعهم إلى النبار<sup>(٢)</sup>، ونابت في إهلاكم مناب زُرُق الأسنة وبغض الشفار.. واستظهروا باستقادام قبائل العرب الطيفية بنا فأقليوا أفواجاً أفواجاً، وجاءوا بجيءَ السيل يتعلج<sup>(٣)</sup> اعتلاجاً، ويتدفقَّ أمواجاً، وكلهم على نيات في الجهاد خالصة، وعزائم غير راهبة من مواقف الموت ولا ناكضة، ووصل الأسطول المخنول بن أسلمه السوق إلى حد المسام، وتحطَّه الفرق من الحمام إلى الحمام<sup>(٤)</sup>، ونزلوا على عشرة أميال من المهدية بجزرة هنالك فتسرع إليهم من جُندتها ومن انتصاف إليهم من العرب المتاجدة لنا طائفة أوسعت أعداء أقه طعناً وضرها، وملأت قلوبهم خوفاً ورُعباً، فلما عاينوا ما نزل بهم، أتزلوا عن ظهور مراكبهم، ما كان أبقاء الفرق من أفراسهم، وكانت نحو خمسة فرس.. فاكتُب أقه ظنونهم، وخيبَ آمالهم، وجعل الدائرة عليهم لا لهم.. فولوا أدبارهم يرون المزمعة غنية، والمرقب غالية، وتركوا كثيراً من خيلهم وأسلحتهم نهياً مقسماً، وفيتنا<sup>(٥)</sup> مقتباً».

ومعنى الكتاب يذكر أن البيش التورمانى كان قد استولى في أول نزوله على قصر الديباس بين المستير والمهدية، وكانوا قد أتزلوا به مائة منهم فاستحصلوا عن آخرهم. والكتاب يتميز

(١) الحلل السنديّة ٤٧٢/٢.

(٢) النبار: الملك.

(٣) يتعلج: يجتمع.

(٤) المسام: الموت.

(٥) فينا: مفتباً.

بالفاظ منتبخة مختارة، وليس فيها غريب مهجور، والأسلوب فيه مسجوع، ويطرد في بسر، بما يدل على ما حازته كتابة الرسائل الديوانية في المهد الصنابجي من تقدم ورقى.

ونقضى إلى عصر الدولة الحفصية وتحدث نهضة حقيقة في ديوان الإنشاء بفضل من عمل فيه من كبار الكتاب الأندلسين المهاجرين إلى تونس من أمثال ابن الأبار وعمر بن الحسين بن أبي الحسين وزير مؤسس الدولة أبي زكريا وأبنته المستنصر وأيضاً بفضل طبقة بارعة من الكتاب التونسيين أمثال أبي العباس أحمد بن إبراهيم الفساق المتوفى سنة ١٥٨هـ / ١٢٦٠م وقد جمعت له خطة العلامة وخطة الإنشاء وابن الحباب محمد بن يحيى المعا蕨ي وأبي بكر بن خلدون ولهم كتاب في النظم الحفصية لا يزال مخطوطاً وفق معهد الدراسات الإسلامية بمدريد مخطوطه منه، وفي الورقة رقم ٥٣ يتحدث عن طريقة المخاطبات الصادرة عن الخليفة الحفصي قائلاً: «في خطابة من الأمير الأعظم إلى غيره تقول: من فلان باللقب: أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين وتعد آباءه الخلفاء إذا لم تذكر اللقب، فإن ذكره جعلته جلة، وذكر اللقب أحسن في الحالتين، ثم تقول أيدهم الله بنصره وأمددهم بعونته إلى الشيخ أبي فلان أو إلى أبي فلان أو إلى الأشياخ والأعيان والكافحة من بين فلان أداء كرامتهم وتوفيقهم بتقواه سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله. وبعد قام الصُّرْتُ تكون الوصية بتقوى الله وما يحب، هذا إذا كان كتاباً، وإذا كان صَكَّاً، وسيَّى الآن ظهيراً فلا يكون فيه صدر ولا وصية ولا اسم المكان الذي كُتب منه».

وكان أبو بكر بن خلدون يعمل في دواوين أبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية، ونرى القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ يؤكد استمرار هذا التقليد في الكتابة الديوانية التونسية حتى عصره إذ يقول في كتابه *صبح الأعشى* عن رسم المكاتب الواردة إلى القاهرة عن صاحب تونس: «عادة مكتابته أن تفتتح بلفظ من عبد الله الفلاق مع ذكر لقب الخلافة: أمير المؤمنين بن فلان، ويقال في كل أب من آبائه: أمير المؤمنين إن كان قد ولِيَ الخلافة ويدعى له، إلى أخيها فلان، ويُؤْتَى بالسلام والتغيبة، ثم يتخلص بالبعدية إلى المقصد ويختتم الكتاب<sup>(١)</sup>». ويورد القلقشندي عقب ذلك مباشرة رسالة من الخليفة الحفصي المتوكل على الله أحد بن أبي عبد الله الحفصي (٧٧٢ - ٧٩٦هـ) إلى السلطان بررقوق يهنته فيها باسترداده عرش سلطنته سنة ٧٩١ وهي تستهل بهذه الصورة:

«من عبد الله المتوكل على الله أمير المؤمنين أحد ابن مولانا الأمير أبي عبد الله ابن مولانا الأمير أبي يحيى أبي بكر ابن الأمراء الراشدين أعلى الله به كلمة الإسلام، وصاعف نوافل سيفه من عبادة الأصنام، وغض عن جانب عزه عيون حوادث الأيام، إلى أخيها الذي لم نزل

شاهد من إخانه الكريم، في ذات الرب الرحيم، قبلة صفاء لم تغيرها بُعد ولا انتزاع، وتنابر من حفظ عهده، والقيام بحق وده، على ما يؤكد معرفة المخلوص من لدن تعارف الأرواح، ونبادر لما يبعث القلوب على الالتفاف، والأمن بفضل الله من عوائق الاختلاف، وإن شحعت الدار وتنامت الصور والأشباح، ونترف بما له من مزيد الإعظام بجاورة البيت الحرام، والقيام بما هنالك من مطالع الوحي الكريم ومشاعر الصلاح، وتتجلى من أنواره الكريمة التشريفية، ومطالمه العالية المنيفة، وجوه البشائر رائعة الفرج والأوضاع.. ونستهل إلى الله بالدعاء أن يغفرنا عنده، ويطلمنا منه على ما يقر عيون الفوز ويسرح صدور النجاح، السلطان الجليل الطاهر، الملك الأعظم الظاهر... أبي سعيد برقوق»

واوضح أن الكاتب الحقيقي لم يكن في مستهل رسالته بالأسجاع الحانية، فقد ضمن كل سجعة سجعتين داخليتين، وكان السجع في الرسائل الحفصية أصوات ما أصاب السجع في الرسائل الديوانية - منذ القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبي - من طويل لقصم السجعة تحت جناحيها سجعتين داخليتين كما في هذه القطعة من الرسالة. وهي في الرسالة فيحمد الله ناظم الشمل وجبار الصُّدُع الذي قرن بالنصر يُسراً. ثم يصل ولسم على الرسول الذي صدَّعَ بالحق آياته، وقامت بهجة دعوه معجزاته.. ويضيف الصلاة على الله وأصحابه أولياء دينه الكريم وولاته، وأنصار حزبه المفلح وحاته، ولبيوت دفاعه في صدور الأعداء وكُناته. ويدعو الكاتب خليفته، ويدرك للسلطان برقوق أنهم ظلوا حين عزل عن السلطة يدعون له أن يُرد الأمر إلى نصاه، ويطيل في تهنئته بنصره، ويشيد برسالة السلطان برقوق إليه بأنه استعاد سلطانه، ويدرك انتصاراً لأسطوله أذ أغار على بعض جزر البحر المتوسط وكان صاحبها أغار على الساحل التونسي، يقول:

فلم نزل نبيع لأساطيلنا المنصورة حَرَمَهُ وِجَاهُ، ونطَرَق طرُوقَ الغارة الشُّعُواهَ بلاده وَقُراهُ،  
ونكسَحْ بِأيدي الاستلاب ما جمعت بها يداه إلى أن ذاقوا من ذلك وبال أمرهم، ونترفوا عاقبة مكرهم. وكان من جرائمهم المفترضة شجاعاً في حلوق المُطَهَّر<sup>(١)</sup>، ومتبعشى الأخطار، ورُكَاب البحار، من المجاج والتجار، جزيرة غودش<sup>(٢)</sup> وبها من أعداء الله جمّ كبير، وجمع كبير، فأرسلنا عليهم من أسطولنا المنصور غرباً<sup>(٣)</sup> تَقَتَّ عليهم بالثنو، وعرَفت المسلمين برقة هذا الطائر الميمون.. وسارت تحت أجنبحة النجاح إليها، إلى أن دمت مخالب مَرَاسِبِها عليها، فلما نزلوا بساحتها، وكبروا تكبيرة الإسلام لإبايتها، بُهِتَ الذي كفر، ووُدَّ الفرار والمَيْنُ (الموت) ينادي به

(١) المطار: المحرken بحرا.

(٢) غربانيا: سفنا مطلية بالقار.

(٣) لمها جزيرة رودس.

أين المفر، فلما قضى السيف منهم أو طاره، وشفى الدين من دمانهم أوازه<sup>(١)</sup>: جعوا منهم عدداً يُنفي بعد الأربعين على الأربعين، وجماعوا بهم في الأصفاد مقرئين، وامتلأت بفنائهم - والحمد لله - أيدي المسلمين، وانقلوا فرحين بما آتاهم الله مستبشرين». وإنما ذكرنا هذه القطعة الطويلة في ختام الرسالة لندل على براعة كاتبها وأنه لم يكن يقلّ عن كتاب المشرق بياضاً وبلاعنة. وفي ذلك ما يدل على أن الكتابة الديوانية في المعهد المقصري رقت رقيا بعيداً وأن كاتبها لم يكونوا يقلّون عن نظرائهم في المشرق فصاحة لفظ ورصانة مع اصطفاء الكلام والملاحم بين الكلمة والكلمة والسبحة والسبحة بحيث يجد القارئ لرسائلهم لذة ومتنة مع ما يجد فيها من المقاييس التاريخية بهذه الفارة على جزيرة غودش، غير أن الزمن لم يحتفظ بها جيماً، فضاعت فيها ضاع من نصوص أدبية تونسية.

## ٣

## الرسائل الشخصية

إذا كان جهور الرسائل الديوانية القبروانية والتونسية سقط من يد الزمن فإنه احتفظ بكثير من الرسائل الشخصية، ومن أوائل ما يلقانا منها رسالة استعطاف لداود القبرواني المتوفى حوالي سنة ٢١٠ هـ/٨٢٥ م وكان قد تقلد ديوان الرسائل لمحمد بن مقائيل العكسي فلما عزل وتولى على القبروان وإفريقية مكانه إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤ هـ/٨٠٠ م اختفى داود أيامه وكتب - من مخبئه يستعطف ابن الأغلب - رسالة يقول فيها<sup>(٢)</sup>: «ذنبي عظيم، وخناقي ضيق، وحجزي ضيق، وغفران الأمير وطوله<sup>(٣)</sup> أعظم من ذلك كله، فإن تداركتي الأمير - أغفره الله - بما أتُّم فذلك الذي يشبهه وينسب إليه وأرجوه منه، وإن يعاقب بالذنب الذي اجترته<sup>(٤)</sup> وهو أحق بانتفال من زلتني، وإقالتي<sup>(٥)</sup> عن عترق.. والأمير أولى في، وأنظر مني لنفسي، وأعمل بما سألكه ورغبت إليه فيه عيناً ويداً، وافق ولِي توفيقه فيما عزم عليه من ذلك. أتُّم الله على الأمير نعمته» ففما عنه الأمير إبراهيم بن الأغلب وقربه منه، واستكمبه، وعهد إليه في مهماته واتخذه مستشاراً في أموره، وكان نعم الناصح له الأمين. و Ashton ابنه إبراهيم ياقتان الكتابة وعُين مثل أبيه في الدواوين الأغلبية. وإذا مضينا إلى عهد إبراهيم الأغلبي الثاني (٢٦١-٢٩٤) وجدناه يسخط على كاتبه الخاص البريدي محمد بن أحد بن حيون المتوفى سنة ٢٧٦ هـ/٨٩٩ م وزوج

(١) أوازه: نازه.

(٢) المجل في تاريخ الأدب التونسي ص ٤٥.

(٣) إقالته: الصفع.

(٤) طوله: فضله.

بـه في غياب السجون، فيرسل إليه رسالة طوبية مستعطفاً، وفيها يقول<sup>(١)</sup>:

«لكرم العفو وعلوّ قدره وجليل خطره تسمى الله عز وجلّ به فسمى نفسه: «العفو الفغور» والطبع البشري مرکب على النقص، مقرن بالزلل.. ولست - أيد الله الأمير - من يدعى العصمة والبراءة من المفروضة، ولست أمت<sup>(٢)</sup> إليك إلا بفضلك على، وإحسانك إلى.. وإن من غرس غرساً فواجِب أن لا يحيطه (يقطنه) وإن أبْطأ بُسْوَفَه<sup>(٣)</sup> بل يمده بمقداره العذبة حق تقدّ خيطانه<sup>(٤)</sup> وتورق أغصانه. أعاذك الله - بما أودعك من معالي الأخلاق - من ترك العفو عن مقرّ مفتر لا يعرف إلا فضلك، ولا يرجو إلا عدلك.. فالخطفي يعني عفوك، وأضف<sup>(٥)</sup> (أشيخ) على ستر نعمتك».

ويبدو أن ذنب البريدى كان كبيراً فلم يلْنَ له قلب إبراهيم الثانى الأغلبي ولا صفح عنه، بل أمر بقتله وسفك دمه. وتكثّر الرسائل الشخصية في عصر الدولة الصنهاجية، وسنخصل إبراهيم المصرى صاحب زهر الآداب بكلمة عنه وعن رسالته. وتنلقى بابن شرف القيروانى المترجم له بين أصحاب المراتى للمدن والدول، وكما كان شاعراً مبدعاً كان ناثراً مبدعاً، وقد رحل إلى الأندرس بعد ما نزل بالقيروان من طوفان الأعراقب الملائين، كما أسلفنا، وترجم له ابن بسام في ذخيرته ترجمة ضافية، وذكر له فصلاً من رسالة خاطب بها المؤفر بن الأفطس أمير بطليوس، وفيها يقول<sup>(٦)</sup>:

«كتبت وشوقى إلى شرف لقياه، وشيم<sup>(٧)</sup> سقياه، شوق القارظين<sup>(٨)</sup> إلى سكون وسكتى، والقبتين إلى ليل ولبنى.. واقه ببلوغ الأمل خير كفيل، والشيخ يهدى الشفاء وقد رأيت طوفان قربطة يقيم دهراً، وإنما أقام طوفان نوح شهراً». ويدرك له ابن بسام فضولاً نثرية يبدو أنه حبرها للكتاب كى ينتفعوا بها في رسائلهم المختلفة في مدح أمير أو وزير أو قائد أو قاض أو كاتب أو فقيه زاهد، من ذلك فصل يصلاح أن يكتب به إلى حاكم أو وزير، وفيه يقول<sup>(٩)</sup>: «يقطّم الحزن، ويشنّ بالعزّم، يشاور ذوى الآلباب على أن رأيه ثواب، يثبت وثواب اللّيث».

(١) أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب (طبع الدار البيضاء) التصـمـ الثالث من ٢٠ وقارن بابن عذاري ١١٥/١ ويحمل تاريخ الأدب التونسي ص ٦٥.

(٢) أمت: أنتسب.

(٣) بسوقة: ارتفاعه.

(٤) خيطانه: فروعه.

(٥) أضف: أشيخ.

(٦) الذخيرة ١٩٣/٤.

(٧) شيم: بارد.

(٨) القارظان: جاهليان خرجا في طلب القرط

(شجر) ولم يعودا.

(٩) الذخيرة ١٨٤/٤.

ويتدفق دُفُوقَ الغيث، ويرُواح بين العَجل والرِّيت، نومه غرار<sup>(١)</sup> واضطرار، وحاجاته سرار<sup>(٢)</sup> نم افتدار، لا تتبّله الظلل ولا الظلال، ولا تطبيه<sup>(٣)</sup> الكلل ولا يشيه الكلال (التعب). رأيه قبْسَه (مصاحبه) وعزم فرسه، وبصیرته بصره، وصَدْره ورده وصَدْره<sup>(٤)</sup>.

وينه المقدرة الأدبية البدية تتوالى هذه الفصول التثرية في المدح للحكام والوزراء ورجال الدولة من قواد وقضاة وكتاب، ويورد له ابن بسام فصولاً أخرى في النم لا تقل عن الفصول السابقة في رواعتها الأدبية، وفي أول فصولها يقول<sup>(٥)</sup>:

«فَلَانْ غُورَه أَقْرَبْ قَرِيبْ، وَقَلْبِه مُورُودْ الْقَلِيبْ<sup>(٦)</sup>، فَسَرَانِه مَكْشُوفَه، وَدَخِيلَتْ مَعْرُوفَه، كَمَانُه إِخْبَارْ، وَتَدْبِيرُه إِدْبَارْ، رَأِيه وَرَاءَ، وَسَاحِتَه عَرَاءَ، جَسَه هَامَدْ، وَفَهْمَه جَامَدْ، لَا يَعْرِفُ الرَّشَدَ مِنَ النَّفَرِ، لَا يَفْرُقُ بَيْنَ التَّقْبِيلِ وَالْكَتَنِ، طَلَلْ بَالِ، لَا يَجْتَهِرُ عَلَى بَالِ، الشَّمْسُ عِنْدَه سَهَا<sup>(٧)</sup> وَالْحَقْعَنْ تَهَا<sup>(٨)</sup>». لَا يَعْلَمُ رَائِسُه، مِنْ أَيْنَ أَنْفَاسَه، وَلَا يَدْرِي فِيمَاغَه، أَيْنَ أَصْدَاغَه».

والفصل يوجِّه كسابقه بالسبعين المختار والألفاظ المنتسبة والطبقات والجناسات ونهايك بما يحمل الفصل في سجمه من روعة، مما يزيّن وقمه في الأذن والنفس، إذ ما تزال الإرئات متصلة في الكلام، وما يزال جرسها يمنع الأسماع والأفندة، مع ما يبهر من الألفاظ الثلاثية التي تطير عن الأفواه في خفة. ويلقانا بعد ابن شرف على<sup>(٩)</sup> المحصرى الذى مرت ترجمته بين شعراء الغزل، وقد ترجم له ابن بسام في ذخيرته، وأورد له فصولاً من بعض رسائل، استهلها بالفصل التالى له من رسالة<sup>(١٠)</sup>:

«السلام عليك أَهْبَأَ القلب الثانِي، والبعيد الدافِي، الرافق في سِيَامِ المعالِي، الواقِي من دَاءِ اللَّيَالِ، أَوْلَ مَنْ عَنَدَتْ، وأَفْضَلَ مَنْ أَعْدَتْ، وَمَنْ لَازَالَ التَّسِيمُ فِي الْبُكَرِ وَالْعَيْنَاتِ، يَهْدِي إِلَيْهِ أَطْبَبَ التَّحْيَاتِ، وَمَنْ جَعَلَتْ وِقَامَه، وَلَا عَدَمَتْ لِيقَامَه، إِذَا كَانَ الْكَرِيمُ سَالِماً، كَانَ الزَّيَانُ مَسَالِماً».

وفي سجمه نفس العذوبة التى مرت في سبع ابن شرف، وفيه الطبقات وكثير من الجناسات، ومع كثرتها لا يشوبها أى تكلف، وكأنه يستمدّها من نوع فِياض لا ينضب، وكانت قد نسبت بينه وبين ابن الطراوة التحوى الأندلسي المشهور المتوفى سنة ٥٢٨هـ/١١٢٣م خصومة

(١) غرار: قليل.

(٢) سرار: كمان.

(٣) لا تتبّله الظلل ولا الظلال أى حيّة الدّعّة.

(٤) سهَا: نجم صغير أى أنه لا يميز.

(٥) مثله لا يطيّبه أى لا تستميله الكلل /الأَسْتَارُ /أى

(٦) القليب: البز.

أنه لا يستهم حيّة الدّعّة والخسول يُلْ يقتعم

(٧) تهَا: عقل.

المخاطر والهالك، ويعد في هذا الاقتحام مناعة.

(٨) تهَا: عقل.

(٩) الذخيرة ٤/٢٤٧.

(١٠) صدره ورده وصدره كأنه البعير الذى يُردد

وخطابات نال كل منها فيها من صاحبه، ويدرك ابن سام له فصلاً من إحدى خطاباته ورسائله إلى ابن الطراوة، وفيه يقول<sup>(١)</sup>:

«ما حيّاق بين الميّات، ونباقي في الجميع أو الْثَّيَاتِ<sup>(٢)</sup> وقد حانت وفاة الوفاء، وحانَتْ صفاتُ الصفاء، وأرداه<sup>(٣)</sup> الزمان بأرداه<sup>(٤)</sup> وأعيانه يتقلب أغيانه. الجايل هو الماكي<sup>(٥)</sup> والعالم<sup>(٦)</sup> ميخوس الأحاطي<sup>(٧)</sup>.. وما أضحكني ملة في، وأطاشني وليس الطيش في، هذا المتنحوى<sup>(٨)</sup> المتنحوى<sup>(٩)</sup> نظمت قصيدة سميتها سهم الشهم، وضمتها مسائل لا تخفي على أولى الفهم، فما بلغته حتى دعنته<sup>(١٠)</sup> وألقاها كأنها حية لدغته. أنها المروء بجهله، والمدعى العلم وليس من أهلـهـ سكرت فصحوك لا يجديلكـ وـكـأـنـ بـنـ ضـكـ قد ضـاكـ (ظلمكـ)، وـبـنـ مـكـ قد لـمـكـ وزعم هذا الأهرج الأعوج أنه لم يعرف رسمـيـ، ولا سمع باسـيـ، كـأـنـ وـلـدـ بالـأـسـ، أو بـعـثـ من الرـسـ (القبرـ)، أو غـيـرـ عنـ الشـمـ».

وكأنما بلفت القبروان في القرن الخامس عند ابن شرف وعلى المصري كل ما كانت تحلم به من روعة وإبداع في الكتابة الأدبية وأسجايعها القصيرة وألفاظها المتخبطة الرشيقية، وغضي إلى عصر الدولة الحفصية، ويرسل أبو الفضل التجاني المتوفى سنة ٧١٨ رسالة إخوانية يتودد فيها إلى ابن عميه عبد الله التجاني صاحب الرحلة المشهورة في أثناء رحلته بالقسم الجنوبي من الإقليم التونسي آملاً في لقاء قريب به، وفيها يقول<sup>(١١)</sup>:

«هذا الزمن الذي أوقع زيفاً واشتعل الرأس به شيئاً، سرعان ما تتفهقر القواطع منه مفترقة، وتحوّل ليلة آية النهار بمصرة، وتتقى حبلاء من سقط الفرقـة مُضـفـةـ، ويرجـعـ رابـعـ الشـيـابـ صـيـفةـ أـهـلـهـ (وـمـنـ أـحـسـنـ مـنـ اللهـ صـيـفةـ)ـ وإـذـ كـانـ يـعـيـدـ حـاـمـلـ كـلـامـ، وـبـرـادـهـ واـصـلـ سـلامـ، فـاـنـ ظـنـكـ بـهـ حـيـنـ يـلـقـيـ الـقـيمـ وـالـآـيـبـ، وـتـقـلـ الرـكـاتـ، وـتـرـاجـ منـ جـذـبـ البرـىـ<sup>(١٢)</sup>ـ، وـبـرـاحـ إلى جـنـةـ الـقـرـبـ وـنـارـ الـقـرـىـ<sup>(١٣)</sup>ـ وـحـيـنـتـ تـنـصلـ الـأـفـرـاحـ، وـأـنـشـدـ:

من حـدـ عنـ نـيـرـانـاـ فـأـنـاـ اـبـنـ قـيـسـ لـاـ بـرـاحـ<sup>(١٤)</sup>ـ»

والقطعة مسجوعة وتحمل كثيراً من الصور فيها طيافات وجناسات واقتباس من الذكر

(١) دعنته: ألت دماغه.

(١١) الذخيرة ٤/٤٦٩.

(٢) الثبات: المساعات.

(٣) أرداه: أهلكني.

(٤) أرداه: أكممه.

(٥) الماكي: المحظوظ.

(٦) الأحاطي: المحظوظ.

(٧) المتنحوى: من التحوّر.

(٨) المتنحوى: المتعاظم.

(٩) دعنته: ألت دماغه.

(١٠) بجمل تاريخ الأدب التونسي ص ٢١١.

(١١) تراح: تستريح. البرى جمع برة وهي حلقة

من نحاس ونحوه توضع في إحدى فتحتي أنف

البعير يلذبه بزمام منها لذلليه.

(١٢) براح: برج.

(١٣) القرى: الطعام يقدم إلى الضيف.

(١٤) براح: فران.

الحكيم واستشهاد ببيت سعد بن مالك في حرب بكر وتقلب معهًضا فيه بالحارث بن عباد حين اعتزل هذه الحرب، وهي تصور براعة كاتبها الأدبية، وكان يتقلد رئاسة ديوان الإنشاء أيام الخليفة المفصي أبي يحيى زكريا المشهور باللحناني وابنه محمد الملقب بأبي ضربة، ومن كتاب الرسائل الشخصية في هذا العصر ابن خلدون، وستنحصه بكلمة. وتتكاثر الرسائل في المسر الشعاني، من ذلك رسالة تعزية لعلى الغراب الصفاقسي يعزى صديقا له في أمه ومن قوله فيها<sup>(١)</sup>:

«ترك القلب بعد المسرة أسيفا، وقرع الأسماع فرقعاً عنينا، ذكر ما أصبحت به في مبدأ لوحتك<sup>(٢)</sup>، ومنتبت دوحتك، ومنبع مشربك، ومطلع كوكبك، حيث أجبت الدواعي الفلوية، إذ قالت لها **﴿أرجعي إلى ديك راضية مرضية﴾**.. ففرّ علينا - واقت - هذا المصايب، وبلفنا من الحزن بهذا الرُّزْءَ<sup>(٣)</sup> النصاب (الغاية).. فتأنس يا أخي بصبر ذوي الآلاب، وأدخر ما أصبحت به عند اقه ل يوم الحساب، فلا يخفاكم ما أعد للصابرين من الأجر والنواب **﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾** أحسن اقه لك بها العزاء، وجازاك اقه أفضل المجزاء».

والتكلف واضح في هذه الرسالة، وعلى الغراب يكثر في كتاباته من صور التصنع المختلفة، وسنعود إلى بيان ذلك في الحديث عن مقاماته، ولمحمد ماضور المترجم له بين شعراء الغزل رسائل شخصية متعددة، من ذلك رسالة في تهنئة صديق بالإلال من مرض، وفيها يقول<sup>(٤)</sup>:

«سلام أعلى وأغلى، وأجل وأحل، وأبقى وانتقى، من سلام شائق لم شوق، ووامق لم وومق، أخص به حضرة الموسوم بصدق الإيمان، في الشدة والرخاء، لازالت عيون السعادة تلاحظه، وأيدي الإيادة (التأييد) تفاوضه بمنته اقه تعالى، أما بعد فإني أحمد اقه ل وذلك على العافية الكافية، والنعمضة الضافية الواافية، أمدّها اقه علينا امتداد رحمة، وأبقاها لدينا بقاء كرامته ومنتنه».

ولله ماضور سهلة وليس فيها لفظ غريب ولا تكلف، وهي مسجوعة، مثلها في ذلك مثل الرسائل الشخصية في عصرها وقبل عصرها، إذ لم يستجب الكتاب إلى دعوة ابن خلدون بتخلص الرسائل من السجع، وكأنها كانت صرخة في فلاء، والرسالة مكحلة بالجناسات زينة الكتابات الأدبية هي وأخواتها من المحسنات البديعية. وله من رسالة يعزى صديقا في رُزْءَ أصايه<sup>(٥)</sup>:

«كتاب هذا عن نفس مستنطارة بلوعتها، وكبد مذابة بروعتها، وعن قلب شعاره بـ رحـامـ (شدة) الجوى تفجـعا لما فجعلـكـ، واشتراكـا في عظـيمـ المصـابـ معـكـ، وأـسـفـاـ عـلـىـ منـ فقدـناـهـ فقدـانـ

(١) انظر ديوان على الغراب الصفاقسي      (٢) الرُّزْءَ: المصيبة.

(٤) بمحمل تاريخ الأدب التونسي ص ٢٦٣.

(٥) نفس المصدر ص ٢٦٤.

(٢) لوحتك: خلقتك وجودك.

السمع والبصر، ورمينا فيه بأعظم الحوادث والغير، وأى رُزْمَه ما أفقده في القلوب، وأى خطب ما أشنعه في المطرب.. وقد ساعد الزمان حين رماك، وأصمان سهمه كما أصماك.. لا أعاد الله عليك بعد هذا الخطب خطباً، ولا أرجف لك قلباً».

والاستعارات في التعزية والجناسات تخلو من التكلف، والسمع ينزلق في الرسالة - كسابقتها - عن اللسان بخفة، والألفاظ فيه متآخية كأنها بينها رحم وقرابة، لما بينها من تلازم في الجرس يسرّها في النطق على اللسان، ويزينها في السمع للأذان.

## ٤

## المقامات

فن المقامات فن عربي عيسي ابنكره بديع الزمان عارضاً فيه جيل الأدباء السيارين المحترفين للكدية أو الشحادة الأدبية عن طريق مايغلبون به الناس من فصاحتهم، وقد كتب مقاماته بأسلوب قصصي، واتخذ لها جيماً راوية هو عيسى بن هشام وبطلها هو أبو الفتح الإسكندرى، وعيسي يروى في كل مقامة حيلة لأبي الفتح مع شيء من حواره معه في أساليب أدبية مسجوعة بدعة. وتلقانا في القبروان وتونس رسائل أدبية يسميهما أصحابها مقامات، وهي لا تقوم - كما قالت عند بديع الزمان والمريرى بهذه - على الكدية أو الشحادة الأدبية، مما يجعل في تسميتها مقامات ضرباً من التجوز. ومن أقدمها في القبروان رسالة نقدية لابن شرف سماها «رسائل الانتقاد» عرض فيها نحو أربعين شاعراً من العصر الجاهلى حق عصره، وأنبع ذلك ببحث في سقطات عدد من الشعراء وعيوبهم. وأحكامه على الشعراء مجملة وغير معللة غالباً، وهي بذلك ليست مقامة وإنما هي رسالة نقدية ولاتنسى بعد ذلك عن عمل القبروانى حاكى به قصص الشحادة الأدبية عند بديع الزمان والمريرى، حتى إذا كان في العصر الشعائى وجدنا غير شاعر ينسب إليه بعض المقامات، وأول ما يلقانا من ذلك ثلاث<sup>(١)</sup> مقامات للشاعر على الغراب الصفاقسى المترجم له بين شعراء المديح، وأولاًها تسمى المقام الباهية نسبة إلى الشيخ أبي العباس أحد الباهى فى إقامته مدرسة أحدثتها لمهد الأمير على باى الأول، وقد حدثه بها أبو الصلاح سعوض عن أبي الثناء محمود الذى روى له أخبار تونس مفيضاً فى مدحها ومديح الأمير على باى الأول. ثم يفيض فى وصف المدرسة ومبانيها وغرفها وصفاً مسماها، ثم يطلب فى تهنت الشيخ الباهى وابنه بإقام المدرسة ويختتم المقامة بقصيدة فى مدح الشيخ. واضع أن هذه المقامات ليس لها من فن المقامات شيء، أما فى حقيقتها فإنها رسالة تهنت للشيخ الباهى المسماة باسمه، وسمى مقامته الثانية باسم المقام الهندية نسبة إلى الهندى وهو التين الشوكى، وكان شخص ذمه فأخذ يبدى ويعيد فى وصفه ووصف ثوره على شجرة قبل قطفه والاذداذ

(١) انظر المقامات في ديوانه ص ٣٣١ وما بعدها.

بطعامه، وحاكي المقامات أبوسنان الهندي عن أبي عاصم الهندي، ولبست مقامة إنما هي رسالة في وصف التين الشوكى، ومقامته الثالثة تأخذ موضوعها عبادة كان كلف حودة بن عطاء اقه بحملها وغسلها فأبطنها عليه، فكتب إليه هذه المقامات مداعبا، وفيها يقول:

«المستول من على هتككم وشريف حرمتكم أن العيادة إذا كانت في دائرة الوجود وعلى الوجود مشتملة، فأيسري إنفاذها على الحال الازمة لها أو المتنقلة، وإلا فأغيروا لنعرض عنها ونقول: **«عَسَى رَبُّنَا أَنْ يَبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا»** فإن الشفاء أرسل بخبرنا بوافاته.. وهذه العيادة غاشية<sup>(١)</sup> لم يجمع أهل بيتنا في البرد، كافية للجمع منهم والفرد، ومنذ فقدت زمن ذلك المهر الكبير، لم يسألني عنها منهم صغير ولا كبير، بل كلما أمال النوم رقاهم غلقوا أبوابهم **«وَاسْتَفْشُوا نَيَابِهِمْ»** ولما أن قطب وجه الشفاء وعيّس، وقد أصبح أنه يتنفس، صاروا كلما أقبلت ليلة شانية، تنقلب جنوبهم في المضاجع كل ناحية، وقاموا قبل الفجر يسألونني **«هَلْ أَنْتَكَ حَدِيثَ الْفَاشِيَّةِ»** وجعلوا يتأسرون على فقرهم إليها ويقولون: **«يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا»**.

وليس الحديث عن هذه العيادة مقامة إنما هو رسالة أراد بها إلى الدعاية، وتراء في هذه القطعة من الرسالة يقتبس مرارا من القرآن الكريم آيات يزين بها أسلوبه، وهو يكثر من ذلك في مقاماته كما يكثر من التصنّع لصطلاحات العروض والعلوم وخاصة النحو. وفي هذه القطعة من مصطلحاته الحال الازمة والمتنقلة، وأيضا فإنه يكثر من التوريات، ويتكلف لذلك كله في صور مختلفة.

للشاعر محمد الورغى ثلاث<sup>(٢)</sup> مقامات أيضا، سمي أولاهما الباهية، وهي تتطابق مع المقامات الباهية لعل الغراب في أنها تأخذ موضوعها مدح الشيخ الباهي وبنته اسماعيل وهي بذلك مثل مقامة الغراب رسالة لا مقامة. وسمى مقامته الثانية الورغية كتبها حين ختن على باى الثانى أولاده وأولاد أخيه محمد الرشيد، وفيها يفتخر بشعره ويضع نفسه فوق شعراء عصره، وبعارض قصيدة أحدهم ويتناولها بالنقد، وهي أيضا لا تشبه فن المقامات في شيء إلا في نسبتها إليه. وسمى المقامة الثالثة المقامات الخمرية كتبها حين هدم الأمير على باى الثانى الحانات في عاصمته تونس، وجعل بطلها سعد السعدي مكتبا به عن نفسه، وحاور فيها فتاة راماها بها عن تونس، ويستهلها بقوله<sup>(٣)</sup>:

«يارواه الأخبار، وحملة القول المختار، شمل افة جمعكم بسلام، وجع شملكم في دار السلام<sup>(٤)</sup>. خير المتكلمين منْ حدث بما نفع، وغير السامعين منْ أحرز وجمع، وغير ما قبل من

(١) الفاشية: النطاء.

(٢) انظر في هذه المقامات كتاب الأدب التونسي

(٣) دار السلام: البتنة.

(٤) في المهد المسني ص ١٥٤ وما بعدها.

الكلم، ما يقال لقائله: سَلِّمْ، فاسمعوا الآن لحدث حسن، تغييرته في سالف الزمن: كنت من حُبُّ إليه معاناة الأسفار، وخفف عنه مفارقة الأوكرار، ورأى أن من العجز تفضيل داره على دار، وأن من الأسر اتخاذ خليلة أو جار، وأن يقصد عن كُسْبٍ يجويه ليوم تظهر فيه مساويه، فشددت على وسطي أطماري<sup>(١)</sup>، وشمرت لقطع المفاوز بازارى» ويقول إنه رأى من البلاد ألوافا، وخالط من أهلها صنوفا، حق ألقى عصاه بتونس ويسى قتادة فيها أعجب بها «تونس» وبغيرى على لسانها بعض أحوالها ويستطرد إلى مدح حاكيمها على باى الثانى وصفتها لمدهد على لسان فتاته، مشيدا بها وبه قائلا إنها:

«مخط الرحال، ومطعم الآمال، تجارتها ناقفة، مبانيها رائفة، وسلامها ثمينة، ومساهمها التي عممت بها معيينة، ومساجدها معمورة، وبركتها منشورة، ومرتباتها للرسيبة جارية.. وأما خراج بلاده، فقد زاد على معتاده، لكثرة العمارة، بحسن سياسة الإمارة».

وتطلب إليه الفتاة أن ينشئ قصيدة في مدح الأمير على باى الثانى هدية حانات العاصمة، وينظم فيه قصيدة، واضح أن هذه المقامة مثل أختتها أشبه برسالة منها بمقامة، ونلاحظ أن لفته في مقاماته أخف وأعذب من لغة على الغراب في مقاماته. ومثل مقاماتها مقامة الحمودة بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م. ولعل فيها قدمته ما يدل على أن فن المقامة لم يزدهر لا في تونس ولا في القبروان. بينما ازدهرت فنون النثر الأخرى وخاصة الرسائل الديوانية والشخصية، وسرى بنا أن نترجم لأشهر الكتاب من سميتهم، وهم أبو اليسر الشيباني وإبراهيم الحصري وابن خلدون.

## ٥

### كبار الكتاب

أبو اليسر<sup>(٢)</sup> الشيباني

هو إبراهيم بن محمد الشيباني ولد سنة ٢٢٣هـ/٨٣٧م ببغداد وبها المنشأ والمربي واختلف إلى حلقات شيوخها من المحدثين والفقهاء وال TORIين أمثال البرد والأدياء أمثال المحافظ وابن قتيبة، وبدأ فيه ميل مبكر إلى الأدب جعله يلقى كبار الشعراء بها من أمثال البحترى وابن الرومي

لابن عذاري (طبع مكتبة صادر بيروت) ١/٥٤٢

(١) أطمار بعج طبر: التوب البال.

ونفع الطبع للمقرى وورقات عن المضادة العربية

(٢) انظر في ترجمة أبي اليسر الشيباني التكملة

لابن الآبار (طبع مدريد) ١٩٠/١ والبيان المغرب

بأفريقية ٢٤٤/١

وتحمل عنهم دواوينهم، ويبدو أنه عمل في دواوين الدولة العباسية فترة مع سعيد بن حميد وسليمان بن وهب وأمثالها. وكان فيه ميل إلى الرحللة ولعله عرف ارتحال زرياب إلى الأندلس وماحقق لنفسه من النجاح العظيم لعهد عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨-٢٠٦ هـ) فرأى أن يوم بيوره قرطبة، وقدمنها في زمن الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣ هـ) وطُوفَ في أنحاء الأندلس، ثم رأى أن يغادرها، ولا نعرف أسباب ذلك، وركب البحر إلى إفريقيا، وقد صدَّ الأمير الأغلبي إبراهيم الثاني (٢٦١-٢٨٩ هـ) فلقيه لقاءً حسناً، وعمل بدواوينه ولم يلبث أن اختنه رئيساً لديوان الرسائل لم يوجد عنده من الأدب الرقيق والترسل البلجي والشعر الرائق مع حصافة الفكر ومكارم الأخلاق، ويبدو أنه هو الذي دفع إبراهيم الثاني إلى تأسيس بيت الحكمة في عاصته رقادة، حتى إذا توالت زيادات ألقه الثالث عهد به إليه مع رياسته لديوان الائتمان، ويقول الكاتب الرقيق مؤرخ القبروان المشهور إنه هو الذي أدخل إلى إفريقية رسائل المحدثين وأشعارهم وأخبارهم، واستمرت له منزلته الرفيعة عند الأغالبة حتى إذا انتهت دولتهم سنة ٢٩٦ وخلفتها في إفريقيا الدولة الفاطمية أقره عبيد الله المهدى في عمله مستعيناً به في توطيد حكمه، ولم يلبث أن توفي سنة ٢٩٨-٩١١ هـ بعد أن لقى ابنه وعدداً من أبناء رقادة والقبروان أصول الكتابة الديوانية، ويدرك من ترجوا له مؤلفات لغوية وأدبية مختلفة، منها: سراج المدى في معان القرآن وإعرابه ومشكله، ومستند في الحديث، وكتاب لقط المرجان على شاكلة كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، ويقال إنه كان أكبر منه حجماً. وخلف بعثان ذلك بمجموعة من الرسائل التشرية البلجية، واتخذ لبعضها أسماء مثل المرصعة والمدجدة والموحدة والمؤنسة. وهو صاحب الرسالة العناء التي نسبها محمد كرد على إلى إبراهيم بن المديري في كتاب رسائل البلقاء خطأً، وفي كتاب صبح الأعشى نصوص منها منسوبة إلى أبي السر بما يؤكد نسبتها إليه كما في كتاب العصر العباسى الثاني ص ٥٢١ وأشار إلى هذه النسبة الدكتور محمد طه الحاجرى في كتابه دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب ص ١٠٧ وونق نسبتها إلى أبي السر الدكتور محمود مكي في بحث قدمه إلى المجمع اللغوى.

والرسالة طويلة وتعرض بدقة موازن البلاحة وأدوات الكتابة، وهي - في رأينا - أول رسالة عرضت في تفصيل صناعة الكتابة الديوانية، ويدرك في مطلعها أن شخصاً طلب إليه أن يعرف بأداب الكتاب، ويطلب من يزيد حذفها طول الاختلاف إلى العلامة ودراسة كتب المكابه ورسائل المتقدمين والمتاخرين والوقوف على الأشعار والأخبار والسير والأسمار والخطب ومحاضرات العرب ومعان المجم وآمثالهم ورسائلهم وعهودهم، مع التزود بال نحو والصرف واللغة والفقه. ويقول إن من يزيد التفوق في صناعة الكتابة ينبغي أن يحسن اقتباس آى القرآن الكريم ووضعها بدقة في مواضعها وكذلك الأمثال والأشعار. ونشر أنه يستمد من المحافظ

كثيراً من أفكاره عن الكتابة الأدبية، وقد طالب - كما طالب المباحث - باللامسة الدقيقة بين الكلام وطبقات الناس، وبالمشاكلة بين الألفاظ والمعنى حتى توضع الألفاظ في مواضعها. وزراعة لا يرضي - مستضيناً بابن قتيبة - عبارات في الدعاء مثل: «أَبْقَاكَ أَقْهَ طَوِيلًا» فغير منها «أَطْلَأَ أَقْهَ بِقَامَكَ» إذ العبارة الثانية في رأيه أرجح وزناً وأبهى قدرًا. ويطلب إلى الكاتب أن لا يستعمل الدعاء: «جُعِلْتَ فِدَاكَ» لأنَّه ابتذر حتى مجده الأفواه، كما يطلب إليه أن يعرف لكل كلمة مكانها، ويضرب مثلاً لتوضيح رأيه هو أنَّ شخصاً كتب إلى داود بن خلف الأصفهاني صاحب مذهب الظاهرية عن شخص آخر هذه العبارة: «إِنْ قَالَ كَذَا فَقَدْ خَرَجَ عَنِ الْمَلَكِ، وَالْحَمْدُ لَهُ» فقال له داود متعجبًا من وضع الحمد في عبارته: «وَخَمْدَ أَنَّهُ عَلَى أَنْ تَخْرُجَ إِمْرَأًا مُسْلِمًا مِنَ الْإِسْلَامِ هَذَا مَوْضِعٌ أَسْتَرْجَاعٌ وَلِلْحَمْدِ مَكَانٌ يُلْقَى بِهِ، وَإِنَّمَا يُقَالُ فِي الْمُصِيَّةِ: إِنَّهُ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ». ويقول أبو اليسر إنه يوضع مع ذكر الشكوى مثل: «وَاقِهُ الْمُسْتَعْنَ» ومع ذكر البلوى: «نَسَأَلَ أَقْهَ صِرَفُ السَّوَءِ» ومع ذكر النعم: «الْحَمْدُ لَهُ».

ويستضيئ بالماحظ في النهي عن الإيجاز المفرط في الرسائل والألفاظ المشتركة والمهمة، ويدعو إلى الاستهلال في مقدمات الرسائل بحيث يشير الكاتب في صدرها إلى المراد منها. ويغوص في أوصاف القلم واختيار مادته وطريقة بريه، ويتحدث عن القراءات والكتابة فيها وطبيعتها ويلفت إلى كتابة التاريخ بالقياس إلى الشهر، فإن كان الماضي أقل من نصف الشهر قبل: لكتذا ليلة مضت من شهر كذا وإن كانباقي أقل من النصف قبل: لكتذا ليلة بقيت. ويعود إلى الحديث عن وضع الألفاظ في مواطنها بكل دقة وينهى من ليست له موهبة في الكتابة عن الانتظام في هذه الصناعة.

وينقل عن المباحث إعجابه بالكتاب إذ التمسوا من الألفاظ ما ليس متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً، وبين أهمية الرسائل المعتبرة تعبيراً جيداً في استنزلال الجماهير وأنها قد تصنع مالاً تصنعه الجيوش اللجبة، وينقل عن البيان والتبيين للماحظ نقولاً كثيرة مثل تعريف اليونان والروم والفرس للبلاغة والصحيفة التي دونها عن المندوب في البلاغة، وأيضاً ما سجله المباحث عن بعض بلغاء العرب والمتكلمين. وتأثير المباحث وابن قتيبة واضح في الرسالة، وللماحظ النصيـب الأولـرـ. ولعلـ فيـ هـذـاـ التـلـخيـصـ المـجـملـ إـجـالـاـ شـدـيدـاـ للـرسـالـةـ العنـزـاءـ لأـبـيـ الـيسـ الشـيـانـ ماـ يـوـضـعـ كـيـفـ أـنـهـ عـنـ عـنـيـةـ وـاسـعـةـ بـنـقلـ تـقـالـيدـ الـكـاتـبـ فـيـ بـغـدادـ إـلـىـ إـفـرـيقـيـةـ كـمـاـ عـنـ زـرـيـابـ قـبـلـ بـنـقلـ تـقـالـيدـ الـفـنـاءـ الـبـغـدـادـيـ إـلـىـ الـأـنـدـلـسـ، وـبـدـونـ رـبـ يـفـتـحـ أـبـوـ الـيسـ الشـيـانـ فـيـ إـفـرـيقـيـةـ لـلـكـاتـبـ الـدـيـوـانـيـ عـصـراـ جـديـداـ بـأـكـملـهـ.

هو أبو إسحق إبراهيم بن عل الشهور بالمحمرى نسبة إلى قرية بحذاء القبروان اسمها المحمرى، قال ابن رشيق في التعريف به إنه «نشأ على الورقة والنسخ بلودة خطه، وكان منزله لزيق جامع القبروان فكان الجامع بيته وخزانته، وفيه اجتماع الناس إليه ومهه. ونظر في النحو والمرؤض، ولزمه شأن القبروان، وأخذ في تأليف الأخبار وصنعة الأشعار، مما قربه إلى قلوبهم، فرأس عندهم، وشرف لديهم. ووصلت تأليفاته صقلية وغيرها واثنتان (انهالت) الصلات عليه، مات بالمنصورة (بالقرب من القبروان) سنة ٤١٣ وقد جاوز الأشد». وكان شاعراً نقاداً عالماً بتنزيل الكلام وتفصيل النظام، يحب المجانسة والمطابقة ويرغب في الاستعارة تسبباً بأبي قيام في أشعاره، وتبعاً لآثاره، وعنه من الطبع ما أرسله على سجنته بجرى الماء، ورق رقة المواه». ويتبع ابن رشيق في الثناء عليه ابن بسام في الذخيرة قائلاً إنه كان صدر الندى ونكهة المثلث الجلى، وديوان اللسان العربي، راضٌ صعابه، سلك أوديته وشعابه، وجع أشتاته وأعيا مواته». وللحصري مؤلفات أدبية بدعة، أهمها زهر الآداب ونهر الآلاب المنشور في أربع مجلدات، عارض به كتاب البيان والتبيين للباحث كلامه يقول ابن بسام «وما يضر عنه مداده، ولا تضرت خطاه، ولم يورد فيه كلام العرب كما صنع المحافظ، وإنما أورد روانة المباسيين من الشعراء والكتاب حق عصره». وكاد لا يتترك لهم مقطوعة شعرية بدعة ولا رسالة أدبية رائعة إلا دونها، يسعفه ذوق مصفي وحس دقيق وشهور رقيق، وأكثر من الاختيار لبديع الزمان فلم يترك له رسالة بلغة ولا مقامة باهرة في رأيه إلا دونها في كتابه، ونعجب أن يقدم لشباب الأدباء في الإقليم التونسي مقامات بديع الزمان، ولا يصدرون عنها في صنع مقاماتهم، غير أنهم إن كانوا عزفوا عنها في مقاماته من الكدية والشحادة الأدبية فما لاشك فيه أنهم مضوا يستروعون ويقتملون ما قدمه لهم من غذاء الشعر والنثر العباسي الرفيع، وهو غذاء ظل يحيى حياة متصلة في جيله والأجيال بعده، ومن أجله كان الشباب في إفريقيبة التونسية يلزمونه في حياته ويلزموه آثاره بعد مماته، إذ كان له من التأليف بجانب زهر الآداب كتاب الجواهر في الملحق والنوادر وكتاب المصنون والدرر المكتون وكتاب التورين أو نور الظرف ونور الطرف، وجميعها مختارات من رسائل وأشعار «أندى» - كما يقول ابن بسام - من نسيم الأشعار، وأذكرى من شيم الأزهار» وقد عرض منها فصولاً بدعة، وتهمنا الفصول التي اختارها من رسائله، وما اختاره له من رسالة إخوانية قوله:

خلكان ١/٥٤٥ والواق للصفدي ٦١٦.

(١) انظر في ترجمة المصري الأنثروج ص ٤٥ والذخيرة ٤/٥٨٤ ومعجم الأدباء ٢/٩٤ وابن

«قد تقاربت الصفات، وتوازنت النزوات، وتكافئنا لما تعارفنا، ورفعت الخلوة حجاب الاحتياج، وحطت الخلطة لثام الاكتفاء، وكنا مع طول الامتحان والاختبار ومدة الالتباس والاختيار، نتفن من ارتفاع القناع بلمعة، ومن اتقاد الزند بقدحه، ونهرز المهارات، من معارض الإشارات، وغمامض الاستعارات، في طراز يدق عن مُسْرِي السُّعْر، وعرق عن مجرى الشَّر.. ونختلس حركات البيان، في سكّنات الزمان، كما اختلس اللُّفْظُ المُعْبُ الكثوم، فهُلُمُ الآن إلى التصرّيف دون التعرّيف، والتصحّيف دون التُّهْريض، وتعلّم نتلاطّف، وتنكاشف، إذ قد لبسنا ثوب الأمان من الزمان».

والبناسات كثيرة في الرسالة، وبالمثل الطباتات في السطور الأخيرة، والاستعارات كثيرة كثرة مفرطة، وكأنه لم يكن يكتر من هذه المعينات البديعية في الشعر فحسب، كما قال ابن رشيق، بل كان أيضاً يكتر منها في النثر. ومن فصل في الإشادة بكتابه كاتب يقول:

«إذا بدأ القلم الأعلى براحته مطرزاً لرداء الفخر بالظلم رأيت ما أسود في الأبار أبيض في بصائر لحظها للفهم غير عمر كروضية خطرت في وشى زهرتها وافتقر نوارها عن تفرّع مبتسمر وتبرّجت في حلّلها وحلّيها، وابتهجت بوشيهما<sup>(١)</sup> وليلهما<sup>(٢)</sup>، فاجتبت ما اشتهدت من خزاماها وغزارها<sup>(٣)</sup>، واجتبت ما رأيت من جيبريلها وبهارها<sup>(٤)</sup>، ولشت خلود وزردها وسوسانها<sup>(٥)</sup>، ورشفت ثور أقامها وحوذانها<sup>(٦)</sup>، والتفتت مala تخلق<sup>(٧)</sup> الأيام بتهجته، ولا تغير الأعوام بجلته، من نور<sup>(٨)</sup> يقطف بالأسماع والأبار، وزهر يتناول بالخاطر والأفكار، وسرحت الطرف، فيما يفوت الوصف، من غرائب إبداع، وعجبات اختراع، لم تفترعها<sup>(٩)</sup> الأسماع».

والفصل مليء بالاستعارات فسطور كتابة هذا الكاتب تظرّز بسادها أو ظلمها رداء فخره، وما أشبه كتاباته بروضة تتمايل أغصانها بوشى زهرها، وتتلاؤ البسمات على ثور نوارها، وبغضى في وصف الروضة طويلاً مصوّراً بأزهارها كلماته، وكأنما أكبّ على خدود وردها يلشه

(١) أفاد جع أقحوان: زهر عطر يشهي النثر،

(١) الوسي: أول المطر. الولي: المطر بعد المطر.

والمزوان: نبات عشبي زهره طيب الرائحة

(٢) المزامي والمارار: نباتات طيبة الرائحة:

(٣) تخلق: تبل.

(٣) المجرى: زهر أصفر، والبهار: زهر أبيض وهو

عطران.

(٤) عطران.

(٥) نفترعها: تتعمّد عليها.

(٤) المؤسون: زهر متعدد الألوان جذاب عطر.

وعلى تغور أقحوانها يرشفه، وظل يقطف من زهر خواطر هذا الكاتب وأفكاره العميقة، سرّحاً الطرف فيها يغوت الوصف. ويقول المصري من فصل مقدمع في الماجاه:

« هو كليل الحاطرِ سقيم النفس، صدئ القرىحة عديم الحس، ذو طبع جاس<sup>(١)</sup>، وفهم قاسٍ .. قد تعودُ لـ الألسن بالسباب، وغمزَ الأعين على الصحاب، واستعمل الملق والكلاب، فهو بين جاهل متغافل، قد حُشِّي قلبه رِبنا، وملأه لسانه مِهنا<sup>(٢)</sup>، وبين منْ سماهمْ غائمه تذاع، وعقارب مكايده تنسع.. قد أسكرته خرةُ الكبر، فغُفِّلَ إلَيهُ أنْ كسرى حامل غاشيته، وأنْ قارون وكيل نفقة، وبليقيس إحدى دياته».

وذهب هذا الأديب المتعال الدعيّ شديد الإيلام، إذ لم يترك فيه المصري شيئاً من نفس أو حسّ أو طبع أو ذهن أو خلق إلا وجراحته، وكأنما يريد أن يزقه تزيقاً، وووشه بالكفر والتعالي حق ليحال أن كسرى ملك الفرس من حشمه الذين يحملون من ورائه غاشيته وأن قارون صاحب الكتوز المشهور وكيل على نفقة، وأن بلقيس ملكة اليمن من حواضنه. ومفضي بذلك له أنه يحال شعراً الجاهليّة الكبار امراً القيس والنابية وزهيراً ليسوا شيئاً مذكوراً بجانبه. والرسالة طويلة ونظن طناً أن ابن زيدون استضاه بها في رسالته المزلية. ولعل فيها قدمت من هذه الفصول ما يشهد له بأنه كان كتاباً مبدعاً إبداعاً رائعاً لا يزال يزين به كناباته من محنتات البديع فحسب، بل أيضاً بما كان يتنخب من الألفاظ مسوياً منها ذرّراً متلاحقة.

### ابن<sup>(٣)</sup> خلدون

هو ولـ الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي التونسي، ولد بتونس سنة ٧٣٢هـ/١٣٢٢م حتى إذا أبغـع قرأ القرآن العظيم على أبي عبد الله بن بـرـال، وبعد أن استظهره قرأ عليه بالقراءات السبع المشهورة وبقراءة يعقوب أحد المشرفة، وعرض عليه الشاطبيتين في القراءات وكتاب التقصي لأحاديث الموطأ لـ ابن عبد البر وكتاب التسهيل في النحو لـ ابن مالك وختصر ابن الحاجب في الفقه، وفـ خلال ذلك تعلم صناعة العربية على والده

ودائرة المعارف الإسلامية في ابن خلدون، وكتاب

(١) جاس: غليظ.

ابن خلدون: حياته وتراثه المكثري (طبع القاهرة)

(٢) ربنا: دنساً. مهنا: كذلك.

وأعمال مهرجان ابن خلدون في يناير سنة ١٩٦٢

(٣) انظر في ترجمة ابن خلدون كتابه: التعريف

بـ ابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، وهو سيرته بقلمه

(طبع القاهرة) والضوء الالام لأهل القرن التاسع

للـ سخاوي ١٤٦٤ / والـ محلـلـ السنـدـسـيـةـ ٦٦٥/٣

وـ فـلـسـفـةـ اـبـنـ خـلـدونـ الـ اـجـتـمـاعـيـةـ لـهـ طـهـ حـسـينـ تـرـجـةـ

لـ الدـلـلـيـةـ ٢٠٥/٤ـ وـ مـاـبـدـهـاـ

وـ جـمـلـ تـارـيخـ الـ أدـبـ التـونـسـيـ صـ ٢١٨ـ

محمد عبد الله عنان وبرتفـ ٤٠٥/٤ـ وـ مـاـبـدـهـاـ

وعلى الشيختين المصاوي والززالى، وعلى إمام العربية والأدب بتونس أبي عبد الله بن بحر وأشار عليه بحفظ الشعر فحفظ كتاب الأشعار الستة للأعلم وكتاب الحماسة وشعر أبي تمام وطانقة من أشعار المتنبي وسقط الزند للمرعى لازم مجلس المحافظ ابن جابر الوادى آشى وسمع عليه صحيح مسلم، وكتاب الموطأ، وأجازه إجازة عامة. وأخذ الفقه عن جماعة منهم أبو القاسم محمد بن القصير قرأ عليه كتاب التهذيب للبرادعى وعنتصر المدونة وتفقه عليه، وفي خلال ذلك كان يحضر مجلس الإمام محمد بن عبد السلام، وعليه سمع كتاب الموطأ. ولما ملك السلطان أبو الحسن المربي تونس سنة ١٣٤٨هـ/٧٤٨م أحضر معه جماعة كبيرة من علماء فاس، فاستمع إليهم وانتفع بهم، وبخاصة من الشيخ أبي عبد الله الأبلى التلمسانى تلميذ ابن البناء المراكشى، وعنه أخذ الأصول والمنطق وسائر الفنون الحكيمية والتعلمية.

وواضح من ذلك أن ابن خلدون كان - منذ نشأ - يكتب على تحصيل العلوم بل يلتزمها التهاما، وقد لفت إليه معاصريه منذ حادثته، مما جعل أبي محمد بن تافراكن المستبد بالدولة بعد رحيل السلطان أبي الحسن المربي عن تونس يستدعيه سنة ١٣٤٩هـ/٧٤٩م لكتابة العلامة عن الخليفة المفصى أبي إسحق وهى وضع كلمة «الحمد لله والشكر له» بقلم غليظ بين البسمة وما بعدها من مخاطبة أو مكاتبة، وفي سنة ١٣٥٣هـ/٧٥٣م استدعاه السلطان المربي أبو عنان فارس ليتقمض في سلك رجال دولته، ولباوه، فأكرم وقادته عليه، وعهد إليه سنة ١٣٥٦هـ/٧٥٦م بالكتابة والتلويق بين يديه، ونفس عليه بعض من حوله هذه المكانة عند السلطان وأخذوا يدسون عليه فاعتقله السلطان سنة ١٣٥٨هـ/٧٥٨م وظل في معقله حتى توفي سنة ١٣٥٩هـ/٧٥٩م ورددت إليه حرثته بعد وفاته، ولحق بالسلطان أبي سالم ولواه كتابة السر والإنشاء حتى توفي سنة ١٣٦٤هـ/٧٦٤م ودخل بعده إلى غرناطة بالأندلس واحتفى به سلطاناً ابن الأهر وزيره لسان الدين بن الخطيب، وتوقفت الصلة بينه وبين الوزير، وأرسله السلطان سنة ١٣٦٤هـ/٧٦٤م في سفارة إلى ملك قشتالة، ونجح في سفارته وسرعان ما أخذ أهل السعيات يفسدون ابن الخطيب عليه، وأحسّ منه شيئاً من الانقضاض لم يكن عهده فيه، وكانت قد ورددت عليه كتب من الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية يستدعيه، فصمم على مغادرة غرناطة وركب البحر سنة ١٣٦٥هـ/٧٦٥م إلى بجاية، واحتفل أميرها ورجال دولته به، وخلع عليه، وأخذ يستعين به في تدبير حكمه، وأسند إليه خطابة المبايع، ودرس للطلاب، وقتل وخلفه آخره، وأحسّ بالسعيات تكثر ضده، وجاءه كتاب من السلطان أبي حمود تلمسان في الجزائر سنة ١٣٦٩هـ/٧٦٩م يستدعيه - وهو مدينة بسكرة - لحجابته، فلباوه، وظل عنده حتى توفي سنة ١٣٧٣هـ/٧٧٣م إذ استدعاه السلطان المربي عبدالعزيز ليعمل معه، وارتحل إليه، غير أنه توفي قبل قدومه عليه، ولقيه الوزير أبو بكر بن غازى لقاء كريما، وأحسّ بدسائس تحاك ضده من

حوله، فرحل إلى غرناطة سنة ١٣٧٥هـ/٧٧٦ م رحلته الثانية، وسرعان ما أخذ أهل الدولة ي manus بدسون ضده عند سلطانها ومحنته على إعادةه إلى تلسان، وعاد إليها وأحسن ريبة من أبيه هو سلطانها لتركه له وعمله مع الدولة المرية، فخرج من تلسان واتجه إلى أحياه أولاد سريث في البلاية فأكرمه، ومكث بينهم مع أسرته أربعة أعوام، نزل فيها مع أنهه بقعة ابن سلامة في جبل بني راشد وأسكنوه فيها قصراً، اخْتَلَ فيه لوضع أصول كتابه العبر ومقدمته، وأحسن أنه يحتاج إلى مطالعة أمهات الكتب في مكتبات الدولة الخفصة في تونس ليستعين بها في تاريخه منقحاً ومصححاً وارتحل في سنة ١٣٧٩هـ/٧٨٠ م يريد تونس ولقي في سوسة سلطانها، فراجعه وذكر له أنه يريد الرجوع إلى تونس مسكن آبائه، فجهزه إليها، وعاد إلى عُشَّه الذي درج منه، وكان السلطان قد أمر نائبه فيها أن يهيئ له متلازاً كريماً مع راتب كاف، وعاد السلطان الخفصة إلى عاصمته، وأخذ يستشيره في شؤون الدولة، وطلب إليه الإكياك على تكميله تاريخه، وأكمله وأهدى الخزانة الخفصة الكبيرة منه نسخة، وأحسن بسعيات ضده عند السلطان الخفصة فقرر مقادرة تونس متولاً بالحج وركب البحر إلى الإسكندرية سنة ١٣٨٢هـ/٧٨٤ م ودخل القاهرة وانتهال عليه طلابها يريدون الاستماع إليه، فانتصب للتدريس بالجامع الأزهر، يقرأ لهم كتاب الأصول للإمام المصري المالكي ابن الحاجب، وأخذ شهرته تتسع في أروقة العلماء والأمراء، ولقي السلطان المملوكي برrocق فاتنوسه ووفِّر راتبه، وولأه التدريس في المدرسة القمحيَّة بجوار جامع عمرو أهم مدارس الفقهاء المالكية بمصر، والتحق منه ابن خلدون أن يرسل إلى الخليفة الخفصة بتونس رسالة يرجوه فيها أن يرسل إليه أسرته بحرًا، وأرسلها، غير أنه لم يكتب له أن يرى أحداً من أهله، فقد غرفت السفينة بكل من كان فيها، وحزن حزناً شديداً، وكان برrocق قلده قضاة القضاة المالكية سنة ١٣٨٥هـ/٧٨٦ م بالإضافة إلى تدرисه في المدرسة القمحيَّة وكثير الشعب عليه وأظلم الجو بينه وبين أهل الدولة، وافق ذلك مصايبه في أهله وولده، وعظم جزعه، فاعتزم الخروج من منصب القضاء والخلوص للعبادة والتدريس، وظل متربداً، حتى إذا عرف برrocق رغبته أخلاه من هذا المنصب سنة ١٣٨٦هـ/٧٨٧ م، ومكث بعد عزله منه نحو ستين في حال رفمة وعز من تردد الطلاب والعلماء ووجوه القاهرة إليه، وتوجه إلى أداء فريضة الحج سنة ١٣٨٩هـ/٧٨٩ م فقضى النسك وعاد إلى القاهرة محفوفاً بمحنة الناس وبجلتهم له إلى أن رأى السلطان أن يقلده القضاء ثانية في سنة ١٣٩٠هـ/٧٨٠ م وصرف عنه في سنة ١٣٩٢هـ/٧٨٢ م، ولم يلبث أن خرج مع السلطان فرج للقاء تيمور لنك وإعصاره التتاري، وهزم فرج وجيشه بالقرب من دمشق وخرج ابن خلدون مع فد للقاء تيمور لنك والتفاوض معه في تسليم دمشق ووعظه وعظاً طويلاً استطاع به أن يفديها من النهب والسلب وما كان يألف جيش تيمور لنك من الغطان، وعُقد صلح بين السلطان فرج وتيمور لنك، وعاد ابن خلدون إلى القاهرة واستقبل بحفاوة بالغة، وأعيد إلى القضاء في نفس السنة، وصرف في السنة التالية، وأعيد فيها،

وصرف سنة ١٤٠٦هـ/١٤٠٧م وأعيد سنة ١٤٠٤هـ/١٤٠٧م ولئن نداء ربـ - وهو قاضـ - في السنة التالية.

وقد بشر ابن خلدون معاصريه ومن جاموا بعدهم إلى اليوم بتاريخه الذى سماه: «كتاب البر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والمعجم والبربر» وهو ثلاثة أقسام في سبعة كتب، والكتاب الأول مقدمة في الفلسفة الاجتماعية في مجلد كبير، والكتاب الثاني في أربعة مجلدات تتناول أخبار العرب في الشرق، والكتاب الثالث في مجلدين يتناولان تاريخ البربر، وهو حجة في تاريخهم، وأيضاً فيها كتاب عن تونس وصقلية والأندلس. والداعم الذي دفعه إلى كتابة مقدمة مساعدة لناريخه ما لاحظه عند المؤرخين قبله من قبولهم كثيراً من الأخبار الزائفة والخرافية وخصوصهم للأهواء وبعض التحل دون تصور واضح للقوانين الاقتصادية التي تحكم المجتمعات الإنسانية، فأراد أن يفهم على هذه القوانين ومدى سيطرتها على الظواهر الاجتماعية والسياسية، وبذلك نسر التاريخ على أساس تطور الأوضاع الاقتصادية لا على أساس تطور الأوضاع السياسية كما تصوره اليونان. والمقدمة في ستة أبواب، أولها يتحدث عن العمران البشري وضرورة الاجتماع الإنساني ومن قوله في ذلك.

«إن الاجتماع الإنساني ضروري، ويُعبرُ الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدنٌ بالطبع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم، وهو معنى العمران، وبينما آن أقه سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا تصح حياتها وبقاياها إلا بالفداء، وهذا إلى النساء بضرره وبما رُكِّب فيه من القدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الفداء، غير موفقة له بعادة حياته منه، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه، وهو قوت يوم من الحنطة متلاً فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطعن والتجبن والطبيخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وألات لا تم إلاؤها بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخرى. هبْ أنه يأكله حياً من غير علاج فهو أيضاً يحتاج في تحصيله إلى أعمال أخرى أكثر من هذه: من الزراعة والمحاصد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل، ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير، ويستحيل أن تؤتى بذلك كله أو بعضه قدرة الواحد فلابد من اجتماع الفئر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له وله، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف، وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً في الدفع عن نفسه إلى الاستئنان بأبناء جنسه».

ويقول إنه إذا حصل للبشر هذا الاجتماع أو المجتمع وتم لهم العمران كان لا بد لهم من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العداون والظلم، وهذا الوازع إنما يكون بوحد منهم له عليهم الغلة والسلطان، وإنما يشرع مفروض من عند أقه يأتى به واحد

منهم متعمز بما يودع أقه فيه من خواص هدایته ليقع التسلیم له والقبول منه، حتى يتم له الحكم فيهم من غير إنكار. ويفيض في الحديث عن العمran بالأرض وأقاليمها ومدى تأثير البيئة في السكان سواء في الألوان أو في الأخلاق.

والباب الثاني يتناول العمran البدوي مع مقارنات بالعمran المضارى وبيان أن الأمم الوحشية تتقلب على مالا يبلتفها في الوحشية من الأمم، ويقول إن الانفصال في الترف من عوائق الملك، وإن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب، وإن تقلب العرب على الأوطان يسرع إليها بالخراب وإنهم أبعد الناس عن سياسة الملك. وظن بعض الباحثين أنه يريد العرب عامة، وهو إنما يريد الأعراب المتدينين الجفاة من أمثال بن هلال وبني سليم الذين سبق أن تحدتنا عنهم وعن سبوليهم التي قدمت إلى إفريقيا وخرّبت القبروان وغيرها من المدن في القرن الخامس المجري.

والباب الثالث عن الملك وأصنافه وأنه يحصل بالعصبية وحين يسود فيه الترف يفضي إلى الهرم، ويقول إن الدول تنتقل من البداوة إلى الحضارة وإن لها أعماراً مثل الأشخاص، ويتحدث عن الخلاقة وانتقامها إلى الملك كما يتحدث عن تسبعين بهم الدول من الوزراء والمحجوب والعمال والكتاب ورجال الشرطة وقادة الجيش، وعن المرووب والمباهنة والمكوس، ويقول إن التجارة من السلطان مفسدة للرعاية، وبالمثل تفرده هو وحاشيته بأكبر نصيب من دخل الدولة. وليس شيء يؤذن بخراب العمran مثل الظلم، ولابد للعمran البشري من سياسة عادلة ينتظم بها أمره. والباب الرابع عن البلدان والأمساك وما يجب مراعاته في أوضاع المدن، ويقول إن الحضارة غاية العمran غير أنها تتمد لفساده. والباب الخامس عن المعاش (الاقتصاد) ووجوهه من الكسب ويقول إنه: «إما أن يكون بالاستيلاء عليه من يد الغير على قانون متعارف ويسرى مُغْرِّماً وجباية وإما أن يكون باقتناص الحياة الوحشى وأخذنه بِرْمَته ويسى ذلك اصطياداً، وإما أن يكون من نتاج الحيوان الداجن كاللبن من الأنعام والمربي من دروده والعمل من نحله، وإما أن يكون من الزرع نباتاً أو شجراً ويسى ذلك فلاحاً أو فلحاً، وإما أن يكون من الأعمال الإنسانية في مواد معينة وتسمى الصنائع من كتابة ونجارة وخياطة وحياكة وفروسة وأمثال ذلك، وإما أن يكون من البضائع وأعدادها للأغراض<sup>(١)</sup>، ويسى ذلك تجارة». ويفصل القول عن الفلاح وعن التجارة وأصنافها وما يحدث فيها من الاحتكار، ويقول إنه يعود على صاحبه بالتلف والخسران، وإنه هو الذي اعتبره الشارع أَخْذَ أموال الناس بالباطل، ويفيض في الحديث عن أهميات الصنائع ويدرك من بينها صناعة التوليد وصناعة الطبع ويفصل القول فيها كما يفصله في صناعة الفناء وأنفاسه وأآلاته وتطوره من الجاهلية إلى زمانه.

(١) الأغراض جمع عرض: البطل في التجارة.

والباب السادس مقصور على العلوم وأصنافها والتعليم وطريقه، ويتحدث عن العقل التجريبي وعلوم الأنبياء وأن الإنسان جاهم بالذات عالم بالكتاب وأن العلم والتعليم طبيعان في العمران البشري وأن العلوم إنما تكثُر حين يكثر العمران وتنظم المضاربة، وفي بعض في الحديث عن أصناف العلوم بادئًا بالعلوم الإسلامية: علوم القرآن من التفسير والقراءات وعلوم الحديث وعلوم الفقه وأصوله وعلم الكلام وعلم التصوف ومذاهب الوحدة والملل فيه، ويتسع بالحديث في علوم الأوائل من الحساب والمفيضة والمنطق والطبيعيات والطب والفلاحة وعلم الإلهيات وعلم الكيمياء والفلسفة عارضاً في كل علم تاريخه وأشهر أعلامه. وينتقل إلى علوم اللسان العربي: علم النحو وعلم اللغة وعلم البيان وعلم الأدب ويقول «إنه لا موضوع له يُنظرُ في إثبات عوارضه أو نفيها وإنما المقصود منه عند أهل اللسان شرطه وهي الإجاداة في فن المنظوم والمنتور على أساليب العرب ومناخيهم، ويقول إن لغة العرب من أهل الحضر والأمسار لزمنه مقايرةً أو عناية للغة مصر الفصحى، إذ اتخذ كل مصر وكل بلد لنفسه لغة عامة عربية مستقلة به، ويتحدث عن صناعة الشعر والنثر وأشعار العرب والأمسار لزمنه والموشحات والأزجال وغيرها من فنون الشعر المستحدثة كالمواليا. وبذلك كله وضع ابن خلدون في مقدمة تاريخه لأول مرة في تاريخ الفكر الإنساني علم الاجتماع بأركانه وقواعده وقوانينه أو كما يسميه علم العمران البشري سابقاً بذلك علماء الغرب الذين لم يعنوا به بعد إلا بنحو أربعة قرون، وهو بحق عبقرٍ فَدَّ لا لتونس وحدها بل للغرب جيماً في كل مكان وزمان.

و واضح من حياة ابن خلدون أنه عمل بدواوين حكام مختلفين، وهو بذلك يُعد من كتاب الدواوين، وكان السجع قد شاع في كتاباتهم بحيث لا يكتبون رسالة ديوانية إلا مسجوعة سجعاً تماماً، وليس ذلك فحسب، بل كانوا يضيفون إلى السجع المحسنات البدوية، ورأى أن ينحي هذه الطريقة عن كتابته الديوانية، وأن يكتب بالأسلوب المرسل حاكيا عبد الحميد الكاتب والباحث وأخراجهما من قديمة الكتاب البلغاء، ويصرح بذلك في كتابه: «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، إذ يقول فيه: «لما استعملني السلطان أبو سالم [المربي] في كتابة سيره والترسيل عنه والإنشاء المخاطباته كان أكثرها يصدر عن بالكلام المرسل دون الأسجاع لضعف انتظامها وخفاء العالى منها على أكثر الناس بخلاف الكلام المرسل، فافتدرت به يومئذ، وكان مستفرياً بين أهل الصناعة». وزراه في المقدمة يهاجم الكتابة الديوانية المسجوعة بعنف في الفصل الذى عقده لانقسام الكلام إلى فن النظم والنثر، ويقول: «استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازنه في المثوار من كثرة الأسجاع والالتزام التقافية.. واستمروا على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية.. وهجروا المرسل وتناسوه.. ووجب أن تزء المخاطبات السلطانية عنه.. والمحمود فيها الترسل، وأما إجراؤها على هذا النحو المتفى فلننوم، وما حلهم عليه إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطائهم الكلام حقه في

مطابقته لافتراضي الحال، فعجزوا عن الكلام المرسل، وجمورو بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب (المحسنات) البدعية». وهو يضم إلى مهاجنة الأسجاع في المكابيات السلطانية مهاجنة المحسنات البدعية التي أكثر منها المتأخرن، وعاد إلى هذه المهاجنة في الفصل الذي عقده في المقدمة بعد ذلك للمطبوع والمصنوع من الكلام، وقال إن تلك المحسنات تقلب اليوم على أهل العصر، وأصحاب الأذواق في البلاغة يسخرون من كلفهم بهذه الفنون وبعدون ذلك من القصور عن سواه وليس بين أيدينا رسائل ديوانية لابن خلدون إلا ما ذكره في كتابه: «التعريف» من فصل في رسالة أرسل بها إلى ملك المغرب أبي سعيد عثمان بن أحد المرifين يخبره فيه بأحوال تيمور والطار منذ جنكيزخان وفيه يقول:

«كنت في العام الفارط توجهت صحبة الرُّكاب السُّلطاني (الناصر فرج) إلى الشام عندما زحف الطُّطر إلى من بلاد الروم (آسيا الصغرى) وال伊拉克 مع ملِكِه تَمُرُّو استولى على حلب وحماه وحمص وبعلبك وخربيها جميعاً، وعانت عساكره فيها بما لم يُسمَعْ أشنع منه، ونهض السلطان في عساكره لاستنقاذها، وسبق إلى دمشق وأقام في مقابلته نحوه من شهر، ثم قفل راجعاً إلى مصر، وتخلَّفَ الكثيرُ من أمرائه وقضائه، وكانت في المخلفين، وسمعت أن سلطانهم تم سُؤل عنى، فلم يَسْعُنْ إلا للقاؤه، فخرجت إليه من دمشق، وحضرت مجلسه، وقابلني بغيره، واقتضيت منه الأمان لأهل دمشق، وأقمتْ عنده خمسة وثلاثين يوماً، أيامه وأراوهه، ثم صرَّفني وودعني على أحسن حال، ورجعت إلى مصر.. ثم رجع آخِرًا إلى بلاده، والأخبار تتصل بأنه قد صدَّ سُرْقَدَن، وهي كرسيه (عاصمة ملكه) - والقومُ في عدِّ لا يسمِّ الإحصاء، إنْ قدرْتُ ألف ألفٍ (مليون) فغير كثير، ولا تقول أتفصل، وإنْ خَيَّموا في الأرض ملأوا الساحِل (الساحات) وإن سارت كثائبهم في الأرض المريضة ضاق بهم الفضاء، وهم في الفارة والنَّهْب والفتاك بأهل العمران وابتلاتهم بأنواع العذاب على ما يحصلونه من فنائهم آية عجب، وعلى عادة بوادي الأعراب».

والفصل - على هذه الشاكلة - مكتوب بأسلوب مرسل دون أى تكلف لسجع أو لمحسن بدعي. وكان يستخدم هذا الأسلوب في رسائله الشخصية على نحو ما يتضمن في رسالة أرسل بها إلى لسان الدين بن الخطيب ردًا على رسالته المنشاة بالسجع والبدع، وقد دون الرسالة ورسائل ابن الخطيب في كتابه: «التعريف» ويقول ابن خلدون إنه تقادى في رسالته السجع خشية القصور عن مسامحة ابن الخطيب في رسالته المسجوعة، وهي بمحاملة لابن الخطيب، والحقيقة أنه نَحَى السجع عن كتاباته في الرسائل الشخصية والديوانية جميعاً، ودعا الكتاب - إلى ذلك - كما أسلفنا - في مقدمته غير أنهم ظلوا لا يستمعون إليه في جميع البلدان العربية، إلى أن تحررت الكتابات ديوانية وغير ديوانية من السجع والمحسنات البدعية بصر في الربع الأخير من القرن الناسع عشر، وتبعتها البلدان العربية.



القسم الثالث

# صَفْلِيَّة



# الفصل الأول

## الجغرافية والتاريخ

### ١

الجغرافية<sup>(١)</sup>

صقلية جزيرة كبيرة تقع في منتصف البحر المتوسط، فتقسمه إلى شطرين شرقى وغربى، ويقاد ينلاقى شمالها الشرقي بإيطاليا فيما بينها مضيق سيني الذى لا يكاد يتجاوز عرضه ثلاثة كيلو مترات. بينما يتسع البحر المتوسط بينها وبين تونس وطرابلس حتى ليبلغ عرضه نحو مائة وعشرين كيلو متر تقريباً أو يزيد وبخاصة أمام طرابلس. وهى في الداخل مرتفعات وهضاب ووديان، وعلى مرتفعاتها أقيمت مدناً الداخلية لتكون حصينة. وفي جنوبها إلى الغرب مدينة جرجنت، والشاطئ الغربى والجنوبى الغربى موانئها لا تصلح للملاحة، وإذا تعلقنا نحو الشمال الغربى وجدنا مروجاً ومراعى متسعة، وفضى نحو الشمال فنجد ثغر أو مرفاً طرابيش، ون通行 غرباً في الساحل الشمالى وهو ساحل صخرى جبلى، ونلتقي بخليج نام الاستدارة، ويلقاناً بعده خليج مدينة برلم (Palermo) عاصمة صقلية الإسلامية ولا تزال عاصمتها إلى اليوم، ووراءها تحسر الجبال ويلقاناً سهل من أخصب السهول، ونستمر في السير على الساحل الصخرى الجبلى حتى تلقاناً مضيقاً على مضيقها. ونسير من مدينة سيني متوجهين إلى الجنوب شرقى قطانية حيث يصبح الساحل رملياً، ويصب فيه بعض الجداول. وإذا مضينا في اتجاهنا نحو الجنوب لقينا ثغر سرقوسة الذي أنشأه اليونان، وبه ولد العالم الإغريقى الفيزيقى المشهور أرشميدس، وبها قتل سنة ٢١٢ ق.م.

وأعلى جبال صقلية جبل إتنا في أقصى الشمال، ويبلغ ارتفاعه ثلاثة آلاف وثلاثمائة متر

(١) انظر في جغرافية صقلية صورة الأرض لابن حوقل وعمجم البلدان لياقوت وزهرة المشتاق للدكتور إحسان عباس (طبع دار المعرفة - القاهرة الأفاق للإدريسى وكتاب المسلمين فى القاهرة).

المدق (طبع الجزائر) وكتاب العرب في صقلية للدكتور إحسان عباس (طبع دار المعرفة - جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ أحد توفيق

تقريباً، وبكل هامته شيب أوتلع أذلي، بينما يغل جوفه ببار لا تحمد أبداً، وكأنه شيخ رحيم قاس في آن واحد، وقوته لا توصف، إذ يظل يُلقي بهممه مفيناً محتداً أياماً، وتنطلي حُمنَة الأرض بطبقة خصبة. وتند شمال الجزيرة سلسلة جبال من الشرق إلى الغرب، أكبر الظن أنها امتداد لجبال الألبين في إيطاليا وجبال الأطلس في شمال إفريقيا، وهي جبال صخرية جرada عارية مما كان ينتظّر لها من زينة النيات الخضرا، وطبقتها الخارجية تتكون من حجارة كلسية وبعض أنواع الرخام الرفيع، ومنها تكون بعض جبال فرعونية، تحدّر صوب المخوب ومن أهلهما الجبال التي أنشئت فوقها مدينة قصريانة وسط الجزيرة، والجبال التي تتجه نحو مدينة جرجنت، وهذه الجبال غنية بالملزف والرخام والملاع المعدني والمجصن، وكل ذلك يكون ثروة طبيعية مهمة لقلية، ويوجد الكثير قرب جرجنت وحول قطانية ويلزم.

ومناخ قلية في جملته معتدل، وفصل الشتاء فيها ليس قارس البرد بفضل الجبال الشمالية التي تصمّها منه، وهو يمتدّ فيها من شهر نوفمبر حتى شهر مارس، وفصل الصيف معتدل الطقس إلا ما يهب عليها فيه من رياح السوم التي تأتيها من إفرقاية. ويُمكن لتصور اعتدال المناخ فيها أن درجة الحرارة في برلم لا ترتفع عن ٢٦ درجة صيفاً ولا تهبط عن ١١ درجة شتاءً، ولذلك سميت بلاد الربيع الأبدي.

واعتدال مناخها هيأها لأن تنمو فيها مختلف الزروع والغروس، وتكثر الأشجار في ساحلها الغربي والشمالي وقد نقل إليها القرطاجيون القمح والزيتون والإغريق الكلمة، ونقل إليها العرب التخليل واللبيسون واللوز والفستق والتين ومختلف الأزهار، وأيضاً الموز والبرتقال، وبها بعض مراءٍ في سهولها هيأت لكثير من قطعان القنم والماعز والمنذير. ويكثر في سواحلها صيد البحر ب مختلف أنواعه.

## ٢

### التاريخ<sup>(١)</sup> القديم

استوطن قلية في أقدم عصورها شعب الصيقول (Les Sicules) ومنه اشتقت اسمها، ومنذ أكثر من ألف سنة قبل الميلاد أخذ يقدّ عليها غزوة من الشرق أو الجنوبي أو الشمال، فكانت

وكتب العرب في قلية من ٢٥ وما بعدها وتاريخ قلية الإسلامية في القسم الثالث من كتاب ورقات عن المعاشر العربية بأفريقية التونسية للأستاذ حسن حسني عبدالوهاب ٤٣٥/٣ وما بعدها.

(١) انظر في التاريخ القديم لقلية كتاب تاريخ سللي قلية لميخائيل أماري: Storia Amari: Storia Siciliana Di Siciliani Di Musulmani وكتاب المسلمين في جزيرة قلية وجنوب إيطاليا من ١٩ وما بعدها.

تُخضع لهم بحكم أنها جزيرة صغيرة لا يمكنها مقاومة هؤلاء الغزاة، وَهَا قبل الفتح الإسلامي تاريخ قديم، وبعده تاريخ نورمان سُنلِم بأحوال المسلمين فيه. وأول من سكَّنها - كما قلنا آنفاً - شعب الصيقول، وكان الفينيقيون - منذ نشأتهم على صفحات التاريخ - شعباً تجاريًا يجوب سواحل البحر المتوسط، ويؤسس له عليها قواعد تجارية، وقد نزلوا سواحل صقلية وأسسوا لهم في شمالها قاعدة هي بِلْرُم، ومدّت على ذلك قرون، وإذا اليونان يتمسّعون بهما الاستيلاء على ساحلها الشرقي ويتّسّعون بهم به قاعدين في القرن الثامن قبل الميلاد هما سرقوسنة وقطانية، وسرعان ما تحولتا مدّيتيَنَ كبيرين، وصعدوا إلى الشمال وأسسوا مدينة مُسيقِن. وفي هذه الأثناء كانت دولة قرطاجة في الشمال التونسي آخذة في القوة ومدّت ذراعها إلى صقلية تريد أن تستولي عليها من الإغريق وظلت المُرْبَب بينها في مُدُّ وجزر وانتصار واهتزاز إلى أن استطاعت قرطاجة أن تفرض سيادتها على الجزيرة سنة ٢٦٤ قبل الميلاد. غير أن القرطاجيين لم يكادوا يجذبُونا لأنفسهم حتى نشبت حروب عاتية بينهم وبين الرومان، وعيثوا حاولوا إنقاذهما، فقادُوها سنة ٢٤٢ قبل الميلاد، وأصبحت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية، وأصابها ما أصاب أهل روما منْذَ القرن الثالث الميلادي من التدهور والفتن والفساد الأخلاقي. ولما سقطت روما تحت أقدام المغيرين الشماليين لم تثبت أن سقطت بدورها تحت ضربات الواندال الذين استولوا على إفريقيَّة التُّونسيَّة، وقد أرهقوهم لمدة نحو قرن بالضرائب الفادحة، وأذاقوهم ضروباً من العُسف والظلم والاستبداد لا تطاق.

وتسترجع بيزنطة في عهد جستينيان صقلية، إذ كلف قائده بلياريوس بالإستيلاء على الجزيرة من الواندال كما استولى على إفريقيَّة الشمالية وكانت المدن خالية من حاميات واندالية، ما عدا بِلْرُم، فقد كان بها حامية لهم، وكانت أسوارها منيعة، فقاومته فترة ثم استسلمت مثل أخواتها القصليات، وفرحت جميعها بنزول الجيش البيزنطي فيها واستبشرت لخلاصها من ظلم الواندال وتعسفهم في جمع الضرائب، غير أنه لم يلبثوا أن شعروا بأنهم تخلصوا من ربيبة عَسْف إلى ربيبة عَسْف جديد، إذ أصلحُهم ولا، بيزنطة طوال ثلاثة قرون عيناً تقلياً من الضرائب الفادحة، فقد فرضوا عليهم ضريبة على الأُمُلُوك وضريبة على الرهُوْس وضريبة على التجارة أو الصناعة وضريبة للجيش أو ضريبة دفاع وضريبة للملاحين وضريبة للموظفين. ولم تكن الدولة البيزنطية وحدتها هي التي تجني الضرائب من صقلية، فقد كانت تجنيها منها الكنيسة: كنيسة روما وميلانو ورافينا، وكان للكنيسة الأولى الحظ الأوفر، إذ كان لها إقطاعات كبيرة موزعة حول بِلْرُم وقطانية وسرقوسة وجرجنت، وكان يديرها قسيسان أحدهما في بِلْرُم والثانى في سرقوسنة. وكان هُم كل منهما أن يجمع أكثر ما يمكن من الضرائب، وبالمثل كان وكلاء كنيسة ميلانو ورافينا، وكان يُرسَّل إلى روما سنويًا أسطولان محملان بالقمح في الربيع وفي الخريف، وكانت تُرسَّل إلى رافينا سفن محملة ببنات القنطرات من القمح والفواكه والخضروات والجلود المدبغة والحرير

والمواد الصوفية، والفلاح الصقل يتصبب عرقا، وبجمع الضرائب وكلاء الكنائس المذكورة مرة وبجمعها وكلاء الدولة البيزنطية مرة، دون رحمة أو إشفاق. وكانت روما في أنتهاء ذلك تُرسل إلى صقلية بكثير من العبيد، وأضافت إليهم من كانت تتفقهم من المذهبين ومفترق المذاهب والجنود المترددين. وكل ذلك عمل على إضعاف شخصية صقلية في المهد البيزنطي - كما يقول أماري - وأذهق فيها الشعور بالكرامة الإنسانية ولم يبق فيها منه بقية.

## ٣

### الفتح<sup>(١)</sup> العربي وعهد الدولة الأغلبية

بينما هذا الظلام يطبق على صقلية ويطبق معه الضنك والضيق والإعس إذا بالعرب يفتحون ديار إفريقيا التونسية المواجهة لصقلية ويستولون على جميع بلاد المغرب، وكان طبيعياً أن يفكروا في السيطرة على البحر المتوسط وعلى جزره: صقلية وغيرها، وتبعد خططهم الحربية في التعرف على أحوال البلاد قبل غزوها نراهم يرسلون سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ م حلة استطلاعية إلى صقلية بقيادة عبد الله بن قيس، وبعد تعرّفه على سواحلها الجنوبيّة عاد إلى إفريقيا التونسية، وأرسلت بعد ذلك حلات بحرية مماثلة بقيادة محمد بن أوس الأنصارى وبشر بن صفوان الكلبي، وتبعدهم جميعاً في تلك الحملات سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م حبيب بن أبي عبيدة حفيد عقبة بن نافع مؤسس القبروان، وأضطر إلى العودة سريعاً لاضطراب الأحوال في إفريقيا التونسية ويقول ابن عذاري إن ابنه عبد الرحمن غزا بهذه صقلية ثم سردانية وقاتل بها حتى صالحه أهلها. وهذه الحملات المبكرة نبهت الدولة البيزنطية إلى أن تحسب حساب الفزو العربي المفاجئ، فأحالّت صقلية إلى قاعدة حربية تقتل نورها ومدتها وقلاعها وحصونها بالعتاد العربي الوافر.

وكان من أهم الأساليب التي أسرعت بفتح صقلية أن قائدًا بيزنطياً يسمى أوفيموس (Euphemius) وتسميه المصادر العربية فيمي ثار على قسطنطين بطريق صقلية، فأمرته حكومة

المضاربة العربية بإفريقية والمسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ أحد توفيق المدنى والعرب في صقلية للدكتور إحسان عباس.

(١) انظر في الفتح والمهد الأغلبي البيان المقرب لأن عذاري وتاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون وأعمال الأعلام لأن الخطيب والمؤنس لأن أبي دينار والجزء الثالث من كتاب ورقات عن

القططانطينية بالقبض عليه وتعذيبه، وعلم فيمي بذلك الأمر، فرأى أن يستجده بالأمير زياده اقه الأغلبي حاكم إفريقيه التونسي ضد الطريق وحكومته، واستجواب إليه زياده اقه إذ رأى في ذلك فرصة لا تُعرض للاستيلاء على صقلية، فأعده سريعاً جيشاً لفتحها، ورأى بكياسه أن يسند قيادته إلى أسد بن الفرات القاضي وشيخ فقهاء المالكية بالقمر والنيل.

وأقلع الأسطول الأغلبي بقيادة أسد بن الفرات من ميناء سوسة في منتصف ربيع الأول من سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وكان يصل عشرة آلاف مقاتل، وأرسى بعد ثلاثة أيام على ساحل صقلية عند مدينة مازر في الجنوب الغربي، واستطاعوا في وقت قصير الاستيلاء على بعض المدن والمحصون الجنوبي، وتقادوا إلى الساحل الشرقي حتى حاصروا مدينة سرقسطة قاطنين نحو مائتي كيلو متر إليها، وتوززوا بعد جديد إليهم من إفريقيه. وكان أسد يباشر المصار ببنفسه ويضيق على المدينة، وانتشر مرض بين صفوف الجنود العرّى أودى بعياته العظيمة، فلبي داعي ربه في ربيع الثاني سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م ودفن تحت أسوار سرقسطة. وخلفه على قيادة الجيش محمد بن أبي الجواري، واستولى على جرجنت في الجنوب بالإضافة إلى مازر، وأخذ يستعد للهجوم على مدينة قصريانة، وكانت الحملة قد أصابها عناء شديد بسبب المعارك المتصلة، وأوشكت على الانسحاب إلى إفريقيه، غير أن ما نذروا أنفسهم له من المجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام تحت راية الشيخ أسد بن الفرات كان يطرد اليأس من نفوسهم ويشتد أزورهم إلى أبعد حد، ولم يلبيت الأمل أن ملاً نفوسهم إذ رقدم مدد جديد من إفريقيه ومن أسطول لشران المجاهدين الأندلسيين سمع بحملتهم، فجاء يوبيدهم، وتوفى قائدتهم محمد بن أبي الجواري سنة ٢١٦هـ/٨٣١م فأرسل إليهم الأمير زياده اقه الأغلبي قائداً جديداً هو زهير بن عوف، فقسم على الاتجاه إلى الشمال وغزو بلزم وحاصرها براً وبمرا وضيق الخناق عليها، وفي أنتهاء ذلك استولى على مasicي سنة ٢١٩هـ/٨٣٤م ومازال يزداد شدة في تضييق المصار على بلرم إلى أن استتبّ منها الروم، فقادوها بحراً وبيراً، تاركين المدينة مفتوحة أمام مجبريش المسلمين فدخلتها في رجب سنة ٢٢٠هـ/٨٣٥م وكان بها سبعون ألفاً قبل المصار فلم يجد الجيش بها سوى ثلاثة آلاف كما يقول ابن الأثير في تاريخه، واتخذها المسلمون هناك عاصمة لحكمهم في الجزيرة كما كانت عاصمة لمن قبلهم، وظلت كذلك لمن بعدهم، وأخذوا في تشييد القصور بها والمساجد والحمامات والفنادق وإقامة الأسواق بها والحدائق حولها، وحوّلواها من مركزاً علمياً بيت إشعاعات نوره إلى ظلمات القرون الوسطى في أوروبا.

وتوفّ هذا القائد المجاهد العظيم زهير بن عوف سنة ٢٢١هـ/٨٣٥م ورثي صقلية بعده أبو الأغلب إبراهيم بن عبد اقه بن الأغلب واهتم بالبحرية ونازل سفن البيزنطيين غير مرة وانتصر عليها، بل حطمها حطماً، وبذلك أصبحت للأسطول الإسلامي الصقل سمعة كانت

تُدخل الرعب والفزع في قلوب الأعداء، وكانت مطامع المسلمين المجاهدين تتجه صوب إيطاليا القرية ديارها من مسيحي فجهز أسطولاً أرسل به صوب قلورية بجنوب إيطاليا فنزل بها الجندي المسلمون ووصلوا إلى نهر البو سنة ٢٢٣هـ/١٨٤٧م، ويتوافق أبو الأغلب سنة ٢٣٦هـ/١٨٥٠م ويتوافق صقلية العباس بن الفضل وبجهز أسطولاً لغزو قلورية سنة ٢٣٩هـ/١٨٥٣م، ويقيم بها بعض الحاميات، وخرجت مسيحي بعون من الروم عليه فأعادها سنة ٢٤٢ وأخذ يفتح المصون في الداخل الواحد بعد الآخر، وفتح جفلود (شفلودي) على البحر بالشمال في نفس السنة، وشنّد الحصار على قصريانة المنيعة في وسط الجزيرة، واستسلمت سنة ٢٤٤هـ/١٨٥٨م بعد جهاد عنيف، وبين العباس فيها تَوَّا مسجداً، ونصب فيه منبراً وخطب فيه الجمعة. ولعل في ذلك دلالة واضحة على أن قواد الفتوح في صقلية وجندوها المسلمين كانوا يعدون غزو مدنها ومحضونا جهاداً في سبيل الله. وأزعج أخيه لمدينة قصريانة الكبيرة المحسنة بيزنطة فأرسلت أسطولاً يحمل مداً كبيراً من الرجال والمؤن إلى سرقوسة، والتقي به الأسطول الإسلامي الصقل ونشبت بينها معركة عنيفة انتصر فيها الأسطول الإسلامي، واستول على مائة من سفن الأسطول البيزنطي، ولاذ الياقون بالفرار، ويقول ابن الأثير إن المسلمين لم يستشهد من جنودهم في هذه المعركة البحرية سوى ثلاثة، وكان الجنود البيزنطيين لم يلبثوا حين رأوا أسطول المسلمين وجندوه **البسملة** أن ألقوا سلاحهم وسفتهم وفروا من المعركة منهزمين.

ولم يلبث هذا القائد المجاهد أن **لَبِّي** نداء ربه سنة ٢٤٧هـ/١٨٦٢م وزينوا لها خفاجة بن سفيان سنة ٢٤٨هـ/١٨٦٣م ويحتل مدينة نوطس في شرق الجزيرة إلى الجنوب، وكان أهل طبرين ينازلون المسلمين نزاًلاً مستعيناً، ورأوا أن ينجحوا إلى السلم بعد أن أعيادهم القتال وطلباً إلى القائد خفاجة أن يرسل إليهم وفداً للصلح فأرسل إليهم وفداً يفاوضهم وعلى رأسه زوجته، ومرءه هنا في إفريقية التونسية إلى أى حد كانت المرأة التونسية تحافظ على كرامتها ومدى ما كان لها من منزلة في نفوس التونسيين بالقيروان وغير القيروان، وهذه إحدى نسائهم تتول السفارة لأول مرة بين قومها وأعدائهم لتفص شروط الصلح، وهي بذلك تعد أول سفيرة عربية، واستقبلها الأعداء بحفاوة واستجاپوا لما وضعته من شروط الصلح، وسلموها مفاتيح المدينة، وبذلك تجحست السفارة نجاحاً عظيماً، فدخلتها المسلمون صلحًا. ولابن هذه السيدة محمد الذي كان يناضل نصارى صقلية نضالاً عنها الفضل في استلام المسلمين على مالطة سنة ٢٥٥هـ/١٨٦٩م فإنه جهز أسطولاً لفتحها وتزيظها، وقضى على الحامية الرومية فيها واستول عليها وجعلها تابعة لصقلية. وزالتها جالية تونسية أشاعت بها طبعتها العربية، ودارت السنة فأرسلت بيزنطة أسطولاً تبني استردادها، ولم يكيد يظهر له في مواجهها الأسطول الإسلامي الصقل حق ألقى الرعب والفزع في قلب كل من فيه، فولوا على وجوههم فراراً دون أن يخوضوا معركة، وظلت مالطة تابعة لصقلية نحو مائتين وعشرين عاماً إلى أن استولى عليها

التورمان مع استيلائهم على صقلية، ولقتها إلى اليوم لهجة عربية. تونسية محركة حرفت ببر الزمن، وبعثنا حاولت الدول التي استولت عليها - ومعها إنجلترا - أن تترك لقتها كما تركت الإسلام وتتحدى في ألسنتها مكانها اللغة الإيطالية أو اللغة الإنجليزية، وباءت كل هذه المحاولات في القرون الثمانية الماضية بالفشل، مما يدل على قوة العربية وحيويتها، وأن قوماً إذا اغتنوها لا يمكن أن يتخلوا عنها - منها دخل عليها من التصحيح والتحريف خلال قرون متطاولة - إلى لغة أخرى لسلامتها وعنوبه جريانها في الألسنة.

ويتوافق خفاجة وابنه محمد، وتقول ولادة صقلية إلى أحد بن عبد الله الأغلبي، وكان بطلاً مقداماً فصم على فتح سرقسطة، وكانت بيزنطة لا تزال ترسل إليها بالتجدة تلو التجدة، وكلما انهزم لهم أسطول جهزوا لها أسطولاً آخر، وحاصرها أحد، واستمر المصارعة شهرة أشهر من أوائل المحرم إلى أواخر رمضان سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م ثم اقتحمتها بمجانبيه وخليه وجنده، فاضطربت إلى التسلیم بعد أن ذاقت الأمراء من المروع وذلك الأسوار وسقوط القلاع، وبعد أن لقي حتفه من المدافعين عنها أكثر من أربعة آلاف جندي بيزنطي. وهي صقلية سنة ٢٦٨ هـ / ٨٨١ م محمد بن الفضل فجعل منه القضاء على مقتلهم للروم هو قلمة الملك وكان من فيه يُكترون من الإغارة على المسلمين ويقطضون مضاجعهم، والتقي الجمعان بقرب المعلم وهي طبیس العرب وانجلت عن انتصار عظيم للMuslimين واندحار شديد لأعدائهم إذ قتلوا منهم ما يزيد عن ثلاثة آلاف ودخلوا القلمة تحقق على رؤوسهم ريات النصر.

وولى إبراهيم بن الأغلب ابنه عبد الله على صقلية، وفي أيامه سنة ٢٧٥ نشببت معركة عنيقه برياً وبحراً بين الروم والعرب، فإن الدولة البيزنطية أرسلت بأسطول ضخم إلى صقلية، ولقيه الأسطول الإسلامي الصقل واحتدمت المعركة، وكانت كارثة الروم هائلة وإذا قتل منهم سبعة آلاف وغرق خمسة آلاف ولاذ من كتبت له الحياة بالفرار، وانتهت المسلمين هذه الفرصة من النصر على الأسطول البيزنطي، وهاجوا قلوبة في جنوب إيطاليا تأديباً لنجاحهم الروم فيها لإمداد حاميات المدن والمحصون التي لم يستسلم من فيها للمسلمين.

وفي سنة ٩٠١ هـ / ٢٨٩ م استدعى الأمير إبراهيم بن الأغلب ابنه عبد الله والى صقلية وتنازل له عن صولجان الحكم في القبروان وإفريقية التونسية، وصم على أن يقضى بقية أيامه مجاهداً في صقلية، واتجه إلى سوسة في ثوب مرقع علامة الزهاد، وأبحر منها على رأس جيش قوى إلى بلزم، وكان قد أبعد إعداداً قوياً بالأسلحة والعتاد، وسار على رأسه لغزو مدينة طبرمين شرقى الجزيرة إلى الشمال أمنع المراكز التي لا تزال باقية للروم في الجزيرة، وكانوا لا يزالون يرسلون إليها بالإمدادات. وهاجها ودارت رحى الحرب عنيقه بين الفريقيين. وأحسّ شيئاً من التخاذل في صفوف جيشه لاشتداد وطيس العرب فجمعهم، وأمر قارناً أن يقرأ عليهم بصوت مرتفع

قوله تعالى: «هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قُطِّعْتْ لهم ثيابُهُمْ من نارٍ يُصَبَّ من فوق رءوسهم الحسِيمِ، يُصَهَّرُ به ما في بطونهم والجلود وهم مقامعٌ من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمٍّ أعيدها فيها ودُوّقوا عذابَ المريق، إن أقه يدخلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ تغُرِّي من تحتها الأنهر يملؤنَ فيها من أسوارٍ من ذهبٍ ولؤلؤاً ولباسُهم فيها حريرٌ وهُدُوا إلى الطِّيبِ من القَوْلِ وهُدُوا إلى صراطِ المُسِيدِ»، ولعل في ذلك ما يؤكد مرأة أخرى أن غَزَّةَ صقلية وفتح بلدانها إنما كان جهاداً في سبيل الله ونشر دينه الخيف، وب مجرد أن استمع الجندي إلى هذه الآيات الكريمة وارتسم أمامهم الفردوس وما أَعْدَ في للمجاهدين امتلأوا حاسة وانقضوا على أعداء الله ودينه الخيف، فانهزموا انهزاماً ساحقاً، وأصبحت مدينة طبرمين أمام جيش المسلمين مفتتحة الأبواب ولا حامي ولا مدافع، وارتعدت فرنس إمبراطور بيزنطة كما رَوَى ذلك ابن الأثير وابن خلدون وأُعلن في القسطنطينية الحداد سبعة أيام لم يضع فيها على رأسه تاج الملك، وسار إبراهيم بن الأغلب توا إلى مدينة رمطة آخر معاقل الروم شرق الجزيرة جنوبى طبرمين، ففتحوا له أبوابها سريعاً واستولى عليها دون قتال، ولم تكف إبراهيم بن الأغلب هذه الانتصارات، فقد ركب البحر مع جنده من مسيين إلى شبه جزيرة قلوية جنوبى إيطاليا، واحتقرها بجنده مستولياً فيها على كثير من المحسون، ونصب الحصار على قلعة كشتنة (Consenza) المتيبة شمال قلوية وضيق عليها المصار، غير أن مرضًا ألم به في أثناء ذلك، فأسلم روحه إلى بارئها تحت أسوار هذه القلعة، وتقل رفاته إلى بلزم ثم نقله ابنه أبو العباس إلى القبور.

ولعل في كل ما قدمت ما يصور الدور التاريخي للمجيد الذي هبَّت به الدولة الأغلبية في القرن الثالث الهجري الذي ظلَّ فيه صوبجان الحكم بأفريقية التونسية في يدها، فقد أضافت إلى البقاع الإسلامية جزيرتين كبيرتين: صقلية ومالطة، وظلت تجاهد في سبيل الله بصفية وتعبد الأساطيل لمنازلة الأسطول البيزنطي وتتكلّم به وتُزَقُّ سفنه شر عزق، وبدأت تلك المرتب بشارة تميزها وأنها حرب جهاد ونشر للإسلام، إذ كان قائد الحملة شيخ الإسلام وإمام المالكية وقاضي قضاتها أسد بن الفرات، وكان يشترك في هذا الجهاد غير واحد من أمراء الدولة الأغلبية، حتى إذا ألوشكَت شمس دولتهم على الفروض خليع إبراهيم بن الأغلب زئي الإمارة والسلطان وليس زئي الزهاد المجاهدين في سبيل الله، وأبيل في الجهاد بصفية وقلورية بلاه عظيماً.

## المهد<sup>(١)</sup> العبيدي - عهد بن أبي الحسين الكلبيين

### (أ) العهد العبيدي

انتهى عهد الدولة الأغلبية في القبروان وإفريقية التونسية سنة ٢٩٦ وانتقلت البلاد إلى عهد جديد هو عهد الدولة العبيدية وانقسم الناس بين راضين عن المهد الشيعي الجديد وساخطين على هذا المهد وهم فقهاء أهل السنة ومن كان يعلمهم من العامة، وكان لذلك تأثيره في صقلية، وانضاف إليه أنه بربت في نفوس كثيرين هناك فكرة الاستقلال والانفلات من التبعية الإفريقية، وأيضاً فإن بعض الولاية كان يُعد صقلية كأنها كنز القرآن إليه، وينبغي أن يأخذ لنفسه منه كل ما يريد من مال ونروءة، وقد تفاعلت هذه العوامل بعضها مع بعض وأدت إلى اضطراب وفتنة كبيرة في السنوات الثلاث الأولى من حكم العبيدين لإفريقية التونسية، وأسرع عبيد الله المهدى بإرساله إلى صقلية إليها وقاضياً يحكمها بعيادي، الفقه الشيعي ويعاوون أن ينشروا فيها الدعوة العبيدية الشيعية، وثاروا على أول ولاته وثانيهم، وولوا عليهم من أنفسهم واليا هو أحد بن زيادة الله ابن قرّهـ، فاشترط عليهم أن يعلن ولاده للدولة العباسية، وكانت عامتهم سنية فارتضوا ذلك وأرسل إلى الخليفة المقتدر باهـ يضم إمارة صقلية تحت سلطانه، وخطب له وقطع خطبة المهدى الفاطميـ، وأرسل إليه المقتدر بألوية سود وخلع سود وطوق ذهبـ، وكان للمهدى العبيدي أسطول يرسى لحظة فأحرقه وقتل قائدـ، ونار عليه أهل جرجنت وصقلية جميعها فحاول المروب إلى الأندلس فأسره أهل صقلية هو وآباهـ وقاضيه وبعثوا بهم إلى المهدى سنة ٣٠٤ فصلبهم وانتهت بذلك حركة ابن قرّهـ، وأرسلت صقلية تطلب من المهدى واليا وقاضياً وأنهم في غير حاجة إلى جندـ، فتنبهـ إلى ما يريدون من الاستقلال فأرسل إليهم من الكامين حلة تودّهمـ، وولـ عليهم في سنة ٣٠٥ سالم بن أبي راشدـ، وكان جباراً عاتياً وظالماً عسـفاًـ، فأخذـ ينزل صورـاً شديدة من التكيل لا بالأفراد فحسبـ، بل أيضاً بالمدنـ، وهو تكيل أدىـ بأهل صقلية إلى الإيمانـ في مقاومته فثارـت عليهـ جرجـنتـ، وتبـعـتهاـ بلـرمـ،

الخطـلـ والتـورـيـ فـفيـ المـكـبـةـ الصـقلـيـةـ وأـبـاـ الـفـداـ فـ حـوـادـتـ سـنـةـ ٣٣٦ـ وـسـفـرـنـاـمـهـ لـناـصـرـ خـسـرـ وـعـورـيـاضـ التـفـوسـ لـالـمـالـكـيـ.

(١) انظر في المهد العبيدي وعهد بن أبي الحسين الرابع المذكورة في عهد الأغالبة والملة السراـءـ لـابـنـ الـأـبـارـ فـخـلـانـهـ الـعـبـيدـيـنـ وـخـلـيلـ بـنـ إـسـحـاقـ وـانـعـاطـ الـخـنـفـاـ بـأـخـبـارـ الـخـلـانـ الـمـقـرـيـزـيـ وـكـابـهـ

فأرسل إلى الخليفة العبيدي القائم يقول عليه الأمر ويقول إن أهل صقلية خرجوها عن طاعته، فأرسل إليه سنة ٣٢٥ جنداً جديداً يقوده خليل بن إسحق، واستقبلوه بالشكوى من سياسة سالم وبطشه، يظنون أنه سيرثق الفتق ويصلح الأمر، وسرعان ما خيب ظنونهم إذ رأوا بهم أسوار بلزم وبنى عند المرسى مدينة جديدة لخاصة وجنه وسلاحه ومحصناً مسمياً لها باسم: «الخالصة» وأررق أهل بلزم إرهقاً شديداً في بنانها. وثارت عليه جرجنت واستعدت لغزوها، فسار إليها سنة ٣٢٦ وحاصرها ثمانية أشهر، ودخل الشتاء ففك عنها الحصار، وفي سنة ٣٢٧ ثارت عليه جميع القلاع وسكان مازر، وكانت أهل جرجنت إمبراطور بيزنطة يستجدون به، فأمدّهم بالرجال والطعام. واستتجد خليل بالقائم فأمده بجيش ضخم أخذ يحاصر به المدن والقلاع سنة ٣٢٨ وحاصر جرجنت وضيق عليها المتناق حتى سنة ٣٢٩ وفرّ كثير من أهلها إلى بلاد الروم وتتصدر كثيرون منهم وهو لا يرعى ولا يزدجر، بل يزداد ظلماً وإرهاماً للأرواح إلى درجة لم يُستَعِّبْ بها من والي مسلم لا قبله ولا بعده. وبعد أربعة أعوام عاد إلى إفريقية، فعمل معه جماعة كبيرة من كبراء الجزيرة وأعيانها وعلمائها، وبين أمواج البحر أمر بتنقيب مراكبهم، ففرقوا جيئها فيه غير مراعٍ عهداً لهم ولا لأبناءهم الذين فتحوا صقلية وجاهدوا في سبيل نشر الإسلام فيها بدمائهم وأرواحهم، وإنها لصفحة سوداء له وعار في جيئها لا يمكن أن تطمسه الأيام.

### (ب) عهد بن أبي الحسين الكلبيين

ولـ الخليفة العبيدي القائم على صقلية بعد خليل بن إسحق واليًا جديداً هو عطاف الأزدي فاستمر في سياسة الظلم والقمع، وطفّق القبض بالمدن الصقلية وفي مقدمتها بلزم، وثارت جيئها في سنة ٣٣٥ ثورة كبيرة عامة، والتبعاً عطاف إلى قلعة الخالصة وامتنع فيها، واجتمع رأي ووجه بلزم وغيرها من المدن على أن يذهب وفدى إلى الخليفة الفاطمي الجديد المنصور ويطلب إليه أن يقوم الحكم في صقلية على أساس راسخة من العدل الذي لا تصلح حياة الشعب بدونه ومن الحرية في المقيدة فلا يتعرض حاكم وزبانيته لأهل السنة وأيضاً الحرية في المعاملات فلا يقتضب من أي تاجر ولا من أي شخص ماله. وكان الخليفة المنصور حسيناً، فرأى أن سياسة الخليفين قبله وما أرسلا لهم من ولاة جبارين كانت سياسة جائرة باطشة إلى أقصى حد، ورأى أن يقنع بالسيادة الاسمية على صقلية إرضاء لأهلها، وعهد بالولاية عليها لقائد من خبرة قواده سنة ٣٣٦ هو الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي. ومنذ هذا التاريخ أصبح حكم صقلية وراثياً في أسرته، وأخذ يحكمها حكماً عادلاً رشيداً، وتصادف في أول حكمه أن غلاماً من علمائه اغتصب إحدى جواريه، فأمر بقتله حتى لا تسُوْل لأحد من جنده وغلمانه نفسه بالاعتداء على المرمات، وأكبر الناس ذلك منه واستبشروا به. ولما رسخت قدمه في بلزم

فيض على مدبرى الفتنة فيها من بن الطبرى وصادر أموالهم، وأطمأن له الناس والتغوا حوله، وحاول إمبراطور بيزنطة فى أول حكمه أن يسترد ما استولى عليه الصقليون من شبه جزيرة قلورية، وأرسل لذلك أسطولاً فرداً على أعقابه مخدولاً، وشيد مسجداً بها بعدينة Tarente على أداء Reggio (ترسيخاً لحكم المسلمين لها وتبييتها)، وأجبر الروم في مدينة تارنته على أداء الجزية. وجع هذا الوالى وقيل بل ابنه أحمد ثلاثة رجالاً من وجوه صقلية وسار بهم إلى الخليفة العبيدى في المهدية بـأفاريقية وبایمود وخلع عليهم الخليفة. وهو رمز لدخول الجزيرة في المنصب العبيدى، ونرى ابن حوقل - وهو من دعاة الفاطميين - يذم الصقليين ذما شديداً، مما قد يدل على أن العامة فيها لم تعتقد هذا المذهب.

ويتوفى الحسن سنة ٣٤١ وخلفه في حكم صقلية ابنه أحمد، وكان يشاركه في الحكم والتدبير فاتبع سياسة العادلة الرشيدة وكانت رمطة قد خرجت على الدولة فاسترجعها، وركب البحر إلى قلورية وأحرق أسطولاً بيزنطة وأسر قائده وأرسل به مع عدد كبير من الروم إلى المزن، وشررت بيزنطة بأن أملها في صقلية أصبح من إحدى المستحيلات فأرسلت إلى المزن وفداً يطلب الصلح حاملاً إليه هدايا ثمينة، وتعاقد الوفد معه على ترك الجزيرة له، في مقابل إخلاء المسلمين مدینق طبرى ورمطة لنصارى الجزيرة، وارتضى ذلك المزن، وكانت غلطة كبيرة من أغلاطه. وأخذ المسلمين يتلذتون في تسليم المدينتين وعزل أحد بن الحسن سنة ٣٥٨ وكان حسن السيرة كما يقول ابن خلدون وُلِيَّ الجزيرة سنة ٣٥٩ آخره أبو القاسم على بن الحسن، وكانت سفين خرجت على الدولة واتخذها الدو مرکزاً لأعماله ضد المسلمين، فنازلاها وحاصرها حتى أعلنت الطاعة، واستعاد مدينة رمطة وأمر بتجديد بنائها، ونازل الروم بـقلورية ومن عاونهم من الأлан والتُّرمان، واستشهد في إحدى المعارك الطاحنة سنة ٣٧٢ ونقل المسلمين رفاته إلى صقلية. وولى بعده من الأسرة الكلبية أحد أبنائها: جعفر بن محمد وكان من أصحاب الرأى والتدبير، فأخذ يحكم صقلية حكماً عادلاً نزيهاً. وحدثت في عهده أن جارية صقلية للخليفة الفاطمى العزيز وكانت محببة عنده وكان لها أخ راهب بـصقلية فتوسلت إليه أن يرجع إلى النصارى فيها فلما قلاع طبرى ورمطة وأجلتها إلى مطليها وكتب إلى واليه جعفر يأمره بإخلالها لنصارى الجزيرة، فراجع الخليفة بدهائه حق عدل ن مطليه. وتوفى سريعاً سنة ٣٧٥ وتولى الجزيرة بعده ثقة الدولة أبو الفتوح يوسف بن عبد الله سنة ٣٧٧ وهو من خيرة الولاية الكلبيين، وفيه يقول ابن خلدون: «أنسى بجلالته وفضائله من كان قبله منهم» ويقول لسان الدين بن الخطيب في أعمال الأعلام: «كانت أيام الناس في مدهه على أفضل ما يشهرون، وقد ضبط الجزيرة ضبطاً عسكرياً وظهر من كرمه وجوده على سائر الناس ما لا يحيط به وصف. وعم العدل والرخاء والأمن كل جهات الجزيرة» ولم يتحرك في وجهه عدو من داخل البلاد ولا من خارجها، وزار القاهرة، واستقامت الأمور في عهده أعظم ما يكون من الاستقامة، وكانت دار

ولايته أو إمارته في بلرم مقصد الشعراء والأدباء والعلماء، وهو مدح الشاعر المزازى المشهور ابن قاضى ميلة، وما زال يسوس الجزيرة وأهلها خير سياسة حتى أصابه الفالج سنة ٣٨٨ وعطل جانبه الأيسر، واتفق الناس معه على تسليم صولجان الحكم لابنه جعفر، وثار عليه آخره على وانضم إليه البربر والعبيد، وانتصر عليه جعفر فقتله، وأمر بقتل العبيد وتفقى الجندي البربرى من صقلية، وجعل جنده جميعاً من أهل صقلية المسلمين، فقتل بذلك جنده - كما يقول البكري - وأعد لانهيار ملكه. وسخط عليه أهل صقلية لتفاضيه عن كاتبه حسن الباغانى فى عسفه فى جباية الضرائب، وزادهم سخطاً عليه استغفافه بشيخ بلرم: فحاصروه وشُدّدوا الحصار عليه، فخرج إليهم أبوه فى حفنة، وكانت له عندهم منزلة رفيعة، فاحتضروا به، وطلبوه إلى أن ينصلفهم منه، واتفق معهم على أن يعزله من ولايته عليهم ويولى أخيه الأكحل، وارتضوه أميراً بعد أخيه، ولم يلبس الأكحل أن أشرك ابنه جعفراً معه في الحكم، وكان غيرًا تقصه الخبرة، فاتبع سياسة حقه هي التفرقة بين الإفريقيين والصقلين في المعاملة المالية، واستجار الصقليون من ظلمه بالمعز بن هاديس حاكم إفريقيا التونسية سنة ٤٢٧ فأرسل معهم ابنه عبد الله في جيش عداده ستة آلاف نصفه من الفرسان، وانضم إليه أهل الجزيرة، وسرعان ما ندموا وتذكرة عبد الله بن المعز، فعاد مع جيشه إلى إفريقيا، وولوا عليهم صممام الدولة شقيق الأكحل، ولم تطل مدة، إذ ثار عليه أهل بلرم، وخلعوه.

وتدخل صقلية بعد خلع المصمما في عهد يكنى أن يسمى عهد أمراء الطوانف، وفيه ضاعت كل ممتلكاتها في قلورية باليطالية، وأخذ قواد الثورة على المصمما يستقلون ببلدانهم مكونين فيها إمارات، وكانت بلرم من نصيب محمد بن الشمنة أحد القواد، وضم إلىه مدينة سرقوسة، واستقل ابن متكون من قواد الثورة بمدن: مازر وطرابيش والشافة ومرسى على في الغرب والجنوب الغربي، واستقل ابن الحواس على بن نعمة من قواد الثورة أيضاً ببني قصر بانة وجرجنت، وتفاهمت الفتن وسوء الأحوال في الجزيرة، ونشبت المروبة بين هؤلاء الأمراء، وأشدّها ما كان بين ابن الشمنة وعلى بن نعمة. وهزم ابن الشمنة هزيمة ساحقة سنة ١٠٥٢هـ/٤٤٤م فاستفات بالتورمان، وكان ذلك إذاناً قوباً بضياع الجزيرة من أيدي المسلمين.

## التاريخ النورماني - أحوال المسلمين

### (أ) التاريخ<sup>(١)</sup> النورماني

النورمان قبائل متبريرة سقطت من شمال أوروبا على شرقها وغربها مهاجنة ومكتسحة، وقد اكتسحت الشمال الغربي لفرنسا. واضطرب ملك فرنسا إلى إقطاعهم الإقليمي المتناثر من اسمهم «نورمانديا» فتأقلموا فيه وادهني عدوائهم. واتجهت جماعات منهم إلى إيطاليا واستولت على أجزاء منها الجنوبية، وتواقي الفرصة أحد ملوكيهم المسني روجار الأول كى يستولى على صقلية بخيانة أحد أبناءها: «ابن الثمنة»، إذ ساومه في عونه ضد على بن نعمة على أن يفتح له أبواب مدينة مسيّف واحتلها واتخذها قاعدة لأعماله الحربية في الجزيرة، غير أن ابن الثمنة توفى في العام التالي، وكان جيش روجار قليلاً فلم يسارع إلى فتح مدن صقلية. واستصرخ المسلمين في صقلية تيم بن المعز أمير المهدية في إفريقية التونسية لينقذهم من هرانتن روجار والنورمان فأتجدهم بأسطول يقوده ابنه: أيوب وعلى، ونزل أيوب في الجنوب بمدينة جرجنت ولقيه على بن نعمة لقاء حسناً، بينما نزل آخره على في برم، واستبشر الناس واستعدوا مع عسكريهما لجند النورمان، غير أن على بن نعمة صاحب جرجنت عاد فظن الظنون بهذا الجيش الغريب، وانضم الأخوان إلى حربه، وسقط في المعركة. وقامت فتنة بين أهل جرجنت والجيش الإفريقي، وكان النورمان قد جمعوا جموعها ولقوا هذا الجيش وهزموه، واضطرب أيوب وعلى أن يعودا إلى إفريقية التونسية بن يحيى من جيشهما سنة ٤٦١ للهجرة، واندفع روجار والنورمان يختلون المدن في الجزيرة، وبدماء بدينة برم وحاصروها بحراً وبراً خمسة أشهر وأهلها يقاومون، وخفقهم الجموع، وظلوا لا يبالون به إلى أن فشا بينهم وباء، ودخلها النورمان سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٧م ينهبون ويفتكرون بشبابها الباسل ويتوزعون بينهم الصبية ليبيوهم عبيداً، وأحال روجار مسجدتها كبيسة. وسلمت مازر سريعاً خوفاً من أن يصيّبها ما أصاب برم وينتها قطانية في الشرق، غير أن بقية مدن صقلية ظلت تقاوم النورمان عشرين عاماً طوالاً، وكان من أشدّها

ابن خلدون والعرب في صقلية للدكتور إحسان عباس والجزء الثالث من كتاب ورقات عن المغاربة العربية بإفريقية ص ٤٥٧ والمسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ أحد توفيق المدن.

(١) انظر في التاريخ النورماني بصفلية ابن الأثير ورحلة ابن جبير والملكتة الصقلية لأمارى وكتاب تاريخ مسلم صقلية المار ذكره وكتاب Freeman Edward, History of Sicily, Oxford, 1891

مقاومة لهم سرقوسة بفضل بطلها ابن عباد الذي نظم المقاومة فيها وفي ولاية نوطس. وبعد خمس سنوات من الاستيلاء على بلرم استولى روجار على نفر أو مدينة طرابنش في الغرب وهدم سورها ووزع أرضها على أتباعه. وبعد سنتين من استيلانه عليها استولى على طبرمين في الشرق. وكان ابن عباد بطل سرقوسة استطاع الاستيلاء على مدینته وجهز روجار الأول أسطولاً ضخماً هاجم به سرقوسة بعد أربعة عشر عاماً من استيلانه على بلرم وظلت الجبهة الشرقية تقاومه مقاومة عنيفة مع سرقوسة غير أن كفة الأسطول النورمانى على آخرها على سفن ابن عباد، وكان يقودها بنفسه وكلما غرقت سفينته من سفنه انتقل إلى أخرى، وزلت به القدم في إحدى قفزاته، فتلقيه موجات البحر منحنية لبطوله، وشيعته إلى قرارها شهيداً، ولو لا ذلك لظلت سرقوسة تقاوم النورمان طويلاً. وحاصر النورمان مدينة جرجنت ثلاثة سنوات طوال إلى أن اضطرتها المخصصة والجروح إلى الاستسلام، وظلوا بعدها يحاصرون مدينة قصريانة وهي تضرب أروع الأمثلة في مقاومتهم مقاومة باسلة حادة إلى أن سلمها لهم سنة ٩٤٨٤هـ / ١٠٩١م أميرها ابن حود، وخشي على نفسه من أهلهما أن يفكروا به فلجموا إلى روجار وتنصر فيها يقال خاسراً بذلك بلده ودينه. واستسلمت مدینتنا نوطس في الجنوب الشرقي وبشارة في الجنوب. وبذلك استولى روجار على الجزيرة جميعها وأقل نجم الإسلام بها سنة ٩٤٨٤هـ / ١٠٩٢م وبالمثل استولى على مالطة سنة ٩٤٨٥هـ / ١٠٩٣م، وظل ملكاً عليها وعلى بعض أجزاء في جنوب إيطاليا نحو عشرين عاماً حتى سنة ٩٤٩٤هـ / ١١٠١م. وخلفه على حكم صقلية روجار الثاني وطال حكمه خمسين عاماً ونها (٩٤٩٤هـ / ١١٥٤م - ٩٥٤٨هـ / ١١٠٢م) وبينما كان حكم أبيه يعد دوراً من أدوار الفتح العربي وتثبت الحكم النورمانى في الجزيرة كان حكمه يعد دوراً حضارياً للنورمان - عن طريق العرب - إذ تحرضوا في الجزيرة وامتدت آثار ذلك في الغرب، وبالمثل حكم ابنه غليم الأول حتى سنة ٩٥٦١هـ / ١١٦٧م وحفيده غليم الثاني حتى سنة ٩٥٨٤هـ / ١١٨٩م. وتولى بعد ذلك ابن عمّه طانكرد لمدة أربع سنوات ثم ابنه غليم الثالث، وتطورت الظروف واستولى أباطرة ألمانيا على صقلية وأصبح فرديك الثاني ملكاً عليها (١١٩٤م - ١٢٥٠م).

وحرى هنا قبل أن نترك الحديث عن الحكم النورمانى بصفقية أن نذكر أنه ظلَّ لأسطول صقلية الإسلامية طويلاً استلاء في البحر المتوسط بحيث كان يُعدُّ من شمال مصر إلى الأندلس بeshire عربية، ومرَّنا أنه حطم الأسطول البيزنطي ماراً حقاً اضطروا أن يرسلوا وفدهم خائعين مستذلين إلى المهدية يطلبون الصلح. وهذه المكانة للأسطول الإسلامي الصقل ضاعت بضياع صقلية، واستحالات إلى مكانة للأسطول النورمانى الصقل بحيث أصبح البحر المتوسط بين صقلية ومصر بeshire نورمانية، وساعدت على ذلك هجرة القبائل العربية من بني سليم وهلال إلى أفريقيا التونسية وقضاؤها على الدولة الصنهاجية بالقيروان وانحصارها إلى

المهدية، فلم يعد عندها من المال ما تستطيع أن تُعْدَ به أسطولاً ضخماً يقف لأسطول التورمان، وكان للدولة العبيدية أسطول قوى أيام مقامها بالمهدية حتى إذا بارحها المغز الفاطمي إلى مصر لم تعد تلك الدولة تُعْنِي بأسطولها إلا بعض سفن تحرس سواحلها، ويدل على مدى ما كان يشعر الخلفاء الفاطميين تجاه التورمان الصقليين وأسطولهم من خزى أن تجد الخليفة الفاطمي المحافظ (٥٤٤-٥٢٤هـ) حين يستولى روجار الثاني على جزيرة جربة التونسية لا يكتب إليه مهدداً متعدداً، بل يكتب إليه متزاذاً رداً على رسالة له كما سجل ذلك القلقشندي في الجزء السادس من صبحه ص ٤٥٨: «وأما ما ذكرته من افتتاحك الجزيرة المعرفة بجزرية لما شرحته من عدوان أهلها.. واجترائهم في الطفيان على أسباب لا يجوز التناقض عن مثلها.. فإن من كانت هذه حالته حقيقة أن تكون الرحمة عنه نائية، وخلائق أن يأخذه الله من مائمه أخذة رأبة<sup>(١)</sup>». وبدلًا من أن يعد أسطولاً لإخراج التورمان على وجوههم من صقلية التي طالما طعم هو وأباؤه من خيراتها وطيباتها أرسل إليه هذا الخطاب المخزى. ومن الغريب أن الحملات الصليبية بدأت بعد تمام استيلاء التورمان على صقلية بسبعين سنة، وقد ظللتانا تنازلاً عنينا قرنين من الزمان والبحر المتوسط بحيرة نورمانية، وهو يندون فيه ويرحون، ولو أن أسطول صقلية الإسلامية كان لا يزال قائمًا لفل من قوتهم بل لأخرق كثيراً من سفنهم المتوجهة إلى ساحل الشام ومصر، بل أيضاً إلى ساحل تونس على نحو ما هو معروف من حلة لويس التاسع عليها وموته تحت أسوارها سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م. ويتبغض من ذلك أن صقلية لم تكن جزيرة إسلامية فقدمها المسلمون فحسب بل كانت درعاً كبيراً لهم يحمي نورهم على سواحل المتوسط، حتى إذا سقط هذا الدرع أخذ الصليبيون يحيطون المتوسط وأخذ التورمان الصقليون يغيرون على سواحل إفريقيا التونسية، وكانت آخر غاراتهم وأشدتها على تلك السواحل غارتهم سنة ١٤٩٥هـ/١١٤٩م في عهد روجار الثاني وابنه غليوم واغتصابهم لمدينة المهدية وغالب الدين الساحلية الشرقية: قابس وصفاقس وسوسة، وكان ذلك بعد احتلال جربة التي هنأهم بها الخليفة الفاطمي بقليل. وكان ذلك بسبب ما حدث في إفريقيا التونسية من قيام عصر أمراء الطوانف بعد المجزرة الملالية السليمية وتباذل هؤلاء الأمراء وتعارفهم ومحاولتهم بعضهم الاستعانة بصاحب صقلية ضد إخوته وأهله. ولو لا أن قُضِيَ الله لإفريقيا التونسية عبد المؤمن أمير الموحدين بالغرب، فقضى فيها على هؤلاء الأمراء المتنازعين وقهَّر نصارى التورمان المستولين على الساحل التونسي ومدنه وعلى جربة وطرابلس لظوا بها طويلاً إذ أخرجهم على وجوبهم، وسحقهم سحقاً ذريعاً بحيث لم يعد التورمان بهذه يحاولون احتلال الساحل التونسي.

## (ب) أحوال المسلمين

لما فتح النورمان صقلية الإسلامية ظلوا طوال فتحهم لها يشعرون أنهم دخلاء غير باد على من فيها من المسلمين والعناصر الأخرى الصقلية الأصلية والإغريقية والرومية وغير الرومية، وعمق هذا الشعور في نفوسهم أنهم لم يكونوا متحضرین وواجهتهم مدن إسلامية متحضرة في سكانها وفي نظمها فلم يكن أمامهم إلا أن يحاولوا الانتقام بحضارتها، غير أنهم كانوا مشبعين بدعوات وإيماءات من بابا روما ضد الإسلام والمسلمين لتمكين سلطان المسيحية فيها واستصال جنور الإسلام منها، وهو ما يلاحظ على تصرفات روجار الأول فيها، إذ أنزل بالمسلمين بها في حكمه الذي استد نحو ثلاثين عاما صورا مختلفة من التتكميل، وأول ما يلاحظ من ذلك أنه عم نظام الإقطاع في الجزيرة، فكان يقطع أنصاره وجندوه والأساقفة والقساوسة ما يفتحه من البلدان، وبعد من يُفتح أو يزرع تلك الممتلكات من المسلمين عبيدا يهدون مع الأرض إلى صاحب الإقطاع، على نحو ما صنع بمدينة قطانية حين فتحها، إذ جعل أهلها المسلمين عبيدا مسترقين ومنحها إقطاعا للأسقف هناك. وكانت هذه أول ضربة أنزلاها بأعدائهم المسلمين، والضربة الثانية أنه قرر على المسلمين عامة دفع جزية، وظلوا يدفعونها حتى نهاية الحكم النورماني، والضربة الثالثة أنه أسكن الروم والفرنج مع المسلمين ولم يترك لأحد منهم - كما يقول ابن الأثير - حاماً خاصاً به - ولا دكانا ولا طاحونا ولا فرنا. ويقول بعض الباحثين المعاصرين إن هذا إنما يصدق على جماعات الفلاحين أو من أحالمهم الفتح مسترقين، وهو تحضير لا يقتضيه كلام ابن الأثير. ويقول آخرون دفاعا عن الملك النورماني روجار الأول إنه لم يشرد المسلمين عن مدن صقلية ولو كان يريد التتكميل بهم حقاً لشدهم، وينسون أنه كان لا يستطيع تشريدهم وإخراجهم من البلاد، لأنهم كانوا الأداة التي تزرع فيها وتصنع وتنتفع ولو شردهم لأصبحت خراباً وبلفت ضرورها ولم يُعذّب فيها ما يسميه هو وجنته وشعبه من الجموع والمسفحة.

ومع أن ابنه الملك روجار الثاني (٤٩٤-٥٤٨هـ) وحفيده غليمون الأول (٥٤٨-٥٦١هـ) كانوا لا يقسوان على المسلمين قسوته ظلت في عهدهما آثار من هذه المعاصلة الظالمة لل المسلمين صورها في رحلته ابن جبير الذي زار صقلية في أيام الملك غليمون الأول، إذ يقول عن مدينة مسيني إنها: «ممورة بعبدا الصليان، يمشون في مناكبها ويرتعون في أكتافها، والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم، قد حسّنوا السيرة في استعمالهم واصطناعهم، وضرروا عليهم إناوة (جزية) في فصلين من العام يؤدونها وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يجدونها» فتملك الأرض في مسيني - مع سمعها - كان محراً على المسلمين، فهم يشققون في مسيني عمالاً ولا يتحولون بحال ملائكة.

ويقول ابن جبير عن مسلمي بلرم إن لهم أرباضاً (ضواحي) انفردوا بسكنها عن النصارى، ولا جمعة لهم بسبب المخطبة المحظورة عليهم إلا في الأعياد، فهم منوعون من صلاة الجمعة. وبحديثنا عن فتى يُسْمِيَ كان يُخْفِي إسلامه متسبماً باسم عبد المسيح وأنه احْتَفَى به وبينَ كان معه حق إذا لم يجد حوله من يتهمه بإفشاء سره عما حافظ على نفسه من النصارى سأله عن مكانته ومشاهدتها العظيمة ومشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فأخبروه وهو ينوب شوقاً وتغزلاً إلى مشاهدة تلك الأماكن، وغضبهم على رحلتهم إلى مشاهدتها، وقال: أما نحن فكما ترون إيانا خائفون على أنفسنا متسلكون بعبادة آله وأداء فرائضه سراً. وما يذكره ابن جبير مما يدل على اضطهاد المسلمين وإدخالهم في النصرانية قسراً أن فقيها حدثه في مدينة طرابلس أنهم ظلوا يطاردونه بطالبيته بأموال يكتنزها في رأيه حتى أظهره لهم أنه فارق دينه المنيف، ولكن يقتنعوا بذلك حول مسجداً له بجوار داره إلى كنيسة، فكفوا عنه وقال إنه يكتن إياناه، وذكر أنه لقى زعيم المسلمين المعروف في تلك الديار باسم ابن حجر ممدوح ابن فلاقيس الشاعر الإسكندرى. فقال له إنهم ظلوا يواليون عليه مصادرات بلغت ثلاثين ألف دينار، وما زال يتخلى عن جميع ممتلكاته وعقاراته حتى أصبح بدون مال، وما قال له: «كنت أرْدُلُوا أباً عَنِّي أنا وأهْل بيق لعل البيع يخلصنا مما نحن فيه ونصبح في بلاد المسلمين». ويزوِّي ابن جبير قصة تقطيع نياط القلوب حسرة إذ يقول إن أحد أعيان الجزيرة وجَّه ابنه إلى حاجٍ من أصحابنا الحاج راغباً إليه في أن يقتل منه بنتاً له عذراء صغيرة السن قد راحت الإدراك، فإن رضيها تزوجها، وإن لم يرضها زوجها، من يرضاه لها من أهل بلده، طمعاً في التخلص من هذه الفتنة. وطاب الأب وأخوهها بذلك نفسها لعلهم يجدون يوماً السبيل إلى التخلص إلى بلاد المسلمين. وتأجَّر (طلب التواب) هذا الحاج المرغوب إليه بقبول ذلك، وأعانه ابن جبير ومن معه على اغتنام هذه الفرصة المؤدية إلى خير الدنيا والآخرة، يقول ابن جبير: «وطال عجبنا من حالٍ تؤدي بانسان إلى السماح بثل هذه الوديعة المعلقة في القلب وإسلامها إلى يد من يُفْرِّيها واحتمال الصبر عنها ومكافحة الشوق إليها والوحشة دونها، كما استغربنا حال الصبية، صانها آله، ورضأها بفارق أهلها رغبة في الإسلام واستمساكاً بعروته الوثقى».

وهل بعد ذلك من دليل على أن النورمان عاملوا المسلمين في صقلية بمنتهى الظلم والقسوة والتعذيب والبغى حتى يفارقوا دينهم الحنيف كرهاً، ومن عجب أن يكتب المؤرخون الغربيون أنباء عمومتهم أنهم عاملوا المسلمين بتسامح لا حد له وبعد ما بعده عدل، فتصدقهم، وهو قد عاملوهم بوحشية ماثلها وحشية واستذلولهم ونهبوا حرثتهم التي خلقهم الله بها وأحالوهم - أو أحالوا الشطر الأكبر منهم - عبيداً مسترقين.

وازدادت هذه الوحشية ضراوة في عهد أباطرة الألمان حين استولوا على صقلية سنة

١١٩٤هـ/٥٩١ م فاينم أخذوا ينزلون بأهلها من المسلمين - بتأثير الكنيسة - صوراً فظيعة من الاضطهاد والتنكيل، ومنعوه من معاشرة باتا من حمل السلاح، وفرضوا عليهم - كما يقول الأستاذ الجليل حسن حسني عبد الوهاب - أن يُعمَد أبناءهم مثل أبناء النصارى: أمر لا رأْد له من الباهام دون استعفاه، كما فرضوا عليهم أن يضعوا على صدورهم قطعة من التسيج الأحمر طولها شبر وعرضها إصبعان للتمييز بينهم وبين النصارى، وهاجرت كثرة من مسلمي صقلية - وخاصة من التجار والصناع - إلى الساحل التونسي والبلاد الإفريقية، فراراً من هذا الظلم الذي لا يطاق، وبقيت قلة مستضعة - وخاصة من أهل الأرياف - تتحمل هذا العذاب والهوان، وتعامل معاملة العبيد الأرقام. وحين صارت إفريقيا التونسية إلى أبي ذكريya الحفصي وعلم بما يقع على تلك القلة من الظلم في أبشع صوره كاتب فرديرك الثاني إمبراطور ألمانيا وملك صقلية ليرفع هذا الظلم عن مسلمي الجزيرة، وعقد معه معاهدة تضمن لهم الحرية الدينية، حق إذا توفى أبو ذكريya سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٥ م رجع الظلم والمدعوان الذي لا يطاق، واستثنىوا بالمستنصر بن أبي ذكريya، فاتفق مع فرديرك الثاني إمبراطور ألمانيا وملك صقلية سنة ٦٤٧ على إجلاثهم إلى إفريقيا التونسية، وبالمثل إخلاء مالطة من كل من يبقى فيها من المسلمين.

## الفصل الثاني

### المجتمع الصقلاني والثقافة

#### ١

#### المجتمع الصقلاني في المهد العربي<sup>(١)</sup>

ظل المسلمون في صقلية - طوال حكمهم بها - لا يزيدون عن نصف سكانها وكانت مجتمعاً لعناسير شقّ مسيحيين من سكانها الأصليين الصمغول ومن النورمان والإغريق والصقالبة ومن بقايا الفينيقيين والقرطاجيين مع قلة من اليهود وكانت لهم حارة في بلزم وقلة من الزنوج وزل أكثر البربر.. تواحي مازر وجرجنت.. وكان في كل بلد من مملكون الإقطاعات الكبيرة ومن مملكون القطع الصغيرة، وكان الولاية يكتنزون لأنفسهم كثيراً من الذهب والفضة، ويقال إن واليها ثقة الدولة حين ارتحل إلى مصر كان معه ٦٧٠ ألف دينار سوى آلاف الخيل والبغال، ويبالغ ابن حوقل فيقول إن أهلها فقراء بينما نجد الإصطخري يقول: «في صقلية من الخصب والزروع والمواشي والرقيق ما يفضل سائر الموارف المتاخفة للبحر» ونفس ابن حوقل يعدد الأسواق في بلزم ويبلغ بها نحو الثلاثين إذ كان بها سوق الزيائين والدقاقين والصبارقة والحدادين والصيافة وبائعى القمع والطرازين والسماكين والأبزارين وباعة البقل وأصحاب الفاكهة وباعة الريحان والجزارين والخبازين والمعطارين والأسافكة والدبابين والتجارين والفضاظيرين والخشاين، وكان بها للقصابين نحو مائة حانوت لبيع اللحم وبجاورهم القطانون والملائجون والخذاؤون». وفي ذلك ما يدل على انتعاش الحركة التجارية في بلزم وأن سكانها لم يكن يعمهم الفقر كما يقول ابن حوقل، وبالمثل بقية المدن في صقلية.

والعرب في صقلية للدكتور إحسان عباس: الفصل الثاني من الكتاب الأول، وكتاب ورقات عن المعاشرة العربية بإفريقية، الفصل الخاص في الجزء الثالث بتأريخ صقلية الإسلامية.

(١) انظر في المجتمع الصقلاني في المهد العربي صورة الأرض لابن حوقل ومسالك المالك للإصطخري وزهرة المشائق والنويري والمكتبة الصقلية وإناء الرواة في ترجمة ابن البر ١٤٦/٢ ورباض النفوس لمالكى وسفر نامة لناصر خرو

وكان الجزيرة موزعة قبل فتح المسلمين لها إلى ولايتين كبيرتين: ولاية بلرم وولاية سرقوسة، وزعها المسلمون بعد الفتح إلى ثلاث ولايات كبيرة: شرقية وجنوبية غربية ثم غربية وتضم الشمال. وجعل المسلمون لكل ولاية واليا يدير أعمالها ومعه عدد من العمال يساعدونه في تصريف هذه الأعمال، وكان كل والي يسمى قائدًا، ربما لكثرة ما كان ينهض به من المروب ضد المخصوص في إقليمه. وكان في كل ناحية وكل بلد قاضٍ ومعه كاتب لتقييد الأحكام. وكان قاضي بلرم يفصل في القضايا الهمة، ولذلك كان يسمى المقْتَ. وكان السكان المسيحيون في الجزيرة يمثلون ما يقرب من نصف سكانها وعاملهم الولاية المسلمة ونوابهم بمنتهى العدل والتسامح طبقاً ل تعاليم الإسلام فكان الثرى يدفع سنويًا للدولة ٤٨ ديناراً والفرد في الطبقة الوسطى يدفع ٢٤ ديناراً، بينما يدفع من يكسب عيشه بعرق جبينه ١٢ ديناراً فحسب. ولم تكن تؤخذ ضريبة من الرهبان والقسس والنساء والعجزة والأطفال، فهم جميعاً معفون من الضرائب إعفاء تاماً. وكانت الضريبة السالفة تسمى خراجاً وهي في حقيقتها ضريبة دفاع. وحافظ المسلمون في صقلية - كما حافظوا في كل ديارهم - على مؤسسات المسيحيين الدينية من كنائس وغير كنائس، كما حافظوا لهم على قوانينهم الدينية والمدنية وعلى حاكمهم الخاصة، وأناحروا لهم الحرية التامة في أداء شعائرهم الدينية.

وطبيعي أن تكون بصفة مجموعه من الدواوين للإشراف على نظام الحكم وتدبير شئونه، فكان بها ديوان المحاسبة الذي يقوم بأعمال وزارة المالية في عصرنا، فيه خزانة الدولة، وفيه موظفون يراجعون ما يجمعه المحتسبون في المدن والأعمال المختلفة من الضرائب. ويقول ابن حوقل إن الضرائب فيها كانت تضم: «خسها ومستغلاتها ومال اللطف والجوالي المرسومة على الجماجم ومال البحر والمهدية الواجبة في كل سنة على أهالى قُورُبة وقبالة الصيود وجميع المرافق». ولم يسمّ ابن حوقل، الدواوين التي كانت تشرف على جمع هذه الضرائب الكثيرة، ومن الممكن بالمقارنة على النصوص الصقلية أن نعرف بعضها على الأقل فكان عندهم ديوان الحمس المشرف على ماجيمع من غنائم العرب، فإن للدولة - كما هو معروف - خس ماجيمع من الغنائم كما تقرر ذلك سورة الأنفال، وكان عندهم ديوان الممتلكات المقاربة المستقلة، وديوان اللطف وهو ديوان المدابي التي كانت ترسل سنويًا للخلفية الفاطمي في المهدية والقاهرة، وديوان الجوالي وهو ديوان الجزية التي كانت تؤخذ على الرهوس أو على الجماجم كما يقول ابن حوقل. وكانت تفرض ضريبة على الوارد من البحر، وإما كان لها ديوان خاص وإما كانت تضم إلى ديوان المستغلات، وقبالة الصيود أي ضمائها يصلح معين ولعلها كانت تضم أيضاً إلى ديوان المستغلات، ولعله هو المسمى في بعض النصوص باسم ديوان التحقق. وكلمة: جميع المراافق عند ابن حوقل تدل على أنهم كانوا يأخذون ضريبة على كل المنتجات وخاصة الصناعية إذ كان للصناعة ديوان خاص وقد يسمى ديوان الطراز، وكان من أهم الدواوين عندهم ديوان الإنشاء

ويتواله أبلغ الكتاب مثل ابن الطوبي في عهد نفقة الدولة وأبنائه. ويبدو أنه كانت في بلرم طفة من الشيوخ وبعض الأعيان يرجع إليها الوالي للمشورة في بعض القضايا العامة أو بعض الأحكام، وكانت تبرز حين يُؤخذُ الرأي في والي صقلية الجديد، وكثيراً ما كان يُؤخذُ برأيها فيه كما كان يُؤخذُ برأيها في ضبط أموال الدولة.

وكانت الزراعة في صقلية **تُقلّ عصولاً** كثيرة من القمح الذي أدخله فيها القرطاجيون وكان يقطن أجزاء كبيرة فيها بردانة النهبي كل عام، وكانوا قد أدخلوا فيها غرس شجر الزيتون كما أدخل الإغريق غرس الكروم، وعنهما يُفضل عنْ اليونان، ونقل العرب إليها كثيراً من الزروع مثل القصب والأرز والقطن والبصل وكثيراً من الأشجار مثل التين والليمون واللوز والفستق وكثيراً من الفواكه مثل التين والبرتقال والتوت وكثيراً من المكسرات ومن الرياحين. وفي سبيل خدمة الزراعة والمصقول على إنتاج وافر حفروا القنوات والترع التي ماتزال موجودة بها إلى اليوم، واستعملوا طواحين الماء والخزانات لتوزيع المياه على الزرع والبساتين كما استعملوا التوايير والمواسير المعقولة التي توجه مجرى المياه كما يشاءون. وبذلك أحال العرب صقلية إلى مزرعة كبيرة، تتخللها الحدائق والبساتين البدوية. وكان بها مراعٌ واسعة يربى بها الماعز والأغنام والمواشي، وكانت بها خمول مشهورة في عهد البيزنطيين، وأدخل فيها العرب خيولهم، وتتفوقت على الخيول البيزنطية.

وكانت في صقلية بعض صناعات قبل نزول المسلمين بها، ولكن صناعاتها ازدهرت في أيامهم ازدهاراً واسعاً بما ألقته الأرض إليهم من مناجها في حجورهم من الذهب والفضة والنحاس والكبيريت سوى منتجات الثروة المعدنية من **الثُّب** والقطران ومنتجات البحر المتوسط حولها من التنّ والمرجان وختلف الأسماك. وأدخل المسلمون إليها صناعة الحرير وتطريز النسوجات وتزيين السجاجيد بالتقوش البدوية وزركشة النيلاب والجلود المصبوغة وإنقان صناعة الحلّ. وانشهر ما كان ينتجه المسلمون من الكتان في المجزرة شهرة واسعة، ويشيد بكتانها ابن حوقل جودة ورخصاً، ويقول إن نسيجه مما يقطع قطرين وكان يباع بمصر من خمسين ربعياً إلى ستين، ويقول ناصر خرسو: **يُجَلِّبُ** من صقلية كان رقيق ونيلاب منقوشة يساوى التوب منها في مصر عشرة دنانير مغربية، وفي خطط المقريزي أنه وجد لعنة بنت المعز في خزانتها ثلاثة ألف شقة صقلية. وكان قطع الأخشاب في غابات جبل إتنا والغابات الشمالية يعود بغير قليل من الربح، وكانت صناعة السفن رائجة، وكان **يُجَلِّبُ** لها الخشب من جفلود والحديد من بلهرا. وكانت بالجزيره بقاع يكثر فيها البربر، وهو البردي، وكانت مصر من قديم تصنع منه الورق للكتابة عليه، ونقل العرب عنها هذه الصناعة وكان الورق المتذبذب منه لكتابه المنشورات والوثائق يسمى باسم الكاغد، ونقلت الدولة الأغليبية صناعته عن مصر إلى إفريقيا

التونسية وأدخلتها إلى صقلية، فكان يصنع لها فيها الكاغد أو الطوامير لكتاباتها الرسمية، وما فضل عن حاجتها يقتيله صناع جيالاً للمراكب ولغيرها. واجتازت صناعة الطوامير من مضيق مسيني إلى سالerno بإيطاليا وتختلفت - في عهد التورمان - إلى الشمال ومدينة نابولي، واجتازتها إلى أوربا الوسطى وألمانيا وهو فضل كبير لسلسلة صقلية على الحضارة الإنسانية، فلولاهم ما عرفت ألمانيا الورق ولا صناعته، ولا أتيح فيها بعد - لعلها الفذ «جوتبريج» - اختراع الطباعة.

ولا ريب في أن صناعة صقلية الإسلامية المزدهرة وازدهار إنتاجها الزراعي أهلها لأن تزدهر بها التجارة، وقد مرت بنا فترة الأسواق في برم حق لتبلغ نحو ثلثين سوقاً، وكان بسوق الصابين أو الجزارين وحدهم - كما مرّ بنا - نحو مائة محل أو دكان. وأنما ذلك لصقلية شراء واسعاً، أما ما يقوله ابن حوقل من فقر أهلها فكان داعية للفاطميين ووجود عامة الناس هناك تنفر من العقيدة الفاطمية وتتعلق بذات أهل السنة فحمل عليهم، ولم يجعل عليهم من ناحية ما وصفهم به من الفقر المادي فحسب فقد حل عليهم أيضاً من ناحية الفقر الشاق، فوصفهم باللثث واللؤم وقلة الذكاء ونقص المروءة وشدة الجهل، وهو متهم في كل ما وصفهم به من الناحية الخلقيّة وأيضاً من الناحية الدينية فقد رماهم بضعف دينهم لأنهم - في رأينا - لا يدينون بالذهب الفاطمي الإسلامي، بينما يصفهم غيره بنظافة الثياب وحسن الصور إلى مروءات ظاهرة وعشرة حسنة. والحق أن ابن حوقل في ذلك كله مغرض، ومن يقرأ وصف مدتها عند الإدريسي يراه يشد بتصورها وبيانتها وأسوقها مبهوراً بما فيها من حركة تجارية واسعة لا في برم وحدها بل في كل المدن التي زارها وخاصة مسيف وقطانية وسرقوسة ونوطس وجرجنت ومارز وأطرباش، وإذا كان الإدريسي زارها في العصر التورماني فإننا نجد أماري ينقل في المكتبة الصقلية عن الراهب ثيودوسيوس - وكان قد أسر في سرقوسة بالقرن التاسع الميلادي سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م زمن الأغالبة ونقل منها إلى برم - أنه تحدث بإعجاب عما شاهده من القصور في المدينتين كما تحدث عن أسواق برم وكثرة من فيها من جميع الأجناس الأوروبية والإفريقية والآسيوية، ويقول نويل دي فرجي في كتابه «العالم» إن تجارة صقلية بلغت أيام المسلمين ازدهاراً عظيماً لم تدركه في تاريخها لا قبلهم ولا بعدهم. وعلى الرغم من عوادى الأيام على قصور المسلمين ومساجدهم ومبانيهم فيها لا تزال في بقاياها وأروقتها أليافها ما يشهد بأن شعباً عظيماً سكن تلك الجزيرة وشاد فيها روابع من القصور والأبنية الفخمة برم خامها وفسقسانها ونقوشها البدوية، مما يهر فون شاك وتعبر له سنوات طوالاً يصفه في كتابه: الفن العربي في إسبانيا وصقلية. ومن القصور المشيدة التي خلفها المسلمون برم قصر العزيز الذي بناه الأمراء الكلبيون وقصر القيبة وقصر المنصورية وقصر الغوارة شرقاً برم، وستذكر طرفاً مما نظمه فيها بعض الشعراء في غير هذا الموضع.

وطبيعي أن يكون للزهد والتتصوف مسارب في الحياة بصفة الإسلامية؛ وكان القضاة والفقهاء في طبعة من يمثلون الزهد والتتصوف والانصراف عن متاع الحياة طلباً لما عند الله من ثواب الآخرة، ونلتقي في أول نزول المسلمين في صقلية بقضائهما ابن أبي حرز، وكانت تُضرَبُ بعده لوزاهته وتقواه الأمثال، وكان قد عاد إلى القرآن وإن قبيل وفاته، فأوصى عمر أخيه أن يكتسم خير موته حين ينزل به القضاء، خوفاً من أن يكتُنه ويدفعه الأمير الأغلبي ويتفق ثمن ذلك عليه من بيت مال المسلمين، فيلقي ألقه وعليه من مال المسلمين شيء، وأنفذ آخره وصيته، وتعجب الناس من ورمه حتى في موته. وينذكر صاحب رياض النفوس عن القاضي أبي عمرو ميمون بن عمر المنافق سنة ١٩٢٩هـ/٣١٦ م أنه ول قضاء صقلية، فاجتاز بمدينة سوسة، فقال: يا أهل سوسة انتظروا هذا كسانى وهذه فروق وهذا خُرج فيه كثيرون وهذه الجارية السوداء تختلفن ومعها جُبة وكأساً، فبهذا رحلت عنكم، فانتظروا بأى شيء أرجع. فلما وصل إلى بلرم قالوا له: هذه دار القضاء (وكانت واسعة) تنزل فيها، فتركها ونزل في دُورِة (صغيرة) لطيفة، وكانت الجارية السوداء تقفل وتتبع غزلاً وتتفق عليه من فضل ذلك، ومرض ولم يخرج ثلاثة أيام فدخلوا عليه لعيادته فوجدوا عند رأسه وسادتيه مخصوصتين تبُّناً وتحته حصيرة من البردي. وعاد إلى بلده عن طريق سوسة فاستقبله بعض أهله، فقال: يا أهل سوسة كم غادرناكم نعود إليكم: هذه جُبَّة وكسانى وخُرجني فيه كثيرون، وعنه السوداء تختلفن.

والقاضيان: ميمون وابن أبي حرز مثلاً رائعاً لم يزهد من أهل صقلية وقضاتها وفقهائهم في متاع الحياة مكتفياً بأقل القليل من عيشته راضياً بحياة التنشف بل واجداً فيها متاعه فليس له مأرب سواها، ومن يمثل ذلك من أهل صقلية ما روا المالكي في رياض النفوس عن أبي الحسن الصقلي الحريري من أنه قضى عمره - أو شطرًا كبيرًا منه - صامتاً لا ينطق إلا بذكر الله تعالى أو بما يعنيه، فإذا أقيمت الصلاة تأوهَ وتواجهَ وقال: «وَادْعَابَ عَمَرِي فِي خَسَارَةٍ». وقد ظل الزهد في صقلية الإسلامية فريداً، ولم يتحول إلى حركة واسعة بحيث تنشأ عنه حركة صوفية، وحقاً قد يوصف بعض الصقليين بأنه صوفي دون أن يُعنى الوصف بذلكحقيقة الصوفية إنما يعني العبادة، وربما كان الشخص الوحيد الذي يمكن أن يسلك هناك في عداد الصوفية هو أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكري الذي حجَّ وسعَ العلامة بحكة سنة ٢٥٠هـ/١٩٦١م ويوصف بأنه «إمام الحقائق وشيخ أهل الطريقة» وله مؤلفات مختلفة تدل على أنه كان ينزع نزعه صوفية، منها: «الأنوار في علم الأسرار ومقامات الابرار وصفة الأولياء ومراتب أحوال الصفاء والشرح والبيان لما أشكل من كلام سهل التسريح». ويدار الكتب المصرية منه مخطوطة في ستة أجزاء وعبد الرحمن فيه فقيه يتمسك بمذهب أهل السنة مستশراً دائمًا القرآن الكريم والسنة النبوية، والكتاب إلى أن يكون زهداً وتنفساً في الحياة أقرب منه إلى أن يكون تصوفاً بالمعنى الدقيق. وظل التتصوف بعد البكري في صقلية

لا ينفك عن الفقه والحديث ومنهباً أهل السنة غير متخذ منهجاً عملياً من التصوف، على نحو ما يلقانا عند الفقيه الحافظ السنطاري، فقد صنف في الرقائق وأخبار الصالحين كتاباً كبيراً، كان في عشرة مجلدات، سماه: «دليل القاصدين» كما ذكر ذلك ياقوت عند ذكره بذلك «سنطاري». وبذلك لم يكن - في رأينا - للتصوف حياة في صقلية الإسلامية إلا هذه الحياة السنوية الملتزمة بالقرآن الكريم والسنة النبوية والتي تدفع الفقهاء إلى التأليف النظري في التصوف بمعناه العام أكثر مما تدفع إلى التطبيق العمل.

## ٢

### المجتمع<sup>(١)</sup> الصقل في العهد النورمانى

من قديم كان يقال إذا كانت روما فتحت أثينا حربياً فإن أثينا فتحتها حضارياً بأدبها وفلسفتها وروعة فنونها، وهو ما نستطيع أن نقوله عن النورمان وصقلية الإسلامية فإن النورمان فتحوا صقلية الإسلامية حربياً، وفتحتهم صقلية الإسلامية حضارياً، إذ كانوا شعباً متبرراً ليس له حضارة ولا عهد له بأى حضارة، فلما نزلوا صقلية بهرتهم المضارة الإسلامية فيها، واجتمعت أسباب كثيرة لكي يختروا رموزهم أمام من بها من المسلمين، فقد كانوا قلة ضئيلة بالنسبة إلى سكانها، وكانوا لا يعرفون شيئاً من نظمها الإدارية ومن ترتيب أملاها في الزراعة والصناعة وأسباب العمران، فاضطروا إلى استباقاتهم ليتفقعوا بهم في شؤون الصناعة والزراعة وتشييد القصور والمباني الباذخة. ومع ذلك فإن الملك روجار الأول الفاتح لم يحسن معاملتهم بتأثير الكنيسة كما أسلفنا فإذا هو يجحيل كثيرين منهم في المدن والقلاع والمحصون المفتوحة عنوة إلى عبيد مسترفين، وإذا هو يطبق عليهم نظام الإقطاع مسرفاً في تطبيقه، وإذا هو لا يترك لأحد منهم لا أرضاً متسعة فحسب، بل أيضاً لا حاماً - كما يقول ابن الأثير كما مر - ولا دُكَانَا ولا طاحونا ولا فُرْنَا، وأسكن معظمهم في المقول الروم والفرنج - كما يقول ابن الأثير - حق يتعلموا منهم طرق الفلاحة والقيام على الزروع والفترس كما حدث في قطانية وغيرها من المدن ومن المحصون والقلاع التي بلغت ثلاثة وعشرين عدداً. ويبدو أنه أخذ يثوب إلى رشده، فخفف من هذه المعاملة الصارمة للمسلمين وخاصة في بلرم وفيمن اخذه منهم جنداً في

المشائخ الإدريسي والعرب في صقلية للدكتور إحسان عباس والملعون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ أحد توفيق المدن.

(١) راجع ابن الأثير في الجزءين العاشر والحادي عشر، وتاريخ ابن خلدون وأماري في المكتبة الصقلية وتاريخ مسلسى صقلية وفريمان في كتابه السالف: تاريخ صقلية ورحلة ابن جبير وزهرة

جيشه وأسطوله، ومع ذلك فقد فرض عليهم - كما فرض على سلمى الجزيرة عامة - أن يدفعوا جزية، ولم يتثنّى إلى أن المسلمين لم يكونوا يفرضونها ضريبة عامة على الرهوس من حيث هي ضريبة، وإنما كانوا يفرضونها على غير المحاربين ضريبة دفاع عنهم، ولذلك لم يكونوا يفرضونها على القساوسة والرهبان والمعجزة والنسماء والأطفال، فهي ليست عندهم ضريبة اضطهاد، إنما هي ضريبة دفاع لجيش المسلمين الذي يحمي النصارى ومحارب دونهم، نصيباً مما يحتاج إليه في حربه من المون وعنة السلاح، أما هو فجعلها ضريبة اضطهاد عامة، مع استخدامهم في الجيش والأسطول والدفاع عن الجزيرة. وكان ابنه الملك روجار الثاني قد نشأ نشأة صقلية عربية، فإن اللغة التورمانية لم يكن بها علم ولا فلسفة ولا فكر ولا أدب، فاضطر أبوه إلى تعليميه العربية اللغة المتحضرة، وتتنفس في الحضارة الإسلامية التي كانت مسيطرة على الجزيرة بروحها وتقاليدها، وأخذت هذه الحضارة توفر في حياة التورمان الفالبين كما أخذنا يُفديون من نُظمها وتراثيها الإدارية، وبالمثل من شنون الزراعة والصناعة والجيش، وفيه يقول ابن الأثير: «سلك طريق ملوك المسلمين من الجنانب (ما يركب) والمحاجب والسلامحة والجاندانية وغير ذلك، وخالف عادات الفرنج في ذلك كله فإنهم لا يعرفون شيئاً منه، وانخذ الملك روجار الثاني ديوان المظالم الذي كان شائعاً عند الحكومات الإسلامية الصقلية فنكله عنهم كما نقل عنها ديوان التحقيق وديوان الجزية وديوان الصناعة، ومنه يتفرع ديوان الطراز الخاص بالنسوجات المطرزة بالذهب وغيرها، وأيضاً ديوان المستغلات من تجارة الموانئ الصادرة والواردة وصيد البحر، وكان في بلاطه نفر من علماء العرب ومفكريهم وأرباب الأدب والصناعة، وكان هناك ديوان عام ينظر في أمور الدولة اشتراك فيه بعض العرب. وخلفه ابنه الملك غليوم الأول، وكان قد تعلم العربية وحذقها مثل أبيه، ويقال إنه كان يعتمد في كثير من المهام على سلمي صقلية، فإنه فتح في وجههم مناصب الدولة يتولونها وقرب منه بعض العلماء المسلمين وبعض رجال الأدب والفكر. وقد دفع هو وأبوه التورمان إلى اقتباس الفنون والعلوم والمناصر الأساسية للحضارة الإسلامية، فحضرروا بعد أن كانوا قوماً متدينين ونقلوا حضارتهم إلى إيطاليا فكانت بذلك من أسباب انبات النهضة الإيطالية بها في القرن الخامس عشر قبل غيرها من الأمم الغربية، وهو تأثير عميق لصقلية الإسلامية في النهضة الأوروبية الوسيطة، وينقل الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب عن دي سلان وصف البلاط التورماني في عهد غليوم الأول وأبيه روجار الثاني إذ يقول: «إن كل شيء في البلاط التورماني أصبح يذكر بالعادات والتقاليد الشرقية من حجاج وغلمان وعييد إلى خصيان (سود وبهض) وقيان وعازفين، ومن حريم إلى مراسم وتشريفات». ولم تكن اللغة العربية لغة التخاطب فحسب، بل كانت أيضاً لغة الثقافة، وكانت المراسيم تصدر عن الديوان الملكي باللغة العربية ثم تنقل إلى اللاتينية أو اليونانية، كما كانت النقود منقوشة بالخط الكوفى» ومرأ ابن جبير بالجزيرة بعد عودته من الحج في أيام غليوم

الأول حوالي سنة ١١٨٤هـ/١٧٠٥م ذكره بأنه يتخذ من فتيان المسلمين مجايب حجّاً به وزرائه وعهود دولته في المجزرة، ويقول إنه كثير الثقة بال المسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهمن من أشغاله وله جلة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم. ويقول إن أهل دولته من المسلمين يلوح عليهم رونق ملوكه، لاتساعهم في الملابس الفاخرة والماراكب الفارهة، وما منهم إلا من له الحاشية والعبيد والأتباع، ويقول عن غليمون الأول: «ليس في ملوك النصارى أترف في الملك ولا أنعم ولا أرقه منه، وهو يتشبه بملوك المسلمين في الانفصال في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفحيم أبيه الملك وإظهار زيته، ويدرك ابن جبير حين مر بيده أنه كان في نحو الثلاثين سنة من عمره وأنه يتفن العربية قراءة وكتابة، والعلامة التي يضمها على رأس مناشيره ورسائله: «الحمد لله حق حمد» وكانت علامة أبيه روجار الثاني: «الحمد لله شكرًا لأنعم». وما يدل على مدى انفصال التورمان في المضاربة الإسلامية التي كانت منبتة في المجزرة أن زوج النساء النصرانيات في بلرم كان نفس زوج النساء المسلمات، ويقول ابن جبير إنهن فضيحت الألسن بالعربة الشريفة طبعاً (اللغة الأولى في المجزرة حينذاك) وإنه رأهن في عيد الفطر قد خرجن فيه ولبسن ثياب الحرير المذهب والتحفون اللحف (الملابس وما يشبهها) الراقة وانتقبن بالثقب الملونة (أى أنهن كن محجبات تماماً مثل المسلمات) وانتقلن الأخفاف المذهبة، وبرزن لكتائهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحل والتخصب والتغطية.

ومن دلائل الانفصال الواضح في المضاربة الإسلامية لمهد غليمون الأول ما يذكره ابن جبير من أن جواريه وحظاياه في قصره كنَّ مسلمات جميعهن، وأن الجارية النصرانية من الفرنجيات إذا وقعت في قصره أصبحت مسلمة بفضل مَنْ فيه من الجواري المسلمات. ولم يكن غليمون ولا أبوه يتعرضان - فيما يظن - لأداء شعائر مَنْ في بلاطهما وبلدتها أو عاصمتها بلرم من المسلمين، وربما كان تسامح غليمون في هذا الجانب أقوى وأوسع من تسامح أبيه فقد كان مَنْ في بلاطه من الفتيان يصوم الأشهر طلوعاً وطلبوا للأجر والثواب، وكان إذا دخل وقت الصلاة يغرسون من مجلسه فرادى فيزدثنها، وهو لا يتعرض لهم أى تعرض. ويقول ابن جبير إن بلرم كانت غاية بال المسلمين ولم فيها أرباض أو ضواح ينفردون فيها بسكنائهم عن النصارى، والأسواق معصورة بهم، ويقول إن لم مساجد يعمرونها ويقيمون الصلاة فيها بأندان مسموع، وإن لهم قاضياً يتناقضون أمامه، ويدرك أن المساجد كثيرة، وكان يحفظ في أكثرها القرآن. على أنه يعود فيذكر أن صلاة الجمعة كانت محْرمة على سكان بلرم - كما مرّ بنا - بسبب الخطبة الدينية التي تسقها إذ كانت محظورة عليهم.

وحرى بنا أن نتوقف لنعود إلى المقالة الشائنة بين المؤرخين، من أن التورمان عاملوا مسلمي

مقلية معاملة حسنة وأنهم سمحوا لهم بحرية المقيدة مستدلين على ذلك بما يقول ابن جبير وغيره عن بلاط روجار الثاني وغليوم الأول من أنه كان بلاطًا عريباً إسلامياً في نظر أمراء المسيحية، وهو إنما كان كذلك بحكم تبدّي التورمان وشعور هذين الملكين ب حاجتها وحاجة شعبيها إلى تشرب المضاربة الإسلامية العربية، ولذلك أحسنا معاملة المسلمين وسمحا لهم - على الأقل في بلم - بإقامة شعائرهم الدينية والأذان والصلوة في المساجد، وبالمثل سمحوا بذلك لمن شرعاً ب حاجتها إليه في بلاطهما وحياتها من الفتيان ومن الجنواري والحظايات. أما بعد ذلك فكانت المسألة تتوقف على كثرة المسلمين في البقاع والمدن، فقد اتجه ابن جبير بعد زيارته للبلم إلى زيارة مدينة طرابلس، ولا يلاحظ أن جميع سكان الطريق بين المدينتين سلمون يفلدون الأرض في ضياع ومحارث ومزارع متصلة، واقترب من مدينة ثرمة في الشمال، وكان الإعفاء قد أخذ منه ثبات يقصر قريب منها داخله مساكن وعلالى مشرفة، وهو كامل مراافق السكنى، وفي أعلى مسجد من أحسن مساجد الدنيا يهاد، وبات فيه أحسن مبيت وأطيبه وسمع أذان الفجر - وكان قد طال عهده بسماعه كما يقول - وأكرمه القائمون عليه وصل به الفريضة والتراویح إذ كان في رمضان، وأكبرظن أنه كان محرساً للمدينة وبُني على شاكلة المحارس في الساحل التونسي، وانتهى إلى طرابلس ورأى ما للMuslimين والنصارى فيها من مساجد وكتانس، ورأى المسلمين يصلون يوم العيد بالطبلول والبوقات وعجب من ذلك.

و قبل أن نستمع إلى ابن جبير فيما ذكره بتلك البلدة من الفتنة في الدين الحنفي تتوقف قليلاً عند سياسة الملك، روجار الثاني، فقد ظل معتمدًا لإجراءات الإقطاع التي فرضها أبوه روجار الأول في البلاد والمصون التي فتحت عنده، ولما هاجم أسطوله الساحل التونسي واستولى على مدينة بونة (عنابة) ترك أميره فيليب جماعة من العلماء والنساك يغزجون منها إلى القرى المجاورة بأهليهم وأموالهم، فلما عاد قُبض عليه لرفقه وحسن صنيعه بجماعة من المسلمين وجعل الأساقفة والقسيس والرهبان يحاكمونه فحكموا عليه حكماً ظالماً بحرقه، كما نص على ذلك التجافي في رحلته. فلم يكن روجار الثاني يؤمن بحرية المقيدة كما يحمل لوثر خي الغرب - وتباهم مؤرخو العرب - القول بذلك. وت نفس غليوم الأول الذي أشاد ابن جبير بمعاملته لمن في بلاطه من المسلمين ومن في قصره من الجنواري والحظايات المسلمين حدثت مذبحة للمسلمين ببلم في أيامه، إذ أمر وزيره مايون بنزع السلاح من أيدي المسلمين سنة ١١٦٠/٥٥٦ فثار المسلمون ضد هذا الأمر، وانتهز المسيحيون الفرصة فسفكوا دماء كثيرين منهم في شوارع بلم وف في الواوين والحوانيت والفنادق كما سفكوا دماء جماعة من كانوا في القصر، وقتل في هذه الواقعه الشاعر الفقهي يحيى بن النيفاشي كما قتل - في ظن أمراء - الإدريسي الجغرافي، وهو ما يؤكد أن استخدام غليوم الأول للMuslimين في القصر إنما كان ضرورة حضارية، اضطرته إليها المضاربة الإسلامية التي قهرته وقهرت شعبه. ومررت بنا - منذ قليل - أخبار عن ابن جبير

تيل على أن حرية المسلمين في إقامة شعائرهم الدينية لم تكن مكفولة قاما على نحو ما أوضحت ذلك على لسان عبد المسيح في مسيّف وفقه مدينة طرابيش وزعيم المسلمين بها ابن حجر والمسلم الصقل الذي اختار أن يُحرّم من ابنته وأهدأها زوجة إلى أحد الحجاج مع ابن جبير حتى لا تندوقة مع إخواتها من العذاب الأليم.

ويتضاعف الظلم الفاشم مع استيلاء أباطرة الأنماان على صقلية - كما مرّ بنا في الفصل الأول - ويفر من صقلية آلاف من المسلمين إلى إفريقية التونسية، ولا يبقى بها إلا من عجزوا عن الفرار والرحيل ويصبحون بها مستعبدين يفلحون الأرض ويرعون الأغnam للساسة الفرنجة ولا يكفل لهم شيء من الحرية الدينية، واستغاثوا بأبي زكريا مؤسس دولة الموحدين فقد معاهدة مع فرديريك الثاني الإمبراطور الألماني، وتعهد له فرديريك فيها بضمان تلك الحرية، ولم يطبق هذا التعهد، وازداد المسف والظلم الفاشم، واستغاث المسلمين هناك بالمستنصر ابن أبي زكريا، فقد معاهدة مع فرديريك على إجلاء المسلمين نهائيا من صقلية، وحلوا بتونس في سواحلها ورحبّت بهم المدن الساحلية وعاشوا في أمان، ويقال إن فرديريك أُجْل من بي جزيرة مالطة من المسلمين إلى أمالفي Amalfi جنوب إيطاليا، وبر الزمن تصرّت ذراهم.

## ٣

### الثقافة<sup>(١)</sup> في العهد العربي

داتا تتحرك الثقافة الإسلامية مع الجيوش العربية الفاتحة، فسبّر جنودها أن يفتح جيش عربي بلدا يقيم فيه مسجدا خطيباً فيه خطبة الجمعة وتؤدي الصلوات الخمس، ويدخل أهل البلد المفتوح في الإسلام أو كثيرون منهم، وتنشأ كتابات تحفيظ الداخلين في الإسلام شيئاً من سور القرآن وتليميهم وتعليم ناشتهم مبادئ الكتابة العربية وشيئاً من الشعر العربي ل تستقيم العربية في ألسنتهم. وكان هؤلاء المسلمين الجدد والجند العربي يتعلّقون حول الشيوخ في المساجد يأخذون عنهم تعاليم الإسلام، وكان من هؤلاء الشيوخ من يعرض الأسدية لأسد بن

الرواة للقطني وبقية الوعاة للسيوطى وطبقات القراء لابن الجوزى والديجاج النصب لابن فرحون والصلة لابن بشكوال والمللة السبراء لابن الأبار والقسم الثالث من كتاب ورقات عن المضاطرة العربية في إفريقية التونسية والعرب في صقلية للدكتور إحسان عباس.

(١) انظر في الثقافة بالمهد العربي البيان المغربي لابن عذاري ومعجم الآباء ومعجم البلدان في سينطار لياقت وتنقيف اللسان لابن مكي وتاريخ المكاء للقطني وصورة الأرض لابن حوقل وطبقات الأطياف لابن جلجل وطبقات الأمم لصاعد والجريدة للعماد الأصبهان: الجزء الأول وإياته

الفرات قائد الحملة الذي قضى نحبه في حصاره لسرقوسة وهي تصور مذهب مالك من إملامات أستاذة عبد الرحمن بن القاسم بصر، حق إذا شاعت مدونة سحنون - وهي أيضاً من إملامات ابن القاسم - في القيروان والبلاد المغربية أخذ الشيوخ في صقلية يلقونها الناس والطلاب هناك.

ومع أن المسلمين في صقلية ظلوا أشبه بمسكر حرب لا يزالون ينتظرون النداء للحرب صباح مساء، ولا يزالون يُشهرُون سيفهم مع أول صارخ، ومع أن الصراعات كانت لاتنّي ترتفع، ومع أنهم ظلوا يفتحون المحسون طوال عهدهم بها ولا يكادون يتنهون من حرب حتى يهدموها حرباً جديدة، مع ذلك كله استقرّوا بالمدن التي فتحوها، وكُوّنوا لأنفسهم فيها ولائيات إسلامية، ونقلوا إليها الحضارة العربية وكل ما اتصل بها من عمران وبناء منازل وقصور فخمة، ونهضوا بالزراعة والصناعة والتجارة، كما نهضوا بالثقافة في مختلف فروعها وعلومها وفنونها. ولم يكتف الشباب المسلم الصقلّي بما كان يحصله من ذلك على علماء سرقسطة وجرجنة وما زار ويلزم وغيرها من المدن فقد كانوا يرحلون إلى القيروان للتزود من حلقات علمائها، وكان كثيرون من علماء القيروان وشيوخها يعبرون البحر لتزويد الطلاب هناك بما أحزرزوا من العلوم وصاغوا من المؤلفات. وكانت كانت صقلية - طوال العهد الإسلامي - بلداً تونسياً، فكل ما في القيروان من كتب ومصنفات وعلوم وأداب يرجل مع التونسيين المهاجرين إليها ومع أبنائهم في حقائبهم حين عودتهم إلى بلدانهم. وليست المسألة إذن أن كاتبها نظر على اسمه في النصوص الصقلية مثل كتاب الملخص للقابسي الذي لخص فيه ما اتصل إسناده من أحاديث كتاب الموطأ لمالك، حتى إذا وجدناه هو أو غيره من الكتب سجلنا به وبها ما نقل إلى صقلية من المصنفات العلمية، والمسألة كانت أوسع من ذلك إذ لم يؤلف في القيروان كتاب مهم إلا حل إلى صقلية، وقد يحمله نفس مؤلفه على نحو ما هو معروف عن كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، فقد ارتعل إليها بعد الهجرة الملاية إلى موطنها، وحل إليها معه هذا الكتاب النفيس الذي يُعدّ أروع ما وضعت المغاربة والأندلس في النقد الأدبي والبلاغة ومحاسنها من كتب، ولا ريب في أنه كان له أثر بعيد في نهضة صقلية الأدبية.

وعلى نحو ما تبادل العلماء والأدباء في صقلية الرحلة مع علماء وأدباء القيروان كذلك تبادلواها مع علماء وأدباء المشرق والأندلس، بل كان بعض الشباب الأندلسي يقصد إلى صقلية للاستئصال إلى هذا العالم أو ذاك من بلقته شهرتهم العلمية الأندلس، وكثيراً ما كان يقصد بعض علماء صقلية الأندلس فيجد شهرته سبقته إليها. وكانت رحلة الطلاب الصقلين إلى مصر والمشرق كبيرة، ونزلها غير عالم وأديب من المشرق من مثل أبي محمد إسماعيل بن محمد النيسابوري، وأخذ عنه - كما يقول ابن ظافر في كتابه بداعي البدانة - غير واحد كتاب

البيتية للتعاليٰ، ومثل على بن حزنة الكنوي فقد ذكر ياقوت في ترجمته أنه كان راوية لديوان المتنبي وأنه رحل إلى بلرم في صقلية وظل فيها بروي للطلاب ديوان المتنبي وشرحه إلى أن توفي سنة ٩٨٧هـ/١٣٧٥م ويبدو أن دواوين أخرى كثيرة دخلت إلى صقلية، فابن مكي يذكر في الباب الأربعين من كتابه «تعريف اللسان ما كان يعنى فيه المعنون من أشعار تثير ذوى الترمة وجرير وابن الرومي والشريف الرضى. ويقول القبطى بكلامه تاريخ الحكماء في ترجمة أبي سليمان المنطقى عن كتاب الإيمات والمزايدة لأبي حيان التوحيدى: إنه خاص كل بحر وغاص كل بلقة، وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة منه يخط بعض أهل جزيرة صقلية، وهو قوله: «ابتداً أبو حيان كتابه الإيمات صوفياً وتوسطه محدثاً وختمه سائلة ملطفاً». وفي ذلك ما يدل على أن كتب الفكر العميق الشرقية - مثل كتب أبي حيان - كانت تحت أعين الصقليين. وما ذكرناه أو أشرنا إليه من ذلك إنما هو رموز لما نقل إلى صقلية من نفائس الكتب الأدبية والفكيرية، ولابد أن كانت نفائس الكتب التونسية والشرقية في التفسير والحديث النبوى والفقه تنقل بدورها إليها.

ومن المؤكد أن الحركة العلمية كانت نشطة بها، وبدل على ذلك - من بعض الوجوه - ما يقوله ابن حوقل في كتابه صورة الأرض من أنه كان بها ما يزيد على مائة مسجد، ويقول أيضاً - ونقل ذلك عنه ياقوت في معجم البلدان - إن في بلرم ما لا يقل عن ثلاثة مائة معلم، ولا بد أن كانت لهم حلقات كبيرة في المساجد يحاضرون بها الناس في مختلف فروع الثقافة الإسلامية. ومن طريق ما يذكره ابن حوقل أنه رأى بها كتاباً به خمسة من المعلمين لهم من بينهم رئيس هو مدير الكتاب أو مدير هذه المدرسة. ويقول إن صبيان الكاتب الكبيرون وإيتام يبلغون أحياناً ثمانين طالباً في الحلقة الواحدة أو الفصل الواحد، وهي بذلك ليست كناتيب - كما يقول - إنما هي مدارس، وقد أهلت لنشاط علمي واسع في بلرم، وعلى شاكلتها كانت المدن الأخرى في صقلية.

وحرىً بنا أن نستعرض النشاط في العلوم المختلفة بصفلية الإسلامية، ونبذل علوم الأولئ، وكانت - في رأينا - نشطة بصفلية، إذ كان ما يقرب من نصف سكانها من الإغريق والرومان وكان لهم تراث قديم يلقنها الإغريقية واللاتينية، وحقن كثيرون منهم العربية وحذق بعض العرب لقائهم بحكم الامتزاج والاختلاط والتعامل اليومي بين السكان، ودفع ذلك إلى التبادل عن طريق الترجة بين التراث الإغريقي اللاتيني والتراث العربي، ومن أهم من عنوا بذلك الرهبان الصقليون، فكانوا ينقلون عن العربية بعض نفائس تراثها كما كانوا ينقلون إليها بعض نفائس التراث الإغريقي اللاتيني وبدل على ذلك - من بعض الوجوه - ما ذكره الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في الجزء الأول من كتابه ورقات عن الحضارة العربية

بإفريقية التونسية من أن الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد (٢٧١ - ٢٨٩ هـ) مؤسس بيت الحكمة في عاصمته رقاده تخير بعض المصنفات اللاتينية في العلوم الرياضية التي اطلع عليها، وكلف بترجمتها بعض الرهبان الصقلين التكلمين باللغة العربية وألحق بهم بعض علماء اللغة من الإفريقيين، وعهد إليهم بجهة تنقية عبارتهم وسيشكها في قالب عربي صحيح، ويستظر أن يكونوا قد نقلوا إلى العربية كتاب بلينيوس (Plinius) في علم النبات، ويدرك ابن جلجل في كتابه طبقات الأطماء أنه هاجر إلى قرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ - ٣٥٠ هـ) من صقلية طبيب يدعى أنها عبد الله كان يتكلم اليونانية ويعرف أسماء المقاير والأدوية، فضله الناصر إلى علماء قرطبة وأطبانها ليكون عونا لهم في ترجمة كتاب ديوسقوريدس المؤلف بالإغريقية عن الأدوية والنباتات. وقد مضت صقلية تمنى بعلوم الأولئ من طب وغير طب في الترجمة. وكما كان التراث اللاتيني الإغريقي العلمي يترجم إلى العربية كان التراث العربي العلمي يتم ترجمه إلى اللاتينية. وكان الأطباء قد أخذوا يتكلمون في القبروان منذ أيام الأغالبة، فتكلموا بচقلية بحارة لأنخنا القبروان واطرد ذلك في القرنين التاليتين، وما يدل عليه الفصل الذي عدته ابن مكي في كتابه: «تنقيف اللسان» لبيان أغلاط الأطباء في صقلية، واشتهرت في القرن الرابع المجري بأنها بيئة فلسفية، مما جعل سعيد بن فرجون التجيبى الملقب بلقب الحمار السرقسطي يلجأ إليها حين أصابته حسنة أيام المنصور بن أبي عامر في أواخر هذا القرن كما يقول صاعد في كتابه طبقات الأمم وظل بها إلى وفاته، وكان يحسن الفلسفة والموسيقى جيئماً وله في علوم الفلسفة رسالة بدعة سمّاها شجرة الحكمة. وبجانب فلاسفة أو متفلسفة صقلية كان هناك مهندسون ورياضيون من مثل العالم الرياضي عبد العزيز المعافري وله ترجمة في المزينة، وتوارد القصور الباذنة في بلرم التي تمنى بها شراء صقلية وأصحابها وزخارفها وحدها النزة وفوارتها البدية مهارة مهندسها البارعين، وبررت قصور بلرم وغيرها من مدن صقلية فون شاك بفسيفساتها ورخامها وأ JEانها وغرفها ونقوشها، وظل يدرسها سنوات طوالاً كما مر بنا في غير هذا الموضع وسجل ما بره من مشاهدتها في كتابه *الفن العربي في إسبانيا وصقلية*.

وتشتت صقلية الإسلامية في الدراسات اللغوية والنحوية، وتمدّها في تلك الدراسات روافد من الخارج، فقد نزّلها موسى بن أصبح المرادي القرطبي الذي رحل في طلب التعمق في اللغة إلى الشرق، ودخل العراق وتلّمذ لعلمائه اللغويين وخاصة ابن دريد صاحب معجم الجمهرة، ولم يعد إلى وطنه وإنما عاد إلى صقلية وافتتحها موطنًا له كما يقول السيوطي في *البغية*، وتلاه صاعد اللغوي الأندلسي المشهور بكثرة تلاميذه الأندلسية رحل إليها في أوائل الفتنة التي نشب بقرطبة سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ورجع إلى الأندلس ولم يثبت أن عاد إلى صقلية وتوفّي بها سنة ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م كما ذكر القسطنطيني في إنتهاء الرواية. ومن علمانها في اللغة والنحو على بن

حبيب اللغو الصقل أحد رجال اللغة المعدودين والعلماء بها المبرزين، ومنهم طاهر بن محمد الرقيان الصقلاني اللغو، ويقول القسطنطيني عنه: لم يكن في زمانه أعلم منه بلغة العرب وكلامها، ونثرها ونظمها، وقد صدرت العلامة من كل مكان فلقوا منه بحراً حضرماً (واسعاً) وعلى شاكلته ابنته على بن طاهر الرقيان، وكان حافظاً للغة وأيام العرب، جاماً لأدوات الأدب، وما ثبت في القرن الخامس أن نلتقي قبل الفزو التورماني بعلم كبير من أعمال اللغة والنحو تكونت له بها مدرسة لغوية كبيرة هو محمد بن علي بن الحسين بن البر التميمي، ولد بصفية في أواخر القرن الرابع المجري، حتى إذا أخذ ما لدى شيوخها من اللغة والنحو رحل عنها إلى الشرق للتزود منها، وألقى عصاه بالقاهرة، وتلذمذ فيها ليوسف التجهيري المتوفى سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م وهو أهم من روى عنه المصريون كتب اللغة ودواوين الشعراء، يقول ابن خلكان: «أكثر ما تروى الكتب القديمة في اللغة والأشعار العربية وأيام العرب في الديار المصرية من طريقه» وكان ما يزال يراجع الروايات المختلفة لكتاب أو للديوان ويقابل بينها حتى يخرج في أوقات صورة ممكنة، وبجانب الدواوين التي أخذها عن التجهيري وفي مقدمتها ديوان ذي الرمة أخذ في القاهرة عن صالح بن رشدين ديوان المتنبي الذي سمعه مباشرة من المتنبي وشرحه له، وأخذ أيضاً في القاهرة عن ابن باشاذ مقدمته المشهورة في النحو، وعاد إلى موطنها، واختذل مدينة مازر مقاماً لها، وأكرمه صاحبها ابن متکود وقربه منه، وتحول إلى مدينة بلرم سنة ٤٥٠ وانتسب شهرته وجاهه الطلاب من كل فرع صقلين وغير صقلين، ومن الصقلين على بن جعفر السعدي المعروف بابن القطاع وسنعود إلى الحديث عنه في أيام التورمان، ومن تلاميذه غير الصقلين عبد الله بن إبراهيم الصيرفي ومنه سمع ديوان المتنبي سنة ٤٥٩، ومنهم عبد المنعم بن من آله القروي المعروف بابن الكمام وقد أمننا به في كتابنا عن الأندلس ورده المفعم على رسالة ابن غرسية، وحرى بنا أن نذكر أن من تلاميذه الصقلين عمر بن خلف المشهور باسم ابن مكي الصقل مصنف كتاب تنقيف اللسان الذي سجل فيه الأغلاط التي سمعها من أفواه العلماء وغيرهم وزرائهم يقول في مقدمته إنه عرضه على أستاذه ابن البر «الإمام الأوحد والعلم الفرد» فأثبتت ما عرفه وارتضاه، ومحماً ما أنكره وأياده». وقد وزع ابن مكي كتابه على حسين بابا تحدث فيها عن التصحيف والتبدل والزيادة والتقص في الأسماء وكذلك الزيادة والتقص في الأفعال وتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث إلى غير ذلك من صور الغلط على ألسنة الخاصة والعامة، وأضاف إلى ذلك فصولاً طريقة عن أخطاء القراء والمحدثين والفقهاء والأطباء. والكتاب يدل على أنه كان في صقلية حينئذ حركة لغوية خاصة بابن البر في تلاميذه كي يخلصوا الألسنة من أغلاطها وخاصة ألسنة العلماء. وما توافق سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م حتى يبارح ابن البر صقلية إلى الأندلس، ويبارحها تلميذه ابن مكي إلى تونس، ويقول الع vadad الأصبهاني عنه في ترجمته بالغربيّة: «ول قضاء تونس وهو فقيه محدث خطيب لغوي، وفضلة بالألسنة في جميع الأمة

مأثور مرói، وله خطب لا تفُرُّ عن خطب ابن نباتة». وابن نباتة أكبر خطيب أنتجه المشرق، وكان خطيب سيف الدولة في حربه لبيزنطة. ولعل في هذه الشهادة لخطيب من صقلية ما يعموّه ما زعمه ابن حوقل عن خطيب شاهده بيلرم يوم جمعة يعزّم الأسماء مع الوصل ويجزئُ الأفعال من أول خطبته إلى آخرها، وليس في المستعين له من مسلمي بيلرم من يعترض عليه، مع أنه ظل يخطبهم نحو عاشرین! وذكرنا - فيما أسلفنا - أنه كان مفترضاً في كل ما وصف به صقلية لأنها كانت ترفض المذهب الشيعي الإماماعيل منهب الدولة الفاطمية، فاتهاماته لها ولخطبائها اتهامات زائفة، وسراها تتوجه في مجال الدراسات الدينية والأدب شرعاً ونثراً ما يؤكد بطلان اتهاماته.

ويدل ما قدمنا على أنه وصلت الشباب الصقل مجروحة اليتيمة للتعاليٰ وديوان ذي الرمة وغيره من شعراء الماجاهيل والإسلام، كما وصلتهم دواوين عباسية مختلفة لأبي قام وابن الرومي والمتبنى وأضرابهم، ولابد أن وصلهم كتاب البيان والتبيين للمجاخط وما به من خطب وبمجموعة زهر الآداب للحصرى، وما من شك في أن أكثر جماعيّ الأدب المؤلفة في المشرق وصلتهم ومرّ بها ابن البرّ كان يرى بين ما يرى من الكتب والدواوين كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة، وكل ذلك كان له تأثيره في نشوء ذوق أدبي عام في صقلية بين الشباب والشيوخ، ولابد أن اطّلعوا على بعض الكتابات البلاغية والنقدية في المشرق بدليل استخدام شعرائهم وكتابهم لمحضات البدع، ويدليل ما في أشعارهم من عنونة وسلامة، وكان حظ الشباب في صقلية عظيمياً إذ نزل ابن رشيق في أواخر أيامه بازار واتخذها مقاماً له إلى وفاته سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٢م وظل هناك سنوات يدرس للطلاب كتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده وبعد من أروع كتب الأسلاف في النقد وفي بيان المحسنات البلاغية إن لم يكن أروعها كما يقول ابن خلدون، وقرأه عليه ابن متوكد والي مازر بشهادة نسخة من الكتاب وقعت للقطني كما يقول في ترجمته بكتابه إحياء الرواية وأخذ الطلاب في صقلية بازار وغير مازر يتدارسهونه في حياته وبعد وفاته، ومعنى ذلك أن صقلية أتيحت لها من المختارات الشعرية والثرية ما أتاح لأدبيّتها ملكات أدبية خصبة كما أتيحت لها من كتب البلاغة والنقد، وفي مقدمتها كتاب العمدة ما أتاح لأدبيّتها مجال الصياغة ودقة الذوق الأدبي ورهافته.

وإذا تركنا الدراسات النقدية واللغوية في صقلية الإسلامية إلى الدراسات الدينية وجدنا من كبار قرائتها في القرن الرابع المجري محمد بن خراسان كما في طبقات القراء لابن الجوزي، طلب العلم بصر و فيها درس القراءات والحديث النبوى وتتلذذ لأبي جعفر النحاس وكتب عنه مصنفاتٍ وقرأها عليه وكان بينها كتابه إعراب القرآن، وظل مقرنا متقدراً بصفةٍ إلى أن توفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م وقد بلغ ستة وسبعين، ومن روى القراءة عنه يوسف بن حبيب وغيلان بن

نعم، وطبيعي أن تزدهر قراءة القرآن في صقلية مثلها في ذلك مثل جميع البلاد الإسلامية، وكانت مثل تونس والبلاد المغاربية - تقرأ بقراءة ورش المصري عن نافع وعايدة يوسف المقرئ بأنه مفسر للقرآن مما يدل على أن المقربين للذكر الحكيم في صقلية كانوا كثيراً ما يعنون بتفسيره حق تفهم الناشطة ما تحفظه منه، ونجد حمل محمد بن خراسان المار آنذاك الكتاب إعراب القرآن للنحاس يحدث في صقلية نشاطاً في هذا الموضوع فإذا أبو طاهر إسماعيل بن خلف الصقل المتفق سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م يؤلف كتاباً في إعراب القرآن كان في تسع مجلدات، وستترجم - فيما بعد - لابن ظفر الصقل ولهم في التفسير ثلاثة كتب.

وعلى نحو ما كان إقراء الذكر الحكيم وإعرابه وتفسيره ناشطاً في صقلية كانت - بالمثل - رواية الحديث النبوى، إذ كان حفاظه النابهون كثيرون من مثل أبي بكر المصانى، ومن أهم حفاظها عنيق السنطاري وقد نوه به ياقوت في الحديث عن بلدته «سنطار» في كتابه «معجم البلدان» وكان قد لزم حلقات الشيوخ في بلرم حق أخذ ما عندهم، ولرجل إلى لقاء الشيوخ ونزل مدينة الرسول ﷺ، واتسع في رحلته فأخذ عن شيخ اليمن وفارس وخراسان والشام ومصر، وكان يلقى في تلك البلدان بجانب شيخ الحديث وحافظه العباد والنساك ويكتب ما يسمعه من الفتن، وصنف كل ما جمعه عنهم، كما صنف في الفقه تأليفاً كان في غاية الترتيب والبيان، وكان يدرس تلاميذه في صقلية الحديث النبوى وكتاب الموطأ في الفقه المالكى، وتوفى سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م حين احتل روجار الأول ملك التورمان بلرم.

وأكثر فقهاء المالكية بصقلية كانوا محدثين لأن الموطأ مالك كتاب فقه وحديث وكان نشاط الفقه بصقلية واسعاً جداً، وهي لذلك أن كان قضاة صقلية - منذ أول الأمر - يجاضرون الناس في الفقه المالكى عدتهم في القضايا يتقدمهم في ذلك سالم بن سليمان الكتبي الذى ول القضاء في صقلية سنة ٢٨١ هـ / ٨٩٤ م وقد عمل بكل جهده على نشر منصب مالك في صقلية كما في كتاب رياض النفوس، وزرمه تلميذ من كبار تلاميذه الإمام ابن أبي زيد فقيه القبروان المتوفى سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م هو البراذعى خلف بن أبي القاسم وكان زملاؤه من فقهاء القبروان يزورون عنه، فلم تحصل له بها رئاسة، فرحل إلى صقلية، وقد صدر أمرها في بلرم، فحصلت له عنده مكانة طيبة، وعنه ألف كتابه التهذيب في اختصار مدونة سحنون في الفقه المالكى يقوى ابن فرحون وعليه ممول الناس في صقلية والمغرب والأندلس، وطارت شهرته في العالم الإسلامي وكتبت له شروح مختلفة، وألف بصقلية أيضاً كتاباً في التمهيد لمسائل المدونة وكتاب الشرح والتمامات لمسائل المدونة، وله أيضاً اختصار الواضحة من كتب الفقه المالكى يقول ابن فرحون: عليه اعتماد طلبة العلم للمذاكرة وكان ابن أبي زيد قد جمع ما في الأهميات من المسائل والخلاف والأقوال في كتابه التوادر فنقل البراذعى معظمها في كتابه على المدونة، ويسعد أنه توفى بصقلية في أوائل القرن الخامس الهجرى.

ومن فقهاء صقلية بعده محمد بن يونس التميمي من مدينة مازر المتوفى سنة ٤٥١ وقد لقب بالإمام الأكبر لبحره في الفقه المالكي وجامه الناس للفتوى، وله مؤلف جيد في مسائل كتاب الموطأ للإمام مالك، وله إضافات مفيدة وتعليقات علمية جيدة على مدونة سحنون. وكان يعاصره عبد الحق بن محمد القرشى الصقل، لزم حلقات الشيوخ في بلده حق ارتوى منها، ورحل للحج ولقاء الشيوخ والفقهاء الكبار والتقي بأبي ذر المروى شيخ المالكية في هرة وبالقاضى عبد الوهاب المالكى شيخهم في العراق كذا التقى في حجة ثانية بإمام الحرمين الجعوفى وأسئلته عن مسائل أجابه عنها وسجل ذلك في أحد كتبه، وكان يدرس لطلابه في بلرم مدونة سحنون التي جمعت أصول المنصب المالكى، يقول ابن فرحون أيضا عنه: «كان مليح التأليف، ومن مؤلفاته كتابه «النكت والفرق لمسائل المدونة» ويقول ابن فرحون أيضا إنه «عاد إليه بالتبديل والتبدل ورجع عن كثير من اختياراته وتعليلاته» وله كتاب في الفقه المالكى كبير باسم «تهذيب الطالب» وله استدراك على تهذيب المدونة للبراذعى وله كتاب في بسط ألفاظ المدونة، وكان أعماله الفقهية انحصرت في خدمة مدونة سحنون. وحاز شهرة كبيرة في حياته وكان كثير الارتعال، فدرس عليه في القيروان - كما في الصلة لابن بشكوال - ابن الخطاط و محمد بن نعمة الأنسى، ودرس عليه في صقلية من الأندلسين أبو بكر بن الحصار، وهاجر إلى الأندلس من تلامذته الصقليين - ثابت الفقيه الصقل، وتوفى بالاسكندرية سنة ٤٦٦هـ/١٠٢٣م ويبعد أنه رحل عن بلرم مجرد استيلاء روجار الأول ملك النورمان عليها سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م.

## ٤

### الثقافة<sup>(١)</sup> في العهد النورمانى

دخل النورمان صقلية والحركة العلمية بها مزدهرة، وهلهم ما رأوا فيها من حضارة ومدنية إسلاميتين، وشعروا بوضوح أنهم في حاجة، بل في أشد الحاجة إلى أن يجعلوا من سكانها العرب مجلس التلامذة من أسانتهم في الزراعة والصناعة والتجارة وفي الثقافة والعلوم والفنون المختلفة، ودفع روجار الأول ابنه روجار الثانى إلى تعلم العربية وإلى الإكباب على علومها وفنونها، وبالتالي دفع روجار الثانى ابنه غليوم الأول إلى التزود من هذه العلوم والفنون ما وسعه

والقسم الثالث من ورقات عن المضاربة في إفريقيا التونسية، والعلم عند العرب لأندوبييل ترجمة الدكتور عبدالحليم التجار، والعرب في صقلية للدكتور إحسان عباس.

(١) انظر في الثقافة بالمهد النورماني نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي درحة ابن جبير، وخطط المقريزى، والمريدة للصادق الإصبهانى، واتساع السروا للقسطنطيني، وطبقات القراء لابن الجوزى، وابن خلakan، ومقدمة ابن خلدون.

التزود وحث بدوره ابنه غليوم الثاني على استيعابها ما أمكنه، ومحضنا الإدريسي في فواتح كتابه «نرفة المشتاق» عن مدى ما أحرز روجار الثاني من هذه الفنون والعلوم قائلاً: «أما معرفته بالعلوم الرياضيات والعمليات فلا تُدرك بِمَدَدْ، ولا تُخْصَر بِعَدْ، لكونه قد أخذ بكل فن منها بالحظ الأوفر، وضرب فيه بالقذح المعلى» ويقول ابن جبير - كما مرّ بنا - عن غليوم الثاني: «له الأطباء المنجمون، وهو كثير الاعتناء بهم شديد العرض عليهم حتى إنه متى ذُكر له طبيب أو منجم اجتاز بيده أمر بإساكه، وأدْرَل له أرزاق معيشته، حتى يسليه عن وطنه. وأحسن روجار الأول - منذ أول الأمر - بال حاجة إلى ترجمة الكنز العلمية النافعة من العربية إلى اللاتينية، حتى يجوز النورمان لأنفسهم هذه الثروات العلمية، ولم يلبث أن أتاح له ذلك نصراقي يسمى قسطنطين الإفريقي ولد بدميطة قرطاجنة التونسية سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩ م وتفق العربية وأنقذها، واختلف في القبروان إلى أصحاب علوم الأوائل في الطب والرياضيات والفلك، ورحل إلى القاهرة وفيها استكمل معرفته بالعلوم المذكورة، وعاد إلى بيته: قرطاجنة وتركها إلى صقلية في عهد روجار الأول وعرف منه حاجته إلى ترجمة كل ما كتبه العرب عن الطب، فرجع إلى القبروان، وجمع منها أنفس ما كتبه أطباؤها العظام، وعاد إلى روجار الأول يبشره بأنه اصطفى له أفضل وأنفس ما لأطباء القبروان والعرب عامة من كتب طيبة وغير طيبة، فأسس له دير جبل كاسينو بالقرب من مدينة سالرنو في جنوب إيطاليا فتولى رياسته وأخذ يُفرِّي رهبانه بتعلم العربية حق إذا تعلموها أغراهم بترجمة مصنفاتها الرياضية والفلكية والطبية إلى اللاتينية، ودُرس ما ترجموه في كلية سالرنو ومنها نقل إلى الجامعات الأوروبية، وما يدل على ذلك أبلغ الدلالة في المجال الطبي أن نجد فردريك الثاني ملك صقلية وإمبراطور ألمانيا يسن لائحة خاصة لز او لة العمل الطبي في مملكته يفرض فيها على كل طبيب يعمل بها أن يحصل على إجازة الطب من كلية سالرنو، وكان ذلك قبيل عصر النهضة الأوروبية، فكان له تأثير بالغ فيها. ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في القسم الأول من كتابه: «ورقات عن المضاربة العربية في إفريقيا التونسية»: «جدير باللاحظة أن جُلُّ ماترجمه قسطنطين من الكتب العربية إلى اللاتينية أو حاول تقليده والوضع على غراره إنما كان مستمدًا من مصنفات أطباء قبروانين مثل إسحق بن عمران وأحمد بن الجزار، كما أنه اعتمد في الفلك وعلم الهيئة على كتاب البارع في الفلك والنجموم لعل بن أبي الرجال القبرواني». وكل ذلك كان يصعب في صقلية أخت القبروان، ويبعد أنها اشتهرت في الفلك والهندسة بعلماء ومهندسين أقداد، يدل على ذلك - من بعض الوجوه - أننا نجد الخلقة الفاطمية الحاكم بأمر الله ١٣٨٦هـ/١٩٦١م - ١٤١١هـ/١٠٢٠م) حين ينشيء مرصده في القاهرة يرسل إلى صقلية، في طلب حذاقتها في الهندسة والتجييم، ويوافيه أبو محمد عبد الكريم المهندس الصقل، ويتوقف العmad الأصبهاني في القسم الخاص بصقلية ليقول عن هذا الشاعر أو ذاك إنه رياضي أو منجم فلكي أو مهندس

مثل عبد العزيز المعافري وكان من علماء الرياضيات ومثل ابن القرني وكان منجا حاسبا، ومثل محمد بن عيسى الفقيه وكان مهندسا منجا وشاعرا بارعا.

والمعروف أن روجار الثاني ملك صقلية التورمان استدعي الشريف الإدريسي إلى «بلرم» عاصمته، وطلب إليه أن يؤلف له كتابا في الجغرافيا، فالف له كتابه الرائع: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وهو أكمل كتاب جغرافي ألفه العرب، وظل عند الأوروبيين أهم مرجع في علم الجغرافيا إلى القرن السادس عشر، وقد أتى الإدريسي تأليفة سنة ١١٥٠ هـ / ٥٤٥ م وترجمت قطع كثيرة منه إلى مختلف لغات العالم. وطلب منه روجار الثاني خريطة للعالم فنقشها على كرة من الفضة تزن تماحاته أوقية، ورسم عليها جميع الأقاليم التي كانت معروفة لمصرة، وهذا عملان باهران من أعمال المبقرية العربية. وكان حريا بالإدريسي أن يقدمها إلى حاكم عربي في عصره لا حاكم تورمان نهب هو وأبوه صقلية العربية وقد وجه إلى المهدية بالإقليم التونسي استعلا مكونا من ثلاثة سفينة سنة ١١٤٣ هـ / ٥٤٣ م واستول عليها وظل بها أربع عشر عاما حق خلصها عبد المؤمن سلطان الموحدين. وظل الإدريسي في بلرم أيام غليوم الأول ولله ألف كتابا سماه «روض الأننس وزنزة النفس». وقد وضع فيه الإدريسي - كما يقول الدوميل - خرائط أصغر سعة ومقاييس، وخرائطه جيما تقوم على تحديد درجات الطول والعرض، ويقال إنه توفى سنة ١١٦٦ هـ / ٥٦٢ م والمظنون أنه قتل في ثورة للتورمان حينذ على العرب في بلرم.

ويلقانا في المهد التورمان غير عالم لغوى ونحوى، ومن نحاتها لغوييها الذين ظلوا بها ولم يرحموها على بن بشرى اللغوى الصقل ويتقول القسطنطى: «كان في النظم والنشر سابقا لا يبارى، وفي اللغة والإعراب لا يبارى» ومنهم عمر بن حسن اللغوى الصقل يقول القسطنطى: «شيخ في اللغة والنحو طويل الباع فيها، أخذنا ورويا عنه تصدر للإفاده بلرم» ومنهم محمد بن زيد الطرطانى الصقل «أخذ من كل العلوم بالحظ الواقع، متقدم في علم الأوزان والقوافى». ومن بارسوا صقلية - في المهد التورمانى من كبار اللغويين والنحاة على بن عبد الرحمن الصقل العروضى، يقول عنه القسطنطى: «نزل الإسكندرية عالم بعلمي النحو والعروض قيم بها، بلغ فيهما، مشارك في جميع الأنواع الأدبية، متصرد لإفاده الطلاب». ومنهم ابن القطاع على بن جعفر التميمي المولود سنة ١٠٤١ هـ / ٤٣٣ م تلميذ ابن البر، وكان مثل أستاذه عالما لغويَا كبيرا، ومازال بصقلية يدرس ويؤلف لطلابه حتى إذا كانت سنة ٩٥٠ هـ / ١١٠٦ م انتقل إلى مصر فاختنى به أهلها، وتتصدر للتدريس والإفاده إلى أن توفي سنة ١١٢١ هـ / ٥١٥ م ومن تصانيفه كتاب تهذيب أفعال ابن القوطية في اللغة وهو خير من كتاب ابن القوطية وكتاب أبنية الأسماء يقول ابن خلkan جمع فيه فأوعى، وكان كتاب الصاحب للجوهرى بمصر - كما يقول القسطنطى - لا يروى إلا عن طريقه عن ابن البر، وكان له كتاب نفيس في

شعراء صقلية سماه: «الدرة الخطرة في المختار من شعراه المزيره» وف دار الكتب المصرية مختصر له، ونقل عنه المعاد الأصبهانى في المزيره: قسم صقلية طائفه كبيرة من شعرائها البارعين. ومن هؤلاء النازحين عن صقلية في العهد النورمانى على بن ابراهيم التموى الصقل المعرف بابن المعلم، كان مجيداً للفة وال نحو وتصدر للإفادة فيها، بارح صقلية واستوطن مصر إلى أن توفي بها سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٧ م. ومنهم عثمان بن على السُّرقوس الصقل التموى، كان عالماً تعوياً مقرنا للقرآن الكريم، وله حاشية على كتاب الإيضاح لأبي على الفارسي، وكانت له في جامع الفسطاط حلقة للإقراء وانتفع به الناس ونقلوا كلامه وكتبو تصانيفه، وله مختصر كتاب العمدة لابن رشيق زاد به أبواباً أخلى بها مؤلفه وهي واقعة موقعاً جيداً من التصنيف. وحقاً كان النشاط العلمي هؤلاء النحاة واللغويين الصقليين خارج جزيرتهم، ولكن ذكرتهم لأدلة على مدى ما حدث بالحركة العلمية في صقلية من خود وقف ما كان يتمنى لها من ازدهار عظيم بسبب استيلاء النورمان عليها.

وإذا انتقلنا إلى الحركة الدينية وبدأنا بالقراءات القرآنية وجدنا لصقلية إماماً كبيراً من أئمتها هو عبد الرحمن بن عتيق المقرئ المروي المعروف بابن الفحام المولود بسرقوسة سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣٠ م وقد رحل من صقلية إلى مصر سنة ٤٣٨هـ / ١٠٤٦ م في طلب القراءة القرآنية على أئمتها المصريين وظل يأخذها عنهم حتى سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢ م ومن شيوخه فيها ابن نفيس تلميذ عبد المنعم بن غليون شيخ القراءات بمصر، وتلمسن لابن باشاذ وأتم عليه شرح مقدمته المشهورة في التحر، وعاد إلى بلده، ولم يلبث أن نزحها النورمان فبارحوها إلى الإسكندرية واتخذوها موطنًا لهم، وكان من أعلم القراء بالقراءات ووجوهها، ولم يلبث أن أصبح شيخ القراء بالاسكندرية على دراية، وألف فيها كتابه «التجريد في بغية المرید» وبها توفي سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢ م.

وكان كبير من القراء لزيالون يلقون على طلاب صقلية دروساً في التفسير، وبلغاناً في منتصف القرن السادس الهجري مفسر صقل كبير هو ابن ظفر وهو ياجر منها إلى الشام وستترجم له في حديثنا عن التتر الصقل، وتنظر رواية الحديث النبوي ناشطة في المعهد النورمانى، وبلغاناً فيه إمام من أئمتها، هو المأذن محمد بن على بن عمر التميمي المعروف باسم المازرى نسبة إلى مسقط رأسه في مدينة مازر بصفلية، وقد لزم حلقات شيوخها حق اكتمل مرياه العلمي، وهاجر منها إلى الإقليم التونسي، وتولى القضاء في القفروان ثم في المهدية، وبها ألقى عصاه إلى أن توفي سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١ م عن ثلاث وثمانين سنة ودُفن برباط المستister وفيه يقول ابن خلkan هو أحد الأعلام المشار إليهم في حفظ الحديث، ويقول المقرى في أزهار الرياض ناعتاً له: «الإمام المجتهد أبو عبد الله المازرى عمدة النظار، ومحور الأمصار، المشهور

في الآفاق والأقطار حتى عُدَّ في المذهب المالكي إماماً». وله في الحديث النبوى شرح جيد على صحيح مسلم سُمِّيَ كتاب «المعلم بفوائد مسلم» وفيه يقول ابن خلدون في المقدمة: «أما صحيح مسلم فكانت عنابة علماء المغرب به.. وأأمل الإمام المازري من كبار فقهاء المالكية عليه شرحاً سماه المعلم بفوائد مسلم اشتغل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه. وكان العلماء في عصره يتسابقون إلىأخذ الإجازة عنه برواية هذا الشرح وبقية كتبه، ومنهم القاضى عياض الإمام المشهور وقد بنى على شرحه لصحيح مسلم شرحاً سماه «إكمال المعلم بفوائد مسلم». وللمازري بجانب هذا الشرح مصنفات في الفقه المالكى وعلم الأصول، من ذلك شرحه لكتاب التلقين للقاضى المالكى عبد الوهاب ويقال إنه ليس لمالكية كتاب مثل شرح كتاب هذا القاضى وشرح البرهان في الأصول لإمام الحرمين الجويني. وهو بحق بعد خاتمة الفقهاء والمحدثين بصفةٍ.

## الفصل الثالث

### نشاط الشعر والشعراء

١

#### نشاط الشعر

كانت صقلية جنة من جنان العالم الإسلامي بما كانت تحمل فوق حقوقها من رداء القبح النجفي وردايات الكروم والبرتقال ومزارع القطن الزمردية وبساتين التغيل والموز والفواكه والزهور الأرجدة، والخيل الكريمة، ومعادن الذهب والفضة والكريبت والنحاس ومصانع الأقمشة والحرير المركش. لقد كانت حديقة كبيرة في البحر المتوسط لم يحسن الخلقاء الصياديون بعد الدولة الأغلبية القيام عليها فضلاً عما تبعها من شبه جزيرة قلورية في إيطاليا.

وطبيعي أن يتقدّم بهذه الحديقة الفاتحة كغير من الشعراء، وللاحظ أن هذا التقى تأخر نحو قرن فقد تأخر طوال حكم الدولة الأغلبية، إذ كانت في صراع مستمر مع كثير من المدن والمحصون، ومع ذلك مدت ذراعها إلى جنوب إيطاليا واستولت على قلورية. وتستول الدولة العبيدية على مقايد الأمور بإفريقية التونسية وتحمد حركة الفتوح في الجزيرة وكأنما لم تكن تعنيها في قليل ولا كثير، حتى إذا تركت شؤونها السياسية والإدارية إلى ابن أبي المسين الكلبيين أخذت الجزيرة تشعر بهم بشيء من الاستقلال، كما أخذت تشعر بشيء من شخصيتها، وعادت لها الحمسة الإسلامية، وأخذت هذه الدولة تعنى بفتح ما تبقى من البلدان والمحصون في صقلية وفي قلورية.

وتزدهر الحركة الشعرية في صقلية لمهد هذه الدولة، وخير كتاب كنا نعلم منه على هذا الأزدهار لو أنه لم يسقط من يد الزمن هو كتاب «الدرة الخضراء في المختار من شعراء الجزيرة» لابن القطاع على بن جعفر السعدي الذي توفي بصر سنة ٥١٥هـ/١١٢١م، فقد كان يشتمل على مائة وسبعين شاعراً، وكأنه أراد أن ينافس بكلاته كتاب الأندلس لابن رشيق الذي اشتمل على مائة شاعر فحسب، صور بهم الحركة الأدبية في إفريقية التونسية، ولو أن كتاب ابن القطاع وصلنا لاستبانة الحركة الشعرية بصقلية الإسلامية قام الاستبانة إذ قصره على تلك الحركة وحدها، ولم يدخل عليه أحداً من العصر النورمان. وفي المكتبة التيمورية مختصر للكتاب اختيار أبي إسحق بن غالب، قال في مقدمته له إنه ذكر فيه سبعة وستين شاعراً فقط:

ولا يوجد على أي أساس اختيار من أهل وأهل من أهل، والنسخة بها نقص في تضاعيفها وفي آخرها، بحيث لم يبق فيها سوى ٤٣ شاعراً، وحذف ما وضعه ابن القطاع مع الشاعر من مقدمات كانت حريةً أن تفيد الباحثين في دراستهم لشعراء صقلية الإسلامية في عصر الكلبيين. وهناك اختيار ثان لعل بن منجب الصرف المصري المتوفى سنة ٥٤٢ للهجرة من كتاب الدرة الخطيره ضمته تسعه عشر شاعراً، وهو منتشر في عنوان الأربع الطبع بتونس للشيخ الجليل محمد النميري التونسي. وبجانب اختيارات ابن منجب الصيرفي وأبي إسحق بن أغلب من الدرة الخطيره تلقانا اختيارات الع vad الأصبهاني منها في كتابه الخريدة، ويبلغ ما اختاره منها ٤٤ شاعراً بمجموعه في الجزء الأول المنشور وبعدها في نفس الجزء شاعر من الدرة الخطيره من ٣٢٧ طبعة تونس ثم شاعران آخرين من ٣٣٥ وربما كانوا أيضاً من شعراء الدرة. وبدأ الع Vad الحديث عن شعراء الخريدة بشاعر يقول إن أبي الصلت أمية بن أبي الصلت الأندلسي سماه في رسالته المصرية، البُلْوَى أبو الحسن على بن عبدالرحمن بن أبي البشر الكاتب الصقل الأنصاري، ويفيض في ذكر غزلياته، ثم ينقل عن ابن بثرون المهدوي من كتابه المختار من النظم والنثر لأفضل أهل العصر أحد عشر شاعراً كلهم من العصر التورماني، ويضيف إليهم في من ٢٧٣ ترجمة لأبي الضوء سراج بن أحد بن رجاء الكاتب اعتمد فيها على كتاب ابن بثرون فيكون بمجموع ما ساقه عن ابن بثرون انتي عشر شاعراً من العصر التورماني، وبذلك يبلغ من ذكرهم الع Vad في الخريدة من شعراء صقلية نحو ستين شاعراً وإذا حاولنا أن نرصد بينهم أول من له صلة بالولادة الكلبيين لقينا القاسم بن نزار الكلبي يعاتب ابن عمه الأمير أحد بن الحسن بن أبي الحسين الكلبي (٣٥٨-٣٥٩هـ) على جفائه له وهو عتاب فيه مرارة شديدة إذ يقول<sup>(١)</sup>:

إِنِّي مَتِي يَجْفُو الْعَيْبُ      سَبُّ وَصْلَتْ جَفْوَتِهِ بَيْنَ  
وَمَنْعَتْ عَيْنِي أَنْ تَرَا      هُولَوْ رَأَتْهُ فَقَاتْ عَيْنِي  
وَوَضَعَتْهُ دُونَ الْحَسْبَبِ      هَضْ لَوْ أَنَّهُ فِي الْفَرْقَدِينِ  
وَقَطَعَتْهُ لَوْ كَانَ يُشَّ      هَبْ أَحْمَدْ بْنَ أَبِي الْحَسِينِ

وأكبرظن أن الأمير أحد بن الحسن بن أبي الحسين لم يكن نظاً فقد كان قائد أسطول صقلية قبل توليه زمام الأمور بها، وكان يتعامل مع الناس تعاملًا كريباً، ونرى المعز يستقدمه إلى المهدية، ويوليه قيادة أساطيل الدولة، ويولى مكانه أخيه على بن الحسن (٣٥٩ - ٣٧٢هـ)

(١) الخريدة للعاد الأصبهاني (طبع تونس)

ومن مادحيه سهل بن مهران، وُعرف بأنه كان من يطبلون في جيبيون، وولى - بعد عل - صقلية جعفر بن محمد فحسنت به الأحوال واستقامت الأمور إلى أن توفي سنة ٣٧٥ وخلفه أخوه عبد الله ولم تطل مدة إله بعده عامين، وولى بعده ابنه يوسف، وكان عادلاً حسن السيرة فأحبه الناس ولقبه الخليفة الفاطمي بلقب ثقة الدولة وعم الرخاء والأمن في أنحاء الجزيرة وفي عهده وصل حكم الكلبيين فيها إلى القمة المتغرة من المجد والعز، ووفد عليه الشعراء من إفريقية التونسية ومن الجزائر يمدحونه وفي مقدمتهم محمد بن عبدون السوسي الذي ترجمنا له بين شعراء تونس وأطلنا في بيان صلته بشقة الدولة وابنه جعفر، وعلى شاكلته شاعر الجزائر أبو محمد عبد الله بن محمد التوتخي المعروف بابن قاضي ميلة، وله في ثقة الدولة مدحه ضافية، ومن شعراء صقلية الذين دُبِّعوا في المدائح الطوال ابن القرقرى وهاشم بن يونس وهما في الخريدة مدحتان في ثقة الدولة نُوحاً فيها بشجاعته وبأسه، وعلى شاكلتها شعر مشرف بن راشد، وإن لم يسم مذدوحة، ومن شعرائه الحسن بن محمد الطوي، وله مدحه في العز بن باديس، ومنهم محمد بن أحمد أبو عبد الله الصقلبي صاحب ديوان الإنشاء، وله في ثقة الدولة مرتبة استهلها بقوله: (حنانيك ما حنى على الدهر يسلم). وأخذت الولاية الصقلية تتضعضع في عهد ابنه جعفر ثم في عهد أخيه أحد الأكحل، ومن شعرائها المشرف بن راشد وابن الخطاط، وثار عليه الصقليون كما أسلفنا واستقاثوا بالعز بن باديس صاحب القيروان وإفريقية التونسية، ثم عادوا فولوا عليهم صصام الدولة وسرعان ما يثور به الصقليون وتدخل صقلية في عصر أمراء الطوانف، وأصبح لكل أمير شاعر أو شرفاً، فمحمد بن القاسم بن زيد ينحاز إلى على بن نعمة صاحب جرجنت وقصريانة، وعبد الحليم الصقلبي إلى ابن متكوند في مازر وابن الخطاط إلى ابن الشمنة في بلزم، وتلتقي بعد ذلك بالشعراء الذين كانوا صقلية ومدتها حين سقطت في حجر النورمان من أمثال أبي محمد القاسم بن عبد الله التميمي وابن حديس. وحرى هنا أن نتوقف الآن لنتحدث عن شعراء الشعر الصقل موزعين على موضوعاته.

## ٢

## شعراء المدح

ظل المدح يدبُّج في أمراء الأسرة الكلبية طوال حكمها لصقلية، غير أن كتب المختارات لم تعرّض علينا منه إلا شظايا: بيتاً أو بيتين من القصيدة مع عرضها في الفالب لعدمتها من الفرز وغير الفرز، وكانت صقلية قد أخذت تكتظ بالشعراء منذ عصر ثقة الدولة يوسف بن عبد الله الكلبي (٣٧٧-٣٨٨هـ) وجاءه من يمدحونه من الجزائر وإفريقية التونسية كما أسلفنا وكثير من يمدحونه في صقلية نفسها من أبنائها الشعراء مثل أبي الفتح محمد بن الحسين بن القرقرى

الكاتب، وله يعترض به ويما ينال من عطاءيه في التخلص إلى المدح من قصيدة<sup>(١)</sup>:  
 وماذا عليهم أن أجود بالتألدي وأقين طريفي قبل يومي وأتليف<sup>(٢)</sup>  
 لهم ما اقتتوا فليخربوا في آخره ولئك شعر لا يبيه يوسف  
 يوسف هو يوسف بن عبد الله نقة الدولة، وهو يقول لخصوصه الذين يعنونه لتبذيره أمواله  
 إنه لا يخشى شيئاً من هذا التبذير طالما ينظم مدائنه المطلولة في يوسف ويسعى عليه عطاءيه.  
 وأكبر الفتن أن ما ساقه الماد للمشرف بن راشد وهاشم بن يونس من مدحه لقائد بشعاعته  
 إنما يريدان به نقة الدولة، وهي أبيات محددة. ومن شعراء نقة الدولة على بن الحسن الطوسي،  
 وكان يلازم وفراه بعد وفاته يعبر البحر إلى المعز بن باذيس صاحب إفريقية التونسية، وله  
 يقول من مدحه دُمْعَ بِهَا دِوَانَه كَمَا يَقُولُ الْمَادَ<sup>(٣)</sup>:

إِلَيْكَ مُبِيزُ الدِّينِ وَابْنَ نَصِيرِهِ حَلَّتْ عَقُودُ الْمَدحِ بَعْدَ اِتْنِعَاهِهِ  
 وَأَثْوَابَ حِيدَ حَكُتْ أَثْوَابَ وَشِيهَا عَلَى تَقْيَةِ مِنْ يَمْظُرُ شَوَاهِهِ

وكان شعراء في صقلية وإفريقية التونسية كثيراً ما يتبادلون مدحهم، فالشاعر القبرواني  
 يعبر البحر لمدح الوالي أو الأمير الكلبي كما عبره محمد بن عبدون السوسي، والشاعر الصقلاني  
 يجتاز بدوره البحر لمدح الأمير القبرواني أو الأمير المشهور في عصر أمراء الطوائف وبلقانا  
 بأخرة من عصر الكلبيين ابن الحياط، وستنخصه بكلمة، وتلتقي بهذه بمحضر بن الطيب الكلبي،  
 وكان شاعراً مجيداً، وله قصيدة بد菊花 يمدح بها دافع بن رشيد الملالي أمير قابس في آخر عهد  
 أمراء الطوائف، وله يخاطب ناقته فيها<sup>(٤)</sup>:

سَانَزَلَ عَنِيكَ فِي مَرْعَى خَصِيبٍ  
 بِأَرْضِ مُدَافِعِ مَأْوى الْأَمَانِي  
 فَيَحْمِلُ عَنِكَ هَمَّ فَوْقَ طِرْفٍ  
 أَغْرِيَ تَخَالَهُ رِبَحاً أَعْيَرَتْ  
 وَسَاءَ بَارِدَ عَنْبَرَ فُرَاتَ  
 وَقَالَ السَّنَنُ الْمُجَدِّدَاتِ  
 شَهْوَقٌ مِنْ خَمْولِ سَابِقَاتِ<sup>(٥)</sup>  
 قَوَافِلَ مَالَلَجَنِينَ مَحْجُولَاتِ<sup>(٦)</sup>  
 لَقَدْ أَطْمَعْتَ فِي جَنْوَاكَ حَتَّى  
 سَيَّاعَ الْكُفْرِ مِنْ بَعْضِ الْعَفَافِ<sup>(٧)</sup>

وهو يقول لناقته إنه سينزل عنها في مرعى مدح الخصيب حصن الأمان وقتل السنين

(١) المريضة ٩٦٨.

(٢) تالدى: مال القديم. طريف: مال الجديد.

(٣) المريضة ٧٣٨.

(٤) المريضة ١١٣/١.

(٥) طرف: فرس كريم.

(٦) أغرا: له غرة يضم. قوافل مجده: يضم أو  
 بها بعض يضم. اللجين: الغنة.

(٧) جنواك: عطائكه. والصفاة: طلاق المروف.

المجاف المجدبات، فيحمله فوق حchan سبوق أغراً قوانمه محفلة بلجين يخطف الأباء،  
ويقول له لقد أطمعت في كرمك الفياض حتى إن سباع الطير لتلزمك وتلزم جيشك لما تعرف  
من كرمك وفتلك المستمر بالأعداء، حتى لكتها من طلاب التوال.  
ويُطلِّعُ العهد النورماني صقلية، وكان المظنون أن لا يجد الشعراء المسلمين الذين ظلوا  
هناك ملوك النورمان، ويبدو أنهم كانوا يفرضون على الشعراء تعبيدهم، وكانوا يضطرون إليه  
أحياناً لأنهم أسرى في أيديهم ويريدون أن يفكوا عن أقدامهم أغلال الأسر، على نحو ما نجد  
 عند أبي حفص عمر بن حسن النحوي في مدحه لروجار الثاني وهو في قبضة سجنه قصيدة له  
 وفيها يقول<sup>(٤)</sup>:

يَهْرُبُ لِلْجَنْوَى اهْتَزَّ مَهْنَدْ يَهْرُبُ فِي كَفِيهِ يَوْمٌ جَلَادٍ  
وَيَضْيَى فِي الدَّيْجُور ضَوْءُ جَبِينٍ فَخَالَ ضَوْءُ الشَّمْسِ مِنْ حَسَادٍ  
وَأَظْنَاهَا كَانَتْ فَدْيَةً لِتَحْرِيرِهِ وَأَنَّهُ رُدٌّ إِلَيْهِ حَرِيَّتِهِ، وَيَدلُّ عَلَى مَا نَقُولُ مِنْ أَنَّ الشَّعْرَاءَ الْمُسْلِمِينَ  
كَانُوا يَضْطَرُّونَ أَحْيَاً إِلَى مَدِيعِ رُوْجَارِ أَنْ تَجْدِ شَاعِرًا يَسْمَى عَبْدَ الرَّحْمَنَ بْنَ رَمَضَانَ الْمَالَطِيَّ  
إِسْتَفْنَدَ مُعْظَمَ شِعْرِهِ - كَمَا يَقُولُ ابْنُ بَشْرُونَ - فِي مَدِيعِ رُوْجَارِ الْإِفْرَنجِيِّ الْمُسْتَوْلِيِّ عَلَى صَقْلِيَّةِ  
يَسَّالَةِ الْمُوَدَّةِ إِلَى مَدِيَّةِ مَالَطَّةِ، وَلَا يَمْكُثُ مِنْهُ إِلَّا عَلَى الْمَفَالَةِ<sup>(٥)</sup>. غَيْرُ أَنَّا نَجَدُ ثَلَاثَةَ شَعْرَاءَ  
يَشِيدُونَ لِرُوْجَارِ الثَّانِي بِعَصْوَرِهِ - وَفِي قَصْرِهِ: الْقَبَّةُ وَالْمَنْصُورِيَّةُ يَقُولُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ  
الْبَشْرِيِّ<sup>(٦)</sup>:

وَقَصْوَرِ مَنْصُورِيَّةٍ	حَطُّ السَّرْوَرُ بِهَا مَطْلَبٌ
أَعْجَبْ بِمَنْزِلَهَا الَّذِي	قَدْ أَكْمَلَ الرَّحْمَنُ زَيْنَهُ
وَرِبَاطِهِ الْأَنْفِ التَّى	عَادَتْ بِهَا الدُّنْيَا زَهْيَهُ <sup>(٤)</sup>
وَأَسْوَدُ شَانِدَرَوَانِيَّهُ	تَهْبَى مَبَاها كَوْثَرِيَّهُ <sup>(٥)</sup>

وَهُوَ يَقُولُ إِنَّ السَّرْوَرَ أَنَّى عَصَى تَسْيَارَهُ بِهَذِهِ الْقَصْوَرِ بِلْمَالَمَا وَبِنَوِيهِ بِمَكَانِهَا وَمَا حَوْلَهَا مِنْ  
الرِّيَاضِ وَأَزْهَارِهَا الْمُطْرَأَةِ وَحَلْلَهَا الْبَهِيَّةِ، وَمَا بِهَا مِنْ الْأَسْوَدِ الَّتِي تَقْعِدُ الْمَيَاهَ مِنْ أَفْوَاهِهَا فِي  
شَكْلِ بَدِيعٍ وَكَتَنَةٍ تَؤْثِرُ لَهُ أَنْ لَا يَزْرُجْ يَاسِمُ الرَّحْمَنِ وَمِيَاهُ الْكَوْثَرِ نَهْرُ الْجَنَّةِ فِي قَصِيدَتِهِ يَقْدِمُهَا مَلَكُ  
نَصَارَى. وَحِينَ قَدْمُ قَصِيدَتِهِ إِلَى ابْنِ بَشْرُونَ لِيُسْجِلُهَا فِي كِتَابِهِ: «الْمُخْتَارُ مِنَ النَّظَمِ وَالنَّثَرِ  
لِأَفْاضِلِ الْعَصْرِ» سَأَلَهُ أَنْ يَعْارِضَهُ بِقَصِيدَةٍ عَلَى وَزْنِهَا وَرُوْبَهَا فَقَالَ<sup>(٦)</sup>:

- 
- (١) المحردة ٤٥/١ وإناء الرواة ٣٢٨/٤
- (٤) الأنف: الجديدة.
- (٥) الشاندروان: مقام البيت. تهنى: تصب.
- (٦) المحردة: المطية والمهند: السيف.
- (٧) كوثريه: كأنها من مياه نهر الفردوس: الكوثر.
- (٨) المحردة ٢٤/١.
- (٩) المحردة ٢٢/١.

لَهُ مُنْصُرَيْةَ راقِتْ بِهِجْنَهَا الْبَهِيَّةِ  
وَبِقَصْرِهَا الْعُسْنِ الْبَنَا  
وَالشَّكْلِ وَالْفَرْفِ التَّلِيَّةِ  
سُغْزَرُ الْمُعْيُونِ الْكَوْثُرَيَّةِ  
وَقَدْ اكْتَسَتْ جَنَانُهَا مِنْ نَيْتَهَا حَلَّاً بَهِيَّةَ

ويقول العمامي: اقتصرت من القصيدتين على ما أوردته، لأنها في مدح الكفار فما أبنته.  
ونحن بدورنا إنما اقتطعنا بما أنشده من قصيدة الشاعرين، وقصر ثالث هو قصر الفوارزة  
شرقي بلرم، وقد عن روخار الثاني - فيما نظن - ببركة بجواره أمر أن يوضع فيها السمك من  
كل نوع وأن تحف بها الأشجار والأزهار بحيث تصير متنزهاً بيديها وفي الفوارزة ورياضها يقول  
عبد الرحمن بن أبي العباس الأطرابي (١):

فَوَارَةُ الْبَخْرِينِ جَمِيعُ النَّبَىِ  
وَكَانَ أَغْصَانُ الرِّيَاضِ تَطاولُ  
نَارَ عَلَى قُضْبِ الزَّبِرِ جَدِيدٌ تُضَرِّمُ  
وَكَانَمَا الْلَّيْمُونُ صَفَرَةُ عَاشِقٍ  
تَرْتُنُ إِلَى سَمَكِ الْمَيَا وَتَبِيسُ  
نَارَ عَلَى قُضْبِ الزَّبِرِ جَدِيدٌ تُضَرِّمُ  
قَدْ بَاتَ مِنْ أَلْمِ النُّوَى بِتَائِمٍ  
وَالنَّخْلَاتَانِ كِمَاشِقِينَ اسْتَخْلَاصِ  
حَنَّرَ الْعِدَا جَنَانًا مِنْهَا مِنْهُمْ  
صَوْبَ الْحَيَا بِتَوَاصِلٍ لَا يُضَرِّمُ (٢)  
هَنِئَمَا سَرَّ الزَّمَانِ وَنَلَّتَا كُلُّ الْأَسَانِي وَالْحَوَادِثُ نُومٌ

والبحرين يزيد بها بحر البركة وبحر خليج بلرم، وهو يشيد بالبركة وما عليها من أشجار  
تطاولت أغصانها بأزهارها لترسل بسماتها إلى سمك البركة، ويتخيل النارنج ناراً مضرمة على  
قضب زيرجية، والليمون يحيط بها وقد علا وجهه صفرة العشاق، وتسترعى النخلتان  
المغروستان على حافة البركة وكأنما هما بقية للمرب وصحرانهم في الجzerة ويتخلصان  
استخلاصاً لما حصلنا منيما في عنان السماء ولا يستطيع الأعداء الوصول إليه، ويستمر في الدعاء  
لها أن يرعاها المطر بتواصل لا ينقطع أبداً، وأن تظللها المثانة على طول الزمان وكل  
ما تصبوان إليه، وتظل الموادث نائمة عنها لا تتألمها أى نيل. ويبدو أن الشاعر لم يتمدد في  
مدح روخار كما قادى عبد الرحمن البشري وأبن بشرور المهدوى، ولذلك لم يعلق عليه العمامي  
بتتعليق مائل، ونعجب أن لا يستنكف هؤلاء الشعراء المسلمين من مدح ملوك النصارى الذين  
نهبوا منهم الأرض وأحالوها أنهاً من دماء أهلهم، ولكن ربما أبلغتم إلى ذلك ضرورة من أسر  
أو تعذيب أو معاملة سيئة، ولن نستطيع بحال الاعتذار عن الشريف الأدرسي وذهابه إلى

(٢) المها: الغيث. يصرم: يقطع.

(١) المزينة ٢٥/١

روجارت الثاني حين استدعاه وتأليفه له - أو إهدائه إليه - كتابه المشهور في المغرايف الذي مر حديثنا عنه ووضعه له خريطة العالم. ونتوقف قليلاً للحديث عن ابن الخطاط شاعر المدح في زمن الكلبيين.

### ابن<sup>(١)</sup> الخطاط

شاعر من شعراء الكلبيين في عهدهم الأخير، ولا نعرف شيئاً عن شأنه أكثر شعراً صقلية الإسلامية، وترأه يدح من أمرائهم الأكحل اللقب بمؤيد الدولة (٤١٠ - ٤٢٧ هـ) كما يدح أخيه صمّاص الدولة (٤٢٧ - ٤٣١ هـ) وفي مدحهما مما يقول:

كَلَامًا زِينَ أَخْسُوهُ بِهِ كَمَا زَيَّنَ الْفَرْقَدَ الْفَرْقَدُ<sup>(٢)</sup>  
مَنْ تَرَهُ مُنْفِرِدًا مِنْهَا فِي جَلْسٍ قَلَّ هُوَ السَّيْدُ

فها فرقان أو كوكبان لا يتميز أحدهما عن صاحبه وكل منها عليه سيماء السيادة والشرف، وترأه حين شفت صقلية على الأكحل في سنة ٤٢٧ يعزّيه عن شغفهم بمثل قوله:

أَرِيَ كُلُّ شَيْءٍ لِهِ دُولَةٌ لِكُمُ التَّعَاقِبِ فِيهَا عَمَلٌ  
فَلَا تَفْرَحُنَّ وَلَا تَحْزَنُنَّ لَشَيْءٍ إِذَا مَا تَسْاهَى اتَّقْلِ

فالدول لا تظل لأحد، بل تتعاقب كما يتتعاقب الليل والنهار والحاكم العاقل لا يحزن إن عبس له القدر، كما لا يفرح له حين يبتسم، إذ لا شيء من عبوسه ولا من ابتسامه باق، بل الكل إلى زوال. وترأه يتطلع بدموع قائد من قواد الدولة كانت لقبته بلقب انتصار الدولة، ويصور شجاعته وبأسه في المروء منشداً:

وَيَارِبِ يَوْمٍ لَهُ مُتَّسِرٌ إِذَا خَدَتْ نَارَهُ أُوقَدَ<sup>(٣)</sup>  
تَخَافُ بِهِ الرَّجُلُ مِنْ أَخْتَهَا وَلَا تَأْمُنُ الْبَدْءُ فِيهِ الْبَدَا  
تَرَى السَّيْفَ عَرْبَيَانَ مِنْ غَمْطَوٍ وَتَعْسِبَةَ مِنْ دَمَ مُسْفَدَا

فهو سير حرب يوقدنها كلما خدت أو خابت، ويقاد الموقف والفوز يختنان محاربه حق لتخوف الرجل من أختها واليد من شقيقتها لما يأخذ الناس من المول، وترى السيف فتخاله

(١) انظر في أشعار ابن الخطاط شرح صديقه التجيبي التبراني للمختار من شعر بشار، ورابع

(٢) الفرقاد: نجم قريب من القطب الشمالي.

(٣) مسر: موقد.

ترجمة إحسان عباس له في كتابه: العرب في صقلية

عريان من غمده بينما هو مغمد ومغمور من دم الأعداء. ويصور أحد أعدائه وقد أخذه الملح من كل جانب:

حرب يكاد أوارها يتأجّج<sup>(١)</sup>  
متسرقراً ولهمها متاجج  
فكانما هي زبقة متسرّجراً  
في موطن سلب الحليم وقاره

ظن الإمارة ظلة فإذا بها  
مهندات كالعقات ما زها  
لا تستقر العين فوق متنونها  
فكانما هو مستطرأً متوجّع

فهذا الخارج ظن الإمارة ظلة يستظل بها ويستريح عندها فإذا هي نار حرب متاججة. وإذا السيف يلمع عليها ما يشبه اللام بل ما يشبه النار المصفرة، والعين لا تستطيع استقراراً فوق متنونها لأنها زبقة متسرجراً في ساحة حرب سلب الحليم وقاره حتى ليبدو كأنه مستطرأً متوجّع من شدة المول والفزع. وتولى الحكم بعد الأكحل صصاص الدولة لمدة أربع سنوات وضاعت الجزيرة من يده ودخلت في عصر أمراء الطوائف وأخذ ابن الخليط يعزى أمراء بين أبي الحسين الكلبيين بمثل قوله:

لشّلكم أنَّ الجُزِيرَةَ بعْدَكُمْ  
كما قيلَ فِي الْأَمْثَالِ لَحْمَ عَلَى وَضْمٍ<sup>(٢)</sup>  
تَرَكْتُمْ بِقَايَا حَسْنَكُمْ فِي خَلَالِ الْعُمَمِ<sup>(٣)</sup>  
كَمَا ذَبَّلَ النُّسُوارُ فِي خَلَالِ الْعُمَمِ  
وَجُوهَةَ كَانَ اللَّهُ قَالَ لِسَانَهَا  
كَانُوكُمْ فِي الْأَسِرَةِ أَنْجَمُ  
سَعُودٌ وَفِي الْهِيجَا ضَراغِمَ بِهِمْ<sup>(٤)</sup>

فالجزيرة قد تعرّت بعد الكلبيين من يهجتها وأصبحت عارية من حسناها لها على وضم، وإن شعبها لا يزال يكن لكم حبا وكافي به ذيل كما يذيل التوار في أثناء الحمم المتهيبة، ويقول ما أروع وجوه الكلبيين، لقد كان الحياة يتفرق فيها، وكان الحسن يتزوج بالكرم، وكانوا فوق الأسرة والعروش وبأيديهم صوابjan الحكم كأنهم نجوم ساطعة في السلم، وفي الميجهاء أسود لا يائثلاً أسود، ولا نعرف شيئاً عن مولد ابن الخليط ولا عن وفاته، وبينما أنه عاش في عصر أمراء الطوائف حتى زين محمد بن الشمنة حاكماً بدرم، غير أنه لم يلحق عصر روجار وأبنائه، وربما كان قد ترك صقلية إلى القبروان قبل هذا التاريخ.

(١) أوارها: نارها.

(٢) الحمم: الفحم والرماد.

(٣) لحم على وضم: الوضم: ما يوضع عليه اللحم.

(٤) بهم، جمع بهمة: الشجاع.  
مثل للدلالة على أنه لم يهد لها واق.

## شعراء الغزل

هذا هو الموضوع الأساسي لشعر صقلية الإسلامية سواء فيها اختاره لها ابن القطاع أو ابن بثرون المهدوي أو العماد الأصبهاني، وهو موضوع إنسان نجده دائرياً في جميع البيانات الإسلامية، إذ يتفق الشعراء بحبهم للمرأة ويفتقون في هذا التقى بصور مختلفة، لعلها تعبير عن التقى آخر ذكر لهم عهداً أو تقى لهم بوصول أو بوعده، من ذلك قوله أبي الحسن علي بن الحسن بن الطوبي أحد شعراء ثقة الدولة<sup>(١)</sup>:-

والبنير الجونَ غيرَ معناها  
من عرْفها ما به عَرْفناها<sup>(٢)</sup>  
منه دليلاً لكلِّ مَنْ تاماً  
إذ كان دوني مَقْبلاً فاماً  
إلا بأن أشْهَدْ تنايمها

ما أحبُّ السحرَ غيرَ معناها  
إنا جهلنا ديارها فَبَدَا  
كائناً خَلْفَتْ بساحتها  
وأبغط الماء حين تَرْشَفَه  
وما تنايم على قلائدها

وكان ابن الطوبي قد عبر بالعر إلى القبروان في أيام المعز بن باديس فاصطفاه لنفسه، ومررت بنا إحدى مدائحه له، وكان المعز كثيراً ما ينشد البيت الرابع من هذه المقطوعة لرقته وعنوبته وهي جميعها في غاية النعومة والسلامة، حتى تكاد ألفاظها تطير عن الفم طيراًانا لما فلا الجن تتفعه ولا الإنس ويندرف الدموع مدراراً، فذلك نصيبي وحظه في دنياه.

وهذه الصورة الطبيعية من الغزل نصادفها عند غير شاعر صقل، من ذلك قول مستخلص الدولة عبد الرحمن بن الحسن الكلبي مدوخ ابن الحياط<sup>(٤)</sup>:-

قلت يوماً لها - وقد أحْرجْتُنِي -  
أشْتَهِي لسو ملكتُ أمركِ حقَّ  
فيكَ - ثم أعرضتْ - ثم قالتْ  
خُنتُنى في حُبِّي لِمَ أَخْنَها

وهي رقة شعور واضحة، فإنها لم ترتفع منه أن يملك أمرها ويأمر فيها تهراً وينهي، وأين المحب؟ لقد خانه، ولذلك بكت بكاء مرأ، إنه لم يعد عاشقاً بل أصبح سيداً يريد أن يسترقها ويستنبطها. ويقول أبو محمد جعفر بن الطيب الكلبي<sup>(٥)</sup>:-

(١) المزينة ٧٤/١.

(٢) المزينة ١١٤/١.

(٤) المزينة ٨٥/١.

(٥) المزينة: شذاتها العطر.

(٣) عرفها: شذاتها وعطرها.

فارتفنكم لا عن قيل وتركم  
وفقدتكم من ناظرى فوجدتكم  
- لما أردت لقاءكم - في خاطري

فقد فارق صاحبته لا عن بغض ولكن نزولا على حكم الزمان الظالم، وفتقتها من ناظره  
وأمام عينيه ووجودها بطلعتها السنبلة في خاطره، وهي فكرة رقيقة ودقيقة. ويقول الفقيه  
عبد الرحمن بن أبي بكر السرقوسي<sup>(١)</sup>:

عليه من الواشين والرقباء  
فيستعنى من ذاك فَرْطُ حِيَانِي  
علمه ولو أني أسوت بـدانِي  
أسارقه اللحظ المفْحَفَةُ مخافَةُ  
وأجهد أن أشكوا إليه صبائِي  
سأكتم ما ألقاه من حُرَقَ الأَسْيِ

فهو يسارق صاحبته اللحظ خشية أن يتتبّعه بعض الواشين والرقباء، ويجهد في أن يشكوا  
إليها صبائته فرط حيائه، وسيظل يكتم ما ينتظري عليه قلبه من حرق الأسيا ولوعاته  
مؤذناً أن يوت بـدانِه. ومثل هذه القطعة اليابسة قطعة لابن المياط يقول فيها.

ليس إلا تنفس الصعداء  
وبـكانِي وما غناه بـكانِي  
من رسول إلى السماء يؤدي  
لى كتابا إلى هلال السماء  
كيف يرْقَى إلى السماء كيْفَ  
عجز الإنسان أن شوقى إليها  
نفس الجن أن تكون شفانِي  
أم ترى الجن تُقْنَى شُهْبُ الرِّجْمِ فـدعنى كذا أسوت بـدانِي

وصاحبته في السماء فكيف يرقى إليها في الماء جسم كيف لا ينـسان فيـفكـر فيـالـجنـ، غيرـ أنـ  
الـجـنـ حـرـمـ عـلـيـهـ الصـعـودـ فـالـسـمـاءـ، وـشـهـبـ الرـجـمـ طـاـلـ بـالـرـصـادـ وـسـتـلـقـاـهـ بـالـمـوتـ الزـوـامـ، وـيـأسـ  
فـلـاـ الجـنـ تـنـفـعـهـ وـلـاـ إـنـسـ وـيـنـدـرـ الـمـوـعـ مـدـارـاـ، فـذـلـكـ تـصـيـهـ وـحـظـهـ فـيـ دـنـيـاهـ.

وإذا تحولنا إلى العهد النورمانى لقينا عبد الحليم بن عبد الواحد السوسى الأصل  
الإفريقي المنشأ الصقل الدار، وهو من سكان مدينة بِلْزم، وله مقطوع عنان غزيليان طريفنان،  
يقول في أولها<sup>(٢)</sup>:

قالت لأـتـرـابـ لهاـ يـشـفـنـ لـىـ  
قوـلـ اـمـرـىـهـ يـُـزـهـىـ عـلـىـ أـتـرـابـهـ  
لـأـوـاصـلـنـ عـذـابـهـ بـعـذـابـهـ  
وـحـيـاءـ حاجـتـهـ إـلـىـ وـقـرـهـ

ولامتنْ جُنونَةَ طَمَ الْكَرَى  
وَلِأَسْرِجُونَ دَمَوْعَهُ بَشَارَاهِ<sup>(١)</sup>  
نَفَرَا، وَكَانَ جِيَانَتِي أَوْلَى بِهِ  
لَمْ يَحْ بِاسْمِي بَعْدَ مَا كَتَمَ الْهَوَى

وَهِيَ تَعْلَمُ مَدِيْ حِبِّهِ لَهَا وَشَفَقَهُ بِهَا، وَكَانَ يَكْتُمُ حِبِّهِ وَلَا يَصْرُحُ بِاَسْمَهَا، فَلِمَا صَرَحَ بِهِ وَدَأَعَلَ  
حِبِّهِ لَهَا غَضِبَتْ عَنْهُ شَدِيدًا وَصَمِتَتْ عَلَى الانتِقامِ مِنْهُ أَشَدَّ الانتِقامِ، إِذْ سَتَواْصِلُ عَذَابَهُ بَعْدَ اَبَاهِ  
وَسَتَمِنَهُ النَّوْمُ وَتَزَجَّ دَمَوْعَهُ بِأَيْ شَرَابٍ يَشْرَبُهُ، حَتَّى تَأْخُذَ بَثَارَاهَا مِنْ بَوْحِهِ بِاسْمَهَا بَعْدَ كِتَمَاهِ  
نَهَراً، وَكَانَ أَوْلَى أَنْ لَا يَصْرُحَ بِهِ أَبَدًا. وَيَقُولُ فِي الْأَخْرَى<sup>(٢)</sup> :

شَكُوتُ فَقَاتَتْ كُلَّ هَذَا تَبَرُّمًا  
بِحُبِّي أَرَاحَ اللَّهُ قَلْبَكَ مِنْ حُبِّي  
صَبَرَتْ وَمَا هَذَا بِفَعْلِ شَعِيْرِ الْقَلْبِ  
رِضَاها فَتَنَتَّدُ التَّبَاعِدُ مِنْ ذَنْبِي  
وَتَعْرُجُ مِنْ بَعْدِي وَتَفَرُّ مِنْ قَرْبِي<sup>(٣)</sup>  
فَشَكُوكَيِّ تُؤْذِنُهَا وَصَبَرَيِّ يَسْوَهَا  
فِيَا قَوْمٌ هَلْ مِنْ حِيلَةٍ تَعْلَمُونَهَا

وَهُوَ لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَرْضِي صَاحِبَتَهُ، فَإِنَّهُ إِذَا شَكَاهَا عَنْتَ ذَلِكَ تَبَرُّمًا وَدَعَتْ لَهُ أَنْ  
يَرْبِعَهُ أَقْهَهُ مِنْ حِبِّهِ، وَإِذَا كَتَمَ شَكُوكَاهَا وَحِبَّهُ قَالَتْ لَهُ: مَا أَشَدَّ صَبَرَكَ وَلَيْسَ هَذَا مِنْ دِيَنَ الْمُحَبِّ  
الْعَاشِقِ. وَيَقُولُ إِنَّهُ يَدْنُو فَتَقْصِيهِ، فَيَبْعَدُ آمْلًا فِي رِضَاهَا، فَتَنَدَّ بَعْدَهُ أَوْ تَبَاعِدُهُ مِنْ ذَنْبِهِ عَنْهُ،  
وَهُوَ حَاطِرٌ فَشُكُوكَاهَا تُؤْذِنُهَا وَصَبَرَهُ يَسْوَهَا، وَيَوْلِهَا بَعْدَهُ وَتَفَرُّ مِنْ قَرْبِهِ، وَيَسْأَلُ مِنْ حَوْلَهُ هُلْ مِنْ  
حِيلَةٍ لَهُ فِي إِرْضَانَهَا وَيَدْعُو لِمَنْ دَلَّهُ عَلَى حِيلَةٍ أَنْ يَنْتَلِ جَزَاءَهُ مِنْ رَبِّهِ. وَلَهُ بَيْتٌ بَدِيعُهُنَّ يَصُورُ  
فِيهَا حَالَ صَفْلَةٍ وَقَدْ نَهَكَهَا حَرُوبُ التُّورَمَانِ<sup>(٤)</sup> :

عَشَقْتُ حِيلَةَ يَافِيَا  
وَكَانَتْ كَبِيعُنَّ جَنَانَ الْخَلُودِ  
فَسَا قُدْرَ السَّوْصِلُ حَتَّى اكْتَهَلَ  
وَصَارَتْ جَهَنَّمُ ذَاتَ الْوَقُودِ

فَصَقْلَيْةَ الْجَنَّةِ الْبَدِيعَةِ بِقَصْرَوْرَهَا وَحَقْوَرَهَا وَزَرْوَعَهَا وَثَمَارَهَا وَأَزْهَارَهَا الزَّاهِيَةِ أَصْبَحَتْ فِي عَهْدِ  
الْتُّورَمَانِ بِحَرُوبِهِمْ وَفَتَكَهُمْ بِرَجَالِهَا وَشَبَابِهَا جَهَنَّمُ الْمُتَقْدَةُ الْمُشَتَّلَةُ الَّتِي تَلَتَّهُمْ كُلُّ سَكَانِهَا.  
وَلِمُحَمَّدِ بْنِ عَمِيْسِ بْنِ عَبْدِ النَّعْمَ منْ غَزِيلَةِ رَائِعَةِ كَانَ يَقْنُنُ بِهَا هَنَاكَ<sup>(٥)</sup> :

سَوْلَى يَانَسُورَ قَلْبِي  
وَنَسُورَ كُلِّ الْقُلُوبِ  
أَمَا تَرَى مَا بِجَسْمِي  
مِنْ رِقَّةٍ وَشُحُوبٍ

(٤) المِرْيَةُ: النَّوْمُ.

(٥) المِرْيَةُ: الْمَرْيَةُ.

(٦) الْكَرَى: الْمَرْيَةُ.

(٧) المِرْيَةُ: تَضَيْقُ.

فِلْم بَخْلَتْ بُوْصَلْ  
وَمَا لِسُقْمِي شَفَة  
وَلَا لَهْ مِنْ طَبِيبْ  
لَدَائِي دَوَّاه  
وَلِمِنْ لِي مِنْ ذَنْبَوبْ  
إِلَّا وَصَالْ الْحَبِيبْ

والقطمة جديرة بأن يقف بها، لخفتها في السمع وعذوبتها وتعبرها عن الحب الذي أضناه ببساطة، وفيم هذا البخل بالوصل، وليس له من ذنب، والبيتان الأخيران في غاية الرشاقة مع النعومة ومع الحلاوة في السمع التي تنشئ في كل الأبيات. ونتوقف قليلاً للحديث عن الشاعر البلتوني وغزلاته.

البلّوني<sup>(١)</sup>

هو أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أبي البشر الأنباري، ولد بمدينة بلنوبه Villanova في صقلية، فنسب إليها، وعل شاكلاه لداته اختلف إلى الكتاب لحفظ القرآن الكريم، ولزم الشيخ حق تلق ما عندهم في اللغة وال نحو، وهاجر إلى مصر وعن فيها بتدريس المروض والنحو في كتبها المشهورة حق توفى سنة ٤٤٢ للهجرة ويبدو أن ملكته الشعرية تفتحت بصفة مبكرة ونشر رثياته قطعة من شعره باسم ديوان البلنوب، وافتتح العmad ترجم الشعرا في صقلية بترجمته، وبها مختارات كثيرة من غزلياته، وهو في غزله يصور ما يتسم به الفزل عند شعرا صقلية من التجاوز عن الفزل المادي المحس وما يتصل به من وصف الجسم إلى الفزل المعنوي وما يتصل به من رقة المحس والشكوى من عذاب الحب والسرور وبعد الحبيب وهجره وما يعبر ذلك على المحب من الصفا والنحول والسلق الذي لا شفاء منه، ومن طريف غزله:

إِلَمْكِ أَشْكُو عَيْنُونَا أَنْتِ قَلْتِ هَا  
وَمَا تَرَكْتِ عَلَّوْا لِعِلْمِتِ بِهِ  
فَلَيْلَ رَضِبْتِ بِأَنْ أَقِلِي الْمَسَامِ فِي

فهي التي أمرت عيونه أن تظل تنظر الدمع شوقاً إلى لقائها، حتى فضحته بين جلاسه من صديق وعلو فالكل يرق له من قلبه المتألم في القسوة، وهو بذلك راض أن يظل مستجبيها لها ويظل الندم يترافق في عيونه، حتى لو رضيت بأن يموت في سبيلها، فسيقبل الموت بنتهي

ونشر روزنیانو دیوانه بالقاهرة سنة ١٩٦٨.

(١) انظر في المنشوي إنياه الرواة ٢٩٠/٢

والجريدة للعماد الأسمهاني ١٥ والعرب في صقلية

الرضا. ويقول :

نازح لم يَذْعُ لعيني هُجُودا  
كان يومي به من الدهر عِيدا  
لُقْتَنِي الْوَشَاءُ فِيكَ الْجُهُودَا  
أترانى أحيا إلى أن يعودا  
كيف أرجو الحياة بعد حبيب  
أشتهي أن أبوح باسمك لكن

وهو يظن أنه لن يحيا حتى يعود حبيبه لطول سعاده وما يعاني منه، حتى ليتصور أنه ميت لا محالة، فقد ذهبت أيام لقائه به التي كان يعدها أعياداً، وإنه ليشتئي أن يبوح باسمه أو اسمها ولكنه يخاف الوشاية، وكأنما علموه الجحود ونكران العجب. ويقول :

لَدِيكِ يُنْسَاجِيكَ مُسْتَعْطِفَا  
إِلَيْكِ مَحَا نَفْمَهُ أَخْرُفَا  
مَنْتُ جُفُونِي أَنْ تَلْبِفَا<sup>(١)</sup>  
أَمَا تَعْلِيقِنَّ عَلَى خَاضِمٍ  
إِذَا كَتَبْتَ يَدَهُ أَخْرُفَا  
وَلَوْ كُنْتَ أَمْلَكَ غَرْبَ السَّمَوَعِ

وهو يشكو لصاحبه حبه متذلاً مستعطفاً، ويقول إنه كلما كتب لها سطراً في رسالة محت الموع سطراً سابقاً له، ولو كان يملك مصدر دموعه لمنع جفونه أن تزرف الدموع مدراراً، وصورة السطر الذي يكتب والسطر الذي تمحوه دموعه في الرسالة بدبيعة. ويقول :

هَجْرَتِكِ يَا سُولَ نَفْسِي وَلِ  
فَوَادَ مَنْ تُذَكَّرِي يَخْفِقِ  
وَمَا ذَاكَ مِنِ اطْرَاحُ الْمُلُولِ  
وَلَكِنَّهُ نَظَرُ الْمَثْنَفِ  
كَمَا تَسْرِكِينَ بَرُودَ الشَّرَا<sup>(٢)</sup>

وهو يقول إنه هجر سول نفسه حب قلبه لا ملاً ولكن إشقاها عليها أشد الإشقاقي، كما ترك وهي شاعرة بحرقة العطش كوباً من الماء البارد الذي يطفىء غلة ظمنها خوفاً من أن تشرق بها وتقص غصة مؤذية شديدة. وكان يدرس المروض لطلابه، فرأى أن ينظم لهم مقاطعة غزلية ثلاثة الشطور، والشطر الأول فيها من بجزوه الخفيف والثانى من بجزوه الرمل والثالث من بجزوه العجت بحيث إذا ضم شطر إلى أخيه أو إلى أخيه نتج وزن جديد، وهي تجري على هذه الناكلة<sup>(٤)</sup> :

وَغَرَالِي مَشْنَفٌ<sup>(٢)</sup> قَدْ رَنَى لِي بَعْدَ بَعْدِي  
لَا رَأَى مَا لَقِيَتْ

(٢) مشنف: متخذ قرطا.

(١) تزرف: تسيل.

مثل روض مفوف<sup>(١)</sup> لا أبال وهو عندي  
في حبه إذ ضفتُ

وهي غزليه للتدرس، وإن شكا فيها بعد المحبوبة وخفاتها وامتناعها، ومن هذا الباب عنده مقطوعات يجمع فيها حروف المعجم أوليافز فيها. وفي الحق أنه يصور الفزل الصقل المعنوي تصويراً بديعاً بما نجد عنده من الصيابة واللهمه على لقاء المحبوبة وكثرة الشجني لمجرها والحزن حتى ليقاد يوم المحب في إنر محبوبته ضنا وسقما وبكاء متصل.

## ٤

## شعراء الغنر

من موضوعات الشعر العربي القديمة الغنر، وكان كثيراً جداً في الجاهلية، لأن القوم كانوا يقتلون، وكان الشعراء من ورائهم يحمسونهم في القتال، وكان من المقتلين أنفسهم شجعان ينددون عن القبيلة ويقتلون بشجاعتهم ومتاز قبائلهم، فكثر شعر الغنر والمحاسنة حينئذ وكان المظنو، والسيوف في صقلية ذاتاً مشرعة وقلما توضع في أغصادها أن يكون شعر الغنر والمحاسنة فيها كثيراً، غير أن ماروا منه قليل، وقد يرجع ذلك إلى ابن القطاع الصقل وابن بشرون المدوى، فإنهما لم يرويا منه إلا القليل وخاصة ابن بشرون فإنه كاد أن لا يروى منه شيئاً في المهد التورماني، وقد يكون ذلك راجعاً إلى أن العرب كانوا مهزومين، فنغم الغنر وفهم المحاسنة، أما في المهد السابق لذلك فإن نفسيتهم كانت قوية، ونجد ابن القطاع يسوق لهم غنراً ومحاسنة من حين إلى آخر، من ذلك قول أبي عبد الله محمد بن علي بن الصباغ الكاتب<sup>(٢)</sup>:

قومي الذين إذا سنابك أنشأت  
دون السحاب سحاباً من عثير<sup>(٣)</sup>  
برقت صوارهم وأمطرت الطلى  
علقاً كترثار العبا المتغبر<sup>(٤)</sup>  
والواترين فلا يُقاد وتبهرهم<sup>(٥)</sup>  
والمانعين جماهم أن يُسرّع<sup>(٦)</sup>  
والعاسمين لتكل داء يتعسرى

فقومه حين يشتد وطيس المرب وتنشيء سنابك الخيل سحاباً من غبارها تبرق

(٤) علقاً: دما غليظاً. ترثار العبا غزير الفتث.

الطل: الأعنان.

(٥) الواترين: القاتلين لا يقاد وتبهرهم: لا تؤدي

دبة قتيلهم.

(١) مفوف هنا: جبل.

(٢) المريدة ٨٤١.

(٣) السنابك جمع سنابك: طرف المافر. عثير:

غبار.

سيوفهم وتعطر أنفاس الأعداء سبولا من دم متفجر أهوار، وإنهم لبيرون أعدامهم ويفتكون بهم دون أن يُطلب منهم - ليأسهم - وتر أوثار، وطالما فتكوا بأقفال حير وفرسان قيسر، وقد اشتهروا بأنهم المانعون حاهم فلا تستطيع قبيلة أن تقترب منه وترعاه، وإنهم ليحسرون كل شر ويقضون عليه قضاء مبرما. وسنشخص معاصره أبي الحسن على بن الحسن بن الطوبي بكلمة. ويقول أبو علي أحد بن محمد بن القاف الكاتب<sup>(١)</sup>:

سأكرم نفسي جاهدا وأصوتها  
وإن فرحت من ناظرٍ جفوتها  
ولست بزورٍ لمن لا يزورنِ  
ولا طارحاً نفسى عمل من يهينها

فهو سيكرم نفسه إلى أقصى حد ويصونها عن أن تتعرض لإهانة منها كلفه ذلك من الشهاد ولن يزور من لا يزوره إكراها لنفسه أن تسها إهانة بأى صورة من الصور. ويقول الفقيه المحدث أبو محمد عمار بن النحور الكلبي وكان من أفضل العلماء وسادات الأمراء<sup>(٢)</sup>:

وما أبصرت مثلك من يمانٍ  
لقد رأيت رجال نجدة  
كأنك من رذاما في أمانٍ<sup>(٣)</sup>  
ألفت وقائسَ الغمرات حتى  
إلى كم ذا المجموع على المنايا  
وكم هذا التصرُّض للطمانٍ  
نقتل لها: سمعت بكلمٍ جمانٍ  
ولم أسمع بكلمٍ شيءٍ

وهي ترقمه فوق رجال نجد واليمن جميعا، فليس مثله بينهم شجاع، وتقول إنه ألف وقائع الحرب حتى كأنه من موتها في أمان، بل إنه ليهجم على الموت هجوما ضاريا متعرضا للطعان غير جزع ولا وجل، ورد عليها قائلنا إنه سمع بكل شيء إلا أنه لم يسمع بكلم يانى جبان. وتنقف عند ابن الطوبي قليلا.

### أبو الحسن<sup>(٤)</sup> الطوبي

هو أبو الحسن على بن الحسن بن الطوبي الذي تقدم ذكره في المدح والنيل، وفيه يقول العماد الأصبهاني نقلا عن ابن القطاع: «إمام البلقاء وزمام الشعراء مؤلف دفاتر، ومصنف جواهر، ومقلد دواوين، ومعتمد سلاطين» يقول في قصيده التي مدح بها المعز بن ياديس ومر ذكرها:

الردى: الملاك.

(١) المجريدة ٨٧/١

(٤) انظر في أبي الحسن الطوبي المجريدة ٦٠١/١.

(٢) المجريدة ٧٢/١

(٣) الغمرات: الشدائدين ويريد شدائدين المروب.

وإما المني أو فالشنطة إنها  
حياة لبيب لم يصل من ليابا  
وهل نعمة إلا ببؤس وإنما  
فاما تحقق المني والمصروف عليها وإنما الموت الزمام، وهل نعمة إلا مصهوبة ببؤس وشقاء،  
إنما عنونة دنيا المرء عند عذابها  
الثالثة:

أعددت للدهر إن أردت حوادثه  
وصارما تخطى العين هرثة  
وذايلاً تتوضح العلبا ذباته  
عزمًا يُحل عليه كل حاءً قدما  
كأنما ارتاع من حديته فارتعدا  
كأنها نجم سعد لاح منفردا<sup>(١)</sup>  
إلا كما عرضت للنفي فاطردا<sup>(٢)</sup>

وهو يقول إنه أعد للدهر حين تنزل به حوادثه عزمًا يحل كل شدائده، وسيقا قاطعاً تتخطى  
هزته العيون، وكأنما أخذته وجل من حديته القاطعين فارتعد، وربما يوضع العلياء هذه القاطع  
وكأنه نجم سعد يكتب له دانيا النصر والظفر، ودرعاً تشبه طياتها موجات مياه القدر حين  
تركتها الرياح ويقول.

سل الليل عنى هل أنا إذا سجى  
على أنني جلد إذا ضر مُنى  
وهل مل جنبي مضجعي ومكاني  
صبور على مانابي وعرانى

وهو يقول لصاحبه: سل الليل عنى فلاني دانيا يقظ، ودانيا يغفو جنبي المضجع والمكان، وإنني  
بلبل أحتمل كل ضر ميسن، صبور على كل ما يتبين، أحتمل من ذلك ما يطاق وما لا يطاق،  
حق يأتى أقه بالفرج.

## ٥

## شعراء الوصف

الشاعر العربي - من قديم - يصف كل ما حوله من الإنسان وغير الإنسان من  
المحيوانات والنباتات والأزهار، وقد مر بما في المديح وصف قصور روجار: القبة والمنصورية  
والغوارة عند البشيري والطرايتشي وما حف بالأولين من بركة وبها جيما من رياض،  
ولأبي الحسن بن الطوبى في وصف التريا<sup>(٣)</sup>:

(١) ذابلا: ربما. ذباته: حده القاطع.

(٢) نترة هنا: درعا. النهى: الغدير.

(٣) المريدة ٤٠/١

انظر إلى الأفق كيف بهجته  
وللشريا عليه تنكته  
كأنها وهي فيه طالمة  
قبيص وشى وتلك عروتها

فالسماء بنجومها كأنها قبيص وهي بديع والثريا عروتها المضيئة الجميلة، وستشخص أخاه  
أبا عبد الله بن الطوبى بكلمة لاكتاره من الأوصاف والتшибيات فى الطبيعة وغير الطبيعة.  
ويقول مشرف بن راشد<sup>(١)</sup> :

وروضة بالحزن مسطورة  
لم تنتهيها أغين الناس  
بكى عليها الغيث فاستضخت  
عن نرجس غض وعن آس

وكان يكثر من استخدام الطباقي كما في البيت الثانى، وجعل الروضة تضحك أو تبسم عن  
نرجس غض وعن آس، ويقول ابن متكوند صاحب مازر في عهد أمراء الطوانف واصفا  
الليلوفر<sup>(٢)</sup> :

كسوس من يساقية  
تفتح عن دنائير  
ولى جنباتها زهر  
كآلية المصافير

والليلوفر هو اللوتون عند المصريين القدماء وال بشين عند أهل الريف المصرى، وحين تفتح  
تندلى من جنباتها أزهار - كما يقول ابن متكوند - مثل ألسنة العصافير. ويقول ابن القطاع في  
وصف رمانة<sup>(٣)</sup> :

كأنها حُكة من عَسْجِدِ ملئت من السواقية تُشَرِّا غير منظوم

وهي صورة بد菊花، ويفتح ابن القطاع صحفا غير قليلة لمدح المفنين والفنانات والراقصين  
والراقصات وذمهم، من ذلك ذم اليلنوبى لغن في قوله<sup>(٤)</sup> :

ولنا مفنُ لا يزا ل يغينا ما يفعل  
غنى ثقيلاً أولاً وهو التقليل الأول

والتقيل الأول نغمة موسيقية معروفة عند العرب، وهي مكررة مئات المرات في كتاب  
الأغانى واستغلها اليلنوبى في هجاء هذا المفن، والتورية واضحة ونراه يمدح راقصة من راقصات  
صقلية قائلا<sup>(٥)</sup> :

(٤) المحردة ١٣/١.

(٥) المحردة ٧٦.

(١) المحردة ٩٣/١.

(٢) المحردة ١٠٣/١.

(٣) المحردة ٥٣/١.

هيفاء إن رقصت في مجلسِ رقصتْ  
قلوبُ مَنْ حولها من جذتها طربا  
خفيفةُ الوطَّه لسو جالت يخبطوها  
فالفلوب ترقص مع رقصها، وهي خفيفة الرطه للأرض في رقصاتها حتى لو جالت بخطوها  
الخفيفة في جفن أرمد يحس بها فحسب، بل أيضاً أزالـت عنه ما يشكـو من وصب الرمد -  
ويقول أبو هكر محمد بن عـلـيـ الـكـمـونـيـ في وصف راقص<sup>(١)</sup> :

ما إن رأيت كراقصِ  
مستظرفٍ في كل فنِ  
يمكى الغناة برقمهِ  
كمراقصِ يمحى المفقِ  
دُ في نهاية كل حُنْنِ  
رجلـهـ مزمـارـ وـعـوـ  
 فهو السرور لـكـلـ آـنـِ

وتدل المقطوعة دلالة قاطمة على أن الغناه كان قد ارتقى في مصاحبة الرقص فنوناً من  
الرقي، حق ليقول ابن الكمون عن هذا الراقص أن رجلـهـ كانتـا مـزـمـارـاـ لهـ وـعـودـاـ فهوـ يـوـقـعـ  
على ضربـاتـهاـ غـنـامـهـ وـيـلـحـنـهـ تـلـحـيـنـاـ دقـيقـاـ، فهوـ سـرـورـ بـرـقـصـهـ لـكـلـ عـيـنـ، وهوـ نـهـيـمـ بـغـنـانـهـ لـكـلـ  
آنـ. وـنـتوـقـفـ لـتـحـدـثـ عـنـ أـبـيـ عـبـدـ اـقـهـ بـنـ الطـوـبـيـ وـبرـاعـتـهـ فـيـ الـوـصـفـ.

### أبو عبد الله<sup>(٢)</sup> بن الطوب

هو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن الطوبـيـ، كان صاحب ديوان الإنشاء في عهد نـقـةـ الـدـوـلـةـ  
وـأـبـانـاهـ - كـماـ يـقـولـ العـمـادـ - وـمـنـ ذـوـيـ الـفـضـائـلـ الـبـلـقـاءـ، طـبـيـباـ، مـتـرـسـلاـ، شـاعـرـاـ. وـيـقـولـ  
الـقـطـطـيـ: «مـقـيمـ بـصـقـلـيـةـ يـتـولـ الإـنـشـاءـ نـحـوـ أـرـبـيـ فـيـ النـحـوـ عـلـىـ نـفـطـوـيـ وـقـيـ الـطـبـ عـلـىـ اـبـنـ  
مـاـ سـوـيـ، وـكـلـامـهـ فـيـ نـهـاـيـةـ الـفـصـاحـةـ وـشـعـرـهـ فـيـ غـایـةـ الـمـلاـحةـ وـلـهـ مـقـامـاتـ تـزـرـىـ بـقـامـاتـ الـبـدـيعـ  
وـإـخـرـاـنـيـاتـ كـأـنـاـ زـهـرـ الـرـبـيعـ، كـانـ بـصـقـلـيـةـ سـنـةـ خـمـسـينـ وـأـرـبـعـانـةـ وـأـطـنـهـ عـاـشـ بـعـدـ ذـلـكـ مـدـةـ،  
وـأـورـدـ اـبـنـ الـقـطـاعـ مـنـ نـظـمـهـ كـلـ مـلـيـعـ الـمـوـكـ، صـحـيـعـ السـبـكـ، فـمـنـ ذـلـكـ قـوـلـهـ فـيـ نـرـجـسـ:

أـرـيدـ لـأـشـفـيـ سـقـمـ قـلـبـيـ بـنـرـجـسـ فـيـذـبـلـ إـنـ صـافـعـتـهـ بـتـفـسـيـ  
لـهـ مـقـلـةـ كـالـتـبـرـ، وـالـجـفـنـ فـضـةـ وـقـدـ كـفـنـ الـبـاـيـ فـيـ نـوـبـ سـنـسـ.

ويـدـلـ العـمـادـ عـلـىـ بـرـاعـتـهـ فـيـ هـذـاـ الـوـصـفـ لـلـنـرـجـسـ بـأـنـ فـيـهـ بـأـرـبـعـ تـشـبـيـهـاتـ، كـماـ يـتـضـعـ فـيـ

(١) المـرـيـدـةـ ١٠٤/١ وـأـتـيـاهـ الرـوـاهـ لـلـقـطـطـيـ

.٥٨٩ـ الـمـكـبـةـ الصـقـلـيـةـ

(٢) انـظـرـ فـيـ تـرـجـمـةـ أـبـيـ عـبـدـ اـقـهـ بـنـ الطـوـبـ

البيت الثاني، وهي تشبيهات دقيقة. ويقول في نار فحم والشرار يتطاير من حولها:

ونَارٌ فَحْمٌ ذِي مُنْظَرٍ عَجَبٌ      يُطْرَدُ عَنِ الْشَّرَارِ بِاللَّهِ  
كَأْنَاهُ النَّارُ مَبْرَدٌ جَعَلَتْ      تَبَرَّدُ مِنْهُ بُرَادَةً النَّهَبِ

فلهُب النار يطرد الشرار من حولها، كأنما النار مبرد يبرد من الفحم برادة ذهبية، وقد راعى النظير في البيت الثاني، فالنار مبرد وهي تبرد من الفحم برادة الذهب، ويقول في مدح مفن:

إِذَا غَنِيَ يُزَيِّلُ الْهَمُّ عَنَّا      وَسَأَلْنَا بِمَا تَهَوَّهُ مِنْهُ  
لَهُ وَتَرَرُّ يَطَّالِبُ كُلُّ هَمٌ      يَوْنِيْرُ فَالْمَسْوُمُ تَفَرُّ عَنْهُ

فهو مفن حاذق يعرف ما تهواه النفوس ويعرضه على سامعيه، وكأنما لعوده وتر يطالب كل هم في نفوس الناس بوتره أو ثأره، فالمسموم تفر عنده مطلقة إلى غير مآب. ويدم في مقابل هذا المفني مفني آخر بن من برد غناهم يجعلون الصيف شتاء ومحولون الأعراس مأت، وفي أحدهم يقول، وهو أخف ما قال:

لَنَا مَغْنِيْرٌ غَنَاءً      يَعُودُ شَرًا عَلَيْهِ  
لَمْ يَأْتِ مَنْزَلَ قَوْمٍ      فَمَادِ قَطُّ إِلَيْهِ

فيمجرد أن يسمعه أهل منزل يزورون عنه ولا يعودون إلى طلبه مرة أخرى. وكان يُعرب أحياناً في أوصافه مدحاً وذماً، وقد وجد الناس يدحون البياض في المرأة ويدمون السواد، فرأى أن يعكس عليهم القضية قائلاً:

شَبَهَاتِ الشَّيْبِ تَمَاهُ نَفْسِي      وَأَشْيَاهُ الشَّيْبَةِ هُنَّ حُورُ  
سَوَادُ الْمَيْنِ نُورُ الْمَيْنِ فِيهِ      وَمَا لِبَيَانِهَا فِي الْعَيْنِ نُورُ

فهو يرى بسواد عينيه لا يباشها، ولذلك يعاذ البياض رمز الشيب والشيخوخة، كما يعاذ معه المرأة البيضاء، بينما يحب السواد رمز الشيبة ونصرة الحياة ويحب المرأة السوداء. وكانت لديه قدرة في حسن التعليل كقوله في فص أخر:

حَسْرَتِي مِنْ دَمِ قَلْبِي      أَيْنَ مَنْ يَسْنُدُ أَيْنَا  
أَنَا مِنْ أَحْجَارِ أَرْضِي      قَتَلُوا فِيهَا الْحُسْنِيَا

وربما كان في ذلك ما يدل على أنه كان مت شيئاً يعتقد المذهب الإسماعيلي الفاطمي. ومن حسن تأثيه في التصوير قوله في لحية كبيرة غطت وجه صاحبها:

سَأَبْرُضُتْ كَلْحِيَةً جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ  
سَدَّتْ عَلَيْهِ وَجْهَهُ فَكَانَا  
عَنْهَا فِي ثُقْفَنِ كِسَاءُ أَسْوَدٍ

فهي قد سرت وجه صاحبها حتى لم يجد بيده منها إلا العينان، وكأنهما نقيان في كساءأسود.  
وكما كانت لحية جعفر بن محمد توذه كذلك كانت لحية حمدون، وفيها يقول:

لِخَيْرَةُ حَمْدُونَ دَنَارُ لَهُ تُبَكِّنُهُ مِنْ شَدَّةِ الْبَرَدِ  
كَانَهَا - إِذْ غَابَ فِي وَسْطِهَا - قَطِيفَةُ لُفْتٍ عَلَى قَرْدٍ

فلحية حمدون كأنها دثار أو ثوب تكتئ من قسوة البرد، وكأنها إذ غاب في وسطها ولم يعد أحد يرى لها أثراً قطيفة لفت لا على إنسان بل على قرد. ونختتم تصاويره بتصويره لراقصة  
راقية:

رَاقِصَةُ كَالْفَصْنِ مِنْ فَوْقَهِ  
تَلْهِبُ مُثْلَ النَّارِ فِي رَقْصِهَا  
كَانَاهَا فِي رَجْلِهَا عَوْدُهَا  
سَاحِرَةُ الرَّقْصِ غُلَامِيَّةُ  
إِذَا بَدَتْ تَرْقُصُ مَا يَنْتَنِي

وهي راقصة قوامها كفصن البان ووجهها كالبدر المنير، وكأنها تجمع النار والماء في  
رقصها، تجمعها بحر كاتها وتنتابها وكأنها توقع حر كات آرجلها على عودها وزامر يتبعها بالنار  
 وإنها لساحرة في رقصها، وبأحدى يديها داوه، وبالثانية دواوه. وإن القلوب لترقص مع رقصها  
وإيقاعاتها المبدعة فيه.

## الفصل الرابع

### طوائف من الشعراء

#### ١

#### شعراء الرثاء

من موضوعات الشعر القديمة الرثاء، وهو يتخذ ثلاثة اتجاهات: اتجاه الندب والتوجع لفقد المصاب، وعادة يكون من الأهل وخاصة الأخ والولد، واتجاه التأبين وهو ذكر فضائل الموت وبيان خسارة القبيلة أو الأمة فيه، والعزاء وهو التعزى عن المصاب في الميت بأن الموت كأس دائر على الجميع لا يفلت منه أحد. ويقول الحسن بن إبراهيم الشامي الكنانى<sup>(١)</sup>:

فلا يؤْس مدفعُ بما أنت جازعٌ      ولا الخيرُ مغلوبٌ بعلمٍ ولا فَهْمٍ  
وإن الحريصُ العَزَّزَ يُلقيه حِرْصَهُ      إلى حُفْرَةِ جَوْفَاهُ واهية الرَّضْمُ  
تعلَّمُ بآن الموتِ أَذْيَنَ للفتني      وأهونُ من عيشٍ يَشْيُنُ ومن وَقْرٍ

وهو يقول إن الحزن لا يدفعه المجزع والمرء لا يعرف ماكبته القدر ولا أحد يستطيع أن يحمي نفسه من الموت، فالحريص كغير الحريص لابد أن يلقى يوماً في حفرة واهية الرضم أو واهية الصخور والحجارة، وإن الموت لأذين للفق من عيش نكد يعيشه ووصم بشبنه - ويقول عمر بن الحسن بن القوف الكاتب في مطلع مرثية<sup>(٢)</sup> له:

إِنَّمَا الْمَرَأَةُ رَهِينُ الْوَفَاءِ      لِلْمَوْتِ مَا يَوْلُدُ لَا لِالْعِيَادَهِ  
حَتَّى إِذَا الْمَوْتُ أَتَاهُ طَوَاهُ      كَانَمَا يَنْشِرُهُ عَسْرَهُ  
وَالثَّفْرُ لَا يَخْطِلُهُ مِنْ قَدْرِ رَمَاهُ      مِنْ تَرْمُ آيَدِي الدُّفَرِ لَا تُتَخْطِلُهُ  
سَأُخْلِهُ بِالرَّدِّ إِلَّا سَفَاهَ<sup>(٤)</sup>      نَفْسُ الْفَتَنِ عَارِيَهُ عَنْهُ

وهو يستهل مرثيته بالعزاء وأن الموت مكتوب على الإنسان منذ مولده، وكأنه يولد للموت

(١) المغيرة ١٩١.

(٢) المغيرة ١٠٣/١.

(٣) سفاه: سفاهة.

(٤) الرضم: انضم المحجارة بعضها إلى بعض.

لا للحياة، ويظل منذ خطواته الأولى في دنياه رهين الوفاة، وما أشبهه بثوب ينثره عمره حتى إذا الموت أتاه طواه إلى الأبد، ومنْ ترمه أيدي الدهر تصبه ولا تخطئه أبداً، فإن الدهر لا يغطي الباية فيمين قد رماه، وكأنما نفس الفقى عارية عنده ولا بد أن تسترد وما يخله بردها إلا الحق، لأنها لا بد أن تعود إلى بارتها، ويظل الرثاء في عهد التورمان، وسنخص محمد بن عيسى بكلمة فيه، وبلقانا به عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن السوسي، ومطالعة مسقط رأسه وپها تذهب وقرأ على أبيه الأدب، ثم سكن بلزم واقتضها دارا، ووجد بها قرارا، وله مرنية في بعض رؤساء المسلمين بصلة نسب تدل على ماحواه من فضائل، وهي مرثية طويلة، استهلها<sup>(١)</sup> بقوله:

ركاب المعالى بالأشى رحله حطا  
وطسود الملى العالى تهتم وانحطا  
وكيف لنور الشمس والبدر عودة  
وهذا منار المجد والميز قد قطا<sup>(٢)</sup>  
أصبب فما ردة السردى عنه زفطه  
على أروع الأحزان إذ ودع الرقطا<sup>(٣)</sup>  
في سارزة ما أنكى وسا هزنة ما أبكي<sup>(٤)</sup>  
ويا ذهر ما أغنى وساموت ما أسطا<sup>(٥)</sup>

وهو يقول إن ركاب المعال حط رحله بالحزن الطويل، وقد تهتم طرد العلا السامي ولن يعود أبداً، وكيف يعود نور الشمس والبدر وهذا منار المجد والميز قد استوصل استصالاً، أصابه الموت فما رده عنه عشريرته ولا أهله، ودعهم وأودع في قلب كل منهم جمرة حزن لانتطفئ أبداً، فيارزه ما أشد نكايتك، ويحزن ما أشد ما تثير من البكاء، ويادره ما أشد عداونك، وياموت ما أشد سطوتك، وكأنما كان يبكي فيه رؤساء صقلية المسلمين بصلة جيماً، ونعجب إذ تجد أبا الضوء سراج بن أحد بن رجاء يعزى روجار الثاني عن ابنه روجار مرنية باكية، وفيها يقول<sup>(٦)</sup>:

خجا القسر الأسى فأظلمت الدنيا  
وماء من العلباء والمجد أركان<sup>(٧)</sup>  
تحطفه زنب المنون مخاطلا  
على غرة إن المنون لخوان<sup>(٨)</sup>  
يمزّله صبر ويموّل سلوان<sup>(٩)</sup>  
فيالك من رزء عظيم وحادي

وقد ذهب يقيم الدنيا ويعدها لموت ابن روجار الثاني وأنه حرى أن تهنى له العيون .  
وتحترق الأكباد وتعمض الأشجان وأن تبكي عليه خيماته وقصوره وسيوفه ورماته وأن تعاف

(١) المزينة ٤٧١.

(٢) قط هنا: انتطا.

(٣) الردى: الملائكة الرحم: المماعة والمشيرة.

(٤) ما أسطا: ما أشد بطيتك.

(٥) المزينة ٢٧٧/١.

(٦) خجا: خفت. الأسى: عال الضوء، الدن:

(٧) مخاطلا: مخادعا.

خيله للجم والأرسان، وما نواح العالم إلا له، وما كان أفظع يومه، لكانه كان يوم المشر. كل ذلك ولا يرجع أبو الضوء إلى نفسه ويستنكر من تقديم هذا العزاء لملك نصران. وبنوقف قليلاً لنتحدث عن محمد بن عيسى ومرانيه.

### محمد<sup>(١)</sup> بن عيسى

هو أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد المنعم يقول القسطى عنه: «من أهل صقلية من أصحاب العلم يعلمى الهندسة والتنجوم ماهر فيها قيم بها مذكور بين الحكماء هناك بأحكامها»، ويقول العماد نقلًا عن ابن بشرون: «كاتب شاعر، بارع ماهر، مهندس، منجم، لفارب (الكافل) الفصاحة متنسم، في ملتقى أول العلم كم (شجاع) معلم (المعروف)». ويقول إن ابن بشرون أورد من شعره ما يهز أعطاف القلوب مراحًا (مراحاً) ويدبر على الأسماع من الرحيق المختوم راحاً. ويعجب العماد برانيه وينقل قطعة طويلة من إحداها، وفيها يقول:

عَزُّ الْعِزَّةِ وَجَلُّ الْبَيْنِ وَالْجَزْعِ  
وَحَلُّ بِالنَّفْسِ مِنْهُ فَوْقَ سَاَتَّسُ  
مِنْ لِلْيَتَامَى وَأَبْنَاءِ السَّبِيلِ وَهُمْ  
بِكُنْهِ شَمْسٍ ضَحَاءٍ وَانْخَفَتْ جَزْعًا  
وَالْفَيْحَةُ تَحْتَ سِرَّ لِلْفَيْحَمِ تَطْلُعُ  
سُوَوَةً مِنْ وَرَاهُ النُّفْشَرُ تَشْبَعُ  
سَعْوَا مَشَاءً وَهُمْ فِي الرُّزْيَ أَغْرِبَةٌ  
وَلَا هُمْ فِي التَّسْلِي بِمَدِه طَمَعُ  
وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِالْعَيْدِ مِنْ فَرَحٍ

فالعزاء في موت هذا الشخص صعب إذ عظم فيه الجزع وحل بالنفس حزن لا تطيفه. ويذكر فيه الشاعر مواساته لليتامى وأبناء السبيل والبؤساء الذين طالما أسيئ عليهم من أفضاله، ويقول إن الشمس توارت باكية وراء سحاب لتطلع على جنازته الضخمة، وقد سمعت الجميع وراء نعشة تلبس السواد بعد أن كانت تلبس البياض وكأنما كانت حاتمة وانتقلت غرباناً، وجاء العيد سريعاً فلم يفرحوا فيه ولا غزروا إلى شيء يتسلون به، إذ غرمهم لموته حزن شديد. ويقول إن أعماله الطيبة ستفسح له في الفردوس الأعلى:

جَاءَتْ مَلَائِكَةُ الرَّضْوَانَ مُعْلَيَةً  
بِأَنَّهُ لِبَنَانَ الْخَلَدِ مُرْتَفِعٌ

والجريدة ٣٤١/١ وما بعدها

(١) انظر في ترجمة محمد بن عيسى إخبار العلاء  
بأخبار الحكماء للقطني (طبع لمبراج) ص ٢٨٩

فِيهَا لَأَنْفُسِ أَقْلَى الْفَضْلِ مُرْتَبِعٌ<sup>(١)</sup>  
وَغُصَّةً فِي لَهَاءِ لِيْسَ تُبْتَلِعُ<sup>(٢)</sup>  
أَكْبَادُنَا فِي لَطْيِ أَنْفَاسِهَا قِطْعٌ<sup>(٣)</sup>

فِلَاتِكَةُ الرِّضْوَانِ نَزَلتْ لِتَسْتَقْبِلَهُ وَتَأْخُذَنِهِ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعُلُّ وَجَنَانِ الْخَلَدِ، إِذْ أَعْدَتْ لَهُ  
أَعْمَالَهُ الْخَيْرَ بِهَا غَرَفَةً فِي عَلَيْنِ. وَيَعُودُ عَلَى بْنِ عَيْسَى إِلَى التَّفَجُّعِ عَلَى الْمِيتِ قَاتِلًا إِنَّ الْفَجْعَيْمَ  
فِيهِ لَمْ تَدْعُ فِي الْحَيَاةِ مِنْ أَمْلَى فَقَدْ مَاتَتْ مَعَهُ كُلُّ الْآمَالِ، وَأَوْدَعَ مَوْتَهُ غَصَّصًا لَا يَطْقِنُ أَحَدٌ  
إِبْلَاعُهَا، وَقَدْ أَضْرَمَ فِي الْأَحْشَاءِ نَارًا مَتَّقِدَةً تَنْقَطُ فِي لَظَاهَارِ الْأَكْبَادِ حَسْرَةً عَلَيْهِ. وَعِنْتَارُ الْمَادِ  
مِنْ مَرْثِيَةِ ثَانِيَةٍ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَيْسَى مَقَاطِعَهُ، وَفِيهَا يَقُولُ:

وَرُكْنُ الْمَعَالِ وَالْمَبْلَالِ قَدْ انْفَضَّا  
شَكَانِهَا إِذْ مَنَهُ أَعْلَمَتِ الرُّكْنَاضَا<sup>(٤)</sup>  
وَأَجْفَانِهَا تَنْشَقُّ عَنْهَا لَكِ تَنْضِي<sup>(٥)</sup>  
مَشَاهِدَ لَمْ تُغْطِي الْقِيَامَةُ وَالصَّرْضا  
وَمُهْسِرُ أَمْرٍ فِيهِ حَوْلَهُ تَفَضَا<sup>(٦)</sup>

وَقَدْ أَعْدَتْ لَهُ أَعْمَالَهُ غُرَفَا  
بِهَا فَجْعَةً لَمْ تَدْعُ فِي الْعِيشِ مِنْ أَرْبَعَ  
أَضْرَمَتْ نَارًا عَلَى الْأَحْشَاءِ مُوَصَّدَةً

شَهَابُ الْمَنَابِيَا مِنْ سَاهِ الرَّدَدِ انْفَضَّا  
بِهَكْسِ الْمَذَاكِيِّ الْمُقْرَبَاتِ وَقَطَعَتْ  
وَكَادَتْ سَيُوفُ الْمَهْنَدِ تَنْدَقُ حَسْرَةً  
شَهَدَنَا عَلَى قَرْبِ بَعْشَدِ مَوْتِهِ  
أَعَادَ سَرْوَرَ الْعَيْدِ حُزْنَنَا مَائَهُ

فَشَهَابُ الْمَوْتِ قَدْ انْفَضَّ عَلَى هَذَا الْمِيتِ مِنْ سَاهِ الْمَلَكِ، وَاتَّهَمَ بِذَلِكَ رَكْنَ الْمَعَالِ وَالْمَبْلَالِ،  
وَإِنَّ الشَّيْلَ الْكَرْبَةَ أَوَ الْمَكْرَمَةَ لَتَبَكِي فَرْوَسِيْهِ، وَقَدْ قَطَعَتِ الشَّكَانِيْمَ، إِذْ لَمْ يَعْدْ يَرْكَضُ عَلَيْهَا  
لِقَتَالِ أَعْدَانِهِ، وَإِنَّ سَيُوفَ الْمَهْنَدِ تَنْدَقُ حَسْرَةً عَلَيْهِ، وَإِنَّ أَغْمَادَهَا لَتَنْشَقُّ عَنْهَا لَكِ يَنْتَصِبُهَا  
فَارِسَهَا الْمَغَارَ، وَيَصِفُ الشَّاعِرُ جَنَانِهِ وَيَقُولُ كَانَتْ يَوْمُ الْحَشْرِ ازْدَحَاماً وَهُولَاً، وَأَعْقَبَ  
مَوْتَهُ الْعَيْدَ فَلَمْ يَعْرِفْ النَّاسُ فِيهِ سَرْوَرًا وَلَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَبْرُمُوا أَمْرًا مِنْ أَمْوَاهِهِ، إِذْ انتَابَهُمْ  
حَزْنٌ عَمِيقٌ. وَيَصُورُ الشَّاعِرُ مَدِيَّ الْحَسَارَةِ فِيهِ قَاتِلَاهُ:

لَنَا فَعِيْمَنَا كُلُّ عِيشٍ بِهِ يُرْضِي  
مَلَدَا الْكُلُّ مَنَا طَرْفَهُ الْيَوْمِ قَدْ غَضَا<sup>(٧)</sup>  
فَأَنْضَحَ عَلَى أَفْذَانِهِ الْيَوْمِ قَدْ أَغْضَى<sup>(٨)</sup>

لَقَدْ مَاتَ فِيهِ عُدَدَةُ أُنْيَى عَدَدَةٍ  
وَأَبْسَارُنَا كَانَتْ تَسَامِي لَهُ وَقَدْ  
وَقَدْ كَانَ طَرْفُ لِيْسَ يُنْضِي عَلَى الْقَنَى<sup>(٩)</sup>

فَقَدْ مَاتَتْ فِي هَذَا الْفَقِيدِ عَدَدَةُ ضَخْمَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي صَفْلِيَّةِ النُّورِيَّةِ، إِذْ دَعَ الشَّاعِرُ وَغَيْرَهُ

(٤) أَجْفَانِهَا: أَغْمَادَهَا. تَنْضِي: تُنْلَى.

(١) مَرْتَبَع: مَقَامُ طَبِّ.

(٥) غَضُّ الْطَّرْف: خَفْضَهُ

(٢) هَلَأَةُ كُلِّ ذَلِيْل: الْجَزَءُ الْمُشَرَّفُ عَلَيْهِ فِي

(٦) أَغْضَى يُنْضِي: أَغْمَدَ

(٣) أَنْصَى سَقْفَ الْقَمَرِ.

(٧) الْمَذَاكِي: الْمَحِيلُ. الْمُقْرَبَاتِ: الْمَعَدَّةُ لِلرَّكْوبِ

من المسلمين هناك كل عيش كانوا يقعنون به وبعد أن كانت أبصارهم تتطلع إلى الفقيد معلقة به أمانها أخذت اليوم تغص منها خشوعاً، وكان طرف الشاعر لا يفتقى على القدى فأصبح اليوم يفتقى على أقداء كبيرة.

## ٢

## شعراء الزهد والوعظ

زاهد الأمة الأول وواعظها الرسول ﷺ وتلته طبقات من الزهاد والوعاظ كانت تقرن وعظها وزهدها بالعبادة والنسك، ونجدتهم في جميع البيئات الإسلامية، وفي كل زمن. وتجوّج بواعظهم وكلماتهم الزاهدة الكتب من مثل البيان والتبيين للجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبة والعقد الفريد لابن عبد ربه وزهر الآداب للحضرى، وتجرى على ألسنة الشعراء في صقلية الإسلامية أبيات تتصل بالوعظ والزهد، من ذلك قول أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الغنى المقرى الوعظي<sup>(١)</sup>:

أيا من نال في الدنيا مناءٌ تأهبُ لفارقِ ولسرِ حيلٍ  
ولا تفرح بشيءٍ قد تناهى فما بعد الطلوع سوى النزولِ

وهو ينصح من نال في الدنيا كل آماله أن يتأنّب لفارقها بالصلة والنسك، ويقول له لا تفرح بشيء بلغ نهايته، فلم يعد أمامك بعد المنزلة التي صعدت إليها إلا النزول إلى قبرك الموحش. ويقول جعفر<sup>(٢)</sup> ابن الطيب الكلبي:

ومفتبطٌ بعيشٍ غير باقٍ يروم سلامٌ تحتَ الملاكِ  
ألا ياحاري قد حارتْ عقولٌ دعُلت بالقليل عن المراكِ  
وقد نصبَت لك الدنيا شباكًا فباياكِ الدنيا من الشباكِ

وهو يعجب من يفرح بعيش لا يدوم وكأنه يروم سلام تحت هلاك محقق، ويعجب لأناس غرهم ما حصلوا عليه من قليل في الدنيا فسكنوا إليه ولم يتحرّكوا لقضاء ما عليهم من الحقوق لربّهم، وينصحهم أن لا يقتربوا من شباك اللذات والشهوات التي نصبتها لهم الدنيا، حتى لا يقعوا فيها عن غير بصيرة. ويقول أبو عبادته محمد بن قاسم بن زيد اللخمي الكاتب القاضي مناجياً ربه<sup>(٤)</sup>:

(١) حار: مرخم حارت

(٢) المريدة ١١٠/١

(٣) المريدة ١١٨/١

(٤) المريدة ١١٦/١

يسارب صغا وغفرانا وعذرة  
لذنب كثرت منه الماذير  
يُكيم إجرامه طوراً ويُضحكه  
رجاؤه فهو محزون ومسرور

وهو يطلب من أله الصفع والمعفو والغفران لما ارتكب من الذنب، ويذكر في أمره فرباه  
يبكي لكتمة ذنبه ويضحك لرجائه لربه، وكأنه يجمع بين تقىضين، فهو دانياً محزون ل العاصمه  
ومسرور لما يأمل عند أله من المعفو والمغفرة، ولأبي حفص عمر بن حسن بن الطبرى، وكان  
من أهل الدين والورع والعناف<sup>(١)</sup>:

سيلىقى العبد ما كسبت يداه  
ويُسأل عن ذنب سالفاته  
فيما إذا الجهل مالك والتمادى  
فعمول في الأمور على كريم  
وأمل عفوه وافتزع إليه  
ويقرأ في الصحيفة ما جناه  
فيستيقى حائراً فيما ذهأه  
ونصار أله تحرق من عصاه  
تسوّحه في الجحالة في علاه  
وليس يخيب مخلوق رجاه

وهو يقول إن كل إنسان سيحاسب يوم القيمة وتعرض عليه صحيفة حاملة إليه ما كسبت  
يداه في دنياه، ويسأل عما ارتكب من ذنوب وأثام غيرها نجع عليه، ويختار فيها اقتداء، وواجب أن  
لا يتندى الإنسان في غيه ويدرك الجميع المدة للعاصمين، ولا يتأسى من رحمة رب الكريمين قابل  
الذنب والتوب الذى يغفو عن عباده الآتين، ولا يخيب مخلوق رجاه. ويقول أبو عبد الله بن  
الطوبى<sup>(٢)</sup>:

يحب بنو آدم رهم  
وإيليس قد شربوا بعضاً  
فهم بعد ذاك يُطیعونه  
برون الضلال ويسأونه  
ولكنهم بعد يغضونه  
فيهذا التنافق فما بالهم

وهو يعجب له حوله، فهم يعلون حبهم لربهم ويعصونه، كما يعلون بغضهم لإيليس  
ويطیعونه، وإنه لتناقض ما بعده تناقض، فما بالهم يرون الضلال وانحرافه بهم عن الطريق  
المستقيم وبأتونه. ويقول في مقطوعة ثانية<sup>(٣)</sup>:

تهوى؟ لقلت خلاصي  
فلات حين مناص<sup>(٤)</sup>  
لو قلت لي أئ شيء  
الناس طرًا أنساع

(١) المزينة ٦٧/١

(٤) مناص: ملجاً

(١) المزينة ٦٧/١

(٢) المزينة ٦٤/١

نَسَا الشَّرِيعَةَ حَتَّى تَنَاسَزُوا بِالْمَعَاصِي  
بِإِرْسَامِهِمْ لَوْ أَعْدَاهُ طَلَولُ يَوْمِ الْقِصَاصِ

وهو يقول إن المجتمع فسد، والناس فيه جهلاً أفاع ويتمنى منهم الخلاص، إذ نسوا الشريعة وأوامر الدين وإنهم ليتقاومون على ارتكاب المعاصي في غير خوف من الله ولا من يوم القيمة يوم يؤخذ العاصون بالتوانى والأقدام ويقول: يا ربهم لقد كان حريراً بهم أن يُمْنوا ليس يوم القصاص، يوم يُسأَل كل شخص عما قدمت يداه، ويبين أن ظاهراً من التصور كان قد دخل صقلية الإسلامية في زمنه، فأناس يلبسون مرفقات الصوف، وأناس يفرون على صوف الذكر، وأخرون يصيرون ويرقصون، فقال<sup>(١)</sup>:

لَيْسَ التَّصُوفُ لِبَسِ الْصُّوفِ تِرْقَمَهُ  
وَلَا صِمَاعٌ وَلَا رِقَنٌ وَلَا طَرَبٌ  
بَلِ التَّصُوفُ أَنْ تَصْفُو بِلَا كِتَبٍ  
وَأَنْ تُرَى خَائِفًا هَذَا نَسَمَةٌ

فالتصوف ليس لبس مرفقات الصوف والبكاء حين سماع المحنين والرقص والطرب وأن يقع المنصور مفتياً عليه أو كالمفتشي كأنه صار مجئونا، بل التصور الصفاء الدينى واتباع الكتاب والسنن والخوف من الله والندم على الذنب. ومن الوعاظ قبل العهد التورمانى عمر بن خلف بن مكى، وسفرده بكلمة، ويقول ابن القطاع<sup>(٢)</sup>:

تَنَبَّهْ إِلَيْهَا الرَّجُلُ النَّسُوفُ  
فَقَدْ نَجَمْتْ بِمَارِضَكَ النَّجُومُ  
وَقَدْ أَبْدَى ضِيَاءَ الصَّبَحِ عَمَّا  
أَجْنَ ظَلَامَهُ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ<sup>(٣)</sup>  
فَلَا تَغُرُّكَ يَا مَغْرُورُ دُنْهَمٍ<sup>(٤)</sup>  
وَلَا تَخْبِطْ بِمَرْجَ غَمْوَضٍ فَقَدْ وَضَعَ الظَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ

وهو يقول تنبه إليها الرجل الذى اعتاد النوم عن أداء فروض دينه وعبادة ربه، فقد ظهرت نجوم الشيب بمارضيك. وأبدى ضياء الرشاد عما أجن ليل الشباب البهيم من ظلام الفن، فلا تغتر بها مغروراً بدنها خادعة لا يدوم بها نعم ولا تخبط - كالأشعى - في طريق معوج غامض، فقد وضع أمام عينيك الطريق المستقيم. وللمعصر بن خلف بن مكى ومالة من مواعظ.

(١) البهيم: المعن

(٤) غرور: خادعة

(١) المحرقة ٧٢/١

(٢) المحرقة ٥٥/١

ابن<sup>(١)</sup> مكي

هو أبو حفص عمر بن خلف بن مكي، منشوء ومرباء وشيوخه في صقلية وفي مقتنيتهم ابن البر اللغوي، وعليه تخرج ويدرك في مقدمة كتابه للغوي التفيس: «تفيف اللسان» أنه عرضه عليه فما أقره أبناءه وما أنكره أخلا الكتاب منه، وأدى به فقهه وعلمه إلى تولى منصب القضاء في بلده، وقد خرج منها إلى تونس قبيل استيلام التورمان عليها، واستوطنها وولى قضاها وخطابة جامعها، وينقل العmad عن ابن القطاع تقديمه له بقوله: «انتقل إلى تونس، وولى قضاها، وهو فقيه محدث، خطيب، لغوي، وفضلة بالألسنة في جميع الأمكنة مأمور مروي، ولهم خطب لا تضر عن خطب ابن نباتة، تعجب رواته، ومن قوله:

يا حرباً قطع الأيام في بؤس عيش وعناء وتعب  
ليس يهدوك من الرزق الذي قسم الله فأجل في الطلب

وهو يدعوه إلى القناعة والزهد والرضا بما قسمه الله للإنسان، فإن أحدا لن يصبه ضياع، بل الكل سيكفل له رزقه، ولا داعي للعناء الشديد في طلبه ولا للحرص أكثر مما ينتفي، فما قدر لك ستأتيك، ويقول مذكرا بالموت داعيا إلى التقوى والعمل الصالح:

عجبًا للموت يُنسى	وفو ما لأبدٍ منه
كيف تنساه وقد جا	ذلك رسول من لدنه
سوف تلقى الوَبِيل إن جد	ست بعثِير لم تُبْشِرْه
وتسرى جسمك في النا	رغدا إن لم تُصْنِعْه
والذى ينجو من النا	ر أخو التقوى فُكْته

وهو يعجب لمن ينسى الموت وهو مكتوب على الإنسان، وقد جاءاته رسائل من لدن الله تهديه إلى الرشاد، ويقول إن من لا يستطيع أن يقدم عنزا عن سباته سيلقي الويل والعناد الشديد، أو من لا يصون جسمه بالعمل الصالح ستكون النار مصر، إذ لا ينجو منها إلا أخوه التقوى والعمل الصالح، وحرى به أن تسلك سالك التقوى والمهدى، فإن في ذلك الفوز الكبير، ويدعو إلى العزلة عن الناس والاكتفاء بأقل ما يمكن من العيش وبصاحبة الكتب، ولا تعلق رجاءك بأحد، يقول:

اجعل صديقك نفسك  
وأفنئ بخنزير وملح  
واقطع رجاءك إلا  
تعيش سليماً كريماً  
وجوف بيتك جلساًك<sup>(١)</sup>  
وأجعل كتابك أنساك  
من يصرف نفسك  
حق تواقي رمسك<sup>(٢)</sup>

وهو ينصح الإنسان أن لا يتخذ صديقا له إلا نفسه، فليس من صديق حقيقي تستطيع الاستعانت به حين يلم بك خطوب من المخطوب، بل إنه ليدعوه إلى اعتزال الناس جميعا ولزوم بيته، حتى لا يصيبه أذاهم، وينصحه بالزهد في متع الحياة والرضا بأقل القليل: بخنزير وملح فها حسبي، وهذا يكفيه أن يربق ماء وجهه في طلب ما فوتها من طيبات الدنيا. ويقول له: اكتف بالكتاب، واتخذه صديقك وأنيسك فإنه سيضيف إليك معرفة، ولن يؤذيك أى أذى ولن يضرك أى ضرر، وينصحه أن يقطع رجاءه من الناس، فليس بهم من يحقق له رجاء إلا إذا أجباته الضرورة لمن يصرف أمره، ويقول له إذا اتبعت هذه النصيحة من الزهد في متع الحياة وعشت متقدماً ترضي بكسرة أو قطعة من الخنزير وأكتملت بإدامها من الملح، ولم تتحدد لك صديقا سوى الكتاب، ولا أملت من أحد شيئاً عشت أسعد السعداء حق وفائق. ويقول:

منْ كان منفرداً في ذا الزمان فقد  
نجا من النزل والأحزان والقلق  
تزوجنا كركوب البحر ثم إذا  
صرنا إلى ولد صرنا إلى الفرق  
وهو يندح العزلة والانفراح عن الناس حتى عن تكوين الأسرة، ويتمثل الزواج كركوب  
البحر ومخاطره من العواصف، ويتصور الأولاد ومطالبهم ومتاعبهم في الحياة عواصف ماتنى  
تناول راكب البحر وسفنته، حق يفرق.

## ٣

## شعراء التفعيع والحنين واللووعة

استحالـت صـقلـية فـيـ المـهـدـ الإـسـلـامـيـ إـلـىـ جـنـةـ فـيـعـاهـ مـنـ جـنـاتـ الـمـسـلـمـينـ بـعـدـنـهاـ وـحـصـونـهاـ الـقـىـ  
تـعـدـ بـالـعـشـراتـ، بـلـ بـالـمـلـاتـ، وـبـعـقـولـهـاـ وـزـرـوعـهـاـ مـنـ كـلـ صـنـفـ، وـبـعـدـانـقـهـاـ وـثـمـارـهـاـ مـنـ كـلـ لـونـ،  
وـبـأـزـهـارـهـاـ الـأـرـجـةـ الـقـىـ تـعـطـرـ جـمـيعـ الـأـنـعـامـ فـيـهـاـ وـالـأـرـجـاءـ. وـبـيـنـاـ كـانـتـ تـعـيـشـ فـيـ أـمـنـ وـرـفـاهـيـةـ إـذـاـ  
أـمـرـاءـ الـطـوـافـ يـقـيـمـونـ لـمـ فـيـهـاـ عـرـوـشـاـ وـإـمـارـاتـ وـيـدـبـ بـيـنـهـمـ الشـقـاقـ وـتـكـاثـرـ الـفـتنـ. وـيـشـهـرـ  
الـإـخـوـةـ الـمـسـلـمـونـ السـلاحـ بـعـضـهـمـ عـلـيـ بـعـضـ، وـيـتـسـلـلـ اـبـنـ الشـمـةـ حـاـكـمـ بـلـرـمـ الـخـانـ إـلـىـ روـجـارـ  
وـرـوـبرـتـ اـبـنـ طـنـكـرـادـ (Tancrede)ـ أمـيرـ قـلـورـيـةـ وـأـنـكـرـةـ فـيـ جـنـوـبـ إـيطـالـياـ مـسـتـجـدـاـ بـهـاـ حـدـ

(٢) رمسك: قبرك

(١) حلسك: مكان إقامتك لا تهرج

حاكم مدينة قصريانة وينجله روجار، ويستولى على مسيف ثم على بلرم سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢ م وكان ذلك إنذاراً باحتلال الجزيرة وضياعها، فلم يمر عشرون عاماً حتى أخذت مدناها فيها تساقط في حجر روجار، وأصبح المسلمون يقلبون أكفهم على ما أنفقوا فيها وأنشروا بها من حضارة وقصور وزروع وحدائق ذات بهجة، وأخذ كثير من علمائها وشعرائها يودعها، منهم من يتتساك مثل أبي العرب<sup>(١)</sup> الصقل الذي رحل عنها إلى الأندلس منشداً:

أَهُمْ وَلِعَزْمَانِ عَزْمَ مَشْرُقٍ  
وَآخَرْ يُنْسِرِي هُنْ بِالْمَسَارِ  
وَبَا وَطْنِ إِنْ بَنَتْ عَنْ فَيَانِي  
سَأَوْطَنْ أَكْوَارَ الْمَتَاقِ النَّجَانِ<sup>(٢)</sup>  
إِذَا كَانَ أَصْلُ مِنْ تَرَابِ نَكْلَهَا  
بِلَادِي وَكُلُّ الْمَالِينَ أَقَارِبِي

وكان لا يدرى حين فراقه للجزيرة هل يتوجه شرقاً أو يتوجه غرباً إلى الأندلس، واختار الاتجاه إلى الغرب، ويتغيل كأن الوطن هو الذي بان عنده بكثرة ما فيه من الفتن والمحروب مما اضطره إلى مفارقه وتوطنه في رحال الإبل النجيبة باحثاً عن وطن جديد، ويفتف الأمر على نفسه، فإذا كان أصله من تراب وكل البلاد تحمل التراب فهي جميعاً بلاده، وكل من فيها من العالمين من أقاربه وذوي رحمه، وإذا كان أبو العرب متتساكاً هذا التتساك في اضطراره إلى التزوح عن وطنه فقد كان هناك من لا يزال يعن إليه مثل عمر بن رحيم الذي نشأ وتربى في بلرم، حتى إذا استولى عليها روجار والنورمان رحل عنها، ولا تزال مائة نصب عليه، ولا يزال يعن لها والأهله، ولا يزال حبها يضرم في حنایا فؤاده ويفتف<sup>(٣)</sup>.

نَفْسِي تَحْنَ إِلَى أَهْلِ أَوْطَانِ  
وَهَلْ رَأَيْتُمْ مُحْبًا غَيْرَ حَنَانِ  
كَانُوا بِقَلْبِي أَحْبَاءً وَفِي كَبِيدِي  
نَارٌ تَأْجُجُ مِنْ شَجَرِي وَأَحْزَانِي  
عَزْ اصْطَبَارِي لِرُزْءِي قَدْ دُعِيَتْ بِهِ  
وَبَانَ عَنْ لَوْشِكِ الْبَيْنِ سُلْوانِ  
فَهُوَ يَعْنِي إِلَى أَهْلِهِ وَوَطْنِهِ حِنْنِ مَلَائِكَهَا، وَكَانُوا مَائِلِينَ تَحْتَ بَصَرِهِ وَفِي قَلْبِهِ، فَخَابُوا عَنْهِ  
وَتَأْجَجَتْ نَارُ بِكِيدِهِ مِنْ شَجَرِهِ وَأَحْزَانِهِ الَّتِي يَكْتُوْيُ بِهَا فَؤَادِهِ، وَيَقُولُ إِنَّهُ رَزَهُ وَمَحْنَةُ دُهْتِهِ، وَعَزْ  
عَلَيْهِ أَنْ يَتَحَمَّلُهَا وَكَيْفَ يَتَحَمَّلُهَا؟ لَقَدْ نَدَ صَبَرَهُ، وَفَارِقَهُ سُلْوانُهُ، وَلَمْ يَقُلْ لَهُ إِلَّا المَزَنُ المَضْ  
وَالشَّجَى الْمَوْجَعُ، وَأَكْبَرُ شَاعِرُ تَوْجِعٍ وَتَفْجِعٍ عَلَى فَقْدَانِ صَلْيَةِ أَبْنِ حَدِيبَيْسِ، وَهُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ  
نَفِرَهُ بِتَرْجِعِهِ.

ابن<sup>(١)</sup> حديث

هو عبد الجبار بن حميد، ولد بمدينة سرقسطة الواقعة بشرقى صقلية سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٦ م لأسرة على شيء من الثراء والعلم والفضل، واختلف مثل لداته إلى الكتاب لحفظ القرآن الكريم، وتحول منه إلى حلقات الشيوخ، وزرعت به ميوله إلى الأدب والشعر، ولم تلبث موهبته الشعرية أن تفتحت، وتكونت له رفقة كانت تأخذ بنصيب غير قليل من اللهو والذهب إلى المغانات والأديرة لشرب الخمر والمتاع بالفناء. وكانت بلزم قد سقطت في يد روجار والنورمان، وبدأ في الأفق أنهم يتآهبون للاستيلاء على سرقسطة وغيرها من بلاد الجزيرة، وأخذ يُعد نفسه - مثل أقرانه - لقتالهم براً وبحراً، ونفاجأ به في نحو الرابعة والعشرين من عمره يُصر على أن يغادر بلده إلى الأندلس ماراً بأفريقية وعيون بن المعز مروراً سريعاً وربما كان السبب الحقيقي في مغادرته بلده لا فراراً من معركة صقلية وسرقسطة مسقط رأسه ضد النورمان، ولكن طلباً للشهرة في عالم شعرى مزدهر، يأمل أن يتحقق له فيه ما يمناه لنفسه من مكانة أدبية مرموقة بين شعراء الأندلس الذين كانت أسماؤهم تتدوّي في العالم العربي، ولعله من أجل ذلك اختار التزول بأهم بيئة شعرية في الأندلس، إذ كان بها أكبر راعٍ للشعر بين أمراء الطوائف، ونقصد المعتمد بن عباد. وحط رحاله في بلادته إشبيلية سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م ولزم بباب قصره فترة، وبعث إليه ببطاقة شعرية يقول فيها:

وَيَا مُسْدِئَ النَّيلِ الْجَزِيلِ إِذَا اُتْتَشَى  
تَضُرُّعَ مَكَا نَوْرُهَا وَنَفْتَحُهَا<sup>(٢)</sup>  
تَطْرُقَ مَنْ تُسْمِكَ ثُمَّ تُوْشِحُهَا<sup>(٣)</sup>

أَيَا مُولَى الصُّنْعِ الْجَيْلِ إِذَا اُتْتَشَى  
وَفِي كُلِّ أَرْضٍ مِنْ نَدَاءِ حَدِيقَةٍ  
أَفْرَدٌ بِالْمَسْرَمَانِ مِنْ كُلِّ عَاطِلٍ

وما إن قرأ المعتمد البطاقة حتى أعجب به واستدعاه مختلفاً باستقباله ومنحه جائزة سنوية، وطلب إليه أن يظل في حضرته، وظل بها يخدمه بقصائد طوال في مناسبات مختلفة، وكانت إشبيلية في عهد المعتمد تعيش عيشة لا همة فشاركت في هذه المعيشة وقعت بمناظرها الطبيعية البدوية، وأتاه نهى أبيه فحزن لوفاته ورثاه بقصيدة باكية استهلها بقوله:

بتحقيقه وتقديره له.

(٢) تضُرُّع: ذكر رانعه

(٣) تطْرُقَ: من الطوق وتوشح من الوشاح كتابة عن إسياخ نفسه عليه

(١) انظر في ابن حميد، الموسوعة ١٩٦/٢ والذخيرة ٣٢٠/٤ وابن خلكان ٢١٢/٣ والجزء الأول من عنوان الأربع لمحمد البقر (طبع تونس) بتحقيقه وتقديره له ودراسة الدكتور إحسان عباس في كتابه العرب في صقلية ص ٢٣٥ وديوانه

## أنا بدار التُّسَوِي نَعْيَهُ فِي رُوَعَةِ السَّمِ بالدَّاهِيَه

وكان يسمع أخبار مسقط رأسه سرقوسة ومقاومتها العنيفة للنورمان بقيادة ابن عباد فيهتز طرباً ويكتب عنده الأمل في ضرب النورمان الضربة القاضية، وبالمثل كانت تأتيه أخبار ابن حودة في قصريانة ومنازلته للنورمان منازلة ضارية، فيعظم عنده الأمل في طرد النورمان من صقلية، ويرسل إلى قومه يحضمهم على جهاد العدو الفاشم ويعتزمون على منازلة العدو منازلة حاسمة، فلها عليهم جميعاً حقوق، وواجب أن ينصروها ولا يخذلواها حق النداء الأخير:

فَاهْلُوكُمْ فِي الْأَرْضِ مُتَوَرَّةُ النَّظَرِ  
وَعَزْكُمْ يُقْبَضُ إِلَى النَّذْلِ وَالنَّسْوَى  
مِنَ الْبَينِ تَرْمِي الشَّمَلَ مِنْكُمْ بِاَنْتَرَى  
وَكُمْ خَالِهُ جَدَّاهُ لَمْ تَقْنِ عنْ اَمْ<sup>(٢)</sup>  
تَقْبَيْدٌ مِنَ الْقَطْرِ الْعَزِيزِ بِعُوْطَنِ  
وَمَتْ عَنْدَ رَبِيعٍ مِنْ رَبِيعِكَ أَوْ رَسْمِ  
وَإِبَاكَ يَوْمَاً أَنْ تَجْرِبُ غُرْبَهُ  
فَلَنْ يَسْجُمِيزِ الْمَقْلُ تَجْرِيَهُ السَّمِ

وهو ينصح الباقين بعده في سرقوسة وغير سرقوسة أن لا يفكروا في مبارحتها حتى لا يندموا هواها الذي يتفسونه ويحبون به ولا عزّهم الذي يعيشون فيه وإلا تحولت حياتهم إلى ذل وهوان، وهل تنفي أرض عن أرض الوطن، وتحبب بكل صقل مسلم أن يقيّد نفسه بوطنه، وأن يظل يدافع عنه حتى يموت عند ربعه أو عند رسمه، ويختبره من المجرة عنه والإقضاء إلى غربة، هي سم قاتل، ويعتذر لنفسه مراراً عن مبارحته الوطن في وقت محنته وأنه لا يستطيع العودة إليه، لما يُقدّم عليه المعتمد بن عباد من أفضال متصلة. وفي رأينا أن العائق الأهم عن عودته لوطنه إنما كان المجد الأدبي الذي أخذ شعره يحقق له في الأندلس، وبذلك تحققت أمنيته الكبرى من مبارحة الوطن. وكأنما قيده هذا المجد بإشبيلية فلا يستطيع منها خلاصاً ومراراً، وتسقط في أيدي النورمان سرقوسة مسقط رأسه سنة ٤٨٢ وتسقط بعدها قصريانة سنة ٤٨٤، ويثلاثي من نفسه ونفس كل صقل الأمل في استرداد صقلية، وينظم تصعيدة جنائزية يودعها بها قائلاً:

عَدَمْتُ لَهَا مِنْ أَجْمَلِ الصَّبَرِ حَابِسًا  
فَسَامَتْ ظَنَوْنِي ثُمَّ أَصْبَحْتُ يَائِسًا  
سَاجِدًا لَهَا أَيْدِي النَّصَارَى كَانَسًا  
مَعَ الصَّبَحِ وَالْإِسْمَاهِ فِيهَا التُّنَاقِسَا

أَعْسَافِلُ دَعْنِي أَطْلَقَ الْمَبْرَةَ التِّي  
لَقْتَرَتْ أَرْضِي أَنْ تَعُودَ لِقَوْمِهَا  
وَكَيْفَ وَقَدْ يَبْيَثَ هَوَانًا وَصِيرَتْ  
إِذَا شَامَتِ الرَّهَبَانُ بِالْضُّرُبِ أَنْطَقَتْ

أُرِيَ بِلَدِيْ قَدْ سَامَهُ الرُّومُ ذَلَّةً وَكَانَ يَقُومُ عِزَّةً مُتَقَاعِسًا<sup>(١)</sup>  
وَكَانَتْ بِلَادُ الْكُفَّارِ تَلْبِسُ خَوْفَهُ فَأَضَعَى لَذَاكَ الْغَوْفَ مِنْهُ لَابَاسًا

وَهُوَ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ دُعْنِي أَذْرَفَ الدَّمْوَعَ الَّتِي لَمْ يَعْدْ لَهَا حَابِسٌ مِنَ الصَّبَرِ، إِذْ ظَلَّ سِتِينَ  
طَوِيلَةً يَظْنَنُ أَنَّ صَقْلِيَّةَ سَتُؤْدِي إِلَى أَهْلِهَا، فَخَابَ ظَنُّهُ، بَلْ لَقِدْ أَصْبَحَ يَاشَا يَاشَا مَرَا، فَقَدْ صَهَلَتْ  
خَيْلُ التُورْمَانَ فِي كُلِّ أَنْتَهَا، وَسَيَّسَتْ هَوَانًا مَا بَعْدَهُ هَوَانٌ، وَأَيْ هَوَانٌ أَعْظَمُ عَلَى نَفْسِ الْمُسْلِمِ  
مِنْ أَنْ يَرِيَ بِلَدَهُ تَسْقُطَ فِي حِجَرِ النَّصَارَى وَيَخْلِلُوا مَسَاجِدَهَا كَثَانِسٍ، وَيَضْرِبُ الرَّهْبَانَ فِيهَا  
الْتَوَاقِيسِ صَبَاحَ مَسَاءٍ، لَقَدْ سَامَ الرُّومُ صَقْلِيَّةَ إِسْلَامِيَّةَ ذَلَّةَ مَا قَاتَلَهَا ذَلَّةً، صَقْلِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ تَعْزِيزَ  
بَمْسَلِمِيهَا عِزَّةً لَا تَدَانِيهَا عِزَّةً، وَكَانَ التُورْمَانُ فِي جَنُوبِ إِيطَالِيا إِذَا سَمِعُوا اسْمَهَا ارْتَدَتْ  
فَرَانَصِمَهُمْ خَوْفًا وَرُعْبًا، فَإِذَا الْأَمْرُ يَنْعَكِسُ وَيَصْبِحُونَ هُمْ مَصْدِرَ الْمُنْوَفِ لِأَهْلِ صَقْلِيَّةِ إِسْلَامِيَّةِ.

وَيَفِيضُ أَبْنَ حَدِيدَسِ فِي الْمَدِيدَتِ عَنْ يَأْسِ أَهْلِ صَقْلِيَّةِ الْمَهِيَّةِ وَجَهَادِهِمُ الْيَائِسُ حِينَ كَانُوا  
يَسْوَقُونَ أَمَاهِمَ فَرَانِسَ قَلْوَرِيَّةً وَبِطَارِقَتِهَا وَأَشَاؤُوهَا أَسَارِيَّ مُنْكِسِينَ وَمَعْهُمْ نَسَاؤُهُمْ حَوَارِسٍ.  
وَلِبَيَانِ الْجَيْشِ التُورْمَانِيِّ فِي خَطْوَهُ، فَبَانَهُ يَيْشِنَ فِي بَلَادِ تَحْتِ أَرْضِهَا شَجَعَانَاهَا الَّذِينَ طَالَوْا  
أَهْلَ قَلْوَرِيَّهُمْ وَلَوْ شَقَّتِ الْقَبُورَ عَنْهُمْ لَخَرَجُوا إِلَيْهِمْ مِنْهَا أَسْدَ كَاسِرَةَ غَاضِبَةٍ، غَيْرُ أَنَّ الْفَيْلَ غَابَتْ  
لِيَوْنَهُ فَتَبَخَّرَتْ فِي أَرْجَانِهِ الْذَنَابَ.

وَيَحْدُثُ عَقْبَ ذَلِكَ أَنْ يَخْلُعَ يَوسُفُ بْنُ تَاشِفِينَ الْمُعْتَدِلُ بْنُ عَيَّادَ سَنَةَ ٤٨٥ مِنْ إِمَارَتِهِ فِي  
إِشْبِيلِيَّةِ وَيَنْفِيَهُ إِلَى أَغْمَاثِ مَرَاكِشِ وَنَزِيَ أَبْنَ حَدِيدَسِ يَزُورُهُ بَهَا وَيَحْاولُ أَنْ يَخْفِيَ عَنْهُ  
مَادِهَاهُ، مَنْشَدًا رَدًا عَلَى شِعْرٍ كَتَبَ بِهِ إِلَيْهِ مُسْتَبِّنًا:

أَنْتَيْأَسُ فِي يَوْمٍ يَنْاقِضُ أَمْسَهُ وَزَهَرُ الْمُرَارِيِّ فِي الْبَرْوَجِ تَدَوَّرُ<sup>(٢)</sup>  
وَلَا رَحْلَتِمْ بِالنَّدَى فِي أَكْنَكُمْ وَقَلِيلٌ رَضُوَيِّ مِنْكُمْ وَثَبِيرُ  
رَفَعَتْ لِسَانَ بِالْقِيَامَةِ قَدْ دَنَتْ فَهَذِي الْجَيْهَالُ الرَّاسِيَاتُ تَبَيَّرُ

وَرَضُوَيِّ جَيْلَ بِالْمَدِينَةِ، وَثَبِيرُ: جَيْلَ بِمَكَّةِ، وَهُوَ يَقُولُ لَهُ يَنْبَغِي أَنْ لَا تَيَأسَ مِنْ أَنْ يَتَغَيِّرَ الْحَالُ،  
فَالْكَوَاكِبُ السَّاطِعَةُ لَا تَتَبَتَّ بَلْ تَتَوَرُ فِي بَرْوَجٍ مُتَنَعِّدَةٍ، وَلَا رَحْلَتِمْ بِالْجَيْدَرِ الْفَيَاضُ فِي أَكْنَكُمْ  
وَكَانَتْ تَحْرُكُ جَبَلَ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ الْمَقْدِسَانِ صَحْتَ إِنَّ الْقِيَامَةَ قَدْ دَنَتْ فَهَا هِيَ الْجَيْهَالُ الرَّاسِيَاتُ  
تَسِيرُ كَمَا جَاءَ فِي الذَّكْرِ الْمَكْيَمِ نَعْتَا لِيَوْمِ الْبَثِ.

وَيَتَصَلُّ بِأَبْنِ الْقَاسِمِ بْنِ عَشْرَةِ قَاضِيِّ «سَلا» عَلَى الْمُحَيطِ وَيَتَجَهُ إِلَى بِجَاهِيَّةِ الْمَجَازِ وَيَدْعُ  
الْمُنْصُورَ بْنَ النَّاصِرِ بْنَ عَلَيَّا (٤٨٣ - ٤٩٨ هـ) وَيَوْلُ وَجْهَهُ نَحْوَ الْمَهِيَّةِ وَقَيْمَ بْنَ الْمَزَّبِ

(٢) الْمُرَارِيُّ: الْكَوَاكِبُ.

(١) مُتَقَاعِسًا: مُنْخَلِفًا.

باديس ويلقاء لقاء حسنا، ويظل يتردد بين البلدين وبضفي مدائنه على يحيى بن تيم بن المز وابنه من بعده على وحفيده من بعدها الحسن ويكتظ الديوان ببعضهم جميعا، ويذبح بني خراسان في تونس ويظل يتردد على بجاية يذبح بعض رجالاتها من بني حماد، ومنذ أن هاجر من صقلية لم ينسها يوما وطلت لا تبرح ذاكرته حتى أنها نفاسة الأخيرة، ويخصها بعد سقوطها باشعار مؤثرة يبكيها ويذكر أيام مجدها، من ذلك قصيدة بانية في مدح قوم بن المز وفيها يقول:

تدرَّغْتُ صبرى جَنَّةً للنوابِ فَيَانَ لَمْ تُسَالْ يَا زَانَ فَهَارِبٌ

وهو إنما يتدرّع صبره ويختفي به استسلاما، فإن الزمان أدار معه معركة حامية الوطيس فقد فيها كثيرا من أهله وحمة بلده، بل لقد فقد بلده نفسها غير ميق له على أى شيء، إلا أن ينتقل في صحاري إفريقيا وسهوريا ولا أليف ولا أنيس:

وَلَا سَكَنَ إِلَّا مَنَاجَاهَ فِكْرَةً كَأَنَّ بَهَا مَسْتَحْضُرٌ كُلُّ غَانِبٍ  
وَلَمَا رَأَيْتُ النَّاسَ يُرْهَبُ شَرُّهُمْ تَجْنِبُهُمْ وَاخْتَرَتْ وَحْدَةً رَاهِبٍ  
وَهَنَى خَيَالًا كَنْتُ أَخْطُلُ بِسُوْضِلِهِ لَهُ فِي الْكَرَى عَنْ مَضْجُعِي صُدُّ عَانِبٍ  
فَهَلْ حَالٌ مِّنْ شَكْلِي عَلَيْهِ - فَلَمْ يُرْزَ - قَضَافَةً جَسَمِي وَأَيْضًا ضُفَانِي<sup>(١)</sup>

فلم يعد له سكن يسكن إليه إلا أن ينادي فكره مستحضرها ما غاب عنه خاليا بنفسه ومتزلا للناس، بل لأن كل شيء من حوله يعتزله حتى الطيف الذي كان يسعده وصله في نومه وأحلامه انقطع عن مضجمه صادرا عنه لا يزوره، فهل تغير شكله عليه وماحدث له من نحافة جسمه وأيضا ضفاف شعره، فلم يعد يعرفه ولم يعد يلقا، ويدرك إخوان الصفاء وليلي الأنس بচقلية، وكان يتنفس لو استطاع الرجوع، غير أنها أصبحت مستقرة للأعداء:

وَلَوْ أَنْ أَرْضِي حُرْمَةً لَأَتَيْتُهَا بِعَزْمٍ بَعْدَ السَّيْرِ ضَرِبَةً لَازِبٍ  
وَلَكِنْ أَرْضِي كَيْفَ لِي بِنِيْكَاكِهَا مِنَ الْأَسْرِ فِي أَيْدِي الْمَلْوَجِ الْفَوَاصِ  
لَنْ ظَفَرْتُ تِلْكَ الْكَلَابَ بِأَكْلِهَا فَبَعْدَ سُكُونِ الْمَرْوَقِ الْضَّوَارِبِ<sup>(٢)</sup>

فعادته إلى أرضه أنها استبعدت وأصبحت ملكا لغير أهلها، بل لقد أسرت ووضعت الأغلال في أيديها وأرجلها، ولم تعد تستطيع خلاصا ولا فكاكا ولا تحررا، وقد ظفرت بها كلاب الأعداء تنهشها بعد جهاد أهلها لهم جهادا عنيفا، وير بفتحتهم قبل غزو التورمان مرورا خاططا وينقض

(١) قضافاة: نحافة.

(٢) كنى ابن حدبس بسكن المروق الضوارب

في الحديث عن بطولتهم في حروب الروم وكيف كانوا يوتون موت البلاه الشجعان:

يُوتون موت العَزْ في حُومَة الْوَغْىِ  
إِذَا مات أَهْلُ الْجِنِّ بَيْنَ الْكَوَاعِبِ<sup>(١)</sup>  
أَعْدَتْ لَهُمْ فِي الدُّفْنِ نَحْتَ الْمَنَاكِبِ<sup>(٢)</sup>  
عَجَاجِاتِ الْجَهَادِ وَسَانِدًا  
فَغَارُوا أَفْوَلَ الشَّهَبِ فِي حُفَرِ الْبَلَى<sup>(٣)</sup>  
وَأَبْقَوْا عَلَى الدُّنْيَا سَوَادَ الْفَيَاهِبِ<sup>(٤)</sup>

لقد أبلوا بلاء عظيماً في حرب الروم قدماً يَقْلُوْرِيَّةً وحدينا بصفتها، وما منهم إلا من يعلم نفسه فداء لوطنه، وما منهم إلا من واقع الروم مراراً وتكراراً حتى اجتمعت له وسادة من غبار وقائعه أَعْدَتْ له ليتوسدها في قبره، وما زالت بهم البطولة المتألمة حتى أفلوا - أَفْوَلَ النَّجُومِ - في حفر البَلَى عَلَفِينَ ورَاهُمْ عَلَى آفَاقِ الدُّنْيَا سَوَادَ حَزْنٍ وَنَكْلٍ لَا يُشَبِّهُ سَوَادَهُ وَيَلْتَفِتُ إِلَى دارِهِ الْفَرِيقَةِ بِنَوْطِسْ وَسَرْقُوسَةِ، وَيَسْتَوْدِعُهَا أَهْلُهُ وَيَسْتَعْطِرُهَا السَّحَابُ الْمَطَرُ، وَيَهْتَفُ:

وَدَرَّتْ عَلَيْهَا مُعْصِرَاتُ الْمُوَاضِبِ<sup>(٥)</sup>  
أَلَا فِي ضَحَانِ أَهْلِ دَارِ بَنْوَطِسْ<sup>(٦)</sup>  
أَمْثَلُهَا فِي خَاطِرِي كُلُّ سَاعَةٍ<sup>(٧)</sup>  
وَأَمْرِي لَهَا قَطْرُ النَّمَوْعِ السَّوَاكِبِ<sup>(٨)</sup>  
أَحْنُ حِنْنَ التَّبِّ لِلْمَوْطَنِ الَّذِي  
مَفَاقِي غَوَانِيهِ إِلَى جَوَادِهِ<sup>(٩)</sup>

وهي تَقْتَلُ لَهُ لَيلَ نَهَارَ وصِبَاحَ مَسَاءَ فِي خَوَاطِرِهِ، بَلْ إِنَّهَا تَمْتَلِّهُ لَهُ كُلُّ سَاعَةٍ وَكُلُّ لَحْظَةٍ، وَيَنْدَرُ لَهُ النَّمَوْعُ السَّوَاكِبُ مَدْرَارَا، وَيَعْنِي - حِنْنَ الإِبْلِ - للْمَوْطَنِ الَّذِي نَبَتَ فِيهِ، وَإِنَّ مَقَانِيهِ وَمَنَازِلِهِ لَتَجْذِيْهُ إِلَيْهَا جَذْبَا، وَكَأْنَا أَوْدَعْهَا فَزَادَهُ وَبِرِيدٍ أَنْ يَسْتَرْدَهُ، حَتَّى لَا يَحْيَا جَسْدَهُ بِدُونِهِ وَدُونِ خَفْقَاتِهِ، وَلَهُ فِي صَقْلِيَّةِ قَصِيدَةٍ ثَانِيَّةَ هَانِيَّةَ يَسْتَهْلِّهَا بِقُولِهِ:

تَضَعُتْ فِي الصُّبَابِ النَّفْسُ أَوْ طَارَهَا  
وَأَبْلَهَهَا الشَّيْبُ إِنْذَارَهَا<sup>(١٠)</sup>

وهي أَشَهَ بِشَرِيطِ لَذَكْرِيَاتِ صَبَاهُ وَشَيَابِهِ فِي سَرْقُوسَةِ، وَيَذَكِّرُ بِمَالِسِ لَهُ بِهَا وَيَذَكِّرُ لَيْلَةَ سَاهِرَةَ وَالنَّدَامِيَّ مِنْ حَوْلِهِ وَسَاقِيَّةَ تَزَرُّرٍ بِكَهْنَهَا أَزْرَارِهَا:

نَدِيرِ بِيَاقُوتِيَّةِ دَرَّةٍ فَنَفَسُ فِي مَانِهَا نَارَهَا

وَيَشْرِبُهَا رَفَاقَهُ، وَيَعْنُونَ فِي الشَّرَبِ، وَيَنْهَوْنَ إِلَى دِيرِهِ، يَخْتَسِونَ الْخَمْرَ، وَيَطْبَلُ فِي وَصْفِ

(١) حُومَة الْوَغْىِ: أَشَدُ مَوْضِعٍ فِي الْمَرْبَ.

(٢) عَجَاجِاتِ جَمِع عَجَاج: غَبَار.

(٣) الْمَنَاكِبِ: التَّوْقُ. مَفَاقِي: مَنَازِلِ.

(٤) الْمُعْصِرَاتِ: السَّبُبُ الْمَطَرَةُ وَالْمَوَابُ:

(٥) أَمْرِي الْمَوْعِدُ: أَسْكَبْ وَأَنْزَفَ.

(٦) التَّبِّ: التَّوْقُ. مَفَاقِي: مَنَازِلِ.

(٧) الْمَطَرَةُ وَالْمَوَابُ: الظَّلَامُ الشَّدِيدُ.

(٨) أَوْ طَارَهَا جَمِع وَطَرِ: الْبَغْيَةُ وَالْمَاجَةُ.

مجلس الطرف، ويدرك ما فيه من الفتنة والرقص والشروع المتقدة فائلاً:

لقد سُكّت حركات الأسى  
فهذا نعاق عوداً لها  
وراقصة لقطت رجلاً لها  
و قضى من الشمع مصفرة  
كأنّا نُسلط آجاماً  
عليها فتشقّ أعمارها

وإن للفتنة هناك من القباب لنشوة تسكن حركات الأسى في النفس أو تارها بما تصب في الآذان من نغم يدبّع، والعود مستند إلى صدر قبة كأنه يماقها، وقبة أخرى كأنها تقيل مزمارها، وراقصة كأنها تلقط قدمها نقر صاحبها يدها على طارها، متفتنة في حركاتها، والشروع متقدة طول هذا المجلس اللامي، وكأنها آجالها تتقصّ أعمارها تدريجاً حتى تتحقق، وينتهي شريط الذكريات ويعُنّ إلى صقلية مستودع صباحه وشباهه وليله أنسه ومرحه، ويفت.

ذكرت مقلية والأسى  
يموج للنفس تذكرةها  
ومنزلة للتصابي خلت  
وكان بنو الله عمارها  
فيان كت أخرجت من جنة  
فلاني أحنت أخبارها  
ولولا ملوحة ساء البكا  
خلت دموعي أنهاها

وهو يذكر صقلية ومنازل صابيه وشباه فيها والحزن يقطع نياط قلبه عليها حسرة ولوحة، ويقول إنها لجنة عظيمة أخرجت منها، وحرى بي أن أحدث أخبارها وأبكيها بدموع غزار، ويدرك أنه سيكياها عشرات السنين بأهوار من الشروع لا تتوقف سيرها، ولعلها توقفت قليلاً حين أبجهه انتصار جيش الحسن بن علي بن أبيه بن تيم سنة ١١٣٧ هـ / ٥١٧ م على جيش الملك روجار الثاق في وقعة الدبياس بمنتصف الطريق بين المستير والمهدية على الساحل التونسي، وكان روجار يبني الاستيلاء على المهدية، فردد جيشه مدحوراً إلى صقلية، وأشاد ابن حديس بهذا الانتصار إشادة رائعة في قصيدة له رائية يधج بها الحسن بن علي بن تيم مهنتاً له بالنصر على الأعداء من التورمان:

**ليفنك فتح أولئك السيف فيهم**      **ولاح بوجه الدين من ذكره بشرٌ<sup>(١)</sup>**

(١) أولئك السيف فيهم: جمله بلغ وشرب من  
دمائهم.

قد لاند أعناق هي القُضبُ البُشُرُ<sup>(١)</sup>  
له غرق في زخرفة الموج أو أنسُرُ  
فهم بالعواضي في جزيرته جُزرُ<sup>(٢)</sup>  
بطعن له بُشَرٌ وضرب له هُبُرُ<sup>(٣)</sup>  
خنازير شَهْتَ حَرِبَها أَسْدُ هُصْرُ<sup>(٤)</sup>

ودون مرام الرُّوم فيما سَعَا له  
وكم من فريق منهم إذ تمرّقوا  
فَلَلْ عنهم الديماس تسعّ حديثهم  
هناك شفى الإسلام منهم غليلة  
أغارب جَلُوا في جهاد أعلام

وهو يهنته بهذا الانتصار المروع الذي جعل السيف تلغ في دمائهم وتشرب منها مرتبة،  
وكانوا ابن حديث نفسه هو الذي يشرب منها محاولاً أن يشفى غليله من النورمان وقد استبشر  
وجه الدين بشرا لا يماثله بشر. ويقول إن فنياً تطلعوا إليه من استيلائهم على الساحل التونسي  
قد لاند من الرماح استأصلت أعناقهم وتغزّوا كل مزرق، ووقع منهم فريق في قبضة الأسر وفريق  
غرق في زخرفة الموج، وسلّ عنهم حصن الديماس الكبير يجيك أن عيذاً كبيراً نصب لنحرهم  
وذهبهم في جزيرته بالسيوف المواضي، وهناك شفى الإسلام غليله وغيظه بطعن وضرب يقطuman  
أجسادهم تقطيعاً، وبعثي الجيش الباسل إنه جيش أغارب صدقوا في حملتهم العنيفة على الرؤوم  
الخنازير، وإنها لحملة أسد افترسهم، أسد أعزّ ألقها بها الدين الحنيف. والقصيدة من أروع  
القصائد في جهاد الإسلام وتدمير جيوشهم تدميراً لا يكاد يبقى منهم باقيه.

ولم يلبث أن عاد إلى حزنه على وطنه الضائع، وعاد إلى شعوره بغربته، وهو شعور لازمه  
طول حياته، وطالما ردد في قصائده وجاءه وهو في سن الثمانين نعي ابنته، ولم تكن تظن أنه على  
قيد الحياة فبكاهما يقوله:

أراف غريباً قد بكيت غريبةَ كلاماً مشوقَ للمرأطن والأهل  
﴿ بكتني وظنتُ أنتي متُ قبلها فعشتُ وما تـ - وهي محزونةَ - قبليَ

واجتمع عليه حزنه في فلذة كبده بحزنه في وطنه أو فردوسه المفقود، ودار به العام فليبي نداء  
ربه سنة ٥٢٧هـ ١١٣٣ م في بجاية، وما تعرف العربية شاعراً عاش يتجمع على وطنه ويعن إلينه  
كما تعرف في ابن حديث، إذ كان يشعر شعوراً عميقاً بأنه كان كل شيء في دنياه، بل كان  
فردوسه الذي أخرج منه كما أخرج أبوه آدم قدیماً من الفردوس، ويشعر كأنما ألق ذنبها كبيراً  
كذنب أبيه آدم، بل لأنما غربته المستمرة وتطوافه في الأفاق إصرار منه على ارتکاب هذا  
الذنب:

(١) القضب البَر: السيف القاطمة.

(٢) المواضي: السيف. جذر جمع جزور: الذبيح.

(٣) هُبُر: قطع، واستئصال.

(٤) هُصْر: جمع هصورة: مفترس.

ألم تر أنا في نَوْيَ مستمرٌ نروح ونغو كالمرّ على الذِّئْبِ

وديوان ابن حديس ديوان ضخم وقد حققه تحقيقاً دقيقاً الدكتور إحسان عباس وهو يوح بقصائد المدح كما يوح بقصائد الغزل ووصف الطبيعة والخمر وبجالها، وكأنما يريد أن يفرق فيها لوعاته على ضياع صقلية وظللت تشتعل في دخائله إلى آخر أنسائه، وللصبد أراجيز بديبة في الديوان وبالمثل للرثاء وخاصة لمن فقدتهم من أسرته وذوي رحمه، وتلمح من حين إلى آخر مقطوعات في الرزد لعله نظتها بأخرة من حياته، وغرض وحيد من أغراض الشعر العربي لم ينظم فيه بيتاً هو المجام، إذ كان يترفع عن الشتم والبذاءة، يقول:

إذا اصرُّ - وطبع الحق تضدى - مطهُر العَرْضِ لا أدتو من الدُّنْسِ

فما أحْرُكَ في فَكُّ عن غضِّ لسان متنهش الأعراض متنهش

فهو طاهر النفس يسمو عن كل دنس فضلاً عن دنس المجام، وهو حليم لا يغضب غضاً يخرجه عن طوره، فينتهك أغراض الناس وغضض لحومهم موجودةً وغلاءً، وليس ذلك عن ضعف في شاعريته، بل هو المفو والمفع عن مقدرة، يقول:

إذا اصرُّ لا ترى لسان	منظماً ما حبَّتْ هجروا
كم شاتم ل عفوتْ عنه	مسماً في اللسان نوا
لو شنتْ صيرتْ بالقواف	غارة هجوى عليه شفراً
ومزق القولْ منه عرضاً	لا يجد المدح فيه رفواً

فقد عاشر نفسه أن لا ينظم هجاء طوال حياته، وأن يغفر عن يشتمه، ولو أراد لتناثر على خصمه حلات شعواء من هجائه ولمزق عرضه وفتكه هتكا لا يمكن أن يرفوه مدح أو يرقق فتوقه صنيع. وفي ذلك دلاله واضحة على نيل خلقه وسمو نفسه.

وكان خياله خصباً إلى أبعد حد مما جعله ينفذ إلى كثير من الصور المبتكرة الفريدة، وهي تلقانا في جميع أغراض شعره مفاجئة لنا، مما يحدث تأثيراً بعيداً في نفس قارئه كقوله في الغزل:

زادت على كُعْل الجفون تكعُلَا فَبِسْ نَصْلُ السُّهْمِ وهو قَنْوُلُ

والشعراء قهله كانوا يتعددون عن سهام العيون وأيتها قاتلة، وزاد ابن حديس أن سهام عيون صاحبته أشد قتلاً وفتاكاً باضافتها إليها من تكحل جعلها سهاماً مسمومة، ما إن تصيب شخصاً حتى تفقد حياته، ويقول في نهر لعله نهر إشبيلية مصوراً خرير مياهه:

جريحٌ بأطراف العَصَا كلما جَرَى عليها شَكَا أوجاعَه بِخَرِيرِه

وهو خيال بديع، فأطراف الحصا كأنما تجرح النهر وكلما جرى عليها شكا جاءه بخبريه، وكأنها هي أوجاع ابن حمليس لفراقه وطنه إلى الأبد، ومن تلك الصور الفريدة قوله في البرد:

نَسَرَ الْجَوُّ عَلَى الْأَرْضِ بَرَدٌ أَئِ ذَرَ لَنْحُورٍ لَوْ جَذَ  
وَكَانَ السَّهَاءُ لَا تَقْطَرُ بَرَدًا وَإِنَّ قَطْرَ دَرَدَا تَطْوِقُ عَقْوَدَهَا جَيدُ الطَّبِيعَةِ بِالْأَلْهَا الْمُتَسَاقَطَةِ مِنْ  
أَصْدَافِ السَّحَبِ. وَيَطْوُلُ بَنَا القَوْلُ لَوْ أَرْدَنَا أَنْ نَعْرُضَ فَرَانِدَ ابْنِ حَمِيلِيسَ مَا يَفْجَأُ بِهِ قَارِنَهُ  
مِنَ الصُّورِ وَالْمَعَانِي الْمِتَكَرَّةِ. وَهُوَ بِحَقِّهِ يَعْدُ فِي النَّرْوَةِ الرَّفِيعَةِ لَا مِنْ شَعَرَاءِ صَقْلَيَّةِ وَحْدَهَا، بَلْ  
أَيْضًا مِنْ شَعَرَاءِ الْعَرَبِ وَالْأَنْدَلُسِ قَاطِنَةً.

## الفصل اخت مس النثر وكتابه

### نشاط النثر

من المؤكد أن النثر الفنى من رسائل وغير رسائل نهض فى صقلية كما نهض الشعر، وكما نهضت العلوم الدينية، ومن يرجع إلى المزريدة ومن ترجم لهم من الشعراء هناك يجد أنه ذكر في عنوانات الشعراء أنهم كتاب، ذكر ذلك مع خمسة عشر شاعراً، ونوه في غير كتاب بإحسانه في الكتابة كأن يقول في البشري الشاعر الكاتب: «بائعه في الترسل أشد، وخاطره في النثر أحد» ويقول في عل بن الحسن بن الطوبي : «مؤلف دفاتر، ومصنف جواهر، ومقلد دواوين» يشير بذلك إلى أنه من كتاب الدواوين، ويصف نثره بأنه جواهر، ويقول عن ابن القرقرى إن ابن القطاع أتقى على نظمه ونثره كثيراً، كما يقول إن ابن القطاع ذكر عن هاشم بن يونس الكاتب أنه صاحب ترسيل ومقامات وعن محمد بن الحسن الطوبي أنه كان صاحب ديوان الرسائل والإنشاء متربلاً شاعراً، ويقول القبطي عنه: عالم بالرسائل، وكلمه في نهاية الفصاحة، وشعره في غاية الملاحة، وله مقامات تُزَرِّى بمقامات البديع، وإخوانيات كأنها زهر الربيع».

وكل ذلك يدل على أن صقلية حازت لنفسها في النثر نشاطاً واسعاً، بل إن من كتابها - كما يقول القبطي - من كانت مقاماته تُزَرِّى بمقامات البديع، وسقطت تلك المقامات من يد الزمن كما سقطت معها الرسائل البديعية شخصية ورسمية مما دُبِّجه الكتاب هناك قبل المencer التورمانى وأيضاً ما كتبوا وذهبوا من أعمال أدبية متنوعة، ولو لا أن ابن سما ترجم لمعرض من شادروا صقلية من الكتاب البارعين قبيل العهد التورمانى مثل ابن الصباغ، وسنجحه بكلمة. وأيضاً لو لا أن ابن بشرون المهدوى زارها في عهد روجار الثانى واحتفظ في ترجمته لمعرض شرائنا - وأقصد عيسى بن عبد المنعم وابنه محمد - ببعض رسائلهما ما استطعنا التعرف به بوضوح على ما حظى به النثر هناك من نهضة ورقى ، وسنراهما واضحين عند كتابها المتأخر ابن ظفر، وسنفرده بترجمة قصيرة.

أما عيسى بن عبد المنعم فيذكر العقاد عن ابن بشرون أنه: «كان كبير الشان، ذا الحجة والبرهان، فقيه الأمة، وأمثل الأئمة، له المعان الأبكار البعيدة مرامي مرامها، والألفاظ التي هي

كالرياض جادها هامي رهامها (غينتها)» ويقول العماد إنه أورد من كلامه ما يأسر سماعه الكلوم (الجلد)، ويجلو سناً إحسانه العلوم، وبمحكم درر الأصداف ودراري (كواكب) النجوم.. ويدرك له العماد فصولاً من ثلاث رسائل، أولاهما في براعة صديق له في خطه الرائع وبلاعنه البدية، ومن قوله فيها:

«نظرت من الكتاب إلى خط موصوف، معتدل المزوف، أملس المتون، مفتح العيون، لطف الإشارات، دقيق الحركات، بين المعاطف والأرداف، مناسب الأوائل والأطراف، يرافق العيون حسنه وشكله، ويعجز المعادل صنه، متضمناً معانٍ كأنها رقية الزمان، وصمة (اللهي) الأمان.. وقلت سبحان رب القيوم: {أفسحُرْ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصِرُونَ} أكل هذا الإحسان، في طاقة الإنسان.. ثم رجعت إلى نفسي، وتاب إلى جسبي، فقلت عند سكون جاشي (نفس) ونبوت طيشي، وإفراح رويعي وذهب دهشى، إن من دب في الفصاحة ودرج في وكرها، ورضع بليانها، وجرع من درها (لبها الكبير) وصعب السادات مقتبلاً (شابها) والأجداد مكتهلاً خلائق أن يجعل من الفضل وسانده ويسعى قطريه، بل يستولى على غواربه (أعلايه) وعلك شطريه».

وانتخاب الألفاظ واضح في الرسالة مع المقدرة البينة على وصف الخط البديع وما يحسن عيسى بن عبد المنعم من وصف بلاحقة صاحبه، مع ما يزين وصفه من سبع أحياناً وهو سبع طيبين لا تتكلف فيه، إذ يأتى به في تضاعيف الكلام دون محاولة التصل له، وليس ذلك كل ما يزين به وصفه فهو يزيشه بعبارات تصويرية كوصفه المانع في رسالة صاحبه بأنها «رقية الزمان وصمة الأمان» وكوصف صاحبه بصور متلاحقة إذ يقول إنه «دب في الفصاحة ودرج في وكرها، ورضع بليانها، وجرع من درها». ويتبع العماد فصلاً من رسالة ثانية لعيسى بن عبد المنعم أسقط فيها حرف الأنف واللام مشيداً في مطالعها:

«رقق نحوك سيدي وستندى، وذُخْرى وعَضْدى، ومن بَدَّ (١) وَبَرَّ، فَذَهَرَهُ، وَوَحِيدَ عَصْرَهُ، وغريب زمنه، وتسبيح وحده، مُدْ رَبِّ مُدْتَكَ في مربوب (دائم) نعمته، ومدد نضرته، وكتب نكب (٢) عن ودك بعظيم ذُخْره (المذخر لك) ومخوف زجره.. وسوَّغَك من ضَرَبَ (٣) نعمة يهينه، ومريره (٤)، ومتلك من موفور قسمه (٥) بمحميده، ومزيده».

ولا يحسن القارئ للرسالة بما تكلفة عيسى بن عبد المنعم من إسقاط الكلمات ذات الأنف واللام لمقدرتها البيانية، وكان كتابة سهلة لم يتاثروا في كتابة رسائلهم بأسلوب السجع الذي عم في المشرق منذ أواسط القرن الرابع المجري، بل تاثروا أيضاً بما شاع في كتابة الرسائل من

(٤) مريه: ساقه.

(١) بَدَّ: سبق، بَرَّ: غلب.

(٥) قسمه: ما يخصه للناس.

(٢) نكب: انحرف.

(٣) الضرب: عمل التحلل.

ضروب تصنف مختلفة كأن تخلو الرسالة من حرف معين كهذا الرسالة أو يطرد حرف معين في جميع ألفاظها على نحو ما صورنا ذلك مرارا في عرضتنا للكتابة الأدبية بالشرق وفي الأندلس. وأحکم عیسی بن عبدالمنعم في هذه الرسالة انتخاب الألفاظ والأسجاع، ولم يكتف بالسجع من حيث هو، بل طلب فيه القصر حق تكون الرسالة وافرة النغم، وعُنِّي في السجع بتصاویر كثيرة . ورسالة عیسی بن عبدالمنعم الثالثة في العتاب وفيها يقول:

«لولا أن ذنوب الحبيب، تصرّ عن التأنيب.. لكان لنا وللنبيس مجال واسع ومنسع بالغ فيها أثاء، إن لم نقل جناه، وفيها وعد فأخلف، إن لم نقل الذنب الذي افترى، ومها أجلتنا قدره عن أن ينسب إليه خلف الوعد وإن كان جليلا، ما عنده إذ لم يكتب بوجه المذر أنه ما وجد سبيلا، وقد كنا نتوقع تدانى العناق، فصرنا نتفق بأمانى اللئاق».

والعناية بانتخاب الألفاظ والأسجاع واضحة في الرسالة، مع رهافة الشعور في مثل قوله: «ذنوب الحبيب، تصرّ عن التأنيب» وقوله: «كنا نتوقع تدانى العناق، فصرنا نتفق بأمانى اللئاق».

وقد ترجينا لابنه محمد بين الشعراء وعرضنا هناك إشادة ابن بشرون به في الفصاحة والقطعي به في علوم الأولئ، وألمتنا ببعض مراتبه البديمة، وساق له العاد عن ابن بشرون فصولا من ثلاث رسائل، مثل أبيه، وأولوها في التشوق إلى صديق عزيز، ومن قوله في صدرها:

«أخى ومسولى علَى الدهرِ يجتمعُنا بمنزلِ عن جمِيعِ الشَّرِّ مُبْتَدِي  
شوقى إلى لقائك شوق الظُّمان إلى الماءِ الزُّلزالِ (الذهب الصاف) وارتياحي إلى ما يرد من تلقائك ارتياح السقيم إلى الصُّحَّةِ والإِبَلَالِ، وتلهفي على فراقك تلهف المغيران، وتأسفى على بعده تأسف الوطان، لكننى إذا رجعت إلى شاهد العقل، وعدلت إلى طريق العدل، يمازج قلبي سرورا، ويختلط شوقى بهجة وحبورا.. فأفرز إلى الدعاء لقدر الأمور، الذى (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) أن يحسن لنا المُقْبَى، ويقضى لنا بالحُسْنِ، ويسهل علينا من المافية سترا سابقاً ضافيا، ويووردنا من السلامة مورداً سانغاً صافيا، وأن يقرب بك الاجتماع، حيث يوجد الاستمتعاع، بما تقرّبه الأعين وبذلك الأسماع».

ومحمد لا يقل عن أبيه عیسی بن عبدالمنعم في براعة اختياره للألفاظ وروعة انتخابه للتصاویر، مع حسن الأسجاع وكأنه يريد أن يرضى الأذن بما تجده في الألفاظ من جمال الجرس. وفي المعانى والتصاویر من الحسن الفائق، وربما تفوق في ذلك كله على أبيه. وله من رسالة في عتاب بعض خُطَّاصاته:

«قد عاملنى في مشاهد هذه الأيام، التي قُمت (قهرت) الخاص والعام، بأشياء لو جرت بيني وبينه على خلوة لعدتها من الذيد الأنس، لكنها أتت في الملا (أشراف الجماعة) بما آلم النفس، واحتفلت بذلك منه، رجاء أن يقلع عنه، فازدادت لجاجة، وزدت حرارة (ضيقا) حتى استفحَلَ

الثنا (الناقوس) على سبب ذلك المزاح، واستترس البغاث إلى وهز الجناح.. وأعرضت عن أشياء لو شنت قلتها، ولو قلتها لم أبق للصلح موضعًا، وأنا أحرص على صحته ومن يرعاها حق رعايتها.. فأحب أن يحسنظن بي، والذكر عن، فإن فعل ذلك فعل الأشكال (الأشيه) به، والأليق بآدبه، والأول بجميل منهيه. وقد أطفأت هذه المعانة ناراً مُوحّدة (مطبة) وببردت من صدرى غلة موقدة».

والرسالة عتاب لشخص لا يعرف متى يازحه، إذ يازحه بما قد يقبله منه في الخلوة، أما أيام الناس فلن المزاح يصبح كأنه هزء به وسخرية منه، ولذلك يقول، ومع ذلك يقول إنه يحمله رجاءً أن يكف عنه ولكنه لا يكف، حتى تماظم من لا وزن لهم عليه، وحتى «استتر البغاث» وهو مثل يضرب لن استشعر العزة بعد الهوان، إذ البغاث من أضال الطير فشعر كأنه أصبح نسراً. وأضاف محمد بن عيسى إلى ذلك إضافة بدعة، إذ قال إنه استتر وهز الجناح كنابة عن شعوره الشديد بالعزّة إزاءه.. ومع ذلك كله يصف محمد بن عيسى عن هذا الصديق الثقيل، إذ التزم له التجلة أيام الناس.. والرسالة تختلف من السجع أحياناً، مما يدل على أن محمد بن عيسى لم يكن يتکلفه دانياً، وكأنما كان يجري على لسانه عفواً.. وله من رسالة في الشكر لشخصية مهمة ينقى على حضرتها قائلاً:

«إن غرس فضلها السابق إليه أثمر عنده شكرها وحدها، وأثبت لديه محبة ووداً، وإنه من بواسطتها لعل صراط مستقيم، ومن الإقرار بفضلها لعل منبع قويهم، ومن الدعاء لها لعل حال مقيم، وكيف لا يكون كذلك وقد صرّه سالف إحسانها في الرّق، ومثله فارتّ امتنانها ملك المستحق، فهو لا يفتر من جليل شكرها لساناً، ولا يغلّ من خلوص ودها جناناً».

والفصل - على شاكلة فصليه السالفين - في دقة اختباره للألفاظ والأسجاع حتى تنزلق عن الألسنة في يسر، وحتى يحسن وقعاها في الأسماع، وهو لذلك لا يزال يلاتم بين اللفظ واللقط، وبين المعنى والمعنى وبين الصورة والصورة، حتى يلذ الآذان والأذن والأذن حين تقرؤه أو تنصفي إليه.. وحرى بنا أن نتوقف قليلاً بازاء الكتابين الصقليين: ابن الصباغ وابن طفر.

### ابن (١) الصباغ الصقل

هو أبو عبد الله محمد بن الصباغ، من أدباء صقلية وكتابها البارعين، تألق اسمه فيها لأواخر عهد بن أبي الحسين الكلبيين بالقرن الخامس الهجري، وحين اضطررت صقلية بعدهم واستقلّ

محمد بن علي بن الصباغ الكاتب وقال عنه: كان فـ  
عهد ابن رشيق المتوفى سنة ٥٦٤ و قال كانت بينها  
الخطيرة لابن القطاع ص ٨٣ باسم أبي عبد الله  
مراسلات.

(١) انظر في ترجمة ابن الصباغ النخبة ٤٠٨/  
ولعله هو نفسه الذي نقل ترجمته المصادر عن العروة  
الخطيرة لابن القطاع ص ٨٣ باسم أبي عبد الله  
مراسلات.

كل قائد فيها بعنطقه غادرها إلى الأندلس، واستوطنها، وفيه يقول ابن سام: «أحد أدبها وقته المشاهير، وكلامه يعرب عن أدب كثير وحفظ غزير». ويعرض طائفة من فصول رقاعه ورسائله، من ذلك فصل من رقعة وجّه بها إلى ابن الشامي متول الأرض التي كانت تتملكها الدولة في المدن التي افتتحت عنده، راغباً في أن يكلم له أمير صقلية صمام الدولة آخر الأمراء الكلبيين الذي تولى الجزيرة بعد أخيه الأكحل سنة ٤٢٧ كي يحرر له أرضاً للدولة كان اشتراها ما عليه من ضريبتها، وربما من دين للدولة كان لا يزال مدينا به، وبغضي صدر الرسالة على هذا النط:

«إذا الحاجات عَنْ بَهَا رَجَالُ  
وَقَلَّتْ حِيلَةُ الشُّفَعَاءِ فِيهَا  
فَعَوَّلْتُ نُجُومَهَا بِهِ الشَّامِيُّ  
دَرَارِيُّ الْمُلَّا حَفَّتْ بِسِيرِ  
مَنِيرِ فِي سَاهِيِّ الْمَجَدِ سَامِيُّ

ويعلم - أداه أقه تفكينه - مذهبى في التخفيف، وتحمل متونه التكليف، إلا فيها تلجمي الضرورة إليه، ويحمل الأخطهاد عليه، وكنت من ترفيه النفس عن الامتنان، والقناعة بما تسمع به نفس الزمان، في حالة يعلم - حرس أقه مجده - تقلبي في أشنانها، ومقبلني (قيلوتني) في أفيانها (ظلالها) حتى عرض لي من سوء القضاء، ما أجار بالثار من الرّمضان (شدة الحر) فرسول لي العرّص الذي ما شئت (رأيت) له بارقاً، والطبع الذي ما ركت قط له عانتها (منكباً) النظر في إحداث بستان في خرائب آخرت مالي، وشفلتني عن كثير من أشغالى، وصررت منتفقاً ما جمعت في الفربة والوطن، وكسبت في الإقامة والظمآن (الارتحال) بين جدار فيها أهدمه، وغار أردمه، وأرض أرفع مرة وهادها، وأخفض تارة تبعادها (مرتفعاتها) حتى استوت ساحتها وتوطدت (تمهدت) وغابت مغارتها وتفطّت، وانكشطت أستمتها وانحطّت... ولا يقدّر على سقئ دوحاته، ولا يتوصّل إلى إحياء مواته، إلا بدولاب (ساقية) وجابية (حوض) يأخذان الماء أخذة رابية (شديدة).. ومنى أعلم الأمير أن هذه الغرائب التي عانى ولية غراسها لا يُرجئ لها عمارة تعود بقائه، ولا ينتفع الديوان منها بدرهم واحد، وساكنوها منذ أعوام ما أدى واحد منهم خراجاً، ولا صنع لبيته باباً ولا زجاجاً (باباً كبيراً) فهو بين قوم يأكلون الشجر قبل التمر، ويرعون الألب (العثاش) قبل العنب».

والرسالة قطمة أدبية بديمة، وهي مكتوبة بأسلوب السجع الذي يتعانق اللسان بعنطقه والأذان بسماعه، وتختلط بصور تعاقب فيها ومشاهد بديمة كمشهد إصلاح ابن الصباغ للأرض وإعدادها للزرع بين جدار يهدمه وغار يرمده ونجاد يخضها ووهاد يرفعها حتى غابت مغارتها وانكشطت أستمتها وانحطّت. فهو ليس حانك أسبجاع وراسم تصاوير فحسب، بل هو أيضاً

مصور يعرف كيف يعرض عليك مشهداً بأكمله كأنك تبصري وتراء. وهو إلى ذلك خفيف الطلل يعرف كيف يسرك بالكلم، وكيف يورد عليك ما يضحك ستك على نحو ما صور ساكنى أرضه وبستانه، فمنذ أعوام لم يزد واحد منهم خراجا، ولا صنع لبيته بمايا ولارناجا، وإنهم - لفقرهم المدقع - ليأكلون الشجر والأبَّ ومراعيه كالأتream قبل النهر والحب. ولابد أن ابن الشامي وصمصان الدولة ضحكا طويلاً حين وصلا في الرسالة إلى هذا المشهد الضحك . وهذا الجانب الفكه في ابن الصباغ اتضاع بصورة أوسع في رسائل ساقها له ابن سمايم حين استوطن الأندلس وصاحب هناك الأديب أبي حفص القعيبي، وكانت فيه بدوره دعاية، وحدث أن ماتت له هرة، فجلس للعزاء عنها ماجتنا، فما كان من ابن الصباغ إلا أن كتب له رسالة عزاء فيها، ومن قوله في بعض فصوصها:

«الْحَيَاةُ لِبِنِ الدُّنْيَا مَرَاحِلُ، وَالْمَنَابِيَّا لِجَمِيعِهِمْ مَنَاهِلُ، وَالْأَعْمَارُ، كَالْأَسْفَارِ، مِنْهَا الْقَرِيبُ  
الْوَصُولُ، الْمَاجِلُ الْمَحْلُولُ، وَمِنْهَا الْبَعِيدُ الشَّفَقُ، الشَّدِيدُ الْمَشْقَةُ، أَنْفَاسُ مَعْدُودَةٍ، وَآجَالٌ مَحْدُودَةٌ،  
وَلَيْسَ يَنْجَى مِنْ عَتَّومَهَا أَحَدٌ، وَلَا لِخَلْوَقَ مِنْهَا مُلْتَهِدٌ (مُلْجَأٌ). وَانتَهَى إِلَىٰ - جَمِيلُ أَهْلِ الصَّبَرِ  
الْجَمِيلِ سَبِيلَكِ، وَأَطْفَلُ بَيْرَدُ السُّلْوَانِ غَلِيلَكِ - ثَنَّا جَلَلُكِ، وَخَطْبُ مَعْضُلٍ، وَهُوَ مَصَابِكِ بِشَقِيقَةِ  
نَفْسِكِ، وَمَوْضِعُ رَاحْتَكِ وَأَتْسِكِ، وَرَبِيَّةِ حِجْرَكِ وَحِجْرَتِكِ، وَآتَةِ حِيطَنَتِكِ عَلَىٰ لَبِنِكِ، وَمَا عَالَجْتَهَا بِهِ مِنْ  
ذَرَورَةٍ (حَافَظَة) ذَخَارِتَكِ وَقَنْيَتَكِ (مَا تَقْنَيْتَهُ) وَاسْتَحْوازَ فَجِيْعَتَهَا عَلَىٰ لَبِنِكِ، وَمَا عَالَجْتَهَا بِهِ مِنْ  
ذَرَورَةٍ (مَا يُنَهِّرُ مِنْ الْمَطْوَرِ عَلَىٰ الْمَيْتِ) وَحَنْوَطٌ (مَا يَخْلُطُ مِنْ الطَّيْبِ بِأَكْفَانِ الْمَوْقِ وَأَجْسَادِهِمْ)  
وَإِشْفَاقُكِ مِنْ إِسْلَامِهَا إِلَى التَّرَابِ، وَإِبْقَاكِ إِيَاهَا طَوِيلًا فِي الْمَعَرَابِ، وَأَلْيَتَكِ (حَلْقُكِ) عَلَيْهَا  
لَتَدْعُونَ إِلَى جَنَاحَتِهَا مَائِقًا، يَسْقُنَنَ (أَيِ النَّسَاءِ) عَلَيْهَا جَيْوَبَ الْمَدَارِعِ (فَتْحَاتِ الشَّيَابِ) وَيَقْضِنَ  
مِنَ الْوَجْدِ بِهَا غُرُوبَ (دَلَاءَ) الْمَدَاعِ، وَيَعْوَلُنَ عَلَيْهَا بِالصَّرَاطِ وَالنَّيَاجِ، وَيُنْزِرِينَ (يَرْسَلُنَ)  
لِصَرْعَاهَا شَعْوَرَهُنَ مَعَ الْرِيَاحِ».

وابن الصباغ عزيز أبا حفص القعيبي في هرته، وكانت كانت شقيقة نفسه وموضع راحته وأنسه، كما يقول، أو كأنها كانت محبوبة عزيزة، وهو يبدأ رسالته بأن هذه حالة الدنيا فهي دانيا إلى قناء، أنفاس معدودة وآجال محدودة، ويدعو الله أن يلهمه الصبر الجميل على فجيئته ويطفئ ببرد السلوان غليله، ويزعجه في ربيبة حجره وحجرته، وإضافة حجرته إلى حجره بدبيعة. ويتراومني لنها في الرسالة روح الفكاهة والساخرية مجسدة، وخاصة حين يحدثنـا أن القعيبي أقسم ليعدنـ لها مائـا كبيرة تـشقـ فيه جـيـوبـ النساءـ عـلـىـ مـحـبـوـبـتهـ وـيـفـضـنـ النـسـعـ وـيرـسلـهـ وجـداـ عـلـىـ هـرـتهـ. وـيـعـولـنـ عـلـيـهـ بـالـصـرـاطـ وـالـنـوـاحـ. وـلـاـ نـصـلـ إـلـىـ هـذـهـ الـقـطـمـةـ مـنـ الرـسـالـةـ حقـ تـفـرقـ فـيـ الضـحـكـ، وـيـسـتـمـرـ قـاتـلـاـ لـلـقـعـيـبـ:

«وَلَسْتُ بِنَاسٍ ذَكَرَتْ لِكَ الْمَلْحُ الَّتِي كَتَبَتْ لِي تَصْفُ مِنْ أَخْلَاقِهَا وَآدَابِهَا، وَالْمَلْحُ الَّتِي أَوْرَدْتُ

في أعرافها وأنسابها، والفراتب التي ذكرت عن قوتها وأيندعا، وجيئها وكيدها، ومكرها بالفار وصيدها.. ذات ناب مطلول (عجبب) وساعد مفتول، وخصر مجدول (صلب) رهانة (مغلقة) الكاهل، ظمانة الأسفل، تستضئ من عينيها بأنور من الصباح، وتعتد من مغالبها بأمسى من السلاح».

وابن الصباغ يستمر في روحه الفكهة، فيزعم أن التعين طالما حدثه عن أخلاقها وأدابها وأعرافها وأنسابها ومكرها بالفار وصيدها له في لمحه، ويشيد بجمال تكوينها وقوه بصرها ومخالبها. وهي روح فكهة بديمة لابن الصباغ، مع القدرة البارعة على انتخاب اللحظة وأختها والسبعمة وشققتها مع إحكام التصوير والمشاهد. وحدث أن كانت صديقه العفين جارية سوداء كلف بها تم باعها، وندم فحاول استرجاعها، فزعم مشرتها أنها حامل، وتولأه الأسف، ونظم في ذلك أشعاراً كثيرة، فكتب إليه ابن الصباغ رسالة فكهة يقول فيها:

«نقل إلى بعض من يعرف أحوالك، ويشارف فعالك خبراً يضم الشمع، ويضيق النزع (الطاقة الواسعة) وذلك أنك أخرجت عن ملكك ضفدعتك المريعة (المفرزة) فتاولها من استحسنت غدراته، وبليفك من إقبالها عليه، وانصرافها بكليتها إليه، ما أضرم قلبك شوقا لا تخبو ناره، وسل الوجود بها عضباً (سينا) لا ينبو غراره (حده) فأنتشرت (بعثت) للناس من نفسك (توبه) الأخيلية، وأحييت لهم منك جنون (قيس) العايرية، وغضبت على بيها أنملك، وأنضبت (أهزلت) في طلبها زماملك (إملك) وأطلت في وصف شوتك لها وأوجزت، وقصدت (نظمت) القصائد في ذكر الأسف عليها ورجزت (نظمت الأراجين) وجمعت لها من المعansen ما افترق، وفتحت من البدائع فيها ما اتفق.. فأصبحت والظنو بك مرجة (متكلمة) والألسنة عنك مترجمة، والآخوال فيك كثيرة، والأيدي إليك مشيرة، فتهبه (ازبجر) قلبك، وراجع لبك، واذكر خلقها وخلقها، وتأمل وجهها وعنفها، وانظر خدمها وقلتها، وهل شيء مما يستطلع عندها؟ فهنيئنا أبا حفص راحة بصرك من شخصها المقيت، وفراغ قلبك من الكبد بخلقها المقيت.. وكأنك بك قد أنشدت بيت ابن الرومي فيمن لا يشبهها إلا في سواد الجلد، ولا يشركها إلا في النسبة إلى الجلد، إذ يقول:

أكبها الحب أنها صبغت صبغة حب القلوب والجسد

هيئات.. ما كل بيهاء شحمة، ولا كل سوداء تمرة».

وابن الصباغ يتهكم بصديقه العفين مراراً وتكراراً، إذ يصور عشقه بلاريته وما يضرم في قلبه من نار لا تخبو، حتى لكانها بعث من نفسه توبة بن الحمير عاشق ليل الأخيلية وفينا عاشق ليل العايرية، وينم المجازية دُنْعاً شديداً ترويجاً عن صاحبه حتى يسلوها ويمسك عن ذكرها

وينسها كذا نسيته. وهو يسوق ذلك في لغة عذبة صافية وفي عبارات مسجوعة مصورة منمقة باللغة الروعة، وراجحه القعيدي برقة انتصر فيها لنفسه، فأجاده الصقل برقة على شاكلة رقته السابقة، وإن ما دونه ابن بسام من رقمه ورسائله ليصور للنثر الأدبي في صقلية نهضة وازدهاراً.

### ابن (١) ظفر الصقل

هو حجّة الدين أبو عبد الله محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر المشهور باسم ابن ظفر الصقل، ولد بصفلية سنة ٤٩٧هـ في أيام ملكها التورمان روجار الثاني، رحل من بلده صغيراً في طلب العلم، ويقال إنه نشأ في مكة، ولا نعرف كيف انتقل إليها، وبارجحها إلى مصر ثم إلى إفريقية، وأقام بالمدية مدة في زمن الحسن بن علي بن تميم آخر ملوكها الصنهاجيين، وشهد بها المرووب بين روجار الثاني ملك صقلية والحسن المذكور، كما شهد أخذها منه واستيلاء التورمان عليها سنة ٥٤٣هـ ورحل إلى صقلية وفيها تعرف على قائد سلم من قوادها يسمى محمد بن أبي القاسم القرشي، وبقي عنده فترة أكرمه فيها غاية الكرم، مما دفعه إلى تصنيف أربع مؤلفات أهداناً إليه جميعاً، ولم يحيف عن الزمانيتين منها، وهذا أساليب الفنية في إحكام آية ومتنى الاستئناف للمعونة والإشراف، واحتفظ باثنين طبعاً ونشرها هما: أبناء نعيان الأبناء، وسلوان المطاع في عدوان الأتباع، وسلنم بها عيا قليل، وعاد من صقلية إلى مصر، ورحل منها إلى حلب وأقام فيها بمدرسة ابن أبي عصرون، ووافت فيها فتنة بين الشيعة وأهل السنة ثبت فيها كتبه، فخرج منها إلى مدينة حماة فصادف من أهلها طلابها قبولاً فسكن بها، ويقول العmad الأصبهاني: «كان إمام وقته في التفسير والأدب، رأيته بحمة مقياً، ونفسه طلة العلم إليه هيما (عطشى) وأجرى له راتب في ديوان حماة، غير أنه كان دون الكفاف»، فلم يزل يكافد الفقر إلى أن لبى نداء رباه سنة ٥٦٧هـ للهجرة. وكان تفسير القامة تفتحمه العين، غير أنه كان علاماً في التفسير واللغة والأدب غير التأليف والتصنيف، وإن كانت أكثر مصنفاته ومؤلفاته سقطت من يد الزمن، ومنها في التفسير ثلاثة كتب: التفسير الكبير وبنبوع الحياة وإكسير كيماء التفسير، وحاشية على كتاب درة الفواص للحريري ردّ فيها عليه، والمطلع شرح مقامات الحريري، والمحضر شرحها أيضاً، والتنقيب على ما في المقامات من الغريب، وخير البشر بخير البشر ذكر فيه الإرهاصات التي كانت بين يدي ظهور الرسول ﷺ، وأرجوزة في الفرانص، وكتاب الاشتراك المقوى، وكتاب ملح اللغة فيها اتفق لفظه واختلف معناه وكتاب القواعد والبيان في

(١) انظر في ترجمة ابن ظفر المزريدة قسم ١٤١/١ والعقدتين في تاريخ البلد الأمين للفاسى الشام ٤٩٢/٣ وإن خلakan ٣٩٥/٤ وطبع القاهرة) ٣٤٤/٢ وبقية الادباء والكتبة الصقلية لأمارى ٦٥٩، ٦٦٥، ٦٧١، ٦٨٩.

(١) انظر في ترجمة ابن ظفر المزريدة قسم ١٤١/١ والعقدتين في تاريخ البلد الأمين للفاسى الشام ٤٩٢/٣ وإن خلakan ٣٩٥/٤ وطبع القاهرة) ٣٤٤/٢ وبقية الادباء والكتبة الصقلية لأمارى ٦٥٩، ٦٦٥، ٦٧١، ٦٨٩.

النحو. ونلم يكتابه البارعين في الأدب وما أبناء نجفاء والأبناء، وسلوان المطاع في عدوان الآباء.

### أبناء نجفاء الأبناء

كتاب تربوي عرض فيه نجابة الصفة من أبناء الأمة العربية في حداياهم، وأضاف إليهم بعض من عرّفوا بنجابتهم في الصغر من الفرس وزراء للعباسين أو ملوكاً في القديم، واستهل به بأخبار القرية البتمية المهداة إلى الأمة الإسلامية محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعض ما ذكر عنه قبل بعثته، تيسناً بذكره العطر، ثم وزع الكتاب على أربعة أصناف من روّت الأخبار عن نجابتهم في صغرهم، والصنف الأول عشرة من كرمهم الله بصحابة رسوله، وهم أبو بكر الصديق وعل بن أبي طالب والعباس عم الرسول والحسن وحسين حفيدهما والنفس الزكية محمد بن علي ومحاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر الطيار وعبد الله بن الزبير، والصنف الثاني في ذكر طائفة من أبناء الصحابة النجباء وغيرهم مثل عبد الملك بن مروان ويزيد بن المهلب والمأمون، والصنف الثالث للنجباء في الصغر من الزهاد والمنصوفة، والصنف الرابع للنجباء من عرب الجاهلية في الحدايا مثل لبيد ومن ملوك الفرس مثل بهرام جور، ويقول ابن ظفر في مقدمة الكتاب: «وبعد فهذا كتاب أودعته من أبناء نجفاء الأبناء ما هو كثرة من ضرام (نار مضطربة) بل قطرة من رهام (غثٌ منهر) لأنّي قصدت به تلقيح همة غلام وتنبيح فلة كهام (بليد). ففرضه من الكتاب تعليمي، ليبعث الحمة في الناشئة بما يعرض عليهم من هم نظائرهم، وليشهد أذهانهم بما يعرض عليهم من فطن قرنائهم، وأيضاً ليختنوا من خلقهم وحسن سلوكهم أمثلة رفيعة يقتدون بها في حياتهم، ونصرب لذلك مثلاً بما ساقه في الصنف الثاني مما يدل على نجابة الفضل وجعله أباً يحيى البرمكي ووزيري هرون الرشيد فيما بعد. وعادة إذا كان الحديث عن شخص يجعل له عنواناً: دُرّة زين لقرءة عين، وإذا كان عن شخصين مثل الفضل وأخيه جعفر يجعل العنوان: درتا زين لقرءة عين أي لسرقة الأب والأم، ويدرك أن ابن صاحبة لأمهما سألهما عن ابتيها أيهما يفضل صاحبه قاتلاً إن الناس مختلفون فيها منهم من يقلم الفضل ومنهم من يقدم جعفراً، فقالت له: أحدثك عنها واقض أنت.

«إنهما كاتنا يوماً يلعبان في داري، فدخل أبوهما يحيى، فدعاه بالنداء وأحضرها، فنظمها مده ثم آنسها بعديته، فقال لها أتلعبان بالشترنج، فقال جعفر وكان أجرأها: نعم، قال فهل لا عبت أخاك بها قال جعفر: لا، قال: فالعبا بها بين يدي لأرى ملن القلب، فقال جعفر: نعم - وكان الفضل أبصر منه بها - فجيئ بالشترنج، فصُفت بينها، وأقبل عليها جعفر، وأعرض عنها الفضل، فقال له أبوه: مالك لا تلاعب أخاك، فقال: لا أحب ذلك، فقال جعفر

إنه يرى أنه أعلم بها فيأنف من ملاعيق، وأنا لاعبه مخاطرة (قمارا) فقال الفضل: لا أقبل، فقال أبوه: لاعبه وأنا معلم، فقال جعفر: رضيت، وأبي الفضل، واستعنني أبياه فأغفاه. ثم قالت الأم للسائل: قد حدتك عنها فاقض، فقال: قد قضيت بمعذر بالفضل على أخيه، فقالت له: لو علمت أنك لا تحسن القضاء ما حكمتك أفلأ ترى أن جعفرا قد سقط أربع سقطات تزئه الفضل عنهن، سقط حين اعترف على نفسه بأنه يلعب بالشترنج وكان أبوه صاحب جد، وسقط على التزام ملاعبة أخيه وإظهار الشهوة لغلهة والتعرض لفضبه، وسقط في طلب المقامرة وإظهار المحرض على مال أخيه. والرابعة قاصمة الظهر حين قال أبوه لأخيه: لاعبه وأنا معلم، فقال أخوه: لا، وقال هو: نعم، فنالب (عادى) صناعته أبوه وأخوه، فقال السائل [حين سمع منها ذلك] أحسنت واق، ثم قال لها: عزمت عليك أخيرين هل خفي مثل هذا على جعفر وقد فطن له أخوه، فقالت له: لو لا العزم ما أخبرتك، إن أيها لما خرج قلت للفضل خالية به: ما منك من إدخال السرور على أبيك بملاءة أخيك؟ فقال أمران: أحدهما لو أن لاعبته لفليته فأخرجلته، والثاني قول أبي: لاعبه وأنا معلم، فما يسرني أن يكون أبي معى على أخي. ثم خلقت بجعفر فقلت له: يسأل أبوك عن اللعب بالشترنج فيصمت أخوه وتعترف، وأبويك صاحب جد، فقال: إنني سمعت أبي يقول: نعم هو البال المكتوب، وقد علم ما تلقاه من كد التعلم والتأدب، ولم آمن أن يكون بذلك أنا نلعب بها، ولا أن يبادر فتنكر، فبادرت بالإقرار إشقاقا على نفسى وعليه، وقلت إن كان توبيخ فديته من المواجهة به. فقلت له: يا بنى فلم تقول: لاعبه مخاطرة، كأنك تقامر أخاك وتستكثر ماله؟ فقال: كلا، ولكنه يستحسن الدواة التي وعها لي أمير المؤمنين (الرشيد) فعرضتها عليه، فأبى قبولها، وطمعت أن يلاعننى فأخاطره عليهما وهو يغلبني، فتطيب نفسه. فقال لها السائل: ما كانت هذه الدواة؟ فقالت إن جعفرا دخل على أمير المؤمنين، فرأى بين يديه دواة من العقيق الأحمر محلاة بالياقوت الأزرق والأصفر، فرأء ينظر إليها، فوحبها له. ثم قالت: قلت بمعذر: هبك اعترفت بما سمعت، فما عنذرك من الرضا بمحاسبة أبيك حين قال: لاعبه وأنا معلم، فقلت أنت: نعم، وقال هو: لا، فقال: عرفت أنه غالبا ولو فتر لعبه لتفايلت له مع ماله من الشرف والسرور بتعزير أبيه إليه. فقال لها السائل مادحها للأخرين ومعجبًا: يخ يخ هذه واقه السيادة، ثم قال لها: أكان منها من بلغ الرشد، فقالت له: يا بنى أين يذهب بك؟ أخبرك عن صبيين يلعبان، فتقول أكان منها من بلغ الرشد، لقد كما تنهى الصبي - إذا بلغ المشر وحضر من يُستحيى منه - أن يبتسم».

وهذه الدرة - كما يسميهَا ابن ظفر - أو هذا الخبر عن الفضل بن يحيى البرمكي وأخيه جعفر بلسان أمها يصور مدى براعة ابن ظفر الأدبية في السرد الأسلوبى لأخبار نجاهة الأبناء بحيث لا تخجد عنده أى غرابة فى لفظة ولا أى التواه فى عباره، بل تجد أسلوبا مطردا مستقا

يروع بحسن اتساقه، فإذا أنت تركت ذلك إلى ما يشتمل عليه هذا الخبر من تربة وجدهه يصور إلى أبعد حد القطنة التي ينبغي أن يتخل بها الناشئة إزاء إخوتهم ورفاقهم بحيث لا يدر منهم لهم ما قد يؤذهم، والمنbir بحق يجسّد آداب الأخوة كما يجسّد التربية الرشيدة للأم وما أروع قول الأم: لقد كنا ننهى الصبي - إذا بلغ المشر وحضر من يستحق منه - أن لا يبتسّم». وهي صحيحة تربوية بدئعية في آداب الأخوة خاصة وأداب السلوك عامة.

## سلوان المطاع في عدوان الآباء

كتاب نفيس في التربية السياسية ترجمة المستشرقون إلى الإنجليزية والإيطالية، وقد استهله ابن ظفر بشكر القائد الصقل محمد بن أبي القاسم القرشي الذي صنّه له سنة ٥٤٥ ويقول في خطبته أو مقامته إنه عمد فيه إلى أمثلة استأثر خواص الملوك بضماعتها، ومنتعهم النيرة عليها من إذاعتها، فتوسم في التعبير بالفاظه عنها والتقفن بقوى فطنته فيها، وكما جسّموها حلّ الآداب الملكية، وقد عوائقها بسيوف المكاييد الحربية. فالكتاب إذن ليس رواية عن كتب غيره السابقة، بل هو من تأليفه وصنّعه ترا وشعرًا وحکما وأمثالًا وقصصا، وهو فيه يكثُر من ضرب الأمثال تارة على ألسنة بعض الحيوانات مثل كلبة ودمنة، وتارة على ألسنة شيوخ حكام وزراء دعاة من الفرس والعرب، وقد يتسع بذلك قصص عن ملوك اليونان وبالمثل عن ملوك الفرس. وقد يستطرد من قصة إلى قصة أو من مثل إلى مثل على طريقة كتاب كلبة ودمنة. وإذا كان كتاب أبناء نجباء الابناء في السلوك الاجتماعي والخلقى وأدابها فإن هذا الكتاب في آداب السياسة وما ينبغي أن يكون عليه المحاكم من الرفق بالرعيّة والعدل والإنصاف وما ينبغي أن يتخلّ عنه من البغي والطغيان والعنف والظلم. والكتاب موزع على خمس سلوانات: السلوانة الأولى في التقويض، والثانية في النأس، والثالثة في الصبر، والرابعة في الرضا، والخامسة في الزهد. وعادة يبدأ السلوانة بأى من القرآن الكريم وبأحاديث نبوية، ويلعّق عليها تعليلات طريفة، ثم يفضي إلى غرضه في الكتاب من ضرب الأمثلة والقصص الحيوانية والإنسانية تبصرة وعظة للحكام، حتى يتبعوا الصراط السوى في تدبير حكمهم وشتوّه مع سياسة الرعيّة سياسة حكيمية محكمة.

وابن ظفر يذكر في مستهل سلوانة التقويض لأحكام أقه قوله تعالى: «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تخبووا شيئاً وهو شرًّا لكم وآهه يعلم وأنتم لا تلمون». ثم يذكر قصة مؤمن آل فرعون التي وردت في الذكر الحكيم وكيف أن أقه تقدس اسمه وفاه سيات ما مكرروا، ويدرك بعض أسباع وأبيات حكيمية، فمن النثر قوله:

مارضة العليل طبيبه، توجب تعذيبه... إغا الكويس (العاقل) الماهر، من استسلم في قبضة القاهرة - إذا التبست الموارد بالمصادر، ففُرض إلى الواحد القادر.

عن الشعر قوله:

بأرب مغتبط ومف  
سيوط برأي فيه هنكه  
علم المواقب دونه  
ست وليس يرام هنكمه  
ومعارض الأقدار بالـ آراء سُئلَ الحال هنكمه

ويذكر مأزقين لخلفتين: أموى وعباسي، هما الوليد بن يزيد بن عبد الملك، والمؤمن وكيف أن لقاءها بشخصين محظيين بصراهما بما ينتهي أن يتخذان من سياسة إزاء باغين عليهما، أما شيخ الوليد فقد عرض عليه مأزقاً مماثلاً لجده عبد الملك بن مروان وكيف أن شيئاً كثير السن لقيه وهذا إلى ما ينتهي اتخاذه من السياسة والتدبير حتى يتتص على عدوه الباغي، وضرب له مثلاً أو قصة عن ثعلبين وحية وكيف أن الباغي تدور عليه الدوائر، وأما شيخ المؤمن فضرر له مثلاً من بعثي فيروز الملك الفارس على ملك الهياطلة الذي كان قد أسره في بعض الغروب ورد إليه حريته بعد أن عاهده على أن لا يغزو بلده ولا يقصدها بسوء، ودارت الأيام بعد رجوعه إلى دار ملكه فصم على غزو ملك الهياطلة وبلاه، وفي طريقة بعثي أحد فرسائه على مسكنه فقتلته، وتصدى له أخيه يريد مصارعته، وخوفه الناس منه، فقال لهم: دعوني وإياه فإنه على فرس الفرود وأنا على فرس البصيرة، وهو لا يبس درع الشك وأنا لا يبس درع الثقة، وهو مقابل بسيف البغي وأنا مقابل بسيف الحق، وانتصر الحق على البغي وقتل أخيه المسكين الفارس أو الإسوار العظيم من أسواره فيروز، ويقول الشيخ للمؤمن إن فيروز لم يتعظ من هذا الحادثمضى حق وطه كثيراً من أرض ملك الهياطلة، والتقيا ودارت الدوائر على فيروز وجنته ثمرة بغيه وعدوانه، ولقيت مقالة الشيخ قبولاً لدى المؤمن على إرسال الجيوش للباغي عليه، وكان أخاه الأمين الذي نكت عهد أبيه أن يكون المؤمن ولـ عهده والخلفية بعده، فنكث المهد ونشبت بينها الحرب ضارية وانتصر جيش المؤمن وقتل الأمين الذي لم يرع لأبيه عهده ولا خاف تبعه نكثه.

وخلال هذه الأمثال أو القصص التي ضربها الشيوخان للمؤمن والوليد تتعاقب حكم كثيرة طريقة لتوسيع المحكمة بأداب المحكم وما ينتهي أن يأخذوا به أنفسهم من السياسة الحكيمية للرعاية ومع الأعداء، من ذلك قول ابن ظفر: «الرأي سيف العقل - كل رأي لم تتمضض به الفكرة ليلة كاملة فهو مولود لغير تمام - من دلائل الوفاء بر الآباء والأمهات وصلة ذوى القراءات - الباغي باحث عن مدبة حتفه بظلقه ومترب في مهابي تدميره بمساويه تدبirsه - الموى طاغية فمن ملكه أهلها - الموى كالنار إذا تحكم اتقادها عسر إخادها، وكالسيل إذا اتصل مده تعسر صده».

ودانٍ تلقانا مثل هذه الحكم في الكتاب، وتنقل معه إلى سلوانة النأس، وقد أدارها على قصة طويلة لسابور الملك ووزيره وحيله واستطرد في أثاثها لقصق فتى وفتاة وفرس وخنزير وبنثر في تضاعيفها كثيراً من الحكم السياسية والاجتماعية مثل قوله: مَنْ غَرَسَ الْعِلْمَ اجْتَنَقَ النَّيَاهَةَ، ومن غرس الزهد اجتنق العزة، ومنْ غَرَسَ الْإِحْسَانَ اجْتَنَقَ الْمُحَبَّةَ، ومنْ غَرَسَ الْحَلْمَ اجْتَنَقَ الْحَكْمَةَ، ومنْ غَرَسَ الْوَقَارَ اجْتَنَقَ الْمَهَاةَ، ومنْ غَرَسَ الْمَدَارَةَ اجْتَنَقَ السَّلَامَةَ، ومنْ غَرَسَ الْكَبَرَ اجْتَنَقَ الْمَقْتَ، ومنْ غَرَسَ الْحَرَصَ اجْتَنَقَ الذَّلِّ، ومنْ غَرَسَ الْطَّعْمَ اجْتَنَقَ الْخَزَىَ، ومنْ غَرَسَ الْمَسْدَ اجْتَنَقَ الْكَمْدَ. ويقول: تمييز الملوك على السوق بفضيلة الذات لا بفضيلة الآلات، وفضيلة ذات الملك تمييز بخس خصال: رحمة تشمل الرعية، وتطهية محظهم، وصلة نسب عنهم، وفطنة يكيد بها الأعداء، وحزن ينتهز به الفرصة. ويقول في سلوانة الصبر التالية:

صبر الملوك ثلاثة قوى: قوة الحلم وثمرتها العفو، وقوة الكلمة (الرعاية) والحفظ وثمرتها عدالة الملكة، وقوة الشجاعة وثمرتها في الملوك الثبات وفي حماة الملكة الإقدام في المارك، ولا يراد من الملك الإقدام في المكافحة، فإن ذلك من الملك تهور وطيش وغrier، وإنما شجاعته نهاية حق يكون قطبًا للمحاربين ومقلاً للمنهزمين، وهذا ما دام بحضرته من يقظ بذاته عنه، ودفعه دونه، وحمايته له، وما قاله في هذه السلوانة: صلاح الملك: الرفق بالرعية، وأخذ الحق منها بغير عنف، والتزدد بالعدل، وأمن السبل، وإنصاف المظلوم.

وتل ذلك سلوانة الرضا، ومن حكمه فيها الرياء سراب يخدع الفطن القاصرة، ولا يعنى عن البصائر الباصرة - أمران يسلبان المر كمال الحرية: قبول البر، وإفشاء السر - كثرة النوم تحيل الدمار وتسلب الأعمار - مَنْ لَزَمَ الرِّقادَ دَعَمَ الْمَرَادَ - كن من عينك على حذر، فرب جنوح حين (هلاك) جناه جوح عين - السآمة من أخلاق العامة - ما أحرى الملول بأن يجرم المأمول. ومن قوله في سلوانة الزهد الأخيرة:

يَا مَتَعِيَا كَدَّ الْعِزَّ مُنْ فِي الْفَضُولِ وَكَادَ  
لَوْ حَرَّتْ مَا حَازَ كَسْرَى وَمَا حَسَى وَأَفَادَهُ  
مَا كَنْتَ إِلَّا مَعْنَى وَمَسْرِمَا بِالرِّيَادَهُ  
لَمْ يَقْضُ فِي الْأَرْضِ غَيْشَ إِلَّا لِأَهْلِ الزَّهَادَهُ

ودانٍ يضع مثل هذه الأبيات في صدر كل سلوانة، مما يصور شاعرية حصبة لديه بجانب ما يسوق من حكم مسجوعة في عبارات حكمة، وأيضاً ما يسوق من أمثال وقصص في أساليب متناسقة، تصور حساً دقيقاً وذوقاً مصفيّ وقدرة على الحوار الأدب البارع.

## ملحق

### ابن قلاس الإسكندرى<sup>(١)</sup> في مقلية

#### لumed غليوم الثانى

مررت بنا ترجمة ابن قلاس الإسكندرى في الحديث عن تاريخ الأدب العربى بمصر، وهناك ألمتنا برحلته إلى صقلية في إيجاز، وحررنا بنا الآن أن نفصل الحديث فيها بعض الشيء تتمة للكلام عن صقلية، وقد رحل إليها في سنة ٥٦٣ للهجرة، وهو في نحو الثلاثين من عمره وظل بها نحو سنتين، وحار الدارسون له في تبين أسباب تلك الرحلة ودوافعها، غير أن من يتبع أشعاره وأخباره يعرف أنه كان على صلة وثيقة بالرشيد بن الزبير أحد أعلام الثقافة والأدب والشعر في عصره حين ول النظر بغير الإسكندرية في الدواوين السلطانية سنة ٥٥٩ للهجرة وكان قد وضع يده في يد صلاح الدين الأيوبي حين ولاد عميه أسد الدين شيركوه الإسكندرية في أثناء حربه مع شاور وزير الفاطميين وأعوانه من الصليبيين سنة ٥٦٢ وتطورت الظروف حينئذ وعاد صلاح الدين مع عميه شيركوه إلى الشام وتراك مصر. ولم يكن هم شاور بعد خروجهما من مصر في تلك المرة إلا طلب من انضموا إلى صلاح الدين من رجال الدولة في الإسكندرية وفي مقتملهم الرشيد بن الزبير، وسارع الرشيد فاختباً في إحدى الدور بالمدينة فترة، وقبض عليه وقتله في شهر المحرم سنة ٥٦٣ ونرى ابن قلاس يرسل إليه في مخبئه قصائد يستهل إحداها بقوله:

تدانيت دارا والوصول شسوع فخلك ذو الود الوصول قطوع

وهو يقول له إن دار تختيم قريبة، غير أن الوصول بعيد، وكأنه يخشى أن يزور الرشيد فيتبه رجال شاور إلى مخبئه، ويقول له: خلك الودود الوصول يرى كأنه لم يثبت على ودك وإخانتك، ولعله يزيد نفسه، وفي رأينا أن هذه الصلة بين ابن قلاس والرشيد الذى كان في مقدمة الثنائين على شاور وانحاز إلى صلاح الدين وما حدث من طلب شاور له، ومقتله هذه الصلة هي التي جعلت ابن قلاس - في رأينا - يفكك في الرحيل عن الإسكندرية خشية أن يلقى نفس المصير على يد رجال شاور، إما لصداقه للرشيد وإما لأنه كان من التفوا حول

شعر ابن قلاس الإسكندرى وأثاره التربة  
للدكتور محمد زكريا عنان (طبع دار المعرف)  
وترسل ابن قلاس الإسكندرى تحقيق الدكتور  
عبد العزيز بن ناصر المانع (طبع الرياض) وكتاب  
العرب في صقلية للدكتور عبدالعزيز المانع (نشر  
جامعة الملك سعود) والنصوص الصقلية من

(١) انظر في رحلة ابن قلاس إلى صقلية  
كتاب خريدة القصر: قسم شراء مصر (طبع  
القاهرة) ١٤٦١ وما بعدها وكتاب الزهر الباسم  
والقرف الناصف في مدح الأجل أبي القاسم  
لابن قلاس تحقيق الدكتور عبد العزيز المانع (نشر  
جامعة الملك سعود) والنصوص الصقلية من

صلاح الدين في مقامه بالإسكندرية حينئذاك. وأخذ يفكّر إلى أين يرحل ورأى أن يرحل بعيداً عن مصر وديارها، وصمّ على الرحيل إلى صقلية، وكان قد سمع من يلمون بمحال شيخه السلفي أحياناً من أهل صقلية في ذهابهم إلى الحجّ أو في عودتهم منه - بزعيم المسلمين بجزيرتهم أبي القاسم ابن المجر بن حود بن محمد القرشي وكرمه الفاضل وفي كتابه الرانع: الزهر الباس والعرف باسم في مدح الأجل أبي القاسم الذي وصف فيه رحلته إلى صقلية وسجل مدائنه في أبي القاسم بن المجر نراه يذكر أنه كان قد أرسل إليه مدحنة سنة ٥٦١ فكان طيباً أن ينفك في التزول بجزيرته فراراً من شاور ورجاله. ونزل في غرة شعبان من سنة ٥٦٢ في مدينة مُسفي في الشمال الشرقي من صقلية، وأعجب بوقعها من البحر المتوسط ويشاهدها الطبيعية ومبانيها الرائقة، مما جعله يشتد في وصفها قوله:

بِلْدُ أَعْارَتْهُ الْمَامَةُ طَرْقَهَا      وَكَاءَ حُلَّةُ رِيشِهِ الْطَّاوُوسُ  
فَكَانَ الْأَزْهَارُ مِنْهُ سُلَافَةً      وَكَانَ سَاحَاتُ الدِّيَارِ كَثُورُ

ومكث بها فترة قليلة، واتجه غرباً إلى العاصمة «بلرم» على الساحل الشمالي للجزيرة، وأحسن استقباله أبوالقاسم بن المجر بن حود القرشي وظلّ حفياً به طوال مقامه بالجزيرة، وكان زعيم المسلمين في الجزيرة، كما أسلفنا، ومن كبار رجالات الدولة لمهد الملك غليوم (غليوم) الثاني وأخذ ابن قلاقس يتعرف عن طريقه إلى بعض رجال الدولة النورمانية، وكأنما كان من واجب من ينزل صقلية من الشعراة المسلمين أن يمتحن مليكتها النورمان في بعض رجال دولته، ومرّ بما أن عبد الرحمن بن رمضان المالطي استند أكثر شعره في مدح روجار وأن ابن بثرون المهدوي التونسي مدح روجار الثاني، وقد مدح ابن قلاقس غليوم (غليوم) الثاني بقصيدة مممية روتها إحدى خطوطات الديوان، وله يقول:

كَذَا فَلِيَكُنْ عَزْمُ الْمُلُوكِ وَقَلْمًا      تَرِى مَلْكًا يَأْقُبُ بِالْكَمَ منْ عَزْمٍ

وفي القصيدة مبالغات مفرطة في مدح غليوم، وكان حريراً بابن قلاقس أن يائف من أن يسبّها على ملك مسيحي ثعب هو وأبناءه الجزيرة من أهلها المسلمين، ولكن ربما دفعته إلى ذلك ضرورة لبقائه في الجزيرة دون تعرّض له أولئك برحيله، ولعل نفس الضرورة هي التي دفعته لمدح جُرْدَنَا أحد رجال الدولة النورمانية وبصفة بأنه وزير، وربما كان قاتلاً على شتون الأمن، وفيه يقول:

وَجَرْدَنَا الْمَدَائِنَ فَاسْتَقْرَرْتُ      عَلَى أَوْصَافِ جُرْدَنَا<sup>(١)</sup> الْوَزِيرِ  
فَنَظَنَّنَا الْمَفَاخِرَ كَالْلَّائِي      وَلَحِيَنَا الْمَعَالَى كَالْتَحْوِرِ

(١) في الزهر الياسم: غزّجرة.

وأعجب ما جرى أنا أَبْنَا  
رأى منه الملك حلّ أَبْنَى  
فصدره على الديوان سُطْرًا  
ومدّ على الرعية ظُلّ عدلٍ وقامهم لفتح السنة الهجرية

والقصيدة تفعن بالمقالات المسرفة مثل قصيدة غليوم (غليوم) الثاني، وشخصية ثالثة من شخصيات الدولة التورمانية هي شخصية غارات بن جوش، ولم ينظم فيه قصيدة إنما كتب إليه رسالة شكر، يقول فيها إنه فارق حضرته: «ممثله البد نعمة، والغم نعمة، والمخاطر آمالاً، والناظر أموالاً، اصطناعاً منها (أي الحضرة) وتفضلنا أبي الله أن يصدر إلا عنها».

وإذا رجعنا إلى راعيه أبي القاسم بن العجر الذي قصد الجزيرة من أجله وجدناه يلقب بالقائد، وكان من الأئمـاء ذوى الإقطاعات الواسعة، ويدرك ابن جبير في رحلته أنه رأى له ولأهل بيته قصوراً أنيقة في بلرم، وقد أضفى على ابن فلاقس من الإكرام والأموال مما جعله يلهج بالثناء عليه في قصائد كثيرة هل ما جعله يؤلف فيه كتابه الزهر الياسم من أوصاف أبي القاسم» ويشيد في مطلع الكتاب به إشادة رائعة، ثم يصف ركوبه البحر المتوسط ترا مسجوعاً بديعاً وشعرنا رائعاً من مثل قوله:

الناس كُفَّرٌ ولكن لا يقدِّرُ لِ  
إلا مُرافقُ الْمَلَاحِ وَالْمَادِي  
أقلعتُ والبحر قد لانت شكانه  
جُدُّاً وأقلع عن موجٍ وإزيدادٍ  
فعاد - لعاد - ذاريع مدمسة  
كأنها أخذت تلك الْرِّيحَ فِي عادٍ  
ونحن في منزلٍ يتربى ساكنه  
فاسمع حديث مقيم بيته غادي  
كأن حالاتنا حالاتٍ عَمَادٍ

وهو يقول إن كثرين من الناس مقيمون لا ييرحون ديارهم وأوطانهم، أما هو ففتر له أن يرافق الملائين في بلج البحر وحُدَّادُ الإبل في فياق الصحاري، ثم يقول إن السفينة أقلعت راقفة شراعها وقد سكن البحر وكفت عن موجه وزايداده، و Saras السفينة في عرض البحر المتوسط، وما هي إلا ساعات حتى هبَّ ريح عاصفة أشد المصاف، كأنها أخذت ريح عاد الموصوفة في الذكر الحكيم بأنها صرَّ صر شديدة البرد عاتية ويتصور السفينة متزلاً غير أنه متزل لا يستقر، وكأنه ساكن مقيم وبيته منطلق به، وهو ومن حوله لا يستقر لهم جنب في مضاجعهم بهذا المنزل لكتلة قابله، وكأنما هم عُبَادٌ فهم بين راكع وساجد منكبي على جبينه، وما زالت تلك

(١) المصور: المترس.

حال السفينة وسكانها والبحر المتوسط وجئونه حق اقترنت السفينة من المجزرة وفقر ميسق في أقصى الشمال الشرقي، وحيثند كست البحر الرُّخاء (الربيع الْلَّيْلَة) ثوب وقارها، وأمسك الرُّغْرُغ (الربيع العاصفة) عنه كأس عُقارها (خرها) وصحا بعد جئونه وسکره» كما يقول ابن قلاقس.

ومضى العماد في المزيردة يقتبس من كتاب الزهر الباسم بعض المدائح التي نظمها ابن قلاقس في أبي القاسم بن الحجر، ويتبين منها وما تحدث به عن أبي القاسم في الكتاب أنه لم يكن قائداً أو مساعدًا من مساعدى الدولة فحسب، بل كان أيضاً على رأس دواوين الدولة، ومعرفة أن تلك الدولة كانت تتخذ العربية لغة رسمية لها أو على الأقل كانت مكانتها في الدواوين لا تقل عن مكانة اللغة التورمانية، ونرى ابن قلاقس يشيد ببراعة أبي القاسم الكاتبة حتى ليقول: «إن أليس قلمه المداد عَرِى من الفصاحَة قُسْ إِياد، وإن أنطق طَرَسَة الرسائل، أَخْرَسَ عن الخطابة سعْيَانَ وائل، يلزم لديه ابن العميد، سَمْتَ العميد، ويغدو عليه عبد الحميد غير حميد، ويقول له الصاحب أنا عبد لا صاحب ونهاية الصائب أنه بالفائظ صَابَة». وهو بذلك يرفع بلامته الكاتبة فوق بلاغة قس الإيمادي خطيب الجاهلية وسعْيَان وائل خطيب العصر الأموي وعبد الحميد الكاتب المشهور في الدولة الأموية وابن العميد والصاحب بن عياد الكاتبين الذين للدولة البوهيمية والصائب الكاتب البشدادي المعروف في القرن الرابع، وكان من الصائبة ويستغل اسمه في أنه إزاء بلاغة أبي القاسم يصعب أو يكفر به بلاغته. ومن قوله فيه بأول مدائحة، وفيها يصف البحر وركوبه وصفاً بديعاً:

أنت في الفضل في بني العجر السَا دة مثل الياسقوت في الأحجار أَصْفَرُ الظُّهُورِ أَسْوَدُ الْمُنْقَارِ سَبَّ بَهْ مِنْ كِنَائِبِ الْأَقْدَارِ سَطَ طَرَازُ الْدِيَوَانِ وَالْمُلْكُ أَصْبَحَ	أنت في الفضل في بني العجر السَا دة مثل الياسقوت في الأحجار وَبِيُمْنَاكَ طَمِيرَ يَمِنَ وَسَفِيدَ قَلْمَ دَهْرُ الْأَقْالِبِمْ فَالْكُتَّ يَا طَرَازُ الْدِيَوَانِ وَالْمُلْكُ أَصْبَحَ
--	---

والبيت الأول بديع، فهو العجر النادة أحجار كريمة، وهو بينهم ياقوت متوجع، وبيننا قلم كأنه طير ين وسمد، جلده - أو كما يقول ظهره - أصفر ومتقاربه أسود، وهي إشارة بديعية إلى أنه يُفْعَسُ في مداد أسود، ويقول: إن هذا القلم يندر أقاليم المجزرة بما يكتب من رسائل ديوانية مختلفة، سياسية وغير سياسية يصرُّ بها أمور سكان المجزرة المسلمين، ويحثه بأنه زخرف الديوان والملك التورمان، وانضاف إليه أنه أصبح زخرف ديوانه وأشعاره. ويقول في قصيدة أخرى:

قد أقسم الحمدُ لا يُشيرُ إلى      غير أبي القاسم بن حُمُودٍ

أردى بها البخل صارم العود<sup>(١)</sup>  
جيش من الخط صائد الصيد<sup>(٢)</sup>  
غير مسلٍ بطول تردید  
فضل ابتكار وحسن توليد  
عن أفرَتِ الماضفين جندید<sup>(٣)</sup>

في بيده للنسوان معركة  
وتلقى كتبه الكثائب في  
 بكل لفظ كأنه نفس  
صحت معانيه فانقضى إلى  
وربما استحضر الخمس به

فالحمد لا يعرف طريقاً إلى أحد يستحقه سوى ابن حمود أو ابن الحجر الذي أقام للجود معركة تلعن فيها السيف القاطعة للرقيب: رقاب البخل والشح البغيض، وإن رسائله لتخضع لها كتاب الجيش المسلحة، وبعبارة أخرى تخضع جيش من الخط والكتابة البلغة التي تستنزل المصاة العناة، بكل لفظ يلذ اللسان والأذان بحسن جرسه وروعة معانيه المولدة والمتكررة. وليس ذلك كل ما يميز ابن حمود فإنه يتميز أيضاً بالباس والشجاعة حتى لكانه أسد يزق فرائسه بعاصفه أو أنيابه، أسد صنديد، شديد غاية الشدة. ولابن قلاقص مدانع وأشعار كبيرة بديمة في ابن الحجر، من ذلك قوله:

إن ابن حمود له راحة  
في كل يوم لوفود البدى  
للمال من راحته عندهم  
ولو أغار الليل آراءه  
فضائل كادت لإفراطها  
تنطبق بالشكير فم الأبنصر<sup>(٤)</sup>

وهو يقول إن راحة ابن حمود ما تزال تهطل بالجود، حتى لكانها تزيد أن تحجب لنفسها الحمد من نوه المطر وغيثه المدار، ويبالغ في مدحه فيقول كل يوم تجتمع الوفود ببابه وتأخذ من ماله أضعاف ما يأخذ الناس. من ماء زمز، ولو أنه أقرض الليل آراءه ما احتاج ساريه إلى نجوم تهديه في جنح الظلام. فضائل ليس لها مثيل تكاد تتطيق فم الأبنصر بالشكير والامتنان. ونراه يعود ببرحلة بحرية إلى سرقسطة في شرقى صقلية، ويبدا فيها بدمينة ثرمة في الشمال شرقى بلزم، وغادرها سريعاً لحرارتها الشديدة حتى لكانه شرب فيها ماء المهل أو شراب الكفار في جهنم أو لكانه طعم شجرة الزقوم طعام الكفار في النار الحامية، واتجه شرقاً إلى جبلود، وشاهد رياضها

(١) صارم: سيف.

(٢) الصيد: جمع أصيده: السيد.

(٣) الخمس: الجيش. أفرَتِ الماضفين: واسع

وما يخفف بالعيون فيها من حور عين، غير أنه أسرع في مغادرتها إسراع من يطلب بالدين أو  
كمن يطلب في صقلية بالدين مشيرا بذلك إلى اضطهاد المسلمين فيها، ويقول إنه نزل ثغر مسيبني  
وظل فيها تسعين يوماً عند جلف تغيل الظل لا يخفف أبداً حتى لو طار بجناحي جبريل، وركب  
السفينة أو الجنونة كما يسمى بها على ماء مجتون حتى ليظن أنه سيكون طعاماً للحيتان، وينزل  
سرقوسة أخيراً وبعد فيها الملجأ الأمين. والقصيدة وصف بديع لرحلة بحرية في صقلية، وقد  
أتبعها بوصفه لرحلة برية من سرقوسة إلى بلرم حيث راعيه الأمين أبو القاسم بن المجر،  
ولا يتضح سبب رحلته إلى سرقوسة وعودته، وفي رأي أنه كان يبحث في التغور التي مر بها  
عنده عن مصر وأحوالها وهل لا يزال شاور وأعوانه متسلطين فيها على الحكم، وكان أسد  
الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين قد عادا إلى مصر سنة ٥٦٤ في قدمتها الثالثة، وسرعان  
ما قُبض على شاور وقتله وتولى أسد الدين الوزارة لمدة شهرين وتوفي، وتولاه صلاح الدين.  
وأكبرظن أن كل ذلك علم به ابن قلاقيس، فاطمأن وصم على العودة إلى وطنه بعد وداع  
راعيه أبي القاسم وأصدقائه في بلرم من مثل هبة الله السيد المصري والله فيه مدائح بد菊花  
ومثل التقى أبي الحسن على بن أبي الفتح بن خلف الأموي، ويقول عنه في كتابه الزهر  
الباسم: «هو حَدَّقَ الْعِلْمَ النَّاظِرَةَ، وَحَدِيقَةَ الْأَدْبِ النَّاضِرَةَ» وسوق ابن قلاقيس في الكتاب  
ما كان بينها من مكتبات شعرية قبيل رحيله، وله يقول مودعا:

تَخَذُّلَكَ مِنْ صَقْلِيَّةِ خَلِيلًا فَكَتَّ الْوَرْدَ يُقْطَفُ مِنْ قَنَادِيلِ  
وَشَمْتُكَ بَيْنَ أَهْلِهَا حَمِيَّا فَكَتَّ الْجَمْرَ يُقْبَسُ مِنْ زِنَادِ

وابن قلاقيس لا يريد أن يهجو صقلية وأهلها بأنهم شوك وابن خلف وحده هو الورد،  
ولا أنهم زناد صلد لا يخرج منه شرر وهو وحده الجمر، وكل ما في الأمر أنه مدحه مودعا  
وبالغ في مدحه. ولابن قلاقيس أشعار متعددة في وصف مجالس الشراب بصقلية ووصف  
العنفين بها وراقصات من مثل قوله:

وَمَنْ تَنَاوَلْتْ يَدُوِّ الْعَوْ  
بَيْنَ رِيحِيِّ مِنَ الْمَازَمِيرِ أَسْرَى  
وَصِبَاحِيِّ قَدْ عَقْدُوا طَرَزَ اللَّبَّ  
بَيَعْثِيَ الرَّفِقُ مِنْهُمْ حَرَكَاتٍ طَوَالُ الرُّمَاحِ

وهو يقول إن صوت المغني وهو يضرب على العود صوت مفرح ونسيم أنقام المازمير من  
حولهم تسرى في أجسامهم سربان الأرواح، وراقصات فاتنات تنهل خصل الشعر على  
جياهن وهي يتشين ويتعركن حركات رشيقه، وكأنها سرت الرماح في أيدي المغاربيين بعض

حر كاتين ورشاقتهن. وقد رحل عن صقلية والصلة بين أبي القاسم والدولة صلة طيبة، وبتأثير من الوشايات صودرت أمواهه بعد رحيل ابن قلاقس وإقطاعاته وأغمر ما يزيد على تلاتين ألف دينار، وزار ابن جبير الجزيرة وقد عُفى عنه وعاد إلى سابق المهد به، ولذلك يقول ابن جبير عنه حينئذ إنه زعيم أهل الجزيرة من المسلمين وسيدهم. وعاد ابن قلاقس إلى القاهرة سنة ٣٦٥ قبل تولى صلاح الدين وزارة العاصد الفاطمي فمدحه ومدح رئيس الدواوين، القاضي الفاضل، وكأنما ظن أن الأحوال في مصر لازمال غير مستقرة فرأى أن يزور اليمن، وربما كان الذي حبيبه في زيارتها صديقه الرشيد بن الزبير الذي كان قد زارها وتقلد أحکامها وقضاءها فترة كما يقول ياقوت، وفي أثناء عودة ابن قلاقس منها سنة ٥٦٧ أسلم روحه إلى بارتها بشر عذاب على الساحل المصري للبحر الأخر وهو ابن خس وتلاتين سنة.

# خاتمة

## ١

تمّ الحديث - في الصحف الماضية - عن ليبيا في القسم الأول من هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربي فيها وفي تونس وصقلية من الفتح العربي إلى العصر الحديث. وعرضت جغرافيتها وتاريخها القديم وأنها ظلت تستقبل الحضارات الفينيقية والقرطاجية واليونانية والرومانية والبيزنطية دون أن تضيف إليها شيئاً، وألمت بفتح العرب لها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وتتعاقب الولاية عليها في المصريين والأموي والعباسي، وتبعية طرابلس للدولة الأغلبية في القبروان منذ سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م إلى ٢٩٦ هـ / ١٠٧ م بينما كانت برقة تتبع مصر. ويتبعان جيما الدولة العبيدية، ويسترد بذلك الصنهاجي تبعية طرابلس إلى القبروان ويعوّس بها بنو خزرون دولة ظلت خمسين عاماً، وتعتمد على وبرقة المجرة الأغربية الكبرى في منتصف القرن الخامس المجري، وقد أحالوا معظم ليبيا إلى مثيّخات بدوية، ويعيش فيها فادا قراقوش وأبن قراتكين وأبنا غانية في النصف الثاني من القرن السادس المجري، وتتبع برقة مصر في عصر الأيوبيين والمالكيك، ويعودون عنهم بني عزاز في حكمها وجهايتها، وتتبع طرابلس الدولة الحفصية في تونس، ويعوّس بها بنو عمار دولة لم من سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٤ م إلى ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م وتصود للحفصيين ويستول عليهم شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩١٦ هـ / ١٥١١ م ويتركها سنة ٩٢٢ هـ / ١٥٦٧ م لفرسان مالطة، ويعترجهم منها الأسطول العثماني سنة ٩٥٨ هـ / ١٥٥١ م وتظل للعثمانيين، ويتولاها منهم أحد الفرمانيين سنة ١١٢٣ هـ / ١٧١١ م ويجعلها وراثية في أبنائه إلى أن استردها العثمانيون منهم سنة ١٢٥١ هـ / ١٨٣٥ م وبذلك تبدأ ليبيا عصرها الحديث.

وسكان ليبيا - من قديم - ينقسمون إلى حضر في المدن على الساحل وما وراءه من بساتين وزروع، وإلى بدوار في منطقى شبه الصحراء والصحراء الليبية المترامية الأطراف. وقد نزلتها عناصر جنسية كثيرة بجانب سكانها البربر من فينيقيين وإغريق ويهود وروماني وزنوج وعرب وترك وجبلهم المسيحي الأوربي من القرصنة. وبجانب الشاطئ الزراعي والرعوي وصيد الأسماك والإسفنج على السواحل نمت بليبيا صناعات بدوية كثيرة مثل عصر الزيت ونسج الملابس والأبسطة ودبيع الجلد واستخراج الملح من السواحل. وكان البربر وتنين،

ونزل بديارهم اليهود، وحاول الرومان وكنيسة الإسكندرية نشر المسيحية بها وخاصة في المدن الشمالية واكتسحها الإسلام، ودخل فيه سكانها أنفاساً، حتى أصبح دينهم في كل مكان كما أصبحت العربية لسانهم، وشاع المذهب الإباضي في جبل نفوسه وطرابلس، وحاول العبيدون - حين أقاموا دولتهم في القبروان - نشر عقيدتهم الإسماعيلية الشيعية في ليبيا، ورفضها سكانها، وعلى مر العصور آثرت ليبيا مذهب مالك السنّة، وتبع بعض أهلها في المهد الشامي المذهب الحنفي غير أن مذهب مالك ظل هو المذهب الغالب على الليبيين. وزری كثیرین من الليبیین - علی مر العصور - یؤثرون الزهد فی متاع الحياة والتکتفی طلیباً ما عند الله من الثواب ونعمیم الفردوس، وشاءت بهم فی المحب المتأخرة الطرق الصوفیة السنّیة.

ومنذ الفتح العربي ودخول ليبيا في الإسلام كان فاقعوها يعلمون - بكل ما وسعهم - علی نشر الدين الحنيف بها، وسرعان ما شاعت فيها الكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم، كما استدارت في المساجد حلقات الشيوخ يلقنون الناس شيئاً من تفسير الذكر الحكيم ومن الحديث النبوی وقواعد الفقه وتعالیم الإسلام، وأخذ بعض أبناء ليبيا يطلبون السعة في الزاد العلمي، فرحلوا إلى المشرق للتزوّد من حلقات علماء العربیة وعلماء الفقه والدراسات الدينیة، وعُنوا خاصة بالأخذ عن الإمام مالك فیقیہ المدینة وتلامیذه المצריین. وأخذت تنمو العلوم الإسلامية واللغوية في ليبيا علی مر الزمن وازدهرت فی عهد الدولة المفصیة بما أنشأت من مدارس وما نشأ من زوايا كانت تُعنى بدراسة العلوم، وأصاب المركبة العلمیة غير قلیل من التسود والركود فی عهد الدولة العثمانیة.

وإذا تعقبنا العلوم والعلماء في ليبيا علی مر القرون لاحظنا أنه لم ينشأ فيها نشاط في علوم الأوائل، بخلاف العلوم اللغوية والدينية فقد اشتهر فيها كثیرون في مقدمتهم الأجدابي اللغوي في القرن الخامس الهجري والمقرئ مؤمن بن فرج في القرن الخامس الهجري أيضاً والحافظ المحدث الكبير أحد بن نصر الداودي في القرن الرابع الهجري وعلى شاكلته ابن عبيد في القرن السابع، ويتكاثر الفقهاء السنّيون مثل ابن المنذر في القرن الخامس وعمران بن موسى في القرن السابع، وبالمثل فقهاء الإباضية، ومنهم عمروس بن فتح التفوسی في القرن الثالث والجبيطال في القرن الثامن.

وأسرعت ليبيا في التعرّب لسبعين : كثرة من نزل بها من القبائل وكثرة من استقر بها من الجندي، وأثنت تعرّبها هجرة الأعراب الكبرى من بيـن سليم وبـيـن هـلال وانتزـج الشـعبان: البربر والأعراب وأصيـحـا شـعـبا واحدـا فـي الأخـلاقـ والعادـاتـ والفرـوسـيـةـ والنـجـدةـ والـزـرـيـ والمـأـكـلـ والمـأـفـرـاجـ والأـحزـانـ، وسرـعـانـ ما انتـصـرـتـ العـربـيـةـ عـلـىـ البرـبرـيـةـ. ويشـهـدـ الرـاحـالـةـ العـبـدـرـيـ فـيـ أـوـاـخـرـ الـقـرـنـ السـابـعـ لأـهـلـ بـرـقةـ بـالـفـصـاحـةـ وـلـاـ تـزالـ لـقـتـهـمـ فـيـ التـخـاطـبـ إـلـىـ الـيـوـمـ

أقرب إلى الفصحي من لغة أي بلد عربي. ولم تحدث في ليبيا قبل عصرها الحديث نهضة أدبية واسعة، ومرجع ذلك إلى أنها لم تنشأ بها دولة ترعى الأدب والأدباء ولا أنشئ فيها ديوان يبعث فيها حركة نشرية أدبية، وأول شاعر بها ينال شيئاً من الشهرة خليل بن إسحق في القرن الثالث المجري، ويتكاثر شعراؤها في القرن السابع من أمثال فتح بن نوح الإيابي وابن أبي الدنيا وابن معمر، وأهم شعرائها في المهد الشمالي البهلواني الطرابلسي، وله ديوان كله مدحات نبوية، ومن الشعراء بعده عبد الدائم، وتشير كتب التراجم بأن هذا الكاتب الليبي أو ذاك رسالة أو مقامة، وتكتفى بمثل هذه الإشارة ولا تذكر منها شيئاً، ولفتح بن نوح الإيابي الشاعر كاتب كله وعظم على شاكلة كتاب ملتقى السبيل لأبي العلاء المرى.

## ٢

وانتقلت في القسم الثاني من هذا الجزء إلى تونس فتحدثت عن جغرافيتها وتاريخها القديم وفتح العرب لها ودخول أهلها في الإسلام أفواجاً وظل مدة ينماط فيها وفيها وراثها من بلاد المغرب. ومن ولاتها الأولى وولاية المغرب جميعه عقبة بن نافع مؤسس مدينة القيروان وحسان بن النعمان مؤسس مدينة تونس وموسى بن نصير فاتح الأندلس وناشر الإسلام فيه وفي المغرب جميعه حتى المحيط، ووليها للعباسيين يزيد بن حاتم المهلي وأحدث بها حركة أدبية خصبة، وتولاهما إبراهيم بن الأغلب للرشيد سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م وبعلها الرشيد وراثة في أبنائه، وتخللت تلك الدولة الأغلبية حتى سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٧ م ومن أعمالها الجليلة فتح صقلية سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م وفتح مالطة سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٧ م ونشر الدين الحنيف واللهجة العربية بها، وتخللت الدولة العبيدية تلك الدولة إلى أن انتقل الخليفة العبيدي المعز إلى القاهرة سنة ٣٦١ هـ / ٩٧١ م وجعل حكم إفريقية التونسية بهذه لقبيلة مناجة وزعيمها بكلين، وظلت تلك الدولة الصنهاجية موالية للخلفاء الفاطميين في القاهرة إلى أن أعلن المعز بن ياديس الصنهاجي استقلاله عن خلافتهم سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م وقبل بل في سنة ٤٣٩ أو ٤٤٠ م غضب الخليفة الفاطمي المستنصر، فسلط عليه أمراء أغار بني سليم وبني هلال النازلين شرقى الصعيد، وكانوا نحو نصف مليون، فاكتسحوا ليبيا وإفريقية التونسية، وحاربوا المعز في القيروان وهزموه، واضطروه إلى الانزول في مدينة المهدية، واستقل بعض الولاية في مدن إفريقية التونسية وأنجانها بالحكم، وقام فيها نظام أمراء الطوائف إلى نحو قرن. ونزل روجار الثاني التورماني ساحل تونس سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م واستولى على المهدية وطرد منها عبد المؤمن أمير دولة الموحدين المجري قراقوش وابن قراتكين وأينا غانية، وخلصها منهم الموحدون والدولة المقصبة، وازدهرت الحياة بها في أيام

المُهَمِّشِينَ، وحاصر لويس التاسع تونس، وقُبِر تحت أسوارها، ونهضت البلاد طوال ثلاثة قرون، وأغار عليها شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ١٤٣ هـ / ١٥٣٧ م وخلصها من الإسبان الأسطول العثماني سنة ١٨١ هـ / ١٥٧٤ م وأصبحت تابعة للدولة العثمانية وتواли عليها البايات، ومن خيرهم مراد باي وتوارثها أباً ناشر وحسين بن علي وبالمثل توارثها أسرته حق المعرق الحديث. وزُرِّ إفريقيَّة التُّونسيَّة - بجانب سلالات البربر العريقة بها - عناصر جنسية كثيرة: فنيقية وقرطاجنة ويهودية وزنجبية ورومانية وألمانية من الواندال وبيزنطية وعربية ومن كان في جيوش العرب من الشعوب الإسلامية وزُرِّلت عناصر أندلسية وتركية وأوروبية مسيحية من كان يأسرهم القراءنة، ومع كل هذه العناصر ظلت للعنصر البربرى القلبة، وظل يفرض عليها شخصيته وهويته. وقُوَّج إفريقيَّة التُّونسيَّة - من قديم - بطيئات الرزق من الزروع وأشجار الزيتون والفاكهة والنخيل، وقُوَّج مراعيها بقطعنان الفنم والأبقار والخيل والإبل. وتكثُر بها الصناعات اليدوية مثل عصر الزيتون ودبغ الجلد وصناعة الزجاج والبلور والخزف والمنسوجات على اختلاف أنواعها والورق وكل ما تحتاج إليه المنشآت المعمارية. وأهلتها هذه المنتجات الصناعية والزراعية وما كان يرد إليها من إفريقيا السوداء لتكون سوقاً تجاريَاً عالمياً. وهيأها كل ذلك لرفه واسع في المطعم والملبس وما يتصل بذلك من كثرة الاحتفالات والأعياد والمنياة بالموسيقى وألات الطرب. وحظيت المرأة في هذا المجتمع بمكانة كريمة.

وكان البربر قدماً وتبين، وزُرِّلت بينهم جماعات من اليهود، وحاولت نشر دينها اليهودي فيهم واستجابت لها أقلية، واستولى الرومان على ديارهم وأخذوا يجاهلون - كما حاولت كنيسة الإسكندرية - نشر الدين المسيحي بها وتأسست بعض الكنائس والأسقفيات، واعتنقه بعض البربر - وخاصة في المدن الشمالية، وظلت في العهد الإسلامي عناصر صقلية مسيحية تنزل بالبلاد، وعناصر أخرى من كان يأسرهم القراءنة من البحر المتوسط. والإسلام هو الدين السماوي الوحد الذي عمَّ - بعد الفتح - إفريقيَّة التُّونسيَّة وجميع البلدان المغاربية لتحريره الشعوب من الظلم والاستعباد ولبساطته ومحوه الفوارق الطبقية بين أفراد الأمة. واختارت إفريقيَّة التُّونسيَّة مذهب مالك الفقهي السنى، وعاش بجانبه المذهب الحنفى حتى نهاية القرن الثالث المجرى، وعاد إلى الظهور أيام الشانين. لم تنجح في إفريقيَّة التُّونسيَّة مبادئ الإيمانيين ولا مبادئ العبيدين الإماماعليية الشيعية، ومن قديم يتكاثر بها الزهاد وكترت فيها - منذ القرن السابع - الطبع المصوفية.

ونشطت المركبة العلمية في إفريقيَّة التُّونسيَّة منذ الفتح، وكان يقودها في أول الأمر الفاقعون بنشرهم للدين الحنيف وتعاليمه، وما نكاد نقبل على القرن الثانى المجرى حتى ينشأ جيل من أنهاء البربر والعرب يطلب المزيد من العلم، ويرحل في طلبه إلى المشرق للقاء أباً حنيفة ومالك

ويحمل مذهبها إلى مدینق القیروان وتونس، ويساعد في ازدهار الحركة العلمية - على المصوّر - جامع أو جامعة عقبة في القیروان وجامع أو جامعة الزيتونة في تونس وما أنشأ المحفصيون من مدارس ومكتبات. وتعنى إفريقيـة التونسيـة بـلـوـمـ الأـوـائـلـ وـيـؤـسـسـ فـيـهاـ الـأـمـيرـ إـبرـاهـيمـ بـنـ أـحـدـ الـأـغـلـبـيـ (٤٨٩ـ٢٧١ـهـ) بـيـتـ الـحـكـمـةـ لـلـعـلـاـيـةـ بـتـلـكـ الـلـوـمـ، وـتـشـهـرـ الـقـیـرـوـانـ بـأـطـيـاءـ كـبـارـ كـانـ لـهـ تـأـثـيرـ عـظـيمـ فـيـ النـهـضـةـ الـفـرـيـقـيـةـ كـمـ تـشـهـرـ بـفـلـكـيـ جـزاـئـرـ كـبـيرـ هوـ عـلـىـ بـنـ أـبـيـ الرـجـالـ كـانـ لـهـ تـأـثـيرـ قـلـيلـ فـيـ عـلـمـ الـفـلـكـ الـأـوـرـبـيـ. وـتـوـسـسـ الـدـوـلـ الـصـنـهـاجـيـةـ مـدـرـسـةـ فـيـ الـكـيـمـيـاءـ، وـيـشـفـعـ فـيـ الـدـوـلـ الـمـفـصـيـةـ كـيـمـيـاـنـيـ هوـ الـتـيـفـاشـيـ، وـتـلـقـيـ فـيـهـ بـأـطـيـاءـ وـرـيـاضـيـنـ مـتـعـدـدـينـ وـبـعـضـ الـجـفـارـقـيـنـ. وـيـكـثـرـ عـلـمـاءـ الـلـغـةـ وـالـنـحـوـ فـيـ الـمـهـدـ الـصـنـهـاجـيـ مـنـ مـثـلـ الـقـيـازـ وـالـمـصـرـيـ، وـيـضـعـ بـنـ عـصـفـورـ أـسـسـ مـدـرـسـةـ نـحـوـيـةـ تـونـسـيـةـ، وـيـقـودـ بـنـ رـشـيقـ بـكـاتـبـهـ «ـالـعـدـدـةـ فـيـ صـنـاعـةـ الـشـعـرـ وـنـقـدـهـ»ـ حـرـكـةـ نـقـدـيـةـ وـاسـعـةـ، وـيـشـهـرـ فـيـ الـقـرـاءـاتـ بـنـ خـيـرـونـ حـاـمـلـ قـرـاءـةـ وـرـشـ عنـ نـافـعـ إـلـىـ موـطـنـهـ، وـلـاـ يـلـيـتـ أـنـ يـظـهـرـ إـمـامـ كـبـيرـ مـنـ أـنـمـةـ الـقـرـاءـاتـ هوـ مـكـيـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ. وـمـنـ أـوـائـلـ الـمـفـسـرـيـنـ عـكـرـمـةـ مـوـلـىـ بـنـ عـبـاسـ وـمـنـ كـبـارـهـ فـيـ الـقـیـرـوـانـ عـلـىـ بـنـ فـضـالـ وـابـنـ بـرـیـزـةـ وـيـكـثـرـ الـمـفـاظـ الـمـدـحـوـنـ وـمـنـ كـبـارـهـ الـقـابـسـيـ فـيـ الـقـرـنـ الـرـابـعـ وـالـمـازـرـيـ فـيـ الـقـرـنـ السـادـسـ، وـيـتـعـاـيشـ فـيـ الـفـقـهـ الـمـذـهـبـيـ: الـمـالـكـيـ وـالـخـنـفـيـ وـفـقـهـاـوـهـاـ فـيـ الـقـرـنـيـنـ الـثـانـيـ وـالـثـالـثـ مـنـ أـمـالـ سـحـنـونـ الـمـالـكـيـ وـعـبـدـ اـفـهـ وـعـبـدـ اـفـهـ بـنـ فـرـوـخـ الـخـنـفـيـ، ثـمـ تـصـبـعـ الـغـلـبـةـ لـلـمـنـهـبـ الـمـالـكـيـ مـنـ أـخـذـ الـمـعـزـ بـنـ بـادـيـسـ النـاسـ وـالـفـقـهـاءـ بـهـ، وـيـعـودـ الـمـنـهـبـ الـخـنـفـيـ إـلـىـ الـظـهـورـ فـيـ عـهـدـ الـشـمـانـيـنـ، وـتـكـوـنـ لـهـ الـكـلـمـةـ الـمـلـيـاـ فـيـ الـفـنـوـيـ وـالـقـضـاءـ. وـكـلـ ماـ كـانـ مـوـضـعـاـ لـلـمـنـاـزـةـ وـالـجـدـلـ مـنـ الـمـذاـبـ الـكـلـامـيـ فـيـ الـمـشـرـقـ اـنـتـقـلـ إـلـىـ الـمـغـرـبـ سـوـاـءـ فـيـ ذـلـكـ مـذاـبـ الـخـوارـجـ وـالـمـرجـنـةـ وـالـمـعـتـلـةـ، وـأـخـذـ الـمـنـهـبـ الـأـشـعـرـيـ يـعـمـ مـنـذـ الـقـرـنـ الـخـامـسـ الـمـهـجـرـيـ. وـنـشـطـتـ الـكـتـابـاتـ الـتـارـيـخـيـةـ فـيـ الـقـیـرـوـانـ عـنـ مـفـازـيـ إـفـرـيقـيـةـ وـالـدـوـلـةـ الـأـغـلـبـيـةـ وـأـمـرـانـهـاـ وـالـدـوـلـةـ الـعـبـيدـيـةـ وـخـلـفـانـهـاـ وـعـنـ عـلـمـاءـ إـفـرـيقـيـةـ وـتـارـيـخـمـ وـتـارـيـخـ الـمـغـرـبـ وـعـنـ شـعـرـانـهـاـ وـعـنـ كـانـ بـهاـ مـنـ الـزـهـادـ وـكـبـارـ الـعـلـمـاءـ وـعـنـ دـوـلـةـ بـنـ عـبدـ الـوـادـ بـلـمـسـانـ، وـلـاـ بـنـ خـلـدونـ تـارـيـخـ الـعـظـيمـ وـمـقـدـمـتـهـ الـنـفـيـسـةـ، وـلـيـقـاتـاـ بـعـدـ كـتابـ الـمـهـنـاتـ عـنـ الدـوـلـةـ الـمـفـصـيـةـ وـكـتابـ بـنـ أـبـيـ دـيـنـارـ: الـمـؤـنـسـ فـيـ أـخـيـارـ إـفـرـيقـيـاـ وـتـونـسـ، وـكـتابـ السـرـاجـ: الـمـحـلـ الـسـنـدـيـةـ وـكـتابـ حـسـنـ خـوـجـهـ: ذـيـلـ بـشـانـرـ أـهـلـ الـإـيمـانـ بـفـتوـحـاتـ آلـ عـتـمـانـ، وـفـيهـ تـرـجـاتـ لـفـقـهـاءـ الـبـلـدـانـ الـكـبـرـاءـ.

وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـ الـلـغـةـ الـبـرـيـةـ ظـلتـ تـعـاـيشـ لـفـتـنـيـنـ مـتـحـضـرـتـينـ هـاـ الـفـيـنـيـقـيـةـ وـالـلـاتـيـنـيـةـ فـاـنـهـاـ لـمـ تـتـحـولـ قـدـعاـ إـلـىـ لـفـةـ مـتـحـضـرـةـ لـهـ أـبـجـديـتـهاـ وـكـتـابـانـهـاـ الـتـارـيـخـيـةـ، وـكـانـ مـنـ يـتـحـضـرـ مـنـ الـبـرـيـرـ أـيـامـ الـفـيـنـيـقـيـنـ يـكـبـ يـلـقـتـهـمـ، وـبـالـمـثـلـ أـيـامـ الـرـومـانـ، وـكـثـيـرـونـ مـنـهـمـ كـانـواـ يـتـقـنـونـ الـلـاتـيـنـيـةـ نـطـقاـ وـكـاتـبـةـ، وـلـظـلتـ مـنـ ذـلـكـ بـقـيـةـ بـعـدـ الـفـتـحـ، وـسـرـيـعـاـ أـخـذـتـ الـبـرـيـرـةـ لـفـةـ الـشـعـبـ وـالـلـاتـيـنـيـةـ لـفـةـ بـعـضـ الـخـاصـةـ تـرـازـيـلـانـ الـأـلـسـنـةـ وـتـحـلـ مـحـلـهـاـ الـعـرـبـيـةـ حـتـىـ إـذـاـ كـانـ الـهـجـرـةـ الـأـعـرـاـيـةـ الـكـبـرـىـ فـيـ مـنـصـفـ

القرن الخامس المجري اختلط البربر بالأعراب وكُنُوا شعباً عربياً واحداً في حياته ولقته ودينه. وظلت الكثرة من الأعراب تنطق بالفصحي نطقاً سليماً حتى القرن السابع المجري، وسرت إليهم عدوى العامية فهجروا الإعراب، ومع ذلك ظلت الفصحي لغة العلم والأدب الرفيع، وغذتها المهاجرون الأندلسيون في القرن السابع ثم في القرن التاسع والحادي عشر بعذاء قويّم به فيها روحًا وغير قليل من الانتعاش. ويذكر الشهراوي في إفريقية التونسية منذ ولادة يزيد بن حاتم المهيبي في أواسط القرن الثاني المجري، وكان أمراء الدولة الأغلبية وخلفاء الدولة العبيدية شعراً وأجزلوا العطايا لمناديهم، وينهض الشعر في زمن الدولة الصنهاجية، ويقال إن مادحى المز بن باديس بلغوا المائة عدداً، وكان ابنه توم شاعراً ومقصداً للشعراء من كل بلد مغرب وشرقى وكان ابنه يحيى وحفيده على وابنه الحسن غایة في الجود فقصدتهم غير شاعر، ولابن حديس وأمية بن أبي الصلت الأندلسى فيهم مدائح رائعة، ويتکاثر الشعراء حول أمراء الطوائف مثل سلامة بن فرحان شاعر أبي الحملات أمير مدينة قابس والتراب السوسي شاعر جباره بن كامل أمير مدينة سوسة. ومن شعراً هذا المعهد على المصري وعبد الله الشقراطي. ويزدهر الشعر في المهد المخصوص ويرفرفه جدول أندلسى، ومن شعراً أنه جابر بن عنان وابن عربة وابن حسينة وابن السماط المهدوى والليلانى وغيرهم كثير، ومنذ القرن الثامن المجري يزاحم الشعر الشعبي الملحون الشعر، وبهاجر كثير من الأندلسيين إلى إفريقية التونسية في القرن الحادى عشر ويسترد الشعر شيئاً من حروريته ونشاطه في الم悲哀، وخاصة منذ عهد الأسرة الحسينية.

وتظهر في كل غرض من أغراض الشعر طائفة من الشعراء المبدعين، ودائماً كانت سوق المديح نافقة، ومن أعلامه الذين ترجمنا لهم على بن محمد الإيادى، والكاتب الرقيق وابن رشيق والتراب السوسي وابن عربة وبعد الله التجانى وعلل التراب والوراغى. ومن أعلام الفخر المهيدين قيم بن المز وحمد الرشيد الحسيني. ومن أعلام الغزل على المصري وأحد الليلانى وحمد ماضور. ومن أعلام شعر الغربة والشكوى والمعتاب ابن عبدون وحمد بن أبي الحسين. ومن أعلام شعر الطبيعة عبد الواحد بن فتوح وابن أبي حديدة وأبو علي بن إبراهيم. ومن أعلام شعر الرثاء للأفراد والمدن والدول ابن شرف القبروانى وحمد بن عبد السلام. ومن أعلام الوعظ أحد الصواف، ومن أعلام التصوف محرز بن خلف، ومن أعلام المديح النبوى الشقراطى والسماط المهدوى. وكل هؤلاء الشعراء حاولت تبيان شخصياتهم، مع عرض أهم روائعهم الشعرية.

وينهض النثر في تونس على لسان الولاية والقواد، وتأسست بها - مبكرة - المروءون، وينهض أبو اليسر الشيباني رئيس ديوان الانشاء في عهد الأغالبة بالكتابة الديوانية وكون فيها

مدرسة كانت لها تقاليد متينة، وفي صبيح الأعشى رسالة ديوانية بلغة من المهد المفعم، وكترت الرسائل الشخصية، وهي مسجوعة، وبها - في الحقب المتأخرة - كبير من التكلف، وتلقانا بعض مقامات، وهي لا تتناول حياة أديب متسلول وخدعه الكثيرة بلذب الساعين، إنما هي موضوعات أدبية، لبيان التفنن في الكتابة الأدبية، وترجمت ثلاثة من الكتاب البارعين أبي المسر الشبيق رئيس ديوان الإنشاء في عهد الأغالبة وإبراهيم المصري صاحب زهر الأداب، وأiben خلدون الكاتب التونسي الفذ.

## ٣

وتحدثت - في القسم الثالث من هذا الجزء - عن جزيرة صقلية وجغرافيتها وتاريخها القديم إلى أن فتحها العرب أيام الأمير زيادة ألق الأغلبي سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م وظلوا طويلاً يفتحون مدناً ومحصوناً وينشرون العربية والدين الحنيف في ربوعها، واستولوا على مالطة سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٨ م ونشروا بها - مثل صقلية - الإسلام والمسيحية، ولا يزال أهلها - حتى اليوم - يتكلمون لغة عربية تونسية دخلها - مع طول الزمن - كثير من التعريف - وغزوا قلوة في جنوب إيطاليا، وظل للدولة الأغلبية فيها شطر بـل أشطار طوال مدة حكمهم، وولى على صقلية للدولة العبيدية ولـأـسـامـوـاـ السـيـرـةـ إلىـ أـنـ وـلـيـهـاـ لـلـخـلـيقـةـ الـعـبـدـيـ النـصـورـ قـانـدـ منـ خـيرـةـ قـوـادـهـ هوـ الحـسـنـ بنـ عـلـيـ بنـ أـبـيـ الـحـسـنـ الـكـلـبـيـ سنةـ ١٤٧ هـ/٣٣٦ مـ فـجـعـلـهـ رـوـاـيـةـ فـيـ أـبـانـيـهـ، وـسـاءـ حـكـمـهـ فـيـ الـقـرـنـ الـخـامـسـ الـمـجـرـىـ، وـنـارـتـ صـقـلـيـةـ عـلـيـهـمـ، وـاستـحـالـتـ إـلـىـ إـمـارـاتـ طـوـافـ لـكـلـ بـلـدـ أـمـيـرـ، وـاخـتـارـتـ بـلـرـ قـائـدـاـ مـنـ قـوـادـ الثـورـةـ هوـ أـبـنـ الثـمنـةـ، وـكـانـ شـؤـمـاـ عـلـىـ الـجـزـيرـةـ كـلـهـاـ فـإـنـهـ تـحـارـبـ مـعـ أـمـيـرـ قـصـرـيـانـ وـهـنـ، فـاستـخـاثـ بـالـتـورـمانـ فـيـ قـلـوـةـ بـجـنـوبـ إـيطـالـيـاـ، وـأـغـانـهـ رـوـجـارـ الـأـوـلـ، وـسـرـعـانـ مـاـ اـسـتـولـ عـلـىـ بـلـرـ مـنـ ٤٦٤ هـ/١٠٧٢ مـ وـمـحـاـولـ الـاسـتـيلـاـ عـلـ بـقـيـةـ مـدـنـ صـقـلـيـةـ وـتـمـ لـهـ ذـلـكـ فـيـ سـنـةـ ٤٨٤ هـ/١٠٩١ مـ وـيـدـورـ الـعـامـ فـيـسـتـولـ عـلـ مـالـطـةـ سـنـةـ ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ مـ، وـرـأـيـ شـعـبـ صـقـلـيـةـ الـعـربـ يـفـوقـ شـعـبـهـ مـدـنـيـةـ وـحـضـارـةـ وـأـنـقـانـاـ لـلـزـرـاعـةـ وـلـكـيرـ منـ الصـنـاعـاتـ الـبـيـوـيـةـ فـأـخـذـ يـصـانـعـهـ لـلـإـفـادـهـ مـنـ التـكـيـلـ بـهـ فـيـ صـورـ شـقـيـ، وـحـاـولـ اـبـنـ رـوـجـارـ الـثـانـيـ وـحـفـيـدـهـ غـلـيـومـ الـأـوـلـ التـخـيفـ مـنـ هـذـاـ التـكـيـلـ الـفـاشـمـ، وـلـكـنـ ظـلـ الـاضـطـهـادـ قـائـمـاـ كـمـ يـصـورـ ذـلـكـ اـبـنـ جـبـيرـ فـيـ رـحـلـتـهـ حـينـ زـارـ صـقـلـيـةـ أـيـامـ غـلـيـومـ الـأـوـلـ، وـازـدـادـ الـاضـطـهـادـ ضـرـاوـةـ حـينـ اـسـتـولـ عـلـ الـجـزـيرـةـ أـبـاطـرـةـ الـأـلـمـانـ مـنـذـ سـنـةـ ٥٩١ هـ/١١٩٤ مـ وـاسـتـفـاثـ أـهـلـهـ بـالـمـسـتـصـرـ الـخـفـيـةـ سـنـةـ ٦٤٧ هـ/١٢٤٩ مـ فـرـاسـلـ فـرـدـيـكـ الـثـانـيـ وـافـقـ مـهـ عـلـ إـجـلـاتـهـ إـلـىـ إـفـريـقـيـةـ الـتـونـسـيـةـ، وـأـجـبـرـ فـرـدـيـكـ مـنـ بـقـيـ مـالـطـةـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ عـلـ مـيـارـحـتـهـ إـلـىـ مـدـيـنـةـ أـمـالـفـيـ Amalfiـ جـنـوبـ إـيطـالـيـاـ وـكـانـ صـقـلـيـةـ مـوـزـعـةـ بـعـدـ الفـتـحـ الـعـربـيـ إـلـىـ ثـلـاثـ وـلـاـيـاتـ كـبـيرـةـ، وـلـكـلـ وـلـاـيـةـ وـالـ

يدبرها ويعده مساعدون وكل منهم يسمى قائد ولكل ولاية قاض أو قضاة، وعامل المسلمين المسيحيين معاملة سمعة إلى أبعد الحدود، وحافظوا لهم على كنائسهم وقوانينهم الدينية والمدنية ومحاكمهم الخاصة. وكان بكل ولاية مجموعة من الدواوين للإشراف على نظام الحكم، ومن أهمها ديوان المحاسبة القائم على جمع الفرائض. وكانت صقلية ملأى بالزرع وأنشجار الزيتون والفاكهه وبالفن والخيول، وكانت الصناعات مزدهرة بها وخاصة صناعة المنسوجات وصناعة الورق التي انتقلت إليها من القبروان ونقلتها إلى أوروبا لتألم - فيها بعد - جوتيرج - اختراع الطباعة. ونلتقي فيها ببعض الزهاد مثل القاضيين ميمون وابن أبي عمرز وببعض من ينزعون في نسائهم منزع التصوف مثل أبي القاسم عبد الرحمن البكري.

وقد فتح النورمان صقلية الإسلامية حرباً وفتحتهم حضارياً، مما جعل ملوكها يكتبون على تعلم العربية ليقرروا ذخائرها العلمية، وتسلموا من المسلمين شئون الزراعة والصناعة ونظمهم الإدارية والديوانية، وأخذوا العربية في مراسيهم الحكومية، ومع ذلك لم تكن إقامة المسلمين لشعائرهم الدينية مكفولة وساموهم غير قليل من المسح والاضطهاد بشهادة ابن جبير لما شاهده في الجزيرة. ودانوا تنزل الثقافة الإسلامية البلدان المفترحة مع الجيوش العربية، وهو ما حدث سريعاً في صقلية، وكان بعض أبنائها لا يكتفون بما يأخذون عن شيوخها، فكانوا يرحلون - استزادة في العلم - إلى القبروان ومدُوا رحلتهم أحياناً إلى الشرق، ورحل إليهم بعض العلماء القبروانيين والمشارقة، ويقول ابن حوقل إنه كان في بلرم وحدها مائة مسجد وثلاثمائة معلم. وعُنيت صقلية بعلوم الأوائل، وكان نصف سكانها مسيحيين كانوا فتنين: فئة تتكلم اللاتينية وفئة تتكلم الإغريقية، وكان بين قساوستها من يستطيع الترجمة من اللاتينية والإغريقية إلى العربية مما جعل الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبي حين أسس بيت الحكمة في عاصمته رقاده وعنـي فيه بعلوم الأوائل يستعين ببعض الرهبان الصقلين في ترجمة بعض المصنفات اللاتينية في العلوم الرياضية إلى العربية، ونظل نسمع عن إتقان بعض أطبائها من العرب للغة الإغريقية وعن تزول بعض متفلسفة الأندلس بها، وتتردد في الكتب أسماء بعض من كانوا فيها من الأطباء والرياضيين والمهندسين والفلكيين.

وعُنيت صقلية برواية الدواوين وأمهات الكتب الأدبية كما عُنيت بالعلوم اللغوية واشتهر من لغوييها ابن البرُّ الذي رحل إلى مصر وحمل منها كثيراً من دواوين الشعراء وأسس بها مدرسة لغوية خصبة، ومن أهم تلاميذه ابن مكي صاحب كتاب تتفيف اللسان، وزنلها ابن رشيق، وقاد فيها بكتابه العمدة في صناعة الشعر وقاده حرفة أدبية نقدية مشمرة. ونشئت بصفقية الدراسات الدينية ومن كبار قرائتها في القرن الرابع محمد بن خراسان، ومن كبار مفسريها ابن ظفر، ومن كبار محدثيها عتيق السمنطاري ومن فقهائها المهمين البراذعي

ومحمد بن يونس التميمي وعبد الحق بن محمد القرشي. وظلت الحياة العلمية مطردة النبوء في عهد التورمان، وكانتوا يهتمون خاصة بعلوم الأولئ، ويكتاثر في عهدهم من ينعت بأنه رياضي أو فلكي أو طبيب. واستدعي روجار الثاني الجغرافي العربي الإدريسي ليصنف له كتابا في الجغرافيا، فألف له كتابين جغرافيين: كبيراً وصغيراً وضمنهما بعض الغرائب، ورسم له خريطة كبيرة للعالم على كرة ضخمة من الفضة. وكان أولى للإدريسي أن يقدم هذه الأعمال الجغرافية البدعة لحاكم عربي في عصره لا لحاكم تورماني. وتظل العلوم اللغوية والإسلامية ناشطة في العهد التورماني، غير أن علماء أعلاماً كباراً بازحوا صقلية فراراً من الظلم التورماني مثل ابن القطاع الصقلي نزيل القاهرة وإليها حمل عن أسنانه ابن البر معجم الصحاح للجوهرى، ومثل ابن الفحאם أحد أئمة القراءات نزيل الإسكندرية، ومثل ابن ظفر مفسر القرآن الكريم نزيل حماة بالشام ومثل الإمام الفقيه والحافظ الكبير المازرى نزيل القيروان والمهدية.

ويزدهر الشعر بচقلية في عهد بنى أبي الحسين الكلبيين: ويسجل لها ابن القطاع مائة وسبعين شاعراً في كتابه: «الدرة الخاتمة في المختار من شعراء لمجزرة»، غير أن الكتاب سقط من يد الزمن فلم يصلنا، ونقل عنه الماد في المختبرة ترجم لسبعة وأربعين شاعراً، وأضاف إليهم البلتوبى بن أبي البشر، كما أضاف إلىهم اثنى عشر شاعراً من كتاب ابن بشرون المهدوى: «المختار من النظم والنثر لأفضل أهل مصر». ونظم شعراً صقلية في مختلف أغراض الشعر العربي، وعرضت ذلك مفصلاً مع الترجمة في كل غرض لأهم شعرائه، وقد ترجمت في المديح لابن الخطاط وفي الفزل للبلتوبى وفي الفخر لأبى الحسن الطوبي وفي الوصف لأبى عبد الله بن الطوبي وفي الرثاء لمحمد بن عيسى ولغيرهم في الزهد والوعظ وفي التفعع والحنين واللوعة ولابن حديث وأشعاره الرائعة.

وتحدثت عن النثر وكتابه بচقلية، ويدل تنويه كتب الترجم بالكتابها من مقامات ورسائل على أنها حظيت فيها بأعمال قيمة، غير أن الزمن أضاعها، واحتفظ ابن بشرون في ترجمته لشعرائها ببعض رسائلهم الشخصية وعرضتها مع التعليق عليها، وترجمت لكتابين من كتابها المدععين هما ابن الصباغ وابن ظفر. وأضفت ملحاً عن زيارة ابن قلاقيل الإسكندرى لصقلية وأشعاره هناك.



أ. علاء الدين شوقي

[www.lisanarab.com](http://www.lisanarab.com)

# فهرس

## الصفحة

١٧ - ٥	مقدمة .....
١٠٥ - ١٩	القسم الأول - لبيبا .....
٤٤ - ٢١	الفصل الأول: المغرافية والتاريخ .....
٢١	١ - المغرافية .....
٢٣	٢ - التاريخ القديم .....
٢٦	٣ - من الفتح العربي إلى منتصف القرن الخامس المجري .....
٣٢	٤ - من المغيرة الأغراوية إلى منتصف القرن العاشر المجري .....
٣٩	٥ - في المهد المثاني .....
٥٩ - ٤٥	الفصل الثاني: المجتمع الليبي .....
٤٥	١ - عناصر السكان .....
٤٧	٢ - المعيشة .....
٥٠	٣ - الدين .....
٥٢	٤ - الإباضية والشيعة .....
٥٣	(أ) الإباضية .....
٥٥	(ب) الشيعة: الدعوة العبيدية .....
٥٧	٥ - الزهد والتصوف .....
٧٧ - ٦٠	الفصل الثالث: الثقافة .....
٦٦ - ٦٠	١ - الحركة العلمية .....
٦٠	(أ) فاتحون وناشرون للإسلام .....
٦٢	(ب) الكاتب .....
٦٢	(ج) المساجد .....
٦٣	(د) الرحلة في طلب العلم والوافدون .....
٦٣	(هـ) المدارس .....
٦٤	(و) الروايا .....
٦٥	(ز) خود في الحركة العلمية .....
٧٠ - ٦٦	٢ - علوم الأولي - علوم اللغة والنحو والمروض .....
٦٦	(أ) علوم الأولي .....
٦٦	(ب) علوم اللغة والنحو والمروض .....

الصفحة	
٣ - علوم القراءات والتفسير والمديح والفقه والكلام	٧٠
٤ - التاريخ	٧٧
الفصل الرابع: الشعر والثراء	١٠٥
١ - تعرّب ليبيا	٧٨
٢ - نشاط الشعر والشعراء	٨٨
خليل بن إسحق	٨٥
٣ - الشعراء في عصر الدولة الحفصية	٩٧
(أ) فتح بن نوح الإيابي	٨٩
(ب) ابن أبي الدنيا	٩٢
(ج) ابن معمر	٩٤
٤ - الشعراء في المهد الشماقي	١٠٣
(أ) البُهْلُول الطرابلسي	٩٩
(ب) أحمد بن عبد الدائم	١٠٢
٥ - النثر	١٠٥
القسم الثاني - تونس	٢٢٧
الفصل الأول: المعرفة والتاريخ	١٠٩
١ - المعرفة	١١١
٢ - التاريخ القديم	١١٤
٣ - الفتح - بقية الولاية - الدولة الأغلبية	١١٤
(أ) الفتح	١١٤
(ب) بقية الولاية	١١٧
(ج) الدولة الأغلبية	١٢١
٤ - الدولة العبيدية - الدولة الصنهاجية - الهجرة الأغربية	١٢٤
(أ) الدولة العبيدية	١٢٤
(ب) الدولة الصنهاجية	١٢٦
(ج) الهجرة الأغربية	١٢٨
٥ - دولة الموحدين - الدولة الحفصية	١٣٠
(أ) دولة الموحدين	١٣٠
(ب) الدولة الحفصية	١٣٢
٦ - المهد الشماقي	١٣٧
الفصل الثاني: المجتمع التونسي	١٦٥
١ - عناصر السكان	١٤١

## الصفحة

٢ - المعيشة .....	١٤٥
٢ - الرقة - المطعم والمليس - الأعياد - الموسيقى - المرأة .....	١٥١
(أ) الرقة - المطعم والمليس .....	١٥١
(ب) الأعياد .....	١٥٢
(ج) الموسيقى .....	١٥٤
(د) مكانة المرأة .....	١٥٦
٤ - الدين .....	١٥٨
٥ - الزهد والتضوف .....	١٦٢
<b>الفصل الثالث: الثقافة .....</b>	<b>١٦٦</b>
١ - المركبة العلمية .....	١٧٤
(أ) فاقعون بمحاجدون معلمون .....	١٦٦
(ب) النشأة العلمية .....	١٦٨
(ج) دور العلم: الكتاتيب - المساجد - جامعة عقبة والزبيونة -	
٢ - بيت الحكمة - الزوايا - المدارس .....	١٧٠
(د) المكتبات .....	١٧٣
٢ - علوم الأولئ .....	١٧٥
٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والقد .....	١٨٠
٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام .....	١٨٨
٥ - التاريخ .....	١٩٩
<b>الفصل الرابع: نشاط الشعر والشعراء .....</b>	<b>٢٠٢</b>
١ - تعریب القطر التونسي .....	٢٠٢
٢ - كثرة الشعراء .....	٢٠٨
٣ - أغراض الشر وشعراء .....	٢١٦
شعراء المدح .....	٢٣٦
على بن محمد الإيمادي .....	٢٢٥
الكاتب الرقيق إبراهيم بن القاسم التمرواني .....	٢٢٦
ابن رشيق .....	٢٢٧
التراب السوسي .....	٢٢٨
ابن عُرُبية .....	٢٣٠
عبد الله التجان .....	٢٣١
على الغراب الصفاقسي .....	٢٣٣
محمد الورغنى .....	٢٣٥

## الصفحة

٤ - شراء الفخر والمجاهد ..... ٢٤٤ - ٢٣٧
٢٤١ ..... غيم بن المعز الصنابجي
٢٤٣ ..... محمد الرشيد المسني
٥ - شراء الغزل ..... ٢٥٠ - ٢٤٦
٢٤٧ ..... على المصري
٢٤٨ ..... أحمد اللبانى
٢٤٩ ..... محمد ماضور
الفصل الخامس: طوائف من الشراء ..... ٢٠١ - ٢٥١
١ - شراء القربة والشكوى والعتاب ..... ٢٦٢ - ٢٥١
٢٥٨ ..... ابن عبدون
٢٦٠ ..... محمد بن أبي الحسين
٢٧٣ - ٢٦٢ ..... - شراء الطبيعة ..... ٢٦٣ - ٢٦٢
٢٦٩ ..... عبد الواحد بن فتوح الزوّاق
٢٧١ ..... ابن أبي حديدة
٢٧٢ ..... أبو علي بن إبراهيم
٢٨٧ - ٢٧٤ ..... ٣ - شراء الرثاء ..... ٢٨٧ - ٢٧٤
(أ) رثاء الأفراد ..... ٢٧٤
٢٨٠ ..... (ب) رثاء الدين والدول
٢٨٢ ..... ابن شرف القهرواني
٢٨٥ ..... محمد بن عبد السلام
٢٨٧ ..... ٤ - شراء الوعظ والتصوف ..... ٢٨٧
(أ) شراء الوعظ ..... ٢٩١ - ٢٨٧
٢٩٠ ..... أحد الصواف
(ب) شراء التصوف ..... ٢٩٧ - ٢٩١
٢٩٣ ..... حمجز بن خلف
٢٩٥ ..... أبو الفضل بن التحوى
٥ - شراء المذاق النبوية ..... ٣٠١ - ٢٩٧
٢٩٨ ..... عبد الله الشقراطيبي
٣٠٠ ..... ابن السساط المهدوي
الفصل السادس: النثر وكتابه ..... ٣٢٢ - ٣٠٢
١ - المخطب والوصايا ..... ٣٠٢
٢ - الرسائل الديوانية ..... ٣٠٥

## الصفحة

٢ - الرسائل الشخصية .....	٣٠٩
٤ - المقامات .....	٣١٤
٥ - كبار الكتاب .....	٣١٦
أبو اليسر الشيباني .....	٣١٦
إبراهيم الحصري .....	٣١٩
ابن خلدون .....	٣٢١
 القسم الثالث - صقلية .....	٤٢١ - ٣٢٩
 الفصل الأول: الجغرافية والتاريخ .....	٣٤٨ - ٣٣١
١ - الجغرافية .....	٣٣١
٢ - التاريخ القديم .....	٣٣٢
٣ - الفتح العربي وعهد الدولة الأغالية .....	٣٣٤
(أ) الفتح العربي .....	٣٣٤
٤ - المهد العبدي - عهد بن أبي الحسين الكلبيون .....	٣٣٩
٥ - التاريخ التورماني - أحوال المسلمين .....	٣٤٣
(أ) التاريخ التورماني .....	٣٤٣
(ب) أحوال المسلمين .....	٣٤٦
 الفصل الثاني: المجتمع الصقل والثقافة .....	٣٦٩ - ٣٤٩
١ - المجتمع الصقل في المهد العربي .....	٣٤٩
٢ - المجتمع الصقل في المهد التورماني .....	٣٥٤
٣ - الثقافة في المهد العربي .....	٣٥٨
٤ - الثقافة في المهد التورماني .....	٣٦٥
 الفصل الثالث: نشاط الشعر والشعراء .....	٣٨١ - ٣٧٠
١ - نشاط الشعر .....	٣٧٠
٢ - شعراء المدح .....	٣٧٢
٣ - شعراء الفزل .....	٣٧٨
٤ - شعراء الفخر .....	٣٨٣
أبو الحسن الطوبي .....	٣٨٤
٥ - شعراء الوصف .....	٣٨٥
أبو عبد الله بن الطوبي .....	٣٨٧
 الفصل الرابع: طوائف من الشعراء .....	٤٠٨ - ٣٩٠
١ - شعراء الرثاء .....	٣٩٠
محمد بن عيسى .....	٣٩٢

## الصفحة

٢ - شعراء الزهد والوعظ ..... ٣٩٤
ابن مكي ..... ٣٩٧
٣ - شعراء التفعع والحنين واللوعة ..... ٣٩٨
ابن حذيف ..... ٤٠٠
الفصل الخامس: النثر وكتابه ..... ٤٢١ - ٤٠٩
نشاط النثر ..... ٤٠٩
ابن الصياغ الصقل ..... ٤١٢
ابن ظفر الصقل ..... ٤١٦
أنباء نجفاء الأبناء ..... ٤١٧
(١) سلوان المطاع في عدوان الآباء ..... ٤١٩
(ب) ملحق : ابن فلادس الإسكندرى في صقلية لمهد علوم الثاقف ..... ٤٢٨ - ٤٢٢
خاتمة ..... ٤٣٧ - ٤٢٩

